ف.م. دوستويفسكي

عودة الإنسان

ترجمة

د. ثائر زين الدين



دار علاء الدين

Ф.М.Достоевский

Возвращение человека

ف. م. دوستويفسكي

عودة الإنسان

ترجمة

د. ثائر زين الدين



منشورات دار علاء الدين

- عودة الإنسان.
- تأليف: ف. م. دوستويفسكي.
- ترجمة: د. ثائر زين الدين.
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- هيئة التحرير في دار علاء الدين:

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
- المتابعة الفنية والإخراج: أُسامة راشد رحمة.
- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
- الغلاف: م. محمد طه.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

«... عبر آتون الشك العظيم

ارتفع تمجيدي الفرح...»

«خبرة عن الإنسان»

في القرن الثامن عشر نالت قصيدةُ الشاعر الإنكليزي المتنّور ألكسندر بوب الفلسفيّةُ شهرةً واسعةً، وفي روسيا ضمناً، من خلال ترجمتها إلى الروسيّة تحت عنوان «خبرة عن الإنسان» ونستطيعُ عن حق أن نعدَّ إبداعَ ف. م. دوستويفسكي «خبرة عن الإنسان» هائلةً - إنّها بحثٌ فنّيٌ في إنسان القرنِ التاسع عشر XIX، في جوهرِهِ المثالي، في قدَرِهِ أو مصيرِهِ التاريخي، في حاضرِهِ ومستقبلِهِ.

عندما تحيطُ بمسيرةِ دوستويفسكي الإبداعية - بدءاً من رسالته إلى أخيه، المكتوبة في إحدى سنواتِ شبابه مروراً براويته الأولى «الفقراء» وصولاً إلى «الأخوة كارامازوف» و«يوميّات الكاتب» الكانونيّة عام ١٨٨١، وملاحظاته في دفتر ملاحظاتِهِ الموضوع في الأشهر الأخيرة من حياته - تُدهشُكَ أولاً عظَمةُ أفكاره الفلسفيّة، واندفاعها، هذهِ الأفكار القلقة، الباحثة، الجامحةِ والعاصية.

وخلال ذلك يسحرُكَ في الكاتب غوصُهُ في العالم الكبير للثقافتين القوميّة والإنسانيّة، تسحركَ الخصوصيّة العميقة لانفعالاتِهِ ذات الطابع الشعري، قلقُهُ الرومانسي الشديد بشأن بناء عالمِهِ الخاص في مستقبل

الأيام. وكبطل قصتهِ الطويلة «ربّة البيت» - أوردينوف «أنتَجَ أفكاراً غنيّة عن عوالم كاملة»، عوالم - غالباً - متضادة قطبياً، تقع تحت تأثير صراع جبار وكل من تلك العوالم «يتأسس، روحياً ودنيوياً حول المركز - الإنسان»، فمن هو إذاً إنسانُ دوستويفسكي؟

إنّه الإنسان الفاقدُ كمالهَ، وحَدَتَهُ، الإنسانُ في حالةِ عدم التوافق، التنافر، حالةِ عدم الانسجامِ مع حقيقتهِ ذاتها. إن مثل هذهِ النظرة توقظُ شعوراً مُزدَوجاً - ابتهاجاً يرقى حتى الحماسة العالية في الإحساس بـ «عظمة الحياة»، وألماً لا يُحتَملُ، يصلُ حَدَّ الكرهِ أو البغض لقباحةِ «وجهِ هذا العالم».

إن رسائل دوستويفسكي المبكّرة، بصياغاتها، التي تنطوي على ملامح الأدب الرومانسي وشيء من التجريديّة - على الرغم من حماستها المفرطة - تكشفُ لنا أفكار الكاتب المتوتّرة والمأساوية عن مكانة الإنسان في العالم الواقعي، عن معنى الوجود الإنساني. «لا أعلم هل تهدأُ يوماً ما أفكاري الحزينة؟

حالة واحدة تتملّكني، متعلقةً بمصير الإنسان: إن جَوَّهُ الروحي يتكّونُ من التقاءِ الأرض بالسماء، فأي طفل غير شرعي هو الإنسان، لقد انتُهكَ القانونُ الروحي للطبيعة...»، إن دوستويفسكي يُسقِطُ إحساسَهُ الخاص بالعالم على تراجيديا هاملت الشكسبيريّة، التي قدَّمَها بقراءةٍ رومانسية فريدة في ذلك الوقت بافل موتشالوف على خشباتِ مسارحِ موسكو: «ترى قشرةً قاسيةً واحدة، تلك التي تحتها تعاني البشريّة، تعلمُ أن انفجارَ إرادةٍ واحداً قادرٌ على كسرِها، لتمتزجَ البشريّةُ بالخلود، تعلم ذلك وتصبح وكأنك الأخير من المخلوقات... [....] يا للهول! ما أضيقَ روح الإنسان [...] الروحُ يخنُقها الحزنُ بقوّة، إلى درجةٍ تمنَعُها من فهمِه، كي لا تمزّقَ ذاتَها».

إن هذا المفكّر الشاب الدالِفَ على إبداع شكسبير سيسميهِ الناسُ بعد مرورِ سنواتٍ غير قليلة «نبيّاً»، مُباركاً من الرب «كي يكشف أمامَ العالمِ أسرار الإنسان»، وهكذا يبَحْثُ دوستويفسكي في شبابهِ أولاً عن كُنهِ تلك الأسرار في الأعمال الأدبيّة لكبار الفنانين، فيقرأُ أعمالَ غوفمان كلّها، يقرأُ «فاوست» غوته، «الألماني والروسي»، يعيشُ روايات بلزاك، التي تتميّز بأنها «إبداعات العقل الكوني».

نقابلُ مَرّات عديدة في رسائل دوستويفسكي المبكرة كلمةَ «الكشف»، «اكتشاف، حل» وتكون النتيجةُ «أن الإنسان سرٌ يجب كشفُه، يجبُ حَلُّهُ، فإذا بقيتَ تحاول كشفَهُ طوال حياتك، فلا تَقلْ إنك أضعتَ وقتك. أنا منشغلٌ بهذا السر، لأنني أريدُ أن أكونَ إنساناً» - «من رسالة إلى أخيه في ١٦ آب ١٨٣٩».

والكاتبُ، حقيقةً، وعلى امتداد حياته، عملَ على كشفِ هذا السر. وقد أعلنَ في دفترِ مذكراتِه ١٨٨٠-١٨٨١: «بواقعيّة مطلقة أقول: أن نجدَ في الإنسان الإنسانَ، هذهِ ميزة روسيّة (في الغالب الأعم)، وفي هذا السياق أنا طبعاً أنتمي إلى شعبي - لأن اتجاهي ينبُعُ من أعماق الروح المسيحيّة للشعب - وإن كنتُ غير معروفٍ للشعب الروسي الحالي، فسأصبحُ مَعروفاً للشعب القادم». ويقول بعد ذلك: «يسمونني عالمَ نفسٍ، وهذا غير صحيح، أنا واقعي فحسب، واقعي بالمعنى الراقي للكلمة، أي أنني أعكسُ أعماقَ الروح البشرية كلها».

ويحدثُ انكسارٌ عميق في وعي دوستويفسكي الشاب، عندما ينكشفُ لَهُ «سرُّ» الإنسان عن صورةٍ أخرى، عندما يمتلئ «وجهُ ذلك العالم» بمحتوى اجتماعي جديد، وتكتسبُ علاقةُ الإنسان بالعالم طابعاً جديداً. «ورحتُ أمعنُ النظر، وفجأةً رأيتُ وجوهاً ما.. غريبة، كلُّها كانت غريبة، عجيبة، أجساماً قصصيّة بشكلٍ كامل، ليست

دونكيشوتيّة، أو بوزيريّة، ولكنها تماماً لمواطنين من الدرجة التاسعة، أحدهم صعّرَ خَدّه قُبالتي، مُستتراً خلفَ تلكَ الكتلة الخياليّة من البشر، ساحباً خيطاً ما... نابضياً، فتّحركت تلك الدُمى، وراحَ هو يضحك.. ويضحك..»

هل بإمكان ذاك الإنسان، الإنسان الدُمية، العبد المطيع لذلكَ المخلوق الخيالي، أن يحفظَ إنسانيتَهُ؟ يمكنُ أن يُكشفَ الغطاء عن «سر الإنسان» - من وجهة نظر دوستويفسكي - فقط عندما تصبحُ حاجة الإنسان الرئيسة والطبيعيّة للحريّة مفهومةً. كما كتَبَ ذات يوم الناقد فاليريان مايكوف المعاصر لدوستويفسكي: «عظمة الإنسان الحقيقيّة تقعُ في تضاد مُباشر مع علاقته بالظروف الخارجيّة»[1]، فها هو ذا مكار ديفوشكين بطل «الفقراء»، أوّل «رواية اجتماعية» لدوستويفسكي يتحوّلُ تحتَ تأثير الاندفاعاتِ العفويّة وربَما الوجلة إلى الحريّة - إنساناً، من خلالِ حبّهِ البسيط العفوي، ولكن الكبير غير العادي والإنساني لـ «الفتاة المهانة والحزينة» فارينكا دوبروسولوفا. إنّه يندفعُ - وإن كان بصورة جزئيّة ومشوّهة - إلى «العَظَمة الحقيقيّة» التي ستتجلّى «كمعيارٍ» دائماً في إبداعات دوستويفسكي، والتي ستتجسّد مع الزمن في أنموذج «الإنسان الرائع - الإيجابي».

إن رواية «الفقراء» قادت الكاتب إلى حلقة بيلينسكي، التي حاولت فهم «سر الإنسان» بطريقتها، فهمَهُ من خلالِ إيضاح المصير الاجتماعي للذات الفرديّة، المسحوقة والمضطهدة.

ويكتبُ دوستويفسكي عن هذا في «يوميات الكاتب» خلال عام ١٨٧٣، في الفصل الذي يحمل عنوان «العجائز»، وقد تبنّى دوستويفسكي

١- مايكوف ف. ن، النقد الأدبي - لينينغراد ١٩٨٥.

في تلك الأيام دروسَ بيلينسكي بشغف، ونقلَ جوهَرَ أفكاره بصورةٍ ذاتيّة وشديدة الحدّة، من خلال مفرداتِ بيلينسكي ذاتها:

«... ينبغي ألا نحصي آثام الإنسان [...] ما دامَ المجتمع مبنياً بدناءة [...]، ما دامَ اقتصادياً يقودُ إلى الأفعال الشريرة [...]».

إن الفكرة الأهم في النظريات الاجتماعية بدايةَ القرن التاسع عشر، تتمثّلُ في عدم توافق الاجتماعي مع الإنساني. تتمثّلُ في التأثير الضاغط للعامل الاجتماعي على المصير الإنساني.

ومن المعروف أيضاً انضمامُ الكاتب الشاب إلى جماعة بيتراشيفسكي. لقد تعرّفَ دوستويفسكي إلى م. ف. بوتاشيفيتش - بيتراشيفسكي ربيعَ عام ١٨٤٦، وباعترافِ الكاتب فقد حدثَ لقاؤهما مصادفةً، وكانَ بيتراشيفسكي صَاحبَ المبادرةِ في هذا التعارف، من خلالِ اهتمامِهِ بمؤلّف «الفقراء». لقد جذبَ بيتراشيفسكي عن وعيٍ الأدباءَ إلى حلقته، مُفترِضاً أن الأدبَ يُعَدّ أهمَ وسائل «البروباغاندا»[أ]، التي تنشُرُ عبقرية الشعب، والحق أن دوستويفسكي كانَ مُعَدّاً لذلك من خلالِ صداقتِهِ مع بيلينسكي، ومعرفتِهِ أفكارَ الاشتراكيينَ الطوباويينَ: سان سيمون، وفورييه، وكونسيديران، وغيرهم، ومن خلال علاقته مع الأدباء التقدميين - بكلِ أيديولوجيات أجواء الأربعينيّات من القرن التاسع عشر. خلالَ العامين الأولين لم يزرْ دوستويفسكي «جُمُعات» بيتراشيفسكي إلا قليلاً، ويعودُ ذلك إلى ضغط العمل على الناشر الناشئ، وإلى التباينات العقائديّة المحددّة بين دوستويفسكي وبيتراشيفسكي، وعلى الرغم من ذلك فقد

أ- بروباغاندا: من اللاتينية Propaganda الدعاية وهي نشر وتعميق تفسير اي نوع من الأفكار والتعاليم والآراء والمعارف، او هي التأثير الفكري على الجماهير الواسعة.

أثارت «لقاءات الجمعة» اهتمام الكاتب، بحدّةِ المشكلات والمُسائل المُناقشَة، بجدّة الأفكار المطروحة، واتساع وجهات النظر.

لم تكن هذهِ الجماعة ذات اتجاهٍ واحد: فإلى جانب المجموعة الثوريّة الديمقراطيّة يظهرُ أنصارُ الاتجاه الليبرالي. لقد دُرسَتْ من قبل هذه الجماعة أعمالُ الاشتراكيين - الطوباويين، وقُيّمَ بيلينسكي وغيرتسين. ولقد ثبتَ الأجنحةَ الثوريّة لأتباع بيتراشيفسكي نظراتهم الماديّة الإلحاديّة، ووجدت رؤاهم الفلسفيّة انعكاساً كبيراً وكاملاً في كتابٍ مهم سُمّيَ: «معجم الجيب للكلمات الأجنبيّة»، (الذي صدرَ بإشرافِ م. بيتراشيفسكي ١٨٤٦).

نشّطت الثورةُ الديمقراطية البرجوازية في أوربّا عام ١٨٤٨ أتباعَ بيتراشيفسكي وحَفّزتهم، وفي هذهِ الفترةِ تحديداً يصبحُ دوستويفسكي مشاركاً نشيطاً في الجماعة، ويقتربُ كثيراً من الجناح الثوري فيها، فينضمّ إلى زُمرةٍ تتألّفُ من أشد أتباع بيتراشيفسكي حماسةً، وفي نهايةِ ١٨٤٨ بداية ١٨٤٩ يشُكّلُ بعض أتباع بيتراشيفسكي، تحت قيادة ن. أ. سبيشنيف «مجموعة سرّيةً خاصة»، ذاتُ طابعٍ تآمُري تضعُ هدفاً نهائياً لها «القيام بانقلابٍ في روسيا»، ويصبحُ دوستويفسكي واحداً من عناصر هذه المجموعة.

في صباح ٢٣ أبريل / نيسان من عام ١٨٤٩ يُعتقل معظّمُ أعضاء جماعة «الجُمعة»، وبينهم الكاتب الشاب، وسُيكتَبُ في «تقرير جنرال المحكمة العسكريّة، عن ف. م. دوستويفسكي» ما يلي:

«[....] يُجرّدُ الملازم المتُقاعد دوستويفسكي، بسبب [....] مشاركتِهِ في الخطط الإجراميّة، ونشر رسالة الأديب بيلينسكي[1] المليئة

أ- المقصود هنا رسالة ف. غ. بيلينسكي إلى ن. ف. غوغول

بالعبارات الوقحة، ضد الكنيسة الأرثوذكسيّة، والسلطة العُليا، وبسبب اعتدائِهِ [...] ولإشاعةِ المؤلّفات المعادية للحكومة [...] من حقوقه كافة ويُرسَلُ إلى الأشغال الشاقةِ في القلاع مُدّة ثماني سنوات» «بحكم اللجنة القضائية العسكريّة، وكان من قبلُ قد حُكمَ عليه بالموتِ رمياً بالرصاص. وبقرار نيكولاي الأوّل خُففَ حُكم الأشغال الشاقة إلى أربع سنوات - «ثُمَ يعودَ بعدها جُنديّاً»» وهكذا - أشغال شاقة، ثم جنديّة، ثمّ نفي...

وها هو ذا دوستويفسكي يسقطُ في جحيم الوجود الإنساني، حيث يقفُ «سِرُّ الإنسان، مع العراء المروّع، حيثُ يقفُ نازفاً، كجرحٍ لا يندملُ أبداً.

في «جحور الأشغال الشاقة» للسجون الأومسكية، في «التخشيبات» التي ازدحَمَ فيها مئاتُ المعَتقلين - الجنائيين، حيث يكشف سِرُّ الإنسانِ وجهَهُ الخاص، غير المرئي، المستور في الظروفِ «الطبيعيّة»، وفي الحياةِ الاعتياديّة المألوفة. هنا عانى الكاتبُ وفكّر كثيراً في أكثر الأزمنةِ تراجيديّةً في حياته - أمامَهُ كانَ ينتصبُ بلا رحمة السؤال: ألا يستطيعُ الإنسان إلا أن يقوم بالأعمال الشريرة، في ظلِ مجتمع مبنيٌ على الدناءةَ والوضاعة؟

وعلى الرغم من أن دوستويفسكي لم ولن يتراجع عن أفكارهِ التي تقولُ إن آليات المجتمع «الوضعية» و «أوساطُهُ» تلك تولد الجريمة، فإنَهُ في اعترافٍ عفويٌ يرى أن نظرية «الوسط» تلك خطيرة، لأنها وحيدة الجانب، وتقودُ إلى التأكيد على غياب الذات. وفي «ذكريات من بيت الأموات» سيلاحظ دوستويفسكي، أن صيغة «الوسط المُعرقِل أو الضاغط» غالباً ما تخدم تبرير الدناءة البشريّة، وفي وقتٍ لاحق، في «يوميات الكاتب» عن عام ١٨٧٣ وضمن مقالة بعنوان «الوسط» يرى دوستويفسكي أن «نظرية

الوسط تقود الإنسان [...] إلى تحرّره الكامل من كل الواجبات الأخلاقيّة الشخصيّة، ومن كل أشكال الاعتماد على النفس»، وهكذا يقفُ الكاتبُ مع الإنسان الحُرّ الفعّال، مُتصدياً لصيغة الوسط المُعرقل. فالاعترافُ بصيغة «الوسط المُعرقِل» - من وجهةِ نظرهِ - يقودُ إلى رفضِ تلك المفاهيم الأخلاقيّة، مثل الرحمة، الشفقة، المغفرة.. وكيف يكون الأمرُ على خلاف ذلك؟، إذا كان المجرمُ - ضحيّةً، أجبرتْهُ القوانينُ الأخلاقيّة على الإجرام فإنهُ يستحقُ بالتالي «شفقة الحُكم»، وعندها فإن الجريمة لن تعودَ جريمة، والشرُّ لا يعودُ شرّاً، وبالتالي فستتداخل كل المعايير الأخلاقيّة المرعيّة، أما إذا سمّينا الأشياء بمسمّياتِها ودعونا القاتل - قاتلاً، واللصُ - لصاً، فإن المنطق البسيط سيتوقّع أن التسامح هنا - سيكون لا أخلاقيّاً.

وهكذا كان من شأن الأمر أن يكون - يعتقدُ دوستويفسكي - لو لم تعرف البشريّة صفحَ يسوعٍ ومغفرتَهُ، ولهذا سيكتبُ في مقالتِهِ «الوسط»: «ندخُلُ إلى قاعة المحكمة تتملّكُنا فكرةٌ مفادها أننا نحن أيضاً مذنبون». المسيحيّة مبنيةُ على المحبةِ الطليقة في الرب.

وعلى مبدأ «أحبّ قريبك، كما تحب نفسك»، وتعترفُ بتأثير الوسط المحيط. ولكنّها تغلّب الرحمة تجاه الخاطئ والآثم. فالجريمة هي انفصالٌ عن المسيح، هي التعاسة، هي الحرمان. والمنفصل محرومٌ من الضياء الروحي، منسلخٌ عن الحقيقة، وهو في مثلِ هذهِ المصيبة العظيمة يستحقُ الشفقة.

لكن الجريمة - في كل الأحوال - تبقى جريمة، لأن الإنسان تركَ العملَ الطيّبَ، مع أنّه كان يمتلك حريّةَ أن يقاومَ إغواء الشر. ومن المهم أن نفهم أن العِقاب المطبّق جَرّاء الأعمال المخالفة المرتكبة إن هو «إلا أثقال في عنق المجتمع، جَرّاء مخالفة القوانين العامة». العالمُ الأرضيُ - مبدئياً - غير

كامل، الإثم يقعُ على كلِ شخص، وكل.. كل الشعب «مذنبٌ مع كل مجرم». ومَعاً - كلٌ مع حصتِهِ أمام الله من الذنب - يجب أن يسير الشعب إلى الأمام متوسلين الندم المستمر والتطوّر الذاتي، طامحين إلى مراتب أخلاقيّة أرقى.

منذ الأيام الأولى لدخوله السجن راحَ دوستويفسكي يتابعُ فكرةً محدّدة - «فكرة، إلى حد ما معقّدة بالنسبة لي، وهي تتعلّقُ باختلافِ العقوباتِ لأجلِ جريمةٍ واحدة بعينها»، مع العِلم أن من الاستحالة مقارنة جريمة بأخرى حتى ولو بشكلٍ تقريبي.

متشرّدٌ يقتُلُ «دفاعاً عن حُريّته، عن حياته، على الرغم من أنه يموتُ مراراً من الجوع، وشخصٌ آخر يذبحُ الصغار لأجل المتعة...» وهذانِ الشخصانِ يدخلان السجن، ولكن في الحقيقة، لفترتي عقوبةٍ مختلفتين، ويكونُ التباين في مُدّتي السجن «صغيراً نسبيّاً، أما التباينُ في نوعية الجريمة الواحدة - فهو كبيرٌ جداً. بقدر ما يكونُ طابعُ الجريمة خاصاً - يكونُ التباينُ».

وإلى جوار ما سبق يوجد أيضاً موضوع رُبّما أكثر أهميّة، يتعلّقُ «بآثار العقاب نفسها»، وهذا مهم لأنهُ تحديداً في تلكَ الظروف تظهر أكثر ما تظهر الميزاتُ الإنسانيّة الشخصيّة للطبع، «هذا شخصٌ يذبُلُ، يذوبُ في السجن كالشمعة. وهذا شخصٌ آخر، لم يكن - حتّى - يعلم قبلَ وصوله إلى السجن، أن هناك على سطح الأرض حياةً مرحة كهذه! ومجموعة من الرفاقِ الأباعِدِ كهذه!. نعم يأتي على السجن أمثال هؤلاء، على سبيل المثال يأتي شخصٌ متعلّم، بضميرٍ حي، ووعي وقلب. ألمٌ واجد من آلام قلبه الخاصة - قبل كل أنواع العقاب - يمكن أن يقتله بعذاباتِهِ الذاتيّة. إنه يحاكمُ نفسه بنفسه على جريمتِهِ البشعة، بلا رحمة وفقَ قانونِهِ الخاص المرعب، وإلى جوارِهِ شخصٌ آخر، لا يفكّر في سجنِهِ هذا، ولو لمرّة واحدة

بجريمة القتل التي اقترفهَا. بل يعتقد أنه كان محقاً»... كل هؤلاء بشر، ولكلٍ منهم «سِرّهُ» الخاص.

ويتعرّفُ دوستويفسكي إلى جانب آخر، جادٍ من جوانب الحياة: إنهُ يراقبُ أولئكَ المتسلّطين، «يوجدُ بشرٌ كالنمور، متعطشون للحس الدماء. من جَرّبَ لمرّة واحدة هذه السلطة، وهي سيطرةٌ لا نهائيّة دَماً وروحاً على جسدِ الإنسان الآخر، المخلوقِ أخاً وفقَ قانون يسوع، من جَرّبَ هذهِ السلطة، والقدرة الكاملة على إهانةِ أكثر المخلوقاتِ الأخرى صغراً، وهي التي تحملُ صورةَ الرب، فإنهُ يفعل ذلك بشكلٍ غريزي، لا إرادي، غير قادرٍ على امتلاكِ مشاعره الخاصة وضبطها. الإنسان والمواطن يموتان في المستبد إلى الأبد، أمّا العودة إلى الكرامة الإنسانيّة، إلى التوبة إلى البعث، فتصبحُ بالنسبةِ لهُ مستحيلة تقريباً».

إن دوستويفسكي يخشى على المجتمع «الذي ينظر بحيادٍ تامٍ إلى مثل هذهِ الظواهر»، المجتمع «الموبوء» في أساسه، والذي يسيُر «إلى انحلالٍ لا يُردُّ».

وراحت الفكرةُ الأعمق فكرةُ الحريّة تمتلكُ روحَ دوستويفسكي وأفكاره بشكلٍ أكبر فأكبر، وهي الآن تبدو بصورةٍ جديدةٍ، مُخصّبَةً بتجربةٍ ثقيلة، ليسَ هناك عقوبة تطبقُ على الإنسان أكثر رُعباً، وأكثر عداء لطبيعتِهِ الحقيقيّة، وتشويهاً لها، من عقوبةِ حرمانِه حُريته، هذا «ألمٌ كاملٌ، مُرعبٌ، حقيقي». «فلتُجّرب، أن تبني قصراً، تضعُ فيهِ المرمَر، اللوحات، الذهب، تزيّنُهُ بعصافير الجنّة، بالحدائق المعلّقة، والأشياء المتنّوعة.. ثُمّ ادخل إليه، عندها قد تشعر أنكَ لا تُريد أن تخرج منه.. وفجأةً - يحدثُ أمرٌ تافه! يُحيطونَ قصركَ بسور»، ويقولون: «لكَ كل شيء، تمتّع! فقط لا تخطُ خارج هذا المكان!»، وكن على ثقة أنكَ في اللحظةِ نفسها ستشعر برغبة في تركِ جنّتك تلك والعبور خارج السور.. نعم، ، شيء واحد فقط ليسَ موجداً: الانعتاق! الانعتاق والحرّية».

ومنذُ ذلك الحين تصبحُ الحريّةُ الشخصيّةُ حجرَ الأساس في كل أعمال

الكاتب عن الإنسان، عن قيمتِهِ العظيمة ومعاناته. إن إظهار الإرادة الحُرّةَ بالنسبة لدوستويفسكي - بدايةً، يقوّي وحدة الإنسان وكماله، ويحددُ حركة «الحياة الحيّة» في طبيعيّتها ولا عقلانيتها. وفي محصّلةِ التأملات المتوتّرة، والانطباعات المعذّبة لتلك الأسئلةِ كلِّها، التي شغلت الكاتب - الإنساني، يبدأُ الرجلُ ينجذبُ إلى نقطةِ مركزِهِ، إلى بؤرتِهِ - إلى فكرةٍ أكثر «عصياناً» وصعوبة - إنها فكرة الله. وستعذّبُهُ هذهِ الفكرة، التي يحدّثُ عنها إحدى «الديسمبريّات» - ن. د. فونفيزينا - بعد خروجه من السجن:

«سأخبرك عن نفسي أنا ابن هذا القرن، ابن عدم الإيمان والشك حتى الآن، بل «وأنا أعلم» حتى غطاء القبر - كم من عذاباتٍ مروعةٍ كلفني ويُكلّفني الآن هذا التعطّش إلى الإيمان، الذي كلّما اشتدَّ في روحي، ازدادت الحجج المضادة، ويحدثُ أن يُرسل الله إلي أحياناً لحظاتٍ، استسلمُ فيها إلى الهدوء... وعندها أضعُ لنفسي رمزَ إيمانٍ، يبدو فيه كل شيءٍ واضحاً وجلياً، هذا الرمزُ بسيط، إنهُ: الاعتقادُ الراسخ أنه ما من شيءٍ أكثر روعةً، وعمقاً، ولطفاً، وحكمةً، ورجولةً، وكمالاً من المسيح. وليسَ فقط «ما من شيء»

- أقولُ لنفسي بحبٍ شديد الغيرة - ولا يمكن أن يكون».

إن مفهوم المسيح كأنموذج أو مثال يطمح الإنسان إلى بلوغه في طريقهِ الأرضي، لم يكن جديداً بالنسبة لمعاصري دوستويفسكي. فبالإمكان أن نُسمّي - على سبيل المثال - كتابين أثّرا تأثيراً واضحاً على عقول قراء القرن التاسع عشر: الأوّل عملُ د. ف. شتراوس «حياة المسيح» في جزأين، والثاني كتابُ ج. ي. رينان، ويحملُ العنوان السابق أيضاً[1]، وهما يدرسان المسيح

1- انظر بحث «تاريخ ظهور المسيحيّة»، المجلد الثامن، من كتاب «حياة المسيح» - ج. ي. رينان /بالروسية/.

كشخصية واقعية تاريخيّة، نازعينِ عنها صفاتها الإنجيليّة القصصيّة فوق الطبيعيّة. وسيتردد اسما هذين الباحثين أكثر من مَرّة، على صفحاتِ رواياتِ دوستويفسكي، وفي «يوميات الكاتب».

إن أنموذج المسيح يصبحُ بالنسبةِ للكاتب معيارَ الإنسانيّة الأكثر علّواً من حيثُ نقاؤه وصدقُهُ، من حيثُ جمالُهُ وكمالُهُ، وبالإضافةِ إلى ذلك - وبتأكيد الكاتب - هذا «المعيار»، هذا الأُنموذج قادرٌ على التحقُق في نهايةِ المطاف فقط كمثال إلهي (ربّاني). ولهذا لم يُرضِ رينان أن المسيح إنسانٌ ذو أخلاقٍ عالية كريمة.

فيسوع ليسَ «فيلسوفاً واسع التأثير والفائدة»، بل «منبع الحياة»، ابن الله، المبعوث لإنقاذ البشريّة، وهذهِ البُرهة الأكثر أهميّة بالنسبةِ لأي مسيحي «بما في ذلك دوستويفسكي» لم يقف عندها الباحثان شتراوس ورينان.

اليوم كثيراً ما نتحدّث عن دوستويفسكي كنبي، تنبّأَ ببعضِ المنعطفات المبدئيّة في مسار حضارتنا. إن تحذيراتهِ تبدو لنا مفهومةً، أكثر مما كانت بالنسبةِ لقارئ القرن التاسع عشر. إن قرننا العشرين تحسس بجلدهِ الخاص، ما الذي يعنيهِ «العلمُ المحض»، الذي لا يُكرّسُ القيمَ الأخلاقيّة - إنّهُ رعبُ معسكراتِ الاعتقال، جنونُ الذرّةِ الفالتُ من أيدي الإنسان، المُتلقّفُ من قبلِ العمالقةِ والسوبرمانات.

زمننا هذا خَبرَ شريعة الغاب على حقيقتها ونظرَ اليأسَ في الوجوه، طردَ الأنبياء من الوطن، صلبهم، تبرأ منهم، لكنّه رأى طريق دوستويفسكي وأحلامه، وبَدَت «اليوتوبيا» التي بناها قريبةً ومفهومة، وكذلك فكرة العذاب المُطهِّر.

وفي مئةِ العامِ هذه تحديداً ستُعَدّ الحريّةُ قُدس الأقداس، وسيعيشُ البشرُ وتطول بهم الأعمار مع الأملِ بمستقبل الإنسان.

وهكذا لماذا يكونُ الكاتب الذي عُمِّر حتى ما قبل بداية القرن بعشرين عاماً - ولم يعشْ لحظاتِ شروقه - في هذهِ الساعات أقربَ إلينا من الأدباء المعاصرين؟ وعلى ما يبدو، كي نفهم هذا الأمر، يجب أن نعود إلى القرن التاسع عشر ونجرّب أن نطرح السؤال التالي: لماذا جذبَ «تاريخ المسيحيّة» الذي كتبه رينان تحديداً، انتباهَ الانتلجنسيا الروسيّة، دون أعمال اللاهوتيين؟ ومباشرةً علينا أن نحددَ الأهم من جوانب الإجابة: تلك كانت حقبة أزمة الوعي الديني التاريخيّة العالميّة، الوعي الذي ظهرَ في فترات عصر النهضة وبلغَ حدودَهُ القصوى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي يُحددُ تماماً التطوّرات الروحية المختلفة اللاحقة للقرن العشرين. إذاً لأوّل مَرّة، وبشكلٍ محددٍ يعلنُ وعيٌ جديدٌ عن نفسه، ناقضاً الأشكال التقليديّة للتوجّه الروحي في العالم. فقسوةُ الربِ أو خشونته، تطلبت إعادة النظر في كل ما تراكم من أنظمة المعرفة البشرية، والرؤى العامة، وعلم الأخلاق. ولأوّل مَرّة، وبوضوحٍ تام ظهرت مشكلةُ الإنشاء الذاتي لقيم روحيّة أخلاقية جديدة.

إنّ نظام المركز المفارق أو المنزوع قد سقط، وأصبح الإنسان الجديد، ذو الوعي «المفتوح» مضطراً للبحث من جديد عن أجوبة لأسئلة الوجود الأخلاقيّة - الفلسفيّة السرمديّة، لأن الإلهام الرّباني السابق، المهُدى للمسيحي قد انتهى الآن. لقد بدأ الإنسان يمشي على درب الوعي المستقل، ففي العلمِ تَمّ التأكيدُ على الوضعيّة، والفلسفة الكلاسيكيّة المبنيّة وفق تصميم وبناء العالم تنسحبُ لتحل محلّها الفلسفة الأخلاقيّة، المتمركزة على الإنسان، كما ظَهَر فَنّ جديد - من حيث التصنيف - اعتُبرت رواياتُ تولستوي ودوستويفسكي بدايةً لَهُ.

إن الوعيَ «المفتوح»، وطريقَ الحريّة المحددَ أمامَه يُصبحانِ موضوعَ بحثِ دوستويفسكي:

ويرى الكاتب - وهو الغارق في أعمق أشكال حُريّة الإرادة - ليسَ فقط العلاقات الجوهريّة بين الذات والوجود، ولكن يميّز البداية الخصوصيّة «لحب التملك» الهدامة في الإنسان، فتكتُبُ لأولّ مَرَة رواية تحذيريّةً تُضيفُ «خبرةً عن الإنسان» جديدةً، لكنّ التوجه إلى الإنسان عند دوستويفسكي - هو التوجّهُ إلى حرّيتهِ، وهذهِ هي الموضوعةُ الرئيسةُ للكاتب! فما هي إذاً هذهِ الحرُيّة؟

في المعتقدات المسيحيّة توجدُ وحدة إرادة الإنسان الحُرّة والقدر الربّاني. لقد تحدّثَ أوغوسطينوس المقدّس، وهو اللاهوتي المسيحي ورجل الكنيسة النشط في القرن الخامس، مطوّراً تعليمةً عن «النعمة والقَدر»، تحدّثَ عن حريتين. حُريّة دنيا: حُرّية اختيار الخير، وتؤثر عليها سلباً قوّة الإثم الأوّل الموروثة. الإنسانُ حرٌ في سؤال الله مساعدةً مباركةً في اختيار الخير. وحُرّيةٌ عُليا: حُريّةٌ من الإثم، في الخير. وهي مُقدّرة على الإنسان.

إن الكلمة الإنجيليّة «اعرفوا الحقيقة، والحقيقة ستجعلكم أحراراً» تنتمي إلى الحريّة في المسيح. إن الحقيقةَ المُلْهَمَةَ وفق تعاليم الكنيسة، تجعل الإنسان حُرّاً بشكلٍ حقيقي - أصيل.

وعليهِ فالحقيقةُ لا يمكن أن تُعْتَق بالقوّة. إن مغزى الحكاية الإنجيليّة عن الإغواءات الثلاثة للمسيح من قبل الشيطان، والتي لو قبلها يسوع لكان بإمكانه جعل الناس يؤمنون به «تحويلُ الحجر من قبله إلى خبز - إلقاء جسده من أعلى المعبد دون أن يصاب بأذى - السجود لإبليس مقابل حصوله على السلطة في مملكة الأرض» يقودُ إلى أن المنقذ أكّدَ على حُبّ الإنسان، الحُب الحر - من القسر الخارجي - تجاه المسيح. وفي هذا جوهر فعل الإيمان.

إن مشكلة الحرّية على امتداد تاريخ الفكر المسيحي استدعت - غير مَرّةٍ - أكثر المناقشات شِدّةً، مما كان يؤدي إلى وصف هذا التأويل أو ذاك هرطقةً.

إن علاقة دوستويفسكي - المتكوّنة في مجرى المعتقدات المسيحيّة - بالمشكلة المركزية عنده، مشكلة حُريّة الإنسان جمعت في داخلها كل شكوك ذلك القرن.

«الحريّة بالنسبة لهُ هي الأنثروبوديسيّا[أ] والتيوديسيا[ب] وعدالة، فيها يجب أن نبحث عن تبرئة الإنسان، وتبرئة الرب» - هذا ما كتبه الفيلسوف ن. أ. برديايف، ومن خلال ذلك بدا أن من حق الإنسان الموجود في بداية طريق الحرُيّة أن يستسلم للشرِ أو الخير.

إن حُرّية الشر مُدمّرة للذات، إنها تتوجّه إلى النزوات. إلى الهوى، وعندها تصبحُ الذاتُ عبداً للرغبات الشخصيّة. وبكلماتٍ أخرى: حريّةُ الشر تتوالدُ في ضرورة الشر. أمّا إذا كان دربُ الشر غير مجد إطلاقاً، فيبقى للإنسان أن يختار الخير. وسيجد أمامَهُ ضرورة الخير، لكن هذه عندئذٍ ليست الخير. إن إمكانيّة هذه «التحوّلات» ذاتها استوعِبَتْ بشكلٍ سقيمٍ جداً.

بالنسبة للكاتب الحقيقةُ مقبولةٌ فقط دون إكراه. فالحريّة - ليست حتى الآن الحقيقةَ نفسها، بل الأقربُ أن تكونَ درباً إليها، درباً إلى الكمال، إلى الإنسان - الرب الذي فيه تتحدُ الحُرّيتان الإنسانيّة والإلهيّة. ومن المهم هنا أن نعرف أن درب الحريّة.. شخصيٌ جداً!

أ- الأنثروبوديسيا: (عن اليونانية: anthropos - الإنسان + dike - العدل) وتعني حرفياً تبرئة الإنسان، لكنها من أجل حل التناقض بين فكرة التنظيم الإلهي للكون وواقع الشر فيه تحمل الإنسان مسؤولية انعدام الانسجام والتناسق.

ب- اخذت هذهِ الكلمة في الأساس عن اليونانيةّ وهي مكوّنة من جذرين «theos - إله و dike - عدالة»، واصبحت عنواناً لمذهبٍ ديني فلسفي يبرّرُ للإله سماحَهُ بوجود الشر في العالم، وتُشكّل التيوديسيا جزءاً مهماً من اي نسق لاهوتي، فهي تنزعُ عن الإله مسؤوليّة وجود الظلم أو العسف في العالم، وقد تسوّغه كعقابٍ ربّاني على ما اقترفَهُ البشر من آثام. /المترجم/

لقد وقع لومٌ كثيرٌ على دوستويفسكي بسبب «عدم واقعيّة» النماذج التي بناها، لكن الكاتبَ كان مؤمناً بعمق حقائق الواقعية الروسيّة وظواهرها- وقبل ذلك ملامح طباع الإنسان الروسي في منتصف ذلك القرن، التي تبدو خياليّة من خلال النظرات السطحيّة أو المبسّطة عادةً - في حقيقة الأمر يمكن أن تغدو واضحة في «سِرّه» فقط كحقائق وظواهر «روحيّة»، «أيديو - أخلاقيّة» للوجود، «سأحدّثك فحسب عن أننا كلّنا - نحن الروس - عشنا في السنوات العشر الأخيرة، في تطوّرنا الروحي - نعم، ألن يصرُخَ الواقعيون، هذا خيال! في حين هي الواقعيّة الأصليّة» «من رسالة إلى أ. ن. مايكوف، بتاريخ ٢٣ كانون الأوّل ١٨٦٨».

ويكتسبُ اكتشافُ العبقري دوستويفسكي «إنسانَ القبو»، قيمةً اجتماعية كبيرة.

«إنسان القبو المضطرب» - الاستثنائي من حيث شخصيته، ولكن من حيث الجوهر «إنسان يعكسُ معظَمَ الروس»، وتحديداً في منتصف القرن التاسع عشر - إنهُ المُنْتَجُ الناصِعُ للتطوّر الروسي الروحي. وفي هذا الخصوص يلاحظُ الكاتب: «أنا وحدي من أظهَرَ تراجيديا القبو، المتمثّلة في المعاناة، في تعذيب الذات، في معرفة الأفضل وعدم القدرة على الوصول إليه، والأهم، في الثقة الواضحة لأولئك البائسين، بأن الجميع هكذا ولذا لا تستحق الأمور أن يصلحوا أنفسهم وما الذي يمكن أن يعضد أولئك الذين يصلحون أنفسهم أو يساندهم المكافأة، الإيمان؟ المكافآت - لا أحد يقدّمها. الإيمان - ليسَ بأحد! ما هي إلا خطوة واحدة من هُنا، وفجأةً انحلالٌ نهائيٌ، جريمةٌ «قتل» «سر».

وكلّما ازدادَ وعيُ بطلِ دوستويفسكي برداءةِ وضعه - وضع «البرغي» أو «الثياب البالية» - ازدادت رغبتُـهُ في حماية كرامته الإنسانيّة، وأحسَّ بشكلٍ مؤلم غيابَ الحريّة، وراحَ «كبرياؤهُ» ينمو بصورة مفرطة التضخّم،

وغير طبيعيّة. فتضيعُ رؤاه أو تصوّراته الطبيعيّة، ويفقدُ محورَ الذات الأخلاقي. إنَ الكاتب «يُشَرِّحُ» - بعبارة ف. مايكوف - عالمَ الإنسان الروحي، الإنسان الذي ليسَ باستطاعتِهِ أن يواجه الضغط الاجتماعي لوسطه المحيط، فيغيب في «قبوٍ» أخلاقي مُرعب، ويتصوّر العالم كلّه مثل كارثة مُدمِّرة مخيفة، ما من شيءٍ فيها إلا «أشلاء الاهتمامات الذاتيّة» - وفق تعبير ف. مايكوف - بعد ذلك سينشغلُ الكاتب أكثر فأكثر بـ «إنسان القبو»، بهذا «المضطرب القبوي»، بمصادر طبائعهِ، وطرق تطوّره.

وعندها أين يمكن البحث عن البنية الاجتماعية المُثلى، التي تظهرُ فيها الذات المُعافاة الحُرّة؟

سيهتمُّ دوستويفسكي «بالاشتراكية» كما فعلَ من قبل - وسيفعل طوال حياته»، مثلَ «جنّةٍ على الأرض»، «أخوّه» البشر القادمة والممكنة. في صيف ١٨٦٢ يزور فرنسا، التي قدمت منها في الأربعينيّات إلى روسيا أعمالُ فورييه، وسان سيمون، وكونسيديران، وكانت موضع اهتمامٍ شديدٍ من الكاتب، فما الذي يراه في فرنسا؟ هيبة مُطلقة للملاّك - البرجوازي، فيفترضُ دوستويفسكي أن تاريخ التطوّر الغربي نفسه قد أصدرَ حكمَهَ على الطوباويين الفرنسيين.

ويكتب دوستويفسكي «في ملاحظاتِهِ المدوّنة شتاءً، عن انطباعاتِهِ الصيفيّة» مُناقِشاً فكرة الأُخوّة، كقوةٍ البشريّة العظيمة الدافعة، ولا يتوقّع أنه ما من مكانٍ يجدُ فيهِ هذه الأخوّة، ما دامت غير موجودة بشكلٍ فعلي في الواقع [...]، في الطبيعة الفرنسية، بل والغربية بشكلٍ عام، أتضح أن هذا المفهوم غير موجود في الواقع، ولكن هناك بدايةُ الشخصيّة، بداية الخصوصيّة، التي تقوّيها قوّة حفظ الذات، صناعة الذات، تقرير المصير في «الأنا» الذاتية، حيثُ تقفُ هذه «الأنا» قبالة الطبيعة كلُها، قبالة البشر الآخرين جميعاً، كبدايةٍ مستقلّة، ذات حقٍ ذاتي، مُعادِلةً تماماً ومكافئةً

كل ما يوجد خارجها. ولكن من مثل هذهِ المقابلة الذاتية للعالم لا يمكن أن تولد الأخوّة. وليس على الذات المستقلّة، وليس على «الأنا» أن تسعى للمطالبة بحقها في مُعادلة الآخرين مجتمعين، ولكن على أولئكَ الآخرين معاً أن يصلوا إلى هذا الحق الشرعي للذات، إلى تلكَ الأنا المستقلّة، وهذهِ الأنا، بنفسها، ودون أي طلب يجب أن تصل إلى الاعتراف بمعادلتها في القيمة، ومكافأتِها في الحقوق، الآخرين مجتمعين، [...]»

وقد رأى دوستويفسكي - وهو يقلّبُ منظومة فورييه في الاشتراكية الطوباويّة، وفرضيّتهُ عن «العمل الجذّاب»، الذي يُعَدّهُ الكاتب عملاً على أساس «الربح» - رأى جنيناً لفرديّة وأنانيةٍ لا أخلاقيتين، والأنانيّة حتى ولو ضاعَفنا عقلانيتَها ثلاث مَرّات، فلن تتوقّف عن كونها أنانيّة، وفق رأي الكاتب.

إن آلية اجتماعية «عقلانيّة» مشابهة - مع متطلّبات «عقلانيّة» وسلوكٍ مشابه - تحوّل الإنسان إلى تابعٍ بسيطٍ للوسط. وتفقدُ الشخصيّةُ عندها الأهَم - حُريّةَ الاختيار، ويتم تجاهل وإهمال طبيعتها المخلوقة عليها، وكل هذا يقودُ إلى معنىً واحد، إلى عالمٍ «إقليدي» واضح.

إن أي مدخل «خُبزي»، مادي - استغلالي إلى «سر» الإنسان، كان يستدعي اعتراضاً حاداً من قبل دوستويفسكي المدافعِ عن كمالِ الشخصيّة أو الذات.

في «دفتر عمل الكاتب» عام ١٨٦٤ يسجّلُ دوستويفسكي في فقرة بعنوان «الاشتراكية والمسيحيّة» ملاحظة مفادُها أن المسيحيّة تعتقدُ بـ «التطوّر الأقصى للذاتِ وللإرادة الحُرّة»، ولكن ليسَ ذلك التطور المكتفي بنفسه، أو لنفسه، كما عند فورييه، لكنّه التطوّر الذي يُهدي إمكانيّة التضحية بالنفس لأجل القريب. مثاليّةٌ هذهِ الصيغة، هذهِ الآليّة المجتمعيّة، التي لا تنزَعُ من الإنسان «سيادتَهُ الأخلاقيّة»، ولا تستبدلها «بالشرِ وفقَ الضرورة» و «الخير وفق الضرورة».

وسيصيغُ الكاتبُ الفكرة السابقة في «دفتر عمل الكاتب» ١٨٧٥-١٨٧٦، كما يلي:

«أنا لا أريدُ ذلك المجتمع العلمي الذي ليسَ بإمكاني فيه أن أقترف الشر، ولكنني أريدُ مجتمعاً أستطيعُ فيه أن أقترف كل الشرور ولكنني أعزفُ عن ذلك بنفسي». نعم «فالإنسان القبو» تعطشٌ إلى المثال. إنهُ يحزنُ في العالم، الذي لا يستوعبه، والحزنُ هنا - شعورٌ مزدوجٌ، خَلاّقٌ، حي. شعورٌ أعقدُ من الضجر البسيط، الذي يولدُ من الواقع السلبي العاري. في الإنسان الحزين قوّة جذبٍ غير عاديّة، إلى الأعلى، إلى المثال وهذا الأمرُ كان دائماً مهمّاً جداً بالنسبةِ لمفكرنا الغارقِ في أعماق «سرِ» الإنسان. وسيتساءل دوستويفسكي ذات يوم:

ألا يُعَدّ الحزنُ إشارةً أو علامةً على إيمانٍ جديد، على روحانيّة جديدة؟ - ويكتبُ الشاعر فياتشسلاف إيفانوف: إن الإيمان واللا إيمان - كما يرى الرجلُ - «ليسا شرحينِ مختلفينِ للعالم، بل عالمانِ روحانيانِ مختلفا الطبيعة، موضوعانِ جنباً إلى جنب.

ولكن أي إنسان، وأي شعب قادرٌ على تحقيق أخوّة الاشتراكية في مفاهيمه، تلك التي نمت في «الملاحظات الشتويّة، عن الانطباعات الصيفيّة»؟ إنهُ فقط ذلك الإنسان، ذلك الشعب الذي بقيَ خلالَ مسيرةٍ تاريخ بعيداً عن تعالي ونشاز الذات الغربيّة البرجوازيّة، الأنانيّة. إنها روسيا تحديداً، الخليفة الوحيدة للأرثوذكسيّة البيزنطيّة - «العقيدةُ الحقّة»، لقد رأى الكاتبُ في الشعب الروسي المؤمن والورع حصناً حقيقيّاً في الحربِ ضد «الهرطقة الغربيّة»، والفرديّة المفرطةِ، والعدميّة. «المجدُ: للفلاّح، المجدُ: لروسيا الأرثوذكسيّة - إنها أساسُنا الأصيل» - يكتب دوستويفسكي في رسالةٍ إلى أحد قُرّائه في عام ١٨٨٠، وإن كان مثل هذا الكلام قد قيل كثيراً، فإنهُ قبل كل شيء يجعلُ ثقة دوستويفسكي - الغريبة للوهلة

الأولى - مفهومةً في «تنوّر» الفلّاح الروسي، المتخلّف والمنسي، «المستعبد»، ولكن المستهدي بالإلهام الربّاني.

لقد وضَعَ الكاتبُ «معرفة» الحقيقة هذه، فوقَ «المعرفة الخالصة أو المحضة» المفضلّةِ بالعمل العقلي، مقابل خسارة كل ما تبّقى من الإمكانات الإنسانيّة الطبيعيّة القابلة للظهور. لقد اعتبر دوستويفسكي التنظيم العلمي للوعي، الذي يقودُ إلى العقل الديكارتي المستقل «المشهور بصيغة: أنا أفكّر وبالتالي، أنا موجود» حالةً مأزومةً للذات، التي فقدت القدرة على الوعي الكامل للعالم.

لم ينفِ دوستويفسكي العلمَ إطلاقاً، العلم الضروري حقيقةً للشعب، لكنّهُ اعترفَ فحسب بالعلم الموجّه إلى غاياتٍ مثالية عالية، والخاضع لقانون الأخلاق. «التنّور» بدا واضحاً له في روح المعتقدات المسيحيّة، «نور المسيح ينّورُ الجميع» - هذهِ صيغةُ خدمةٍ دينيّة تشيرُ إلى الفرق الأساسي بينَ التنّور العلماني - «أو الدنيوي» و «التنّور» كما يراه دوستويفسكي، ولهذا فإن ما قالهُ في مقالته «حول أحد أهم الأمور» ١٨٨٠، يُعبّر عن موقفه بشكلٍ كامل بهذا الشأن: «أنا أؤكّد أن شعبنا متنّورٌ منذ زمن بعيد، حينَ اعتنقَ في روحهِ المسيحَ وتعاليمه». لقد اعتقد دوستويفسكي أن روحانية الشعب الروسي أعطت روسيا دوراً مُخلّصاً في حركة الإنسانية نحو المثال، لبلوغها الأخوّة، والوحدة.

إن هذا التعليل الخاص للمصير الديني، يبدو غير متقدّمٍ أو متجاوزٍ فكرةَ «الشعب المختار»، فكرَة التفوّق، لكنَ دوستويفسكي سيتحدّثُ بالتفصيل في «يوميّات الكاتب» خلال ١٨٧٦-١٨٧٧ عن اللطاقةِ اللا متناهية للوعي الروسي، وعن قدراتِ هذا الوعي على التفاني في خدمةِ الأمم كافة «إن الأحداث العسكرية - السياسيّة، لذلكَ الزمن، التي حدثت في البلقان «النضال القومي - التحرّري للشعوب السلافيّة ضدَ الإقطاعية التركيّة -

الأخطار الحقيقيّة لانهيار الإمبراطوريّة العثمانية - الحرب الروسيّة التركية «١٨٧٧-١٨٧٨» جعلت روسيا - كإحدى الدول المرُشحّة - تتقدّمُ إلى القسطنطينيّة، وقد وجدت روسيا لأجل ذلك أسساً سياسيّة، واستعملت نفوذاً عالميّاً معيّناً، ولكن لم تكن النجاحات العسكرية أو السياسيّة للوطن، هي ما شغَلَ اهتمام الكاتب، بل رأى في مجرى هذهِ الأمور ما يؤكد وجهة نظره الشخصيّة حول دور وطنِهِ الخاص، في المعركة بين الأرثوذكسيّة و «الوسط الملُحد المستَبَدّ الملُحد»، لأجلِ عودةِ المركز الروحي الحق - القسطنطينيّة.

إن أحداث تلك السنوات، طرحت فكرةً غيبيّة خاصة، فكرةً برّرت في عيني دوستويفسكي الحرب. «إن نهوض أمّة لأجلِ فكرة سمحاء هو قفزة إلى الأمام، وليس توحُّشاً - قال في مقالتِهِ ذات العنوان «ليست الحربُ مأساة دائماً، إنها أحياناً نجاة» - قد نخطئُ أحياناً في اعتبار فكرة ما سامية أو سمحاء، ولكن إن كان ما نعتبرهُ مُقدّساً وسامياً - هو مشينٌ في حقيقة الأمر، ورذيل فإننا لن نتحاشى عقاب الطبيعة ذاتها: المشينُ والرذيل يحملُ في أعماقِهِ الموت، وعاجلاً أم آجلاً، سيعدم نفسه».

إن مثل هذا الإيمان بالنبوءة، هو عضوي بالنسبةِ لإنساني عظيم، مؤمن بإمكانية الارتقاء بالذات حتى المثال.

لقد نظر دوستويفسكي إلى المجتمع البطريركي الروسي، الذي كان مفتوناً بهِ، من وجهةِ النظر الدينيّة - الأخلاقيّة، كوحدةٍ بشريةٍ جامعة، وموجودة بشكلٍ حقيقي على الأرض. «يجب على هذا المجتمع، بنفسه وغريزيّاً أن ينجذب على الأخوة، إلى التوافق، أن ينجذب... بغض النظر عن مُعاناة الأمّة التي امتّدتْ قروناً، وعن الخشونة البربريّة والجلافة الراسختين في الأمّة، بغض النظر عن عبوديّة القرون الطويلة، عن الغزوات الأجنبيّة - وبكلمة واحدة، لكي تصبح متطلّبات أو استحقاقات الأخوّة الاجتماعية في

طبيعة الإنسان، ولكي يولدَ ممتلكاً إياها، أو لكي يستوعبها بنفسه ويهضمها كعادةٍ على امتداد القرون» - نقرأُ ذلك في «كتاب الذكريات» عام ١٨٦٣.

هل هذهِ يوتوبيا؟ - يعودُ فيسأل دوستويفسكي. رُبّما كانت كذلك، ولكنّها في كل الأحوال تظلُّ أفضل من مُحاولةٍ مستحيلة لتأسيس الأخوّة على بدايات «الرغبات الشخصيّة والإرادة الذاتيّة» لا. الإنسان إذا ما تغيّر، إذا ما رأى في داخله قانون الأخوة الخاص، فإن ذلك سيكون «ليسَ بسبب عوامل خارجيّة مطلقاً، ولن يكون على خلاف ذلك بسبب تبدّل أخلاقي».

إنّ الأمل الرئيس لهذا المفكّر - هو قوّة الإنسان الروحيّة - الأخلاقيّة، التي يُعْتَبَرُ أساسها حريّةُ الذات على طريق الخير السامي المُطلق، لقد اعتبرَ دوستويفسكي اكتشافَ هذهِ القوّة وطبيعتها الأنطولوجيّة، بمثابة «إيجاد الإنسان في الإنسان».

ليسَ سهلاً وضعُ الإنسان وهو يقفُ على درب الحرُيّة. تراجيديّة ومؤلمةٌ شكوكُ تلكَ الدرب، الدرب التي تقودُ إلى أعماقهِ نفسه، إلى الحقيقة.

ليسَ سهلاً التنازلُ عن «قانون الذات»، لأجل «قانون الحب»، الأخوّة.

«أن تحبّ الإنسان. كما تحب نفسك، وفق عهد يسوع - غير ممكن، - يكتب هذا دوستويفسكي في ١٦ أبريل / نيسان عام ١٨٦٣، عند جُثّاز زوجته م. د. إيسايفا دوستويفسكي - إن قانون الذات على الأرض يقيّد. الأنا تعيق! وحَدَهُ المسيح يقدرُ على ذلك، ولكنَ المسيحَ خالدٌ، وقد كانَ أبدَ الدهر مثالاً يطمحُ إليهِ الإنسانُ، ويجب أن يطمح وفق قانون الطبيعة [...] إن أقصى درجاتِ التوظيفِ والاستخدام، التي يمكن للإنسان أن يحققها من شخصيته، من أناه كاملة التطوّر - هي أشبه ما تكون بتحطيم هذه الأنا، وتوزيعها كاملةً على الجميع، دون تمييزٍ ودونَ حسد. وهذهِ أقصى درجات السعادة [...] إن هذا الأمر هو جنّة المسيح. كل التاريخ، وكذلك البشريّة،

جزئياً وكل على حدة، عبارة عن تطوّر، نضال، ومحاولة للوصول إلى هذا الهدف»، وانطلاقاً من ذلك فإنَ «الإنسان على الأرض كائن يتطوّر...» يتطوّر في محاولتِهِ الوصول على الأخوّة.

إن دوستويفسكي يبني فرضيتّهُ في التطوّر التاريخي للبشريّة انطلاقاً من علاقة الفرد الواحد بالجماعة، ومن وجهة النظر هذهِ فهو يقسّمُ تاريخ البشريّة إلى عدّة مراحل أو درجات. يختلف بعضها عن بعضها نوعياً أو كيفيّاً.

المرحلة الأولى - تلكَ «عندما كان الإنسان يعيشُ في مشاعات «في وحدات بدائيةٍ أبويّة، بقيت منها الأساطير» وفي ذلك الزمن «عاشَ الإنسانُ على طبيعتِهِ وفطرته!»

«بعد ذلك يأتي زمن التحوّل، أي مرحلة التطوّر التالية، الحضارة.. في هذا الطور التالي، تأتي مرحلة الظواهر الشاذة أو المختلفة، الواقع الجديد، الذي ليس لأحدٍ أن يتجاوزه، إنها مرحلة تطوّر الوعي الذاتي، ورفض الأفكار والقوانين الطبيعيّة «التسلطيّة، الأبويّة البطريركيّة، قانون الجماعة». إن الإنسان كذات يصبحُ دائماً في حالتِهِ التطوريّة المنشئيّة العامة تلك في علاقةٍ عدائيّة وذات طابع رفضي مع القوانين السلطويّةِ للجماعة، والآخرين عموماً».

وهذهِ مرحلةُ «تفكك الجماعاتِ إلى ذوات»، وهي من وجهةِ النظر الأخلاقيّة والنفسية «حالةٌ مرضيّةٌ»، الإنسان «يشعر أنه ليس مُعافى»، يحزنُ، يفقدُ منبع الحياة النابضة، لا يعرفُ الأحاسيس الطبيعيّة، ويعي كل ذلك. إنّه يضيّعُ المثال. إنسانُ «مرحلة الحضارة» هو تماماً «إنسان القبو المتناقض المضطرب»، فاقد المثال الأخلاقي، وإن كان في الآنَ ذاتهِ متعّطشاً إليه.

في «الجريمة والعقاب» يتوجّه الكاتبُ إلى تراجيديا الذات المستوحدة «لمرحلةِ الحضارة» المريضة.

بماذا فكّر سجينُ الأمس، راسماً رفاقَهُ السجناء، «الأقوياءَ الموهوبين»، ولكن الذينَ أفسدوا ولطّخوا جوهرهم الإنساني بالجرائم؟ بماذا فكّرَ وهو يرسُمُ تلكَ الوحدة الهائلة «لإنسان القبو»؟ رُبّما فكّر أن على الإنسان أن يعود إلى نفسِهِ وجوهره، كي «يعيدَ بناءَ ذاته»، يجب في عملية الإنتاج الصارمة هذهِ أن يولدَ أخلاقيّاً من جديد.

هذا الدربُ الشائك، درب التفكك، «تعذيب الذات»، المعاناة، الذي تعبرُهُ الذات في محاولتها ورغبتها في التجدد، في بلوغ المثال - كانَ الموضوعَ الرئيس لدوستويفسكي في ستينيّات وسبعينيّات القرن التاسع عشر. ومن روايةٍ إلى رواية سيبحَثُ الكاتبُ جوانبَ هذا الموضوع المختلفة: «الأخلاقيّة، والنفسيّة، والميتافيزيائيّة، والأنتروبولوجيّة، والسوسيولوجيّة، وغيرها» بحيث يضيءُ واحدُها الآخر، ويكملُهُ، فكلّما نفذنا عميقاً إلى جوهر العلاقة بينها، أصبحت أكثر نصوعاً ووضوحاً، وبالنسبةِ لدوستويفسكي فإن النماذج الإبداعيّة الأدبيّة - ليست إلا أدوات متعدّدة لنشر وبسط الأفكار المركّبة عن الكون - الأفكار التي حملها الكاتب في نفسه مثل «رؤيا شاملة» مثل مبدأ «نموِّهِ الروحي» - على حد تعبير فياتش لسلاف إيفانوف.

إن دوستويفسكي يدرسُ الدربَ الحُرّ للوعي الجديد، الممتلئَ بأقصى درجات الشك، والمُبرحَ بالإغواءات الجديّة، التي بادرهُ بها مطلعُ القرن العشرين. أمّا أوّل من سيسير في هذا الدرب المؤلم - فهو روديون راسكولنيكوف[1].

إن إخفاقات «إنسان القبو» الضعيف «الزاحف» من «قبوه» ومُحاولاته التعامل مع البشر الآخرين، جعلته أنوفاً بشكلٍ مَرَضي وغير طبيعي،

1- بطل «الجريمة والعقاب»، الذي يقوم بقتل المرابية العجوز /المترجم/.

ومنسياً في «زاويتِه تلك»، في عتمةِ «قبوهِ أعمق فأعمق»، أما راسكولنيكوف فيخرج من «زاويتِه» لكن ليسَ ليعود إليها مجدَّداً. إن تمرّدَ راسكولنيكوف - ليسَ تمرُّد الراكعين، وهو يختلفُ عن أبطال روايات دوستويفسكي السابقة، وأبطال قصصه، بأنه ذات حقيقيّة، «صَاحبة خصال حميدة»، ولكنّها ضالة، وتمتلكُ الحقَ في اختيار دربها الخاصة المستقلّة. ولكن أي دربٍ تلك؟

إن الكاتب يتذكّرُ طبعاً براهينَ بيلينسكي وبيتراشيفسكي الإلحاديّة: «غير المؤمن، يرى بين الناس المُعاناة، الكُره، الفقر، الاضطهاد، عدم التعليم، الكفاح المستمر، التعاسة» فيبحث عن طريقٍ للمساعدة في كل هذهِ المصائب، ولا يجده، فيتساءَل: «إذا كان هذا مصير الإنسانيّة، فليسَ هناكَ عناية إلهيّة، ليسَ هناك بداية سماويّة للعالم!

وعبثاً سيحاولُ الواعظون والفلاسفة أن يقنعوه، أن السماوات تعلنُ مَجد الرب. لا - سيقول لهم - مُعاناة الإنسانيّة تُعلنُ بصوتٍ أعلى شرور الرب.»[١]

متمرّداً ضد العالم، المتآكلِ تماماً بالأمراض الاجتماعية، والنماذج الأخلاقيّة الفقيرة، لم يؤمن راسكولنيكوف بإمكانيّة إيجاد هذهِ الوسيلة أو تلك لعلاج الأمراض الاجتماعية، أو لتغيير المظهر الأخلاقي العام للإنسانيّة. «هكذا حدثَ حتى الآن، وستكونُ الأمور كذلك دائماً» راسكولنيكوف - إنسان «مرحلة الحضارة»، إنسانُ زمن التفكك الشامل، الذي لا يستطيعُ عَبْرَهُ أن يرى أي مخرجٍ، ما عدا التمرّد الشخصي.

ولهذا يبقى هناكَ حلّ واحد - الانفصالُ عن الآخرين، الانفصال هكذا، كي يصبُحَ فوقَ العالم، فوق عاداتِهِ، وأخلاقِهِ، كي يتجاوز القوانين

١- كاشكين ن س، حديث عن مهمّات العلوم الاجتماعية عملُ البيتراشيفسكيين. المجلّد الثالث - موسكو، لينينغراد، ١٩٥١.

الأخلاقيّة الأبديّة، ولا يقدر على ذلك إلا البشر غير العاديين، أو كما يؤمن راسكولنيكوف - أولئك تحديداً الذين يملكونَ الحق والجدارة أن يُسمَّوا بشراً. أن تصبُحَ فوق العالم وخارجهُ - فذلكَ يعني أن تُصبِحَ إنساناً، أن تمتلك حُريّةً حقيقيّةً، أن تخرجَ من «القبو» الواهن العفن. ويخرُجُ راسكولنيكوف ليتحقق من قدرتِهِ على أن يصبحَ إنساناً. ليسَ ليغيّر العالم، بل ليغيّر وضعَهُ في هذا العالم، هذهِ كانت فكرتُهُ. كان راسكولنيكوف يؤمن، أنّ التاريخ كلّهُ يؤكد تصوّرَهُ عن «الفئتين»: فئة النابوليونات، وفئة «المخلوقات المُرتجفة». مراراً كان يتراءى أمامَهُ نموذجُ نابليون - الإنسان الرب، المتخطّي للحدود المسموح بها لأجل «السيطرةِ» غير المحدودة، لأجل السلطة على العالم والبشريّة.

غير أن الذات، المأخوذة «بالعَمْلَقة» تحوّلُ حُرّيتَها تلك إلى سيطرةٍ واستبداد، وعندها يظهرُ السؤال: هل كلُ شيءٍ مسموح به؟ وساعتها يتمُّ اختبارُ حدودِ الطبيعةِ البشريّة. إن المشكلة الأخلاقيّة تتشكّلُ على صورةِ مسألةٍ غير مُعقّدة: هل يحقُ للإنسان، الذي «يعلو على الطبيعة» - النابليون، الذي تُعدُّ لهُ مكانة استثنائيّة في التاريخ، أن يقتُلَ كائناً حقيراً. شريراً، لا يعني أحداً - عجوزاً، مُرابيةً، لكي ينظّفَ لنفسهِ الطريق نحوَ نفع الإنسانيّة ورخائها؟

ويُحلل راسكولنيكوف طويلاً تجربتَهُ القاسية، فعلَهُ النابولوني، فتتكشفُ أمامَهُ بكل قسوة حقيقةٌ مرعبة «لم يتجاوز، لم يتخطَّ، لقد بقيَ على هذهِ الضفّة» لقد أتضحَ أنّهُ شخصٌ عادي. «أولئكَ الأشخاص «النابوليونات»، خطوا خطواتهم تلك، ولهذا فهم محقّون، أمّا أنا فلم أفعل، أصبحتُ أعيشُ، ولا أملكُ الحقَ أن أسمحَ لنفسي بتلكَ الخطوة!» -

ولأنّهُ فقط لم يتّحمل - «لم يتخطَّ»، وبقيَ «مخلوقاً مُرتجفاً» - فقد رأى راسكولنيكوف جريمته كما يلي: «لم أقتل العجوز - لكنني قتلتُ

نفسي». ولكن لماذا «نفسي»؟. لأنّهُ لم يستطع أن يتغلّب على الله في داخله. رُبّما لأنّهُ ما من شيءٍ يمكن أن يُغني - كما يعتقد دوستويفسكي - عن الوصيّة التي تقول: «أحبَّ قريبك، كما تحب نفسك»، «فالقريبُ» أعزُّ وأغلى من «البعيد»، مثلما الروح الإنسانيّة الحيّة أغلى من التجريد العاري. ولأجلِ ذلك يعاقبُ راسكولنيكوف نفسه بشدّة، ويُحاكِمهُا محاكمة ذاتية لا رحمةَ فيها، وليسَ لدى بطل دوستويفسكي من عقاب أشد وطأةً، من عقاب تعذيب الذات.

إن الجريمة التي اقترفها روديون راسكولنيكوف وضعت بينَهُ وبينَ الناس حداً لا يمكن تجاوزه: «الأحاسيس المُظْلِمة، المنبثقة عن العُزلة المُعذِّبة اللا نهائيّة، عن الغُربة التي أثّرت في روحِهِ كثيراً وعن وعي». الغربَةُ عن الناس، الانفصال عنهم - هذهِ هي ظروف ونتائج الجريمة الراسكولنيكوفيّة - الجريمة فوق البشريّة، جريمة الإنسان الرب.

هذهِ الرؤيا المهمة «في خاتمة الرواية» للعالم الميّت - «للحشدِ المجنون المؤلّف من وحداتٍ بشريةٍ متعادية» - هذا النموذج الفظيع يرمُز إلى ذلكَ المجموع التراجيدي، الذي يصلُ إليهِ البشر بقدرٍ محتومٍ، إذا ما سيطرت عليهم فكرة الفرديّة المطلقة.

عذاب والوحدةُ والغربةُ أمور لن يحتملها راسكولنيكوف، ولهذا فسيذهب إلى عائلة مارميلادوف، إلى سونيا. لقد تبيّنَ أن «الفِعل، الحياة والحب» أمورٌ ممكنة مع الناس فحسب - من خلال عِشرة بشريّةٍ إنسانيّة. سونيا مارميلادوف تنحني أمامَ المعنى العظيم للوجود. رُبّما لم يكن عقلُها قادراً على استيعابه، لكنّهُ قادرٌ دائماً على الإحساس به. «ما الذي يمكن أن يحدُث، كي يغدو الأمرُ مُتعلّقاً بحلّي أنا؟ ومن ذا الذي وضعني قاضياً هنا، أقرّرُ: من يعيش، ومن يموت؟» - إن تأمّلات البطلة ستجدُ لها صدىً في عبارات الكاتب، فبحماسةٍ واضحة سيتحدّثُ في هذا السياق مؤلّفُ

«يوميات الكاتب»، في الجزء الخاصِ بـ تموّز - آب عام ١٨٧٧، وسيكونُ كعادتِهِ في «المذكرات» صريحاً، وهناك سيطرحُ تساؤلاتِه عن «المحاكمة من قبل البشر» و «المحاكمة من قبل الرب»، وسيحلّلُ في روح التعاليم المسيحيّة ارتباكَ وذهول سونيا: «من وضعني قاضياً هنا، أقرر: من يعيش، ومن يموت؟»، «لا تقتُل» - مبدأ حرٌ لتصرّف المؤمن، المسيحي، وخرقُ هذا المبدأ يُضاعِفُ الشرَ بشكلٍ مُباشر، إنّهُ «انفصالٌ» عن الرب. إن حكمَ الربِ هو العادلُ فحسب، وهو وحَدهُ مطلقٌ في عدله. لكنّ هذا الأمر لا يعني أن علينا أن نمرَّ صامتين بمحاذاةِ الشر الأرضي، فالإنسان يستطيعُ - مكافحاً ضد الظلمِ الأرضي، ومتخطّياً مُمانعة الشرِ - أن يُضحي بنفسِهِ لأجلِ «قريبهِ». وهذهِ التضحية - مُباركة، وهكذا يظهرُ «قانون الحب». شهيرةٌ جداً عبارةٌ دوستويفسكي «الجمال ينقذُ العالم». والجمالُ بالنسبةِ للكاتب - مقولَةٌ أخلاقيّة في الدرجة الأولى وليست جمالية بحته. إنّه الأنموذج الأعلى للإنسان مُشخّصاً أو مُتمثّلاً بالمسيح. حقيقةً إن الصلة الموغلة في القدم بينَ الجمال والإنسان، تخلقُ ثنائيةً في مفهوم الجمال - تماماً مثلما نجد الإنسان نفسه غير واحد، هناك جمالٌ في نموذج «العذراء»، وهناك جمالٌ في نموذج «سدوم»، ذي هارمونيا خاصة مع إشارةٍ سالبة. في رواية الكاتب الأخيرة «الأخوة كارامازوف» ليسَ عبثاً تترددُ العبارة التي تقول: «هنا الشيطان والرب يتصارعان، وأرض المعركة - قلوب الناس»، إن هديّة الاختيار الحُر لا تُعطى للإنسان إلا بمشقّة، لكنّ معرفتَهُ بالأفكار السامية، بالمثال، وإن كان مُختَرَقاً في الحياة، فإنها ترفَعُ من قَدْرِ الواقع، بل ترفَعُ قَدْرَ الإنسان.

إن المواصفات المطلقة لحُريّة الإنسان تتمثّلُ في المسيح، في الاتحادِ بالهدفِ والذوبان فيه، في نهاية الطريق. إن الوصول على مثل هذهِ الهارمونيا - هو الجمالُ الخلاّقُ السامي ليسوع المسيح.

منذُ الصفحات الأولى لرواية «الأبله»، تبدأ موضوعةُ الجمال بالظهور. إن بطل الرواية الرئيس الأمير ليف نيكولاي فيتش ميشكين «شخص إيجابيٌ رائع»، وقد بلغَ - وفق تعبير م. ي. ساليتكوف - شيدرين «توازناً روحيّاً وأخلاقيّاً كاملاً»، إنهُ يحملُ في أعماقِهِ «سرّاً» عظيماً - «سر البراءة»، إن ذاته غير الاعتيادية تشعُّ بضوءٍ ما، ضوءٍ سريٍ للرؤى الروحيّة الساطعة، لكأنّهُ تمثّلَ في أعماقِهِ «نموذج يسوع» في جمالِهِ وسلامِهِ «وسيتركُ الكاتبُ في موادِهِ التحضيريّة لهذهِ الرواية مُلاحظةً تؤكد هذا الأمر، حين يسجّلُ في موقعٍ ما: «الأمير يسوع»». ومن خلال إيمانِهِ بقدرةِ الإنسان على بلوغ المثال عَبْرَ طريقِ التطوير والتهذيب الذاتي الأخلاقي فحسب يبحثُ دوستويفسكي حَولَهُ فيجد الناس الرائعين الإيجابيين: مّمن عاصروه، واحدٌ من أولئك كان فيودر بافلوفيتش غاز «١٧٨٠-١٨٥٣»، الطبيبُ الرئيس لسجون موسكو، الذي سعى لتحقيق تحسينٍ كبيرٍ في حال السجناء، وهو المؤسس لمشافي السجون، ولمدارسِ أبناء المعتقلين، وهو الذي وزّع كل ثروتِهِ وماتَ محروماً وفقيراً.

في «ذكريات وأفكار» للكاتبة الروسيّة يلينا توب المنشورة عام ١٨٦٢، في مجلّة أخوة دوستويفسكي «الزمن» تقول عن فيودر غاز: «في كل قَسَمَة من قسمات الدكتور غاز الرائع تتنفّسُ الكرامة والدماثة اللا متناهية والطيبة»، وقد أطلقَ معاصرو هذا الرجل على حياته صفة «المسيحيّة». وبالإضافة إلى ذلك فقد رأى فيودر ميخائيلوفيتش دوستويفسكي الوادعة الحقيقيّة، والروحانيّة السامية في أرباب الشعائر الدينيّة أمثال: سيرغي رادونيجسكي، فيودوسي بيتشرسكي، تيخون زادونسكي - الآباء المقّدسون في الكنيسة الأرثوذكسيّة. وقد استعانَ مؤلّفُ «الأبله» بالنموذج الإنجيلي لسرفانتس «دون كيخوت»، وبقصيدةِ بوشكين التي يقولُ فيها «عاشَ فوق هذهِ الأرض فارسٌ فقير...».

ثُمّ جاءت رواية دوستويفسكي الأخيرة «الأخوة كارامازوف»، لتصبحَ أسمى مبحثٍ فني عبقري حولَ «سر» الإنسان.

تبدأ الروايةُ «بمحاكمة» ديمتري كارامازوف، في صومعةِ الأب زوسيما، حيثُ يقومُ الأبُ «بالانحناء لمعاناتهِ القادمة المخيفة»، وتنتهي الرواية بمحاكمهِ البطلِ وإدانته، وهو البريء من جريمة قتل أبيه.

إن التحقيق ومحاكمة ديمتري الموعود بالسجن، ليست إلا درجة واحدة «في مسيرة الروحِ في درب البلاء»، مما يُفضي إلى انبعاث الإنسان. ولقد كانت فكرةُ التطهّر بالمعاناة والألم قريبة - بشكلٍ خاص - من فكر دوستويفسكي.

عام ١٨٧٣ يتحدّثُ في «يوميات الكاتب» عن الألم كحاجةٍ روحيّة للشعب الروسي الأرثوذكسي، نابعة من وعي الذنوب الشخصيّة. «تُشترى السعادةُ بالألم» - كتبَ هذهِ العبارة، وهو لا يزال يعملُ على «الجريمة والعقاب».

«يجب أن تَعْبُر مُثْقلاً...»، وأن تختبر وتجرّب كل شيء «مع» و «ضد»، لكي تجد دربَ الحريّة الحقيقي - الدرب الذي يقودُ إلى الحقيقة.

إن «الانبعاث» يعني لديمتري تجديد العلاقات الإنسانيّة المحطّمَة؟ العودة إلى الشعب، إلى أخلاقيّاته، ومثل هذا الانعطاف للمسألة طبيعي في السياق التاريخي - الفلسفي لعقيدة الكاتب، التي كانَ قد أطلق عليها في ستينيّات ذلك القرن تسمية «الشعبيّة»[1]، وفي ذلك الوقت كانت الاتجاهات

١ـ الشعبيّة: هي إحدى التيارات الفكرية الاجتماعية الروسيّة ١٨٦٠ وتسميتها في الأصل مشتقة من كلمة «بوتشفا»، التي تعني التّراب أو الأرض، ومن دعاتِها: فيودر دوستويفسكي، ا. ا. غريغوريف، ن. ن. ستراخوف، وقد دعوا لها في مجلّتي «فريميا ـ الزمن» و «إيبوخا ـ الحقبة أو العصر» وبشّروا باقتراب ظهور مجتمع متعلّمٍ واعٍ من الشعب، على أساسٍ ديني اخلاقي /المترجم/

الرئيسة للأفكار الاجتماعية الروسيّة - الغربية والسلافية - قد دخلت مرحلة الأزمة وجاءت المحاولة الجديدة لانبثاقِ الوعي القومي الذاتي للثقافة الروسية تحت اسم (الشعبية) موفقة جداً لقد افترض دوستويفسكي أن أي ثقافة هي دائماً ثقافة قوميّة أو شعبيّة، وبالتالي فلا بدَ من التوجّه على الشعب، وقد عرفَ الفلاحُ البسيط وتحديداً - وفق إيمان دوستويفسكي العميق - سِرّ الحياة الحقيقي، واحتفظَ في داخله بشكلِ الله.

إن الإنتلجنسيا الروسيّة المُتأورَبة، لم تولد عضوياً من رحم الحياة الروسيّة، فقد انفصلت - وفق رأي الكاتب - عن الرحم، «ولماذا عليها أن تثبُتَ كثيراً؟ وبماذا عليها أن تتمسّكَ كثيراً، وبأي شيءٍ يمكن أن تتشبث؟»، إنها لم تكن غير قادرة فحسب على تقديم يد العون للشعب بشكلٍ فعلي في فقرِهِ، وفي وضعه البدائي، بل فقدت ذلك الشيء «لأجلِ من» الذي يجعل «الوعي العفوي» وعياً حقيقياً.

«إن الطبقة العُليا المنفصلة عن الشعب، لن تتجدد بقوى جديدة، مما يؤدي إلى إصابتها بالوهن والضعف، فلا تنتج شيئاً. وفي غياب نقطة ارتكازٍ قويّة لهذهِ الطبقات، لن تستطيع أن تمتلك هدفاً يوضَعُ بوضوح، ويُرسَمُ بدقّة» - هذا ما كتبه دوستويفسكي في مقالتِهِ «معسكرُ المنظّرين»، ولهذا السبب فقد رأى الكاتب أنّه باقتراب «الشريحة المثقّفة» من الشعب، وظهور «الشعبيّة» - يمكن إنقاذ روسيا.

لقد بدت الأمّة لدوستويفسكي مثلَ ميكانيزم متكاملٍ غامض، و «الشعبيّة» تحملُ مواصفات «كاراكتر» المعرفة الحقّة بروح الشعب، وبداياتِ وجوده، ولهذا كلّه فقد كان الاعتقادُ الشعبي في التطهّر بالألم قريباً جداً من فكرِ ديمتري كارامازوف، وإلى جانب ذلك، فإننا نجدُ لدى دوستويفسكي في العمل نفسه بطلاً آخر، ثائراً متمرّداً ضدَ عالم لا أخلاقي فارغ، إنه إيفان كارامازوف، الذي كان واثقاً أنهُ يمكن تبرئة

الذات بطريقةٍ واحدةٍ فحسب - العزوف عن الحياة. عن «سخافة» و «خواء» العالم. لقد كان قادراً أن يجدَ لأي موضوعٍ أو مبحثٍ معيّن نقيضَهُ. إن وعي إيفان وذكاءَهُ كانا كفيلين بتحطيمِ أي «مثال»، وبتدمير المعنى و «الجمال».

إن الديالكتيك اليائس لإيفان يطوّحُ بأمرينِ أساسيين، بالنماذج المثالية - الخالدة والعالمية -، وبمسوّغينِ عامين ممكنين - ديني وإنساني.

لم يكن يعنيهِ إثبات وجود الله، لكن الأهم بالنسبةِ لَهُ أن يفهَمَ، هل بالإمكان أن نبرّرَ أو نسوّغَ عالم الله؟

إن الهارمونيا الموعودة لا تُعادلُ «ولو دموعَ طفلٍ واحدٍ مُعذّب». إن دموعَهُ تلك - يحاكِمُ إيفان - «يجب أن يُكفَّرَ عنها، وإلا فلن يكون هناك هارمونيا أساساً»، ولكن بماذا يمكن أن نكفّر عن تلك الدموع؟ بالانتقام؟ ولماذا الانتقام، لماذا الجحيم للمعذّبين؟ «وأي هارمونيا هذه. إذا كانَ لا بُدّ من الجحيم: أنا أريدُ أن أسأل، وأن أضمّ...، أنا أريدُ أن لا يُعاني الآخرونَ بعد الآن. وإذا كانت مُعاناةُ الأطفال قد صُرِفت لإتمام حجم ذلك العذاب، اللازم لشراء الحقيقة، فأنا أؤكّد مُسبقاً أن كل حقيقة العالم لا تُعادلُ ذلكَ الثمن». إن العفوَ والانتقام - ضروريّان بشكلٍ متساوٍ، ولكن بمقدار تعادُلهما - هما غير ممكنين، هما مستحيلان.

العقل «الإقليدي»، لا يؤمن بخلود الإنسان، ولهذا يسعى إلى تحقيق السعادة لبشر «القرن الذهبي»، تحديداً على الأرض - إن مثل هذا العقل لا يستطيع حقيقةً أن يجد مُبرّراً «لدموع الأطفال»، والهارمونيا القادمة في هذهِ الحالة غير أخلاقيّة! وقد اعترفَ دوستويفسكي أنّ حُججَ إيفان - في عملهِ الأدبي - جاءت في سياق الوعي الجديد لنهاية القرن التاسع عشر كأكبر قوّة دحض للأفكار الدينيّة عن الهارمونيا القادمة بعد قيامة المخلّص الثانية.

وكما يرى الكاتب ليسَ لهذهِ المشكلة فعليّاً حَلٌّ عقلانيٌّ تماماً، إن قوانين المنطق تفرضُ عمليّة نقضِ فكرة سعادة عالم الرب ورفاهيّته. ولكنَ وعيَ دوستويفسكي الإيماني يستنبطُ مخرجَهُ الخاص: إن اكتشاف معنى الحياة ممكنٌ فقط من خلال التعامل مع الحياة على أساس محبّة «الحياة الحيّة» - محبّة الله - قبل المنطق، قبل النفس! أما بالنسبة للعقل غير الإقليدي فإن تراجيديا العالم تبدأ وتنتهي ليسَ على سطح الأرض!

إن «الخالق» نفسه هو «الحب»، والحب إذاً، والخير لا يمكن أن يكونا إلا حُرّين. وهذا يعني تحديداً أنهما لا يستطيعان إلا أن يجعلا الإنسان حُرّاً بشكلٍ كاملٍ، أي قادراً على عمل الخير، مثلما هو قادرٌ على توليد الشرِ بحريّته تلك.

إن طبيعة الحُريّة هذهِ تحديداً لم يفهمها - كما يرى دوستويفسكي - إيفان كارامازوف، عندما حَمّلَ الخالق ذنبِ اقترافِ الشر.

يُحدقُ فعليّاً بإنسان الوعي الجديد خطرُ تحويل الحريّة بحدِ ذاتِها إلى هدف، في حين يجب أن تكون درباً إلى الحقيقة. إنَ تمرّدَ إيفان كارامازوف و «إمبراطوريّة الهارمونيا» المطروحة من قبله - جمهوريّة المفتّش الأكبر - ليسا إلا نقداً للمعتقدات الإنسانيّة، القادمة من عصر النهضة، من التطوّر التنويري للقرن الثامن عشر، وأخيراً المغلّفة بملامح الاشتراكية الطوباويّة. إن بطل دوستويفسكي يبلغُ ذُرا الإدراك العقلي، ولكن الاعترافَ «بالعقل المحض» كقيمةٍ مؤسسةٍ وأصيلة في وجود الإنسان، يُعَدّ أمراً قاتلاً من وجهة نظر الكاتب. إن إنسانيّة إيفان وتفكيره «ذا الأسس العلميّة» يحرمان البطل من إمكانيّة الوعي الكامل متعدد الجوانب والشامل للوجود. إن الحريّة المطلقة تؤدي إلى الاستبداد المطلق، الذي يحاول أن يُغذّي قسراً الإنسانَ بالسعادة في عالمٍ محكومٍ بالمبادئ العقلية العلميّة، وضمن نظامٍ قائمٍ على الإكراه.

إن فكـرة الحريّـة تلفـتُ الانتبـاه بجانبيهـا المتناقـضين. وفي هـذا رأى دوستويفسكي فضحاً ذاتياً للعقل «الإقليدي»، حيثُ الإرادةُ الذاتيّة، وحريّةُ تحقيق الذات يجب أن تقودا الذات إلى نفي الله، والعالم والإنسان. إن البنـاء «المثـالي» للعـالم، المـصوغ وفـقَ «صـيغة الـسعادة» يظهـرُ في قـصيدة إيفـان كارامـازوف «المفـتّش الأكـبر» بـصورة نظـامٍ اشـتراكي قـاتمٍ وكئيـب، مؤسس على فكرة تحرير الإنسان من الحريّة.

إن فكـرة الجمهوريـة الفانتازيّـة «للمفـتّش أو القاضـي الأكـبر» تطـوّرت في منطـق إيفـان حتـى حـدّها الأقـصى، «حتـى المثـال»، المخـوّل بتدمير المثال اليسوعي، بل الإنـساني بعامـة، والـذي يتقـوّض بنفسِهِ مـن داخله بفعلِ تناقضات داخليّة «لا يستطيعُ احتمالها». تتفسّخُ وتتفككُ وحـدةُ العـالم، وحـدة «الحيـاة الحيّـة»، ويـصبح كـل شـيء وهميّـاً وفانتازيّاً، لا حولَ لَهُ ولا قوّة. وضد هـذا التفكك تقفُ وحدةُ الطبيعة الحيّة، يقفُ الإنسان!

إن الحقيقـة الأخلاقيّـة - وفـقَ رأي دوستويفـسكي - لا يمكـن أن تُكتشف أو تُطبّق وتُحقق في بنيةٍ من الأفكار المجرّدة. التواصلُ بينَ البشر، والعلاقـاتُ الأخلاقيّـةُ الحقيقيّة بـين النـاس أشياءُ لا يمكـنُ تأسيسُها على رعبٍ أنانيٍ عميق، ولا على فكـرة الـذاتِ العملاقة أو المتضخّمة، أو على العقليّة الطوباويّة. إن الحقيقة الأخلاقيّة يمكن أن تُقدّم نفسها فقط في أفعال الضمير الناهض المنبعث.

والمسؤوليّةُ عن وضع العـالم - مـن وجهة نظـر دوستويفسكي - تُحـدّدُ في جو الأنشطة الأخلاقيّة المعيّنة والأفعال المختلفة، فيبدو كل واحد منا مُذنباً في تهافتِ العالم وعاره.

إن البعث الأخير للإنسانيّة وتجددها يحدُثانِ عندما تعـي «كل العقول» لا طبيعيّـة «الفردانيّـة» و «الاستوحاد» و «... الأمـرُ في غاية البـساطة - يقـولُ

بطلُ دوستويفسكي في قصتِهِ الخياليّة: حلم الشخص المُضحك - في يومٍ ما، في ساعة ما، كل شيءٍ سيُبنى مُباشرةً! المُهم - أحبّ الآخرين، كما تحب نفسك، هذا هو الأساس، وهذا كل شيء، وفوق ذلك لن يلزمك شيء: في تلك الساعة تكتشف كيف يتمّ البناء».

لقد كان الشخص المُضحك مُحقّاً أن يؤكّد ذلك، لأنّهُ «رأى الحقيقة» في حُلمِهِ الخيالي:

«القرن الذهبي، الجنّةُ على الأرض أمرٌ مُمكن! البشر يمكن أن يُصبحوا رائعينَ وسعداء، وألا يفقدوا القُدرة على العيش فوق الأرض!».

في أعمال ف. م. دوستويفسكي الإبداعيّة لا يمكن أن نفصل الفنان عن المفكّر، الذي يجسّدُ أفكارَهُ عن بناء العالم ليسَ بأسلوب أو سياقٍ علمي، ولكن من خلال أعمال أدبيّة فنيّة. وللحقيقة، مع مُعالجةٍ موسوعيّةٍ للأمور، وإعادةِ فهمٍ عميقةٍ للمعتقدات والمكوّنات الثقافيةِ - التاريخيّة الخاصة بفكرِهِ نفسِهِ، الذي اتحد فيهِ بسعادة الشعورُ والحكمةُ، القلبُ والفكر.

وككاتبٍ - مفكّرٍ يشدُّ دوستويفسكي باهتمام كبيرٍ القارئ الحديث. إن بحثَهُ الفلسفي كفنّان، وتجربته الروحيّة الشخصيّة، يجعلانه قادراً على النظر إلى الدين كتركيبٍ دَهْريٍّ من تجارب الإنسانيّة، تركيبٍ متبلورٍ من صيغ واسعة لأمنيات الناسِ قاطبةٍ، لأحلامهم وطموحاتهم. علينا ألا نُهمل معاني دروس دوستويفسكي، مع أن التعلّم على يديّ الكاتب صعبُ في بعض الأحيان. لن يكونَ بإمكاننا - من حيث المبدأ - أن نفهمَ عبقرية هذا الكاتب الفيلسوف واختلافه أو أن نضبطَ العلاقة الداخلية معه، دون انتباهٍ عميقٍ لطبيعةِ عالمِهِ الروحي، ودونَ تحضير النفس مُسبقاً للتعاملِ بثقةٍ كاملة مع «صراحتِهِ»، ومحاكمتِهِ وفق القانون الذي وضعَهَ بنفسِهِ ولنفسه.

إن إبداع دوستويفسكي «لا يقبلُ البهرجة والعجلة»، فحجم أفكاره، وأحاسيسه الدينيّة الرهيفة، يتطلّبُ من القارئ عملاً عقلياً وروحيّاً كبيراً، وربّما كانَ هذا العمل الجمعي قادراً إلى حدٍ ما وبشكل بانورامي على تقديم أهمِ الموضوعاتِ والمشكلات الرئيسة الخاصة بإبداع دوستويفسكي، مما يجعلنا نقتربُ من فهم هذا الكاتب العظيم، الكاتب الحديث، ويُسهّل حوارنا القادمَ مَعهُ.

ك. ي. تيونكين

م. م. ستاخانفا

الباب الأول

من
روايات دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

[...] معروفة وجهة النظر التي تقول: الجريمةُ ما هي إلا احتجاج ضد بناءٍ اجتماعي غير طبيعي - لا أكثر، ولا أقل، وما من سببٍ مُفترضٍ سوى ذلك!

صاحَ بورفيري بتروفيتش:

- ها أنتَ تكذب! وانتعشَ ثُمّ راح يضحك وهو ينظرُ إلى رازوميخين، الذي كان يزداد هيجاناً. وتابعَ رازوميخين محموماً:

- نعم، ما من سببٍ آخر، من وجهة نظر الاشتراكيين. أنا لا أكذب، سأُريك كتبهم: كل شيء بالنسبة لهم مَردُّهُ إلى «الوسط السيئ» - ولا شيء سوى ذلك[1]، إنّها جُمْلتُهم المفضّلة! ومن هنا يَرون أن الجرائم جميعها تزول دفعةً واحدة إذا ما بُنيَ المجتَمعُ بشكلٍ سليم، فما من ضرورةٍ عندها للاحتجاج، ويصبحُ الناسُ من لحظتها صالحين. الطبيعة الذاتيّة لا تؤخَذُ بالحسبان، ولا مكان لها عندهَمُ، إنهم لا يعتقدون أن الإنسانيّة تصلُ في النهاية وبشكل ذاتي وبتطوّر تاريخي (حي) إلى مجتمع سليم، بل يتصوّرون نظاماً اجتماعياً يبزُغُ من رأس رياضي ما، فيبني العالَمَ كُلّه في الساعة نفسها، ويجعلَهُ في لحظةٍ واحدة صالحاً ومبرأً من الإثم، وذلك قبلَ أي إجراءٍ حياتيٍّ، ودون أي دربٍ تاريخيٍ حي.

ولهذا السبب فهم لا يحبّون التاريخ: «ففيهِ لا تجدُ إلا القباحاتِ والحماقات فحسب» - وكل ذلك لا يمكن شرحُهُ إلا من خلال الغباوة! ولهذا فهم لا يحبّون تفاعل الحياة الحيّ: لا تلزمُنا «الروح الحيّة»! الروحُ تتطلّبُ الحياة، الروح الحيّة لا تخضعُ للميكانيك، وهي ريّابة، ورجعيّة!

وهنا ولو من كاوتشوك يمكن أن تصنعَ، تفوح منها رائحة الموت - ولكن بالمقابل ليست حيّة، ليست ذات إرادة، عَبدة، لا تتّمرد، ونَصِلُ بالنتيجة إلى تلك الكومة من الآجر الموّزعة غُرفاً وممّراتٍ في فالانستيرا سفيلي[٢]! إن تلك الفالانستيرا جاهزة، ولكنّ طبيعتكم الذاتيّة ليست جاهزة لهذهِ الفالانستيرا حتى الآن، لأنّها تريدُ الحياة، لأنّها لم تنجز بعد تطوّرها الحياتي، ولأن الأمر لا زال مبكراً على المقبرة! بالمنطقِ وحده لا يمكن أن نقفز فَوق الطبيعة! فالمنطقُ يتوقّعُ ثلاثَ حالات أو وقائع، مع أن عددها مليون! هل نحذفُ هذا المليون لأجلِ مسألةِ الرخاءِ وحدها!؟ إن مثل هذا الحل للمشكلة هو أسهل الحلول! واضحُ بإغراء، وما من حاجةٍ للتفكير! المهم - أنه لا داعيَ للتفكير، وستتسعُ ورقتان مطبوعتانِ لسرِّ الحياةِ كلّه!

- ها هو ذا يتحرّرُ ويُطبّل! يجب أن يُربطَ من يديه! قال بورفيري ضاحكاً، ثُمَ تابَعَ ملتفتاً إلى راسكولنيكوف:

- تصوّر هذا ما حدثَ مساء أمس تماماً، في غرفةٍ واحدة، ترتفعُ فيها ستةُ أصواتُ، وكان قد سقانا قبل ذلك حتى السُكر، هل تستطيع أن تتصوّر ذلك؟ لا، يا أخي، أنتَ تكذب: «الوسط» يعني كثيراً في الجريمة، أنا أؤكد ذلك.

- أنا أعلم أن «الوسط»، يعني كثيراً في الجريمة، لكن أخبرني: لو اغتصبَ رجلٌ أربعينيٌ بنتاً في العاشرة، فهل نعتبر أن «الوسط» هو الذي دفَعهُ إلى ذلك؟

- حسناً، بالتفكير العميق، يمكن أن نعتبر الوسط المحيط قد دفعه إلى ذلك - قال بورفيري برصانةٍ مُدهشة - إن الجريمة المُقترفة بحق الفتاة الصغيرة يمكن جداً أن تُعلّل بتأثير «الوسط» [...] بخصوص هذه الأسئلة كلّها، الجريمة، الوسط المحيط، البنات. فقد تذكّرتُ الآن مقالةً لكَ منشورة - وقد طرحت موضوعاً شيقاً على أي حال - مقالة عنوانها «في

الجريمة».. أو ما شابه ذلك.. لا أتذكّر الآن! فقد نسيتُ عنوانها. ولكنني استمتعتُ منذ شهرين بقراءتِها في صحيفة «الحديث الدوري». [....].

- لقد حلّلت، على ما أذكر، في تلك المقالة حالة القاتل النفسيّة خَلال مراحل الجريمة المختلفة.

- نعم يا سيدي، وكنتَ تؤكّد أن فعل ارتكاب الجريمة يُصاحَبُ دائماً بمرضٍ نفسي. وهذهِ وجهة نظرٍ أصيلة جداً، لكن ما أثار اهتمامي، ليس هذا الجزء من مقالتك بل فكرة دسستها في الخاتمةِ، وقد أشرت إليها بشكلٍ عابرٍ غير واضح، مع الأسف... وبعبارة واحدة - إذا كنت تذكر - تمتّ الإشارة إلى أن بعض الأشخاص على سطح الأرض يستطيعون.. ولنقل لا يستطيعون فحسب، بل يمتلكون كل الحق في ارتكاب كل أنواع الأعمال السيئة والجرائم، وما من قيمة لأي قانونٍ بالنسبةِ لهؤلاء.

وابتسم راسكولينكف مستهزئاً بهذا القول الذي أوّلَ كلامَهُ بصورةٍ مُراوغة.

- كيف؟ ما الأمر؟ الحق في اقتراف الجريمة؟ ولكن ليس بسبب «الوسط المحيط»؟ -

سأل رازوميخين بشيءٍ من الخوف حتّى، فأجاب بورفيري:

- لا، لا، ليسَ بسبب البيئة فقط، لكن جُلّ الموضوع في تلك المقالة أن الناس ينقسمونَ إلى فئتين: «العاديين»، و «غير العاديين». أما «العاديون» فعليهم أن يعيشوا في خضوع، ولا يملكون الحق في تجاوز القانون، لأنهم - كما ترون - عاديّون. بينما يملكُ غير العاديين الحق في ارتكاب كل الجرائم وتجاوز كل القوانين، لأنهم تحديداً غير عاديين. أظنُ أن الأمر عندك على هذهِ الصورة، إن لم أكن قد أخطأت؟

فَدمدمَ رازوميخين مُشتّتاً:

- كيف ذلكَ؟ من غير المعقول أن يكون الأمر على هذه الصورة..

وابتسم راسكولنيكوف هازئاً من جديد. وفهم مباشرةً حقيقة الموضوع وإلى أين يحاولونَ دَفْعَهُ وكان يعرفُ مقالَته، فقرّر أن يقبل التحدّي:

- ليس الأمرُ بهذهِ الصورة تماماً عندي - بدأ ببساطةٍ وتواضع - مع أنني أعترفُ أنكَ عرضت فكرتي بشكلٍ أمين، وإن أردتَ، بشكلٍ أمينٍ جداً «وكأنهُ كان يحلو لَهُ أن يوافق على أن فكَرتهُ عُرضت بشكلٍ أمين جداً»، الفرق الوحيد يتجلّى بأنني لم أؤكّد أن على جميع الخارقين، أو غير العاديين أن يقترفوا دائماً كُل أنواع الجرائم، كما تقول وإلا ما كانَ قد سِمُحَ لي أن أنشر تلك المقالة، على ما أظن. لقد أوحيتُ ببساطة شديدة أن الإنسان «غير العادي» يمتلك الحق، لكن ليسَ الحق الرسمي، بل الحق في أن يسمَحَ لضميره بتجاوز بعض القيود والعوائق، وذلك في حالة واحدة، يتطلبُ فيها تنفيذُ فكرته هذا التجاوز - وهي فكرة قد تكون أحياناً منقذة للجنس البشري». لقد تفضّلت وقلت أن مقالتي غير واضحة، وأنا على استعداد أن أشرحها لك بقدرِ ما أستطيع، ولعلّي لا أُخطئ لو افترضت أن هذا ما ترغب به، فاسمع لي يا سيدي.

في رأيي لو أن اكتشافات[٣] كبلر أو نيوتن - وبسبب جملة ظروف - ما كان لها أن تُصبح مُحَقّقةً ومَعروفةً وتجعلهما معروفين، إلا إذا ضحّى واحدُهما لأجلها بحياة شخص ما، أو عشرة، أو مئة، أو أكثر، ممّن يعيقونَ تلك الاكتشافات، أو يقفون في طريقها كعثرات فإن نيوتن يملك عندها الحق، بل يصبحُ من واجبه (أن يزيح) أولئك العشرة، أو المئة كي يصبحَ اكتشافهُ معروفاً للبشريّة جمعاء. ولكن هذا الأمر لا يمنحُ نيوتن الحق أن يقتُلَ من يخطر على باله قتلُه، أو أن يسرقَ كل يوم أحد الأسواق. وقد أوضحتُ - على ما أذكرُ - في مقالتي أن الجميع.. على سبيل المثال جميع المُشرّعين والمؤسسين ابتداء من أقدمهم وصولاً إلى أحدثهم، ومروراً بأمثال ليسورجوس وسولون ومحُمد ونابليون[٤]، كانوا مُجرمين، لأنهم في

الوقت الذي قَدّموا فيهِ قانوناً جديداً. كانوا يخالفونَ بذلك قانوناً قديماً، يُعَدّ مُقدّساً من المجتمع، وموروثاً عن الأسلاف، وهم بطبيعة الحال لم يتوقفوا عن سفك الدماء «حتى البريئة منها أحياناً، أو المبذولةِ ببطولة دفاعاً عن القانون القديم» إذا كان ذلك يُساعدهم في مهمّتهم.

ومن الغريب حقّاً أن أكثر أولئك الروّاد ومؤسسي البشريّة، إنّما هم بشكلٍ خاص من أخطرِ سفكةِ الدماء. وباختصار أقول ليسَ فقط العظماء منهم، ولكن حتى أولئك الذين يتجاوزون قليلاً الحد الوسط، ويتمكّنونَ ولو نسبيّاً من قولِ أشياء جديدة تجدهم مضطرين - بحكم طبيعتهم الخاصة - أن يكونوا قتلة، قليلاً أو كثيراً بطبيعة الحال. وإلا فلن يكون باستطاعتهم أن يتجاوزوا خط الوسط، وأن يظلّوا دون هذا الخط مسألة طبعاً لا يوافقون عليها - بحكم طبيعتهم الخاصة أيضاً - وبإيجاز شديد: ها أنتَ ذا ترى أنه حتى هذهِ النقطة ليسَ هناك شيء جديد، فهذه الأفكار طُبِعَتْ ألف مَرّة وقُرِئت مثلها. أما فيما يتعلّق بتقسيمي البشرَ فئتين مختلفتين: عاديونَ، وغير عاديين، فأنا أوافق أن في الأمر قَسْراً، ولكنني لا أطرحُ هنا أرقاماً محدّدة، إنّما أنا أؤمن بفكرتي الرئيسة، وهي تتجلّى بأن البشر - ووفق قانون الطبيعة - ينقسمون - (بصورة عامة) - إلى فئتين: فئة دُنيا «العاديين»، الذين يوجدون للتناسلِ والتكاثر وهم أشبه بالمواد، وفئة عُليا «غير العاديين»، وهم الذين يمتلكون الموهبة أو العبقريّة، التي تمكّنهم من أن يقولوا في بيئتهم (أشياءً جديدة). وهناك بطبيعة الحال تقسيمات فرعيّة كثيرة جداً، ولكن الصفات التي تميزّ هاتين الفئتين قاطعة: فالفئة الأولى، وهي فئة المواد، تضمّ عموماً بشراً محافظين بطبيعتهم، معتدلين، يعيشونَ على الطاعة ويحبّون أن يظلّوا مطيعين، وبرأيي أنه يجب أن يكونوا مطيعين، فهذا ما هو مقدر لهم، وليس في ذلك على الإطلاق ما هو مذلّ، أما الفئة الثانية فهي تضمُ أناساً يتجاوزون جميعاً

القانون، وهم بلا استثناء مدمرون أو ميّالون إلى ذلك بحكم إمكاناتهم، وجرائمُ هؤلاء الناس نسبيّة ومتنوعة:

ومعظمهم يطالبونَ، من خلال إعلاناتهم المتباينة جداً، بتحطيم الحاضر في سبيل مستقبلٍ أفضل فإذا كان لا بُدّ لأحدهم - لأجل فكرته - من أن يخطو فوق جثة، أو يخوض في بركة دم، فإنهُ - باعتقادي - سيعطي نفسه الحق في فعل ذلك وبضميرٍ مُرتاح.

وكل ذلك رهنٌ بفكرتِهِ نفسها وبأهميتها - أرجو أن تنتبهوا. بهذا المعنى تحديداً تحدّثت في مقالي عن حقِ هؤلاء في ارتكاب الجريمة «وأنت تتذكّر أن السؤال الأول الذي انطلقنا منهُ كان سؤالاً حقوقيّاً». وعموماً ما من داعٍ للقلق الكبير: فالجمهور لا يعترفُ لهؤلاء البشر بهذا الحق إطلاقاً، بل على العكس إنه يعدمهم ويعلّقهم على المشانق «كثيراً أو قليلاً»، وهو بذلك يقوم بوظيفتِهِ بشكلٍ عادلٍ كجمهورٍ مُحافظ، مع أن الأجيال القادمة من الجمهور نفسه ستقدّس هؤلاء في قادم الأيام وتنحني لهم «كثيراً أو قليلاً». إن الفئة الأولى دائماً - هي سيّدة الحاضر، والفئةُ الثانية - هي سيّدة المستقبل، الأولى تحفظُ العالم وتزيدُ عددَ أفراده، والثانية تُحرّك العالم وتقودُهُ إلى غاياته. وللطرفين حقٌ واحدٌ في الحياة. أي أن لهم جميعاً - من وجهة نظري - حقوقاً متساوية، vive la guerre eternelle[1]، حتى تبعث أورشليم الجديدة[٥] طبعاً!

- إذاً أنتَ على الرغم من كل شيءٍ تؤمن بأورشليم الجديدة؟

- أؤمن. أجابَ راسكولنيكوف بثقة، ثم خفض عينيه وثبّت بصره على نقطةٍ من السجادة كما كانَ طوال فترة حديثه الطويل.

- و و و.. باللّه هلِ تؤمن؟ اعذرني على فضولي.

١- فلتعش الحربُ الأبديّة «بالفرنسيّة في الأصل» /المترجم/

- أؤمن. كررّ راسكولنيكوف رافعاً عينيهِ باتجاه بورفيري.

- و و... ببعث أليعازار هل تؤمن[٦]؟

- أؤ... من. لكن لماذا تسألني عن كل هذا؟

- أتؤمن بذلك حرفيّاً؟

- حَرفيّاً.

- حسناً سيّدي... اعذرني فقد سألتك من باب الفضول، لكن اسمح لي أن أعودَ إلى حديثنا السابق - فهم لم يتعرّضوا دائماً للإعدام، بل إن بعضهم...

- ينتصرون أثناء حياتهم؟... آه نعم، بعضهم يدركون غاياتهم في الحياة، وعندها..

- هم الذينَ يعدمون الآخرين؟

- إذا كان ولا بد، مُعظمُهم يفعل ذلك. ملاحظتُكَ بشكلٍ عام ذكيّة.

- أشكركَ يا سيدي، لكن قُلَ لي: كيف نميّز أولئكَ الخارقين عن غيرهم من العاديين؟ أيحملون منذُ ولادتهم علامات فارقة؟ أنا أقصد أنه هنا لابُدّ من دقّة أكبر، بل لا بد من علامات خاصة واغفر لي هنا قلقي الطبيعي، قلق الرجل العملي الخيّر، أليس بإمكاننا أن نلبسهم رداءً معيّناً، أن يُطرحَ عليهم ثوبٌ ما مُخصص؟ لأنهُ - يجب أن توافق معي - قد يحدثُ خلطٌ ما، فقد يتخيل رجل من الفئة الدنيا أنهُ ينتمي إلى العُليا، ويبدأ «بإزاحة العوائق جميعها»، كما عَبّرت بشكلٍ موفقٍ جداً، عندها...

- أوه، هذا يحدثُ مِراراً كثيرة! وملاحظتك هذهِ المَرّة أكثر ذكاءً من سابقتها أيضاً.

- أشكرك، يا سيدي.

- لا داعي يا سيدي، لكن أرجو أن تلاحظ أن مثل هذا الخطأ لا يقعُ بهِ إلا أبناء الفئة الأولى، أي فئة «العاديين»، الذين «رُبّما لم أوّفق كثيراً

بإطلاق هذهِ التسمية عليهم». والذين على الرغم من ميلهم الفطري إلى الطاعة، نراهم تحت تأثير بعض النزوات الموجودة في الطبيعة، والتي قد نراها حتى عند الأبقار، يحبّون أن يتخيّلوا أنفسهم روّاداً، «مُدمّرينَ»، ويقحمون أنفسهم في جماعة «القول الجديد»، بإخلاص تام. وحقيقةً كثيراً ما يحدثُ في الوقت نفسه ألا يُلاحظوا (المجدّدين) الحقيقيين، بل ويزدرونَهم، كرجعيينَ، ومنحطين. ولكن - من وجهة نظري - ليس هذا الأمر خطيراً جداً، ومن حقّكَ ألا تقلق، لأن هؤلاء لن يستطيعوا في يوم من الأيام أن يخطوا بعيداً، وهنا قد لا تحتاج إلى جَلاّد، فهم سيجلدونَ أنفسَهم بأنفسِهم، لأنهم أخلاقيونَ جداً، فبعضهم يفعلون ذلك بأيديهم، وبعضهم الآخر يكلّفون أصحابهم بتأديةِ هذهِ المهمّة.

وقد يفرضونَ على أنفسهم أشكالاً مختلفة من الكفارات، علانيةً - تظهرُ كموعظةٍ وكدرسٍ بنّاء. والخلاصة: ما من داعٍ للقلق.. يوجد مثل هذا القانون!

- حسناً، لقد جعلتني من هذه الناحية أطمئنُ قليلاً، ولكن هناك مصيبة أخرى يا سيدي.

أخبرني من فضلك هل عددُ هؤلاء الناس «غير العاديين»، الذينَ يملكون الحق في ذبح غيرهم كبير؟ إنني طبعاً مستعدٌ أن أنحني احتراماً لهم، ولكن يا سيّدي ستوافقني الرأي، أن الأمرَ يصبحُ مُرعباً جداً إذا أصبحَ عددُهُم كبيراً جداً، أليسَ كذلك؟

- أوو، لا تقلق من هذا الجانب أيضاً - تابعَ راسكولنيكوف كلامَهُ بالنبرة نفسها - بشكلٍ عام البشر أصحاب الأفكار الجديدة، بل أولئك الذين يمتلكون قليلاً الموهبة على قولِ بعض الأشياء (الجديدة)، يولدونَ بأعداد قليلةٍ جداً، قليلةٍ بصورةٍ غريبة. أمرٌ واحدٌ واضح تماماً، وهو أن نسبة ولادة الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الفئة أو تلك، وتفرّعاتِ هاتين الفئتين،

نسبة دقيقة وصحيحة ينظمها قانونٌ طبيعيٌ ما، قانونٌ - بطبيعة الحال - لا يزالُ مجهولاً، لكنني أؤمن أنه موجود، وسيتمُّ اكتشافُهُ مع الوقت. إن تلك الكتلة الكبيرة من البشر، المواد، وجدت على سطح الأرض لأجلِ أمرٍ واحد، أن تحاول أخيراً خلق شخصٍ مستقلٍ ولو قليلاً ولو بنسبة واحد بالألف عبر إجراءٍ مجهولٍ حتى الآن، وبمساعدةِ عوامل مختلفة، ومن خلالِ اختلاطِ أعراقٍ وأجناس متنوعة. أما الأشخاص الأكثر استقلالاً فنسبتهم أقل من ذلك بكثير وهي لا تتجاوز الواحد في العشرة آلاف «أنا أتحدث على وجه التقريب»، أما الأشخاص الذين يتمتّعون بدرجة استقلال عالية جداً، فنجد واحداً منهم بين كل مئة ألف.

في حين لا تتجاوز نسبة العباقرة واحداً في المليون، ولو تحدّثنا عن عظماء العباقرة، صفوة الجنس البشري، لقلنا إن واحدهم يجيء بعد مرور مئاتِ ملايين البشر على سطح الأرض. وبكلمةٍ واحدة أنا طبعاً لم أنظر في البوتقةِ التي يتمُّ فيها كل ذلك، ولكنني واثقٌ أن قانوناً ناظماً للأمر موجود، ويجب أن يكون موجوداً، هنا لا مجال للمُصادفة.

- ما بالكما أنتما الاثنين، أتمزحان أم ماذا؟ - صَرَخَ أخيراً رازوميخين - أيخدَعُ كلٌ منكما صَاحبه؟ يجلسانِ وكلٌ منهما يسخَرُ من الآخر! هل أنت جاد فيما تقولُهُ يا روديا؟

رَفَعَ راسكولنيكوف وجهَهُ الشاحب والحزين صامتاً ولم يجب، فبدا الأمر لرازوميخين غريباً مع هذا الوجهِ الهادئ والحزين قياساً لتلك اللهجة الوقحة اللاذعة والفظّة واللجوجة التي استخدمَهَا بورفيري. فتابَعَ رازوميخين يقول:

- حسناً يا أخي، إذا كنت تتحدثُ جاداً... فإن من حقّك بالطبع أن تقول إنه ما من جديدٍ في قولك، وأن كلامك مشابهٌ لما قرأناه وسمعناه، آلاف المرات، لكن الأمر الجيد حقّاً والذي يُعود إليكَ وحدك ويُرعبني تماماً - هو أنكَ تسمَحُ أخلاقياً بسفكِ دماءِ الإنسان.

واعذرني لو قلت، وبكثيرٍ من التعصّب... وبناءً على ذلك فإن فكرة مقالك الرئيسة تتلخّص في هذا الأمر. وبرأيي أن هذا السماح (الأخلاقي) بإراقة الدماء، أكثر فظاعةً من السماحِ بذلك رسمياً أو قانونيّاً...

- أنت محقٌ تماماً، إنه أفظع يا سيدي. قال بورفيري[٧].

★★★★

[...] أنا ثانيةً لا أتحدّثُ كما يجب! أترين، أنا عندها سألتُ نفسي كثيراً: لماذا أنا غبيٌّ هكذا، هل لأن الآخرين أغبياء وأنا أعرف ذلك، ولا أرغبُ أن أكونَ أذكى منهم؟

بعد ذلك عرفتُ يا سونيا، أنني إذا أردتُ أن أنتظر حتى يصبح الجميع أذكياء، فسأنتظرُ طويلاً... بعد ذلك أدركت أنهم لن يصبحوا كذلك أبداً، وأنهُ ليس بمقدورنا أن نغيّر الناس، أو أن نُعيدَ خلقهم على الإطلاق، وما من داعٍ لإضاعةِ الجهد! الأمرُ هكذا! هذا هو القانون.. القانون يا سونيا! الأمرُ على هذا النحو!... وأنا الآن أعلمُ يا سونيا، أن الشديد والقوي ذكاءً وروحاً يسطيرُ عليهم! والجسورَ محقٌ لديهم. من يستطيع أن يبصق على الكثيرين فسيصبح لديهم مُشرِّعاً، ومن كانَ الأكثر شجاعةً فستوهَبُ لَهُ جميع الحقوق! هذا ما كانَ في الماضي، وهذا ما سوف يكون! الأعمى فقط من لا يستطيع أن يبصر ذلك! كان راسكولنيكوف أثناء حديثِهِ هذا ينظرُ إلى سونيا، لكنّهُ لم يكن يهتمُ كثيراً: هل تفهمُ كلامه، أم لا. لقد سيطرت عليه الحُمّى بشكلٍ كامل. واجتاحَهُ هذيانٌ مظلمٌ «إنهُ حقيقةً لم يتحدّث إلى أحد منذُ فترةٍ طويلة»، وقد أدركت سونيا أن هذه التعاليم[٨] القاتمة أصبحت إيماناً وقانوناً لَه.

- لقد قَدّرتُ يومها يا سونيا - تابَعَ راسكولنيوف بحماسة - أن السلُطة تُمنَحُ لمن يملك الشجاعة في أن ينحني ويلتقطها. هنا فقط أمرٌ واحد: يكفي أن تملك الشجاعة!

وعندها انبثقت في رأسي فكرة واحدة، لأول مَرّة في حياتي، فكرة لم تخطر ببال أحدٍ من قبلي! لا أحد! فجأةً بدت الأمور لي واضحة، وضوح الشمس، كيفَ لم يجرؤ أحد إلى الآن - وقد مَرّ بكل هذا الزيف والبطلان - أن يمسك بالأشياء كلها من ذيلها ويهزّها بعنف، ثُم يرمي بها إلى الشيطان! أنا... أنا أمسكتُ بها تجرأتُ... وقتلت... أنا أردتُ فحسب أن أجرؤ يا سونيا.. هذا هو السبب كُلّه!

صَاحت سونيا... متوسّلةً وهي تضمُّ يديها الواحدة إلى الأخرى:

- آو. اسكت، اسكت! لقد ابتعدت عن الله، فأهانكَ وأسلَمَك إلى الشيطان!

- بالمناسبة يا سونيا: حينما اضطجعُ في العتمة وتتراءى لي تلك الرؤى، هل كان عندها الشيطان يغويني؟ ها؟

- اصمت! لا تضحك أيّها الكافر، إنكَ لا تفهم.. لا تفهم شيئاً! يا ربّي - إنهُ لا يفهم شيئاً... لا يفهم...!

- اصمتي سونيا، اصمتي، أنا لا أضحك بتاتاً. أنا أعلم بنفسي أن الشيطان كان يجرّني. اصمتي سونيا، اصمتي - كَرّر راسكولنيكوف بإصرارٍ وحزن - أنا أعلم كل شيء. لقد قلّبتُ كل هذه الأفكار مراراً وهمستُ بها في قرارة نفسي عندما كنتُ أستلقي في الظلمة..

كل هذا ناقشتُهُ في ذاتي حتى أدق التفاصيل، وأعرفُ كل شيء! وكم مللتُ عندها هذهِ الثرثرةَ! وأردتُ أن أنسى وأبدأ من جديد يا سونيا، وأتوقف عن الثرثرة!

هل تظنين أنني اندفعت إلى ذلك الأمر كالمعتوه، منكّساً رأسي؟ لا لقد اندفعتُ ذكياً، وهذا بالتحديد ما ضَيّعني! وهل تظنين أنني لم أكن أعلم على سبيل المثال - أن مَجّرد طرحي السؤال على نفسي والإلحاح فيه: هل لي الحق في امتلاك السلطة أو لا؟ يعني أنني لا أمتلك هذا الحق. أو هل تعتقدين

أنني أجهلُ مثلاً أن طرحي السؤال الآخر: «هل الإنسان قَمْلَة؟»، إنما يعني أن الإنسان في نظري ليس قملة، وأنهُ كذلك في نظر من لا يفكّر حتى أن يطرح على نفسه هذا السؤال، إنما يمضي إلى الأمام دون أسئلة.. ومادُمتُ أعذّبُ نفسي كل تلك الأيام متسائلاً: هل كان نابليون يُقْدِمُ على قتل مثل تلك العجوز أو لا؟ فمعنى ذلك أنني أحسُ بوضوح أنني لست نابوليوناً[٩].

كل.. كل هذا العذاب، وكل هذهِ الثرثرة، قد تحملتُهُ يا سونيا، وكنت أتمنى أن ألقي به عن كتفي: لقد أردتُ أن أقتلَ دون مناقشةٍ سفسطائية، أن أقتل لنفسي، لنفسي وحدَها! وما أردتُ أن أكذب في ذلك حتى على ذاتي! لم أقتل لكي أساعدَ أُمّي - هُراء! ولم أقتل لكي أحصلَ على السلطةِ والإمكانات، التي تمكنني من الإحسان إلى البشريّة. هُراء! لقد قتلتُ لأجل نفسي ببساطة، لأجل نفسي وحدها، وعندها لم يكن يعنيني هل سأصبحُ مُحسناً ما للبشرية أم سأظل طوال حياتي كالعنكبوت أصطاد الجميع في شبكتي وأمتصُ عصير أجسادهم الحيوي، ولم يكن المالُ هو الأهم عندي يا سونيا، عندما قتلت:

لم يكن المال مُهماً على الإطلاق بالنسبةِ لي أو غيره من الأشياء.. أنا أعلمُ ذلك الآن تماماً.

افهمني: لو كان لي أن أسيرَ تلك الطريق نفسها من جديد، فربّما لن أقتُل أبداً. لكن شيئاً ما كان يدفعني لمعرفته، شيئاً كان تقريباً تحت يدي: لقد كان علي أن أعرفَ عندها بُسرعة هل أنا قملة كالجميع، أم إنسان؟ هل أستطيع أن أتخطّى أم لا؟ هل أجرؤ على الانحناء لالتقاطِ القدرة أم لا؟ هل أنا مخلوقٌ مُرتجف أم مالك الحق...

-... أن تقتُل؟ تمتلكُ الحقَ أن تقتل؟ - قالت سونيا وقد ضمّت يديها.

- آآخ سونيا! - صاحَ راسكولنيكوف مُحاولاً أن يعترض على شيء، لكنهُ صمَتَ باحتقار، ثُم عادَ وتابع:

- لا تقاطعيني يا سونيا! لقد أردتُ أن أبرهن لك على أمرٍ واحد: وهو أن الشيطان قد جرّني وبعد أن حدث الأمر، أفهمني أنني لا أملك الحق أن أسير في تلك الطريق، لأنني تماماً - كغيري من الناس - قملة! لقد سخرَ مني. وهاأنذا جئتُ إليكِ! فهّلا أحسنتِ استقبال الضيف، لو لم أكن قملة أكنتُ أجيءُ إليكِ؟ اسمعي: عندما ذهبت يومها إلى العجوز كنت أريدُ فقط أن أحاول.. اعلمي ذلك!

- وقتلتَها... قتلتها!

- السؤال كيفَ قتلتُها؟ وهل هكذا يقتلون؟ وهل هكذا يذهبونَ إلى القتل، كما ذهبت أنا؟! سأحدّثكُ يوماً ما عن ذلك؟ لقد قتلتُ نفسي، وليس العجوز[١٠]، لقد ضيّعت ساعتها نفسي بكامل وعيي وإلى الأبد أما العجوز فلم أقتلها أنا، بل الشيطان...

كفى، كفى يا سونيا، كفى وعيني! - صَرَخَ راسكولنيكوف فجأةً بحزنٍ متشنّج - دعيني وشأني! ثم أسندَ كوعيهِ على ركبتيه ووضعَ كفيّه حول رأسِهِ ككمّاشة.

- ما أشدَّ عذابك! - وأفلتت ولولةٌ مُعَذِّبَةٌ من فم سونيا.

- ما الذي أستطيعُ فعله، قولي - سألها وهو يرفَعُ رأسَهُ، وينظرُ إليها بوجهٍ مشوّه الملامح من شدّةِ اليأس.

- ما العمل! - صَرخت فجأة، وقفزت من مكانها، فأضاءت عيناها، وكانتا قد امتلأتا بالدموع - قف «كانت قد أمسكتُهُ من كتفيه، فوقف ونظر إليها فيما يشبه الذهول». اذهب الآن من هذهِ اللحظة، إلى مفترقِ الطُرق، واسجد، وقبّل أولاً الأرض، التي دنّستَها، ثُمّ انحنِ للعالم أجمع وفي جهاتِهِ الأربع، ثم اخبر الجميع بصوتٍ عالٍ: «أنا قتلت!»، ساعتئذٍ سيعيدُ اللهُ لك الحياة. أتذهب؟ أتذهب؟ - سألتهُ مرتجفةً من أخمصِ قدمها حتى رأسها وكأن نوبةً عصبيّة قد أصابتها، وقبضت على كلتا يديه وضغطتهما بقوّة، وهي تنظرُ إليهِ بعينين ناريتين.

وأُصيبَ راسكولنيكوف بالذهول، بل أوشكَ يُصعَقُ بحماستها المفاجئة.

- هل تتحدّثينَ عن الأشغال الشاقة يا سونيا؟ هل عليّ أن أشي بنفسي؟ - سألها مكفهّراً.

- عليك أن تقبل الألم وتطهّر نفسك به، هذا ما يجب فعله.

- لا، لن أذهب إليهم يا سونيا.

- وكيف ستعيش، كيف ستعيش إذاً؟ وبماذا ستعيش؟ - سألت سونيا - هل هذا ممكنٌ الآن؟ وكيف تستطيع الآن أن تتحدّث إلى أمّك؟ «اوو، ما الذي سيحدث لهما الآن، ما الذي سيحدث!» ولكن عمّا أتحدث أنا! لقد تركت أمك وأختك. لقد رميتهما... تركتَهُما. ربّاه - صَرَخَتْ - وأنت تدرك كل ذلك بنفسك!

فكيف ستستطيع أن تحيا بلا إنسان! ما الذي يمكن أن يحدث لك!؟

- لا تكوني طفلة يا سونيا - قال بهدوء - بماذا أذنبتُ في حقّهم؟ لماذا أسلّم نفسي؟ ماذا سأقول لهم؟ إن كل هذا ليسَ إلا سراباً... إنهم أنفسهم يقتلون ملايين البشر، ويُعَدّ عملهم هذا فضيلة. إنهم أوغادُ جبناء يا سونيا...

لن أُسلّم نفسي إليهم. وماذا أقولُ لهم: قتلتُ ولكنني لم أجرؤ أن آخذ المال، فدفنتُهُ تحت حجر؟ - أضافَ وهو يبتسم ساخِراً - عندها سيسخرونَ مني، ويقولون: أبله، لماذا لم يأخذه جبانٌ وأحمق. ولن يفهموا شيئاً، لن يفهموا يا سونيا، إنهم غير جديرين بأن يفهموا... فلماذا أذهب إليهم؟ لن أذهب. لا تكوني طفلةً يا سونيا.

- ستتعذّب، ستتعذّب - رَددت سونيا متوسلّةً مادةً يديها إليه.

- رُبّما كنتُ قد ظلمتُ نفسي - قال مكفهّراً، شارداً - رُبّما ما زلتُ إنساناً وليس قملة، وقد تسرّعتُ في محاكمةِ نفسي... سأكافح أكثر [...].

★★★

[...] هو نفسه لا يعلمُ كيف حدثَ ذلك، ولكنّ شيئاً ما استبدَّ به فجأةً ورماه على قدميها. بكى وضَمّ ركبتها، في اللحظة الأولى شعرت بذعرٍ شديد، وبدا وجهُها ميّتاً. قفزت من مكانها، ونظرت إليه مُرتعشة. ولكنّها في البرُهةِ نفسها فهمت كل شيء. وأضاءت في عينيها سعادةٌ عارمة، لقد فهمت، وما عادت تشعُرِ بأي شك، بأنه يحبّها، يحبُها حُبا لا نهايةَ لَهُ. وأن تلكَ الدقيقة الموعودة قد آن أوانُها...

لقد أرادا أن يتكلّما. ولكنهّما لم يستطيعا ذلك. امتلأت عيونهما بالدموع. كانا شاحبين وهزيلين، غير أن فجر مستقبلٍ مُتجدد سطَعَ في وجهيهما المتعبين الشاحبين، فجراً مليئاً وواعداً بانبعاثٍ في حياة جديدة. لقد بعثهما الحُب، كان قلبُ كلٍ منهما يمثلُ نبعَ حياةٍ لا تنضبِ لقلب الآخر.

قررّا أن ينتظرا ويصبرا، لقد بقي عليهما أن يقضيا سبع سنوات، وحتى يتم ذلك كم من آلامٍ لا تُحتمل، ولكن كم من السعادة الغامرة! راسكولنيكوف انبعثت من جديد، وهو يعي ذلك، ويحس به في كل كيانه المتجدّد، أما هي - هي فقد عاشت بحياته، إن حياته وحدها هي مبعثُ وجودها.

في مساء اليوم نفسه، عندما أُقفلَ السجنِ عليهم، فكّر راسكولنيكوف بها وهو يضطجعُ فوق مرقده وفي ذلك اليوم تراءى لَهُ أن السجناء جميعاً، أعداءَه السابقين، نظروا إليهِ نظرة مختلفة، حتّى أنه تحدّث إليهم وأجابوه بلطف. إنه يتذكّر ذلك الآن. أليس هذا ما يجب أن يكون: ألا يجب أن يتغيّر كل شيء بعد الآن؟

فكّر بها. وتذكّر كيفَ عذبّها دائماً، ومَزّقَ قلبها، تذكّر وجهها الشاحب الهزيل، لكن هذهِ الذكريات ما عادت تؤلمه: لأنهُ يعلم أنه بحبّه الأبدي هذا سيكفّر عن كل المُعاناة التي سببها لها.

ثُمّ ما قيمة كل ذلك الآن: الآلامُ كلّها ذهبت، حتى جريمته التي اقترفَها، والحكم الذي صدرَ بحقّه، حتى النفي، بدا لَهُ كل شيء في حمأةِ اندفاعتِهِ الأولى هذهِ كوقائع خارجيّة غريبة.

لم تحدث مَعهُ هو بالذات. وعلى العموم لم يكن راسكولنيكوف قادراً على التفكير طويلاً وباستمرار في أمرٍ مُحددٍ، لم يكن قادراً على تركيز أفكاره في موضوع بعينه، وما كان لَهُ في الواقع أن يحل الآن أي مشكلة.. كل ما في الأمر أنه كان يُحسّ بالأشياء ويشعر بها فحسب. في موضعِ الجدلِ حلّت الحياة، وفي وعيهِ كان لا بُد أن ينضجَ شيءٌ آخر تماماً[11].

الإنجيلُ[12] تحتَ مخدّتِهِ. مَدّ يدهُ وتناولَهُ بشكلٍ آلي. هذا الكتابُ كتابهُا، وفيه نفسه كانت سونيا قد قرأت لَهُ عن انبعاث أليعازار. في بداية عهده بالسجن فكّر أنها ستصدّعُ رأسه بأمور الدين، وستتحدّث عن الإنجيل وتفرضُ عليهِ كتباً أخرى. ولكن لشد ما أدهَشَهُ أنّها لم تتحدّث عن هذهِ الأمور ولوَ مرّة واحدة، ولم تعرض عليهِ الإنجيل، الذي عادَ وطلبه بنفسه قبل مرضهِ بقليل، فجاءته بهِ صامتةً. وهو لم يفتحه حتى الآن.

وهو لم يفتحه الآن أيضاً، لكن فكرة التمعت فجأة في رأسه: «هل يمكن ألا تكون معتقداتُها الآن هي نفسها مُعتقداتي؟ مشاعِرهُا طموحاتُها على الأقل...»

وهي أيضاً كانت مضطربة طوال ذلك اليوم. وشعرت بالمرض تلك الليلة، لكنها كانت من السعادة بمكانٍ جعلها تخشى على نفسها، سبعُ سنوات، (فقط) سبع سنوات! في بدايةِ سعادتهما، وفي لحظات تالية كانا جاهزين للنظر إلى السنوات السبع تلك على أنها سبعة أيام، وما كان راسكولنيكوف عندها يعي أن الحياة الجديدة، لن توهب لَهُ مجّاناً، وأن عليهِ أن يدفعَ ثمنَ هذه الطريق الجديدة جهوداً مضنيةً شاقةً وعظيمة... [...].

الأبلـــه

[...] - أخبرني يا ليف نيقولايفيتش، فمنذ مُدّة طويلة وأنا أريد أن أسألك: هل تؤمن بالله أم لا؟ - فجأة سأل روغوجين، بعد أن خطا بضع خطوات.

- ما أغرب سؤالك و... نظرتك! - أطلق الأمير مُلاحظتَهُ دون إرادة.

[...] ولكن لماذا سألتني هل أؤمن بالله أم لا؟

- لا شيء مهم... منذ مُدة وأنا أُريد أن أسألك. فكثيرون اليوم لا يؤمنون. لكن هل صحيح «وقدْ عِشتَ خارج الوطن» - ما أخبرني به أحد السكارى، من أن عدد الذين لا يؤمنون باللهِ في روسيا أكبر من عددهم في أي بلدٍ آخر، هل هذا صحيح؟ «لقد قال لي: إن الأمر بالنسبة لنا أسهل فقد قطعنا شوطاً أطول مما قطعوا..»

وابتسم روغوجين ساخراً، وكان حين طرح سؤاله قد فتح الباب مثبّتاً قبضتَهُ ومنتظراً حتى يخرج الأمير، الذي استغرب ذلك، لكنه خرج وتبعَهُ روغوجين إلى فسحةِ السُلّم بعد أن أغلق خلفه الباب. وقفَ الاثنان وجهاً لوجه بصورةٍ توحي بأنهما قد نسيا إلى أين جاءا وماذا عليهما الآن أن يفعلا.

- وداعاً إذاً - قال الأمير ماداً يده.

- وداعاً - أجابَ روغوجين وهو يضغط على اليد الممدودةِ إليه بشكلٍ آلي.

نزل الأمير درجة واحدة ثم التفت إلى روغوجين:

- بخصوص الإيمان - بدأ الأمير مبتسماً «فمن الواضح أنه ما كان يريدُ تركَهُ على تلك الحالة»، بالإضافة إلى حيويّةٍ مفاجئة أحيتها ذكرى مباغته

- فيما يتعلّق بالإيمان، لقد كانت لي خلال الأسبوع الماضي وفي يومين متتاليين أربَعةُ لقاءات. ذات صباح سافرتُ على خطٍ جديدٍ من خطوط السكّة الحديديّة وتحدّثت زهاء أربع ساعات إلى رجل يدعى س-م[1]، وكنا قد تعارفنا في العربة. لكنني من قبل سمعتُ عَنهُ وعرفت أنه رجل ملحد. كان رجلاً واسعَ المعرفة وقد سُررتُ أنني سأتحدّثُ إلى عالمٍ حقيقي. وقد كان بالإضافةِ إلى ذلك مهذّباً جداً، فتحدّث إلي كما يتحدّثُ إلى رجلٍ يعادِلهُ معرفةً وفهماً. لم يكن يؤمن بالله، لكن ما أثار دهشتي هو أن الرجل وطوال فترةِ حديثنا بدا وكأنّهُ لم يتكلّم عمّا يجب أن يتكلّم عنه، ومما زادَ في دهشتي تلك أنني سابقاً وكلّما التقيتُ بملحدين أو قرأتُ كُتباً تتناول هذا الشأن تراءى لي أنّهم يتحدّثون أو يكتبونَ في تلك الكتب ليسَ عن ذلك، مع أنّهم يوحونَ لك أنهم في صُلب الموضوع، وقد حَدّثتُ الرجُلَ عن أفكاري، ولكن لعلّي لم أحسن التعبيرَ عنها، لأن مُحدّثي لم يفهم مني شيئاً. في المساء نزلتُ في فندقٍ صغيرٍ لقضاء الليل، وهناك كانت قد حدثت جريمة قتل في الليلة الماضية، وكان الجميع يتحدّثون عن ذلك، فلاحان ليسا شابين ولا ثملين، وتربطهما صداقة منذ مدةٍ طويلة، شربا شاياً ثم أرادا النوم في غرفةٍ واحدة، وكان أحدهما قد لاحظ في اليومين الأخيرين أن صديقه يملك ساعةً فضيّة مربوطة بشريطٍ مزدانٍ بلآلئ صفراء، وما كان من قبل قد شاهدَ هذه الساعة في حوزةِ صديقه على ما يبدو. لم يكن ذلك الشخصُ لصاً، بل كان مستقيماً، وميسورَ الحالِ قياساً إلى غيره من الفلاحين. لكن تلك الساعة أعجبتهُ كثيراً وَلم يستطع أن يتمالك نفسه، فاستلّ سكيناً، وانتظرَ زميلَهُ حتى التفتَ إلى الجهة الأخرى، اقتربَ منهُ حذراً وسَدّدَ، رفَعَ عينيه إلى السماء، ورسَمَ إشارة الصليب، وهو يتمتمُ صلاةً مُرّةً: «اغفر لي يا رب، بحق المسيح»، ثُمَ ذَبَحَ زميله بضربةٍ واحدةٍ، وانتزعَ ساعته.

وانفجرَ روغوجين ضاحكاً، ضحكَ كما لو أنهُ تحت تأثير نوبةٍ عصبيّة. حتى بدا الأمرُ غريباً بعد ذلك المزاج القاتم الذي كان يتملّكه منذ قليل.

- هذا ما أحبُّه! لا. هذا أفضل ما يمكن تصوّره! - وصرخَ بتشنّج، حتى أوشكَ أن يختنق - واحدٌ لا يؤمن بالله بتاتاً، والثاني يؤمن به إلى درجة، تجعلُهُ يذبحُ الناس وهو يردد الصلوات... لا..! هذا يا أخي الأمير أمرٌ لا يمكن تصوّرهُ. ها ها ها! هذا أفضل ما يكون!

واستأنفَ الأميرُ حديثه حين هدأ روغوجين، مع أن بقايا الضحك كانت لا تزال تهزّ شفتيه بصورةٍ عصبيّة:

- وخرجتُ في الصباح أتجوّلُ في المدينة، فرأيتُ جندياً سكراناً يترنّح على الرصيف الخشبي، كان هندامُهُ مزرياً، اقتربَ مني قائلاً: «اشترِ مني هذا الصليب الفضّي، أيّها الرجل، لقاء عشرين كوبيكاً لا غير، إنهُ من فضّة!» ورأيتُ في كفه صليباً، نزعَهُ على ما يبدو لتوّهِ من عُنقه، لَهُ شريطٌ أزرق مهترئ تماماً، كان من الواضح منذ النظرة الأولى أنه من قصدير صرف، هو صليب كبير، ذو نقوشٍ بيزنطيّة. أخرجتُ عشرين كوبيكاً وأعطيتُ الجندي ثم تقلدّتُ الصليب مُباشرةً - فبدا على وجههِ الرضى، لقد استطاعَ أن يخدَعَ سيداً ساذجاً! وذهبَ سريعاً ليشربَ بصليبهِ المباع، ساعتها يا أخي كنتُ تحت تأثير تلك الانطباعات القويّة التي انهالت عليّ في روسيا. لم أكن من قبلُ أفهم شيئاً عنها، وكأنني ولدتُ وترعرعتُ أخرساً أصمّاً، وكنتُ خلال السنوات الخمس التي عشتها خارج بلادي قد استدرجتُ في ذهني خيالاتٍ غريبةٍ عنها، مشيت وفكّرت: لا، سأنتظرُ قبل أن أدينَ بائعَ المسيحِ هذا، فالله وحده يعلم ما الذي يمكنُ أن تحملَهُ تلك القلوب الضعيفة السكرى. وبعد ساعة بينما كنتُ عائداً إلى الفندق التقيتُ امرأةً تحمِلُ طفلاً رضيعاً. المرأة ما زالت شابة، والطفلُ في الأسبوع السادس من عمره على ما يبدو.

وابتسم لها الطفلُ لأول مَرّةٍ منذ ولادتِهِ - كما أعتقد - ولاحظت هي ذلك... فرأيتُها بخشوعٍ شديد ترسُمُ إشارة الصليب على صدرها، فسألتُها - وكنتُ يومها كثيراً ما أسألُ الناس -: «ما بكِ أيتها الشابة؟». فأجابت: «تماماً كفرحة الأم عندما ترى البسمة الأولى على ثغر رضيعها، هي فرحة الرب كل مَرّة عندما يرى من عليائِهِ خاطئاً يُصلّي إليه ويدعوه المغفرة من كل قلبه». هذا ما قالتْهُ لي المرأة، حرفيّاً على وجه التقريب فأي فكرةٍ دينيّة عميقة، رقيقةٍ، وصادقةٍ عبّرت عنها، فكرة تحوي جوهر الديانة المسيحيّة كلها، تعكس كلَ مفهومِنا عن الرب كأبٍ حقيقيٍ لنا جميعاً، وعَن فرحةِ الرب بنا، وهي كفرحةِ الأب بأبنائه - هذه الفكرةُ الأهم عند يسوع المسيح!.. امرأة بسيطة! صحيح أنها أم...، ومن يعلم، رُبّما كانت زوجة ذلك الجندي. اسمع يا بارفين، لقد سألتني قبلَ قليل وإليك جوابي:

إن جوهر المشاعر الدينيّة لا ينضوي تحت أي نوعٍ من البراهين أو المحاكماتِ العقليّة، وهو مستقلٌ عن جميعِ الأفعالِ الشائنةِ، والجرائم والإلحاد: إن في هذا الأمر شيئاً ما ليس كما يبدو لنا، وإلى الأبد سيبقى الأمرُ كذلك. إن في هذهِ المشاعرِ شيئاً سينزلقُ الإلحادُ إلى الحديث عنه دائماً ولكنّه سيقولُ[٢] أموراً لا علاقة لها بالموضوع. والأهم في الأمر أنكَ تلحظ كل ذلك بشكلٍ واضحٍ تماماً وسريعٍ جداً في القلب الروسي، هذهِ هي النتيجة التي أصل إليها! هذهِ واحدة من أولى قناعاتي، التي حملتها في أعماقي من بلادنا روسيا. إن أمامَنا ما يمكن فعله يا بارفين! ما يمكن أن نقومَ بهِ في عالمِنا الروسي، صَدّقني! وتذكّر كيفَ التقينا وتحادثنا في موسكو ذات يوم... وما كنتُ أرغبُ أبداً أن أعودَ إلى هنا الآن! ولا تصوّرتُ أبداً أبداً أن يكونَ لقاؤنا هكذا!.. حسناً، وداعاً وإلى اللقاء، وليكن الربُ معك! [...]



«[...] فجأةً تذكّرتُ لوحةً، كنتُ قد رأيتُها من قبل عند روغوجين[٣]، في واحدة من أشدِ صالاتِ منزلِهِ عتمةً، كانت فوق أحد الأبواب. هو نفسُهُ أراني إياها ونحن ماران، وقد وقفتُ أمامَها خمسَ دقائق على ما أظن. لم تكن ناجحة من الناحيّة الفنيّة، لكنّها أثارت في داخلي قلقاً غريباً.

في تلك اللوحة رُسِمَ المسيحُ، في اللحظةِ التي تلت رفعَهُ عن الصليب، اعتاد المصوّرون فيما أظن، أن يرسموا المسيح على الصليب، أو بعد نزعِهِ عنه، ذا وجهٍ فائق الجمال، جمالٍ غير طبيعي. هذا الجمال يحرصونَ على حفظه لَهُ حتى في أشد صنوف الألم التي يُعانيها قسوةً. أما في لوحةِ روغوجين فليس هناك أي شيء من هذا القبيل، إنها تمثّل جثمانَ رجلٍ، تلقّى أقسى صنوف العذاب حتى قبلَ صلبه، الجروح، الجلدات، واللطمات التي تلقّاها من الحُرّاس والناس عندما كان يحمُلُ صليبه ويسقطُ تحتَ ثقله، وفي النهاية عذابات الصلب نفسها خلال ست ساعات «هذا، على الأقل، إذا صدقَ حسابي». حقيقةً هذا وجهُ شخصٍ، نُزِعَ لتوّهِ عن الصليب، أي أنهُ لا زال يحتفظ بالكثير من دفءِ الحياة، وما مَرّ من الوقت بعد ما استطاع تجميد تلك الأحاسيس، فإذا وجه الميت يعكس الألم وكأنَ الرجلَ ما زالَ يُعانيه «لقد استطاع المصوّر أن يلتقط ذلك بشكلٍ جيد»، فجاء الوجهُ مصوّراً بكل القسوةِ وبشكلٍ واقعي، حقيقةً هكذا يجب أن يكون جثمان الإنسان، بعد كل صنوف العذاب تلك. أنا أعلم أن الكنيسة المسيحيّة وفي قرونِها الأولى ثبتت فكرة مفادها أن المسيح تعذّب وعانى جسديّاً وليس رمزيّاً، وأن جسده على الصليب خضعَ بشكلٍ حقيقي لكل قوانين الطبيعة[٤].

في هذهِ اللوحة كان الوجهُ مُهشّماً بفظاعة بفعلِ الضربات، متورّماً، مليئاً بالكدماتِ المزرقّة الدامية، وكانت عيناهُ مُتسعتي البياض، منقلبتي الحدقتين، تلتمعانِ بشكلٍ زجاجيٍ لا حياةَ فيه. ومن الغريب أنكَ حين تنظر إلى جثمانِ هذا الرجل المُعذّب، يولَدُ سؤالٌ خاصٌ مثير: إذا كان الجثمان

كذلك حقيقةً «وهو دون أدنى شك كما قدّمته الصورة» وقد رآهُ جميع تلامذته، كل الذين سيصبحون حوارييه، والنساء اللواتي تبعنَهُ ووقفنَ تحت الصليب[٥]، جميع الذين آمنوا بهِ، وعبدوه، فكيف كان لهم أن يؤمنوا، وهم ينظرون إلى تلك الجثّة، أن صَاحِبها المعذَّب يمكن أن يُبعَث حيّاً من جديد؟ هنا وبشكلٍ لا إرادي تخطرُ على البال فكرة، إذا كان الموتُ فظيعاً بهذا الشكل، وقانون الطبيعة قويّاً على هذه الصورة فكيف يمكن الانتصار عليهما وتجاوزهما؟ كيف يمكن فعل ذلك إذا كان الأمرُ لم يُتح الآن لهذا الذي انتصرَ على الطبيعةِ في حياته، فانصاعت له، قالَ: «قومي طليثا» - فقامت الصبيّة، «أخرج أليعازار»، فخرج الميت[٦]، إن الطبيعة تبدو - حين النظر إلى هذه اللوحة - وحشاً ضخماً أخرس حقوداً، أو بالأصح، مهما كان التشبيه غريباً أن نقول: إنها تبدو على شكلِ آلةٍ حديثة ضخمة لا إحساس لديها ولا حواس تلقّفَتْ بلا وعي كائناً لا يقدّرُ بثمن، كائناً يعدلُ بمفردهِ الطبيعة كاملةً وقوانينها، والأرض التي خُلِقت رُبّما لتشهدَ ظهورَه، تلقّفتْهُ وطحنتهُ وابتلعته، إن تلك اللوحة - كما تراءى لي - تعبّرُ عن وجود قوّةٍ لا أخلاقية غامضةٍ ظلاميّة وخالدة، يخضع لها كل شيء، وتنقل إليكم ما تريد لا إرادياً.

أولئك الناس، الذين كانوا يلتفونَ حول الميّت، والذين لا نرى أحداً منهم في اللوحة، كان يجب أن يشعروا بحزنٍ فظيع وذهولٍ في ذلك المساء، الذي حَطّمَ دفعةً واحدةً كل آمالهم، وإيمانهم، وكان عليهم أن يفترقوا في حالةٍ من الرعب الهائل، مع أن واحدهم حَمَلَ في داخله فكرةً عظيمةً، لا يمكن لشيء أن ينتزعها منه.

ولو كان لذلك المعلّم أن يرى صورتَهُ قبلَ إعدامِهِ، فهل كان يمشي إلى الصليب والموت كما فعل؟ هذا السؤال يخطرُ في البال لا إرادياً حين تنظر إلى اللوحة.

كل تلك المشاهد المُقتطَعة حاصرتني على امتدادِ ساعةٍ ونصفٍ بعد مُغادرةِ كوليا، وأغلب الظن أنها جاءت مع نوبةِ هذيان، هل كان لها أن تمتلكَ شكلاً معيّناً بفعل الخيال لو لم تكن أصلاً ذات شكل؟!، ولكن كان يتراءى لي بين الفينة والأخرى أنني أرى تلك القوّة اللا نهائية بصورةٍ غريبةٍ غير قابلةٍ للوصف، ذلك الكائن المظلم، الأصم، الأخرس. أذكر أن أحداً ما قادني من يدي، حاملاً بيدهِ الأخرى شمعة، وأراني أنثى عنكبوتٍ[٧] ضخمةٍ كريهة وراح يقنعني أنها ليست إلا ذلك الكائن المظلم، الأصم، القدير، ثُمّ سخرَ مني لِسُخطي.

[...] لا يمكن أن أبقى في هذه الحياة، التي تتخذُ أشكالاً غريبةً، مغضبةً ومزعجةً لي [...]

لا قُدرةَ لي على الخضوع لقوّةِ الظلام هذهِ، التي تتخذُ هيئة عنكبوت.[...]»

★★★

«كان عندي مسدسٌ جيبٍ صغير، حصلتُ عليهِ وأنا بعد طفل، في تلك السنِ المضحكة عندما بدأت تعجبني القصصُ عن المبارزات، عن هجوم قطّاع الطرق، وكيف سيدعونني للمبارزة، فأقفُ باعتزاز أمامَ مَرمى مسدساتهم. منذُ شهرٍ تقريباً تفقدّتُهُ وجهّزته في العلبة التي حوتهُ وجدتُ رصاصتين، وباروداً يكفي لثلاثِ رصاصات. كان المسدسُ سيئاً، ومسارُ طلقاتِهِ منحرفاً وقد لا يتجاوزُ مداهُ خمسَ عشرة خطوة، لكنّهُ فيما لو سُدّدَ إلى الصدغ مُباشرةً فسيكونُ قادراً على تهشيم الجمجُمة.

لقد قررتُ أن أموت في بافلوفسك، عند شروق الشمس، ماشياً في الحديقة، كي لا أزعجَ أو أخيفَ أحداً ممّن يقيمون في بيت المزرعة. وسيقومُ «اعترافي» بشرح الأمر بشكلٍ كافٍ للشرطة. أما صيّادو علم النفس، ومن يستطيعون، فبإمكانهم أن يستخلصوا منهُ ما يحلو لهم. [...]

أنا الآن لا أعترفُ لأي كان بحق الحكم علي، وأعلمُ أنني في منأى عن سلطاتِ الحُكم[٨].

منذ فترةٍ قريبة عرضت علي فرضيّة: ماذا لو خطر لي فجأةً أن أقتلَ شخصاً ما، أو لنقل عشرة أشخاص دفعةً واحدة، أو أن أفعَلَ أمراً ما شديد الفظاعة، بل أشنعَ وأفظعَ فعلٍ على سطح الأرض، فبأي ارتباكٍ عظيم أكون قد وضعتُ هيئة المحكمة وأنا لم يبقَ لي إلا أسبوعان أو ثلاثة من الحياة؟ ولا مَجالَ لاستجوابي وتعذيبي؟ وعندها سأموتُ مُرفّهاً، في مشفاهم، محوطاً بالدفءِ وعناية الطبيب، مما قد لا يتوفّر لي في بيتي. أنا لا أفهم لماذا لا يفكّر الناس، في مثل وضعي، بهذا الأمر، ولو على سبيل الدعابةِ؟ وربّما تكون هذهِ الفكرة قد خطرت ببالهم، فلدينا الكثيرُ من الفكهين.

وإن كنتُ لا أعترفُ بقضاةٍ يحاكمونني، فإنني مع ذلك أعلم أن الناس سيحكمونَ علي، حتى ولو أصبحتُ متهماً أصم أبكمَ. ولهذا فلا أريدُ أن أمضي قبلَ أن أتركَ كلمةً في معرضِ الرد - كلمة حُرّة، ودون إكراهٍ أو قسر - ليست تبريريّة أوه لا! فأنا لن أطلبَ الصفحَ عن أي شيءٍ! من أيٍ كان؟!، لكنَ الأمر هكذا، لمجرد أنني أرغب بذلك.

هنا في البداية أعرضُ هذهِ الفكرة الغريبة: من ذا الذي يسمحُ لنفسه - وبأي حقٍ أو سبب - أن يُصادرَ حقّي في التصرّفِ بالأسبوعينِ أو ثلاثة الأسابيع الباقية من حياتي؟

من ذا الذي يعنيه أن لا أكونَ محكوماً فحسب، بل أن أحتمِلَ مذعناً فترة حُكمي؟ هل من أحدٍ يعنيه هذا الموضوع في حقيقة الأمر؟ ألأجلِ الأخلاق؟ أنا أفهم أنني لو كنتُ في تمام الصحّةِ والقوّة وحاولتُ أن أعتدي على حياتي «التي ربّما كانت نافعة لقريبي» وما شابه ذلك، فإن الأخلاق تستطيع أن تتهمني، وفقَ روتينٍ قديمٍ، بأنني أنفقتُ حياتي وتصرّفتُ بها دون

استئذان، أو بغير ذلك مما تعرفهُ هي. أما الآن، الآن وقد عُلِمَ موعد موتي؟ فأي أخلاقٍ - فوق الحياة - يمكن أن تعنيني بعد؟ وها هي ذي الحشرجة الأخيرة، التي تقدّمُ معها آخر ذرةٍ من حياتك، وأنت تستمع إلى مواساةِ الأمير، الذي سيذهبُ حتماً في براهينِهِ إلى فكرةٍ سعيدة، جوهرُها أن من الأفضل لك أن تموت. «أمثالُهُ من المسيحيين، يصلون دوماً إلى هذهِ الفكرة: فهي مُهْرُهم المفضّل.»، وما الذي يبغونه من «أشجار بافلوفسك» المضحكة؟ تحلية ساعاتِ حياتي الأخيرة؟ أتراهُم لا يدركون أنني بقَدْرِ ما أنسى، وأنقادَ لهذا الشبحِ الأخير من الحياةِ والحب، الذي يُريدونَ بهِ أن يحجبوا عني حائِطي، حائط ماير[٩]، وكل ما كُتبَ عليهِ ببساطةٍ وصراحة، بقَدْر ما تزدادُ تَعاستي؟

ما الذي تعنيهِ لي طبيعتُكم، حديقتُكم، حديقةُ بافلوفسك، شروق شمسكم وغروبها، سماؤكم الزرقاء، ووجوهكم الرضيّة، إذا كانت هذهِ المأدبة، التي لا نهاية لها، قد ابتدأت من أنها اعتبرتني أنا الوحيد الزائد؟ ما الذي يعنيه لي كل هذا الجمال، إذا كنتُ في كل دقيقةٍ بل ثانيةٍ مجبراً أن أعني، أنه حتى تلك الذبابة الضئيلة التي تطنّ الآن حولي في شعاع الشمس، حتى هي تشاركُ في الوليمة كلّها وفي الجوقة. وتعرفُ مكانَها، تحبّهُ وتسعَدُ به، أما أنا فوحدي المنبوذ، ولضعفِ روحي فقط لم أشأ أن أفهم ذلك حتى الآن! أوه! أنا أعلم كم يرغب الأميرُ ومن حولَهُ أن يدفعوني - أنا أيضاً - كي أغنّي - عوضاً عن هذه العبارات «الحاقدةِ الكارهة» - وبمزاجٍ طيّبٍ، واحتفاءً بالأخلاق، أبيات ميلفوي[١٠] الكلاسيكيّة الشهيرة:

O, puissent voir votre beauté sacrée
Tant d'amis sourds á mes adieux!
Qu,ils meurent pleins de joure, que leur mort soit plrurée,
Qu'un ami leur ferme les yeux!

أوه. فلـــيرَ جمالـــكِ المقـــدّس
أصـــدقاء، صُـــمٌ عـــن لحظـــاتِ وداعـــي!
وليكن مـوتُهم بعـد أن يطـول بهـم العُمـر.
ولـــيكن مـــوتُهم مـــشفوعاً بالـــدموع.
ولـــتغمض أجفـــانهم يـــد صـــديق.

ولكـن صَدّقوا، صَدّقوا أيّهـا السـاذجون، أن في هـذهِ الأبيـات النبيلـة، وهـذهِ المباركـة الأكاديميّة للعـالم مـن خـلال الشعر الفرنسـي الكـثيرَ مـن السـخريةِ المبطّنـة، الكـثير مـن الحقـد الـذي لا يساوم منظومـاً في الإيقـاع، حتى أن الشاعر نفسه رُبّما انطلت عليهِ الحيلة فحسبَ الحقدَ دموعَ عطفٍ وحنان، وماتَ على وهمِهِ هذا، فليرحمْهُ اللّه!

اعلموا أن هنـاكَ حـداً للعـار في وعـيِ المستضعفِ والمسحوق، لا يمكـن لهذا الإنسان أن يتجـاوَزَه، أن يحتمـلَ فوقَـه حـداً سيستقبلُ بَعدَهُ العار نفسه كمتعةٍ ذاتيةٍ هائلة...

بالطبع الخضوعُ والمَسْكنة هنا هما القوّة الهائلة في هـذا السياق، إنني أُسلّمُ بـذلك - ولكـن لـيسَ بـذلك المعنـى الـذي يـرى الـدين فيـه أن المسكَنَةَ والخضوع أو الذل قوّة.

الدين! أُسلّمُ بالحياة الأبديّة، ولعلّي فعلتُ ذلكَ دائمـاً. ليكـن أن الإدراك شعلةٌ أوقدتها قـوّة عُليـا، لـيكن أنـهُ نظـر إلى العـالم وقـال «أنـا موجـود» - ولنفترض أن تلك القوّة العليا قَدّرت لَهُ أن يندثر فجأةً - لغايةٍ ما - وحتـى دونَ شرحٍ أو تفسير - في الأمر حكمة ما وأنا أُسلّم بذلك، ولكن من جديد يبزغُ السؤال الأبدي: لأجلِ ماذا خـلالَ ذلك يُطْلَبُ خضوعي وإذلالي؟ ألا يمكـنُ ببساطة أكلي، دون الحاجة إلى مدحي وثنائي لمن يأكُلُني؟ وهـل حقيقـةً أن هناكَ من يغضب، لأنـني لا أريدُ أن أنتظرَ موتي أسبوعين؟ لا أصدّقُ ذلك، ومن الأقربِ إلى الصدق أن أفترض، أن إنهاءَ حيـاتي، حيـاة الذرّة، مطلوبٌ هنـا لإتمـامِ هارمونيـا كليّة شاملة، زيـادةً أو نقصانـاً، أو لأجل تـضادٍ مـا...

وببساطةٍ أكثر.. ببساطة، الأمرُ تماماً على هذا النحو: كل يوم لا بُد من التضحية بحيواتِ كائنات كثيرة، لأنه دون موتها لا تستمرُ حياة العالم الباقي «مع أن علينا أن نلاحظ، أن هذهِ الفكرة بحدِ ذاتها ليستِ من الكرمِ والسماحةِ في شيء». فليكن! أنا موافق، فلو لم تأكل الكائنات بعضها بعضاً باستمرار ما كان للعالم أن يُبنى. بل أنا موافقٌ على التسليم بأنني لا أفهم شيئاً في بناء هذا العالم؟ لكن بالمقابل إليكم ما أفهمُهُ: إذا كنتُ قد مُنحتُ مَرّةً أن أُدرك أنني «موجود»، فما الذي يعنيني إذاً، أن العالَمَ مبنيٌ بالأخطاء وأنه بغير ذلك لا يستطيعُ الاستمرار؟ فمن بعد ذلك ولأجلِ ماذا يمكن أن يحاكمني؟ وعلى أي حال كما تشاؤون، كل هذا غير ممكن وغير عادل[11].

على أنني وبغضّ النظر عن كل أمنياتي لم أستطع في يومٍ من الأيام أن أتصوّر أن الحياة الآخرة والعناية الإلهيّة لا وجود لهما. فعلى الأغلب كل ذلك موجود، لكننا لا نعرف شيئاً عن الحياة القادمة أو قوانينها. ومادام الأمرُ صعباً هكذا ولا يمكن إدراكُهُ إطلاقاً، فهل أحاسَبُ أنا لأنني لم أستطع أن أصل إلى كُنهِ ما لا يمكن أن يُدرك؟

حقيقةً سيقولونَ الآن - والأمير معهم - إن الطاعة هنا ضروريّة، وإن عليّ أن أطيع دون تفكير، ولأجلِ السلوكِ الحسنِ فحسب، وإنني لقاء طاعتي هذهِ سأنال في العالم الآخر مكافأتي، كم نهينُ العناية الإلهيّة، حين نسبغُ عليها مفاهيمنا، حَنَقاً لأننا لا نستطيعَ فهمَها. وأعودُ فأكرر: ما دُمنا لا نستطيع فهم العناية الإلهيّة، فمن الصعب أن يسألَ الإنسان عمّا لم يُقدّر لَهُ فَهْمُه. وبالتالي كيف يُحكمُ عليّ لأنني لم أستطع فهم إرادة العناية الإلهيّة الحاليّة، ولم أدرك قوانينها؟ لا! الأولى بنا أن نترك الدين جانباً!

حسناً، هذا يكفي. حين أصلُ إلى هذهِ السطور ستكون الشمسُ قد بزغت، «وراحت تصدحُ في السماء»، مُغدقةً على العالمِ قوىً عظيمةً لا تُعدُ

ولا تُحصى. فلأمُت متأملاً وبصورة مباشرة ينبوع القوّة والحياة، دون أن أرغبَ بهذهِ الحياة! لو أنني ملكتُ الإرادة ألا أولد، لما كنتُ رغبتُ بالوجود - على الأغلب - في ظل هذهِ الظروف المضحكة. لكنني إلى الآن أمتلك إرادةَ أن أموت مع أن ما سأقدّمُهُ قليل جداً. قُدرة متواضعة، تمرّدٌ متواضعٌ أيضاً.

شرحٌ أخير: أنا أموتُ ليس لأنني غير قادرٍ على تحمّل هذهِ الأسابيع الثلاثة.

آه، كنت سأجدُ ما يكفي من القوّة، ولو أردت لوجدتُ عزاءً في إدراكِ الإهانة التي لحقت بي، لكنني لستُ شاعراً فرنسيّاً ولا أريدُ أيّ عزاء. وفي النهاية هناكَ إغراء: لقد ضيّقت الطبيعَةُ الأمرَ عليّ بهذهِ الأسابيع الثلاثة الباقي لي بحيث أصبحَ الانتحارُ هو العملُ الوحيد، الذي أستطيع أن أبدأَهُ وأنهيهِ بإرادتي الشخصيّة. فماذا إذاً... لعليّ أريدُ أن أستغل هذهِ الإمكانية الأخيرة للعمل؟ الاحتجاجُ ليسَ أمراً قليلاً أحياناً...»

«الشرحُ» انتهى، وتوقّف إيبّوليت أخيراً.

توجدُ في الظروفِ القصوى درجة من الصراحةِ الوقحة أو المستهترة، التي يمكن أن يصل إليها الشخص العصبيُ، الخارجُ عن طوره، فلا يخشى عندها شيئاً ويصبحُ جاهزاً لأي شيء، لأي فضيحة، حتى أن هذا الأمر قد يفتنه، فيرمي بنفسهِ على الناس، دون أن يعرفهم، وقد عقد العزم أن يقذفَ بنفسهِ بعد دقيقة واحدة من أعلى برجٍ كنيسة، وهكذا ودفعة واحدة يحلُّ كل الإرباكات التي قد تترتب على أفعاله تلك. ويسبق هذهِ الحالة عادةً تعبٌ شاملٌ يصيبُ أعضاءَهُ الجسديّة ويثبّطُ قواه الفيزيائية. كان التوترُ الاستثنائي غير الطبيعي الذي سنَد إيبّوليت حتى الآن قد وصَلَ إلى هذهِ الدرجة النهائيّة. فإذا بهذا الصبي ذي الأعوام الثمانية عشرة، والذي هدّهُ المرض يبدو ضعيفاً، كورقةٍ مرتجفةٍ انتزعت من شجرة حتى إذا نظر إلى

سامعيه - لأوّل مَرّة خلال ساعته الأخيرة - عكستْ نظرتُهُ وابتسامتُهُ أكبرَ قدرٍ من التعالي والاحتقار والاشمئزاز. كان يتعجّلُ في تحدّيهم. [...]

★★★

- كان بافليشيف راجِحَ العقل، ومسيحياً، مسيحياً حقاً - قال الأميرُ فجأةً - فكيف استطاعَ أن يعتنقَ ديانةً.. غير مسيحيّة؟ الكاثوليكيّة[١٢]: إنها تماماً كأي ديانة غير مسيحيّة. أضافَ وقد سطعت عيناهُ وأجال النظر على من حولَه وكأنهُ يريدُ أن يحتويهم جميعاً بنظرة واحدة.

- هذا كثيرا - جمجَمَ العجوز وهو ينظُر إلى إيفان فيدوروفيتش باستغراب.

- كيف يمكن أن تكون الكاثوليكيّة ديانة غير مسيحيّة؟ - سألَ إيفان بتروفيتش وهو يستدير على كرسيِّهِ - كيف ذلك؟

استأنفَ الأمير حديثه منفعلاً انفعالاً شديداً وبلهجةٍ صارمة:

- أولاً: هي ليست ديانة مسيحيّة!، وثانياً: من وجهةِ نظري، كاثوليكيّة روما أسوأ من الإلحاد نفسه! نعم هذا هو رأيي، الإلحادُ ينادي بالعدم أما الكاثوليكيّة فتذهبُ أبعد من ذلك: إنها تبشّر بمسيحٍ مشوّه، مسيحٍ كاذبٍ مذموم، مسيحٍ يختلفُ تماماً عن الحقيقي. إنها تبشّر بمسيحٍ نقيض، أقسم لكم إنني أصدقكم القول! هذهِ قناعتي الذاتية القديمة، التي طالما عذّبتني... الكاثوليكيّة الرومانية تؤمن أنه دون سلطةٍ عالميةٍ شاملة لا يمكن لها أن تستقر على الأرض، وهي تصرُخ «Non possumus»[1][١٣].

حتى إن الكاثوليكيّة الرومانية - على ما أعتقد - ليست ديناً، بل استمراراً للإمبراطورية الرومانية الغربيّة، وكل شيء فيها خاضعٌ لهذهِ الفكرة، ابتداءً من الإيمان. لقد استولى البابا على الأرض، وبالسيف

١- لا نستطيع «باللاتينيّة في أصل الرواية» /المترجم/

سيطر على العرش الأرضي. ومنذ ذلك الوقت وكل شيء يجري على هذا المنوال، إلا أنهم والحق يُقال قد أضافوا إلى السيف الكذبَ، والمكر، والخديعة والتعصّب، والخرافة والأفعال الوضيعة السافلة، ولعبوا بأقدسِ عواطفِ الناسِ وأصدقِها، وأنقاها، وأطهرها وأكثرها حماسةً، لقد بَدّلوا بالمالِ كل شيء.. كل شيء، باعوا بالسلطةِ الأرضيّة الحقيرة كل شيء. فكيف لا تكون هذهِ التعاليم نقيض المسيحيّة؟ وكيفَ لا تكونُ مصدراً للإلحاد؟ لقد خَرَجَ الإلحادُ من الكاثوليكيّة الرومانيّة نفسها! والإلحادُ قبل كل شيءٍ بدأ منها: هل كان بإمكان أتباعِها أن يصدّقوا أنفسهم؟

وقد قَويَ الإلحادُ بسبب الكره الذي حَملهُ الناس لهم، إنهُ وليدُ كذبهم وضعفهم الروحي! الإلحاد! لعلّهُ لا يُرى في بلدنا إلا في بعضِ الفئات المحدودة، التي عبّر عنها بشكلٍ رائع يفغيني بافلوفيتش حين سمّاها فئات «مجتثّة الجذور»، أما في أوربّا فإن جماعات هائلة بدأت تفقدُ إيمانها - وكان ذلك سابقاً بسبب جهلها والظلمة التي تعيش فيها، أما الآن فهي تفعلُ ذلك بسبب كرهها الكنيسةَ والمسيحيّةَ.

وتوقف الأمير عن الكلام ليلتقطَ أنفاسَه، كان قد تحدّثَ بسرعةٍ كبيرة، وبدا عليهِ الشحوب وضيق الصدر. تبادَلَ الجميعُ من حولِهِ نظرات الدهشة، وأخيراً بدأ الشيخُ يضحك على الملأ. أخرج الأميرُ «N» نظاراتِه وراحَ يحدّقُ بالأمير.

وغادر الشويعر الألماني مكانه مقترباً من الطاولة وهو يبتسم ابتسامةً شريرة

- أنتَ.. تبا... لِغُ.. كثيراً - قالَ إيفان بتروفيتش ماطّاً كلامه وقد بدا عليه شيءٌ من الضجر وبعض تأنيب الضمير - فلتلك الكنيسة من يمثّلها من الرجال الذين هم أهل للاحترام، من الرجال الف.. ضـ.. لا.. ء.

- أنا لم أتحدّث إطلاقاً عن ممثّلي هذهِ الكنيسة كأفراد. لقد تحدّثتُ عن الكاثوليكيّة الرومانيّة.. عن جوهرها.. لقد تحدّثتُ عن روما. هل يمكن للكنيسة أن تزول؟ أنا لم أقل ذلك أبداً!

- موافق، وكل ذلك معروف، حتى أنه لا داعيَ للحديث فيه.. فهو من اختصاصِ رجال الكهنوت.

- لا إطلاقاً، لا! ليس هذا من اختصاصِ رجال الكهنوتِ فقط، أؤكد لك، إنه أمرٌ يمسُّنا أكثر مما تعتقد. وهنا يكمنُ خَطؤنا، فنحن لا نستطيع أن نرى حتى الآن أن هذا الأمر ليسَ محصوراً فقط بالمسألة اللاهوتيّة! خذوا مثلاً الاشتراكية - إنّها وليدة الكاثوليكيّة وليدة جوهر الكاثوليكيّة. وهي كأخيها الإلحاد، خرجت من اليأس، إنها نقيضُ الكاثوليكيّة من وجهة النظر الأخلاقيّة، وهي تسعى للحصول على السلطة الروحيّة التي كان قد فقدها الدين، لتروي ظمأ الإنسانيّة الروحي وتنقذها ولكن ليسَ بالمسيح، بل بالعنف والقوّة! إنها تطلب الحريّة من خلال الإكراهِ، والاتحاد بواسطة السيف والدم! «إياك أن تؤمن بالله، إياك أن تتمتع بملكية شخصية، إياك أن تمتلك شخصيّة، fraternite, ou la mort[أ][١٤]

ومليونا رأسٍ[١٥].!» لقد قالوا قديماً[١٦]: من أعمالهم تعرفونهم! فلا تظنّوا أن كل ذلك كان عفويّاً وغير مؤذٍ لكم، أوه، لا..! يجب علينا أن نواجههم وبسرعة، بسرعة!

ينبغي لمسيحنا، المسيح الذي حافظنا عليه والذي لم يعرفوه حتى، أن يُشرِقَ ضدَ الغرب يجب ألا نترامى كعبيد على سنّارة اليسوعيّة، بل علينا أن نحملَ إليهم حضارتنا الروسيّة[١٧] ويجب ألاّ يقالَ عندنا إن وعظهم أنيق وممتع. كما قال أحدهم منذ قليل...

أ- الأخوة او الموت «بالفرنسية في الأصل»

- اسمح لي، اسمح لي - قال فيفان بتروفيتش مضطرباً بشدّة، وقلّبَ بصرَهُ بمن حولهم مرتعشاً ثم تابع - إن كل آرائك، بالطبع، محمودة، وتزخَرُ وطنيّةً، لكن في ما قلته الكثير من المبالغة.. والأفضل لنا أن نترك هذا الموضوع...

- لا.. ليس هناك أي مبالغة، بل لعلّي قلّلتُ وخففّتُ.. لأنني عاجز الآن عن التعبير، ولكن..

- إ... س.. مح.. لي!

وصمتَ الأمير، مُتسمّراً على كُرسيّه، ورشقَ إيفان بتروفيتش بنظراتٍ ناريّة.

قال الشيخ الصغيرُ ملاحظاً بشكلٍ هادئ وودود:

- أظن أن ما حَدَثَ لَكَ مع محسنكَ الكريم قد أذهلَكَ أو فجعَك. إن أعصابكَ مهتاجة.. ولعل السبب في ذلك هو عزلتك التي تعيشها، فلو عاشرت الناس أكثر، علية القوم، وهم بالتأكيد سيكونون سعداء بوجودكِ بينَهم وأنت الشاب الرائع، لأصبحتَ أكثرَ هدوءاً ولوجدتَ أن كل هذهِ الأمور أكثر بساطةً مما تبدو لك... نعم تحدثُ بعضُ الحالات القليلة أو النادرة - من وجهة نظري - التي يعودُ السبب في حدوثِها إلى شعبنا نفسه. والتي يمكن أن نردّ بعضها إلى.. السأم..

بالضبط.. هذا هو الأمرُ بالضبط - صاحَ الأمير - إنها فكرة عظيمة جداً! السببُ هو «السأم، سأمنا نحنُ بالذات»، ليسَ بسبب الشبع، على العكس تماماً، بسبب العطش، وهنا ابتعدتَ أنتَ عن الحقيقة! نعم بسبب عطشٍ ملتهب.. عطشٍ حارق! ولا تظنّوا أن الأمر من الصغائر بحيث يستدعي الضحك! إن مواطنينا ما إن يصلوا إلى الضفّة، ما أن يطمئنّوا إلى أنهم بلغوا الضفّةَ فعلاً، حتى يغمرهم الفرح والحبور فينطلقون من لحظتهم ليبلغوا أقصى الأقطاب، فلمَ هذا؟ إنكم تنظرونَ إلى بافليشيف بشيءٍ من

الدهشة، إنكم تشخّصون حالتَهُ بالجنون أو الطيبة حتى السذاجة، لكن الأمر ليسَ كذلك! ولسنا نحن فقط، بل أوربّا كلها أيضاً ترى في مثل هذهِ الحالة صورةً عن الحماسة الروسيّة والحميّة: إن واحدنا إن أصبحَ كاثوليكياً فلا بد أن يصبحَ يسوعيّاً بل ومن أشدِ غُلاتِهم، وإن أصبحَ مُلحِداً، فإنه ودون تردد يبدأ بالمطالبةِ باستئصالِ الإيمان بالله بالقوّة، أي بالسيف! فلماذا هذا؟ لماذا كل هذه الحماسة المفرطة المفاجئة؟ أتراكم لا تعرفون؟! لأنهُ يعتقدُ أنه وجَدَ وطناً يبحثُ عنه، فملأه ذلك غبطةً، وجَدَ شاطئاً، بَرّاً سيركع على أرضِهِ ويغمرُهُ بالقبلات! وهذا ليسَ بسبب الغرور، ليس بسبب الغرور والزهو الشديد يصبحُ الروسُ ملحدين أو يسوعيين، ولكن بسبب ظمأٍ روحي شديد، بسبب حنين جارفٍ إلى الأعمال السامية، إلى شاطئ وطيد، إلى موطن، ما عادوا يؤمنون به، لأنهم ما عرفوه أبداً! كم من السهل أن تجعل الإنسان الروسي مُلحِداً، وهذا بالنسبة لَهُ أسهل منهُ بالنسبةِ لأي بشريٍ آخر على سطح الأرض! ومواطنونا لا يصبحونَ ملحدين فحسب بل يؤمنونَ بالإلحادِ كما لو كان ديناً جديداً، دون أن ينتبهوا أنهم يؤمنون بالعدم. هذا هو مَبْلَغُ ظَمئِهم. «من لا أرضَ تحتَ قدميه، لا ربّ له». هذهِ العبارة ليست لي، إنها لتاجرٍ من أنصار الكنيسة القديمة[أ] التقيّةُ أثناء سفري، هو في الحقيقة لم يقل تلكَ العبارة كما صغتُها أنا، لكنهُ قال: «من يُنكر وطنهُ، يُنكِر إلهَهُ». تصوّر أن لدينا في روسيا مجموعة مثقّفة جداً من الناس ينتمون إلى «الخليستيّة»[18]... وأنا حقيقةً أتساءَل لماذا تُعَدّ هذه الملّة أسوأ من العدميّة واليسوعية والإلحاد؟ رُبّما كانت أعمق منها جميعاً؟ على كل حال ذلكم ما يمكن أن يقودنا إليهِ الحنين!...

أ- المقصود هنا أنه من الجماعات الروسيّة التي رفضت الإصلاحات الكنسية في القرن السابع عشر واصبحت معادية للكنيسة الأرثوذكسيّة الرسميّة /المترجم/

اكشفوا لرفاقِ كولومبس المتعطشين المتحرّقين شاطئ «العالم الجديد» اكشفوا للإنسان الروسي «العالَمَ الروسي»، واتركوا لَهُ أن يعثرَ عَلى الذهب، على ذلك الكنز، الذي تخفيه الأرضُ عن بصره! واجعلوه يرى في المستقبل انبعاثَ الإنسانيّة كلها وتجدُدها، رُبّما بفضل الفكر الروسي وحده، والإلهِ الروسي والمسيح الروسي، وعنده سترونَ أيّ عملاقٍ خارقٍ وعادلٍ، حَكيمٍ وحليم سينمو أمامَ العالم المذهول، المذهولِ والخائف، لأنهم لا يتوقعون منّا إلا السيف والقهر، لأنهم يتصوّرون أننا لا نستطيع أن نقوم بذلك دون بربريّة وهمجيّة، حين يقيسوننا إلى أنفسهم. هذا ما يحدث حتى الآن وما سوف يزدادُ مع الأيام! و... [...]

الشياطين

[...] أنا أبحث فقط عن السبب الذي يجعلُ الناس لا يجرؤون على الانتحار هذا كلُ ما في الأمر.

- كيفَ لا يجرؤون؟! وهل حوادثُ الانتحار قليلة؟!

- قليلة جداً.

- هل هذا ما تعتقدُهُ فعلاً؟

لم يجب، وقفَ وراحَ يذرعُ المكان جيئةً وذهاباً وهو يفكّر.

- ما الذي يمنعُ الناسَ - من وجهة نظرك - عن الانتحار؟ سألتُهُ أنا.

نظر إلي وكأنَهُ قد نسيَ عَمّا كنا نتحدّث، محاولاً أن يتذكّر.. ثم قال.

- أنا.. أنا لا أعلمُ إلا القليل... وهمان على الأرجح يمنعان الناس من الانتحار، شيئان، فقط اثنان، الأوّل صغيرٌ جداً، والثاني كبيرٌ جداً لكنَ الصغيرَ منهما لا يقل أهميّةً..

- فما هو السببُ الصغير إذاً؟

- الألم.

- الألم؟ هل هو مُهمّ إلى هذه الدرجة.. في حالتنا هذه؟

- أكبر الأهميّة. هناك صنفان من الناس: صنفٌ ينتحر بسبب عذاب كبير، أو غضب أو جنون أو غير ذلك.. وهؤلاء ينتحرون فجأة.. وقليلاً ما يفكّرونَ بالألم، ففجأة ينتهي كل شيء. أما أولئك الذين يفكرون فيحسبون حساب الألم كثيراً.

- وهل هم موجودون، أعني من ينتحرون وهم يفكرون؟

- نعم كثيرون جداً. ولولا الأوهام لكان عددهم أكبر، لكانوا كثيرين جداً.. بل كل الناس[1].

- حقاً كل الناس؟.

لم يجب.

- لكن أليسَ هناك وسيلة للموت بلا ألم؟

- تصوّر - قالَ وهو يقف أمامي - تصوّر صخرة بحجم بيتٍ كبير، مُعلّقة فوقك، تسقطُ عليك، على رأسك - هل ستشعر عندها بالألم؟

- صخرة بحجم بيت؟ طبعاً شيء مخيف.

- أنا لا أتحدّثُ عن الخوف، هل ستتألّم؟

- صخرة كجبل، تزن مليون طن؟ لن أحسّ بالألم طبعاً.

- ومع ذلك، فما دمت تحت الصخرة المعلقة فستشعر بالخوف من الألم، إن أكبر العلماء والدكاترة.. سيخافون، وهم يعلمون أنهم لن يتألّموا في حالةٍ كهذه. ولكنهم مع ذلك سيخافونَ من أن يُصيبهم الألم.

- حسناً، فما هو السبب الثاني، السبب الكبير؟

- إنه الحياة الآخرة.

- أتقصد العقاب؟

- ليست التسمية هي المهمة، الحياة الآخرة، وفقط الحياة الآخرة.

- ألا يوجد ملحدون، لا يؤمنون بالحياة الآخرة؟

وصمت ثانيةً.

- لعلك تحكم انطلاقاً من نفسك؟

- كل إنسان لا يستطيع أن يحكم إلا انطلاقاً من نفسه وشعوره - أجاب وقد احمرّ وجهُه - إن الحريّة الكاملة ستتحقق حينما تستوي الحياة والموت عند الإنسان، ذلك هو هدف كل شيء.

- هدف؟ وهل من الممكن أن نرى أحداً لا يرغبُ أن يحيا؟

- نعم. أجابَ بلهجةٍ حاسمة:

- الإنسان يخافُ الموت، لأنّه يحبُ الحياة هذا ما أفهمَهُ أنا - عقبّتُ - وهذا ما تريدُهُ الطبيعة.

- هذا جُبن، وفي الأمر يتجلّى الكذبُ كله - قال وقد التمعت عيناه - الحياة هي الألم، الحياة هي الرُعب، والإنسان ليس سعيداً. كل شيء الآن ألم ورعب. الإنسانُ يحبُ اليوم الحياة لأنّهُ يحبُ الألمَ والرعُب. هذا ما يحدُث. يقدمُ الإنسان الحياة لقاء الألم والرعب، وهنا الطّامَةُ الكبرى. سيجيءُ إنسانٌ سعيدٌ وفخور، عندما يستوي عنده الموت والحياة، وسيكون هو الإنسان الجيد، الإنسان الذي سينتصر على الألم والرعب، وسيصبحُ هو الرب وسيزول الرب عندها.

- هذا يعني أن الرب موجودٌ برأيك؟

- إنّه موجود وليسَ موجوداً معاً: ليس في الصخرة ألم، ولكنّ الألمَ في الخوفِ من الصخرة. الإلهُ هو عذاب الخوفِ من الموت. من ينتصرُ على الألم والخوف يصبحُ إلهاً، عندها تبدأ حياة جديدة. ويظهرُ إنسان جديد.. عندها سيقسمون التاريخ إلى قسمين:

الأوّل من الغوريلا حتى زوال الرب، والثاني من زوال الرب حتّى..

- حتى الغوريلا؟

-... حتّى التحوّل الفيزيائي للأرض والإنسان. الإنسان سيصبحُ ربّاً وسيتحوّلُ فيزيائياً. والعالم سيتغيّر. والأعمال ستتغيّر، والأفكار والمشاعر كلّها. فماذا تظن ألن يتحوّل الإنسان عندها فيزيائياً؟

- إذا استوى الموتُ والحياةُ فسيَقْتُلُ الجميع أنْفَسهم، وفي هذا تحديداً ربمّا كان التحوّل.

- الأمرُ سيّان. فالكذبُ سيموت. وكل من أراد الحريّة الكاملة، يجب أن يملك الشجاعة على الانتحار. ومن ملكَ هذهِ الشجاعة، فقد عَرَف سِرّ

الخديعة، وما بعد ذلك من حُريّة، ما من شيءٍ بعد ذلك. من امتلكَ شجاعة الانتحار، فقد صار رباً والآن كل إنسان يستطيع أن يُزيلَ الرب، وأن يزيل كل شيء، ولكن ما من أحدٍ فعل ذلك ولو مَرّة واحدة حتى الآن.

- ولكنَ ملايين البشر قد انتحروا حتى الآن.

- نعم لأسباب أخرى، لقد انتحروا بهلعٍ وليس للسبب الذي ذكرتُه، ليس لأجلِ قتلِ الرعب والهلع. من ينتحر بهدف قتل الرُعبِ فحسب، يصبحُ في اللحظةِ نفسها إلهاً.

- ربما لا يُسْعِفُهُ الوقت. قلتُ لَهُ.

- لا ضير في ذلك. [...].

★★★

[...] - أنتَ إذاً تحبّ الحياة؟

- نعم، أحبُ الحياة، ماذا في ذلك؟

- لكنكَ تريد الانتحار.

- وماذا في الأمر؟ لماذا تربطُ بين الشيئين؟ الحياة شيء، والموتُ شيءٌ آخر. الحياةُ موجودة، أما الموت فغير موجود إطلاقاً.

- أأصبحت تؤمن بالحياة الأبديّة الخالدة؟

- لا، ليسَ بالحياة الآخرة الأبدية، بل بالحياة الأبديّة هنا، على الأرض. هناك لحظات، تصلُ فيها إلى بُرهةٍ يتوقفُ فيها الزمن، فتصبحُ أبديةً كاملة.

- هل تأمل أن تصل إلى تلك اللحظة؟

- نعم.

- لا أظن أن هذا ممكن في زمننا - قال نيكولاي فسيفولودوفيتش[٢]، دون أي سخرية أيضاً، وبكثير من الهدوء والتفكير - فالملاك في رؤيا يوحنّا يقسمُ أن الزمان سيتوقف بعد ذلك[٣].

- أعلَمُ ذلك. وهذا صحيحٌ، وقد قيلَ هناك بدقةٍ ووضوح. حين يبلُغُ الإنسان السعادة الكاملة فسيتوقف الزمن، لأنه لن يكونَ ضرورياً، هذه فكرةٌ مُحقّة.

- لكن أين يختفي الزمن عندها؟

- لن يختفي في أي مكان. الزمنُ ليسَ شيئاً ماديّاً بل فكرة، ستنطفئ في العقل.

- هذه مقولاتٌ فلسفيّة قديمة، تتردَدُ منذ بداية القرون. كذلك دمدم ستافروجين بشيء من الأسفِ المشوبِ بالازدراء. فالتقط كيريلّوف الفكرة وقد التمعت عيناهُ، وكأن هذهِ الفكرة توشك أن تكون ضمانةً للنصر:

- تتردَدُ نفسها، نعم تترددُ هي نفسها منذُ بداية القرون، ولكن لن يكون هناك سواها.

- أنت، على ما يبدو لي، سعيدٌ جداً يا كيريلّوف، أليس كذلك؟

- نعم، سعيدٌ جداً - أجابَ وكأنّهُ يقدّم أكثر الأجوبة عاديّةً وبساطةً.

- لكنك وقبل قليل كنت حانقاً، وغاضباً من ليبوتين.

- هِمْ.. ولكنني الآن لستُ كذلك، ما عرفتُ عندها أنني سعيد. هل رأيت ورقة. ورقة شجرة؟

- نعم رأيت.

- أنا رأيتُ ورقةَ شجرةٍ منذ مُدّة، ورقة مُصفرّة، فيها شيءٌ من الاخضرار، لكن حواشيها قد بدأت بالتفسخ وكان الهواء يحملها. عندما كنتُ في العاشرة من عمري، كنت في الشتاء أغمض عينيَ عمداً. وأتخيّل ورقةً - خضراء، متلألئة بعروقها الملتمعة في ضوء الشمس. وحين كنتُ أفتحُ عينيَ لم أكن أصدّق جمالَ ما تخيلت، فأعودُ ثانيةً لإغلاقهما.

- هل هذا رمز؟

- لا.. لماذا؟ أنا لا أرمِّز. أنا ببساطة ورقة، ورقة واحدة، ورقة جيّدة. كل شيء جيد.

- كل شيء. الإنسان شقي لأنَهُ لا يعلم أنه سعيد، لا شيءٍ سوى ذلك. هذا كل شيء، كل ما في الأمر، ومن يعلم ذلك يصبحُ من لحظتِهِ سعيداً. امرأةُ الابن ستموت. والطفلة ستعيش - كل شيء حسن، هذا ما اكتشفتهُ فجأةً.

- وإذا ما ماتَ الإنسان من الجوع، وإذا ما أُهينت الطفلة واغتصبَت، فهل هذا حسن أيضاً.

- نعم. وحين يكسر أحدهم جمجمة الشخص الذي اعتدى على الطفلة فهذا حَسَنٌ أيضاً.

وإذا لم يكسر أحد جمجمته، فهذا حَسَنٌ أيضاً. حسن. سعداءُ أولئك الذين يعرفون أن كل شيء حسن، فإن هم عرفوا ذلك أصبحوا سعداء، أما إذا ظلّوا على جهلهم بذلك فلن يصبحوا سعداء، تلك هي كل الفكرة، كاملةً، وليس هناك غيرها!

- ومتى اكتشفت أنك جدُ سعيد؟

- في الأسبوع الماضي يوم الثلاثاء، لا بل يوم الأربعاء، لأن الوقت كان منتصف الليل.

- وبأي مناسبة؟

- لا أذكر.. كنت أذرع الغُرفة، ما من مشكلة. لقد أوقفتُ الساعة. كانت تشيرُ إلى الثالثة إلا ثلاث وعشرين دقيقة.

- هل فعلت ذلك دلالةً على أن الزمن سيتوقف. لم يجب كيريلّوف، لكنه فجأة عاد فاستأنفَ الكلام:

- ليسوا طيبين، لأنهم لا يعرفون أنّهم طيبون، لكن إذا عرفوا ذلك مستقبلاً فسيصبحونَ طيبين، ولن يغتصبوا البنت الصغيرة. يجب أن

يُدركوا أنهم طيّبون، وعندها يصبحونَ كذلكَ فعلاً على الفور، جميعهم، حتى آخر واحدٍ منهم.

- حسناً ها أنتَ ذا تعرف أنكَ طيّب، فهل أنتَ طيّب فعلاً؟

- نعم أنا طيّب!

- على هذا بشكلٍ عام أنا أوافقك - بَرْبَرَ ستافروجين بعبوس.

- إن من سيعلّم الناس أنهم جميعاً طيّبون. سيُنهي تاريخ البشريّة.

- من فعل ذلك، قد صلب.

- سيجيء، وسيكون اسُمه الإله الإنسان[٤].

- الإنسان الإله؟

- بل الإله الإنسان، وهنا يكمُنُ الفرق.

- ألستَ أنتَ من أشعَلَ السراجَ أمام الأيقونة؟

- نعم، أنا.

- هل تؤمن بالله؟

- العجوز تحبُّ أن تشعل.. ولم يكن لديها الوقت اليوم. دمدَمَ كيريلّوف.

- وأنتَ هل تُصلّي؟

- أنا أُصلي دائماً. هل ترى هذا العنكبوت الذي يتسلق الجدار، أنا أنظر إليه وأشعرُ بالامتنان له لأنهُ هنا، يتسلّق.

التمعت عيناهُ من جديد. وحَدّق بستافروجين مباشرة، بنظرةٍ قاسيةٍ شمّاء. بينما راحَ الثاني يتأمّلُهُ عابساً مشمئزاً، دون أن تظهرَ السخريةُ في نظرته.

- أراهنُ أنني حين أجيءَ إليك في المرّة القادمة سأجدُكَ قد آمنت بالله - قال ستافروجين وهو ينهض ويتناول قبّعته.

- لماذا؟ سألَهُ كيريلوف وهو يقف.

- فأجاب الآخر ساخراً:

- لو علمتَ أنكَ تؤمن بالله، فستؤمنُ بهِ بالتأكيد، ولكن كونك إلى الآن لا تعلم أنكَ تؤمن بالله، فلهذا لست مؤمِناً. [...]

قاطَعَهَ شاتوف ملّوحاً بيده:

- أتذكُرُ عبارتك التي تقول: «الملحدُ لا يمكن أن يكون روسيّاً، الملحد في لحظة الإلحاد نفسها يتوقَفُ عن كونِهِ روسياً» هل تذكر هذا؟

- نعم؟ قالَ نيكولاي فسيفولودوفيتش كما لو كانَ يشكُ في الأمر.

- أتسألني أنت؟ هل نسيت؟ وعلى فكرة هذهِ واحدة من أهم السمات التي تشيرُ إلى خصوصيّة الروح الروسيّة، وكنتَ قد لمستَها أنت، كيف استطعتَ أن تنسى ذلك؟

أنا أُمعنُ في تذكيرك - لقد قلتَ حينها: «من لم يكن أرثوذكسيّاً لا يمكن أن يكون روسياً[٥]».

- أنا أفترضُ أن هذهِ الفكرة من أفكار دُعاةِ السلافيّة.

- لا، فدعاةُ السلافية المعاصرون يرفضونها. لقد أصبحَ الشعب أذكى، ولكنك ذهبت أبعدَ من ذلك: لقد قُلتَ إن الكاثوليكيّة الرومانيّة لم تعد ديانةً مسيحيّة، وأكدّتَ أن المسيح الذي تدعو له روما قد خضَعَ للغواية الثالثة من غوايات الشيطان[٦].

وأن الكاثوليكيّة بإعلانها للعالم أجمع أن المسيح دون امتلاك مملكة الأرض لن يستطيع أن يصمد إنما كانت بذلك تدعو إلى ما يناقض روح المسيح ويجّر الهلاك على العالم الغربي.

وقد أشرتَ يومها بالتحديد إلى فرنسا، التي إذا كانت تتألم وتتعذّب فبسبب الكاثوليكيّة، لأنها إذ نقضت الإله الروماني العفن، لم تستطع الاهتداء إلى سواه. هذا ما كانَ باستطاعتكَ من قبل أن تقوله! أنا أذكُرُ أحادثينا السابقة جيداً.

- لو كنت أؤمنُ، لكنت حتماً كررتُ أقوالي نفسها الآن، أنا لم أكذب يومها حين تحدّثت كرجلٍ مؤمن - قالْ نيكولاي فسيفولودوفيتش جاداً كل الجد - لكنني أؤكد لك أنهُ يسوؤني ويعكّر ذهني ترديدُ أفكاري القديمة تلك، فهلا توقفت عن ذلك؟

- لو كنت تؤمن؟! - صاحَ شاتوف سائلاً دون أن يلتفتَ إلى طلبهِ إطلاقاً

- ألستَ أنتَ من قالَ لي ذات يوم إنّهم لو برهنوا لكَ رياضياً أن الحقيقة ليست في المسيح، لفضلّتَ أن تبقى مع المسيح وليسَ مع الحقيقة(٧)؟

أما قلت لي ذلك؟ أجبني؟

أجاب ستافروجين بصوتٍ عالٍ:

- اسمح لي أخيراً أن أسالك بدوري: إلى ماذا يقودنا هذا الامتحانُ الأهوجُ الخبيث؟

- هذا الامتحانُ سينتهي إلى الأبد، ولن تُذكّرَ به بعد اليوم.

- ما زلتَ تُصرُ أننا خارج المكانِ والزمانِ..

- اصمت! - صرخَ شاتوف فجأةً - أنا غبيٌّ أخرق، لكن أن تجعل اسمي مثاراً للسخرية! اسمح لي أن أكررَ على مسامعك فكرتك القديمة الرئيسية.. أوه.. عشرة أسطر فحسب وخلاصة!

- كرّر ولكن النتيجة فقط! قال ستافروجين وهو يهم أن ينظر إلى ساعته لكنّه توقّف في اللحظة الأخيرة.

ومال شاتوف ثانيةً فوق الطاولة ولبرهةٍ رفَعَ سبابَتَهُ:

- ما من شعب - بدأ حديثه كمن يقرأُ في كتاب واستّمر يحدّقِ غاضباً في ستافروجين - ما من شعبٍ نَظّمَ نفسه وأُسسَ على قواعد عقلية وعلمية، ما من مثالٍ على ذلك ولو لَمّرة واحدة. إن الاشتراكية في جوهرها يجب أن تكون إلحاداً، لأنها نادت تحديداً ومنذُ البداية بأنها تهدفُ إلى بناء المجتمع على أساس العلم والعقل حصراً. إن العلمَ والعقل منذ أقدم العصور حتى

يومنا هذا لم يمثّلا إلا دوراً ثانويّاً وخدمياً في حياة الشعوب، وسيظلُ الأمر على هذه الصورة حتى نهاية العصور. بينما تتكون الشعوبُ وتنمو بفعل قوة مختلفة، عُليا مسيطرة، ذات منشأ مجهولٍ ولا يُفسَّر. هذهِ القوّة هي قوّة الرغبة المتأججّة في الوصول إلى النهاية مع أنّها في الوقت نفسه تنفي وجود النهاية، إنها قوّة تأكيد الحياة المستمرة المتواصلة التي لا تتعب، هي قوة نفي الموت. هي روح الحياة، كما يقولُ الكتاب المقدّس، هي «أنهار الحياة الدافقة»[٨]، التي ستفيض كما تؤكد رؤيا القديس يوحنّا. هي بدايةُ الجمال، كما يعبّرُ الفلاسفة، بدايةُ الأخلاق كما يعبّرون أيضاً.

وهي كما أعبّرُ أنا دائماً وببساطة - «البحث عن الله»، إن هدف حركة الشعب، أي شعب، وفي كل مراحل وجوده، هي البحثُ عن الرب فحسب، عن إلهه، عن إلهٍ يؤمن به على أنه هو الرب الوحيد الحق. إن الإله هو الذات المركّبة من الشعب كلّه، منذُ بداياتِهِ حتى نهايته. لم يحدّث حتى الآن أن أجمعت الشعوب كلها أو حتى بعضها على إلهٍ واحدٍ، بل على العكس دائماً كان لكل شعبٍ ربُّهُ الخاص.

إن علامة موت الشعوب هي أن تصبح آلهتها واحدة. عندما يُصبح الأربابُ موحدينَ لكل الشعوب يموتون ويموتُ الإيمانُ بهم مع موت شعوبهم. كلما كان الشعبُ قويّاً كان إلهُهُ أكثر خصوصيّةً. لم يحدث حتى الآن أن وجد شعب بلا دين، أي بلا مفهومٍ عن الشر والخير. لكل شعبٍ مفهومُهُ الخاص عن الشر والخير، بل له خيره وشره الخاصين به. عندما تبدأ مفاهيم موحدّة حول الشر والخير بالظهور والتكّون لمجموعة كبيرة من الشعوب، فإن هذه الشعوب تبدأ بالموت، بل تبدأ الحدود والفروقات بين الشر والخير بالزوال والانمحاء. لم يكن العقلُ في يومٍ من الأيّام قادراً على تحديد الشر والخير. بل لم يكن قادراً على الفصل بينهما تقريبيّاً، لقد كان دائماً مشوشاً بشكلٍ مؤسفٍ ومخجل، أما العلم فقد قَدّم حلولاً مبنيّة على القوّة «القبضات»[٩].

وبخاصة «نصف العلم»، وهو أفظعُ داءٍ أصاب البشريّة، أفظع من الطاعون، من الجوع، من الحرب، وظهر في هذا القرن تحديداً. إن «نصف العلم» طاغية له عبيدهُ وكهنتُه.

طاغية يسجدُ الجميعُ لَهُ بحبٍ وإيمانٍ غَيبي خُرافي، غير مفهومين حتى الآن، إن العلم نفسه يرتجفُ أمامه ويشعرُ بالإهانة والمذلّة قُدّامه. هذا كلُّهُ كلامك يا ستافروجين ما عدا عبارتي الأخيرة عن «نصف العلم»، فهي لي أنا، لأنني من أهل نصف العلم، ولهذا فأنا أمقتُهُ كثيراً. أنا لم أغيّر شيئاً في أفكارك بل في عباراتك ذاتها.. ولم أحرّف كلمة واحدة.

- لا أظنُ أنكَ لم تغيّر في عباراتي - قال ستافروجين بحذر - لقد التقطت أفكاري بحماسةٍ ملتهبةَ، وشوهتها بالصورة نفسها، دون أن تلاحظ ذلك، وللبرهان على الأمر يكفي أن أذكر لك أنكَ أنزلت الرب بحيث جعلته صفة للشعب...

وهنا بدأ ستافروجين يتابعٌ شاتوف بانتباهٍ خاص، مُركّزاً على حركاتهِ، أكثر منه على كلامه.

- أأنا أنزلُ الله فأجعلهُ صفةً للشعب؟ - صرخَ شاتوف - على العكس أنا أرفعُ الشعب لأبلغَ بهِ الله. وهل كان الأمر غير ذلك في يومٍ من الأيّام؟ الشعبُ - جسمُ الله.

إن كل شعب لا يكون شعباً ما لم يملك إلهَهُ الخاص، ويرفض الآلهة الأخرى جميعاً، فلا يقبلها، وما لم يؤمن أنه سينتصرُ بإلهه على الآلهة الباقية ويطردها.

هكذا آمنت الشعوب منذ بداية العصور، الشعوب العظيمةُ على الأقل، الشعوب ذات الدور في التاريخ، الشعوب التي وقفت في طليعة البشريّة.

لا يمكن أن نغالب الوقائع. اليهودُ عاشوا لكي ينتظروا الإله الحق، وقد تركوا للعالم هذه الفكرة. الإغريق ألّهوا الطبيعة، وأورثوا العالم هذه

الديانة، أقصد الفلسفةَ والفنَ. روما ألّهتِ الشعبِ متجسِّداً في الدولة وأورثت الشعب فكرة الدولة. فرنسا وعلى امتدادِ تاريخها الطويل لم تفعل إلا تبنّي فكرة الإله الروماني وتطويرها، وإذا كانت في النهاية قد قذفت بهذا الإله الروماني إلى القاع واصطدمت بالإلحاد، الذي يسمّى عندهم الاشتراكية مؤقتاً، فذلك لأن الإلحاد على الرغم من كل شيء أَسْلَم من الكاثوليكيّة الرومانيّة.

إذا الشعب العظيم لم يؤمن بأنه يمتلك الحقيقة وتتمثلُ فيه «وتحديداً فيه وحده» إذا لم يؤمن أنَهُ بفضل حقيقتهِ قادر على تجديد الإنسانية وإنقاذ الشعوب الأخرى، فإنه وفي تلك اللحظة نفسها يتوقف عن كونهِ عظيماً، وفي اللحظة نفسها يصبحُ مادةً بشريّةً، وليسَ شعباً عظيماً. إن الشعب العظيم الحقيقي لن يرتضي لنفسه على الإطلاق أن يقومَ بدورٍ ثانوي في حياة الإنسانية، ولا بد لهُ من أن يلعبَ الدور الأول والمكان الأول. من يفقدُ هذا الإيمان لن يكونَ شعباً. ومع ذلك فالحقيقة واحدة، ومعنى هذا أن شعباً واحداً من الشعوب يمكن أن يملكَ إلهاً حقّاً، حتى ولو كان للشعوب الأخرى آلهة خاصة وعظيمة. إن هذا الشعب الواحد - هذا الشعب «الحامل للرب» إنما هو الشعب الروسي، و.. و.. وهل تظن يا ستافروجين أنني أحمق - أعولَ شاتوف فجأةً - لا أميّز هل هذهِ الآراء، التي قُلتُها في هذه اللحظات ثرثرات عجائز عجنتها في موسكو طويلاً، معاجن الدُعاة السلافيين، أم أنّها كلمات جديدة تماماً كلمات أخيرة، كلماتُ الخلاص والبعث الوحيدة، و.. وفيما يعنيني ضحكك الآن! وفيما يعنيني أنكَ لا تفهمني إطلاقاً.. إطلاقاً، حتى ولا كلمة، ولا حرف واحد..! آه كم أحتقرْ ضحككَ المتكبّر ونظرتك في هذهِ الدقيقة.

قفزَ شاتوف من مكانهِ وكانَ الزبدُ يغطّي شفتيه. [....]

نظر نيكولاي فسيفولودوفيتش ستافروجين إليهِ مربَدَّ الوجه:

- إنما أردتُ أن أعرف هل تؤمن أنت نفسك بالله أم لا؟

- أنا أومن بروسيا، أنا أؤمن بأرثوذكسيتها.. أنا أؤمن بجسد المسيح..

وأؤمنُ بأن ظهور المسيح من جديد سيكون في روسيا..

راحَ شاتوف يتمتمُ خارجاً عن طوره.

- ولكن بالله؟ بالله؟

- أنا.... أنا سوف أؤمن بالله. [...]

وتابعَ شاتوف مرتعشاً بشدّة:

- أنا أيضاً لا أعلم، لماذا الشر دميم، والخيرُ جميل، لكنني أعلم كيف يُمكن أن يُمحى الإحساسُ بالفارق بينهما ويزولُ لدى سادةٍ من زُمرةِ ستافروجين - هل تعرف لماذا تزوّجت يومها ذلك الزواج المُعيب؟ إنكَ قد فعلتَ ذلك لأنَ العار والسخف قد بلغا بك هنا حد العبقريّة! أوه... إنكَ لا تحوم حول الهاوية، بل تهبط بجسارةٍ ورأسكُ إلى الأسفل. لقد تزوّجتَ بدافِع شهوتكَ للألم، بدافع اشتهائكَ عذاب الضمير، واحتجاجاً على المباهج الروحيّة. وهنا ظهرَ شيءٌ من الغيظ المتشنّج..

وكان استدعاءُ الحكمةِ والتعقّل أمراً مُغرياً! وها هو ذا ستافروجين والمتسوّلة العرجاء المسكينة، نصف المخبولة! وها هو ذا يعض أذن الحاكم، ألم تشعر بإحساسٍ لذيذٍ ساعتها؟ يا ابن السيّد أيها المتسكّع الخالي؟ [....]

صمتَ ستافروجين، فقالَ شاتوف:

- أنتَ مُلحد، لأنكَ سيّد، آخر سيّد[١٠]، لقد فقدتَ القدرة على التمييز بين الخير والشر، لأنكَ لم تعد تفهم شعبك، غير أن جيلاً جديداً يجيء، يخرجُ مباشرةً من قلب الشعب ولن تتعرّفَ إليه أبداً، لا أنتَ ولا الفرخوفنسكيين: الأب والابن، حتى ولا أنا، لأنني أنا أيضاً سيّد، أنا ابن

قنّكَ وخادمك باشكا[1].. اسمع عليك أن تصل إلى الله بالعمل: هذا هو جوهر الموضوع، أو أنكَ ستزول كما تزول الطفيليّاتُ الزاحفة، صل إلى الله بالعمل!

- إلى الله بالعمل؟ أي عمل؟

- بعمل الفلاّح، القروي. اذهب. ارمِ جانباً بثروتك... آ.. إنك تضحك، تخشى أن يستخفّ بك الناس؟

لكنَ ستافروجين لم يكن يضحك. [...]

[...] - أنا أذكر. أن حديثاً ما عن الربِ قد دارَ.. فقد شرحت لي مَرّةً، بل مَرّتين، أنكَ لو انتحرتَ فستصبحُ إلهاً، أعتقدُ هكذا أليسَ كذلك؟

- نعم، سأصبحُ إلهاً [...] إن لم يكن هناك إله. فأنا إله.

- حسناً أنا لم أستطع أن أفهم أبداً هذهِ النقطة عندك: لماذا أنتَ إله.. ها؟

- إذا كان الله موجوداً، فالإرادةُ كلها له، ولن أستطيع الخروج عليها. وإن لم يكن موجوداً، فالإرادةُ كلّها لي، وأنا مضطرٌ أن أُعلِنَ إرادتي ومشيئتي.

- مشيئتك؟ ولماذا مضطر؟

- لأن كل الإرادة والمشيئة أصبحت لي. هل من المعقول أن ليس هناك شخص على سطح هذا الكوكب - وقد قتلَ الله وآمَنَ بالإرادة الذاتيّة - يجرؤُ أن يعلنَ مشيئتَهُ الخاصة، في صورتها الحاسمة؟ إن الأمر أشبه بحكايةِ مسكينٍ حصلَ على تركة ولم يستطع بل خافَ أن يقترب منها، شاعراً أنه أضعف من أن يستطيع امتلاكها!

- حسناً افعل ذلك.

- أنا مُلزَمٌ أن أقتلَ نفسي، لأن النقطة الحاسمة والأكثر أهميّة في إعلان مشيئتي - هي أن أقتلَ نفسي.

1- تصغير اسم بافل بهدف التحقير والسخرية /المترجم/

- نعم ولكن لست وحدكَ من يفعل ذلك، هناك الكثير من المنتحرين!

- فعلوا ذلك لسبب ما. أما دون أي سبب ولأجلِ المشيئة الخاصة فحسب فليسَ هناك غيري.

«لن ينتحر» أومضت الفكرة من جديد في ذهن بطرس ستيبانوفيتش.

- هل تعلم - عَلّقَ مغْتاظاً - لو كنتُ مكانك، لقتلتُ شخصاً آخر كي أُعلن مشيئتي، وليسَ نفسي. وعندها تصبحُ نافعاً. وأنا أدلّكَ على من تَقْتُلَهُ إن كنتَ لا تخاف. وفي هذه الحالة أرجو ألا تطلق النار على نفسك اليوم، فقد نتفق.

- قتلُ نفسٍ أخرى، تلكَ أدنى أشكالِ إعلان مشيئتي، هذا قد تفعلُه أنت.

وأنا لستُ أنت: أنا أريدُ الشكل الأسمى، وسأقتلُ نفسي.

«لقد اكتشفَ ذلكَ وحده!» - جمجَمَ بطرس ستيبانوفيتش بحقد.

- أنا مُلْزَمٌ أن أُعلنَ أنني غير مؤمن - قال كيريلّوف وهو يذرع الغرفة - ما من فكرةٍ اسمى عندي من فكرة: أنّ الله غير موجود. وعلى ذلك يشهدُ تاريخ البشريّة. لم يفعل الإنسان أكثر من أنه اختلقَ الله، لكي يعيش، لكي لا ينتحر، وفي ذلك تاريخ العالم كلّه حتى الآن.

أنا الوحيد على امتداد هذا التاريخ أرفضُ أن اخترعَ الله. فليعلم الجميع ذلك إلى الأبد.

«لن ينتحر»، - فكّر بطرس ستيبانوفيتش قلقاً.

- من ذا الذي سيعلم؟ لسنا هنا إلا اثنين - قالَ مُحرِّضاً - لعلكَ قصدت ليبوتين؟

- سيعلم ذلك الجميع، ولن يخفى شيء، ما من سرٍ يبقى مهما كان[11]، «هو» قال ذلك. وأشار بحماسة عصبيّة إلى صورة المسيح المنقذ، التي أشتعلَ أمامها سراج.

وفقد بطرس ستيبانوفيتش السيطرة على نفسه:

- إذن مازلتَ تؤمنُ «به»، وتضيءُ لَهُ السراج، ألست تفعل ذلك «من باب الاحتياط»؟

لم يُجب كيريلّوف.

- أتعلم، أعتقدُ أنكَ تؤمن بهِ أكثرَ من كاهن!

- بمن؟ به «هو»؟ اسمع - وتوقفَ كيريلّوف، بلا حراك مثبتّاً نظراتِهِ إلى الأمام - اسمع هذهِ الفكرة الهائلة: ذات يومٍ على سطح هذهِ الأرض، نُصبت ثلاثة صلبان. واحدٌ من المصلوبين بلغَ بهِ الإيمانُ درجةً جَعَلَتْهُ يقول للذي على يمينه: «ستكون معي اليوم في الجنّة»[١٢]. وانتهى اليوم، ومات الاثنان، ذهبا وما وجدا جنّةً أو بعثاً. لم تَصْدُق نبوءة المصلوب. اسمع: ذلك الرجل كان أعظم من عليها، لقد وضَعَ ما يمكن لأجله أن تعيش الأرض. كل الكوكب وما عليه دون هذا الرجل - ليس إلا محض جنون. ما من أحدٍ قبله، وما من أحدٍ بعده يمكن أن يُشْبِهَهُ، حتى ولو حدثت مُعجزة. بل المعجزةُ أنه لن يكون مثلهُ لا من قبلُ ولا من بعد. إذا كان الأمرُ بهذهِ الصورة، إذا كانت قوانين الطبيعة لم ترحم «هذا الإنسان»، ولم تراعِ حتى مُعجِزَتَها، وجعلته يعيش وسطَ الكذب، ويموتُ لأجل كذبة، فهذا يعني أن الكوكب كلّه ليس إلا كذبة، وأنّهُ مَبنيٌّ على الكذبِ والمهزلة الغبيّة. وهذا يعني أن قوانين الكوكب نفسها ليست إلا كذباً، ولعبة شيطانيّة! فلماذا نعيشُ إذاً، أجبني إن كنتَ رجلاً؟

- هذا جانبٌ آخر للمسألة. وأظنُ أن سببين متباينين قد تداخلا لديك، وهذا لا يُنبئُ بالخير. ولكن اسمح لي: لو كنتَ أنت اللّه؟ ولو انتهى الكذب، وأدركتَ أنّهُ جميعاً كان بسبب وجود ذلكَ الإله القديم؟

- وأخيراً ها أنتُ ذا تفهم! - هتف كيريلّوف منفعلاً - هذا يعني أن من الممكن فهم ذلك، ما دامَ شخص مثلك قد فهم، والآن هل تدرك أن إنقاذ

الجميع يتعلّق بالبرهان على هذهِ الفكرةِ لهم جميعاً. ومن سيبرهن؟ أنا! أنا لا أفهم كيف بإمكان ملحدٍ أن يعلم أن الله غير موجود ولا ينتحرُ في اللحظة نفسها؟ إن معرفة أن الله غير موجود من قبل ذلك الشخص، وعدم معرفته في الوقت نفسه أنه أصبح هو الله فتلك معضلة، تلك استحالة، وهذا يقتضي الانتحار. أما إذا كنت تدركُ ذلك - فأنت قيصر ولن تقتل نفسك، وستعيشُ في ذروة المجد. إن واحداً لا بدَ حتماً أن يبدأ، أن ينتحر وإلا فمن ذا الذي سيبرهن على هذا الأمر؟ إنني أنا من سيفعل ذلك.. سأبدأ وأبرهن.

إنني حتى الآن إلهٌ على الرغم منّي وأنا لستُ سعيداً لأنني «مضطرٌ» أن أعلِن مشيئتي. جميعُ البشر أشقياء لأنهم يخشون أن ينادوا بإرادتهم. لقد كان الإنسان دائماً حتى هذه اللحظة شقيّاً وفقيراً، لأنّهُ كان يخاف أن يُحققَ النقطة الأهم في إعلان إرادته الشخصية، كان يخاف أن يحقق الصورة القصوى في إعلان مشيئته، كان لا يستخدم إرادته إلا خفيةٍ، مثل تلميذ. أنا شقيٌ جداً، لأنني أخافُ كثيراً. الخوف لعنةُ الإنسان... ولكنني سأُعلِنُ مشيئتي الخاصة! أنا مضطرٌ أن أومن بأنني لست مؤمناً. أنا سأبدأُ، وسأُنهي. سأفتحُ البابَ. وسأُنقذ. إن هذا وحده سينقذ جميع البشر، وسيبدّلهم فيزيائياً في الجيل المقبل، لأنّهم في حالتهم الفيزيائية الراهنة - وقد فكرت ملياً في ذلك - يستحيلُ عليهم أن يستغنوا عن إلههم القديم مطلقاً. لقد بحثتُ ثلاثة أعوام عن صفة ألوهيّتي حتى وجدتُها: صفة ألوهيّتي - هي إرادتي الذاتيّة الحُرّة! هذا كل شيء. فبفضل إرادتي أستطيع أن أعرضَ عدمَ خضوعي وحُرّيتي الجديدة المخيفة.

كان وجههُ شاحباً بصورة غير طبيعيّة، أما نظرته فثقيلة جداً. بدا وكأنه يُعاني الحُمّى. فكّر بطرس ستيبانوفيتش أن كيريلّوف سيسقطُ لتوّه [...].



[.....] عرفت صوفيا ماتفييفنا الإنجيلَ جيّداً، ولهذا سُرعان ما وجدت المكان من إنجيل لوقا الذي كنتُ قد أخذت منهُ مقبوساً صدّرتُ بهِ مُدوّناتِ أخباري[١٣]. وهاأنذا أذكرهُ هنا:

«وكان هناك قطيعٌ كبيرٌ من الخنازير يرعى في الجبل، وقد رجت الشياطين يسوع أن تدخل في الخنازير، فأذن لها. خرجت الشياطينُ من ذلك الرجل، ودخلت في الخنازير. التي اندفعت من أعلى الجرف إلى البحيرة، وغرقت فيها. الرعاةُ الذين رأوا ما حدث هربوا ونشروا النبأ في المدينة والقُرى. فخرجَ الناس كي يروا ما حدث، وعندما اقتربوا من المسيح رأوا الرجل الذي خرجت الشياطين منه، يجلسُ إلى قدمي يسوع، مرتدياً ثيابه، مالكاً عقله، وروى لهم من شاهد الحادث كيف خلّص يسوعُ، المجنون...»

- اسمعي يا صديقتي - قال ستيبان تروفيموفيتش[١٤] بتأثيرٍ شديد - savez vous[أ] إن هذهِ الصفحة الرائعة.. غير العاديّة.. كانت دائماً حجر عثرة dans ce livre.

ولهذا فقد احتفظتُ منذ الطفولة بها في ذاكرتي. والآن خطرت ببالي الفكرة التالية[ب]: une comparison إن هذا الأمر ينطبق على روسيا تماماً. إن هؤلاء الشياطين الخارجين من المريض، الداخلين في الخنازير - هم الجراح جميعها والعفونات والقذارات والعفاريت الصغيرة والكبيرة، المتراكمة في جسد مريضنا الغالي العظيم، في روسيا! غير قرونٍ وقرون! Oui, cette Russie. que j'aimais toyjours[ت] ولكن فكرةً عظيمة، وإرادةً عظيمة ستهبطان عليها من السماء، كما كان الأمر بالنسبة لذلك

أ- انتِ تعلمين- في هذا الكتاب «بالفرنسية في الأصل».

ب- هي مقارنة «بالفرنسية في الأصل».

ت- نعم، روسيا التي احببتها دائماً «بالفرنسية في الأصل».

المجنون، وسيخرج منها كل أولئك الشياطين، وجميع الأوساخ والقذارات وسيطلبون جميعاً أن يدخلوا في الخنازير. بل لعلهم قد دخلوا منذ الآن.. إنّهم نحن، نحن وأولئك، بيتروشا... et les autres avec lui[أ]. وقد أكون أنا أوّلهم. سوف نسقطُ من أعلى الهاوية إلى البحر كمجانين مهووسين ونغرق، وهذه هي طريقنا فنحن لا نصلح لغير ذلك، لكن المريض سيشفى ويجلسُ «إلى قدمي يسوع» فينظرُ إليه الجميع دهشين مستغربين يا عزيزتي. Apres comprendronz vous[ب]... أما الآن فهذا ما يشغل بالي ...Vous comprendrez après... Nous comprendons ensemble[ت]...

راحَ يهذي، ثُمَ سقطَ في النهايةِ مغشياً عليه [...].



أ- والآخرون معه «بالفرنسية في الأصل».

ب- وستفهمين فيما بعد. «بالفرنسية في الأصل».

ت- سوف تفهمين فيما بعد. سوف نفهم معاً. «بالفرنسية اصلاً».

المراهـق

- .... لقد حلمتُ حُلماً غير متوقعٍ البتّة: ما رأيتُ مثلَهُ من قبلُ إطلاقاً. في متحف درزْدن توجد لوحة لكلود لورين[أ]، عُنوانها في الكاتالوج «أسيس وجالاتيا»، أما أنا فقد سمّيتُها دائماً «العصر الذهبي»[1]، ولا أدري لماذا. لقد رأيتُ هذهِ اللوحة فيما سبق، وقبل ثلاثة أيام رأيتُها وأنا أمرُّ عَرَضاً. هذهِ اللوحة هي ما شاهدتُهُ في الحلم. لكنني لم أشاهدها على هيئة لوحة بل واقعاً بشكلٍ ما.

أنا حقيقةً لا أعرفُ على وجه الدقّة ماذا رأيت: ولكن - كما في اللوحة - ركناً من أرخبيل إغريقي، قبلَ ثلاثة آلاف سنة، أمواجاً زرقاء لطيفة، جُزراً وصخوراً، شاطئاً مُزهراً، بانوراما ساحرة في البعيد، شمساً غاربة فاتنة - مما لا يمكن أن أصِفَهُ بالكلمات.

هكذا تذكّرتِ الإنسانية الأوربيّةُ مهدَها، وهذهِ الفكرة ملأت روحي حُبّاً أبويّاً. هنا كان فردوسُ الإنسانية الأرضي: الآلهة هبطت من السماء لتؤاخي الناس... أوه... هنا عاشَ بشرٌ رائعون! كانوا يَصحُونَ وينامونَ سعداءَ أبرياء، كانت المروجُ والأحراجُ تمتلئ بصيحاتهم، وأغنياتهم الفرحة. فيضٌ هائلٌ من القوى يُصرَفُ في الحُبِ والسعادةِ البريئة. الشمسُ تُغدِقُ عليهم دفأها وضياءَها، مسرورةً بأطفالها الرائعين... حُلمٌ أخّاذ، وهمُ الإنسانيّة السامي! العصرُ الذهبي - أكثر الأحلامِ استحالةً على سطح هذهِ البسيطة، ولكنّهُ

أ- كلود لورين: فنان تشكيلي فرنسي ولد سنة ١٦٠٠ درس في روما وعاش فيها. وتوفي ١٦٨٢. كان دوستوفسكي من المعجبين به كثيراً. /المترجم/

الحلُمُ الذي قَدّم البشَرُ لقاءَهُ حيواتِهم كلّها، وقواهم كلّها، لأجلِهِ ماتَ أنبياء وقُتلَ آخرون، ودونَهُ لا يُريد البشرُ أن يعيشوا، ولا يستطيعون حتى أن يموتوا! هذا الشعور كُلّه، هذا الإحساس كُلّه كما لو أنني عشتُهُ في رؤياي تلك، وحين أفقتُ من نومي وفتحتُ عينيَ الدامعتين كنت لا أزال أرى الصخورَ والبحرَ، أشعةَ الشمس الغاربةِ. أتذكّر أنني كنت فَرِحاً. وأن شعوراً بسعادةٍ ما عرفتُها من قبل قد اخترقَ فؤادي حتى الألم، لقد كانَ حُبّاً للإنسانيّة جمعاء. كان المساءُ قد حَلّ تماماً، وعبْرَ خُضرةِ نباتاتِ النافذة عَبرتْ حِزمةٌ مائلةٌ من الأشعّة وغمرتني بضيائها. وهكذا يا صَاحبي.. هكذا - لكأن أشعة الشمس الغاربة في أوّل أيّام الإنسانيّة الأوربيّة، وهي ما رأيتُهُ لتوّي في الحلم، استحالت في نظري عندما فتحتُ عينيَّ شمساً غاربةً في اليوم الأخير لإنسانيّة أوربا. وعندها تحديداً سُمِعَت فوقَ أوربا أصواتَ نواقيسِ جنازة. وأنا هنا لا أعني الحربَ وحدَها، ولا أتحدّثُ عن تيولْري[٢]، فقد كنتَ دونَ ذلك - أعلَمُ أن كل شيء سينقضي، كل وجه العالم الأوربي القديم عاجلاً أو آجلاً سيزول، ولكنني كأوربي روسي لم أكن أسمح بذلك. نعم كانوا لتوّهم قد أحرقوا التيولري... لكن مهلاً أنا أعرفُ أن هذا كان «منطقيّاً»، وأُدركُ بوضوح قوّة الفكرة التي انتشرت يومها، غَير أنني كحاملٍ للفكر الروسي السامي ما كنتُ لأقبل هذا، لأن الفكر الروسي السامي يجمَعُ ويصالِحُ الأفكار جميعاً. فمن في العالم كُلّه كان قادراً على فهمِ هذا الفكر؟: لقد طوّفتُ وحيداً - ولست هنا أتحدّثُ عن نفسي، بل عن الفكر الروسي - هناكَ كانَ الاقتتالُ والمنطق، هناكَ كان الفرنسي فرنسياً فحسب، والألمانيُ ألمانياً فحسب، وبشكلٍ عنيفٍ لم يشهد تاريخهم مثله، أي أنَ الفرنسي ما أضرّ في يوم من الأيام بفرنسا كما فعَلَ عندها، والألماني ما أساءَ إلى ألمانيا يوماً كما فعل سَاعتَها! يومَها لم يكن في أوربا كلها أوربيّاً واحداً! أنا وحدي بين مُشعلي الحرائق[٣] جميعاً كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه إنَ إحراق

التيولري - خطأ. وأنا وحدي وسط المحافظين المنتقمين جميعاً كنت أستطيع أن أُخبرهم أن إحراق التيولري كان منطقياً على الرغم من أنه - جريمة، وذلك لأنني يا صغيري، كروسي، كنت في أوربا ساعتئذٍ (الأوربي الوحيد) لست أتحدّثُ عن نفسي، بل عن الفكر الروسي كلّه. كنت يا صديقي أرتحل.. كنتُ أرتحل وأَعلمُ تمام العلم أن علي أن أصمت وأتابع الرحيل(٤)، ولكنني على الرغم من ذلك كنتُ حزيناً. [....]

★★★

[....] - أنا أتصوّر يا عزيزي، - بدأ يتكلّم بابتسامةٍ ممزوجةٍ بالتفكير - أن القتال قد انتهى، والتطاحنُ قد هدأ. وبعدَ اللعناتِ والتقاذفِ بالوحول وتبادل التصفير هجَعَ كل شيء، وبقي البشَرُ (وحيدين)، كما كانوا يرغبون: الفكرة العظيمةُ القديمة تركتهم، ينبوعُ الطاقة العظيم، الذي كان حتى ذلك الوقت يغذّيهم ويدفئهم غارَ مثلَ تلك الشمس الرائعة الأخاذة في لوحة كلود لورين، ولكن هذا كان كآخر أيام الإنسانيّة. وأدركَ الناسُ فجأةً أنهم أصبحوا وحيدين تماماً، وشعَرَ وعيهُم باليُتم الكامل يا صغيري العزيز، إنني لم أستطع أبداً أن أتخيّل البشر أغبياء وعاقين كما هم. فلَمّا أصبحوا أيتاماً بدؤوا من لحظتهم يتقاربونَ ويتآزرون بمحبّة وعاطفة، فأمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً، مُدركين أنهُ بعد الآن ليسَ لأحدهم سوى الآخر، لقد اختفت فكرةُ الخلود العظيمة، ولا بُدّ لهم من استبدالها وكل ذلك الفيض من الحب، الذي كان موجّهاً إلى الخلود، تحوّلَ الآن إلى الطبيعة، إلى العالم، إلى الناس، إلى كل عشبة. سوف يحبّون الأرض والحياة حُبّاً جماً، بقدرِ ما سيشعرونَ ويدركون أنها حياة عابرة وزائلة، سيحبّونها حباً مختلفاً عَمّا كان منهم من قبل، لأنهم سينظرون إلى الطبيعةِ بعيون جديدة...

بنظرات العاشق إلى معشوقته. سوف يستيقظونَ فيسارع واحدهم إلى صاحبهِ مُقبِّلاً، معجِّلاً بالحب، لعلمِهم، أن أيامَهم قصيرة، وأن هذا كل ما بقي لهم. سوف يعَملُ الواحد منهم لأجل الآخر، وسيعطي كل ما لديه للآخرين ويكون

سعيداً بذلك. وسيُحِسُ كل طفلٍ ويعلم أن كل إنسان على الأرض هو أبٌ له وأم. وسيفكّر كل واحدٍ منهم: «ليكن يوم غد آخر أيّامي، ما هَمّ إن متُّ: لأنهم سيبقونَ جميعاً، ومن بعدهم أبناؤهم» - وهذهِ الفكرة، فكرةُ أنهم سيبقونَ ويظلّونَ متعاطفينَ مُتحابين يخافُ كل منهم على صاحبه، ستحلُّ محلَ فكرة اللقاءِ بعدَ الموت، وعندها سيسارعونَ إلى التحاب، كي يخنقوا أحزانهم الكبيرة في قلوبهم. وسيكونونَ فخورين بأنفسهم جريئين عليها، وفي الوقت نفسه خائفين على الآخرين. سيرتعشُ واحدهم خوفاً على سعادةِ وحياة الآخر. سيصبحونَ عطوفين بعضهم على بعض، وسيلاطفُ الواحد الآخر كالأطفال دون أن يشعروا بالخجل كما هو الحال الآن. وحين يتقابلون سينظر كل منهم إلى الآخر نظراتٍ عميقةٍ ذكيّةٍ وجريئة، طافحةٍ بالأسى والحزن...

- يا عزيزي - قطع كلامَهُ على حين غرّة مبتسماً، ثم أردف - كل هذا محض خيال، خيالٌ مُحال، ولكنني أتخيّل ذلكَ دائماً، لأنني لم أستطع أن أحيا يوماً دون هذهِ الخيالات، ولن أستطيع أن أحيا دون أن أفكّر بها. أنا لا أتحدّثُ عن إيماني: فإيماني ليس كبيراً، أنا مؤمنٌ بوجود الله، ولكنني لا أؤمن بالدين أنا أؤمن إيمان فلاسفة[٥]، كسائر أولئك الآلاف من رجالنا، هذا ما افترضتُهُ، ولكن الرائع أنني أنهي لوحتي دائماً برؤيا «المسيح على بحر البلطيق»[٦]، كما هو الحال عند هايني[أ]. أنا لم أستطع من دونه، لم أستطع إلا أن أتخيّله في النهاية وسطَ أولئك البشر الذين صاروا يتامى. يأتي إليهم، ويمدُّ لهم يَدَهُ قائلاً: «كيفَ استطعتُم نسيانه؟»، وهنا كما لو أن حجاباً يسقطُ عن الأبصار جميعاً، ويتعالى نشيدٌ حماسيٌ مهيب. نشيدُ الانبعاث الجديد الأخير... [...]

أ- هنا إشارة على قصيدة «العالم» للشاعر الألماني هايني «١٧٩٧-١٨٥٦» من مجموعة «بحر الشمال» ١٨٢٨.

الأخوة كارامازوف

شيوخ الرهبان

[...] شيخُ الرهبان هذا، كما سبق وأشرت هو الأب زوسيما، ولا بدّ لي هنا أن أقول بضع كلمات عمّا يمثله بشكلٍ عام «شيوخ الرهبان» في أديرتنا مع أنني أشعرُ - للأسف - أنني غير مؤهل للحديث عن هذا الأمر، لكنني سأحاولُ أن أقولَ شيئاً بإيجازٍ وبساطة. أولاً يجب أن أشير إلى أن المختصين والعارفين يؤكدونَ أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التي يشكلونها لم يظهرا في الأديرة الروسيّة إلا منذ فترةٍ قريبة، قد لا تتجاوز مئة عام، مع أنّهما وجدا في الشرق الأرثوذكسي، وبخاصةٍ في جبلي سيناء وآثوس[1] منذ أكثر من ألف عام. ويؤكدُ البعض أن هذهِ الظاهرة سبق ووجدت في روسيا في الأزمنة القديمة، بل لا بد أن تكون قد وجدت غير أن ما ألمّ بروسيا من مصائب، غزو التتار، الاضطرابات الداخلية[2]، انقطاع الصلات مع الشرق بعد سقوط القسطنطينيّة[3] قد أودى بتلك الظاهرة.

فلم يبقَ لشيوخ الرهبان من وجود. ولم تنبعث هذهِ المؤسسة ثانيةً إلا في نهاية مئة السنةِ الأخيرة على يد أحد كبار المناضلين «كما يلقّبونه» وهو باييسي فليتشكوفسكي[4]، وعلى يد تلاميذه، ولكنّها وخلالَ تلك الفترة كلّها وهي تقارب مئة عام لم تنتشر إلا في عدد قليل من الأديرة،

وأثارت عداوات بلغت أحياناً حد الاضطهاد بصفتها بدعةً في روسيا. ولكنها بشكلٍ خاص نمت في روسيا في ذلكَ المَنسَك الشهير، كوزيلسكايا أوبتينا[٥]. لكنني أجهَلُ من أدخلها الديرَ المجاور لمدينتنا ومتى كان ذلك، وكل ما أعرفُهُ أن ثلاثة شيوخ قد تعاقبوا على هذا الدير، آخرهم زوسيما. وهو تقريباً يوشكُ على الموتِ من المرضِ والضعف، دون أن يعلمَ أحدٌ من سيخلفُهُ. وهذه مسألةٌ مهمةٌ جداً بالنسبةِ لديرنا، لأنَّهُ لم يكن شهيراً بشيء حتى الآن: فلا رُفاتَ قديسين فيه، ولا أيقونات ذات معجزات معروفة، ولا حكايات وأساطير مهمة ترتبطُ بتاريخنا، ولا تُعدُّ لهُ أي حركات تاريخيّة تسهمُ في العمل الوطني. لقد ازدهَرَ واكتسبَ مجداً وشهرةً في أنحاء روسيا كلها بفضل مشايخه، الذين كانوا يُقصَدونَ طلباً لرؤيتهم والحديث إليهم من مسافاتٍ تبلغ آلاف الفراسخ. فما هو شيخ الرهبان إذاً؟

شيخ الرهبان - شخصٌ يأخذُ روحَكَ وإرادتَك ويُدخلُها في روحِهِ وإرادتِهِ هو. فحين تختارُ شيخكَ تتنازلُ عن إرادتك وحريتك وتقدمهما لهُ بطاعةٍ كاملة ونسيانٍ للذاتِ بشكلٍ كامل. هذهِ التجربة القاسية، هذهِ المدرسة الرهيبة في الحياة يتمُّ اختيارُها طوعاً على أملِ الوصول بعد مُعاناةٍ طويلة إلى قهر الذات، إلى امتلاكِ زمامِ النفس، حتى يستطيع أخيراً عبر الطاعة المستمرّةِ طوال الحياة أن يبلغَ الحريّة المطلقة، أي الحريّة من نفسِهِ وذاتِهِ وكي يتمكنَ من تجاوز مصير أولئكَ الذين عاشوا حياتهم كلّها دون أن يبلغوا معرفة أنفسهم... إن هذا الاختراع، أعني نظام شيوخ الرهبان - ليسَ مجرّد تأمّل نظري، فقد ظهَرَ في الشرق من خلالِ ممارسةٍ يزيدُ عمرها على ألف عام. قبل أن يصلَ إلينا نحن. إن الارتباط بين المريد وشيخه ليسَ مُجرّد «طاعةٍ عاديّة»، كالتي نراها في أديرتنا الروسيّة. هنا نوعٌ من رابطةٍ وُثقَى بين

الراهب وشيخه، قائمة على ثقةٍ دائمة وقويّة، مبنية على الاعتراف الدائم للشيخ. يحدّثونَ - على سبيل المثال - أنهُ في الأزمنةِ القديمةِ للمسيحيّة قامَ أحد الرهبانِ المبتدئين من أتباع هذه الطريقة بالخروج على شيخه، بعدم الامتثال له، ثم غادرَ الدير وانتقل إلى بلدٍ آخر، من سوريا إلى مصر، فَعُرِفَ هناك بأعمالٍ عظيمة وصفاتٍ رفيعة بعد مُعاناةٍ طويلة، ثمَ استشهدَ في سبيل عقيدته.

وعندما همّت الكنسية بدفن جثمانه، كقديس من القديسين، وساعةَ عَلا صوتُ الكاهن قائلاً: «يا كفرة اخرجوا من المعبد»[٧] - ارتفَعَ التابوت الذي يضم رفاة الراهب فجأةً وطارَ من الكنيسة، وتكرّر الأمرُ ثلاث مَرّات. وعُرِفَ بعدَ ذلك أن هذا القديس كان قد خَرَجَ على شيخه وما امتثَلَ لمشيئته، ولهذا فدونَ إذنِ شيخه لا يمكن أن يحصَلَ على الغفران، على الرغم من أعمالِهِ العظيمة. وما أن أعفى الشيخُ المُستَدعى راهبَهُ من واجبِ طاعتِهِ حتى تمكّنوا من دفنِهِ. طبعاً هذهِ مجرّدُ أسطورةٍ قديمة، ولكن هذهِ قصّة حدثت منذ مُدّةٍ قريبة: انقطَعَ راهبٌ من الرهبان المُعاصرين في ديرٍ بجبل آثوس[٨]، وفجأةً أمرهُ شيخُهُ بمغادرة الجبل الذي تعلّق بهِ أشدّ تعلّق، وأحبّه حتى التقديس، وقد أمرهُ شيخُهُ أن يذهبَ أولاً إلى أورشليم حاجاً إلى الأماكن المُقدّسة[٩]، ثم يعودُ إلى روسيا، إلى الشمال صوب سيبيريا. وقال لَهُ الشيخ: «هناك مكانك وليس هنا». الراهبُ المقتولُ بالحزنِ والكرب ذهبَ إلى القسطنطينيّة، ساعياً إلى لقاء رئيس البطاركة[١٠]، متوسلاً أن يعفيه من واجب الطاعةِ لشيخه، ولكن البطرك[١١] أجابَهُ أنهُ لا يستطيع أن يعفيه لا هو، ولا أي سلطة أخرى على سطح الأرضِ من هذا الواجب الذي حَمّلَهُ إياه شيخه، وهو وحدَهُ فقط القادر على ذلك.

وهكذا بلغت سلطة شيوخ الرهبان حداً عظيماً من القوةِ والمهابة. ولهذا السبب تعرّضت هذهِ الطريقة في معظم أديرتنا لمعارضةٍ اقتربت من الاضطهاد. غير أن الشعب أصبحَ بعد ذلك فوراً يُجلّ مشايخ الرهبان ويحترمُهم. فمشايخ ديرنا كانوا يستقبلون الكثير من الزوّار من عامةِ الناسِ وخاصتهم، ممّن يؤدونَ لهم فرائض الاحترام، ويعترفون أمامهم بشكوكهم، وبما اقترفوهُ من آثام، وبما يعانون من آلام. ويطلبونَ منهم النُصحَ والإرشاد. وهنا ثارت ثائرةُ خُصوم الشيوخ مما بلغه هؤلاء من مكانة وادّعوا أن هذه الطريقة تسيءُ إلى سريّةِ الاعتراف، مع أن تلك الاعترافات السيّالة للرهبان أو المبتدئين أمام الشيوخ لم تكن تأتي على صورة الاعترافات[١٢]. وأخيراً وعلى الرغم من ذلك استقرّ في بلادنا نظام شيوخ الرهبان شيئاً فشيئاً وامتدّ في أديرتنا. ومع ذلك فيجب أن نعترف أن هذا الأسلوب المُختَبر لأكثر من ألف عام، والذي كان يسعى إلى تحقيق إعادة بناءٍ روحي للإنسان ينقلُه من العبودية إلى الحُرية، ويجعلُهُ كاملاً من الناحية الأخلاقية، يمكن أن يصبح سلاحاً ذا حدين، وعوضاً عن أن يخلقَ تواضعاً وسيطرةً مطلقة على الذات يصبحُ لدى البعض شكلاً من أشكال الغطرسة والغرور الشيطاني، ويقودُ بالتالي إلى القيودِ عوضاً عن الحرّية [...].



لتكن مشيئتُهُ. لتكن مشيئتُه!

[...] استمعَ إيفان فيدوروفيتش إليه باحترامٍ وانتباه، ثم استأنفَ حديثَهُ بهدوءٍ عظيم متوجهاً إلى الشيخ، برصانتِهِ المعهودة وصفائِه:

- إن الفكرة الجوهرية في مقالتي تتمثّل في أن المسيحيّة في الأزمنة القديمة، في القرون الثلاثة الأولى لميلادها اعتُبرت كنيسة، وما زادت عن ذلكَ أبداً. وحين رغبت الدولة الوثنية الرومانية أن تصبحَ مسيحيّة[١٣]، فإن ما حدث هو أنها احتوت عند ذلك الكنيسة وبقيت وثنيةً في معظم نواحيها الأخرى. وهذا ما كان متوقعاً على كل حال. ففي روما كدولة، بقي الكثيرُ من عناصر الحضارةِ والحكمة الوثنية، وبخاصة ما يتعلّق بأهدافِ الدولة وأسسها. الكنيسة المسيحيّة، التي تم استيعابها في الدولة لم تكن بدورها تستطيع أن تضحّي بأيٍ من مبادئِها، أو أن تتخلّى عن صخرتها، التي بُنيتْ عليها. وكانت لا تستطيع إلا أن تسعى إلى تحقيق أهدافِها التي رسمها لها الرب نفسه، وهي استيعاب العالم بأسرهِ والدولة الوثنية القديمة بطبيعة الحال في الكنيسة ذاتها[١٤]. وعليهِ «ولأجلِ الوصول إلى أهداف المستقبل» ليس على الكنيسة أن تسعى إلى إيجادِ مكانٍ محددٍ لها في الدولة «ككلِ اتحادٍ اجتماعي آخر» أو «كاتحادِ مجموعةٍ من البشرِ لغايةٍ دينيّة» «كما عبّر مؤلف الكتاب الذي أنقضُهُ»، بل على العكس من ذلك، على كل دولة من الدول الأرضية أن تتحول في خاتمة المطاف إلى كنيسة، وأن لا تُصبح شيئاً آخر سوى كنيسة، وأن تلقي جانباً كل تلكَ الأشياء التي تتعارض وأهداف الكنيسة، ومثل هذا الأمر لا يقلّلُ من شأن الدولة، ولا ينزعُ عنها شَرفَها ومجدَها كدولة عظيمة، أو شرفَ قادتها، كل ما في الأمر أن هذا سيخرجُ الدولة عن طريقِ الوثنيةِ والضلال والضياع، ليضعها على الصراط المستقيم

القويم، الذي يُفضي إلى الغايات الأبديّة الحقّة. ولهذا فإن مؤلف كتاب «أُسس القضاء الكنسي - الاجتماعي»، كان من الممكن أن يُصيب لو أنّهُ نظر إلى تلك الأسس التي بحثَ عنها وافتَرَضها، كأسسُ مرحلية ضروريّة في هذا الزمن الخاطئ غير المكتمل، لا أكثر ولا أقل، أما وأنه قد تورّطَ وزعَمَ أن هذهِ الأسس التي يقترحُها الآن، والتي عددَ الأب يوسف لنا بعضها منذ قليل هي بطبيعتها خالدة أبديّة وأزلية كالكون ذاته، فإنهُ بذلك يسيرُ في اتجاهٍ يعارضُ الكنيسة، ويناقضُ حقيقتها ورسالتها المقدسة الأبديّة.

هذهِ مقالتي كُلها، قد أوجزتُها بشكلٍ وافٍ.

- إذاً بكلمتين اثنتين - تدخّل الأب بابيسي مُشدّداً على كلماتِهِ - ووفق نظريات شائعة أخرى في قرننا التاسع عشر هذا، على الكنيسة أن تتحوّل إلى دولة، كما لو أن الأمر تطوّر من الأدنى إلى الأعلى، ثُمّ تذوبُ في الدولة، مخليةً المكان للعلم، لروحِ العصر والحضارة. فإن هي رفضت ذلك، وقاومت، عرضوا عليها مكاناً معيناً تتخذُهُ تحت رقابةِ الدولة، كما هو الحال في معظم بلدان أوربا اليوم. أما من وجهةِ النظر الروسية وعقيدتها، فليسَ على الكنيسة أن تتحوّل إلى دولة، كتحوّلٍ من أدنى إلى أعلى، بل على العكس على الدولةِ وفي المرحلةِ الأخيرة أن تحاول أن تصبح كنيسةً ولا شيء آخر.

هذا هو الصحيح، فتلكن مشيئتُك أيها الرب!

- يا سيدّي، أعترفُ أنكَ قد شجعتني قليلاً - قال ميوسوف ساخراً وهو يضعُ ساقاً على ساق من جديد - إذا صَحّ فهمي للأمر فأنت ترى أن المسألة مسألةُ مثلٍ أعلى شديد البعد، يجب الوصولُ إليه في زمنٍ قادم قد يكونُ زمن قيام المسيح. وعلى كل حالٍ لكَ ما تريد! هو حلمٌ طوباوي رائع حول انتهاء الحروب، والدبلوماسيّة، والبنوك وما شابه. حتى أن هذا يذكّرنا إلى حدٍ ما بالاشتراكية. لقد ظننتُ أن الأمر جَديّ، وأن الكنيسة «الآن»، على سبيل المثال ستقوم بمحاكمةِ المجرمين، فتصدرُ أحكاماً بالجلد والأشغالِ الشاقةِ وبالإعدام!

تابعَ إيفان فيدوروفيتش حديثه بهدوءٍ وسَلاسة:

- حتى لو أصبح القضاء الإكليركي هو صاحبُ السلطة الوحيد، فلن تُصْدِرَ الكنائس عندها أحكاماً بالإعدام والأشغال الشاقة، لأن الجريمة والنظرة إليها ستتغيّران حتماً ساعتئذٍ، طبعاً ستتغيّران شيئاً فشيئاً، لا دفعةً واحدة، وبالسرعةِ المعقولة.

- هل أنتَ جاد؟ حَدّقَ به ميوسوف بقوّة.

- لو أصبحَ كلُ شيء للكنيسة، فستُبْعُد المجرمينَ والعُصاة، لكنها لن تقطَعَ رأس أحد - تابعَ إيفان فيدوروفيتش كلامَه: - إنني أسألُك فقل لي: إلى أين عندها سيذهب المُبْعَدُ، وبمن سيعتصم؟ لأنَهُ عندها لن يصبحَ محروماً من البشر فحسب بل ومن المسيح نفسه. فجريمتُهُ الآن تلك ستجعلُ منه ليس فقط عدواً للناس ولكن لكنيسةِ يسوع أيضاً. والأمرُ على هذهِ الصورة، وإن كنا لا نعترف بذلك فالمجرمُ يحاولُ أن يقنعَ نفسه قائلاً: «لقد سرقت، هذا صحيح، ولكنني لم أخرج على الكنيسة... أنا لستُ عدواً للمسيح» - هذا ما يخاطب مُجرم عصرنا نفسه بهِ، أما حين تحلُّ الكنيسة محل الدولة فسيكونُ صعباً عليه أن يفكّر بهذهِ الصورة، وإلا فسيكون قد أنكرَ سلطة أي كنيسة على سطح الأرض حين يقول: «جميعُ البشر قد أخطأوا وضلّوا، لقد انحرفوا كلهم، إنهم الكنيسة الزائفة أنا وَحدي - القاتل والسارق - وحدي الكنيسة المسيحيّة الحقّة»، مثلُ هذا القول من الصعب جداً أن يُقالَ، وهو يحتاجُ ظروفاً ومواقف من الصعب أن تتوافر.

والآن من جهةٍ أخرى لننظُرْ إلى وجْهَةِ نظر الكنيسة في الجريمة: ألا يجب لهذهِ النظرة أن تتغيّر، عن مفهومنا الحالي، وهو أقربُ للوثنيّة، حيث نقومُ ببترٍ ميكانيكيٍ للعضو المريض كي نحمي المجتمع، ألا يجب أن يتجسّد هذا المفهوم تجسيداً كاملاً وصادقاً في فكرةِ خلق الإنسان من جديد وبعثِهِ وخلاصه.

- ما الذي تريدُ أن تصل إليهِ من هذا أنا لا أفهمك ثانيةً - قاطَعَهُ ميوسوف - مَرّة أخرى تعرضُ لنا حُلُماً، يقدِّمُ ما لا شكلَ له وما لا يُمكن

فهمه، ما هو هذا الإبعاد أو الحرمان، عن أي حِرمانٍ تَتَحدّث؟ أظنُ أنك ببساطةٍ تسخر منا يا إيفان فيدوروفيتش أليسَ كذلك؟

- نعم هذا ما يحدث الآن أيضاً. تدخَّل الشيخ فجأة في الحوار، فالتفت الجميع نحوَه دفعةً واحدة - ذلك أن كنيسة المسيح لو لم تكن موجودة اليوم، فإن المجرمَ لن يرتدع عن ارتكاب جريمته، ولن يعاقب عليها، عقاباً حقيقياً لا ميكانيكاً كما قيل قبلَ قليل، فالعقابُ الميكانيكي يبعَثُ الاشمئزاز في القلبِ فَحَسب، أما العقاب الحقيقي، الوحيد الذي يخيفُ ويهدئُ مَعاً، الوحيد الناجعُ والفعّال، فهو يتمثلُ في تأنيب الضميرِ الشخصي وحُكمِه.

- كيف ذلك، هل تشرح لنا ما تعنيه؟ قال ميوسوف يسألُ بفضولٍ شديد.

- الأمرُ كما يلي - قال الشيخ - إن كل تلكَ المنافي والأعمال الشاقة والتعذيبُ الجسدي قبل ذلك لم يُصلح أحداً، والأهم، لم يخفْ أحداً من المجرمين، وعدد الجرائم لا ينقُصُ بل يزداد مع الزمن وأظنّكم هنا توافقونني الرأي، وعليه فالمجتمع بهذا الشكل لا يُحمى إطلاقاً، فالعضو الضار الذي يُقطَعُ ميكانيكاً ويُنفى بعيداً ما يلبَثُ أن يُتلى بمجرمٍ آخر يحلُّ محلّه أو اثنين، وإذا كنا نرى معَ ذلك أن المجتمع لا زال محمياً حتى الآن، والمجرمُ ذاتهُ يُصلَح ويتحوّل إلى إنسان جديد فإنما مَردُّ ذلك إلى قانون يسوع وحده، الراسخ في قرارةِ ضمائرنا بصورةٍ ما، إن اعتراف المذنب بذنبهِ كابنٍ من أبناء المجتمع المسيحي، أي كابنٍ من أبناء الكنيسة بمثابة اعترافِهِ وشعورِهِ بالذنبِ في حقِ مجتمعِهِ، وبالتالي في حق الكنيسة.

وهكذا نجدهُ إزاء الكنيسة وحدها يمكن أن يشعر بالذنب وليسَ إزاء الدولة. فإذا مُورِسَ القضاء باسم المجتمع، أي باسم الكنيسة، فسيعرفُ المجتمعُ عندها من هم الذين يستحقون أن يُلغى إبعادهم وحرمانهم، وأن يعودوا إليه. إن الكنيسة التي لا تملك في يومنا هذا أي سلطة قضائية فعلية. وتملكُ فقط تأثيرَ الحكم الأخلاقي، تبتعدُ بنفسها عن العقاب الفعلي الذي ينالُهُ المجرم. ولكنها لا تُبْعِدهُ عن نفسها، وتظل ترعاهُ رعاية الأبِ لابنهِ، وتحاول بالإضافة إلى ذلك أن

تحافظ في علاقتها مع المجرمين على العلاقات المسيحيّة الكنسيّة، بل تقبل منهم أن يدخلوا الكنيسة، ويشاركوا في الصلاةِ، ويتناولوا القربان المقدّس[١٥]. وتمنحهُم إحسانَها، وتعاملهم كما لو كانوا أسرى وسبايا أكثر منهم جُناةً وخاطئين. وما الذي يمكن أن يحدث لهؤلاء المجرمين - يا ربُّ لطفَك - لو أن المجتمع المسيحي، أي الكنيسة نبذتهم وعزلتهم كما يفعل قانون الجزاء؟ ماذا لو أن الكنيسة أوقعت بهم القصاص، فحرمتهم وأبعدتهم فوراً بعد أن تدينهم الدولة؟

لعل من المستحيل أن نتخيل مقدار السقوط واليأس الذي سيعاني منه هؤلاء المذنبون في حالةٍ كهذه، لا سيما حين يكونون من الروس، لأنَ الجُناة الروس ما زالوا مؤمنين، وعموماً من يعلم: رُبّما حدثَ أمرٌ رهيب ساعتها - رُبمّا حدثَ فقدانٌ للإيمان في قلوب هؤلاء الجناة اليائسة؟ ولكن الكنيسة، كالأم، مُحبة وعطوفة، وهي تنأى عن اتخاذ العقوبةِ بحقّهم، لأنها وبغض النظر عن ذلك ترى أن القضاء الحكومي قد أوقعَ بهم عقاباً قاسياً، فهم بحاجة على من تأخذهُ بهم شفقة، والأهم أنها تنأى عن مُعاقبتهم لأن عدالتَها هي العدالة الوحيدة التي تحتوي في أعماقها الحقيقة ولهذا فلا يمكن لها أن تتعاون نتيجةً لذلك أخلاقياً أو واقعياً مع أي قضاءٍ آخر حتى ولو على شكل تسويةٍ مرحليّة. وهنا لا مجال للدخول في مساوماتٍ أو تنازلات. يقولون إنَّ المجرم الأجنبي نادراً ما يتوب أو يندم، رُبّما لأن التعاليم الحديثة تقنِعُهُ بفكرة مفادُها، أن جريمَتَهُ ليست جريمة، بقدْرِ ما هي احتجاج ضد ظُلمِ القوى الباغية. والمجتمَعُ هناك ينبذُهُ عنهُ ميكانيكاً وبشكلٍ كامل، ويَسْحَقهُ بقوّتِهِ، ويرافق ذلك الإبعادُ حقدٌ وكُره «هذا على الأقل ما يكتبُهُ الكتّابُ في أوربا عن مجتمعِهم وأنفسهم» - حقدٌ ونسيانٌ تام لهُ ولمصيرِهِ، مع أنه أخ لهم. إذن كل هذا يجري دونَ أي ذرةٍ من العطف الكنسي لأن الكنيسة على كل حال ليست موجودةً هناك على الإطلاق، لم يبقَ منها إلا رجال الأكليروس والأبنية الكنيسة الرائعة، والكنائسُ نفسُها تحاولُ منذ زمن بعيد أن تتحوّل من مرحلةٍ أو مرتبةٍ دُنيا «ككنائِس» إلى مرحلة عُليا هي مرحلة الدولة، لكي تذوبَ فيها -

بطبيعة الحال - بشكلٍ كامل. هذا ما يحدثُ على ما يبدو في البلاد اللوثريّة. أما في روما ففي موضع الكنيسة تُوِّجَت الدولة[١٦] منذ ألف عام، ولهذا فالمجرم نفسه لا يشعر أنه عضو في الكنيسة، وكمنبوذٍ يسقط في اليأس. وإن عادَ إلى المجتمع فسيعود حاقِداً ومبغِضاً وسيجدُ المجتمع نفسه بنفسه مُقدِماً على إبعاده، فكيف ينتهي هذا الأمرُ بوسعكم أن تتصوّروا. وفي حالاتٍ عديدة تبدو لنا الأمور وكأنها عندنا أيضاً تجري على المنوالِ ذاته، ولكن الفرق هو أن لدينا في بلادنا عدا القضاء الحكومي، كنيسة لا تفقد أبداً اتصالها مع المجرم، كشخصٍ طيبٍ بل كابنٍ عزيز، وفوق ذلك يوجد لدينا ولو فكريّاً، قضاءً كنسيّاً، رُبّما كانَ الآن غير فعّال، إلا أنه حي لأجل المستقبل، ولو على سبيل الحُلم، والمجرمُ نفسه بحدسِهِ الروحي يُحسُّ بسلطة هذا القضاء عليه، وصحيحٌ تماماً، ما قيل هنا قبل قليل، من أن قضاء الكنيسة وعدالتَها لو استطاعا أن يؤكّدا حضورهما بكل قوّة، أي لو استحال المجتمع كلّه إلى كنيسة لأثّرت عدالةُ الكنيسة على المجرمين تأثيراً ما كان لغيرها أن يقوم به، ولتناقص وتقلّص عَدد الجرائم بشكلٍ كبير جداً. ولَفَهمت الكنيسةُ - دونَ شك - المجرمَ المستقبَلي والجريمةَ المستقبَليّة بشكلٍ آخرٍ تماماً، عما يحدثُ الآن، ولأصبحَ بإمكانها أن تُعيدَ المنبوذينَ إليها، وأن تمنعَ من يفكر باقترافِ الجريمة، وأن تُنهِضَ من سَقَطوا. حقيقةً - وضحكَ الشيخُ قليلاً - المجتمعُ المسيحي غير مهيأ بَعْدُ لمثلِ هذا، وهو يقفُ الآن بفضل سبعةِ الصالحين، الذين لا يمكنُ أن يزلوا، وهو ينتظرُ أن يتحوّلَ تحولاً كاملاً من مجتمعٍ على هيئة اتحادٍ وثني تقريباً، إلى كنيسةٍ شاملةٍ واحدة كُليّة! هذهِ مشيئته، هذهِ مشيئته ولو في نهايةِ الزمن، لأن ذلك حُدّدَ منذ الأزل! وليسَ للانتظارِ ولبطءِ الزمن أن يُقلقانا، لأن سرّ الزمنِ والمواقيت محكومانِ بحكمةِ الربِ، محكومانِ بتقديرهِ وبسعةِ حُبّه.

وما يمكن أن يُعَدّ بعيداً جداً بحساباتِ الإنسان، قد يكونُ بتقديرِ الربِ ومشيئتِهِ قريباً جداً يوشِكُ أن يظهر ويعبُرَ الباب[١٧]. هذا ما سيكون، هذهِ مشيئته [...].

لماذا يعيش مثل هذا الإنسان!

-... [...] سأروي لكم أيّها السادة طُرْفةً مُمتعة كثيراً، ومتميّزة جداً عن إيفان فيودوروفيتش نفسه، فمنذُ ما لا يزيد عن خمسة أيام وفي مجتمعٍ يتألفُ من أغلبيّةٍ نسائية أعلنَ بشكلٍ احتفاليٍّ وهو يخوضُ جَدلاً، أنه ما من شيءٍ على وجه الأرض يمكن أن يجبرَ الناسَ على حُبٍّ بعضهم بعضاً، وأن قانوناً طبيعياً يقضي بأن يُحبَّ الإنسانُ الإنسانيّة لم يوجد إطلاقاً، فإن وجدَ حبٌّ وما يزال على وجه البسيطة، فليسَ بسبب قانونٍ طبيعيٍ ولكن بسبب إيمان الناس بأنهم خالدون[18]، وقد أضاف إيفان فيودوروفيتش بين قوسين: أن هذا هو جوهرَ القانون الطبيعي كلّه. وهكذا فلو قضيتم على إيمان الإنسان بالخلود، فسينضبُ حُبّه في الساعة نفسها، بل تنضبُ فيه قوى الحياة كلها، والأكثر من ذلك أنه لن يبقى أي شيء يُعدُّ منافياً للأخلاق، وكل شيء ممكن، حتى أكل لحوم البشر، وقد ذهبَ إيفان فيودوروفيتش أبعد من ذلك بكثير فقال أخيراً مؤكداً: بالنسبةِ لكل فردٍ غير مؤمن بالله ولا بخلودهِ الشخصي - وبالنسبة لنا نحن الآن على سبيل المثال - يجب أن يتغير القانون الأخلاقي للطبيعةِ بسرعة وإلى عكس ما هو عليه، دينياً، فتصبحُ الأنانيّة ليس فقط مُباحةً للإنسان، بل ضروريّة، وإلى حدٍ بعيد مخرجاً ذكيّاً وربّما نبيلاً من حالتِهِ التي هو عليها. بهذهِ المفارقة أيّها السادة يمكنكم أن تستنتجوا فحوى آراء عزيزنا الخيالي السفسطائي إيفان فيودوروفيتش ما قالَهُ منها، وما يمكن أن يقولَهُ.

- اسمح لي - فجأةً هتفَ ديمتري فيدوروفيتش - هل لي أن أتأكد مما سمعتُهُ منك؟ أقلتَ: «إن الأعمال الشريرة يجب أن لا تُعَدّ مُباحةً فقط، بل يجب الاعترافُ بها كأعمال ضروريّة جداً، وذكيّة جداً كمخرجٍ معقولٍ من وضعِ أي مُلحد؟»

هل هذا ما قُلْتَهُ أم لا؟

- تماماً هكذا - قالَ الأبُ بابيسي.

- سأحفظ هذا [...].



الشقيقان يتعارفان

[...] - حسناً، تصوّر مثلاً أنني أنا أيضاً سلّمتُ بوجود الله - قال إيفان ضاحكاً - أليس هذا مفاجئاً لك؟

- نعم، طبعاً، إلا إذا كنت تمزحُ من جديد.

-«أمزح»[19]. هذا ما قالوه لي البارحة عند شيخ الرهبان. اسمع يا عزيزي! لقد قال عجوزٌ آثم، عاش في القرن الثامن عشر: إذا كان الله غير موجود فعلينا أن نخلقه، sil nexistait pas dieu, il foudrait linventer، والحق، إن الإنسان قد اخترع الله. وليس الغريبُ في الأمر، وليس الأهم أن الله موجود في الواقع. لكن الأغرب أن تلك الفكرة - فكرة ضرورة وجود الله - استطاعت أن تدخل في دماغ حيوانٍ متوحشٍ وشرير كالإنسان، وهي فكرةٌ شديدةُ القدسيّة، شديدةُ التأثير في الشعور، وحكيمةٌ جداً، تشرفُ الإنسان. أما أنا فقد توقفتُ عن التفكير: هل الإنسانُ خلقَ اللهَ أم أن الله هو الذي خلقَ الإنسان؟ وبالتأكيد لن أبدأ باستعراض وانتقاء بدهيّات الصبية الروس الحديثة في هذا المجال وهي جميعاً مستمدة من الفرضيات الأوربية، لأن ما هو افتراض عند الأوربيين، يصبحُ في اللحظة ذاتها عند الصبي الروسي بدهيّةً، بل وعند أساتذته أنفسهم، لأن الأساتذة الروس غالباً ما يكونون اليوم كالصبية الذين يعلمونهم. ولهذا فسأتجاوز الافتراضات جميعها. ولنتساءل ما هي غايتنا أنا وأنت الآن؟ لعلها تتمثل في أن أشرحَ لك جوهري وطبيعتي بأسرع ما يمكن، بمعنى آخر أي إنسان أنا، بماذا أؤمن، وبماذا آمل؟ أليس كذلك؟ ولهذا فأنا أعلنُ أنني استوعبُ اللهَ بشكلٍ مباشرٍ وببساطة. لكن علينا هنا أن نلاحظ مسألة مهمة: وهي إذا

كان الله موجوداً، وإذا كان قد خلق الأرضَ حقّاً، فقد فعل ذلك، كما بات معلوماً لنا بدقة، وفق مفاهيم الهندسة الإقليدية، ولم يعطِ للعقل البشري تصوّراً إلا عن الفضاء ثلاثي الأبعاد[٢٠]. ومع ذلك وجدَ ويوجد الآن علماء هندسة وفلاسفة[٢١]، رائعون يشكون في أن المعمورة بل الكون كلّه على العموم قد خُلق بالاستناد إلى قوانين الهندسة الإقليدية وحدها، ويتجاسرون على أن يحلموا بأن الخطين المتوازيين، اللذين لا يمكن لهما أن يلتقيا وفق قوانين إقليدس على الأرض، سيلتقيان في نقطة ما في اللا نهاية. وقد وجدتُ لنفسي سنةً يا عزيزي: مادمتُ عاجزاً عن فهم حتى هذه المسألة، فكيف لي أن أعلمَ أشياءَ عن الله. ولهذا فأنا أعترفُ برضىً كامل، أنني لا أملك أي مقدرةٍ على حلّ مثل هذه المسائل، عندي عقلٌ إقليدي أرضي، فكيف لي أن اشغل بالي بحل مسائل ليست من هذا العالم. وأنصحك أنتَ أيضاً يا صديقي أليوشا أن تحسنَ صنعاً فلا تفكّر بوجود الله أم عدم وجوده! هذه أمور ليس لعقولنا إدراكها، ما دامت مخلوقة مع مفاهيم وتصوّرات ثلاثيّة الأبعاد.

وهكذا فأنا عن طيب خاطر أسلّم بوجود الله، بل بوجود حكمته العليا، وغاياته، التي يستحيلُ علينا إدراكها، أؤمن بحكمةِ نظام الكون، وبمغزى الحياة، أؤمن بهارمونيا يمكن أن نذوب فيها جميعاً، أؤمن «بالكلمة»، التي يسعى الكونُ إليها، والتي «هي الله»[٢٢]. وهلمّ جرا... وهلمّ جرا. لقد قيل كلامٌ كثيرٌ جداً في هذا المجال، وأظنني على الدرب الصحيح، ألا ترى ذلك؟ إذا وفي خاتمة المطاف: اعلم أنني لا أقبلُ عالمَ الله هذا مع أنني أعلمُ بوجوده. أنا لا أرفضُ الله افهمني، ولكنني لا أقبلُ هذا العالم الذي خلقه الله وأرفضُ أن يسمح بقبوله. ولأشرح لك: إنني أؤمن كما يؤمن طفل، أن المعاناة ستندملُ وتزول، وأن المهزلة المزعجة للتناقضات الإنسانية ستختفي كسرابٍ كاذب، كذرةٍ صنعها عقلٌ إقليدي ضعيفٌ

وضيقٌ جداً. أؤمن أنهُ في النهاية وفي لحظة الانسجام الأبدي الخالد يحدثُ أن يظهر شيءٌ ما، غالٍ جداً، وقيمٌ جداً، تمتلئ بهُ الأفئدةُ جميعها، وتنطفئ به أشكال الغضب والحقد، فيكفر عن جميع جرائم البشر وأفعالهم الشريرة عن جميع الدم المسفوح فوق الأرض، دمهم المسفوح بأيديهم، شيءٌ لا يتيحُ العفو عن أخطاء البشريّة فحسب، ولكن يبرّر كل شيء كل ما حدث مع الناس - لنسلّم بهذا، بحدوثه، غير أنني وحتى في تلك الحالة لن أقبلَهُ ولا أريد قبوله، وليحدث أن يلتقي الخطّان المستقيمان المتوازيان، فأرى ذلك بأم عيني، أراه وأحدّث عنه وعلى الرغم من ذلك لن أقبل الأمر. هذه هي طبيعتي وهذه مقولتي. لقد بُحتُ لكَ جاداً بما في داخلي، لقد بدأت حديثي إليكَ على أغبى نحوٍ ممكن، ولكنني دفعتُهُ ليصبحَ اعترافي بين يديك، لأن هذا حصراً ما يعنيك، فما كنت تريدُ حديثاً عن الله، بل عن كيفيّة عَيش أخيكَ الذي تحبُه، وهذا ما كلّمتُكَ عنه [...].



العصيان

- يجب عليّ أن أقدّم لكَ اعترافاً وحيداً - بدأ إيفان حديثه - أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم كيف يمكن للمرء أن يحب أقرباءه. فالأقربون تحديداً لا يمكن أن يحبهم الإنسان من وجهة نظري، وربّما استطاع أن يحبّ البعيدين، لقد قرأتُ في موضعٍ ما ذاتَ يوم عن «يوحنّا الرحيم[٢٣] وهو واحدٌ من القديسين»، أن متشرّداً جائعاً متجمداً من الصقيع قدمَ إليه طالباً منه أن يُدفِئه، فأضجعَهُ إلى جوارِهِ في فراشه، ضَمَّهُ وراحَ ينفخُ في فمِهِ المتقيح المصابِ بداءٍ رهيب. أنا على ثقة من أن القديس قد فعَلَ ذلكَ بتصنّع كاذب. مُلزِماً نفسه باسم واجب الحب، ومكّفراً عن ذنوب يحمِلُها. كي تُحبّ شخصاً ما، يجب أن يكونَ مختفياً عنك، فإذا ما أظهرَ وجهَهُ لكَ ولو قليلاً اختفى الحُب.

- لطالما تحدث عن هذا الأمر الشيخُ زوسيما - علّق أليوشا - لقد قال أيضاً إن وجه الإنسان يعيقُ الكثيرينَ، ممّن ليسَ لديهم الخبرة في الحُب من أن يحبّوا، وعلى الرغم من ذلك فقد عرفت البشرية ضروباً مختلفة من الحب، تشبهُ محبّة المسيح، أنا بتجربتي أعرفُ ذلك يا إيفان...

- حسناً.. أما أنا فإلى الآن لم أرَ ذلك، ولا أستطيع فهمه، ومثلي كثيرون جداً لكن السؤال الآن: هل يعودُ ذلك إلى جوهر الإنسان وطبيعته، أم إلى عوالم وخصال أخرى. باعتقادي أن محبة المسيح للناس معجزةٌ غير ممكنة على سطح الأرض. لقد كان المسيحُ إلهاً أمّا نحن فلسنا كذلك. لنفرض مثلاً أنني أستطيعُ أن أعاني كثيراً، ولكنَ الآخر لن يستطيع أبداً أن يعلمَ مقدار معاناتي لأنه ببساطةٍ آخر، وليسَ أنا ذاتي، بالإضافة إلى أن الإنسان

من النادر جداً أن يعترف بمعاناة سواه «كما لو أنها مسألةُ رتبةٍ أو لقب».
فلماذا ينكرُ المرءُ عليَّ ذلك، ماذا ترى؟ أنا أقول لك، ربما لأن رائحتي كريهة، أو لأن لي وجهاً غبياً، أو ربما لأنني ذات يوم دعستُ على رجله. ثم هناك أنواع وأنواعٌ من المعاناة: هناك مثلاً معاناة مذلة تخفض من قدري، كالجوع، وهذه يقبلها مني من يحسنُ إلي، لكن ما أن ترتفع المعاناة، لتصبح معاناة من أجل فكرة، حتى يرفضها ولا يعترف لي بها إلا في حالاتٍ نادرةٍ جداً، لأنّهُ على سبيل المثال، قد ينظرُ إلي، فيرى أن ليسَ لي ذلك الوجه الذي صورهُ لهُ خيالهُ، لمن يفترض أن يعاني لأجل فكرةٍ ما.

وهو ساعتها يرفض التعاطف معي دون أن يكون ذلك بدافع الشر من قبله. الشحاذون، ولاسيّما النبلاء منهم، يجب أن يظلّوا بعيدين عن الأنظار، وأن يطلبوا الصدقات من خلال إعلانات الصحف. من الممكن أحياناً أن يحب الإنسان قريبه ولكن من بعدٍ، أما من قريبٍ فهذا غير ممكنٍ على الأغلب.

لو أن الأمور كانت، كما هي تلك الحالُ على المسرح، في بالية حيثُ نرى الشحاذين يظهرون في أسمالٍ حريريّة ممزّقةٍ فيطلبون الأعطيات وهم يرقصون برشاقة، ربما عندها نستطيعُ أن نعجب بهم، نعجب بهم ولكن - على الرغم من ذلك - لا نحبهم!

حسناً حسبنا ما قلناه في هذا الأمر. لقد أردت فحسب أن أجعلك تقف على وجهة نظري. لقد أردتُ الحديث عن آلام البشرية بشكلٍ عام، لكن الأفضل لنا أن نتوقف عن آلام ومعاناة الأطفال. إن هذا سيخفض حججي عشر مراتٍ. ولكن مهما يكن فالأفضل أن نتحدث عن الأطفال وحدهم. حتى ولو كانت خسارتي أكبر. أولاً - يمكن للمرء أن يحب الأطفال حتى عن قرب، وسخينَ حتى، ودميمي الوجوه «وإن كنت أعتقد أن وجه الطفل لا يمكن أن يكون دميماً».

ثانياً - لأنني لا أحب أن أتحدث عن الكبار، لا لأنهم يثيرون الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب، بل لأنَّ لديهم رغبة في الانتقام: لقد أكلوا التفاحة وعرفوا الخير والشر، وأصبحوا «شبيهين بالله»[٢٤]، ولكنهم ما زالوا يأكلون منها.. أما الأطفال فما ذاقوا طعمها بعد وهم أنقياء بريئون تماماً.

أتحب الأطفال يا أليوشا؟ أعلمُ أنك تحبهم، وسيكون واضحاً لك لماذا أحبُّ الآن أن أتحدث عنهم فقط. فإذا كانوا يتألمونَ على الأرض ويعانون فذلك بذنب آبائهم، بذنب أهلهم آكلي التفاحة؟ إن مثل هذه المحاكمة تنتمي على عالم آخر، والقلبُ البشريُ على هذه الأرض لا يستطيع أن يفهم هذا. يجبُ ألا يعذّبَ شخصٌ بريء بذنب غيره، بخاصة حين يكونُ الشخصُ طفلاً! لكَ أن تتعجب مني يا أليوشا. لكنني أحبُ الأطفال كثيراً، وانتبه إلى أن الناسَ القساة، الضواري، أكلة اللحوم، الكارامازافيّين[١]، يحبون أحياناً الأطفال كثيراً، الأطفال ما داموا أطفالاً، وهم عندها يختلفون جداً عن الكبار، حتى سنِ السابعة تقريباً، كما لو أنهم مخلوقات أخرى ومن طبيعةٍ مختلفة. لقد عرفتُ في أحد السجون مجرماً، اتفق لهُ أثناء ارتكابه سرقاته مُتسلّلاً على البيوت في الليالي، أن قتل أسراً بكاملها، وذبحَ كثيراً من الأطفال كما يذبحُ شخصاً واحداً، ومع ذلك فقد استبدت به في السجن عاطفة قويّة تجاه الأطفال، دفعتْهُ لقضاء وقت طويل يُراقبُ الصغار من كوّة الزنزانة وهم يلعبونَ في ساحة السجن، وقد استطاعَ أن يكسب ودَّ أحدهم، فدرّبهُ أن يقتربُ من الكوّه وقامت بينهما صداقة... أنت لا تعلم يا أليوشا لماذا أقصُّ عليكَ كل هذا؟ إن رأسي تؤلمني... وأشعرُ بالحزن...

١- ينسب إيفان هنا إلى آل كارامازوف /المترجم/

- إنك تتحدثُ بشكلٍ غريب - علّق أليوشا قلقاً - لكأنكَ تتحدثُ فاقداً الوعي.

- على فكرة... لقد حدثني بلغاري منذ مدة قصيرة في موسكو - تابع إيفان كلامه وكأنه لم يسمع كلماتِ أخيه - أن الأتراك والشركس يعمدون إلى أشد أنواع القسوة في بلغاريا خوفاً من عصيان السلافيين[٢٥] وتمردهم - فيحرقونَ ويذبحون ويغتصبون النساء والأولاد، يسمرون السجناء من آذانهم على السور بالمسامير ويتركونهم حتى الصباح، فيعلقونهم على المشانق... إلخ، إن التعبير عن هذا شديدُ الصعوبة، يعبرون أحياناً عن قسوة الإنسان «بالوحشية»، وهذا غير عادلٍ ومهين للحيوانات: لا يمكن إطلاقاً للوحش أن يكون بمثل قسوة الإنسان بمثل تفننِهِ وإبداعهِ في القسوة، النمرُ مثلاً ببساطة يقتلُ فريستَهُ، يمزّقُها ويلتهمها، هذا ما يُجيدُه، ولكن لا يمكن أن يخطر بباله أن يعلق الناسِ من آذانهم على الأسوار طوال الليل، حتى ولو قدر على ذلك. أما أولئك الأتراك فإنهم يتلذذون بتعذيب الصغار، ابتداءً من انتزاع الأجنة من أرحام أمهاتها بخناجرهم وصولاً على قذف الأطفال الرضع إلى أعلى وتلقفهم بالحراب على مرأى من أمهاتهم، حيثُ يُعتَبر حضور الأمهات أهم عنصر من عناصر المتعة.

وإليك مشهداً شغلني طويلاً، تصوّر: طفلٌ رضيع بين يدي أم ترتجفُ من الخوف، ومجموعة من الترك يحيطون بها، ويتخيلّون لعبةً مضحكة، يداعبون الرضيع ويتضاحكون، لكي يضحك، ويتاح لهم ذلك فيبدأ الطفلُ بالضحك، وفي اللحظة ذاتها يوجهُ أحد الأتراك مُسدّسَهُ صوبَ الصغير، على مسافة أربع بوصات من وجهه، ينفجرُ الطفلُ ضاحكاً ويمدُّ يديه الصغيرتين ليمسك بالمسدس، فيضغطُ الفنان لحظتها على الزناد وينطلقُ الرصاص ليهشم جمجمة الرضيع...

يا للفن الرائع أليس كذلك؟ بالمناسبة يقال إن الأتراك يحبون كثيراً الحلويات.

- يا أخي، إلى أين تريد أن تصل؟

- أفكّرُ إذا كان الشيطان غير موجود، والإنسان هو الذي خلقه، فإنهُ خلقَهُ ولابد على صورته.

- في هذه الحال، كما خلق الله.

- مُدهشٌ كم تجيدُ قلبَ الألفاظ، كما قال بولونيوس في «هاملت»[٢٦] - ضحكَ إيفان - إنكَ تترقّبُني على الكلمة، ولكنني سعيدٌ لذلك. جميلٌ إلهكَ هذا إذا كان الإنسان قد خلقه على صورته وشكله. لقد سألتني الآن إلى أين أريد أن أصل من كل هذا: أنا مهتمٌ وجامِعٌ لبعض الوقائعِ، وقد لا تصدق لو قلت لك، إنني أكتب كل ذلك فوراً، وأجمعُ من قصاصات الجرائد ما يعنيني من الحكايات، ومختلف القصص والطرائف، وقد أصبحتُ أمتلك مجموعة كبيرة. الأتراكُ بطبيعة الحال، داخلون في مجموعة مختاراتي، ولكنهم أجانب. إلا أن لديّ أشياء كثيرة وطنيّة وهي أفضل مما يخص الأتراك.

إن لدينا ضرباً أكثر، لدينا سياط وعصي أكثر وهذه مسألة قوميةٌ: عندنا لا يسمّرون الناسَ من آذانهم، فنحن مهما يكن أوربيون، أما بالنسبة للسياط والعصي فهي من اختصاصنا وليس لأحد أن ينتزعها منا. في البلاد الأخرى اليوم لا يضربون أبداً على ما يبدو، ربما لأن الأخلاق هناك أصبحت نظيفة، أو لأن القوانين الموضوعة حديثاً، ما عادت تجيزُ أن يجلدَ الإنسانُ الإنسانَ. ولكنهم والحق يقال قد وجدوا هناكَ ما يعوضهم عما خسروه، وهو ذو طابع قوميٌ أيضاً، كما عندنا، لكنه خاصٌ إلى درجة يستحيلُ فيها أن يطبق في روسيا، على أن من الجدير ذكره - فيما أظن - أن مثل هذه

الأمور بدأت تتسرب إلينا، بخاصة في مراحل الحركات الدينية التي تتفشى بين علية القوم. إن لدي نشرة رائعة[1] مترجمة عن الفرنسية، تتحدث أنهم أعدموا منذ فترة قريبة لا تتجاوز خمس سنوات في مدينة جنيف مجرماً وقاتلاً يدعى ريشار، في الثالثة والعشرين من عمره على ما أظن، وقد ندم على ما كان منه فاعتنق المسيحية قبل أن يصعد إلى حتفه.

وريشار هذا ولدٌ غير شرعي، «أهداهُ» والداه وهو بعد في السادسة من عمره إلى رعاة سويسريين جبليين، قاموا بتربيته ليستخدموه في العمل. نما الصبي كحيوانٍ متوحش صغير بينهم، لم يعلموه شيئاً، بل أرسلوه يحرسُ القطيع منذ السابعة من عمره، ولم يحفلوا بطعامه أو لباسه، لا في الصيف ولا في الشتاء، وقد فعلوا ذلك دون أن يشعر أحدهم بأي تأنيب ضمير بل لم يفكر واحدهم بالأمر حتى، لأن الصبي كان قد «أهدي» إليهم كشيء من الأشياء، وهم لا يرون من واجبهم إطعامه وإكساءه، وقد شهد ريشار نفسه في المحكمة أنه كان في تلك السنوات، كالابن الضال في الإنجيل، يتشوق ويتشهى أن يأكل حتى تلك الكتل العجينيّة التي كانت تقدم إلى الخنازير[٢٧] لتسمينها وبيعها، ولكن حتى هذا العلف لم يقدموه إليه، وضربوه حين كان يسرق منه شيئاً يقتات به، وهكذا قضى طفولته كلها ثم فتوته، حتى إذا نضج واشتد عوده بدأ يسرق.

ا- هنا ينقل دوستويفسكي نقلاً أميناً مضمون وأسلوب النشرة التي أصدرتها لجنة توزيع الكتب الدينية في إقليم «فو» في سويسرا وعنوان النشرة: «جذوة جديدة تنتزع من النار» وهي تصف اهتداء وإعدام لويس فردريك ريشار، الذي أعدم في جنيف في ١١ يونيو / حزيران ١٨٥٠. /المترجم/

راح هذا المتوحش يعمل في جنيف بالمياومة، وينفق ما يجنيه في السكر والمجون، ثم انتهى به الأمر أن قتل رجلاً عجوزاً وسرقه. قبضوا عليه، وقدموه إلى المحاكمة، فأدانوه وحكموا عليه بالإعدام. هناك لا يتعاطفون. وفي السجن وجدَ نفسه محوطاً بقساوسة وبأعضاء أخويّاتٍ مسيحيّة مختلفة وسيّدات أعمالٍ خيريّة وغيرهم، فتعلّمَ في السجن القراءة والكتابة، وشرحوا لَهُ الإنجيل، وردّوهُ إلى الصواب، ووبخّوهُ وقرّعوه وما إلى ذلك فإذا بهِ أخيراً يعترفُ جهاراً بجريمتِهِ، فوجّه إلى المحكمة رسالةً يعترفُ فيها بأنه وحش، ولكن الربَ أخيراً أدركه برحمتِهِ وهدايته. فثار كل شيء في جنيف، جنيف الفاضلة الخيّرة تداعت للأمر. وأقبل جميع الناس في المجتمع الراقي، جميع الأخيار إلى السجن لزيارة ريشار، فراحوا يضمّونَهُ ويقلبونه: «أنت أخونا، وقد نزلت عليك نعمة الرب»[٢٨]. أما ريشار فكان يبكي حناناً ويردد: «نعم لقد نزلت عليّ نعمةُ الرب! سابقاً كنتُ طوال طفولتي وشبابي أرجو أن أحصلَ على علفِ الخنازير طعاماً لي، والآن يغمرني اللهُ بنعمته، فلأمُت في رحمة الله!» - نعم، نعم، يا ريشار مُت في وئامٍ مع الله، لقد سفحتَ دماً ويجب أن تموت في وئامٍ مع الله. ربما كنتَ غير مذنب، في عدم معرفةِ الربِ إطلاقاً عندما كنت تحسد الخنازير على طعامها، وعندما كانوا يضربونكَ حين تسرقُ من الخنازير طعامًا لك «لأن ما فعلتهُ أمرُ سيئ جداً، فالسرقة حرام» - لكنكَ سفحتَ دماً ويجب أن تموت. وهكذا حانَ اليوم الأخير، وريشارُ الذي هدّهُ الضعفُ يبكي ولا يفعل شيئاً إلا أن يردد كل دقيقة: «هذا أفضلُ يوم في حياتي، أنا ذاهبٌ إلى الرب!» - «نعم، - يصرخُ القساوسة والقضاة وسيّدات الجمعيات الخيريّة - نعم هذا أسعدُ يومٍ في حياتك، لأنكَ تمضي إلى لقاء الرب!»، كل ذلك والجموعُ تسيرُ باتجاه المقصلة خلفَ عربة العار

التي تقلُّ ريشار، بعضهم سيراً على الأقدام وبعضهم راكباً، ويصلونَ المقصلة: «متْ، يا أخانا - يصرخونَ - مُتْ في صلحٍ مع الرب، فقد أدركتك نعمتُه!».

ودفعوا الأخ ريشار مغموراً بقبلاتِ إخوانهِ نحو المقصلة، ووضعوا رأسه على النطع، وقطعَ رأسُهُ قطعاً أخوياً، لأن نعمةَ الله قد نزلت عليه.

لا.. أليسَ هذا الأمر خاصاً جداً. هذه النشرة تُرجمت إلى الروسيّة على يدِ بعض اللوثريين الروس الذين ينتمونَ إلى أخيارٍ من عليّةَ القوم، ووزعت بأعدادٍ كبيرة إلى الصحف جميعاً وغيرها مجاناً لأجلِ تثقيف الشعب الروسي. إن قصّة ريشار هذهِ جيّدة بما تتميّز من خصوصيّة قوميّة، عندنا وإن كانَ من غير الجائز أن نقطع رأس شخص ما لأنه أصبحَ أخاً لنا فحسب، أو لأن نعمة الرب قد تنزّلت عليه.

لكن لدينا في هذا الشأن ما يخصُّنا، وهو ليسَ أقلَ مما رويتُه. لدينا مثلاً متعة تاريخيّة مهمة ومستمرة هي الجلد والضرب المُبَرح. فلدى نكراسوف شعرٌ عن فلاحٍ يقوم بجلد حصانٍ على عينيه «على عينيهِ الوديعتين»[٢٩]، من منا مثلاً لم يرَ ذلك، هذا مشهدٌ روسي بامتياز. يصف الشاعرُ حصاناً ضعيفاً، يجرُّ عربةً مثقلة بالأحمال، فيغوصُ في الوحل ولا يستطيع أن يخرجَ منه فيشرعُ الفلاحُ بضربهِ، يضربُهُ بشكلٍ هستيري، دون أن يُدركَ ما يفعله، يجلدهُ مأخوذاً بحالةٍ من الشكر الوحشي ويصيحُ به: «حتى ولو كنتَ ضعيفاً على جرّها، فستجرّها أو تموت!»، الحصانُ يتخبّط، والفلاح يبدأ بجلدهِ على عينيه الدامعتين، على «عينيه الوديعتين»، اللتين لا تملكان ما تردان بهِ السوط. وباندفاعةٍ مستميتة خرجَ الحصانُ من الوحلِ بحملِهِ الثقيل، مُرتجفاً، متقطعَ الأنفاس، يسيرُ بخطوات مقهورة غير ثابتة، مجللاً بالمهانةِ والمذلّة. لقد وصف نكراسوف المشهد بصورةٍ مرعبة

رهيبة. ولكن المسألة هنا تتعلّق بحصانٍ فحسب، حصان قد منحنا إياه الرب لكي يجلد، أو هذا على الأقل ما علمنا إياه التتار وقد أهدوا إلينا السوط على سبيل التذكير بهم. ولكن من الممكن جلدُ البشر أيضاً. أعرفُ واقعةً قامَ فيها سيِّد مثقف متعلِّم بضرب ابنتهِ الصغيرة التي لم تتجاوز السابعة وساعدته على ذلك السيّدة زوجته - إن تفاصيل الحادثة مُدوّنة لدي[٣٠]. ومنها أن الأب كان سعيداً لأن القضبان التي استخدمها كانت مليئة بالأشواك، وكان يُردد «ستكون العقّوبةُ أقسى»، ويروحُ يجلدُ ابنته. أنا أعلمُ تماماً أن هناك أشخاص يسكرون مع كل ضربةٍ يكيلونها للآخر، ويشعرون بلذةٍ جسديّةٍ حسيّة تبلغ ذروتها مع ازدياد الضرب، شيئاً فشيئاً ضراوةً وعنفاً. ضربت الطفلة دقيقةً، خمساً، عشر دقائق، بعنفٍ وساديّة، صرخت، واختنقت ببضع كلمات: «بابا، بابا، بابا الحبيب...» وبمصادفةٍ شيطانية غير لائقة رفعت القضية إلى القضاء. وتولّاها عن الأهل محام، وقد قال الشعب الروسي منذ زمن بعيد: «المحامي - ضميرٌ مؤجَّر»، راح إذاً هذا المحامي يصيحُ مدافعاً عن موكليه: «الأمرُ بطبيعة الحال بسيطٌ جداً، أمرٌ عائلي عادي تماماً، أبٌ أدّبَ ابنته، ومن عارِ أيامنا هذهِ أن يصل مثل هذا الأمر إلى المحكمة!»، وقد تأثّر المحلّفون كثيراً بمرافعة المحامي، وتداولوا الأمر، ثم رجعوا ليعلنوا براءة الأبوين. وعندها ضجّ الناسُ في القاعة فرحاً ببراءة الجلاّد.

أنا لم أحضر الجلسة، وإلا لكنتُ اقترحتُ أن نقدّمَ راتباً شهرياً لإعانةِ الأب الجلاّد!... هذه لوحة رائعة، ولديّ أيضاً عن الأطفال لوحات أخرى كثيرة، وربّما أفضل من هذهِ... لدي الكثير مما جمعتُهُ عن الأطفال الروس، يا أليوشا. اسمع مثلاً قصة طفلة صغيرة في الخامسة من عمرها، غضب منها أبواها[٣١]. وهما «شخصان محترمان، مثقفان ومتعلمان، تربيّا تربية جيّدة».

أترى يا أليوشا أنا مَرّة أخرى أؤكد جازماً أن لدى بعض البشر صفات خاصة - تتمثّلُ في حبّهم لتعذيب الأطفال، الأطفال فحسب من بين جميع البشر، وهؤلاء الجلادون يتعاملون مع بقية الناس بكثيرٍ من اللياقة واللطفِ، كما يليقُ بأوربيين إنسانيينَ متعلمين، غير أنهم يحبّونَ كثيراً تعذيب الأطفال، مع أنهم يودونهم بشكلٍ خاص، إن عدم قدرة هذه الكائنات الصغيرة العزلاء أن تدفَعَ عن نفسها هو ما يثيرُ شهيّة المُعَذبين، وثقة هؤلاء الأطفال الملائكيّة، الذين لا يعرفون إلى من يلجؤون وبمن يعتصمون، توقظ دَمَ الجلادين النتن مما لا شك فيه أن في داخل كل إنسان منا وحش نائم، وحش ضار حقود، يستمتعُ بسماع صيحات ضحيته، وحشٌ بلا كوابح، مقطوع القيد، وحشٌ يعيشُ في مرضِ الفجور، وما ينتجُ عنهُ من نقرسٍ والتهاب كبد وغيرها. تلك الطفلة المسكينة ذات السنوات الخمس تعرّضت لأشكالٍ من التعذيب يصعبُ تصوّرها إلى أيدي أبويها المثقفين. لقد ضرباها، جلداها، ركلاها بالأقدام، وهما لا يعرفان لماذا يفعلان ذلك، فأحالا جسدها كلّه على كدمات وبقع زرقاء، وأخيراً وصلا على أعلى درجات التأنّق والرقّة: فحبسا الصغيرة طوال الليل في الحمام في طقسٍ جليدي بارد، بحجّة أنها لم تكن تصحو لتقضي حاجاتها «وكأن طفلاً في الخامسة من عمره، يغفو عميقاً في نومِهِ الملائكي يستطيعُ دائماً أن يصحو في الوقت المناسب لقضاء حاجة» - ولهذا السبب كانا يلطخان وجهها بغائطها ويجبرانها على بلع ذلك الغائط، وقد ابتدعت ذلك أمُّها تحديداً، وكانت تلك الأم تستطيع أن تنام عندما يتناهى إلى أسماعها أنينُ طفلتها المسكينة، الحبيسة في ذلك المكان الموبوء! هل تستطيع أن تفهم مثل هذا الأمر يا أليوشا، عندها ذلك الكائن الصغير، الذي ما يزالُ عاجزاً عن فهمَ ما يحدث له، يلطمُ صدرَهُ المتهدّج بقبضته

الصغيرتين، ويبكي بدموعهِ البريئةِ التي يخالطها الدم في الظلام والبرد، ضارعاً على «الرب الرحيم»، كي يردّ عنه - أتفهم أنت مثل هذا السخف يا أخي وصديقي، أنت يا من تستعد لتكون راهباً تقيّاً هل تستطيع أن تستوعب علّة وجود عالمٍ تافهٍ هذه التفاهة، ولأي سبب هذا الكون السخيفُ موجودٌ وضروري! بلا ألم، يقولونَ، لا يستطيعُ الإنسان أن يوجد على الأرض، لأنهُ عندها لن يميّزَ الخيرَ من الشر. ألا بئسَ معرفةِ الخير والشرِ الشيطانيينِ هذه، إذا كان ثمنها فادحاً على هذه الصورة! إن كل معرفة العامل لا تساوي دموع تلك الطفلة الضارعة إلى «الرب الرحيم».

أنا لا أتحدّثُ عن آلام الكبار، فأولئكَ قد أكلوا التفاحة، وليأخذهم الشيطان جميعاً... ليأخذهم الشيطان، أما الصغار... الصغار! أنا أعذّبك يا أليوشا، أرى أنكَ الآن لست على ما يُرام، سأتوقفُ إن شئت.

- لا بأس... أنا أيضاً أحبُّ أن أتألم - تمتمَ أليوشا.

- واحدة فقط، لوحة واحدة، للفضول، إنها شائقة جداً وذات طابع خاص ولهذا سأرويها لك، لقد قرأتُها منذ مدّة قصيرة في إحدى دوريّاتنا، في «الأرشيف» أو «الماضي»[٣٢]، يجب التأكد، فأنا لا أذكرُ بالضبط أين قرأتُها. كان ذلك في أحلكِ أيام نظام القنانة، في بداية هذا القرن. وليعش محرّر الشعب[٣٣]! عاش في بداية مئة السنة هذه جنرالٌ لهُ علاقات رفيعة وواسعة، وكان ملاّكاً كبيراً واسع الثراء. وهو واحد من أولئك الرجال «وهم حقيقةً قلّة، حتى في ذلك الوقت» الذين يظنون وقد أحيلوا على التقاعد أنهم من خلال ما قدّموا أصبحوا يملكون حق الحياة والموت على أقنانهم. يومها وجد مثل هؤلاء. كان إذاً هذا الجنرال يعيش في إقطاعتِهِ التي تحوي ألفي نفس، مزهوّاً، متعالياً على جيرانِهِ المتواضعين، الذين يُعَدّهم مهرجين وطفيليين عنده. وكان يملك مئات

كلاب الصيد، يشرفُ عليها مئة خادمٍ يتبعونها على خيولهم ويرتدونَ زيّاً موحّداً. وذات يوم بينما كان صبيٌّ صغير، فنٌّ في الثامنة من عمره يلعبُ برمي الحصا، فإذا به يصيبُ ساقَ الكلب الأثير عند الجنرال ويجرحها. «لماذا يعرجُ كلبي المحبوب؟»، فأجابوه إنّهُ هذا الصبي... لقد رماه بحجرٍ فجرحِ سَاقه.

«آ.. هذا أنتَ إذاً - حدّق الجنرال به - هاتوه!».، فأخذوه... أخذوه من أمّه، وألقي في زنزانة طوال الليل، في الصباح ومع شروق الشمس خرجَ الجنرالُ باستعراض مهيب يطلبُ الصيد، إنهُ يعتلي حصانه، ومن حوله طفيليوهُ وكلابه والحراس وخدمُ الكلاب ومطاردو الفرائس، كلّهم على خيولهم.

جمعَ الأقنان جميعاً لتلقينهم درساً، وفي مقدّمةِ الجميع وقفت أم الطفل المذنب. أخرجوا الطفل من زنزانته. يوم ضبابيٌّ كالحٌ وبارد من أيام الخريف، يومٌ رائعٌ للصيد، أمَرَ الجنرالُ بتعرية الصبي، فخلعوا عنهُ جميع ملابسِهِ، فراحَ يرتعشُ، وجُنَّ من الخوف لكنّه لم يستطع أن ينبس بكلمة... «اجعلوه يركض...» أمر الجنرال: «اركض، اركض» - صرخ به المطاردون- فراح الصبي يركض.. عليه! «أعولَ الجنرالُ صائحاً، وأطلقَ خلف الطفل كلابَهُ كلَّها، تصطادُهُ على مرأىً من أمّه، الكلابُ مَزّقت جسدَ الصغير إرباً إرباً.

أعتقد بعد ذلك أنهم حجروا على الجنرال... فما هذا؟ بالرصاص كان يجب أن يعدم؟ بالرصاص لإرضاء وتهدئِةِ الضمير الأخلاقي والمشاعر؟

قل يا أليوشا أليسَ كذلك؟

- يُرمى بالرصاص! - قال أليوشا بصوتٍ خافت وقد رفَعَ عينيه نحو أخيه وغطت شفتيه المرتعشتين ابتسامة واهنة.

- برافو! - صرخَ إيفانُ متحمساً. مادمتَ تقرُ بهذا أنت نفسك، فهذا يعني... آه أيّها الراهب الزاهد[٣٤].. أن شيطاناً صغيراً يجلسُ في قلبكَ يا أليوشا كارامازوف!

- لعلّي قلتُ سخافةً ما، لكن..

- نعم... نعم هذا هو الأمر «ولكن!» - صرخ إيفان - فأعلم أيّها الراهبُ المبتدئ[٣٥]، إن السخافات ضروريّة جداً على سطح الأرض؟. على السخافاتِ يقفُ العالم، ودونها لن يُحدثَ فيهِ شيء. إننا نعلمُ ما نعلم!

- ما الذي تعلمه؟

- أنا الآن لا أفهمُ شيئاً - تابعَ إيفان كما لو أنه يهذي - أنا لا أريدُ الآن أن أفهم شيئاً، أريد فحسب أن أكتفي بالوقائع والحقائق. لو أردتُ منذ زمن طويل ألا أفهم. لو أردتُ أن افهمَ أمراً ما، ففي اللحظةِ نفسها أكونُ قد حَرّفتُ أو غيّرتُ الوقائع، وأنا حريصٌ أن أظلَّ في الوقائع والواقعِ فقط...

- لأي شيء تختبرُني؟ - صاحَ أليوشا بحرارة - قلْ لي أخيراً؟

- نعم سأقول لك، وقد أردتُ أن أصل إلى ما سأقوله، أنت غال عندي كثيراً يا أليوشا، ولن أفرّط بك أبداً، ولن أتنازلَ لزوسيما عنك.

وصمتَ إيفان لدقيقة، فاكتسى وجههُ فجأةً بحزنٍ عميق:

- اسمعني جيّداً: لقد تحدّثتُ عن الأطفال فحسب، لكي يكونَ ما أرمي إليه واضحاً، عن الدموع الإنسانيّة الباقية، التي تبللت بها الأرضُ من قشرتها حتى مركزها، لن أقول كلمةً واحدة، أنا أضيّقُ[٣٦] موضوع نقاشنا عامداً حتى النهاية. أنا حشرة وأعترف بكامل مذلّتي، أنني لا أستطيعُ أن افهَمَ لأي غرضٍ تَمّ على هذه الصورة بناء هذا العالم. هذا يعني أن البشر وحدهم مذنبون: لقد مُنحوا الجنّة، لكنّهم أرادوا الحُريّة وسرقوا النارَ من السماء[٣٧]، وهم يعملونَ أنهم

يجلبون الشقاء لأنفسهم، فبالتالي لا داعي للشفقة عليهم. آه... لكنَ فكري، عقلي الأرضي الإقليدي البائس يخبرني أن المعُاناة موجودة، دون أن يكون هناك مذنبون، وأن الأشياء تخرُجُ من الأشياءَ ببساطة ومباشرة وأن كل شيء يجري ويتعادل ويتوازن - ذلكَ وهمٌ إقليدي فحسب، أنا أعلمُ هذا، ولا أستطيعُ أن أعيشَ معه، وأوافق عليه! ما الذي يعنيني مثلاً أن أعلم أن ليس هناك مذنبون - أنا يعنيني القصاص، وإلا فقد أدّمرُ نفسي. القصاص الذي أريدهُ ليسَ في اللا نهاية وفي مكانٍ ما وزمانٍ ما، بل هنا، على هذه الأرض حيثُ أراهُ بعيني. لقد آمنت، وأريدُ أن أعاين بنفسي، فإن كنتُ قد مُتُّ ساعتها فلأُبعث حياً من جديد، لأن هذا إن تحققَ في غيابي فسيكونُ ثقيلاً علي جداً. أنا لم أتألم وأعانِي لكي أمهّدَ بعذاباتي وشقائي لهارمونيا قادمة يتمتّعُ بها سواي، أريدُ أن أشاهِدَ بعيني هاتين كيف تضطجعُ الأيّلة أمام الأسد بسلام، وكيف يقومُ المذبوحُ من موتِهِ فيعانِقُ قاتِله[٣٨]. أريدُ أن أكون هنا حين فجأةً يعلَمُ الناسُ ما عساهُ يكونُ خلف كل ما يحدثُ في العالم. على هذهِ الأمنية تتأسسُ جميع الأديان، وأنا رجلٌ مؤمن. لكن الأطفال، ما ذنبهم، وكيف أنظرُ عندها إلى عذابهم؟ هذا سؤالٌ لا أجدُ له جواباً. للمرّة المئة أعيد - الأسئلةٌ كثيرةٌ جداً، لكنني أعرضُ ما يتعلّق منها بالأطفال، لأنني في هذا الشأن أقدّمُ رؤية واضحة لا تحتملُ الخطأ. اسمع: إذا كانَ على الجميع أن يتألموا، ليشتروا بألمهم هذا، الهارمونيا الأزليّة، فما علاقةُ الأطفال بالأمر، أخبرني من فضلك؟ غير مفهوم إطلاقاً لماذا عليهم هم أيضاً أن يتعذّبوا ويتألّموا، ولماذا عليهم أن يشتروا بشقائهم تلك الهارمونيا فيكونون مادةً وسماداً يمهدُ لها؟ التضامُنُ في الخطيئة بين البشر أفهَمُهُ، لكن هذا التضامن لا يشمل الأطفال، فإن كانوا حقيقةً

مشمولين بهذا التضامن، وعليهم التكفير عن أخطاء آبائهم، ويؤخذون بأعمال أهلهم الشريرة، فإن مثل هذه الفكرة حقيقةً ليست من هذا العالم ولا يمكنُ قبولها.

رُبَّ مازحٍ شريرٍ يقول: على أي حال هؤلاء الأطفال سيكبرون وسيكونُ لديهم متّسَعٌ من الوقت لارتكاب الآثام، لكن ذلك الصبي، ذا الأعوام الثمانية الذيَ مَزّقتهُ الكلاب لم يكبر! آه أليوشا، أنا لا أُجدّف! وأستطيعُ أن أتخيّل كيف سيكون فرحُ الكون عندما تتحُد الأصواتُ كلّها في السماء وتحت الأرض في صوت تمجيدي واحد، كل الأحياء والمبعوثين يهتفون منشدين للرب:

«ربنًا، إنكَ على حق، لقد فهمنا طُرقك!»[٣٩]، وسوف تعانقُ الأمّ ذلك الجلاّد الذي مزّق طفلها بكلابه وسيهتفُ الثلاثة باكين: «ربّنا إنكَ على حق»، عندها بطبيعة الحال، نصلُ ذروةَ المعرفة، ويصبح كل شيء جليّاً. ولكن هنا حصراً عُقدة المشكلة، وهذا مالا أستطيع أن أقبله. ومادمتُ على وجه الأرض فأنا، أسارعُ إلى اتخاذ إجراءاتي. أترى يا أليوشا، ربّما سيحدثُ ما وصفتُهُ فعلاً، وقد أعيشُ إلى تلك اللحظة، أو أبعثُ ساعتها فأصرخُ مع الجميع ناظراً إلى الأم التي تعانق جلاد ابنها: «ربنا، إنك على حق!»، ولكنني لن أنتظر كي أصرخَ عندئذٍ، مادامَ لدي وقت سأسارع إلى حماية نفسي، ولهذا فأنا، أتنازلُ تماماً عن تلك الهارمونيا العُليا. لأنها عندي لا تساوي ولو دمعة واحدة يذرفها ذلك الطفلُ المعذب، الذي كان يلطم صدرَهُ بقبضتيه الصغيرتين في ذلك الموضع الموبوء، ويذرفُ دموعاً لا يكفّر عنها شيء ضارعاً إلى «الرب الرحيم»، لا تساوي دمعة كما قلت، لأن تلك الدموع لم يكفّر عنها، ولا بد أن يتمَّ ذلك، وإلا فإن ذلك الانسجام، تلك الهارمونيا لن يتحققّا. ولكن قُلّ لي كيف تكفّر أنت مثلاً عن تلك الدموع؟ هل هذا ممكن؟ أهو القصاص الذي سيطبق

على الجاني؟ وفيما يهمّني ذلك القصاص، وماذا ستقدِّمُ لي جهنمُ يُعذَّبُ فيها الجلادون، بعد أن فعلوا ما فعلوه؟ وأي هارمونيا إذا كان هناك جحيم؟ إنني أريدُ أن اغفر، وأن أصالح وأضمّ الآخرين، إنني لا أريدُ المزيدَ من العذاب. فإذا كانَ عذابُ الأطفال ضرورياً لاستكمال ذلك الحجمُ من العذاباتِ، اللازمة لشراء الحقيقة، فإني أجزمُ مُقدَّماً أن تلك الحقيقة لا تستحق ثمنها. لا أريدُ، في النهاية، لهذه الأم أن تضمّ إلى صدرها الجلاد الذي مزق بأنياب كلابه جسد صغيرها! ليس من حقّها أن تسامحه، إن أرادت فلتُسامِحهُ عن نفسها فحسب، ولتغفر لَهُ عن عذاب الأم الهائل الذي عانته، أما عن عذاب وألم ابنها الممزق فهي لا تملك حق الغفران، وليس لها أن تسامِحَهُ ولو غفَرَ لَهُ صغيُرها نفسه! فإذا كانَ الأمر كذلك، إذا لم يكن من حقهما أن يغفرا ويسامحا فأين إذاً تلك الهارمونيا؟

هل في الوجود كله كائن، يستطيع أن يغفر ويسامح ومن حقّه أن يفعل ذلك؟ لا أريدُ هذه الهارمونيا، من حُبّي للإنسانية لا أريدُها.

أريدُ أن أبقى مع تلك الآلام والعذابات التي لم يكفّر عنها، إنني أفضل أن تبقى آلامي بلا تكفير، وغضبي وسخطي بلا انطفاء، «حتى ولو لم أكن محقّاً في ذلك». لقد ثمّنوا هذه الهارمونيا غالياً جداً، ولا طاقة لنا على دفع ثمن بطاقة الدخول إليها، ولهذا فأنا أسارعُ فأردُّ بطاقتي إلى مصدرها، وإذا كنت حقاً رجلاً شريفاً فعليّ بأسرع ما يمكن أن أعيد تلك البطاقة. وذلكَ ما أفعلُهُ. لا تظن يا أليوشا أنني أكفر بالله، إنني فقط أعيدُ إليهِ بطاقتَهُ بكثيرٍ من الاحترام.

- هذا عصيان - بهدوءٍ ورقة قال أليوشا.

- عصيان؟ ما كنت أريدُ أن أسمَعَ منكَ أنت هذه الكلمة - قال إيفان بحزم - هل للمرء أن يعيش عاصياً، أنا أريدُ أن أعيش. أخبرني صراحةً أنا

أدعوكَ للكلام، أجبني: لو أوكل إليك أن تبني بناءً يمثلُ مصائر الإنسانيّة، بهدفٍ أن تحقق السعادة للبشر، فتحملَ إليهم أخيراً السلام والهناء، ولأجل ذلك وجدت من الضروري واللازم أن تعُذّبَ كائناً واحداً صغيراً جداً، ليكن مثلاً تلك الطفلة، التي كانت تلطمُ صدرها بقبضتيها، والتي لابدّ وأن يؤسسَ بناؤك ذاك على دموعها، التي لا فديةَ ولا كفّارةَ لها، أفكنتَ توافقُ أن تكون معمارياً في هذه الظروف قُلْ ولا تكذب!

- لا ما كنتُ أوافق - أجاب أليوشا بصوتٍ خافت.

- وهل تستطيع أن تقبل من أولئك الناس، الذين تبني لهم، أن يوافقوا على اكتساب السعادة الخاصة الأبديّة، وإن كان ثمنُها دماً حراماً لطفلٍ صغيرٍ يتعذب.

- لا، لا أستطيع أن أقبل بذلك - قالَ أليوشا، ثم صاح فجأةً وقد التمعت عيناه - يا أخي لقد سألت قبل قليل هل في العالم كائن يستطيع أن يغفر ومن حقه ذلك؟ إن هذا الكائن موجود، وهو يستطيع أن يغفر للجميع وللكل «عن كل شيء»، لأنّه قد وهب دمه البريء عن طيب خاطر للجميع، للإنسانية، لقد نسيته، وهو أساسُ البناء كله، ولَهُ سيهتفون: «ربنّا، إنكَ على حق، لقد أدركنا طرقك».

- آه، تعني «الوحيد بلا آثام»، ودَمَهُ! لا ما نسيتُه، وإنني دَهشٌ أنكَ حتى هذه اللحظة ما استشهدتَ به: لأن أمثالك عادةً يبرزونَهُ ما إن يبدأ أي نقاش. هل تعلم يا أليوشا، لكن لا تضحك، لقد كتبتُ ذات يوم قصيدة، كان ذلك قبل عام. إن كنت ترغب أن تضيّع معي عشر دقائق أخرى فسأقرؤها لك؟

- أنتَ كتبتَ قصيدة؟

- أوه لا لم أكتبها - ضحك إيفان - أنا لم أستطع في يومٍ من الأيام أن أنظمَ حتى بيتين من الشعر. لكن هذه القصيدة تصورّتُها وحفظتُها، كنتُ قد تخيّلتُها في لحظة انفعال، وستكون أنت أوّلَ قُرّائي، بل لنقل أوّل من يستمع إليها.

ثمّ كيف للمؤلف أن يتنازل حتى عن مستمعٍ وحيد - قال إيفانُ مبتسماً - هل أقرأُ أم لا؟.

- أسمَعُكَ بانتباه، قالَ أليوشا.

- إن عنوان قصيدتي هو «المفتش الأكبر»، وهي شيء غير معقول، لكنني سأعرضها أمامك.



المفتش الأكبر [٤٠]

- لا بدَ إذا من مقدّمِة، فدونها لا تستقيم الأمور، أقصد مقدّمة أدبيّة - وضحك إيفان - يا لي من مؤلّف!، الأحداثُ عندي تجري في القرن السادس عشر. ويومها وأنت تعمل ذلك من دراستك في المدرسة - يومها كان شائعاً إدخال القوى السماوية في القصائد. ولن أضربَ دانتي مثلاً[٤١]، أما في فرنسا فقد كان موظفو المحاكم والرهبان في الأديرة يقدمون على المسرح أعمالاً تُجسَّدُ فيها العذراء، والملائكة، والقديسون[٤٢]، بل المسيحُ والربُ أيضاً. يومَها كانَ الأمرُ بسيطاً، وساذجاً وفي رواية «notre damede paris»[أ]، وصف فكتور هوجو[٤٣] تمثيليّة أخلاقيّة مجانيّة قُدمت للناس في قاعة دار البلدية احتفالاً بعيد ميلاد الابن البكر للملك لويس الحادي عشر، وكان عنوانها:

«le bon jugement de la tres sainte et gracieuse viege marie»[ب]

حيث تظهرُ فيها العذراءُ نفسها لتقدِّمَ bon jugement[ت]. وعندنا في موسكو، وقبلَ عهد بُطرس الأكبر، كثير من الأعمال الدراميّة[٤٤] كانت تستوحى من العهد القديم بخاصة، وتمثل من حين إلى حين، وما عدا الأعمال الدراميّة فقد انتشرت في جميع أرجاء العالم قصائد و «أشعار»، كان بين أبطالها المؤثرين قِدّيسونَ وملائكته وسواهم من قوى السماء. وفي أديرتنا نحن قاموا بترجمة ونسج الكثير من تلك

أ- أحدب نوتردام - بالفرنسية في الأصل.

ب- الحكمُ الصائب للعذراء مريم المقدسة المنعمة - بالفرنسية في الأصل.

ت- حكمها الصائب - بالفرنسية في الأصل.

القصائد، وحتى في مرحلة الاحتلال التتري. هناك على سبيل المثال قصيدة رهبانيّة «طبعاً مترجمة عن اليونانيّة» - «دربُ آلام أم الرب»[٤٥]، فيها من المشاهد الجريئةِ ما لا يقلُّ عما وجدناهُ عند دانتي، أم الرب تزور النار، يقودُها كبير الملائكة ميخائيل[٤٦]، هناكَ ترى الآثمينَ وتعاين عذابهم. وبين أولئك ترى طائفة غريبة تتخبّطُ في بحيرةٍ مشتعلة: منهم من يُغمَر في هذهِ البحيرة فلا يصعَدُ ثانيةً إلى سطحها، وعن أولئك يقال: «نسيهم الله» - وهي عبارة عميقة وقويّة بشكلٍ استثنائي. وهكذا، العذراءُ المُتألّمة الباكية تَسقط أمام عرش الربِ ضارعةً أن يعفو عن الخُطاة المعّذَّبين، الذين رأتهم، جميعاً ودون استثناء.

إن حوارها ساعتئذٍ مع الربُ بمنتهى الروعة. وتمعنُ في الرجاء وتُلحُ رافضةً الانصراف وعندما يشيرُ الربُّ إلى يدي وقدمي ابنها المثقّبة بالمسامير، ويسأل: «كيف أعفو عن مُعذّبيه» - عندها تأمُرُ جميعَ القديسين، والشهداء[٤٧]، والملائكة، ورؤساء الملائكة أن يسجدوا معها أمام الرب يصلون لَهُ ويستغفرونه كي يعفو عن جميع الخُطاة بلا استثناء. وتنتهي القصيدة بأن مريم تمكنت من جعل الرب يوقفُ عذابه لأولئك الخاطئين كل عام من الجُمعة الحزينة حتى عيد الخمسين[٤٨]، وعندها ترتفعُ أصواتهم من قاع الجحيم يهتفونَ للرب: «ربّنا إنكَ على حق، بأن حكمتَ علينا هكذا». وقصيدتي كان يمكن أن تكون من النوع نفسه، لو أنها ظهرت في ذلك الزمن، والحقيقة أن الربَ في القصيدة لا يقولُ شيئاً، لكنهُ فقط يظهرُ ثم يختفي، لقد انقضى خمسةَ عشرَ قرناً، على وعدهِ بالعودةِ إلى مملكتِهِ، خمسةَ عشرَ قرناً منذ أن كتبَ رسولهُ: «سأعودُ قريباً». أما «اليوم والساعة نفسَهُمَا فلا يعرفهما حتى الابن، أبي في السماوات وحدَهُ يعرفُهما»

كما عبّر بنفسِهِ عندما كانَ على الأرض[49]. أما البشريّةُ فتنتظرُهُ بإيمانِها القديم ولهفتها القديمة. بل بإيمانٍ أكبر، لأن خمسةَ عشرَ قرناً قد ولّت منذ أن، توقّفتِ السماءُ عن تقديم الفداء للإنسان:

صَدِّق ما يقولُهُ لكَ قلبُك.

ما من فديةٍ من السماء[50].

فما من إيمانٍ إلا بما يقولُهُ القلب، مع أن من الصدقِ أن نعترف أن كثيراً من المعجزات قد تحققت في ذلك الزمن. كان هنالك قديسون يشفونَ المرضى بمعجزاتهم وإذا صدقَ ما جاءَ في سير حياةِ بعض الصالحين، فإن ربّةَ السماوات قد ظهرت لهم بشخصها، لكن الشيطانَ لا ينام، وظهرت في نفوس البشر الشكوك في حقيقة تلك المعجزات. وفي تلك الأثناء شاعت في شمال ألمانيا هرطقة خطير جديدة[51]. كوكبٌ ضخمٌ «شبيه بشعلة» «أي الكنيسة»، «يسقطُ في ينبوع ماء، فتصبحُ المياهُ مُرّة». فإذا بالهراطقة يزدادونَ إنكاراً للمعجزات، بينما يزدادُ إيمانُ المؤمنين، وتشتّدُ حماستهم. أما دموعُ البشرية فقد تواصَلَ انهمارُها لأجله كما في السابق، الجميع ينتظرونه، يحبّونه ويأملون به، يتعطشونَ إلى التضحية والموتِ في سبيله، كما في سالف الأيام... وكم من القرون قد صلّت البشرية بحُرقةٍ: «يا ربّنا تكرّم بالظهور إلينا»[52]، كم من القرون نادَوه وتضرّعوا إليه، لذلك أرادَ الربُ رحمةً بالعاملين، أن يعودَ إلى المتضرّعين والمصلّين، وقد فعل ذلك يومَها فظهرَ للقديسين الزهّاد ولبعض الصالحين والشهداء كما تروي «سيرُ حياتهم»[53]، وعندنا تغنّى تيوتشف به - وهو المؤمن بعمق بحقيقة كلماتِهِ وصدقِها - تغنّى بهِ قائلاً:

خائرَ النفس مُثقلاً بصليبه

سارَ في دروبكِ كُلّها ملكُ السماء

سارَ يا أرضَ آبائِنا على هيئة عبد

مانحاً إياكِ بركاته[54]

لقد كان الأمرُ هكذا تماماً، أؤكّدُ لك، لقد أرادَ أن يظهَرَ للشعب ولو للحظة، للمتألمين والمعذّبينَ والخُطاة الذين يحبّونَهُ بقلوبٍ نقيّة كقلوب الأطفال. إن أحداث هذه القصيدة تجري في أسبانيا، في مدينة إشبيلية، وفي عهود «التفتيش»[٥٥] المرعبة، حين كانت المحارقُ توقَدُ يومياً تمجيداً للرب.

وفي ألسنةِ اللهب الرائعة

كان الهراطقةُ الأشرارُ يحرقون[٥٦]

لم يكن ذلك الظهورُ، هو الظهور الموعودُ طبعاً، في نهاية الأزمان، حين يتجلّى فجأةً بكل مجدهِ السماوي «كبرقٍ يسطعُ من مشرق الأرض، إلى مغربها»[٥٧].

لا. كان يرغبُ ولو للحظةٍ واحدة أن يزورَ أبناءَهُ، في ذلك المكان حيث كانت تتعالى زفراتُ مواقِدِ الهراطقة[٥٨]. ولرحمتِهِ اللا محدودة قَرّر أن يسير بين الناسَ مَرّةً أخرى على هيئتهِ الإنسانيّةِ، تلك التي كانت لَهُ، وسَار بها بين البشر ثلاثةَ أعوامٍ قبلَ خمسةَ عشرَ قرناً، وانحدرَ في «الشوارع الملتهبة» لتلك المدينة الجنوبية، التي شهدت منذ وقت قريب جداً إحراق نحو مئة زنديق[٥٩] ad majorem gloriam Dei[١] في «مواقد رائعة» بأمرٍ من الكاردينال، المفتّش الأكبر، وبحضور الملكِ وحاشيته، والفرسان، والكرادلة وسيدات القصر الجميلاتِ والجماهير الغفيرة من أهالي إشبيلية، ظهَرَ الربُ خفيةً، بهدوء ولكن يا للغرابة! - عرفهَ الجميعُ دون استثناء، وهذا الجزء من القصيدة ربّما كان الأفضل فيها، أي تحديداً لماذا عَرَفوه: الجمهورُ انجذبَ إليهِ بقوّةٍ لا تُقاوم أحاطَ بهِ، واحتشدَ من حولهِ، وتبعوه، فسارَ بين الناس صامتاً وابتسَمَ لهم بعطفٍ عميم. كانت شمسُ المحبّةِ تتقدُ في قلبه، وأشعةُ الضياء والقوّةِ والتنوير تنبعث

١ـ لأجلِ مجد الرب «باللاتينية في الأصل».

من عينيه وتتسكبُ على الناس، فتنتشرُ في قلوبهم وتشعلُ المحبّةَ فيها. إنَهُ يمدُّ لهم يديه، يُباركهم، وبمجّرد مُلامستِهِ، بل مُلامسةِ ثيابهِ، تتدفّقُ قوى الشفاء.

ها هو ذا شيخ ضريرٌ منذ سنوات الطفولة يصرخُ من بين الناس: «يا ربُ، أعد لي بصري، كي أنظر إليك»، فإذا بالغشاوة التي على عينيهِ تسقط، ويراه. فيبكي الشعب ويقبّلُ الأرض التي يسيرُ عليها. وينثُرُ الأطفالُ الأزهارَ أمامَهُ وهم ينشدون «المجدُ لله!»، «إنّهُ هو، إنه هو نفسه - يرددُ الجميع - يجب أن يكونَ هو. لا يمكن إلا أن يكون إياه». ويقفُ في ساحةِ كاتدرائية أشبيلية، في اللحظة نفسها التي يحملونَ فيها إلى المعبد وسط البكاء تابوتاً صغيراً أبيض اللون، مفتوحاً، يضمُّ جثمان طفلة في السابعة من عُمرها، وهي وحيدة والدٍ من صفوة سكان المدينة. كانت الطفلة الميّتة غارقة في الأزهار، وراحَ الجمهور يصرخُ بالأم الباكية: «إنّهُ سيُحيي طفلتك»، أما الكاهنُ الذي كان يخرج للقاء الجثمان فقد أُصيب بالحيرة وقطّبَ حاجبيه، أُم الطفلةِ أجهشت بالبكاء وارتمت على قدميه: «إن كنتَ هو حقاً، فاحيي طفلتي» قالت ضارعةً مادةً نحوَهُ يديها. توقفَ الموكب، بينما رددت شفتاه بهدوء للمرّة الثانية: «طليثا قومي»[1] - «وقامت الفتاة»، وانتصبت الصغيرةُ في التابوت، جلست تنظرُ إلى من حولها بعينين دهشتينِ محملقتين وهي تبتسم، وفي يديها باقةٌ من الورود البيضاء التي كانت تغطّي جثمانها، وعَمّ الاضطرابُ بين الجمهور، الصُراخ، البكاء، وفي تلك الدقيقة نفسها عَبَر الكاردينال المفتّش الأكبر أمام الكاتدرائية. كانَ عجوزاً في قرابة التسعين من

أ- هذه إحدى معجزات السيد المسيح كما وردت في إنجيل مرقص الإصحاح الخامس».

عُمره. طويلاً منتصبَ القامة، معروقَ الوجهِ، غائر العينين، لكن شعلةً ما تسطعُ من عينيهِ، لم يكن يرتدي ثوب الكاردينالِيّة الرائع، الذي ظهَرَ أمامَ الشعبِ البارحة، عندما أحرقوا أعداءَ العقيدة الرومانيّة - لا، إنّهُ الآن في ثوب الراهب الخشن العتيق. خلفَهُ على مسافةٍ مُحددّة يسيرُ معاونُوه المتجهّمون وعبيدُهُ وحُرّاس «القداسة». يقفُ أمام الجمع ويرقُبُ من بعيد، فيرى كل شيء، كيفَ وضعوا الجثمان أمامه، كيفَ بعثَ الفتاة حيّةً، فيتلبّدُ وجهُه ويعقدُ حاجبيه الأبيضين الكثّين عابساً ويتطايَرُ الشررُ من عينيه.

ثمّ يشيرُ بإصبعهِ إلى المسيح آمراً حَرَسَهُ أن يأخذوه. إن سلطة هذا الرجل بلغت من القوّة بحيث أن هذا الشعب الخاضع له المروّض المُرتجف يبتعدُ دون تمهلٍ مفسحاً الطريق للحرس، الذين يضعون أيديهم على المسيح ويسوقونه وسط صمتِ الموت الذي أرخى سدولَهُ، بعدها يسجُدُ الجمْهور كرجلٍ واحدٍ حتى تُلامِسَ رؤوسُهم الأرض أمام المفتّش الأكبر، الذي يباركهم وينصرف.

يقودُ الحرسُ أسيرهم إلى زنزانةٍ مظلمة وضيّقة في مبنى المحكمة المقدسةِ العتيق. ينقضي النهار، ويجيءُ الليل... إنها ليلة من ليالي إشبيلية الحارة «الخانقة» «الهواء يتضوّعُ بعبقِ الرندِ والليمون»[أ]، وسط العتمة العميقة ينفتحُ فجأةً بابُ الزنزانة الحديدي، ويدخُلُ المفتشُ العجوز الأكبر بنفسه حاملاً فانوساً ويسيرُ بطيئاً، البابُ يُغلَقُ خلفَهُ مباشرةً. يقفُ على العتبة ويحدّقُ طويلاً لدقيقةٍ أو اثنتين في وجهِ المسيح، وأخيراً يعبرُ الزنزانة، يضعُ المصباح على الطاولة ويخاطبُهُ قائلاً: «أهذا أنت؟ أنتَ

أ- يستشهد دوستويفسكي هنا بشكل غير حرفي ببيت لبوشكين من مأساة «الضيف الحجري» المكتوبة «١٨٢٦-١٨٣٠» / المترجم/.

حقاً؟» وعندما لم يسمع جواباً تابَعَ بسرعة: «لا تُجب. وما الذي يمكن أن تقوله؟ أنا أعلمُ جيداً ماذا يمكن أن تقول. لكن ليسَ بإمكانك في حقيقة الأمر أن تضيف شيئاً جديداً على ما قُلْتَهُ من قبل. فلماذا أتيتَ تعيق عملنا؟ نعم لقد جئت كي تعيق عَملنا وأنتَ تعلمُ ذلك، لكن هل تعلم ما الذي سيحصُلُ غداً؟

أنا لا أعرفُ من أنت، ولا أريدُ أن أعرف: هل أنتَ هو حقاً، أم طيفهُ لكن غداً سأُحاكِمكَ وسأحرقك في الموقد، كأحدِ أرذلِ الزنادقة، وذلك الجمهور نفسه الذي قبّل اليومَ قدميك وبأمرٍ واحدٍ مني سيندفع كي يرمي الحطب في موقدك أتعلمُ ذلك؟ نعم لعلّك تعلم ذلك».

قال الكاردينال قولَهُ دونَ أن يحوّلَ بصرَهُ عن سجينِهِ ولو للحظة واحدة.

- لا أفهم تماماً ما الذي تقولُهُ يا إيفان؟ - قال أليوشا مبتسماً بعد أن كان يستمعُ صامتاً طوال الوقت، ثم أردف - هل هذهِ فانتازيا لا حدود لها - أم هي خطأ من أخطاء ذلك العجوز، شيءٌ من قبيل qui pro quo[1]؟

- لنعتبر افتراضَكَ الأخير هو الصحيح - ضحكَ إيفان - مادَامَتْ قد أفسدتكَ إلى هذهِ الدرجة الواقعيّةُ العصريّة، فأصبحت لا تحتَملُ شيئاً من الفانتازيا إن أردتَ ليكن qui pro quo. إنهُ في حقيقة الأمر - وراح يضحك من جديد - عجوزٌ في التسعين، وكان من الممكن لَهُ أن يجنَّ بسبب فكرتِهِ منذُ أمد بعيد.

ولعلّ هيئة السجين قد أدهشتَهُ، وربّما كان هذا كلّه في آخر الأمر مجرّد هذيان رجلٍ تسعيني أمامَ الموت، ولا تنسَ تلك المواقد العظيمة التي التهمت في اليوم الفائت مئة زنديق، ولكن أليسَ الأمرُ سيّان بالنسبة لنا أنا وأنت، سواء كان الأمر qui pro quo أم فانتازيا لا حدود لها؟ إن الموضوع

1- «شيءٌ في موضع سواه»، خلط، سوء فهم، لبْس «باللاتينية في الأصل» المترجم.

هنا يتجلّى في أن هذا العجوز يريدُ أن يعبّر عَمّا حَمَلَهُ طوال تسعين عاماً من عمُرِهِ... يريدُ أن يعبّر بصوتٍ عالٍ عَمّا صمت عنه.

- والسجين هل يظلُ صامتاً؟ ينظرُ إليه ولا ينبس ببنت شفة؟

- نعم هكذا يجب أن تجري الأمور في كل الأحوال - قال إيفان ضاحكاً من جديد - لقد أوضح لَهُ العجوز بنفسه أنه ليس من حقّهِ أن يضيف شيئاً، إلى ما قد قالَهُ من زمن بعيد، وإن أردت الحقيقة ففي هذا تحديداً تتجلى الصفة الأساسيّة للكاثوليكيّة الرومانيّة، وباعتقادي إن جوهر الفكرة يُصاغ هكذا: «كل شيء قُمتَ بتسليمِهِ للبابا، وعهدتَ به إليه، وأصبحَ الأمرُ الآن من اختصاصه، فلا تأتِ على الأقل الآن لتعرقل عملنا، لا تأتِ إطلاقاً قبل الساعة الموعودة»، عن هذه الفكرة لا يتحدّثونَ فحسب، بل يكتبون أو هذا على الأقل ما يقولُهُ ويكتبهُ اليسوعيون، وأنا بنفسي قرأتُ مثل هذا في كتبٍ لاهوتييهم، ولنعد للقصيدة. «هل تملكُ الحقَ في كشف ولو سرٍ واحدٍ من أسرار العالم الذي قدمت منه؟ - يسألُهُ العجوز ويجيبُ عنه - لا، لا تملك الحق، كي لا تضيف شيئاً إلى ما كنت قد قلتَهُ من قبل، وكي لا تحرم الناس تلك الحريّة التي دافعتَ عنها حين عشت على هذهِ الأرض. إن كل ما يمكن أن تقوله الآن سينعكس بالسوء على حريةِ اعتقاد الناس، لأنهُ سيظهرُ كمعجزة، وقد كانت من قبلُ حُريّةُ الإنسان عندك هي الأثمن مما عداها، ألم تكن أنتَ من ردَدَ يومها: «أريدُ أن أجعلكم أحراراً». وها أنت اليوم قد رأيتهم «أحراراً»[٦٠] - أضافَ العجوز فجأةً وهو يرسُمُ ابتسامةً مفكّرة - إن هذه الحرية من صنعنا نحن وقد دفعنا ثمنها غالياً- ثم تابع وقد نظر إلى السجين نظرةً قاسية - وقد أنجزنا أخيراً عملنا هذا باسمك. خمسة عشرَ قرناً ونحن نُعاني من هذه الحريّة، والآن انتهى

الأمر، انتهى تماماً. لعلك لا تصدّق أنه انتهى تماماً؟ إنكَ تنظرُ إليّ بعطفٍ وتراني لا استحقُ استياءَك؟

فاعلم إذاً أن هؤلاء البشر الآن، وتحديداً الآن يؤمنون بشكل قاطع وأكثر من أي وقتٍ مضى بأنهم أحرار بشكل كامل، وعلى الرغم من ذلك فقد حملوا حُريتهم تلك بأنفسهم ووضعوها بكثيرٍ من الطاعةِ عند أقدامنا، هذا ما فعلناهُ نحن، فهل هذهِ هي الحرّيّة التي تمنيتها لهم؟»

- أنا لا أفهمُ من جديد - قاطعَهُ أليوشا - هل يسخَرُ، ويتهكّم؟

- لا أبداً. إنما هو يتباهى بنفسهِ وجماعتِهِ، أنهم انتصروا على الحُرّيّة وقد فعلوا ذلك لجعل الناس سعداء «ذلك أننا الآن فقط «وهو طبعاً يتحدّثُ بلسان محاكم التفتيش» أصبحنا قادرين للمرّة الأولى أن نفكّر بسعادة الناس. الإنسانُ مجبولٌ على العصيان، وهل يمكنُ للعاصي أن يكون سعيداً؟ لقد حَذّروك - قال يخاطبُ السجين - ولم تكن تعوزكَ التحذيراتُ والنصائحُ والدلائل، ولكنكَ لم تصغِ، ورفضت الطريق الوحيدة، التي تجعل البشر سعداء، ومن حسن الحظ أن الأمور قد آلت إلينا بعدَ رحيلك. لقد وعدتَ، وأكدتَ وعَدكَ بالكلمة، وقد منحتنا الحقَ أن نربط ونحلل[٦١]، ولن يكون باستطاعتك حتى التفكير بنزع هذهِ الصلاحيات منا الآن، فلماذا جئت تعيقُ عملنا إذاً؟»

- ما الذي يعنيه قولُه: لم تكن تعوزكَ التحذيراتُ والدلائل والنصائح؟ سأل أليوشا.

- في هذا الأمر يتجسّد جوهر ما يُريدُ العجوز أن يعبر عنه.

«إن الروح الذكي المخيف، روح الدمار والعدم - يتابعُ العجوز - الروح العظيم خاطبكَ في الصحراء، وقد وصَلَ إلينا في الكتب أنّه حاولَ «إغواءَك».

أليسَ كذلك؟ وهل كان من الممكن أن نذكرَ ما هو أكثر حقيقةً مما عرضَهُ عليكَ من خلال ثلاثة أسئلة، تلك التي نقضتَها أنت، والتي سُميت في الكتبِ «إغواءات»، وبالمناسبة لو حدثت في يومٍ من الأيام معجزات كبرى على الأرض لكان ذلكَ في اليومِ نفسهِ، يوم الإغواءات الثلاثة. إن المعجزة تتمثّلُ في ظهور تلك الأسئلة الثلاثة. لو كانَ بالإمكان أن نتخيّل - لأجل التجربة وعلى سبيل المثال فقط - أن تلك الأسئلة الثلاثة التي طرحها الروحُ الرهيب قد ضاعت بلا أثر في الكتب، وأن علينا أن نعثر عليها من جديد، أن نختلقها ونصوغها ثانيةً ونعيدها إلى الكتب، ولأجل هذه الغاية قمنا بجمع حكماء الأرضِ كافةً - الرؤساء وأمراء الكنيسةِ والعلماء والفلاسفة والشعراء - وطرحنا عليهم المسألة التالية: فكّروا بعمق وصوغوا ثلاثةَ أسئلةٍ ليست على مستوى الحدثِ فحسب، بل تستطيعُ أن تعكس وتكثّف في ثلاث عبارات، ثلاث جمل إنسانيّة فقط، تاريخَ العالمِ والإنسانيّة القادم - فهل تعتقد أن حكمةَ الأرض كلّها المجتمعة تستطيع أن تنشئَ شيئاً يماثلُ من حيث قوتِهِ وعُمقِهِ تلك الأسئلة الثلاثة، التي طرحها عليكَ في البيداء ذلكُ الروحُ القادرُ الذكي؟ إن تلك الأسئلة لوحدها، بل مُعجزةُ ظهورها، تنبئُكَ أن خلفَ الأمر ليس مجرد عقلٍ بشريٍ عابر، بل عقل مطلق خالد. ذلك أنها تشملُ في جوهرها تاريخَ الإنسانية المقبل، وتضعُ بين أيدينا رموزاً ثلاثةً تتجسدُ فيها تناقضاتُ الطبيعية البشرية قاطبةً، تناقضات لا حلَ لها. يومها لم تكن تلك الحقائق شديدة الوضوح بعد، لأن المستقبل عندها لم يكن معروفاً، أما الآن وقد مرَّ خمسةَ عشرَ قرناً، فمن الواضح لنا أن كل شيء قد تضمّنتهُ تلك الأسئلة وتنبأت بحدوثهِ وأكدّت صحتَهُ وكأنها لا تقبلُ الحذف أو الزيادة. فاحكم بنفسك إذاً من منكما كان مُحقّاً أنتَ أم سائِلُك؟ تذكّر السؤال الأوّل، وليكن معناه، وليس صيغتَهُ الحرفيّة: «تريدُ أن تذهب إلى

الناس، وها أنتَ تفعل ذلك خالي اليدين، إلا من وعدٍ بالحرِّيَة، هم بحكمِ بساطتهم وضعة منشئهم وفقرهم، لا يستطيعون فهمَه، بل يخافونه ويخشونه - لأنه ما من شيء كان أو سيكون صعب التحمّل بالنسبةِ للإنسان والمجتمع البشري كالحريّة. انظر، وهل ترى هذهِ الحجارة في صحراء وعرةٍ حارقة؟ حوّلها خُبزاً وسترى كيف تسيرُ البشريةُ إليك كقطيعٍ، حامِدةً فضلكَ، شاكرةً، ولكنَها ستظلُّ ترتجفُ أبَدَ الدهر مخافةَ أن تسحبَ يدك وتحرمها من خبزك». غيرَ أنكَ ما أردتَ أن تحرمَ الإنسان حُريّتَهُ، ورفضتُ العرض، فأي حُريّة تلك حين تكونُ الطاعةُ مُشتراة بالخبز، هكذا حَاكمتَ الأمر، وقد قُلتَ: ليسَ بالخبز وحده يَحيا الإنسان، فهل كنتَ تجهَل أن روحَ الأرضِ سينقلبُ عليكَ باسمِ هذا الخبز الأرضي نفسه، وسيُنازلكَ وينتصر عليك فيتبعَهُ الجميع هاتفين: «من ذا الذي يعدِلُ هذا الوحشَ، وقد وهبنا النارَ من السماء»[٦٢]، وهل تعلم أن قروناً ستمر تعلِنُ فيها البشريّةُ بحكمتها وعلمِها، أن لا وجودَ للشر، وبالتالي لا وجود للخطيئة، بل يوجد فقط جائعون!. «أطعمهم فستجعل منهم فاضلين» - هذا ما سيكتبونَهُ على راياتهِم، التي ستُرفَع ضدك، وبها سيقوّضونَ معبدك. وعلى أنقاضِه سيرتفعُ بناءٌ جديد، سيَرتفعُ برجُ بابل[٦٣] الرهيب ثانيةً، رُبّما لن يتمّ بناؤهُ كاملاً، مثلما كان الأمرُ في المرّةِ الأولى، ولكن كان باستطاعتك منذُ البداية ألا تسمحَ بذلك. وكنتَ قد خففتَ آلام الناس خلال ألفِ سنة، لأنهم بعد ذلك يعودونَ إلينا مُرهقينَ خلال ألفِ عامٍ من برجهم الذي حاولوا بناءَه! يبحثونَ عنّا في كهوفنا تحت الأرض «لأننا سنطارَدُ من جديد ونُعذّب»، سيجدوننا هناك وسيقولون لنا: «أطعمونا، فأُولئكَ الذين وعدونا بنار السماءِ قد خدعونا!»، وعندها سنبني نحن لهم بُرجَهم، لأن من يطعم الناس يستطيع وحدَه أن يبني، سنطعمهم نحن باسمِكَ أنت، وسنكذب عليهم، أن الأمر

باسمِك! لن يكون بإمكانهم على الإطلاق أن يأكلوا دوننا، ما من علم يستطيعُ أن يقدّم الخبز ما داموا يرغبونَ أن يمتلكوا حُرّيتهم، وينتهي بهم الأمر أن يحملوا حُرياتهم تلك ويلقونَ بها عند أقدامنا قائلين: «الأفضلُ أن تَستَعبدونا، ولكن أن تطعمونا»، سيفهمون في النهاية أن الحُرّية والخبز الأرضي لا يجتمعان معاً، ولن يُتاحَ لواحدهِم أن يَحْصَلَ على كفايتهِ من الخبز لأنهم لن يعدلوا في اقتسامهِ أبداً، وسيقتنعُونَ أيضاً أنهم لن يستطيعوا أن يكونوا أحراراً في يوم من الأيام، لأنهم ضعاف، فاسدون، وضيعونَ، عَاصون. لقد وعدّتهم بخبز السماء. لكنني أكررُ للمرّة الثانية، هل يقارَنُ بخبزِ الأرض في نظرِ هؤلاء البشرِ الضعفاء، الفاسدينَ أبداً، الوضيعينَ الأخساء؟ وإذا كان سيتبعُك الآلاف وعشراتُ الآلافِ باسم الخبز السماوي فما الذي سيكونُ من شأن الملايين، وعشرات آلاف الملايين من المخلوقات التي ليست من الإرادةِ بحيث تستغني عن الخبز الأرضي لقاء خبز السماء؟ أم أن ما يعنيك عشرات الألوف من الجبّارين الأقوياء فحسب، أما الملايين الباقية، الجموع الهائلة، كرمل البحر، من الضعفاء الذين يحبّونك، فهي لا تعني لك شيئاً، إلا بقدرِ ما تصلُح مادةً لأولئِكَ الجبارين الأقوياء؟ لا. نحن نرى هؤلاء الضعفاء أيضاً أعزاء. هم فاسدون، عُصاة، لكنهم في النهاية يصبحونَ مطيعين. وسيعجبونَ بنا، وسيُعَدّوننا أرباباً، لأننا سنوافقُ أن نحمِلَ عنهم عبءَ حُرياتهم، ونُسيطرَ عليهم - إلى هذهِ الدرجة في خاتمةِ المطافِ سيكرهونَ الحريّة! ولكننا سنقولُ لهم إننا نطيعُكَ أنت، ونحكمُهم باسمكَ أنت. سنكذب عليهم من جديد، لأننا لن نسمحَ لك أن تُفْسد الأمر بتدخّلك في شؤوننا. وفي كذبنا هذا سيتجلّى عذابُنا لكننا مضطرون للكذب، ذلكَ ما كان يعنيه السؤال الأوّل في الصحراء، وذلك ما رفضتَه لقاء الحُريّة، التي أعليتَها فوق كل شيء. وبالمناسبة فقد لخّصَ ذلك السؤال السِرّ الأكبر للعالم. فلو

أنكَ قبلتَ «الخبز»، لكنتَ لبيّتَ حاجةَ البشريةِ العامةَ والأبديّة، حاجة الفرد والجماعة معاً - وهي تتمثّلُ في: «لمن سننحني؟»، فما من همٍ مستمرٍ ومعذبٍ للإنسان - وقد ألقى حُرِّيَتهُ - أكثر من هم البحث عن شخصٍ يسجُدُ لَهُ. لكن الإنسان يبحَثُ - وهذهِ حقيقة مؤكدّة تماماً - عمن يسجدُ لَهُ، إذا وافقَ الناسُ جميعاً ودفعَةً واحدة أن يفعلوا ذلكَ معَه، لأن همّ هذهِ المخلوقات الضعيفة لا يتجلّى فحسب بالبحثِ عمّن يمكن أن أسجُدَ لَهُ أنا أو تسجدَ لهُ أنت، لكن أيضاً بإيجادِ من يؤمن الجميع بهِ، ويسجدونَ «لهُ معاً وسويّةً». إن رغبةَ العبادةِ «المشتركةِ» هذهِ تُعَدّ الهمّ المُعذّبَ الرئيسَ للفردِ وللجماعةِ منذُ الأزل. ولأجلِ هذهِ العبادةِ الجماعيّة أخذ الناسُ بعضهم بالسيف. صنَعَ البشَرُ آلهةً وراحوا يتصايحون: «اتركوا آلهتكم، وتعالوا اعبدوا آلهتنا، أولا فالموتُ لكم ولآلهتكم!» وهذا ما سيظلُ يحدُثُ حتى نهاية العالم، وحتى بعد أن تختفي الآلهة فستجدهم يسجدونَ أمام أصنام جديدة. لقد عرفت ذلك، ما كان لك أن تجهَلَ سِرّ الطبيعةِ البشريةِ الأساس. لكنكَ رفضتَ الرايةَ الوحيدة المطلَقة، التي قُدِّمت إليكَ، وكان بإمكانها أن تجعل الجميع يسجدونَ لك دونَ تردد - رفضت رايةَ الخبز الأرضي، باسمِ الحريّة والخبز السماوي. فانظر إذاً ماذا صنعتَ بعد ذلك. وكل شيء باسم الحريّة! أقولُ لك ما من همٍ معذبٍ للإنسان، كهمِ إيجادِ من يستطيع أن يقدّم إليهِ سريعاً هديةَ الحُريّة، تلك التي امتلكها هذا الكائنُ الضعيفُ بالولادة.

لكنَ من يستطيع أن يهدِّئ ضمائر الناس، هو الذي يستطيعُ أن يمتلكَ حُرِّياتهم. بالخبزِ كان لكَ أن تمتلكَ راية لا تُقهَر: أعطِ خبزاً، فينحني الإنسان لك، ما من شيء يُنافِسُ الخبز، ولكن في الوقت نفسه، إذا استطاع أحدٌ ما أن يملك على الناسِ ضمائرهم وهم يأكلونَ خبزك - فعندها سيرمونَ خبزك ويتبعونَه، وفي هذا كنتَ محقّاً، لأن سِرّ الوجود

البشري لا يتخلّص فقط في: أن نعيش، بل: لأي شيءٍ نعيش. فالإنسانُ لن يرغبَ بالحياةِ دون هدف، وقد يُدمّرُ نفسه، حتى ولو عاشَ في بحبوحة، الأمرُ هكذا لكن ما الذي حدث: حدثَ أنكَ عوضاً عن السيطرةِ على حُرّياتِ الناس ضاعفتَها لهم، وكأنك نسيت أن راحةَ البال وحتى الموت أغلى عند الإنسان من حُريّة الاختيار في معرفةِ الخير والشر! ما مِن شيء يخلبُ لبَ المرءِ كحريّة الضمير، ولكن أيضاً ما من شيءٍ معذّب لَهُ مثلها. وهكذا بدلاً من الأساس الراسخ لتهدئة ضمير البشرّية مَرّةً وإلى الأبد - قدّمت لها كل ما هو سِرّي وغامض وغير مُحَدد، كل ما هو فوق طاقة الناس، فبدوتَ وكأنكَ لا تحبّهم إطلاقاً - أنت الذي جئتَ لتفديهم بحياتك!

إنك بدلَ أن تمتلك حُريّاتِ البشر، وسّعتَها وضاعفتَها وأثقلتَها بعذاباتِ ملكوتِ الإنسانِ الأبدي. لقد رغبتَ أن يمنحكَ الإنسان حُبّه الحُرّ، وأن يتبعَكَ بكامل حُرّيته، مفتوناً ومأسوراً بك، وفي موضِع القانون القديم القاسي(٦٤) - وضعتَ قانوناً آخر، أصبح على الإنسان بقلبِهِ الحُرّ فحسب أن يميّز الخير من الشر، لا يملكُ من مُعينٍ إلا صورتك أمامَهُ - ولكن هل يُعقَل ألا تفكّر أن هذا الإنسان في خاتمة المطاف سينبذُ صورتكَ تلك، وسيشكُ في حقيقتك، حين يتعذّب بحملِهِ الرهيبِ، بحرّية الإرادةِ والاختيار التي منحتها لَه؟ إن البشر سيصرخونَ في النهاية أن الحقيقةَ ليست فيك، فما كان من المعقولِ أن تتركهم في اضطرابٍ وعذابٍ أشد، مما تركتهم فيه أنت، حين ألقيتَ عليهم كل تلك المشكلات التي لا حلّ لها، وعليهِ فقد وضعتَ بنفسكَ تلك الأسس التي ستؤدي إلى انهيار مملكتك، وما من مذنبٍ سواك فلا تتهم أحداً. لكن بالمناسبة، هل هذا ما عُرضَ عليك؟ هناك ثلاث قوى، فقط ثلاث قوى على الأرض، جبّارة تستطيعُ أن تنتَصرَ إلى الأبد على ضمير هؤلاء

العُصاةِ الضعاف، وتقيّدهُ لأجلِ سعادتهم - هذه القوى هي: المعجزة، السر، الهيبة. وقد نقضتَها جميعاً، وكُنتَ قدوةً للآخرين في هذا. عندما وضَعكَ الروحُ الحكيمُ الرهيبُ على حافةِ سطح المعبد وقال لك: «إذا كنتَ تريدُ أن تعرف هل أنت ابن اللهِ أم لا، اقفز إلى الأسفل، فقد قيلَ في هذا أن الملائكةَ ستتلقفهُ وتحملهُ سالماً فلا يسقط ولا يتحطّم، عندها ستعلم إن كنتَ ابن الله أم لا، وستبرهن على نوعيةِ إيمانك بأبيك»، ولكنّكَ رفضتَ هذا العرض ولم تقذف بنفسك إلى الأسفل، لقد تصرّفتَ باعتزازٍ وروعة كما يليقُ بإلهٍ، لكن هل تعتقد أن الناس، هؤلاء العُصاة الضِعاف آلهة أيضاً؟ لقد فهمتَ ساعتها أن قيامك بحركة واحدة، خطوة واحدة باتجاهِ إلقاء نفسك إلى الأسفل، سيعني إغراء الرب، وفقدانكَ الإيمان به، وبالتالي التحطّم على الأرض، التي جئتَ لتنقذها، وعندها كان الروحُ الذكيُ سيهلّل، وقد أغواك.

ولكنني سأكررُ من جديد، هل عددُ أمثالِك كثير؟ وهل كان بإمكانك في جوهر الأمر أن تتخيّل لدقيقة أن البشر يمكن أن يكونوا فوق مثل هذا الإغراء؟

هل تكوّنت طبيعةُ البشرية بصورة، تجعلُها ترفضُ المعْجزة، وتلجأ إلى الحُكمِ الحُر للقلب، في أحلك لحظاتِ الحياة، لحظاتِ الأسئلة الروحيّة الأساسيّة المُعذّبةِ، ولكنكَ كنت تعلم أن انتصارك هذا سوف يحفظُ في الكتب، ويبلغُ أعماق الزمن القادم. وآخر حدود الأرض، وأمِلتَ أن الإنسان سيقتدي بك، ويبقى مع الله دون حاجةٍ للمعجزات، غير أنكَ لم تكن تعلم أن الإنسان بمجردِ نقضهِ المعجزة، ينقضُ الرب، لأنهُ متعطشٌ إلى المعجزات ويبحثُ عنها أكثر من بحثِهِ عن الله، وهو لا يستطيع أن يبقى دونها، وسيخلق لنفسه معجزة، ويلجأ إلى سحرِ الساحراتِ ولو كان عاصياً وملحداً مئة مرّة!

أنتَ لم تترجّل عن الصليب، حين صاح بك الجمهور ساخراً: «انـزل عـن الـصليب، كـي نـصدّق أنـكَ أنـت»[٦٥]. لم تفعل لأنـكَ أردتَ مـن جديـد أن تستعبدَ الإنسان بالمعجزة، وانتظرتَ منهُ الإيمان الحُر، لا إيمان المعجـزات. انتظـرتَ منـهُ الحب الحُـر، لا الحـب النـابع مـن المعجـزة، حـب العبـد الـذي أذهلته وأرعبته المعجـزة إلى الأبـد. وهنـا أيضاً قَدّرتَ البـشرَ أعلـى ممـا هـم عليه، لأنّهم ليسوا أحراراً، وإن كـانوا قـد خلقـوا علـى المعـصية. انظـر مـن حولـك واحكـم، هـا قـد مـضى خمـسةَ عشْرَ قرنـاً، اذهـب وانظـر بنفـسك إليهم، إلى من رفعتهم إلى مرتبتك؟ أقسمُ لـك إن الإنـسان قـد خُلِقَ أضـعفَ وأوضَعَ مما ظننتَ! هل يستطيع، هل يستطيع هو أن يحقق مـا حققتَهُ أنـت؟ إنك من حيث احترمتَه ذلك الاحترام كُلّه، توقفتَ عن العطفِ عليهِ، لأنكَ حَمّلتَهُ فـوق طاقتـه، أنـتَ نفـسك الـذي أحببتَـهُ أكثـر مـن ذاتـك، لـو أنـكَ قدّرتَهُ أقل مما فعلت، لطلبتَ مِنهُ أقل مما طلبت، ولكـان هـذا أقـربُ إلى الحب، ولكـان حَمْلُهُ أيسر. إن الإنسان ضعيفٌ وضيع. ما الـذي يفعَلُه الآن، بتمرّدِهِ في كل مكـان على سلطتنا، وباعتزازِهِ بـذلك؟ هـذا اعتـزازُ طفـل، غـرور تلميـذ. النـاسُ أشـبهُ بأطفـال صـغار ثـاروا في الـصفِ علـى معلّمهـم وطردوه. لكن لفرحةِ هؤلاء الصغار نهاية، وسيدفعون ثمنَها باهظاً، سوف يـدمّرونَ المعابـد ويـسفحونَ الـدماءَ فـوق الأرض. ولكـنهم سـيدركونَ في النهاية، سيدركُ هؤلاء الصبية الأغبيـاء، أنهم وإن كـانوا متمـردين، فهـم متمردونَ ضعفاء، وضعفهم هـذا لـن يـسمَحَ لهم بـالتمرّدِ طـويلاً وسيعترفونَ وهـم يذرفونَ الدموعَ الغبيّة، أن من خلقهم عُصاة، أرادَ بـلا شـك أن يـسخَرَ منهم، سيقولون هذا بحزنٍ عظيم، وسيـكونُ قـولهم تجـديفاً، يجـرُّ عليهم المزيد من الشقاء، لأن من جوهـر الطبيعة البشريّة، ألا يقـدر الإنسانُ علـى تحمّل الكفر والتجديف، وسيكون مـن شـأنها في نهايـة المطـاف أن تنـتقم منهُ بالتأكيد وهكذا، القلقُ، العذاب، التخبّط - هـي مَصيرُ البـشر الآن

بعد كل ما عانيته لأجلِ حُريّتهم! لقد قالَ رسولُكَ الكبير[٦٦] في رؤياه أنه أبصرَ جميع المشتركين في البعث الأوّل، وكانوا أسباطاً يتألفُ واحدها من اثني عشر ألفاً، وعلى الرغم من عددهم الكبير هذا، فقد كانوا أقرب إلى الآلهة منهم إلى البشر. وقد تحمّلوا صليبَك، وعشرات السنوات من الجوع والعُري في الصحراء الجرداء، اقتاتوا خلالها بالجذورِ والجراد - ولك طبعاً أن تعتزّ بأبناء الحريّة هؤلاء، أبناء المحبّة الحُرّة، الذين ضحّوا تضحيتهم الرائعة والحُرّة في سبيلك. ولكن تذكّر أن عدد أولئك لم يتجاوز بضعة آلاف، وإلى ذلك هم آلهة، فماذا عن الآخرين؟ ما ذنبُ الضعفاء الباقين، إن لم يستطيعوا أن يتحملّوا ما تحمّله أولئكَ الجبابرة؟ ما ذنبُ تلك الروح الضعيفة التي، لم تكن من القوّة بحيث تتحمّل كل تلك العطاءات الرهيبة؟ أتراكَ قد بُعثتَ إلى صفوة من الناس ولأجلهم فقط؟ فإن كان الأمرُ كذلك، فلا بُدّ أن في القضية سراً لا يُتاح لنا أن نعرفه، ومن حقنا عندها أن نلجأ إلى السر، وأن نعلّم البشر أن الأهم هنا ليس المحبّة، وليسَ قرار القلب الحر، بل السر، الذي يجب على الناس جميعاً، أن يخضعوا لَهُ كالعميان، على الرغم من ضمائرهم. وهذا ما فعلناهُ نحن. لقد أصلحنا مأثرتك وأسسناها على «المعجزة، السر، الهيبة».

ففرحَ الناس، أنهم عادوا يقادون كالقطيع من جديد، ونزعت من قلوبهم أخيراً تلك العطاءات الرهيبة، التي حَمَلتْ لهم عذابات لا تُقدّر. فقل الآن ألم نكن محقين فيما قلناهُ وعلّمناه للناس؟ أترانا ما أحببنا البشرية، حين اعترفنا بإذعان كبير بضعفها، وحين خففنا أحمالها بمحبّة، حتى فيما يخص الخطيئة، لمعرفتنا بالطبيعة البشرية وضعفها، وعلى أن يكون الأمْر بمعرفتنا واستئذاننا؟ فلماذا جئتَ الآن تعرقلُ عملنا؟ ما بالك تنظرُ إلي صامتاً بعينيكَ الرقيقتينِ النفّاذتين؟ اغضب، أنا لا أريدُ محبّتك، لأنني

أنا نفسي لا أحبّك. وما الذي أستطيع أن أخفيه عنك؟ ما دمتُ أعرفُ إلى من أتحدّث! وهكذا فكل ما يمكن أن أقوله لك، معروفٌ من قبلك سلفاً، أنا أقرأُ ذلك في عينيك. فهل أخفي سرّنا عنك؟! رُبّما كنت تُريد أن تسمع ذلك من شفتي؟ إذاً فاسمَع: نحنُ لسنا معك، «بل مَعَهُ هو»، هذا هو سرُّنا! نحنُ منذُ زمن طويل لسنا معك، بل «مَعَهُ»، ومنذ سبعة قرون[٦٧]. تماماً منذ سبعة قرون حين أخذنا منهُ، ما رفضتَهُ أنتَ باستياء، أقصدُ تلك الهبة الأخيرة التي عرضها عليك وهو يشيرُ إلى ممالك الأرض كلّها: لقد أخذنا منهُ روما وسيف القيصر، وأعلنا أنفُسَنا ملوكَ العالم الوحيدين، على الرغم من أننا إلى الآن لم يكن لدينا من الوقت الكافي لننجزَ عملنا كاملاً. فمن المذنب؟ إن هذا العمل لا زالَ في بدايته حتى الآن، لكننا قد بدأنا.

طويلاً سننتظرُ انتهاءَهُ، وكثيراً ستعاني هذه الأرض، لكننا سنصلُ ونصبحُ قياصرة العالم وعندها سنفكّر بسعادةِ الناسِ الكونيّة الشاملة.

وبالمناسبة لقد كان بإمكانك أنت ومنذ ذلك الوقت أن تأخذ سيفَ قيصر فلماذا رفضتَ تلك الهديّة الأخيرة؟ لو أنكَ قبلتَ نصيحةَ الروحِ العظيم الثالثة لحققتَ كل ما يمكن أن يتمناهُ الإنسان على سطح البسيطة؟ بمعنى معرفة: أمامَ من سينحني، وإلى من يُسلِمُ ضميرَه وكيف يوحّدُ جميع الناس في خليّة جامعةٍ مانعةٍ كخليّة نمل، لأنَ حاجة الوحدة الشاملة هي الأمر الثالث وآخر عذابات الإنسان الشاغلة، لقد حاولت البشرية عبر الزمنِ أن تنظّم نفسها وعلى أساسٍ ثابت وشامل. وقد عرفنا أمماً عديدة وعظيمة صنعت لنفسها تاريخاً مجيداً. لكنها كانت شقيّة بمقدار نبلها الكبير، يوم أحسّت أكثر من سواها بحاجة البشرية إلى الوحدة الشاملة.

إن الغزاة الكبار من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان[٦٨]، أولئكَ الذين طاروا كزوبعة، كإعصار في الأرض، محاولينَ احتلالَ العالم، حتى هؤلاء - ودون أن يعوا ذلك - عكسوا حاجة البشرية العظيمة تلك إلى وحدة الإنسانيّة الشاملة، فلو أنكَ قبلتَ عالمَ القياصرةِ ومقامهم، لكنتَ أسستَ مملكة الأرض الشاملة، وحققتَ الاستقرار العالمي. فعلى من يقع في نهاية المطاف عبءُ حكم الناس، إن لم يقع على من يملكونَ ضمائرهم ويقبضونَ بأيديهم على خبزهم. نحنُ أخذنا سيف قيصر، وبذلك أنكرناكَ «وتبعناه». ستمرُّ قرونٌ طويلة من عربدةِ العقل البشري الحر، والعلم البشري، وأكل لحوم[٦٩] الناس، فما داموا قد بدؤوا ببناء برج بابل دوننا نحن، فسيصلون إلى أكل لحوم بعضهم، وعندها سيأتي الوحشُ إلينا زاحفاً لاعقاً أقدامنا، التي سيغسلها بدموعِهِ الدامية، فنعتليه، ونرفع عندئذ كأساً نقشت عليهِ كلمة: «السر»[٧٠]، وساعتها فقط، ساعتها يحلُّ على الناس ملكوت السلام والمَسرّة. إنكَ تعتزُّ بالنخبةِ التي اخترتَها، ومعكَ فقط هؤلاء، لكن نحن سنقدّمُ الطمأنينة للجميع. وما سيحدث أيضاً: أن كثرةً من نخبتك تلك، أولئكَ الجبابرة الذين استطاعوا أن يصبحوا مختارين من قبلك، سيتعبونَ في النهاية من انتظارك؟ ومن حملِ قوّة روحك، وحرارةِ قلبك، سيتعبونَ من الانتظار العبثي وسيرفعونَ ضدكَ راية «حريتهم». راية الحريّة التي قَدّمتها لهم بنفسك.

أما معنا فسيكون الجميع سعداء، ولن يتمرّد علينا أحد، ولن يبيد بعضهم بعضاً كما يحدثُ في ظل حُرّيتك في كل مكان. سوف نقنعهم أنهم لن يصبحوا أحراراً إلا عندما يتخلّونَ عن حريتهم لنا، ويخضعون لنا. هل سنكون عندها صادقين في قولنا هذا، أم كاذبين؟ بأنفسهم سيقتنعونَ بأننا صادقون وعلى حق، عندما يتذكرونَ إلى أي عبوديّة وبلبلة قادتهم حُرّيتُك.

إن الحريّة، والعقل الحُر، والعلم، أشياء تقودُ البشر إلى الأدغال، تجعلهم يقفونَ قبالةَ عجائب وألغاز لا حلَّ لها، فإذا بالعُصاةِ الجبابرة يدمرونَ أنفسَهُمْ والمتمردين الضعفاء يقتلُ بعضهم بَعضاً، بينما سيزحَفُ الأشْقياء، والذين لا حولَ ولا قوّة لهم نحو أقدامنا وهم يرددون: «بلى، لقد كنتم على حق، أنتم وحدكم ملكتم سرّه، إننا نعودُ إليكم، أنقذونا من أنفسنا!» ، وحين يستلمونَ الخبزَ من أيدينا سيرونَ بوضوح، أنه خبزهم الذي أخذناهُ منهم وقد أنتجوهُ بأنفسهم، أخذناهُ لنوزّعه عليهم، دون أي معجزات، وسيرون أننا لم نحوّل أي حجارة إلى خبز، ما فعلناهُ في الحقيقة هو أننا وزعنا لهم خبزهم نفسه. ولكنهم سيكونون سعداء لأننا أطعمناهم بأيدينا، فهم يفهمونَ تماماً أن ذلك الخبز، وقبل ذلك، دوننا نحن كان يتحوّل بين أيديهم إلى حجارة. وسيثمّنون عَالياً، مَرّةً وإلى الأبد، معنى أن يخضعوا ويطيعوا! وما دامَ البشر لا يدركون هذا الأمر، فلن يصبحوا سُعداء. لكن من ساهم أكثر من الجميع في قلّةِ الاستيعابِ والفهم هذهِ، قل لي؟ من ذا الذي بعثَرَ القطيع وشَرّدَهُ في طرقٍ مُهلكة؟ حسناً القطيعُ سيجتَمعُ ثانيةً، وسيعودُ إلى الطاعةِ ولكن هذهِ المَرّة إلى الأبد. وعندها سنمنَحُ هذهِ الكائنات الضعيفة سعادةً هادئة وادعة، تُلائِم طبيعتهم. وسنقنعهمُ أخيراً ألا يزهوا بأنفسهم ويتفاخروا، كما كنتَ من قبل قد رفعتَ من شأنهم وَعلّمتهم ذلك. سنبرهن لهم أنهم ضعفاء، أطفال مساكين، أن سعادة الأطفال على الرغم من ذلك هي الأحلى، سيصبحون خجولين، وسينظرونَ إلينا، نظرتهم إلى أمثلة تُحتذى، وسيلتصقون بنا مرعوبين كما تلتصقُ فراخ الطير بأمهاتها. سيشعرونَ بالدهشةِ والرعبِ منّا، وسيفخرونَ بأننا أقوياءَ وأذكياءَ، وأننا استطعنا أن نسيطرَ على هذا القطيع البشري الهائل المكوّن من آلاف الملايين من الناس. سوف يرتعشونَ بضعفٍ أمامَ غضبنا، تُشلُّ عقولهم، وتمتلئُ عيونهم بالدموع كالأطفالِ

والنساء، غير أنهم وبإشارتنا سينتقلونَ بسهولة إلى حالةٍ أخرى من الفرحِ والحبور ضاحكينَ مهللينَ، مغنينَ كالأطفال الصغار. سنجعلهم أيضاً يعملونَ... رغماً عنهم! وبالمقابلِ في ساعاتِ عطلتهم، سنبني لهم حياةً كلعبةِ الأطفال، فيها من الأغنياتِ البسيطة، الجوقات، الرقصات البريئة، وسنسمَحُ لهم بارتكابِ الخطيئة، فهم ضعفاء وأشقياء. وسيحبوننا كالأطفال، لأننا سمحنا لهم بارتكاب الإثم. سنقول لهم إن كل إثم يمكن التوبة عنه إذا تَمّ بموافقتنا، سنسمَحُ لهم أن يأثموا لأننا نحبّهم، أما القصاص فسنأخذُهُ على عاتقنا، وعندها سيحبوننا بشكلٍ لا يوصف فنحن مُخَلّصونَ لهم، ما دمنا نحملُ على عاتقنا أمامَ الرب أخطاءَهم. ولن يفصلهم عنا ساعتئذٍ أي سر. سنسمَحُ لهم أن يعيشوا مع زوجاتهم أو عشيقاتهم، وأن ينجبوا أولاداً أو لا ينجبوا - كلٌّ وفقَ مقدار طاعتِهِ - وسيتبعونَ توجيهاتنا بسرور وسيكشفونَ لنا أسرارهم وما يعذّبُ ضمائرهم، وسنحكُمُ في أمورِهم ونفصِلُ فيقبلونَ حلولنا سعداءَ بها، لأنها ستُلقي عن عواتقِهم القلقَ والعذابَ العظيمين، اللذين ينتابان المرءَ حين يحاولُ اتخاذَ قرارٍ ما بشكلٍ ذاتي حُر.

وسيصبحُ الجميعُ سعداء، جميعُ تلك الملايين من المخلوقات، ما عدا بضع مئاتِ الألوف الذينَ سيقودونهم، نعم نحن فقط لن نكون سُعداء، لأننا حفظةُ السِر. سيكونُ هناك آلافُ الملايين من الأطفال السُعداء، ومئةُ ألف معذّبٍ فحسب، مِمن سيحملون في أعناقهم لعنةَ معرفةِ الخير من الشر. سيموتُ أولئكَ البشر بهدوء، سينطفئونَ باسمِكَ براحةٍ ووداعة، ولن يجدوا بَعدَ القبرِ إلا الموت. ولكننا سنحتفظُ بالسر، ولأجلِ سعادتهم سنجتذبهم بهدايا السماءِ الخالدة والأبديّة، مع علمنا أنهُ لو كانَ هناك شيءٌ ما في الحياة الآخرة، فلن يكونَ من نصيبهم هم. يقولونَ ويتنبؤونَ أنكَ ستعود وستنتصرُ من جديد، ستعودَ بأصحابكَ الذين اخترتهم، أولئكَ

الأعزّاء الجبابرة، ولكننا سنقولُ ساعتها إن أصحابك أولئك إنّما أنقذوا فقط أنفسهم، أما نحن فقد أنقذنا الجميع. يقولون إن تلكَ الزانية التي تعتلي ظهر الوحش[أ]، وتحملُ بيدها «سِرّها» ، ستُجلّلُ بالعار، وسيثورُ الضعفاءُ من جديد، فيمزقونَ عن جسدها «القذر» رداءَها الفخم، ولكنني سأنهضُ ساعتها وأُريكَ مليارات الأطفال السُعداء، الذين لا يعرفون الإثم، ونحنُ الذين أخذنا عنهم أخطاءَهم لأجلِ سعادتهم، وسنَقف يومَها أمامك لنقولَ لك: «احكم علينا، إن كنتَ تستطيع، إن كنتَ تملك الشجاعة!» اعلم أنني لا أخافك، اعلم أنني عشتُ في الصحراء أيضاً وتغذّيتُ على الجذور والجراد، وقدّستُ الحُريّة، التي وهبتَها أنت للبشر، وتهيأتُ لأدخُلَ في عداد صفوتكَ المُختارة، عداد الأقوياء والجبابرة، مُتعطّشاً «لإكمالِ العَدد» ولكنني صحوتُ ورفضتُ أن أخدمَ الجنون. لقد رجعتُ وانضممتُ إلى صف أولئكَ الذين يُريدونَ «إصلاحَ مأثرتك». لقد هجرتُ جماعة العِزّةِ والكبرياء، وانضممتُ إلى صفِ الودعاء لأجلِ تحقيق سعادتهم. ما أقولُهُ لك سيتحقق، ومملكتُنا ستُبنى. وأكررُ لك: غداً سترى بأم عينيكَ ذلك القطيع المطيع وهو يندفعُ بإشارةٍ صغيرةٍ مني كي يضرمَ النارَ لأجلك، ويُلقي الحطبَ الكثير ليشتدَّ اضطرامُها، في الموقد الذي سأحرِقُكَ فيه لأنكَ أتيتَ تعيقُ عَملنا، فإن كان من يستحقُ أن يحرقَ أكثر من غيره، فهو أنت. غداً سأحرقك. Dixi[ب]

توقّف إيفان. وكان قد اشتعَلَ حَماسةً وهو يتحدّث، تحدث باندفاع، حتى إذا أنهى كلامَهُ ابتسمَ فجأةً.

أ- هذهِ الصورة وردت في رؤيا بولس الرسول - الإصحاح السابع عشر. /المترجم/

ب- قد قلت - باللاتينيةِ في الأصل.

كان أليوشا قد استمعَ إليهِ صامتاً، ولكنّه في نهايةِ الحديثِ حاولَ مراراً أن يقاطِعَ أخاه، وقد طغى على نفسِهِ اضطرابٌ شديد، إلا أنه تمكّن من كبح جماحِ نفسه حتى النهاية، ثُمّ ها هو ذا ينفجرُ صائحاً وقد علت الحُمرة وجهه:

- ولكنَ... ما قلتَهُ سخافة! إن قصيدتكَ تمدَحُ المسيح، من حيث أردتَ لها أن تذمّه. ومن يُصدّقُ ما قُلتَهُ عن الحريّة؟ أهكذا يجب أن تُفهَم؟! أهكذا تفهَمُ الكنيسَةُ الأرثوذكسية الحُريّةَ؟! لا. إنّها روما. بل ليس كل الذين يدينونَ بالكاثوليكيّة الرومانيّة - من الخطأ أن نتصوّر ذلك، إنهم من الأشرار الكاثوليك فحسب، إنه تصوّر أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين! ثم من الاستحالةِ أن يوجَدَ وجه فانتازي، كهذا الذي رسمتَه لمفتشكَ الأكبر، ما هي تلك الأخطاء البشرية التي يزعم أنه حمَلها عنهم؟ وأين حَملةُ السِر الذين يحملونَ لعنةً ما لأجلِ إسعادِ الناس؟ متى ظهَرَ هؤلاء؟ نحن نعرف اليسوعيين، وقد قيل عنهم أشياء سيئة كثيرة، فهل هم الذين وصفتَهم؟ ولكنّهم ليسوا كما وصفتهم على الإطلاق، على الإطلاق... إنّهم ببساطة جيش روما لتحقيق مملكةِ الأرضِ القادمة وعلى رأسها الإمبراطور - وهو حبر روما الأعظم... إنّهُ مثالُهم، ولكن دونَ أي أسرار أو حزنٍ نبيل... إنهُ أبسطُ أشكالِ الشهوةِ إلى السلطة، إلى الثمارِ الأرضيَةِ الحقيرة، إلى استعباد البشر... إنهُ نوعٌ من نظام القنانة القادم حيث يصبحونَ سادةً ملاّكين.. ذلكَ ما يطمحونَ إليه. إنّهم لا يؤمنونَ بالرب.. وليسَ مفتّشُكَ الأكبر ذاك إلا محض فانتازيا!

- توقّف... توقف! - قالَ إيفان ضاحكاً - لماذا كل هذه الحماسة. تقول فانتازيا. ليكن. بل طبعاً فانتازيا! لكن اسمع لي: هل تعتقدُ حقّاً أن الحركة الكاثوليكيّة في القرون الأخيرة لا تمثّل إلا الشهوة إلى

السلطة، إلى ثمار الأرض الحقيرة؟ أليسَ الأب بابيسي من علّمك ذلك؟

- لا. لا. بالعكس الأب بابيسي قالَ ذات مَرّة كلاماً يشبهُ كلامك... لكن طبعاً ليس نفسه.. بالتأكيد ليس كلامك نفسه - استدركَ أليوشا فجأةً.

- هذا اعتراف ثمين منك بغض النظر عن قولك «بالتأكيد ليس كلامك نفسه» كيف يمكنكَ أن تُصدّق أن من تتكلم عنهم من المفتّشين واليسوعيين اتحدّوا لأجلِ امتلاكِ العطايا الماديّة الحقيرة فحسب؟ لماذا لا يكون قد ظَهَر بينهم ولو مُعذّبٌ واحد، عذّبَهُ حزنٌ نبيل عظيم واستبدَ بنفسهِ حب البشرية؟ انظر: لنفرض أنّهُ وجد رجلٌ واحد فقط في عدادِ أولئكَ الطامعين بالخيراتِ الأرضيّةِ والماديّة الحقيرة، رجلٌ واحد، يشبهُ مُفتّشي الأكبر العجوز، عاشَ في الصحراء، واقتاتَ مثلَهُ جذور النباتاتِ والجراد، وعذّب جسدَهُ، وأضناه لكي يجعل نفسَهُ حُرّاً وكامِلاً، ولكن فجأةً هذا الرجل الذي أحب الإنسانية طوال حياته يقتنع أن النعمة النفسية التي تتحققُ بسمو الإرادة ما هي إلا وهم حين تكون حياةُ ملايين المخلوقات الأخرى، وهي مخلوقات الله أيضاً رهن سخريةٍ لإذاعة مفادها أن هذهَ المخلوقات لن تستطيع أبداً أن تتصرّف بحريتها، وأنها كمخلوقات عاصية مسكينة لن يتحقق لها السمو والنهوض جبّارة قادرة على إكمال بناء البُرج... وأن ذلك الحالم الكبير الذي تخيّل وحلُمَ بالهارمونيا القادمة لم يكن يعني بها هذا النوع من الإوز!... تخيّل أن هذا الرجل أدرك كل ذلك فعادَ إلى رُشده وانضمَّ إلى الناس الأذكياء. ألا تعتقد أن مثل هذا الأمر ممكن؟

- إلى من انضم؟، ومن هم هؤلاء الأذكياء؟ - قال أليوشا بحدّة - لا ذكاء لهؤلاء على الإطلاق، وما من سرٍ أو ما يشبه السِر لهم! إنهم مجرد

زنادقة... وهذا هو كلُّ سرِهم. ومفتّشكَ ذاك لا يؤمن بالله.. وهذا هو جوهر سِرّه!

- ليكن ما تراه! لقد فهمتَ أخيراً. وفي الحقيقة هذا هو الأمر، حقيقةً في هذا يتلخّصُ كل السر، لكن أليسَ هذا عذاباً، على الأقل لمثل هذا الرجل الذي أفنى حياتَهُ كلها في الصحراء لأجلِ تلكَ المأثرة ولم يستطع أن يبرأ من محبة الإنسانيّة؟

وفي أيامِهِ الأخيرة أيقن بوضوح أن نصائح ذلك الروح الرهيب وحدها تستطيع أن تنظّم حياة أولئكَ المتمردين الضعاف، حياة تلك «المخلوقات التي خُلقت كتجربة غير كاملة، كتجربة ربّانية ناقصة، كسخرية...» وهكذا مُدركاً ما سبق قَرّر أن يسير على هَدي ذلك الروح الذكي، الروح الرهيب، روح الموت والدمار، راضياً لأجل ذلك أن يستخدم الكذب والخداع في قيادة الناس عن وعي إلى الموت والدمار، مضللاً إياهم طوال الطريق، كي لا ينتبهوا إلى أين يسيرون، ومحاولاً في الطريق أن يجعل هذهِ المخلوقات العمياء الضعيفة والمسكينة تعتقد أنها سعيدة!

لاحظ أنه مضطر للكذبِ باسم ذلك الذي أتخذهُ مثلاً أعلى وآمن بهِ بقوّة طوال عُمره! أليسَ هذا عذاباً برأيك؟ فلو أن واحداً مثل هذا وجدَ في رأس ذلك الجيش «الظامئ إلى السُلطة، لأجلِ الملذاتِ الدنيويةِ الحقيرة» أما كان وجوده - أو وجود واحد فقط من هذا النوع - قادر على خلقِ تراجيديا؟ وأكثر من ذلك: تكفي شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة، كي تبعَثَ في الكاثوليكيّة الرومانية روح عليا، كي تنفخ فكرة دافِعة في فرقِها المختلفة وكهنتها ويسوعييها. إنني أقولُ لك بصراحة: أنا أؤمن بقوّة أن مثل هذا الرجل وجد دائماً في رأس حركة الكنيسة، وربّما وجد بين الباباواتِ أنفسهم ومن يعلم؟! ، رُبّما كان ذلك

العجوز اللعين الذي يُصرّ بشدّة على حب الإنسانيّة موجوداً الآن، وليس مجرد مصادفة، مع ثُلّةٍ من أمثاله، وعلى شكلِ جمعية سريّة تأسست منذُ زمن للحفاظ على السِر، وعدم إفشائِهِ إلى الضعفاء. بهدف تحقيق السعادة لهم، لا بُدّ أن الأمر على هذهِ الصورة. ويخطرُ لي أن لدى الماسونيّة حتى شكلٌ من أشكالِ هذا السر[٧١]، في جوهر بنيتها، ولهذا نرى أن الكاثوليكيين يكرهون الماسونية كثيراً، لأنهم يرون فيها مُنافِساً يسيءُ إلى وحدةِ الفكرة، في حين يجب أن يظلّ القطيع واحداً، والراعي واحد[٧٢]... وعلى العموم فأنا ألاحظ أنني بدفاعي عن فكرتي أبدو كمؤلفٍ عاجزٍ عن احتمالِ ما توجهُهُ من نقد، ولهذا تعالَ نتوقف عن هذا الحوار.

- رُبّما تكون أنت ماسونياً إذاً - أفلتَ سؤالَ أليوشا فجأةً - أنتَ لا تؤمن بالله - أضافَ بلهجةٍ تشي بحزنٍ عميق هذهِ المرّة. وبدا لَهُ أن أخاه ينظرُ إليهِ بسخرية - كيف تنتهي قصيدتك؟ - سأل أليوشا فجأةً وهو ينظرُ إلى الأرض - أم أنها انتهت؟

- لقد أردتُ أن أُنهيها هكذا: لقد تحدّث المفتش طوال الوقت بلا انقطاع وانتظرَ من سجينهِ أن يقول شيئاً. كان صمتُ السجين يثقلُ عليه، وقد اكتفى بالتحديق بهِ بصورةٍ رقيقةٍ ولكن نفّاذة، عازماً بوضوح على ألا يدخَلَ مَعهُ في سجال. كان العجوز يرغَبُ لو أن السجين يردُّ عليهِ ولو بكلماتٍ رهيبةٍ لاذعة. ولكنهُ نهض فجأةً، اقتربَ من العجوز وطبعَ على شفتيهِ التسعينيتين الخاليتينِ من الدماء قُبلةً هادئة. هذا هو الجواب كلّه. ارتعش العجوز، واختلجت شفتاهُ.. اقتربَ من الباب فتحه وقال للسجين وهو يشيرُ بيدهِ «إلى الشوارع المعتمة المقفرة في المدينة»[٧٣]: «اذهب، ولا تعد بعد الآن.. لا تعد أبداً... أبداً!». ويخرجُ السجين.

- والعجوز؟

- لقد أحرقت القبلةُ قلبَه، ولكنّهُ يبقى على موقفه.

- وأنتَ مَعهُ أليسَ كذلك؟ - بمرارة صاحَ أليوشا، فضحكَ إيفان قائلاً:

- كل هذا مُزاح يا أليوشا، ما بك؟ إن هي إلا قصيدة سخيفة، لتلميذٍ سخيف، لم ينَظم من قبل ولو بيتينِ من الشعر، فلماذا تأخذ الأمر بكل هذا الجد؟ ألا تعتقد أنني من لحظتي هذه سأذهب إلى اليسوعيين، فأنضّم إلى صفوف أولئكَ الذين يزعمونَ أنهم سيصلحونَ «مأثرتَهُ»؟ ربّاه! ما الذي يَعنيني في كل هذا! لقد سبق وأخبرتك أن ما يهمّني هو أن تستمر حياتي حتى أبلغَ الثلاثين وبعدها أكسِرُ الكأسَ على الأرض!

- والوريقات الخضراء الغضّة، والقبور الغالية على قلبك، والسماء الزرقاء، والمرأة المحبوبة! كيف ستستطيع أن تحيا، وبأي شيء ستحبّ كل ذلك؟ - بمرارةٍ قال أليوشا - وهل ستتمكن أن تحب مع كل هذا الجحيم في قلبك وعقلك؟ لا. أنت ستخرجُ بالتأكيد لتنضم إليهم... وإن لم تفعل فستنتحر.. إنكَ لن تصمد!

- هناك قوّة ستجعلني أصمد أمام كل شيء! - قال ذلك بابتسامةٍ باردة.

- أي قوّة؟

- قوّة آل كارامازوف.. قوة الوضاعةِ والخسّة الكارمازوفيّة!

- إنه الغرقُ في الفجور إذاً. أتخنق روحكَ في مهاوي الجسد؟ أهذا ما تريده؟

- ربّما.. وقد أستطيع أن أتحاشى ذلك حتى الثلاثين من عُمري، وبعدها...

- كيف ستتحاشى الأمر؟ بأي شيء؟ لا هذا مستحيل مع أفكاركَ تلك.

- سأفعَلُ بقوّة آل كارامازوف أيضاً.

- هل يعني هذا أن «كل شيء مباح»؟ كل شيء، أهذا ما تعنيه؟

عبس إيفان، ثُمّ شحُبَ لونه فجأةً:

- آه، هَل تلتقط الآن تلك الفكرة التي عبّرتُ عنها البارحة عند شيخك، فأغضَبَتْ ميوسوف... وتلقّفَها الأخ ديمتري؟ - ابتسمَ بتكلّف، وتابع - نعم، أعتقد «كل شيء مباح» ما دامت العبارة قد قيلت ونقلتَها. لن أتراجَع. وحتى صياغة ميتا هذهِ للفكرة ليست رديئة.

نظر إليه أليوشا بصمت، بينما استأنفَ هو حديثه بشيءٍ من الانفعال:

- لقد كنت أعتقد يا أخي أنني حين أسافر، سأحتفظ في هذهِ الدنيا بك أنت على الأقل، وأرى الآن أنهُ لم يعد لي مكان في قلبك، يا عزيزي الزاهد. عن فكرتي «كل شيء مباح» أنا لن أتراجع، ولكنكَ بسبب فكرتي هذهِ ستتنكرني، أليس كذلك؟

نَهضَ أليوشا واقتربَ من أخيه ثُمَ طبعَ بهدوءٍ وصمت قبلةً على شفتيه. فهتفَ إيفان وقد تحوّل فجأة إلى غبطةٍ وحماسة:

- هذه سرقة أدبيّة، لقد سرقت هذا من قصيدتي، لكن شكراً لك. انهض الآن يا أليوشا، فقد آن لنا نحن الاثنين أن ننصرف [...]

مقتطفات من حياة الكاهن الراهب الشيخ زوسيما[٧٤] وضعها نقلاً عنه ألكسي فيدوروفيتش كارامازوف وقائع من سيرته الذاتية

ب- عن أثر الكتاب المقدس في حياة الأب زوسيما:

[...] من لا يؤمن بالله، لا يؤمن بشعبِ الله. أمّا من آمن بشعبِ الرب، فستتجلّى لَهُ قداستُهُ، حتى ولو لم يخطر ذلك ببالِهِ على الإطلاق. إن الشعب وقوته الروحيّة الأكيدة هما القادران على إعادةِ مثقفينا الملحدين - الذين أصبحوا غرباء عن أرض آبائهم - إلى الطريق القويم. ما قيمةُ كلمةِ المسيح دون مثالٍ يُحتذى؟ إن الشعب سيهلك دون كلمة الرب، وهو متعطشٌ بالتأكيد إليها، وإلى المثل العليا المختلفة. في شبابي، منذ زمنٍ بعيد لا يقل عن أربعين سنة، طفت مع الأب أنفيم روسيا كلها نجمع الحسنات لديرنا، وذات مرة قضينا الليل على شاطئ نهرٍ كبيرٍ صالحٍ للملاحة، مع مجموعة من الصيادين، وقد جلس بينهم شاب وسيم، فلاح، يبدو في الثامنة عشرة من عمره، وكان يستعجل الالتحاق بعمله في اليوم التالي، لجر سفينةٍ تجاريةٍ. كنت ألاحظه ينظر أمامه بصفاء ووضوح. ليلة تموزية مضيئة، هادئة ودافئة، النهر عريض، تتصاعد الأبخرة منه فتبعث فينا الانتعاش، بنعومة تتبجسُ سمكةٌ من الماء بين الحين والآخر، والعصافير صامتة، لكأن الطبيعة كلها تصلي صامتة لله في هذا السكون المخيم من حولنا. نحن الاثنين لم ننم، أنا الشاب، تحدثنا عن جمال خلق الرب العالم الذي حولنا، عن سره العظيم، عن أعشابه كلها، ونمله كله كلها وحشراته ونحلاته الذهبيات، عن جميع هذه المخلوقات التي تعرف - دون ذكاء - طريقها في هذا العالم، وهي بذلك تشهد وتؤكد سر الله، بل تنجزه بنفسها دون انقطاع ولاحظت أن هذا الشاب اللطيف قد تأثر

كثيراً، وباح لي أنه يحب الغابات وطيورها، وقد كان صائد طيور ويعرف صوت كل منها، ويعرف أيضاً وسائل اجتذابها، قال لي: «لاشيء أروع من الغابة، بل كل ما في الطبيعة جميل. فأجابته: «إنك محق. كل شيء جميلٌ ورائع، لأن كل شيء من حولنا حق. انظر - قلت له - إلى الحصان هذا المخلوق النبيل، المتعلق بالإنسان، إلى هذا الثور الذي يطعم البشري ويعمل لأجله، صاغراً وادعاً. انظر إلى وجوه هذه الكائنات: يا لروعتها ما أشد ارتباطها بأصحابها، الذين كثيراً ما يضربونها بلا شفقة، يا لطيبتها، وثقتها وجمال نظراتها. إنه لما يؤثر في النفس أن نعلم أن عالم هذه المخلوقات لا خطيئة فيه. عالم بريءٌ تماماً، كل شيء فيه بريءٌ لا إثم فيه إلا الإنسان لقد كان المسيح مع هذه الكائنات، قبل أن يأتي إلينا». - «أحقاً هذا - سألني الشاب - هل كان معها أيضاً؟» فأجبته قائلاً: «وكيف يكون الأمر على غير ذلك، ما دامت الكلمة للجميع، لكل المخلوقات، كل الحيوانات، حتى أصغر ورقة من أوراق الشجر تطمَحُ إلى كلمة الرب وتسبح بحمده، كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح ويبكي لأجله، فهو يملك تلك الفضيلة السرية، وهي أنه لا يعرف الإثم. أنظر - قلت له - في الغابة، إلى الدب الضاري المخيف، والذي لا ذنب له وليس مسؤولاً عن ذلك». وحدثته كيف اقترب ذات يوم دب من قديسٍ عظيم[٧٥]، كان يعتزلُ الناس في صومعة وسط الغابة، فأشفق الناسكُ على الوحش وخرج إليه غير هياب، وقدم له قطعة خبزٍ وهو يقول: «اذهب، وليكن المسيح معك»، فتراجع الوحش الضاري طائعاً دون أن يلحق الأذى بالقديس، تأثر الشاب كثيراً من أن الدب ابتعد دون أن يؤذي القديس، ومن أن المسيح كان معه. وقال: «آه، كم رائعٌ هذا! كل شيء في خلق الله رائعٌ ومدهش وجلس يفكر طويلاً بهدوء ورقة. لقد فهمني. ثم استلقى ونام نوماً هانئاً بريئاً. فليبارك الرب الشباب! وصليت من أجله قبل أن أخلد إلى النوم. يا رب ليعم السلام والضياء على البشر جميعاً!

من أحاديث الأب زوسيما وتعاليمه

د- شيء عن الراهب[٧٦] الروسي، ودوره الممكن:

أيها الآباء والمعلمّون، ما الراهب؟ إن هذه الكلمة تتردد على شفاه بعض الناس من الفئات المثقفة بسخريةٍ، وبعض الناس أيضاً يعتبرها سبة ومصدر إهانة. وسوء الفهم هذا يتفاقم يوماً بعد يوم. والحقيقة أن علي أن أعترف - بأسف شديد - أن من الرهبان الكسلاء والفاسقين والمخادعين والوقحين، الذين دخلوا الأديرة لغاياتهم. وإلى هؤلاء يشير المتورون المتعلمون من أبناء مجتمعنا قائلين: «أنتم كسالى، ولا نفع يرتجى منكم للمجتمع، طفيليون شحاذون لا تخجلون، وتعيشون على جهد غيركم». وعلى الرغم من ذلك ما أكثر المجتهدين، الطامحين في الأديرة، أولئك المتعطشين إلى الصلوات الحارة التي يرفعونها في عزلتهم إلى الرب. لكن الناس لا يهتمون بهؤلاء بقدر ما يلقون بالاً إلى أولئك وعنهم لا يتحدثون، وكم ستكون دهشة الناس كبيرة حين أقول إن هؤلاء الرهبان المتواضعين المتعطشين إلى العزلة والصلاة هم الذين سينقذون أرض روسيا مرةً أخرى، لأنهم يستعدون صامتين «لليوم والساعة، للشهر والسنة» ، ويحفظون صورة المسيح بكثير من الخشوع والتقوى. إنهم يعيشون وفق تعاليم الآباء والرسل والشهداء في حقيقة الرب. حتى إذا آن الأوان أظهروا صورته في وجه حقيقة العالم المترنحة.

إنها فكرة عظيمة. إنها النجم الذي سيبزغ من الشرق.

هذا هو رأيي في الراهب، هل أنا مخطئ، هل بنيت حكمي هذا على الغرور؟ انظروا إلى العلمانيين الذين يتعالون فوق خلق الله، ألم يدنسوا في العالم صورة الله وحقيقته، وقد خلقوا على هيئته، لديهم العلم، لكن العلم

يعرف ما تدركه الحواس فحسب، أما العالم الروحي، أما الجزء الأسمى من الحقيقة البشريةِ فقد نقضوه ورفضوه، شاعرين بالغبطة والنصر، بل وبالحقد. لقد رفع العالم رايةَ الحريةِ، وبخاصةٍ في الأيام الأخيرة، ولكن إلى أين تقود هذه الحرية: إلى العبودية فقط والانتحار! لأن الناس يقولون: «إن لك متطلبات، وعليك أن تسعى إلى تحقيقها، لأنك تملك الحق، كالأغنياء والمشهورين الكبار. لا تخف من تحقيق رغباتك، بل عليك أن تضاعفها» - هذه تعاليم العالم هذه الأيام. وفي هذا يرون الحرية. فما الذي تقود إليه مضاعفةُ الرغبات؟ إنها تقود عند الأغنياء إلى «العزلة» والانتحار النفسي، وعند الفقراء - إلى الحسد والجريمة، لأنهم قد أعطوا الحق في مضاعفة الرغبات، لكنّهم لم يجدوا الوسائل لإشباعها. يزعمون أن العالم مع الزمن، سيزداد اتحاداً لأن الإحساس بالأخوّة سيزداد مع المكتشفات الحديثة، والتواصل بنقل الأفكار عبر الهواء. ويا حسرتاه لا تصدقوا وحدة الناس هذه! فلو فهمنا الحرية على أنها مضاعفة حاجات الناس وإشباعها، لكنا نعمل على تشويه طبيعة الإنسان، لأننا بذلك نثير فيه الكثير من الرغبات الغبيّة الباطلة، والعادات والأمنيات السخيفة. إن البشر اليوم يعيشون لأجلِ الحسد فحسب، إرضاءً للرغباتِ والشهوات والغرور الشخصي. إن امتلاك الأطعمة، والخروج في الرحلات والنزهات، اقتناء العربات الفاخرة وامتلاك الأقنان والخدم واكتساب الألقاب يُعَدّ اليوم أمراً ضرورياً جداً، أمراً يستحق أن يموت المرءُ في سبيله، وأن يضحّي بالشرف ومحبّة الإنسان للإنسان، حتى أن الكثير من البشر يفضّل الانتحار على أن لا يحقق ذلك، وهذا بالتأكيد ينطبق على من لا يملك الثراء والغنى الفاحشين. أما بالنسبة للفقراء فإنهم يخنقون رغباتهم صعبة التحقيق، وحسدهم بالسكر، ولكنهم قريباً وعوضاً عن الخمر سيسكرون بالدماء... إلى هذا إنما يقودونهم. واسمحوا لي الآن أن أسألكم: هل هذا الرجل حر؟

لقد عَرفتُ واحداً من «المناضلين في سبيل الفكرة» ، وقد حدّثني بنفسه أنهم حين حرموهُ في سجنه من التدخين، شَعَر بعذابٍ شديد أو شَكَ جرّاءه أن يخون «فكرته» لقاء السماح لهُ بالحصول على التبغ، ومثل هذا الشخص يزعم أنه يقول: «لأجلِ الإنسانيّةِ سأناضل» ، فأي مبلغٍ من النضال سيبلغُ هذا الرجل، وعلى ماذا يقدر؟ رُبّما يقدرُ على القيام بخطواتٍ مؤقتة سريعة، لكنّهُ لن يصمُدَ طويلاً، ولهذا فليسَ غريباً أن يحصلَ البشرُ على العبوديةِ عوضاً عن الحُريّة، وبدلاً من أن يخدموا الأخوة والوحدة الإنسانية سقطوا في «العُزلة» والوحدة الذاتية، كما قالَ لي تماماً في شبابي مُعلّمي وضيفي السّري الغامض. ولهذا نرى الكون اليوم وقد أوشكَ يفقد الإحساس بضرورة خدمةِ الإنسانية، بوحدةِ الإنسانية وبالأخوّة بين البشر، بل إن مثل هذهِ الأفكار صارت تُقابَلُ بالابتسامات الساخرة.. وكيف للإنسان أن يتحرر من عاداته التي ألفها، وتربى عليها؟ إن هذا الإنسان سيجدُ نفسه في العُزلة، ولن تعنيه الوحدةُ مع الآخرين، هذا ما وصل إليه الناس، لقد راكموا الثروات فوق الثروات، أما السعادة فقد تناقَصت وتناقصت.

أما طريقُ الرهبنة فمختلفٌ تماماً. ربما يسخر الناس كثيراً من الطاعة والصيام والصلاة، مع أن في هذهِ الأسباب يتلخّصُ الطريقُ إلى الحريّة الحقيقيّة الأكيدة: أتحرّرُ من حاجاتي الزائدة ورغباتي غير الضروريّة، أسيطرُ على إرادتي الذاتيّة في الزهو والتعالي واستبدلها بالطاعة، أستطيعُ أن أحقق ذلك بمساعدةِ الرب، فأحقق الحرية الروحيّة، ومَعها الفَرح الروحي! من إذاً أقدرُ على حَملِ فكرةٍ عظيمة والنضال من أجلها، المُنعَزل الغني، أم ذلك «المتحرر» من استبداد العادات والأشياء؟ أحياناً يعيبونَ على الراهبِ وحدَتَه: «لقد فضّلتَ العزلةَ، كي تنقذ نفسك خلف جدرانِ دَيرك، ونسيتَ الخدمةَ المشتركة الأخويّة للإنسانيّة»[٧٧] ولسوف نرى بعد ذلك من الذي سيخدم قضيّة الأخوة الإنسانيّة أكثرَ من غيره، إنهم هم الذين

يعيشون في عُزلةٍ وليس نحن ولكنّهم لا يرونَ ذلك. ومن بيئتنا ووسطنا نحن إنّما ظهر مناضلو الشعب، وهكذا سيكون الأمر الآن؟ إن هؤلاء الرهبان المتواضعين والصائمين الصامتين، سيهبّون للقيام بعظائم الأمور، والشعب هو الذي سينقذُ روسيا، وقد كانت الأديرة الروسيّة متحدة دائماً مع الشعب، فإن كان الشعب يعيشُ في عزلة فنحن كذلك. إن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن. أما المثقّف الذي لا يؤمن بروسيا فلن يستطيع أن يفعل شيئاً، حتى ولو كان عبقريّاً وصادقَ القلبِ والعاطفة. تذكّروا ذلك. إن الشعب سيتصدّى للملحدين، وستصبحُ روسيا أرثوذكسيّة موحّدة. حافظوا على هذا الشعب وصونوا طهارتَهُ وقلبَه. ربّوه بصمت. هذهِ هي مأثرتكم اليوم، لأن هذا الشعب يحملُ اللهَ في روحِه.

هـ- شيء عن السادة والخدم، هل يمكن أن يصبحوا أخوة في الروح:

ربّاهُ، من قال إن الشعب آثم، إن شرارة التفسّخ يتضاعفُ تأثيرُها مع الوقت، وهي تأتي دائماً من الطبقات العُليا. وَتصيبُ العُزلةُ الشعب الفقير: حيثُ يظهَرُ المحتكرونَ والمستغلّون. ونرى التاجِرَ يحاولُ أكثرَ فأكثر أن يبدو راقياً، أن يظهَرَ متعلماً ومثقّفاً، وهو لا يملكُ شيئاً من الثقافة، ولأجلِ ذلك يلجأُ إلى احتقارِ العاداتِ القديمة، وقد يشعُرُ بالخزي من دين آبائه، ونراهُ يسعى إلى الانتسابِ لطبقة الأمراء، وما كان في الأصل إلا فلّاحاً بائساً. لقد أدمنَ الشعبُ على الخمرِ وما يستطيعُ الآن أن ينصرفَ عنها. وكم من حولنا من قسوة نحو الأسرة والزوجة، وحتى الأطفال وكل ذلك يأتي من مُعاقرةِ الخمرة، لقد رأيت أطفالاً لم يبلغوا العاشرة يعملونَ في المعامل: سقماء، هزيلين، مقوّسي الظهور، ومنحرفينَ أيضاً. قاعات عملٍ خانقة، ضجيج الآلات، عَمل متواصِل طوال يوم الرب، كلمات بذيئة ونبيذ... فهل هذا ما تحتاجُهُ نفسُ الطفل. الأطفال يحتاجون إلى الشمس، اللعب، المثال الحسن، وشيئاً من الحُبِّ، ولو قطرة واحدة! يجب تجاوز هذا الأمر، يجب

أن نخلّصَ الأطفال مما يحيقُ بهم من عذاب! اخرجوا إلى الشعب والقوا عليهم المواعظ، حتى نتجاوز هذهِ الآثام والشرور بأقصى سرعةٍ ممكنة ولكن سينقذُ الربُّ روسيا. لأن ابن هذا البلد حتى ولو كان منحرفاً، ساذجاً، ولا يستطيعُ أن يبتعد عن الإثم، فإنه يدركُ تماماً أن الربَّ يلعن سلوكَهُ هذا، ويعلمُ على الأقل أنه مخطئ في انقيادهِ إلى الخطيئة. وهكذا فشعبُنا ما زال يؤمنُ بالحقيقة، ويعترفُ بوجودِ الله، ويبكي بدموعٍ صادقةٍ نادماً. لكن حالَ الطبقاتِ العليا يختلفُ، فهي ترغبُ باستخدام العلم أن تبني العدالةَ وبعقلِ أبنائها وحده، ودون المسيح بَعَد الآن، وقد أعلنوا أنهُ لا وجودَ للجريمةِ ولا إثم بعد ذلك. وهم محقون انطلاقاً من مقدماتهم هذهِ: فحين لا يكونُ لديك ربٌّ، لن تدركَ الجريمة، بل ما هي ساعتئذٍ الخطيئة؟! في أوربا تثورُ الشعوبُ على الطبقات العليا، وفي كل مكانٍ يقودها القادةُ المحليونَ إلى سفكِ الدماءِ، ويعلّمونها أن غضبها هذا حقٌ. ألا «فليلعَنَ غضبُهم، لأن الغضب قاسٍ»[٧٨]. أما روسيا فسينقذها الربُّ، كما فعلَ من قبلُ مراراً. وسيأتي هذا الإنقاذُ والخلاصُ من الشعب، من إيمانهِ وطاعته، فيا أيها الآباءُ والمعلمون، صونوا إيمان الشعب، وهذا ليس مجردَ حلمٍ: لقد أدهشتني دائماً تلك الكرامةُ الصادقةُ وذلك النبلُ في شعبنا الروسي العظيم، لقد رأيت ذلك بنفسي، وأستطيعُ أن أشهد عليه، رأيت ذلك ودهشت به، بغضِ النظر عن الخطايا الكثيرة والمظهر البائس لشعبنا. لقد ظلّ عزيز النفس على الرغم من قرنين من العبوديّة، وتعامل بحريةٍ وحافظ على مسلكها، دون حقدٍ ورغبةٍ في الانتقام ودون حسد. «أنت شهيرٌ أنت غنيٌّ، أنت ذكيٌّ وعبقريٌّ - فليكن، وليباركك الرب، إنني أحترمك وأعلم أيضاً أنني إنسان مثلك. وبقدر ما أحترمك دون حسدٍ، فإنني أؤكد أمامك كرامتي الإنسانية». ربّما كانوا لا يقولون هذا الكلام حرفياً «لعدم قدرتهم على التعبير عن أنفسهم» ، لكن هذا الأمر يتجلّى في سلوكهم، لقد عاينتُ ذلك، وشهدته. صدقوني: إن أبناء

روسيا بقدر ما يكونون فقراء أو صغار، فإن نفوسَهم تزخرُ بالكرامةِ والنبلِ، أما الذين اغتنوا منهم فقد انتقلوا إلى فئةِ المستغلين، ونحن نحملُ شيئاً من الذنب في ذلك بسبب تراخينا وإهمالنا! وعلى الرغم من ذلك فسينقذُ الربُ أتباعَه، لأن روسيا العظيمة تخضعُ لمشيئتهِ. أنا أحلم بمستقبل بلادنا، وأظنُ أنني أراهُ بوضوح: سيجيءُ يوم نرى فيهِ أسوأ أغنيائنا يشعرُ بالعارِ والخجل مما جمع من ثرواتٍ أمام الفقير، وسيثبتُ الفقير بدوره - وقد عاين ندم الغني - حسن فهم الأمر، ويتعاطف معه أرجو أن تصدقوا أن هذا ما سيحدث. فهذا ما يقودنا إليه التطور: إن العدالةَ تتجلى في الشعور بكرامة الإنسان الروحيّة، وفي هذا الدرب سيسيرُ جماعتنا فقط ستسودُ الأخوة، حين يشعر الناس أنهم أخوة. والأخوة من قبلُ لم تكن مُجزّأة فلنحفظ صورة المسيح، وستشعُّ كجوهرةٍ على العالم أجمع.. آمين، آمين!

أيّها الآباء والمعلّمون، لقد عشت ذات يوم تجربة مؤثرة. حين كنت أجوب البلاد، لقد التقيت في مدينة «كِ» من قضاء غوبيرنسكي، خادمي السابق أفاناسي وكان قد مَرّ على يوم فراقنا ثماني سنوات. رآني مصادفة في السوق فهرع إلي بعد أن تيقن من معرفتي... كم فرح بلقائي: «مولاي، سيدي، أهذا أنت؟ أحقاً أنت من أراه؟» ، وقادني إلى بيته. وكان قد ترك الجندية وتزوج وله طفلان، يعيشون من تجارةٍ صغيرةٍ باستخدام بسطة في السوق. غرفتهم كانت صغيرة ولكن نظيفة وسعيدة. أجلسني وهيأ السماور ودعا زوجته. كان وجودي عيداً بالنسبة له، قدّم إليّ ولديه قائلاً: «باركهما يا أبانا» - فأجبتهُ: «ما أنا إلا راهبٌ متواضعٌ، فهل أنا من يباركهما؟ سأدعو الرب أن يباركهما، وبالنسبة لك يا أفاناسي بافلوفيتش، فقد كنت أدعو لك كل يوم منذ افترقنا بعد ذلك الحادث، لقد كنت سبباً في كل ما أصابني» وشرحت له ما استطعت، فكان يتابعني دهشاً، غير قادرٍ على أن يستوعب كيف تحوّلَ مولاهُ القديم، الضابط إلى راهبٍ بسيطٍ، ثم بدأ يبكي فسألته:

«ما الذي يدفعك للبكاء يا من لم أستطع نسيانه؟ إنّ من الأفضل أن تفرح لي لأن الدرب الذي اخترته لنفسي درب السعادة والضياء». لم يقل شيئاً لكنه كان يهزُّ رأسه ويتهدُ، ثم سألني: «أين ثراؤك وغناك؟» فأجبته: «لقد منحت كل شيء للدير ونحن نعيش فيه عيشة جماعية مشتركة». بعد أن شربنا الشاي رحت أودعهم، فإذا به يقدم لي خمسين كوبيكاً تبرعاً للدير، ويضع مثلها في يدي خلسةً وهو يقول: «ستنفعك هذه أيها الراهب الغريب الضارب في الأرض». قبلت صدقته وانحنيت شاكراً له ولزوجته صنيعَهما، ثم مضيتُ فرحاً وأنا أفكِّرُ طول الطريق: «ها نحن الآن أنا وهو، يتتهد كلٌّ منا ويبتسم فرحاً، بقلبٍ مسرور، ثم يهز رأسه متسائلاً كيف قدر الرب لنا أن نلتقي». وبعد ذلك لم يحدث أن التقيتُهُ أبداً. لقد كان لي خادماً وكنت سيده، ولكن حين تعانقنا بمحبة وحنان روحي ظهرت بيننا وحدة إنسانية عظيمة، وقد فكرت بهذا الأمر ملياً، والآن أفكر كما يلي: «هل من الصعب على العقل أن يدرك أن مثل هذه الوحدة العظيمة والبسيطة يمكن أن تتم في أوانها بين كل أفراد المجتمع الروسي» أنا أؤمن أن هذا سيحدث وفي وقتٍ قريب.

وسأضيفُ حول موضوع الخدم ما يلي: كنتُ أيام شبابي أغضبُ كثيراً من الخدم: «فالطباخةُ تقدم الطعامَ ساخناً جداً، والخادمُ لا ينظّف ثوبي جيداً». وقد أضاءت طريقي يومَ ذاك فكرة قالها لي أخي العزيز: «أنا جديرٌ بأن يخدمني شخصٌ آخر، وهل من حقي أن أعتبره أقل مني شأناً وأدنى موضعاً لأنهُ فقيرٌ وجاهلٌ؟» وعجبتُ يومها أن مثل هذه الأفكار البسيطة والواضحة أشد الوضوح تبزغُ في عقولنا مُتأخّرة. دون خدم يصبحُ العالَم مستحيلاً، ولكن عليك أن تتصرفَ بحيثُ تجعل خادمك يشعر بحريتِه الروحيّة، كما لو أنه ليس خادماً على الإطلاق. ولماذا لا أتصرفُ كما لو أنني خادم خادمي بحيث يرى ذلك دون أي شعورٍ لدي بالصلفِ والكبر - وعندها أشكُّ أن يحمل مثل هذهِ المشاعر؟ لماذا لا أعامل خادمي كما لو كان واحداً من أهل بيتي، فاستقبله واحتضنه

بينهم سعيداً به؟ إن مثل هذا الأمر لو قمنا به سيكون أساساً لوحدة البشر القادمة الرائعة، عندما يشعر المرء انه ليس محتاجاً إلى خادمٍ يخدمه، فلا يعمل على جعل أقرانه من الناس يخدمونه كما يحدث الآن، بل يتطلّعُ مشوقاً إلى خدمة الناس جميعاً كما جاء في الإنجيل[٧٩]. هل تظنون وهماً أن يجدَ الإنسان سعادته أخيراً في مآثر التنوير والرحمة، عوضاً عن المسرات الوحشيّة كما هو الحال الآن - المتمثلة في النهم والعُهر وحب الظهور والتملق والرغبة العارمة في التعالي على الآخرين؟ أما أنا فأؤمن بقوةٍ أن هذا ليس وهماً وأن الساعةَ قريبةٌ.

سيسألونكم ساخرين: «ومتى تقوم هذهِ الساعةُ، وهل ما نراهُ اليوم يشي بذلك؟» أنا أعتقد أننا بمعونةِ المسيح سنحققُ هذا العمل الجليل. كم من الأفكار على هذه الأرض، كم منها في تاريخ البشرية بدا مستحيلاً، واعتبر بعضها قبل عشر سنين طائشاً، فإذا جاء زمنها ظهرت وانتشرت في الأرض كلها. وهذا ما سيحدثُ عندنا، وسيضيء شعبنا العالم بأسره، وسيقول الناس جميعا: «إن الحجر الذي رفضه البناؤون، أصبح حجر الزاوية»[٨٠]. وعندها سنسأل الساخرين قائلين: «إذا كان ما نقوله نحن مجرد حلم فمتى ستشيدون بناءكم على العدل وبمعونةِ عقلكم وحده، دون المسيح؟»، فإن أكدوا بأنفسهم أنهم على العكس من ذلك - يسعون إلى تحقيق الوحدة الإنسانية، فالحق أقول لكم إن أكثرهم سذاجة يمكن أن يؤمن بذلك، والحقيقة أن لديهم خيالاً واسعاً أكثر منا نحن، يفكرون بإقامة العدالة ولكنهم ينقضون المسيح، وسينتهون بإراقةِ الدماء وإغراق العالم به لأن الدمَ يستدعي الدم ومن يشهر السيف بالسيف يقتل[٨١] إننا إذاً لم نؤمن بوعد المسيح فسيبيد بعضنا بعضاً حتى آخر اثنين على سطح الأرض، وحتى هذين الباقيين وتحت تأثير زهوهما وصلفهما سيقتُلُ أحدهما الآخر، ثم ينتحر الباقي منهما. هذا ما سيكون إذا لم يتحقق وعد المسيح، فتتوقف تلك المجزرة لأجل المسالمين الطيبين[٨٢]. كنت لا أزال في البزة العسكريةِ - بعد تلك المبارزةِ - حين تحدثتُ

عن الخدم على الملأ وأذكرُ تماماً كيف استغربَ الناس قولي: «هل ترى - قالوا لي - إن علينا أن نُجلِسَ الخادم على الأريكةِ ونحمل إليه الشاي؟» ، وقد أجبتهم يومها: «ولماذا لا نفعل ذلك، ولو من حين إلى آخر»

كلّهم يومها ضحكوا وسخروا من كلامي، لقد كان سؤالهم يدل على سطحيتهم، ولم يكن جوابي واضحاً، لكنني أعتقدُ اليوم أنه كان ينطوي على شيءٍ من الحقيقةِ.

و- عن الصلاة، عن المحبة، عن معرفة العالم الآخر

يا أخوتي لا تخافوا آثام الناس، أحبّوا البشرَ على الرغم من أخطائهم، لأن مثل هذهِ المحبّة شبيهة بمحبّة الرب، وهي قمّة المحبّة فوق الأرض. أحبّوا مخلوقات الربِ كافةً، مجتمعةً، أحبوا كل ذرة رمل، كل ورقةِ شجر، كلّ شعاع ضوءٍ. أحبّوا الحيوانات، النباتات، أحبّوا كل شيءٍ. حين تحبّ كل شيء فستدرك سِرّ الربِ في هذهِ الأشياء. وتنمو المعرفة التي تحصلُ عليها يوماً فيوماً، فتجدُ نفسكَ في النهاية تحبُّ العالمَ كُلّه، الكونَ كلّه. أحبّوا البهائم: فقد منحها الربُّ بذرةً من الفكر وفرحًا بريئاً، لا تثيروها ولا تعذبوها، لا تحرموها الفرح، ولا تخالفوا في ذلك إرادة الرب. أيّها الإنسان لا تتعالى على الحيوانات، فهي لا تعرفُ الإثم، أما أنتَ فعلى الرغم من عظمتكَ تدنّس الأرض بظهوركَ عليها وتدنّسها بما تتركُهُ بعد رحيلك - واأسفاه هذا ما نفعلَهُ جميعاً بلا استثناء! أحبوا بخاصة الأطفال لأنهم بلا خطيئة أيضاً، إنهم كالملائكة، وهم يعيشونَ ليبعثوا الفرحة في قلوبنا وليطهّروها، وليكونوا مثالاً لنا وقدوة! الويلُ لمن يسيءُ إلى الأطفال. لقد علّمني الأب أنفيم أن أحبّهم: كان متواضعاً ولطيفاً، يشتري بما يوهَبُ لنا من مال حلوى يوزّعها على الأطفال، لم يكن يمرُّ بهم إلا وتخفقُ روحُهُ عميقاً. لقد كان هكذا.

تقفُ أحياناً في حالةٍ من الشكِ عندما ترى آثام الناس وتتساءَل: «هل نردُّ بالقوّة، أم بالحبِ المُسالم؟» وعليكَ دائماً أن تحل الأمر هكذا: «أردُّ بالحب

الحالِم»، افعل ذلك دائماً وأبداً وستنتصرُ على الدُنيا. إن الحُب المتواضِع والمسالم - قوّة هائلة، وهي أشد من أي قوة أخرى، ولا شيء يعدلها. راقب نفسك كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، لكي تكون صورتك مثالاً للطهارةِ، ها أنت ذا تمرُّ بطفلٍ صغيرٍ، غاضباً وترددُ عبارةً فاحشةً، وقد امتلأت نفسك حقداً، أنت لم تلاحظ على الأرجح الطفل، لكنه رآك وستبقى صورتك الخبيثة النجسة في قلبه البريء الذي لا أحد يحميه.

أنت لم تكن تعرف ذلك، ولكنك ألقيتَ بذور الشر في نفسهِ، وقد تنمو هذه البذور. كل ذلك لأنك لم تنتبه لنفسك أمام الطفل، ولأنك لم تربِّ الحبَّ اليقظ الفعال في نفسك. يا أخوتي الحُبُّ معلّم، لكن من الواجب أن نتعلّم كيف نمتلكه، لأن من الصعوبة بمكان أن نفعل ذلك، وثمنه غالٍ جداً، ثمنه العمل الطويل على النفس ولزمنٍ طويل، لأن الحُبَّ هنا لا يعني أن يحدث الأمر مصادفةً ومن اللحظةِ الأولى، بل يعني أن تُحبَّ طوال العمر، إن الحُبَّ اللحظي والعابر يقدر عليه كل الناس، حتى المجرم.

لقد كان أخي الشاب يطلبُ المغفرةَ من العصافير: وربما بدا الأمر جنوناً، لكن أخي كان محقاً، فالحياةُ أشبه بمحيطٍ يختلطُ فيه ويمتزجُ كلُّ شيءٍ، إنك ما أن تلمس جهة ما فيه - حتى تستمعَ إلى صدى ذلك في الجانبِ الآخر من العالمِ. ربما كان طلبُ المغفرةِ من العصافير جنوناً، ولكن حالَ العصافير يصبحُ أفضل، وكذلك حالُ الطفل، وسائرُ المخلوقات والبهائمُ من حولك، حين تكون أنت أكثر طيبة، مما أنت عليه الآن. كل ما حولنا كالمحيط أؤكّدُ لكم، ومتى تستوعب ذلك تستغفر العصافير، ويتملكك حبٌّ شاملٌ كما لو كنت في حالةِ وَجْدٍ غامرٍ، فإذا بك تسأل العصافير أن تغفرَ لك خطاياك. عليك أن تحافظ على وَجْدِكَ هذا مهما بدا الأمر للناس غريباً وبلا معنى!

أصدقائي اطلبوا من الرب أن يمنحكم الفرح، وكونوا فرحين سعداء كالأطفال، كطيور السماء، ولا تدعوا آثام الناس أن تصرفكم عن

شؤونكم وتشوش أفكاركم، ولا تخافوا على أعمالكم من أن تضيعها تلك الآثام، أو أن تمنعها من التحقق والوصول إلى غاياتِها ولا تقولوا البتة: «قوية الخطيئة، قوي الرجس، قوية البيئة الخبيثة أما نحن فوحيدون ولا قوة لنا، ستدمرنا هذه البيئةُ النجسةُ ولن تمكننا من القيام بالعمل الطيب». لا تتركوا اليأس يسيطر عليكم يا أبنائي، وأعلموا أن أمامكم وسيلةً واحدةً لإنقاذ أنفسكم: أن يسيطر واحدكم على نفسه، وأن يُعَدّها مسؤولةً عن كل خطايا البشر. وتلك هي الحقيقةُ فبمجرد أن تجعل نفسك مسؤولاً عن كل شيءٍ وعن جميع البشر، تتكشف لك حقيقة مفادها أنك فعلاً كذلك، وأن ذنبك ليس مجرد وَهمٍ، أما إذا فعلتم عكس ذلك وألقيتم على سواكم كسلكم وتراخيكم انتهيتم إلى شركِ التكبّر الشيطاني والزهو، فتمردتم على مشيئةِ الرب. وفيما يخص التكبر الشيطاني فسأقول لكم رأيي: إن من الصعوبةِ علينا على الأرض أن نفهم حقيقَتَهُ، ولهذا نجدنا ميالين للوقوع في الخطأ وتعميمهِ، بل ونفترض بغرورٍ أن ما فعلناه العظمةِ والروعةِ بمكان!. إن الكثير من أقوى أشكال مشاعِرنا ومن تغيرات طبيعتنا الشخصية يبقى غامضاً، عسيراً على الإدراك ما دمنا في الحياةِ الدنيا، لكن لا تستسلموا لإغراء مفاده أن جهلكم هذا سيحميكم، لأن القاضي الأزلي سيحاسبكم على ما كان بإمكانكم فعله وبلوغه، ليس على ما لم تبلغوه من المعرفة، وهذا ما ستدركونه بأنفسكم، لأنكم عندئذٍ ستفهمون كل شيء وستضاءُ عقولكم فتكفّون عن الجدالِ، إننا - الحق أقول لكم - تائهون في هذه الأرض، ولو لم يكن نموذج المسيح وصورته الغالية أمام عيوننا فسنضيع تماما وننتهي كما حدث للبشر الذين عاشوا قبل الطوفان. إن الكثير من الأشياء تظل مجهولة بالنسبة لنا في هذه الدنيا، غير أن لدينا بالمقابل شعوراً سرياً عالياً بالصلة الحية التي تربطنا بالعالم الآخر، بعالمٍ أعلى وأسمى: حيث تمتدُ جذور أفكارنا ومشاعِرنا هناك وليس في هذا

العالم. ولهذا السبب يرى الفلاسفةُ أن جوهرَ الأشياء لا يمكن أن يدرك في هذهِ الحياة. إنما جمع الربُّ بذوره من عوالمَ شتّى فرماها في الأرض ليزرع حديقته، ونبت كل ما من شأنه أن ينبت، إلا أن هذه النباتات النامية لا تحيا وتستمر في حياتها إلا بعمقِ إحساسها بالصلةِ السريةِ مع ذلك العالم الآخر، فإذا ضَعُفَ هذا الإحساس في أعماقك أو اندثر ماتت النبتة فيك[٨٣]. فتصبح عديم الاكتراث بالحياة نفسها بل وكارهاً لها. هذا ما أراه.

ز- هل يجوز أن يحكم الإنسان على أقرانه؟ عن الإيمان حتى النهاية

تذكر بخاصة: إنه ليس بإمكانك أن تكون قاضياً في أمثالك[٨٤]، لأنه من غير المعقول على هذهِ الأرض أن يكون المرءُ قاضياً يقضي بشأن مجرم، قبل أن يعلم أنه - وهو القاضي - ليس أيضاً إلا مجرماً كالذي يقف أمامه، وأنه ربما كان أكثر الناس مسؤوليةً عن الجريمةِ الماثلة قبالته، ما لم يدرك المرء كل ذلك فلن يستطيع أن يصبح قاضياً، كم يبدو هذا الرأي غبياً، لكنه الحقيقة بعينها. فلو كنت أنا مثلا قاضياً وكنت عادلاً تماماً، لما كان لهذا الرجل الذي يقف أمامي أن يرتكب جريمته. إذا كان بمقدورك أن تحمل على عاتقك جريمة الواقف أمامك، وأن تجعل قلبكَ حَكماً فيصدرُ الحكم منه، فافعل ذلك ولا تتردد وتألم أنت عوضاً عنه، ثم اصرفه دون أن توجه اللومَ إليه. حتى ولو نصّبكَ القانون حكماً عليه فتصرف بهذهِ الروح، لأنه سينصرفُ من عندك ويحاكمُ نفسه بقسوةٍ أشد مما كنت ستفعل أنت. وإذا شعرتَ أنهُ سيقابلُ موقفك نحوه، وحبك له بالسخريةِ منك فلا تجعل موقفه هذا يغضبك: والأمرُ يعني أن ساعتهُ لم تحن بعد، ولكنها قادمةٌ في ميعادها، وحتى لو لم تأت، فلا تهتم لذلك: إن لم يكن هو، فشخصٌ آخر بالتأكيد سيعترفُ بذنبه وسيتألم، وسيحاكم نفسه ويحملها الذنب كاملاً، وستتأكد الحقيقة في النهاية. صدّق هذا، صدّقه جازماً، لأنه الجوهر الذي يقوم عليه الأمل، وإيمان القديسين.

لا تتكاسل. إذا تذكرت وقد خلدتَ إلى النوم: «أنا لم أقم بهذا العمل، الذي كان علي أن أفعله». فانهض من فورك وقم بفعل ما لم تفعله. إذا وجدت نفسك محوطاً بأناسٍ أشرارٍ لا إحساس لديهم، ولا رغبة عندهم لسماعك، فارتم أمامهم واستغفرهم لأنك في الحقيقة تحمل شيئا من الذنب في عدم إصغائهم لك. وإن شعرت أنك غير قادرٍ على مخاطبة الأشرار، فاخدمهم صامتاً متواضعاً، ولا تفقد الأمل. وإذا انصرفَ عنك الناسُ وطردوك بالقوةِ، فأصبحتَ وحيداً، اسجد عندها على الأرضِ واغمرها بقبلاتك واسقها بدمعك، فتحملُ لك تلك الدموعُ ثماراً، حتى ولو كنتَ معزولاً لا سامعَ ولا مبصرَ لك. حافظ على إيمانك حتى النهايةِ، حتى ولو حدثَ أن كفر الجميعُ وبقيت المؤمنَ الوحيدَ: وعندها لا تتوقف عن تقديم الأضحيات باسم الرب فإن حدث ولقيت شخصاً مثلك فستصبحان عندها اثنين، ضمّا واحدكما الآخر بمحبة وصليا للرب، وسينتعشُ الكونُ كله بالحب الحي: ذلك أن الحقيقةَ التي يريدها الرب ستتحققُ بكما على الرغم من أنكما لستما سوى شخصين، شخصين فحسب.

وإذا حدث أن ارتكبتَ معصيةً ورحت تتعذب نادماً على ما فعلت، فليسعدك أن تتذكر أن في الناس غيرك من لم يرتكب إثماً، وعندها قل لنفسك: لئن أخطأتُ أنا فهناك من لم يرتكب خطأً أو إثماً وظل طاهراً.

وإذا أثارتك شرور الناس وبلغت منك مبلغاً لا تستطيع احتماله، وأصبحت تتمنى أن تنتقم من المجرمين، فاحرص بادئ ذي بدءٍ أن تصون نفسك من هذهِ المشاعر، ثم اذهب من لحظتك تلك فابحث عن ألمٍ خاصٍ بك، كما لو كنت مسؤولاً عن جرائم هؤلاء البشر، اقبل هذا الألم الخاص واحتمله، وعندها سيهدأ قلبك ويطمئن، وستدرك بعد ذلك أن لك نصيباً من الإثم فقد كان بإمكانك بقوةِ القدوة والمثال أن تهدي هؤلاء الخاطئين وكأنك المؤمن الوحيد، لكنك لم تفعل. فلو كنت قد أضأت لهم هذا الطريق بنورِك

لاستطاعَ غيرهم أن يسيروا على هدي هذا النور، ولما كان ذلك الآثم على الأرجحِ - قد ارتكبَ الإثم الذي تراه، ولكان طاهراً وشريفاً بفعل ضيائك.

وإن كنتَ قد قمتَ بدورك من الهدايةِ وإضاءةِ الطريق للآخرين ولاحظت الناس لا يهتدون، ويظلون على ما هم عليه، فلا تلن وليكن إيمانُك صلباً، فلا تشك بقوةِ النور السماوي، واعلم أن الناس سينقذون يوم غدٍ إن لم يحدث الأمر اليوم، فإن ماتوا دون ذلك فسيتم إنقاذُ أبنائهم، لأن نورَ الهدايةِ الذي أطلقته لا يموت وإن متَّ أنت! ربما يزورك الرجل الصالحُ، لكن نوره يبقى وسيتم إنقاذُ البشر حتى بعد موت منقذهم. لا يقبل الجنس البشري الأنبياء ويضربهم[٨٥]، لكن البشر يحبون الشهداء ويقدسون أولئك الذين قاموا بأنفسهم بتعذيبهم. اعمل لأجل المستقبل، لأجل الإنسانيةِ جمعاء، ولا تفكر أبداً بالثواب الذي ستحصلَ عليه لقاء ذلك، لأن ما ينتظرك في هذا العالمِ من العطاء كبيرٌ جداً حتى دون هذا الثواب.

لا تخف العظماء والجبابرة، لكن كن حكيماً وكريماً دائماً. واعلم أن لكل شيءٍ معياراً، وأجل فأدرك هذا. صَلِّ في وحدتك. أحب الانحناء على الأرض وتقبيلها. قَبِّل الأرض دون كلل، وأحبّها بعمق، أحبّ الجميع، كل شيء، واندفع في الحبّ دون حدود. اسقِ الأرضَ بدموع حبّك وفرحك، وأحبّ تلك الدموع، ولا تخجل من حبّك وهيامك، بل ثمّنهما عالياً، لأنهما هبة من الرب الكبير، وهو لا يمنحهما للكثيرين، بل لمن اصطفاهم.

طـ من الجحيم ونارها، تأمل صوفي

يا آبائي ومعلّمي! أفكر: «ما الجحيم؟»[٨٦]، وأحاكم الأمر هكذا: «إنه العذاب، الناتج عن كونك ما عُدتَ تقدر على الحب»، مرة واحدة في هذا العالم اللا نهائي الذي لا يقاس بزمان أو مكان، أعطي مخلوق روحي ما، بظهورهِ على الأرض، القدرةَ أن يقول: «أنا موجود، وأنا أحب»، مرةً، مرة واحدة فقط وهبت لهذا الكائن لحظة حبّ فعالٍ «حي»، ولأجل ذلك كان

قد منح الحياة الأرضية، ومعها الزمن والأجل، وماذا أيضاً: لقد رفض هذا الكائن تلك الهدية التي لا تقدّر بثمن، لم يستطع أن يقدّرها حق قدرها، وما أحبّها، لقد نظر إليها ساخراً مستخفاً وظل بلا إحساس. إن هذا المخلوق يرى وهو يغادر الأرضَ إبراهيم ويحاوره، كما جاء في أمثولة الغني ولازار[٨٧] ويبصر الجنة، ويصعدُ إلى الرب، وهذا ما يعذبه بالتحديد، أن يصعدَ إلى الرب ويقفُ بين يديه، وما كان من قبلُ قد أحبّ، وسيختلطُ بكائناتٍ محبّة احتقر حبها. سيتعذّبُ لأنه الآن يرى بوضوحٍ فيقول لنفسه: «الآن أنا أعلم أنني أمتلك الحبّ وأتعطشُ له، لكن لا قيمة لحبي ولا تضحية فيه اليوم، لأن حياتي الأرضية قد انتهت، ولن يأتي إبراهيم ليقدم لي قطرةً من الماء الحي «أي أنه يعيد لي الحياة الدنيا بفعالياتها» فيطفئ ظمئي إلى الحب الروحي، الذي احترقُ به اليوم، بعد أن احتقرته على الأرض، لا، ما من حياةٍ الآن، ما من وقتٍ! لقد أصبحتُ راضياً أن أضحي بحياتي لأجل الآخرين، ولكن فات الأوان، فقد ذهبت تلك الحياةُ التي كان من الممكن أن أضحي بها لقاء الحبّ، وها هي ذي الهوة تفصلُ بين حياتي الأرضية ووجودي الآن». يتحدثُ الناسُ عن نيران الجحيم الماديّةِ: ولا أريد أن أبحثَ في هذا السر الذي أخشاهُ، ولكنني أفكرُ، لو أن تلك النيران كانت مادية في حقيقةِ الأمر لفرحَ بها من يقاسيها، لأن العذابَ الجسديَّ سيجعلهم ولو للحظةٍ يغفلونَ عن العذابِ الروحي الرهيب. ثم إن مسألةَ انتزاع ذلك الألمَ الروحي مستحيلة، لأنه ألمٌ داخلي في أعماقهم وليس خارجياً، ولو افترضنا أن هذا ممكن، فسيصبحون أكثر تعاسةً جرّاء ذلك، لأن أهل الجنة لو غفروا لهم ذنوبهم، بعدما شاهدوه من شدةِ عذابهم، ودعوهم إليهم بحبٍّ عميم، فسيذكون بذلك نيران آلامهم، لأنهم سيوقظون في قلوبهم مزيداً من التعطش الشديد إلى الحبّ المتبادل الصادق، وهو أمر ما عاد ممكناً. لكنني أرى بتواضعٍ شديدٍ أن شعورهم هذا بالعجزِ سيخففُ من مصابهم في

نهايةِ الأمر، فهم حين يقبلونَ من أهل الصلاحِ حباً دون أن يكون بمقدورهم أن يردوا عليه بمثله سيجدون مكافئاً للحبّ الفعال الذي ازدروه على الأرضِ باعترافهم وتسليمهم بالتفاوت القائم بينهم وبين أولئك الصالحين طوعاً وبشعورٍ صادقٍ.. آسف يا أخوتي وأصدقائي إنني لا أستطيعُ أن أعبرَ عمّا في داخلي بوضوح أشد. ولكن العذاب والألم لمن أنهوا حياتهم بأنفسهم العذاب للمنتحرين(٨٨)، وأظن أننا لن نجد من هم أشد عذاباً من هؤلاء! ويقال أن من الإثم أن ندعو الله ليرأفَ بمن انتحر بملء إرادته، ولكنني مع ذلك أشعر في أعماقي أن من الجائز أن ندعو لهم، مع أن الكنيسة تطرد من حضنها من يقتل نفسه بنفسه، وذلك لأن المسيح لن يرى في الإفراط في الحب ما يسيء إلى تعاليمه، وأعترف لكم الآن يا آبائي ومعلمي أنني كنت طوال حياتي أدعو لهؤلاء ولا زلت أفعل ذلك كل يوم.

وفي الجحيم أيضاً معشرٌ صلفون ضارون لا تؤثر بهم الحقيقة مع أنهم عرفوها ورأوها ساطعةً، ومن هؤلاء من هم شديدو الخطورة، فقد باعوا أنفسهم للشيطان واتحدوا به وشاركوه تمرده الصلف. وهم يتقبلون الجحيم بطواعيةٍ ورضى، وهؤلاء يتعذبون ويبتغون ذلك، فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم عندما لعنوا الحياة والرب. إنهم يقتاتون صلفهم الشرير كما يفعل الجائعون في الصحراءِ بامتصاص دمهم، ولا شيءَ يروي غليلهم مدى الدهر، ويرفضون المغفرة، يرفضون الربَّ الذي يناديهم. لكنهم لا يستطيعون إلا أن يشعروا بالغيظِ إزاء هذا الإله الذي يعيشُ للمحبة ويودون لو أنه لم يوجد، لو أنه يدمر نفسه وخليقته جمعاء، إن هؤلاء سيتقلبون على نار حقدهم وغضبهم إلى الأبد، وسيتمنون الموت والعدم، ولكنهم لن يحصلوا عليهما..[...]

الباب الثاني

من
«يوميات الكاتب»

المسنّون

[...] لقد وجدتُهُ اشتراكياً مُتَحمّساً، وقد بادرني منذُ البدايةِ بطرحِ فكرةِ الإلحاد، وَبدا لي الأمرُ مهماً وخطيراً، ولاسيّما من خلالِ شعورِهِ الغَريب وموهبتِهِ غير العاديّة في طرحِ أفكاره وتشبّعِهِ بها. وكانت جماعةُ «الأنترناتسيونالكا»[1] قبل ذلكَ بعامين وفي واحدة من منشوراتها قد أعلنت إعلانها الشهير: «نحنُ قبلَ كل شيء مجتمعُ إلحادي»، أي أنها بدأت من جوهر المشكلة؟ من الموضِع نفسه الذي انطلقَ منهُ بيلينسكي، مُقدِّراً العقل والعلمَ والواقعيّة ولكنّهُ في الوقتِ ذاتِهِ مُدركاً بشكلٍ أعمقَ من الآخرين أن هذهِ الأشياءَ لوحدها تستطيع أن تبني مملكةَ نملٍ، وليسَ مجتمعاً هارمونيّا متناسقاً، يتمكّن فيهِ الجميعُ من العيشِ والحياة.

لقد أدركَ أن قاعدة كل شيء - هي الأسسُ الأخلاقية. وآمن بجنونٍ ودونَ أي انعكاسات بالأدبيّات الأساسيّة للاشتراكيةَ [...]، وُكان من ذلك في حالةٍ من الابتهاج والحبور، ولكنّهُ كأي اشتراكي، كان عليه قبل أي شيء أن يعزل المسيحيّة وَيقصيها، لقد أدركَ أن الثورة يجب أن تبدأ بالإلحاد. وأن عليهِ أن يُبعد تلك العقيدة، التي خرجت منها الأُسسُ الأخلاقيّة للمجتمع والتي يعتبرها سلبيّة، لقد رفضَ بشكلٍ قاطع الطائفة، والملكيّة، والمسؤوليّة الأخلاقيّة للذات «وأسجّلُ أيضاً أنهُ كان زوجاً جيداً، وأباً طيباً مثل غيرتسين[2]»، وقد أدركَ ولا ريب أنهُ برفضِهِ المسؤوليّة الأخلاقيّة للذات يرفضُ في الوقت نفسه حُرّيتَها. آمَنَ بكل

حواسِهِ ومشاعِرِه «وبصورةٍ أكثر ضبابيّةَ من غيرتسين، الذي بدا أنّه تعقّلَ في النهاية» بأن الاشتراكية لا تُدمّر الحرية الشخصيّة، بل على العكس تحاولُ بناءَها وتجديدها بشكل لم يسبق لَهُ مثيل وعلى أسس ومبادئ جديدة.

وهنا لم يبقَ إلا الشخصيّة المضيئة النيّرة للمسيح ذاتِه، والتيُ كانَ من أصعب الأمور أن يدخُل في صراع معَهَا. لقد كان مُضطراً كاشتراكي أن ينقض تعاليم المسيح، وأن يصفهُ بالكاذب والجاهِلِ محبّة الناس وما إلى ذلك، ولكن على الرغم من كل ذلك بقيت صورة الرب الإنسان، أخلاقُهُ صعبة المنال، جماله الرائع الذي لم يتوقف بيلنيسكي أمامه كعقبات لا تقهر - بدافعٍ من همّتِهِ العالية واندفاعِهِ - كما كان الأمرُ عند رينان[٢]، الذي أعلن في كتابِهِ الطافِحِ كُفراً «vie de jesus»[1]، أن المسيح على الرغم من كل شيء هو المثل الأعلى لجمال الإنسانيّة، هو النموذج الذي يصعب الوصول إليه، والذي يصعبُ تكرارُهُ وحتى في المستقبل.

- لكن هل تعلم - صَرَخَ ذاتَ مساء ناظراً إلي «وقد كان يصرُخُ أحياناً حينما يشتعل غضباً»، هل تعلم أن من غير الممكن أن نحصي آثام الناس وعيوبهم وأن نحمّلهم مسؤولية ذلك، عندما يُبنى المجتمع بشكلٍ سلبيٍ، خسيس ودنيء، عندها لن يبقى للإنسان إلا التصرف بصورةٍ خسيسة وسيئة لن يبقى لَهُ إلا أن يقترف الأعمال الشريرة، لاسيما حين يقاد إليها بسبب وضعِهِ الاقتصادي. إن من غير المعقول، بل من القسوة أن نطلبَ من الإنسان أن ينفّذَ أعمالاً لا يَسَعُهُ تنفيذها بحكم طبيعتِهِ، حتى ولو رغبَ هو بذلك. في هذهِ الأمسية لم نكن وحَدنا، بل كان مَعنا أحد أصدقاء بيلينسكي،

١- «حياة يسوع» بالفرنسية في الأصل.

وهو صديقُ يحترم بيلينسكي ويستمعُ إليه، كان كاتباً مبتدئاً، شاباً، ولكنَّهُ فيما بعد سيحققُ شهرةً في عالم الأدب - لقد كانَ النظر إليه مؤثراً في للغاية - فجأةً قطعَ بيلينسكي صُراخَهُ الحاد وتوجّه بنظرِهِ إلى صديقهِ ثُمّ أشار بيدهِ نحوي قائلاً:

- كل مرّة أذكُرُ فيها المسيح تتغيّرُ ملامحُ وجههِ كلّها، وكأنّهُ يريدُ أن يبكي صدّقني إذاً أيّها الشخص البسيط - واندفعَ نحوي مُتابعاً توجيهَ الكلام إلي - صدّقني أن مسيَحكَ هذا لو ولدَ في زماننا اليوم لكان عاديّاً تماماً لا يثيرُ إيّ قدرٍ من الاهتمام، ولكانَ قد ضاعَ في بحرِ العلوم الحالية وفي حِراكِ البشريةِ المعُاصر.

وهنا تدخّل صديق بيلينسكي مُقاطِعاً:

- أوه لا. لا لو ظهرَ المسيحُ اليوم لا نضمّ إلى حركةِ الناس ولأصبحَ على رأسها.. «قال ذلك - على ما أذكر - وهو يذرع الغرفةَ جيئةً وذهاباً بينما كنا أنا وبيلينسكي نجلس».

- آه نعم.. نعم.. - فجأةً وبسرعةٍ مُدهشة وافق بيلينسكي ثُم تابع - بلى كان سينضمُ إلى الاشتراكيين ويسيرُ خلفهم. وأول أولئكَ الذين يمثّلونَ مُحرّك البشريّة كانوا من الفرنسيين: وأسَبقُهُم جورج زاند[٤]، ثم كابيت[٥] المنسي تَماماً الآن، بييرليرو[٦]، برودون[٧]، الذي يُعَدّ الآن في بدايةِ عملِهِ ونشاطه. وبالإضافة لهؤلاء الأربعة، لابد من ذكر فورييه[٨] الذي أجلّهُ بيلينسكي، عن هؤلاء وحولهم كانت تدور الحوارات مساءاتٍ طويلة، والحق أنهُ قد أنضم إليهم مفكرٌ ألماني هو فيرباخ[٩]، وقد كان بيلينسكي يقدّرهُ ويُجلّهُ كثيراً. «بيلينسكي، الذي لم يتمكّن طوال حياته أن يتعلّم لغة أجنبيّة واحدة[١٠]، تكلّم عن فيرباخ» وبكثيرٍ من التعظيم كان يتحدّث عن شتراوس[١١].

لقد كان من خلال إيمانِهِ الدافئ الطيب بأفكارِهِ وعقيدتِهِ - دون شك - أسعدَ إنسان، وعبثاً كتبوا فيما بعد أن بيلينسكي لو عاشَ أطولَ من عمُرِهِ كان انضمَّ إلى أصحابِ النزعة السلافيّة. ما كان لبيلينسكي إطلاقاً أن ينتهي إلى هذا، كان على الأرجح سينتهي مُهاجراً لو تمكّن طبعاً من الهجرة ولو مَدّ الله في أيامِه، لانطلقَ عجوزاً صغيراً مبتهجاً بدفءِ إيمانِهِ بعقيدتِهِ القديمةِ ذاتِها، دون أن يراوِدَهُ أدنى شك أو وسواس، يشاركُ في مؤتمراتِ ألمانيا وسويسرا، أو لكانَ قد التحقَ نصيراً بضابطٍ ألماني مُحارب «غيوغ[١٢] m - me» لأجلِ أي مشكلةٍ أو مسألةٍ نسائيةٍ ما! إن هذا الشخص المُتع الرائع، ذو الضمير الهادئ المطمئن، كان أحياناً يكتئبُ ويحزن، لكن حزنَه كانَ من نوعٍ خاص، ليسَ من الارتياب أو الشك، وليسَ من خيبةِ الأمل، لا لنقل إذا من حماستِه التي تتجلى في أسئلتهِ: لماذا ليسَ اليوم؟ لماذا ليسَ غداً؟ الخ. لقد كان الرجُلَ الأكثرَ عجلةً في روسيا كلها. مَرّةً قابلتُهُ في الساعة الثالثة بَعد الظهر، عند كنيسة زنامينسكي[١٣]. وقد قال لي إنه خرجَ يتنزّه وهو عائد الآن إلى المنزل:

- أنا آتي إلى هنا أغلب الأحيان لأرى كيف تتمُ عملية بناء محطّة نيكولاي فسكي للسكة الحديديّة «وكانت وقتها قيد الإنشاء». إنني أستجيب لنداء قلبي فأقفُ أراقب العمل، في النهاية ستصبحُ لدينا سكة حديديّة واحدة على الأقل، لعلّك لا تصدقّ كم تثلجُ هذهِ الفكرة صدري.

كانوا قد قالوا بحميميّة وصِدق إن بيلينسكي لم يتصنّع أو يُداجي أبداً، وذات يوم حدثَ أن سِرنا معاً أنا وهو... وفي الطريق أذكرُ أنهُ قال لي قريباً من المقبرة:

- اسمع كيف يبكونَ وينوحون على الأضرحة. «كان يعلم أنّهُ مصابٌ بسلٍ رئوي» عندها فقط سيتذكّرون من فقدوا ومن أضاعوا!

في العام الأخيرِ من حياته، لم أزُرْهُ. كان قد بدأ ينفر منّي. لكنني كنتُ قد اعتنقتُ تعاليَمه بقوّة.

بعد نحو العام في توبلوسك عندما كنا في مرحلة الانتظار الأخيرة نجلسُ في ظل الحراب فيما يشبه البهو الانتقالي، رأينا زَوجات الديسمبريين[1]، وهنّ يترجيّن السجّان كي يسمح لهنّ بلقاءٍ على انفراد مَعنا. لقد عايّنا أولئكَ المعَذَّباتِ العظيمات، اللواتي رافقنَ أزواجهنّ طواعيةً إلى سيبيريا لقد تركنَ كل شيءٍ خلفهنَ الشُهرَة والغنى، الأقرباء والعلاقات، الأهل! لقد ضحّينَ بكل شيء لأجل الواجب الآخلاقي. واجب الحُريّة الأسمى والأغلى لم يكنَّ مذنبات قيد شعرة، لكنّهنّ وعلى مدى خمسةٍ وعشرين عاماً تحملّنَ كل ما وقع على أزواجهنَ من العذاب. دامَ لقاؤنا بهنّ في تلك المحطّة ساعة وبعدها باركننا ورسمنَ على صدورنا إشارة الصليب، ووزعنَ على كل واحدٍ منا إنجيلا - وهو الكتاب الوحيد المسموحُ بحملِهِ في المعتقل - ثم ساروا بنا.

أربع سنوات كاملة كان هذا الكتابُ يستلقي تحتَ مخدّتي في سجن الأشغال الشاقة، لقد قرأتُهُ وقرأتُ غيره خلال تلك الأعوام. واستخدمتُه نفسه في تعليم القراءة لأحد المعتقلين، من حولي كُنتَ ترى أولئكَ الذين «لم يكن بمقدورهم» - وفق فكر بيلينسكي - إلا أن يرتكبوا جرائِمَهم وقد كان هؤلاء أكثر تعاسةً من غيرهم، مع أنني علمت أن روسيا كلّها كانت تدعونا جميعاً «بالتعساء» وقد سمعتُ ذلك مَرّاتٍ كثيرة ومن شفاهٍ عديدة،

---

[1] - مجموعة من المنتفضين على حكم القيصر في ١٤ ديسمبر - كانون أول ١٨٢٥.

وهنا كان الأمرُ مختلفاً تماماً عما كانَ قد تحدث عنهُ بيلينسكي أو عَمّا سمعناهُ في أحكام المحلّفين الأخرى.

في تلك الكلمة «التعساء» وفي حُكم الشعب كانت تُرنُّ فكرةٌ أخرى تماماً.

لقد كانت سنوات الأشغال الشاقة الأربع مدرسةً طويلةً جداً. وكان لديّ من الوقت ما يكفي لكي اقتنع بذلك... عن هذا إنّما أردتُ الآن أن أتحدّث وقد فعلت!

الوسط

على ما يبدو أن هناك شعوراً عاماً واحداً لكل أعضاء هيئات المحلفين في العالم كلّه وبخاصة للمحلّفين عندنا هو الشعورُ بامتلاك السلطة، أو من الأفضل القول السلطة المطلقة «وهنا لا أتحدّثُ عن المشاعر والأحاسيس العاديّة البسيطة». إن الشعور يكون قبيحاً أحياناً وبخاصة في تلك الحالة حين يملكُ زمامَ الأشياء الأخرى، أو يتفوّق على ما عداه، ومثل هذا الشعور - ولو بشكلٍ غير ملحوظ، أو تحت ضغط وسيطرة مشاعر وأحاسيس أخرى نبيلة - يجب أن يظلَ مُنغَرِساً في نفسِ كُلِ مُحلّف، حتى ولو كان يَعي أشدَ الوعي واجبه الوطني. وبظني أن هذهِ المَسْألَة نتاجُ قوانين الطبيعة نفسها. أذكُرُ أنني كنتُ شديد التأثر عندما قاموا بتأسيس أول محكمة «عدل»، وصرتُ أرى جلساتها في أحلامي، حيثُ تكونُ القاعة غاصة بالناس، الفلاحين، الإقطاعيّين القدماء، الحاكم والمحامين، وكل هؤلاء سيتوجّهونَ إلى المحلّفين، يستعطفونهم ويتملقونهم، بينما هم يجلسونَ بصمت ويفكرون: «هو ذا الأمرُ بين يديَّ الآن، إن أردتُ بَّرأتُهُ، وإن رفضتُ - فسأرسِلُهُ إلى سيبيريا نفسها».

ومن الرائع اليوم أنهم لا يُدينونَ بل يُبرئون، وهذا طبعاً استخدامٌ للسلطةِ، حتى الحد الأخير، ولكن ضمن وجهة معيّنة لعلّها رومانسيّة فحسب. الأمرُ غير جَلي على كل حال - لكن العامةِ عندنا تبدو وكأنها في كلِ مكان متواضِعة على أشياء ثابتة، لكأن كل شيء قد تَمَّ الاتفاق عليه سَلفاً. إن المجتمع «الموجّه» يبدو وكأنّهُ لا يقبل الشك، وهنا تكمنُ

المسألة، إنها الولعُ في التبرير وتصديق أي شيء، والأمر لا ينطبقُ فقط على الفلاحين، والمضطهدين والمذلين والمهانين، بل على الروسِ كافةً، بما فيهم المحلفون وأصحاب الرُتب السامية، والمناصب العالية، حتى الحائزون على جائزة نوبل وأساتذة الجامعات. إن هذهِ الوحدة الاجتماعية تطرحُ أحياناً موضوعاتٍ طريفةٍ للنقاش والتفكيرِ، تفضي أحياناً إلى أفكار غريبة بعض الشيء.

مؤخراً في إحدى صُحفنا ذات النفوذ والامتياز الكبيرين، نُشِرَ مقالٌ متواضع، ضَمّ تحقيقاً رقيقاً مفادُهُ: هل ينحني محلّفونا كسائر الناس أم لا؟.. لقد شعروا فجأة - وليسَ من هذا المصدر أو ذاك - أنهم يمتلكون قدرةً وطاقةً عظيمتين «كما لو أنها أشياء هبطت عليهم من السماء»، نعم وبَعدَ كل سنواتِ المذلّةِ والخضوع، هل هُمّ ميّالونَ إلى مُداهنةِ «السلطات»، وفي كل الحالات رُبّما جاء هذا التحقيق على سبيل المُداعبة أو لمناكدةِ الحاكم السابق إن أردتم؟ إن هذهِ اللعبة أو الأُحجية ليست زائدة أو غبيّة وفيها شيءٌ من الدُعابة، لكن من الصعبِ شرحُها تماماً!

«ببساطة من المؤسفِ تدميرُ حياةِ الآخر، حياة الإنسان. الإنسان الروسي عطوف» - هكذا يُحاكِمُ بعضُهُم الأمر كما حدثَ أن سمعت!

أما أنا فقد فكّرتُ دائماً: إن في إنكلترا شعباً عطوفاً أيضاً، وإن لم يكن لأفرادِهِ - كما يُقال - قلوب رقيقة «بل ضعيفة» كما لأفراد الشعب الروسي، فإن في قلوبهم إنسانية على الأقل ووعياً وشعوراً رائعين بالواجب المسيحي تجاه القريب يتساميان حتى أرقى الدرجات، حتى الإيمان الذاتي الصُلب، الذي رُبّما يتجاوزُ إيماننا رسوخاً. عندهم هناك الأمرُ ليسَ هكذا «فجأةً من السماء»، كم من السلطاتِ تعاقبت عليهم، لقد صنعوا بأنفسهم محكمة المحلّفين تلك ولم يأخذوها مِن أحد، وقد ثبّتوها قروناً، وما حصلوا عليها كهديةٍ على الإطلاق.

وبالمناسبة عِندهم، يُدرِكُ عضو هيئة المحلفين فور جلوسِهِ على منصّتهِ أنه ليسَ إنساناً حسّاساً وشفّافاً ذا قلب رحيم فحسب، بل مواطناً قبل كل شيء. إنّهُ يفكرُ أيضاً «أصحيحٌ، أم لا»، أن تنفيذ الواجب الوطني، أعلى وأهم من النجاح القلبي الشخصي.

منذ فترةٍ قريبةٍ جَرت هيجاناتٌ شعبيّة عامة في كل أرجاء المملكة عندما قامت هيئةُ المحلّفين بتبرئةِ لصٍ مُذنب. إن تلك التحرّكات الشعبيّة أثبتت أنه - إن حدثت مثلُ تلك الأحكام الخاطئة كما هو الحال عندنا، فإنها تبقى هناك قليلةً جداً، بل استثنائيةً تماماً وتستدعي موقفاً شعبياً مُستاءً. هُناك يُدرِكُ عضو هيئة المحلّفين أنهُ يقبضُ بيدهِ على رايةِ إنكلترا كلّها، ويتوقّف من لحظتها عن الإحساس أنه يمثل شخصه المفرد ويدرك أن عليهِ أن يعكس رأي البلد كله. إن القدرة على الوصول إلى درجة المواطن - هي ذاتُها تماماً القدرة على الرقي بالذات لتمثيل رأي الوطن. آه وهناك أيضاً توجَدُ «الشفقةُ» في الحكم، وهناك يأخذون بالحسبان «الوسط المحيط أو البيئة»، «وهي مقولتنا المحبوبة هذهِ الأيام على ما أعتقد» - ولكن إلى حدٍ معروف ومعيّن يحددُهُ العقل المُعافى للبلاد، ودرجة تنويرها بمبادئ الديانة المسيحيّة «وهذهِ الدرجة عالية بما فيه الكفاية». ويحدُثُ كثيراً أن المُحلّف يطلقُ حُكمَهُ على المُذنب المُدان، وقد ثبّتَ قلبَهُ جيداً، وهو يدرك قبل كل شيء أن واجبه يتجلّى في تلك القدرة على الإثباتِ والبرهنةِ على صواب حكمِهِ أمام مواطنيه، كما في إنكلترا القديمة حيث كل فرد جاهز لتقديم دَمِه، وحيثُ لا زالت الرذيلةُ تُدعى رذيلةً، والشرُ - شرّاً وحيث الأسس الأخلاقيّة للبلدِ قويّة ومتماسكة كما كانت من قبل.

وهنا أسمَعُ هاتفاً يقول لي: - لنفرض حَتّى أن أسُسَكم ثابتة «أي الأسُس المسيحيّة» فالأمرُ نفسُه، يجب أولاً أن يوجَدَ المواطِن وبعد ذلك تأتي الأشياء الأخرى بما فيها الراية التي ستُرفَع.. إلخ. كما قلتَ من قبل.. ولنفرض أن

الأمر هكذا دون كثيرِ جدال، لكن فكّروا من أين لنا أن نحصل على هذا المواطن؟، إن علينا أن نفهم ما حَدثَ البارحة فحسب! إن حقوق المواطَنة «وأي حقوق!» سقطت عليهِ فجأةً وكأنما من أعالي الجبال. لقد سحقتهُ وحطّمتهُ.. إن هذهِ الحقوق بالنسبة لَهُ لا تعني الآن إلا الأعباء... الأعباء!

وأجيبُ هذا الهاتفَ قائلاً بشيءٍ من الاعتزاز:

- طبعاً هناك قسطٌ من الحقيقةِ في ملاحظتك، لكنّ من جديد أقولُ: إن الشعب الروسي...

- الشعب الروسي؟ اسمح لي! - أسمَعُ صوتاً جديداً يقاطِعُني - يقولون إنَّ تلك العطايا سقطت عليهِ من الجبال وخنقتهُ، ولكنَّهُ رُبّما لا يحسُّ بحجم تلك السلطة التي مُنِحت لَهُ كهدية فحسب، بل يُحسُّ فوق ذلك بأنها مُنحت لَهُ كأعطية أو هِبة، بمعنى أنه لا يستحقُ هذهِ الهديّة حتى الآن. وهنا لاحِظ أن هذا القول لا يعني في حقيقة الأمر أن الشعب الروسي لا يستحقُ هذا العطاء، أو «أن من المبكّرِ» منحهُ هذهِ الحقوق، أو أنّهُ «لا يجب» أن يحصل عليها، الأمرُ عكس ذلك تماماً: إنّهُ الشعب نفسه يَعترفُ في وجدانهِ المتواضعِ والذليل أنهُ غير جدير بهذهِ الهديّة - وهذا تواضُع ومَذلّة ولكنّ هذا الوعي الشعبي العالي بعدمِ جدارتِهِ إنما يعني بصورةٍ من الصور أنّهُ جديرٌ بهذا العطاء ويستحقُه.

إن الشعبَ مُستاءٌ ومرتبك بسبب ذُلهِ وضَعفِه. من ذا الذي ينظُرُ في كنوزِ أسرارِهِ الخبيئةِ في قلبِهِ؟ هل يستطيع أحدٌ ما أن يَزعم أنّهُ على معرفةٍ تامة بالشعب الروسي؟ لا، هنا ليسَ الموضوعُ موضوعَ لطفٍ أو رقّةَ قلبٍ أو ضعف اسمح لي أن أضحك من مثل هذه المزاعم.

هنا مسألةُ السلطة المخيفةِ نفسها! لقد بثّتْ هذه السلطة المهيبة الرُعبَ في نفوسنا على المصير الإنساني، على مصير إخوتنا الأشقّاء، وحتى ننمو ونرقى إلى مستوى المواطنة التي تطرحونها سنواصِلُ الرحمةَ والعطف. بتأثير الرُعبِ

نعطِف. إننا نجلِسُ كمحلّفين ونفكّر: «هل نحن أنفسنا أفضل من هذا المذنب؟ نحن الآن أغنياء، ومكتفون، فلو حدثَ وكنّا في وضعٍ كوضعِهِ هو فسنقترفُ أشياءَ أسوأَ مما اقترف - ولهذا نعطف ونرحم». وهذا أمرٌ جيدٌ يا سيّدي، إن الرحمةَ فِعلُ القلب. وهذا رُبّما يكونُ إيذاناً بشيءٍ ما أكثرُ سمُوّا من المسيحية في قادم الأيام، شيء لم يعرفْهُ العالم حتى الآن!

«هذا إلى حدٍ ما صوت أصحاب النزعة السلافيّة» - أناقشُ الأمرَ في نفسي. الفكرةُ حقيقةٌ تُهدّئُ النفس، أما التخمينُ بمهانة الشعبِ وذُلّهِ أمام السلطة التي مُنحت لَهُ دون مقابل، السلطة المُهداة حتى الآن من «لا يستحقُّها»، فيبقى أقل حضوراً من التخمين بوجودِ رغبة في «مُناكدة النائب العام»، مع أن مثل هذا الظن يظلُّ يعجبُني بسبب واقعيتِهِ «على أن أستقبِلَهُ كحَدَثٍ شخصيٍ، كما تخيّل الأمر المؤلف نفسه»، غير أن ما يُربكني كثيراً هو: هَل بدأ شعبُنا يخافُ شفقَتَهُ ذاتها؟ «مؤلم، يزعمون، مؤلمٌ جداً أن تُدين شخصاً». ولكن ما الحل إذاً، اخرجوا من المكم. أو لنقل بصدقٍ أكبر ارتفعوا فوق المكم.

وفي حقيقة الأمر، إذا كنّا نعتقد أننا أسوأ من المجُرم. فهذا يعني تماماً أننا نعترف بمقاسمتِهِ الجريمة التي ارتكبها، إذا كانَ قد تجاوز القانون الذي كتَبَتْهُ الأرض، فنحن مذنبونَ في أنّهُ يقف الآن أمامنِا. فلو أننا جميعاً كُنّا أفضل مما نحنُ عليه لكان هو بدوره أفضل منه اليوم ولما وقفَ أمامنا الآن...

- إذاً هكذا تمّ تبرير الأمر؟

لا، على العكس تماماً: يجب هنا أن نقول الحقيقة، أن نُسمّي الشر شرّاً، ولكن بالمقابل علينا أن نأخذَ نصفَ عبءِ الحكم وألمِهِ على عواتقنا. ندخُلُ إلى قاعة المحكمة ونحنُ نفكّر بأننا مذنبون أيضاً. إن هذا الألم العميق الذي يخافُهُ الجميع والذي سنخرجُ من قاعة المحكمة ونحنُ نحملُهُ هو ما سيصبحُ بالنسبة لنا عقاباً.

إذا كان هذا الألمُ حقيقيّاً وقويّاً فإنّهُ كفيلٌ بتطهيرنا وجعلنا أفضل، وحين نصبحُ نحن أنفسنا أفضل نكونُ في الآن نفسه قد جعلنا الوسطَ من حولنا أفضل. بهذه الوسيلة فقط نقومُ بإصلاحه. أما أن نهربَ من شفقتنا نفسها كي لا نتألم، وتبرير كل شيء - فهذا أمرٌ سهلٌ. وهكذا خطوةً فخطوة نصلُ إلى نتيجة مفادُها: أن ليسَ هناك جريمة، و «الوسط المحيطُ هو المذنب».

نصلُ إلى اعتبار الجريمة واجباً، احتجاجاً نبيلاً ضد «الوسط».

«وباعتبار أن المجتمع مبنيٌ على القذارةِ والدناءة، فليسَ بالإمكان أن نحيا فيهِ دونَ احتجاج ودون جريمة». «وما دامَ المجتمعُ مبنيٌّ على القذارةِ فليس لنا أن نشق طريقنا ونسيرُ في درب الحياة دون سكين في اليد»، هذا ما تقولهُ بعضُ التعاليم عن الوسط المحيط والبيئة، وهي مغايرة للمسيحية تماماً، التي تعترفُ بدورها - بشكل كاملٍ - بضغط المحيط وقسوته ولكنّها تُغلّبُ الرحمة والشفقة على الآثم، وتضعُ المبادئ الأخلاقيّة والواجبات في صراعٍ مع الوسط المحيط، وتقيمُ حداً فاصلاً يبيّنُ أين ينتهي دور البيئة، وأين يبدأ دور الواجب.

إن المسيحية وقد جعلت الإنسان مسؤولاً، اعترفت في الآن ذاته بُحريّته. أما التعاليم عن الوسط المحيط فقد قامت، من خلال ربطها تصرّف الإنسان بكل خطيئة كبيرة أو صغيرة في المجتمع، بدفعه إلى حالة من الضياع وعدم التحديد، إلى حالة من التحررِ الكاملِ من كلِ واجبٍ أخلاقيٍ شخصي، إلى حالة من الاستقلاليّة الغريبة، لقد قامت بدفعِهِ إلى عبوديّةٍ دنيئة، وإلى سوى ذلك من أشياء شنيعة يمكن تصوّرها. انطلاقاً من مثل هذه المفهومات يستطيعُ شخصٌ ما يرغبُ في الحصول على التبغ ولا يملك مالاً أن يقتل شخصاً آخر فيحصل على المال ويشتري التبغ. ولنتأمل موقفاً آخر في هذا السياق: إن الإنسان المتطوّر أكثرَ حساسيّةً وتأثّراً من المتخلّفِ فيما يتعلّق

بتلبيةِ احتياجاتِهِ، وهو بحاجة ماسة للمال لأجل ذلك، فلماذا لا يقتلُ الإنسانَ المتخلّف ليحصلَ على مَالِه؟

إن لم يكن ثمّةَ حل آخر لإشباع تلك الاحتياجات.

لعلكم لم تستمعوا إلى مُرافعات بعض المحامين حول هذا الأمر: «بالطبع لقد خَرَقَ القانون، بالطبع ارتكب جريمة، عندما قتلَ هذا الشخص المتخلّف، ولكن أيّها السَادةُ المحلّفون أرجو أن تأخذوا بالحسبان كذا... وكذا...»

إن مثل هذهِ الأصوات بدأت تقريباً تنتشر وتتعالى، ولماذا أقول تقريباً؟! لقد انتشرت فعلاً.

وهنا يترامى إلى مسامعي صوت ساخر:

- ولكنكم أنتم من فرض على الشعب بظنّي فلسفةَ «الوسط المحيط» الحديثة هذه، وإلا فكيف كُانَ بإمكانها أن تطير إليهِ؟! إن أولئك المحلّفينِ الاثني عشر وهم كُلّهم من الرجالِ يجلسونَ ويَعتبرونَ مجرّد الإفطار أو تناول الطعام في شهر الصوم إثماً كبيراً، بينما تتهمونهم عَلناً بحملِ النزعات الاجتماعية الاشتراكية.

وهنا أفكُر أنا:

«طبعاً... طبعاً كم بين هؤلاء وفكرة «الوسط المحيط أو البيئة»، لكن مثل هذه الأفكار تُحْمَلُ في الهواء، إنها قادرة على النفوذ وتجاوز الحواجز»

- هكذا إذاً - وتتعالى ضحكاتُ الصوتِ الساخر.

- وماذا لو أن شعبنا ميالٌ لفلسفةِ الوسط المحيط هذه بطبيعته الخاصة، وبطريقتهِ الخاصة أيضاً، بما في ذلك أصحاب النزعة السلافيّة أنفسهم؟

وماذا لو أن في أوربّا من المواد والموضوعات ما هو أفضل مما لدينا لمروّجي الأفكار الآخرين؟

ويزدادُ سعيرُ ضحكاتِ الصوت الساخر ارتفاعاً ووضوحاً.

لا ، الأمـرُ بالنـسبةِ للـشعبِ حتـى الآن مُجـرّدَ مخـرج غـير متوقـع ولـيس «فلسفةَ الوسط المحيطِ أو البيئة». وبالتالي أمامنا هنا خطـأ واحـدٌ. أو كذبـة واحدة، وفي هذه الكذبة الكثيرُ من الإغـراء. وهـي علـى كل حـال كذبـة يمكنُ شرحُها وتعليُلها بمثالٍ واحد على أقل تعديل.

لنفـرض أن الـشعب يُـسمّي المحكـومين «بالتعـساء»، ويعطـيهم قروشـاً وأرغفة، فما الذي يُريُد أن يقولهُ من خـلال ذلـك، علـى مـرّ الـسنين؟ هـل هـو يؤكّدُ الحقيقة المسيحيّة، أم حقيقة «البيئـة»؟ وهنـا بالتحديـد حجـر العثـرة، هنا يكمنُ الذراع الذي يمكـن لمروّج فكـرة «البيئـة أو الوسـط المحـيط» أن يتمسك به.

هنـاك مجموعة من الأفكـار غير المقالـة، نابعـة مـن الـلا وعـي، ولكنّهـا محسوسة بقوّة، وهـي كمـا لـو أنهـا مُذابـة في نفس الإنسـان. هـذه الأفكـار تجـدهُا في ذات الـشعب كُلّـه. في الإنـسانيّة جمعـاء أيـضاً. وإلى الآن هـذه الأفكـار موجـودة في حيـاة الـشعب بشـكل غيرواعٍ أو ملحـوظ، لكنّهـا في الوقت نفسه مَحسوسة بقوّة وصدق - وإلى الآن استطاع هذا الشعب أن يعيش حياة قوّية ثرّة. حيثُ تتمثّل طاقةُ حياته تلك في طموحـه إلى إخـراج وفهـم تلـك الأفكـار الخبيئـة، كلمـا تمـسكَ الـشعبُ بهـذهِ الأفكـار بـصورةٍ ثابتـة وراسخة، كـان أقل قُدرةَ على تغيير شعورهِ البّدئي الأوّل. وكلمـا كـان أقل ميلاً للخضوع إلى التفسيرات الكاذبة لتلكَ الأفكـار، كـان أكثر عظمـةً وصلابةً وسعادة.

إلى عداد مثل تلك الأفكـار الخبيئـة عنـد الـشعب الروسـي، تنتمـي فكـرةُ تسمية الجريمـةِ - بالتعاسـة[1]، والمجـرمين - بالتُعساء. إن هـذه الفكـرة روسيّة

أ- حرفياً يمكن ترجمة هذه الكلمة عن مصدرها الروسي بـ «اللا سعادة» - لكن معادلها في العربيّة على ما أعتقد: كلمة «المصيبة». /المترجم/

صرف. ولن تجدها عند أي شعب أوربي. وفي الغرب اليوم يشهرُها ويتبناها الفلاسفةُ والمفكرون، أما شعبنا فقد اعتنقَ هذه الفكرة قبل فلاسفتهِ ومفكريه المختلفين. لكن هذا لا يعني - ولا يستنتجُ منهُ - أن الشعب بمنأى عن الوقوع في الحيرة والإرباك جرّاء التطوير المظلل لهذه الفكرة على أيدي المفكرين ولو إلى حين. إن الفكرة الأخيرة والقول الفصل - بلا شك - يظلان للشعب دوماً، لكن في وقتٍ محددٍ ما يمكن أن يكون الأمرُ على غير ذلك.

وباختصار: فإن الشعبَ وباستخدامهِ كلمة «التُعساء» واصفاً معشرَ المجرمين لكأنه يقولُ لهم: «لقد ارتكبتم الإثم وها أنتم تعانون، ولكننا أيضاً آثمون ربّما ولو كنّا في موضعكم لارتكبنا ما هو أسوءَ، ولو كنا أفضلَ مما نحن عليه لما كنتم أنتم الآن في المعتقل. لقد حملتم - بالإضافة للعقوبة على جريمتكم - أعباء هذا الوضع العام لغياب القانون. صلّوا لأجلنا وسنصلّي لأجلكم، ولخلاصكم، وحتى ذلك خذوا أيّها «التُعساء»، قُروشنا... نعطيكم إياها كي تعلموا أننا نذكركم، وما قطعنا حبَل الأخوّة بيننا».

صَدّقوني ما من شيءٍ أسهل من القبول بفكرة الوسط أو البيئة إضافةً إلى ما سبق: «المجتمعُ سيئ، ولهذا فنحنُ سيئون، لكننا أغنياء، ولدينا ما نريد، لقد تجاوزنا مُصادفةً ما عانيتموه، ولو أننا اصطدمنا بالمشكلات نفسها - لفعلنا ما فعلتموه.

من المذنبُ إذاً؟ الوسط الاجتماعي هو المذنب. وهكذا ليس هناك إلا بنية اجتماعية سيئّة، أما الجريمة فلا وجودَ لها البتّة».

وعليه ففي هذهِ النتيجة السفسطائيّة تتجلّى المغالطة والمآخذ اللذان تحدّثتُ عنهما.

لا. الشعبُ لا ينفي الجريمة، ويعلمُ أن المجرمَ مذنب لكن الشعبَ يعلمُ أيضاً أنّهُ يقاسمُ كل مجرمٍ الذنب الذي ارتكبه. وهو هنا إذ يتحمل جزءاً

من الذنب. يُبرهنُ في اللحظة نفسها ليسَ على إيمانه بنظريةِ «الوسط الاجتماعي». بل على إيمانهِ بأن هذا الوسط يتعلّقُ بهِ هو بشكلٍ كامل، بندمهِ المستمر وتوبتِهِ، بتطوّره الذاتي ورقيّه. الطاقة، العمل، النضال - هذه هي الأشياء التي تصنعُ الوسطَ الاجتماعي.

بالعمل والنضال فقط يمكنُ الوصولُ إلى تحقيق الوجود الذاتي، إلى الإحساس بالكرامة الذاتية، «عندما نصلُ إلى هذا سنصبحُ أفضل، وسيصبحُ الوسطُ المحيطُ أفضل». هذا هو المسكوتُ عنهُ والذي يشعرُ بهِ الشعب الروسي بقوة في فكرتِهِ الخفيّة عن تعاسة المجُرم.

فلتتصوّرا الآن لو أن المجرم نفسه سمع من الشعب: أنه «تعيس»، فسيعتَبرُ نفسه تعيساً فحسب وليسَ مجرماً، وعندها سيرتدُّ الشعب ذاتُهُ عن هذا التزوير، وسيُعَدّهُ خيانةً للحقيقة الشعبيّة وللإيمان.

وأستطيعُ إن أقدّمَ أمثلة على ذلك، لكنني سأدعُ هذا الآن واكتفي بما قُلْتُه.

المجرّم والمهيّأ لارتكاب جريمة - شخصان مختلفان، لكنهما هنا ينتميان إلى فئةٍ واحدة. ما حيلتنا إذا كانَ المجرمُ يحضّرُ لجريمته بكل وعي ويرددُ في الآن نفسه «ليسَ هناك جريمة!»، ما دامَ الشعبُ نفسه يسميهِ بائساً و «تعساً»؟

نعم، دون شك، يمكن لشعبٍ رؤوف أن يسميه كذلك، وهل هناك أكثر تعاسةً من مجرمٍ، لم يَعدْ حتى يَعْتَبر نفسه مجرماً، إنه حيوان، إنه وحش. وما معنى ألا يفهم ما هو عليه من توحش ومن موتٍ للضمير؟

إنّهُ بذلك يُضاعفُ تعاسته الحقيقيّة، يُضاعفُ جُرمَهُ. إن الشعب قد يعطف عليه لكنهُ لن ينسى حقيقته!، ما من مرّةٍ نعت الشعبُ فيها المجرمَ «بالتعس»، بهدفِ نسيان حقيقته كمجرم! وما كانَ من الممكن أن تحدث مصيبة أكبر من موافقةِ الناس أنفسهم على رأيٍ أو موقف

مجرمٍ كهذا، قائلين لَهُ: «ليس هناك مذنب، لأنّهُ ما من جريمة في الأصل!».

هذه هي عقيدتنا، عقيدتُنا العَامة، ويسرّني أن أقول: عقيدةُ كل المنتظرين والمتوكلّين ولكن لا بأس من إضافة جملتين جديدتين..

لقد كنت في المعتقل[1]، ورأيتُ مجرمينَ، مُجرمينَ «محكومين ومدانين»، وأكررُّ أنها كانت بالنسبة لي مدرسة طويلة الأمد. ما من مُجرمٍ من أولئك توقف عن اعتبار نفسِهِ مُجرماً. هيأتُهُم كانت تؤكّد أنهم معشّرُ قُساة، كانوا يظهرونَ عجرفةً تجاه الأغبياء من السجناء الجدد، لكن معظمهم صامت شارد حزين. عن جرائمهم لم يتحدثوا، وما سمعتُ قط تذمراً من أي واحدٍ منهم، ولأقل أن الحديثَ عن جرائمهم الشخصيّة علانيةً كان ممنوعاً، حدثَ أحياناً أن ارتفعَ صوتُ أحدٍ ما يدعو إلى ما يشبه ذلك، فإذا السامعون جميعاً يقفون وقفةَ رجلٍ واحدٍ لمنع هذا المتطفّل أو «الحشري» من بلوغ غايته! عن «ذلك» كما قلتُ لم يكن الحديثُ مسموحاً.

لكن أقولُ بصدق إنه ما من واحدٍ منهم إلا وعانى عذاباً روحيّاً شديداً في أعماقه يطهرُهُ ويقوّيه. لقد رأيتهم موحدين ساهمين، ورأيتُهم في الكنيسة يصلّون ويعترفون، وتناهت إلى سمعي بغتةً كلماتهم وصرخاتهم... أتذكر وجوههم - وأرجو أن تثقوا أن أحداً منهم لم يَعْتَبر في قرارة نفسه أنه على حق!

لا أريدُ أن تُفهَمَ كلماتي على محملِ القسوة، ولكنني على الرغم من ذلك أتجرأُ على قول ما يلي بصراحة: إنكم بعقوبتكم القاسية، بسجّانيكم ومعتقلكم كان باستطاعتكم - على الأرجح - أن تنقذوا نصفهم، أن تُعالجوهم، لا أن ترهقوهم. إن التطهّرَ الذاتي بالألم والمعاناة أسهلُ، أسهلُ - أقولُ لكم - من تلك المشاركة لهم، والتي تمنحهم تبرئة كاملة. إنكم بذلك تبعثون في روحهم الاستهتار والوقاحة، وتتركون فيها

سؤالاً مُغرياً وشيئاً من السخرية تطالكُم. ألا تصدقون ما أقول؟ سخرية منكم شخصياً ومن محاكمكم، ومن محاكم البلاد كلها، إنكم تسكبونَ في أرواح هؤلاء السجناء نُكراناً لحقائق هذا الشعب وكفراً بها، كفراً بحقيقة الرب، تتركونَ واحدهم مشوشاً مُرتبكاً. يخرجُ من المحكمة وهو يفكر: «آي، هذا هو الأمرُ إذاً. لا قسوة. يعني يمكنني أن أتصرّفَ هكذا من جديد. فما دمتُ مضطراً - لماذا لا أسرق». وهل تعتقدون أنكم بإطلاقكم سراح كل البريئين أو «من يستحقون الرفقَ والعطف»، تمنحونهم حَظّاً أو فرصةً لإصلاح أنفسهم؟. لا عندها سيقومون هم بتقويمكم! وأي مصيبة في ذلك بالنسبة لهم؟ «إذاً، أعتقدُ أنني لم أكن مُذنباً قيد أنملة» - هكذا سيفكّر في نهاية المطاف. وأنتمُ من دفَعَهُ إلى مثل هذه النتيجة. والأهم من كل هذا أن الإيمانَ بالقانون، الإيمان بحقيقة الشعب، بالحقيقة الوطنيّة قد تخلخَل. [...].

فْــلاس

هل تذكرون فْلاس[1]؟ إنه لسببٍ ما يخطرُ على بالي.

بقميصٍ من الجوخ السميك، ذي ياقةٍ مفتوحة،
براسٍ عارٍ،
يَعْبُرُ العم فلاس / العجوز الأشيب.
المدينةَ بطيئاً.
على صدرهِ أيقونةٌ نحاسيّة:
وهو يسألُ عن معبد الرب...

عند فلاس هذا «لم يكن هناك ربٌّ» من قبل:

... باللطم والضربِ
أدخلَ زوجته في التابوت
وغطّى سارقي الخيول وساعدهم.
أولئك الذين يعيشون على النهب والسلب.

حتى سارقي الخيول! - يُريدُ الشاعر أن يخيفنا مستعملاً نبرةَ عجوز تقية. فأي ذنوبٍ هذه، وفجأةً يقصفُ الرعد ويلتمعُ البرق ويمرضُ فلاس، فيرى في هذيانِهِ رؤيا، يقسمُ بعدها أن يجوبَ الأرض جامعاً التبرعات للمعبد:

لقد رأى جهنم لا أكثر ولا أقل
لقد رأى ضوءَ الموت:

رأى الآثمين في الجحيم:
تعذّبهم شياطينُ نشطة
وتأسف لهم ساحرةٌ لا تهدأ.
كانوا سود البشرة
وعيونهم تلمع كوهج الفحم.
....

بكلمة واحدة، هي أشياء رهيبة لا يمكنُ التعبيرُ عنها، بل من المخيف قراءتها. وعلى الرغم من ذلك يتابع الشاعر «هي أشياءُ من الصعب وصفُها».

الورعونَ والفلاحات الذكيّات
يستطيعون السردَ بشكلٍ أفضل

آه أيها الشاعر! «يا شاعرنا الصادق... للأسف!» لو أنكَ لم تتقدّم من الشعب بإعجابك الشديد من أولئك:

الورعون والفلاحات الذكيات
يستطيعون السردَ بشكلٍ أفضل.-

لما كنت قد أهنتنا بهذه النتيجة، التي مفادها أنهُ في النهاية، ومن بين أولئك ستقومُ فلاحاتٌ وضيعات:

يبنينَ معبد الله
على وجهِ أرضِ الوطن.

وربما بـ «غبائِه» سيسرُ فلاس حاملاً حقيبةَ السفر، لكنكم بالتأكيد ستفهمون جديّة مُعاناتِه، وستعجبكم ملامحهُ الجميلة. «فأنتم والشاعر شخصٌ واحد، وما كان للأمر أن يكون على غير ذلك».

إن القوة العظيمةَ للروحِ
تلاشت في طاعة الله وأعمالهِ.

إنكَ تتكلّم بشكلٍ رائع. وأريدُ - في كل الأحوال - أن أصدّق أنكَ أدخلت شيئاً من السخرية عفوَ الخاطر، وشيئاً من الخوف لأجل الحرّيّة، لأن قوّة الخضوع عند فلاس هذهِ مخيفة ومرعبة، إنها ضرورةُ إنقاذ النفس أو النجاة الذاتيّة. إن التعطّش الحماسي للألم هذا قد أدهشكم أنتم، يا عامةَ الناس وأيّها الـ «Gentil Homme'a»[٢] الروس، وقد انتزعَ هذا الأنموذج الشعبي الكبير الاحترامَ والإعجاب من نفوسكم ذات الليبراليّة العالية!

لقد وزّعَ فلاس أملاكَهُ
وأمسى جائعاً وعارياً
ومضى يجمعُ الصدقاتِ
لبناء معبد الرب.
ومنذ ذلك الحين والرجُلُ يجول.
وعمّا قريبٍ سينفقُ قرابة الثلاثين عاماً
وهو يجمَعُ الصدقات -
دون أن يتخلى عن عهدهِ
....
طافحٌ بالحزن الذي لا ينطفئ
أسمرُ طويلُ ومشيق
«آه كم هذا رائع!» «آه كم هذا رائع!»
يسيرُ إلى جوارِكَ ونبدأ
في القرى والمُدن.
....
يسيرُ بمثلِهِ وكتابه
ويتحدّث إلى نفسه عن كل شيء
يسيرُ بإيمانه الحديدي
ويصفّر بنعومة أثناء عبوره

آه ما أجمل هذا، إنه رائع، بالتأكيد ليسَ أنت من كتب هذا، لكنّهُ شخص آخر في مكانك كان قد تعالى في «على الفولغا»[أ]، وقدّم شعراً رائعاً، عن الأغنيات «البورلاكيّة»[ب]. وعلى العموم - لم يكن هذا تعالياً إلا قليلاً - فقد أحببتَ في «على الفولغا» الإنسان بكل إنسانيّته، وقدمتَهُ يجري

أ- يتحدث عن اللوحة الشهيرة «البورلاكيون على الفولغا» للفنان العالمي ريبن في القرن التاسع عشر.

ب- البورلاكيون: هم العمال الذين يقومون بسحب السفن بعيداً عن الشط في القرن التاسع عشر.

عكسَ التيار، وعانيتَ معه وتعذّبتَ لأجله. أترونَ يا سيّدي أن محبّة الإنسان كامل الإنسانيّة - ربما تعني أن تحتقر في الوقت نفسه وتكره الإنسان الحالي الذي قد يقف إلى جوارك. إنني دون قصد قد وضعتُ خطاً تحت أبياتك الرائعة التي لا تقارنُ مع سواها في شعرك الساخر «في مُجْمِلَهِ، اسمحْ لي».

لقد استذكرتُ قصيدة «فلاس» هذه. لأنني ومنذ أيام سمعتُ قصةً رائعة عن «فلاس» آخر، بل عن اثنين متميزّين تماماً. إن هذهِ الحادثة الواقعيّة رائعة حتى من حيث هي نادرة.

يقولون الآن في أديرةِ روسيا يوجد زُهّادٌ مختلفون، رُهبان، آباء يستمعون إلى الاعترافات. هل هذا جيدٌ أم سيئ؟ وهل هو ضروريٌ أم لا؟ حول هذهِ الأمور الآن لا أريدُ أن أقدّمَ رأياً، وليس لهذهِ الغاية أمسكتُ الريشة.

ولكن ما دمنا نعيشُ في هذا الواقع، فليسَ من الممكن أن نخرج من القصّة حتى الراهب، مادامت القصة تتأسسُ عليه. إن بعض هؤلاء الرهبان يبدونَ أحياناً وكأنهم يمتلكون تعليماً عالياً وذكاءً عظيماً. هذا على الأقل ما يروونَهُ عنهم، أنا شخصياً لا أعرفُ عن ذلك. ويقولون إنك تجد بينهم أصحابَ مواهب مُذهلة في الدخولِ إلى أعماق نفس الإنسان والاستحواذ عليها. يقولون إن بعض هذهِ الشخصيّات مشهورة في روسيا كلها، أقصد عند من يهتم بذلك.

يعيشُ شيخ الرهبان الذي أعنيه، على سبيل الافتراض، في قضاء خيرسونسكي، فيسافرونَ إليهِ، بل يسيرون إليهِ على الأقدام من بطرسبورغ، من أرخانغلسكي، من القفقاز، من سيبيريا. يأتون بأرواحٍ مختنقة من الضياع والتعاسة دون ريب، أرواح لا تنتظر لنفسها الشفاء، أو يأتون بأحمالٍ مرعبةٍ تضغطُ على قلوبهم، بحيث ترى هذا الخاطئ لا يتحدث عن هذهِ الأحمال إلى كاهنِهِ الروحي، ليس بسبب الخوفِ أو

عدم الثقة، ولكن ببساطة بسبب التعاسةِ الكاملة وخيبة الأمل في الشفاء. وفجأةً يسمع الواحد من هؤلاء عن ذلك الراهب المتبتّل، أو شيخ الرهبان فينطلقَ إليه.

«وهكذا - قال واحدٌ من شيوخ الرهبان أولئك في جلسةٍ خاصة مع مستمع واحد - أستمعُ إلى الناس وأتلقّى اعترافاتهم منذُ عشرين سنة، فهل تتصوّر كم صادفتُ في لقاءاتي المختلفة تلك من الأمراض الخفيّة شديدة الصعوبة التي تصيبُ نفسَ الإنسان، وخلال عشرين عاماً تصلُ إلى حالة من الارتعاش والارتجاج والذهول أحياناً من خلال ما تستمع إليه من أسرار الآخرين. تفقدُ هدوءَ النفس الضروري لتمنح العزاء للآخرين وتخفف عنهم، وتصبحُ نفسك بحاجة إلى تقوية وترميم النفس ومنحها السلام والهدوء وراحة البال»..

وهنا قام شيخُ الرهبان برواية قصة مذهلة من حياة الناس، هي نفسها ما أشرتُ إليه أعلاه.

«أرى رجلاً يزحفُ نحوي على يديه وركبتيه، وكنتُ قبل ذلك قد شاهدتُهُ من النافذة ورأيتُ كيف يفترش التراب ويزحف. الكلمة الأولى التي وجهها إلي هي:

- ما من نجاةٍ أو إنقاذ لي، إنهم يلعنونني! ومهما قلتُ أو فعلت - إنهم يلعنونني وحسب! حاولت أن أهدئَهُ بأي شكل، كنتُ قد أحسستُ إنه زحفَ من مكانٍ ما لثقل عذابه ومُعاناته.

- اجتمعنا في القرية، بضعة أشخاص - بدأ يتحدّث - ورحنا نتجادَلُ فيما بيننا: «من منا يستطيع أن يقوم بأكبر مخاطرة وبأجرأ عمل ينطوي على الخسّة ضد الآخر»؟

فاندفعتُ مأخوذاً بالحماسة والكبرياء لأعلن أنني الأقدر على ذلك، عندها وقف شابٌ آخر وقال لي وجهاً لوجه:

- ليسَ بمقدورك أن تفعل ذلك إطلاقاً. إنما تتباهى فحسب.

فرحتُ أقسمُ أمامه، وأقطَعُ الأيمان المُغلّظة على نفسي. لكنهُ قال لي:

- لا، توقّف، إن كنت تريد أن تقسم. فأقسم بالآخرة، بنجاتكَ في العالم الآخر أنكَ ستفعل كل ما آمركَ به.

فأقسمتُ كما أراد.

- قريباً إذاً الصيام - قال لي - وعليك أن تؤدي هذه الفريضة. وعندما تذهب للمشاركة، خذ القربان ولكن لا تبتلعه[٣]، ابصقه في يدك عندما تخرج من الكنيسة واحفظه، وعندها سأخبرك بالأمر التالي.

وفعلتُ كل ما أمرني به، فقادني من الكنيسة إلى حديقتها، أخذَ عوداً خشبياً وغرسَهُ في الأرض ثمّ قال: ضع القربان على العود! ففعلت

- أحضر الآن بندقيّة، قال لي.

ففعلت.

- احشّها. فحشوتُها. فقال لي:

- الآن ارفع البندقيّة، وأطلق على القربان.

ورفعتُ البندقيّة. سددتُ. ولم يبقَ إلا أن أضغطَ الزناد، وفجأةً رأيتُ الصليب مكان العود، وعلى الصليب المصلوبَ[٤] نفسه فسقطتُ أنا والبندقية على الأرض فاقداً الوعي».

حدثَ هذا الأمر قبل عدّةٍ سنوات من قدوم هذا الرجل على شيخ الرهبان. من كان هذا الـ «فلاس»، ومن أينَ جاءَ إلى الشيخ؟ الشيخ بطبيعة الحال لم يقلْ، ولم يَبُح، مثلما كتَمَ أيضاً كيفَ كانت التوبة، التي جعلَهُ يتوبها. لقد حَمّل روحَهُ حملاً رهيباً، لا سعةَ - ربما - لبشري بحمله، ومحاكماً الأمر أنه كلما أثقلَ على نفسه كان أفضل، راح: «طلباً للعذاب يزحف».

أليسَ من الصواب أن هذه الحادثة تصفُ طابعاً خاصاً لجملة حوادث وأشياء أخرى؟ وبالتالي تستدعي دقيقتين أو ثلاثاً للتفكير فيها. أنا مع تلك

الفكرة التي تقول إن الكلمة الأخيرة يقولها أولئك الأشخاص المختلفون من نموذج «فلاس» النادمون على أفعالهم وغير النادمين، إنهم يقولون لنا، ويشيرون إلى الطريق الجديد، إلى المخرج الجديد من كل صعوباتنا التي تبدو لنا مغلقة وبلا مخرج. ليست بطرسبورغ هي التي تقرر المصير النهائي لروسيا، ولهذا فإن كل مَلْمَح صغير جداً و «جديد» الآن لهؤلاء «الناس الجُددُ» جديرٌ منا بالاهتمام.

أولاً - إن أشد ما يُدهشني هو بدايةُ هذهِ القصّة، أعني إمكانية وجود مثل ذلك الجدال أو الشرط أو التسابق في القرية الروسيّة حولَ: «من يستطيع أن يقوم بأكثر الأعمال جُرأة؟»، إنه حقيقة تشير بشكلٍ مرعب إلى أشياء عديدة، وهو بالنسبة لي أمرٌ مفاجئٌ تماماً، لقد رأيتُ ما يكفي من هؤلاء الناس، بل وأهم ما يميّزهم، وألاحظُ هنا أن ما قد يبدو لنا من استثنائية هذا الحادث لهو دليلٌ على صدقِهِ: إن الناس عندما يكذبون سيخترعونَ ما هو أكثر واقعيّةً وأكثر قبولاً للشخص العادي، بحيث يُصدّق الجميعُ ذلك.

بعدها يأتي هذا الجزءُ الطبي الرائع بصورة خاصة لهذه الواقعة. إن الهلوسة هي العرض المرضي الأكثر قوّة، ومثل هذا المرض نادرٌ جداً. إمكانية حدوث هلوسة مفاجئة، لشخصٍ على حدود الاهتياج مع أنّهُ بشكلٍ عام مُعافىً تماماً - رُبّما مثل هذه الظاهرة لم يُسْمع عنها من قبل. ومهما يكن، فهذا شأن الطب، وأنا لا أعرفُ عنهُ إلا القليل.

الأمرُ الآخر الذي يمكن أن نقف عنده هو الجانب السيكولوجي - النفسي لهذه الواقعة.

هنا يقف أمامنا أنموذجان شعبيان، يعكسان في المرتبة الأولى كل الشعب الروسي.

إن الحالة نسيانٌ للمعايير كافةً وفي كل شيء «ولاحظوا، أنه دائماً تقريباً الظواهر العابرةُ واللحظيّةُ تُعَدّ إلى حدٍ ما وسوسَةَ شيطانٍ أو

ما شابه». إنّها الرغبةُ في التقاط ما هو خارج عالمنا، الرغبة في تجميد الأحاسيس والشعور وتثبيتهما، وصولاً إلى الهاوية والتعلّق على حافتها، والنظر إلى أشد أعماقها غوراً - وفي حالاتٍ خاصة، ولكن غير قليلة - إلقاءُ النفسِ في الهوّة رأساً على عقب. إنها الرغبة في النفي لدى الإنسان - هذا الكائن الذي غالباً يحترمُ ويبجلُ - الرغبة في نفي كل شيء، نفي أشد الأشياء قداسةً في قلبه، أكثر النماذج مثاليةً لديه، كل النماذج الشعبيّة التي تقدّسُها العامة، والتي يبجلها الآن ويحترمها، وفجأةً تصبحُ وكأنها غير محمولة ولا يصبرُ عليها وكأنها عبء ثقيل.

وتدهشكَ بشكل خاص تلك العجلة والتسّرع، الرغبة الشديدة عند الإنسان الروسي في الإعلان عن نفسه، في مختلف لحظاتِهِ الشخصيّة المهمة أو لحظات الأمّة، الإعلان عن نفسه بشكلٍ جيدٍ أو رديءٍ جداً. وفي خضم ذلك ما من كابحٍ أو عائق يمكنُ أن يَمْنَعَهُ. رُبّما كانَ الحبُّ، الخمرةُ، العربدة، حب الذات، الحسد والغيرة - فإذا بالإنسان الروسي وبتفانٍ جاهز لتمزيق كل شيء، للتنازل عن كل شيء، عن الأسرة، والعادات، والله. شخص ما شديدُ الطيبةِ تراهُ فجأةً يصبحُ شنيعاً ودميماً ومجرماً - يكفي فقط أن يسقط في تلكَ الزوبعة القدريّة بالنسبة لنا، الزوبعة الدورانيّة التشنجيّة واللحظية لنفي الذات والتدمير الذاتي، وهذهِ ميزة من ميزات طبائع الشعب الروسي في مختلف لحظاتِ حياتِهِ الحتميّة. ولكن في المقابل نراهُ بالقوةِ نفسها، وبالإصرار نفسه، وبذلك التعطشِ للبقاء وحماية الوجود الذاتي نفسهما، والتعطشِ للتوبةِ أيضاً ينقذُ هذا الشخص الروسي - بل الشعب الروسي - نفسه، إنما يحدث هذا عندما يصلُ إلى النهاية، عندما لا يجدُ أمامَهَ من منفذ. واللافتُ هنا أن الاندفاعة الارتداديّة، أقصد الاندفاعة إلى إعادة البناء وإنقاذ الوجود، تبقى أكثر جديّةً بكثير من تلك التي تجمعُ باتجاه النفي وتدمير الذات.

أنا أعتقد أن الحاجة الأساسيّة، الحاجة الروحيّة الأكثر جذريةً عند الشعب الروسي، هي الحاجة إلى الألم والعذاب الدائمين وغير المرتويين، واللذين لا يخمدان في كل ما يحيطُ به.

إنه على ما يبدو ممتلئٌ بهذا العطش الدائم للألم على مدى العصور. إن تيار الألم يجري عبرَ تاريخهِ كلّه، ليسَ فقط من مظهرِهِ الخارجي البائس والتعس، لا بل ينبجسُ من أعماقِ الشعب نفسه. وحتى في السعادة عند الروس نرى حتماً جزءاً من العذاب والألم، وبعبارة أخرى: سعادتهم لا تكون كاملةً أبداً. إن الشعب الروسي وحتى في أشد لحظاتِ تاريخهِ فرحاً، لا تراهُ يبدي مظهراً من الافتخار والفرح والسعادة، بل على العكس ستجدُ ملامح التأثرِ والحزن. إنّه يتنفّس الصعداء ويقدّمُ مجدهُ وإنجازَهُ ذاك إلى جلالةِ سيّده. إن الشعب الروسي فيما يبدو يتمتَّعُ بعذابه، سواء على صعيد نماذج فرديّة أم على صعيد الجماعة. انظر على سبيل المثال، في العدد الهائل للنماذج الروسيّة الفاحشة، فلن نرى العربيدَ والسُكرَ اللذين يتجاوزان الحدود فحسب بل سترى أيضاً الجرأةَ المدهشة حتى حدودها القصوى، ورذيلةَ انهيار النفس الإنسانيّة وسقوطها. إن هذا الشقي أو العربيد هو قبل كل شيء المتألم والمعذّب.

إن الشعور بالرضى والقناعة والاحتفال بالذات بشكلٍ فرحٍ عند الإنسان الروسي أشياء لن تجدها أبداً، حتى عندَ الغبي منهم! خُذْ على سبيل المقارنة سكيّرين ألمانياً وروسياً، إنَّ السكير الروسي سيكون أكثر خبثاً وفُحْشاً من الألماني، لكن الألماني دون شك سيكون أكثر غباءً وإضحاكاً.

الألمانُ - بشكل خاص شعبٌ سعيدٌ بنفسهِ وفخورٌ بذاته. وهذه الصفات الشعبيّة الرئيسة تنمو عند السكير الألماني طرداً مع مقدار البيرة التي يشربها. السكير الألماني بلا شك شخصٌ سعيد ولا يبكي أبداً، بل يغني أغنيات في مدح ذاته ويعتزُّ بنفسه. يعودُ إلى بيتِهِ متعتعاً من السُكر، زاحفاً،

ولكن فخوراً بذاتِهِ. السكير الروسي يحبُ أن يشرب مَعَ الحُزن ويبكي. فإن بلغَ الأمُر بهِ حَدّ العجرفة أو الزهو، فلن يحتفلَ بفرحٍ، بل سيعربد، ودائماً سيتذكر حادثةً محزنة أو مفجعة، ويُعاتبُ الظالِمَ سواءَ كان حاضراً أو غائباً. وبوقاحةٍ وصفاقة سيحاول أن يثبت لك أنه ليس أقل من جنرال، وسيسبُ ويشتم بحدّة إن لم يصدّقْهُ السامع، كي يقنِعَهُ، وفي نهاية المطاف سيستدعي «دوريّة الحرس». وربّما لأنّهُ على هذا القدر من الفوضى والقباحة يستدعي «الحرس»، ولأنّهُ في أعماق نفسِهِ السكّيرة واثقٌ أنّهُ ليسَ «جنرالاً» لا من قريبٍ ولا من بعيد، بل مجرّدَ سكيرٍ وضيع هبطَ إلى درك الدواب.

إن ما يصدقُ في هذا المثال الميكرو سكوبي الصغير، يصدقُ في المقاييس الكبيرة من إذاً دفَعَ هذين الشابين إلى الجدال حول: «من منا يستطيع أن يقوم بالعمل الأكثر جراةً وحطّةً؟» - وأي أسباب وقفتَ وراءَ قيام مثل هذا الجدال؟ هذهِ الأسئلة تبقى بلا أجوبة، لكن ما من شك أن الشابين قد تعذّبا - الأوّلُ لأنّهُ دعا إلى النزال، والآخر لأنه قبلَ الدعوة. بالتأكيد كانت هناك أشياء سابقة للواقعة: ربّما كرهٌ متبادلٌ وخفيٌ بينهما، وربّما بغض منذ الطفولة، بغض غير مكتشف من قبلهما وفجأة يظهرُ في لحظةِ الدعوة إلى هذا النزال. والاحتمالُ الأخير: أنهما كانا صديقين حتى اللحظة الأخيرة وقد عاشا في وئامٍ فيما سبق، وكانت الصداقة مع الوقت تصبحُ غير مقبولة، وغير محمولة لهما، وفي لحظةِ التحدّي بلغَ توتّرُ البغض المتبادل بينهما حَدّهُ الأعلى، وكذلك غيرةُ تقديم التضحية إلى مفستوفاليس[٥]:

- لا أخاف شيئاً، وسأفعلُ كل شيء، كل ما تطلبُهُ وتشير إليه، فلتموتي أيتها النفس، أو فاشعري بالخزي والعار.

- تتباهى وتدّعي فحسب، إنكَ تركض كفأرٍ تحت أرضِ البيت، سأسخر منكَ، فلتموتي أيتها النفس دونَ ذلك.

كان من الممكن أن يتمَّ اختيارُ شيءٍ ما من نوعٍ آخر، وكثير الجرأة للتحدّي المطروح: نهب، قتل، معركة مفتوحة مع شخص جبّار، فقد أقسمَ أحدهما أنه مستعدٌّ لتنفيذ كل ما يُطلب منه، ويعرفُ مُتحدّيه أنَّهُ في هذهِ المرّة سيفعل ذلك بكل عنادٍ. لكن لا إن كل هذه الأشياء المطروحة للتحدّي تعتبر عاديّة بالنسبةِ للمغوي وعليه أن يفكّر لصاحبهِ بما هو أكثر جُرأةً وبما لم يسمع بهِ أحدٌ ولم يخطرْ ببال أحد من قبل. وفي اختيارهِ الذي يقدّمُهُ تتجلّى الرؤيا الشعبيّة كاملةً.

أمرٌ لمْ يخطر على بالِ أحد من قبل؟! ولكن مُجرّد تذكُّر أن هذا الشاب قد اقترَحَ هذهِ الفكرة للنزال يعني أنّهُ قد فكّر بها من قبل. وربّما كانت هذهِ الفكرة قد تسربت إلى نفسه وأرّقتهُ منذ الطفولة وملأتْهُ رعباً ولذّةً.

ما يتعلق بأن هذا الشاب قد فكّر في الأمر من قبل من الحديقة إلى القربان إلى البندقيّة - فما من شك في ذلك. لقد فكّر بكل ذلك دون أدنى شك، ولكن ليس بهدف القيام به، بل وما كان ليستطيع فعل ذلك بمفرده على الإطلاق. ببساطة لقد أعجبه هذا الحلم، الذي تسرّبَ إلى نفسهِ، واستمالَهُ وأغراهُ بوجل، فاستجاب لَهُ ثمّ تراجع، شاعراً بالبرودة من الخوف. إنّها لحظة واحدة من الجرأة الصامتة غير المسموعة، وبعدها فليذهب كل شيء إلى الجحيم! لقد كان يعلم ولا شك أن موتاً أبديّاً ينتظره، ولكن مهما يكن - «فأنا سأقفُ فوق تلك القمة...!»

هناك أشياء كثيرة لا نعيها، لكننا نُحسُّها. ومن الممكن أن نعرفَ أشياء كثيرة دون أن نعيها، أو عن غير وعي. لكن أليسَ من الحقيقة أن هذهِ النفس فضوليّة، وأنّها - وهو الأهم - تنتمي إلى هذا الوجود. وهنا جوهَرُ الموضوع.

إن من الجيّد أيضاً أن نعلم كيف ينظر هذا الشابُ إلى نفسه: هل هو مذنبٌ أكثر من ضحيتهِ أم لا؟ وانطلاقاً من سويتِهِ الثقافية وتطوّره، يجب

أن نفترض أنه اعتبر نفسه أكثر ذنباً من صاحبه، أو على الأقل يساويه في الذنب، لأنَّهُ حين دعا ضحيتِهِ إلى التحدّي كان يدعو نفسه أيضاً.

يقولون إن الشعب الروسي لا يعرف الإنجيل جيداً، ولا يعرفُ القواعد الأساسيّة لهذهِ العقيدة. والأمرُ كما يصفون بالتأكيد، لكن هذا الشعب يعرفُ المسيحَ جيداً ويحملُهُ في قلبهِ الفطري، وما من شك في ذلك أبداً. أما كيف يمكن تكوين تصوّر حقيقي عن المسيح دون تعليمات العقيدة نفسها؟! فهذا موضوعٌ آخر. إن المعرفة القلبية للمسيح والتصوّر الحقيقي لهُ يُحسّانِ تماماً، وهما ينتقلان من جيل إلى آخر ويعيشان في قلوب الناس ويسيلان كساقيةٍ بينها. ربّما كان الحبُ الأوحَدُ للشعب الروسي هو يسوع، والشعبُ يحبُّ أنموذجَهُ على طريقتِهِ، أعني حتى العذاب.

وهو يفخَرُ - فوق كل شيء - بالأرثوذوكسيّة بوصفها الطائفة الأكثر صدقاً وحقيقةً بين الطوائف التي تؤمن بالمسيح. أكرُّر قولي: يمكن معرفة الكثير دون وعي مسبق. وهكذا... أن تُنتَهَكُ حُرمَةُ هذهِ العقيدة المقدّسة، أن تنقطع تلك الصلة مع الأرض، أن يُدمرَّ المرءُ ذاته إلى أبد الآبدين لأجلِ لحظةِ واحدةٍ من سعادة النفي والزهو - أمورٌ ما كان بإمكان مفستوفيليس الروسي أن يفكر بأشياء أكثر جرأةً وخسّةً منها. إنَّ إمكانيّة مثل هذا الهوى المتوتّر، إمكانية مثل هذهِ المشاعر الكئيبة والمعقّدة في نفس الناس البسطاء تبعثُ على الدهشة، ولا حظوا، أن كل هذهِ الأشياء نمت تقريباً لتطرحَ فكرةً واعية. الضحيّة، كما قد يبدو، لا تستسلم، لا تخضعُ، ولا تخاف. على الأقل تتصنّعُ ذلك، فالشابُ يقبل التحدّي، تمرُ بضعة أيام وما يزالُ على موقفه ثُمّ يأتي العمل ولا يبقى الأمرُ مجرّد حُلم: يذهبُ إلى الكنيسة ويستمعُ يومياً إلى عبارات يسوع ولكنّه لا يتراجع. وطبعاً قد تعلمون أن هناك من القتلة من لا يضطرب ولا ينزعج

من رؤية ضحيته أمامه. واحدٌ من هؤلاء، بسيطٌ وواضح، قبضَ عليهِ مُتلَبِّساً، لم يعترف بجريمتِهِ وظلّ ينكرُ فعلتَهُ أمام المحققين، وعندما أمرَ بنقله إلى السجن، طلبَ بكل لطفٍ أن يمنحوهُ فرصةً يودّعُ فيها ضحيته «وهي عشيقتُهُ السابقة، التي قتلها بدافع الغيرة» ركعَ منحنياً فوقها وقبّلها بلطفٍ ورحمة، بكى لأجلها، وقبل أن يقف، كررّ مرّة أخرى فوق جثمانها وهو يبسط يديه أنه غير مذنب، وهنا أريدُ أن أسأل فحسب: إلى أي درجة من الوحشيّةِ يمكن أن يصل عدمُ الإحساس عدمُ الشعور في الإنسان؟

أما فيما يخص الواقعة التي نناقشها فالمسألةُ ليست مسألة عدم شعور. لكن هنا نجدُ شيئاً خاصاً - إنه رعبٌ انتقامي، إنها قوّة هائلة ضاغطة على نفس الإنسان.

لقد كان قادراً على الأقل أن يتحكّم بفض المشكلة، لكن قوّة روحِهِ الممتلئة بذلك الرعب كانت قادرة على خوض المعركة، وقد اثبتَ ذلك. هل هذهِ قوّة حقّاً، أم أنها في نهاية المطاف ضعفُ روح؟ الأرجح أنها هذه وذاك معاً، فيما يشبه وحدة الأضداد.

إضافةً إلى ما سبق فإن هذا الفزع الانتقامي أطالَ مُدّة المعركة، وليسَ فقط لم يقطعها؟ وساعَدَ في دفعها إلى تلك النهاية، التي فصل فيها عن قلب المجرم كل مشاعر الرحمة، وبمقدار ما كانت تزدادُ قوّة ضغطِهِ عليه. كان يصبحُ غير مُحتملٍ. إن الإحساس بالفزع هو شعورٌ قاس جداً، يجففُ القلبَ ويحجرّهُ، ويقتُلُ فيه اللطف والرحمة، وربّما لهذا السبب صَمَدَ المجرمُ أمامَ الكأس، وربّما يكون قد تجمدّ من الرعب حتى الانهيار.

استطاع هذا الشخصُ الذي خضَعَ للإغواء وتحت تأثير نزواتٍ عاصفة أن يكرهَ نفسه، والذين يحيطون به ويؤدّون الصلاةَ في

الكنيسة، ولكن مهما يكن كرهُهُ هذا فقد كان أقل مما يحملهُ صاحبُهُ مفستوفيليس، كلاهما شعرا بأن كلاً منهما يحتاجُ الآخر، لإنهاء هذا الأمر مجتمعين. ولابُدّ أن واحدهما كان يحس أنه بمفرده غير قادر على إنجاز هذا الأمر لكن لماذا استمرّا في عَمَههم هذا؟ لماذا تحمّلا كل ذلك العذاب؟ لقد عجزا عن فصم عُرى الاتحاد بينهما! ولو حدثَ وفصما هذا الاتحاد فربّما اشتعلَ لهيب الكره المتبادل أقوى بعشرات المرّات مما كان عليه، وأدى الأمرُ إلى جريمة قتل، حيثُ يقتُلُ المُعذَّبُ مُعذِّبَه.

ولنفترض أن الحال هذه فالعذاب الذي عانته الضحيّة يظل أكبر مما وصفنا، والذي كان يعتملُ في قرارة نفسِ الاثنين، شيءٌ يشبه التلذُّذَ الجحيميَ بالموتِ الشخصي، شيءٌ يحبس الأنفاس جراء الحاجة للانحناء فوق الهاوية والنظر في قاعها، انبهارٌ عجيبٌ بالشجاعة والجرأة الذاتيتين. وما كان من الممكن لهذه الحادثة أن تبلغ نهايتها دون تلك المشاعر التي تمتزجُ فيها الإثارةُ والإغراء، ما كان هذان الشقيان أحمقين أو بسيطين ابتداءً من الدعوة إلى التحدّي في «الجرأة»، وانتهاءً بالحزنِ والكآبة أمام شيخ الرهبان.

وأرجو أن تلاحظوا أن المغوي، لم يكشف كل مُرادِهِ للضحيّة: فهي لم تكن تعلم ماذا ينتظرها بعد أن تخرج من الكنيسة دونَ أن تبتلعَ قطعة الخبز، حتى تلقت الأمر بإحضار البندقيّة. إن كل تلك الأيام الغامضة التي تمخّضت عن ذلك الانتقام تشهدُ على فضاعِهِ عنادِ الآثم، وهنا يُقدّم مفستوفيليس القروي نفسه عالمَ نفسٍ كبير.

لعل الاثنين بعد وصولهما إلى حديقة الكنيسة ما عادا يتذكران ما حدث؟ أحدهما تذكّر كيفَ حشا البندقيّة وسدَّدَ. ربّما يكون قد فعَلَ ذلك بشكلٍ آلي مع أنّهُ بكامل وعيه، كما يحدثُ أحياناً في

لحظات الفزع أو الخوف؟ لا. لا أعتقد فلو كان قد تصرّفَ آلياً فقط، متابعاً حركتَهُ بقوّة العطالة أو الاستمرار لما حصل في النهاية على تلك الرؤيا، ولكان قد سقطُ دون حراك بعد أن استنفد كاملَ احتياطيّه من الطاقة، وليس قبل إطلاق النار، بل بعَدَهُ. لا فالأمر إذاً ليس على هذهِ الصورة. الأرجَحُ أن الوعي ظَلّ يقظاً وصافياً كل الوقت، بغضّ النظر عن الفزع المميت الذي كان يزداد مع كل لحظة من العملية، ولذلك فقد تحملت الضحيّة ضغطَ الذُعر المتنامي مع الوقت، وهي ولا شك تمتلكُ طاقةً وقوةً نفسيةً عظيمة.

وألفتُ انتباهكم إلى أن عملية تعبئة السلاح، تحتاجُ إلى شيءٍ من الانتباه في كل الأحوال، لكن الأكثر صعوبةً وثقلاً على النفس في هذه الواقعة هو التحرُرُ في اللحظة نفسها من الرعب، من الفكرة الضاغطة. المعروفُ أن الذين يستلبهم الخوف لا يستطيعون حتى المرتبة الأخيرة أن ينعتقوا من تأمُلِهِ، من الموضوع أو الفكرة التي تقهرهم، إنهم يقفون مسمّرينَ ويحدّقونَ مباشرةً في عيني الرعب كالمفتونين. الشابُ إذاً عبّأَ البندقيّة وهو يذكُرُ ذلك، كما يذكُرُ أيضاً كيفَ سَدّدَ، وما تلى ذلك حتى آخر لحظة. من الممكن أن عملية حشو البندقيّة مثّلت مَخْرَجاً يخففُ عن روحِهِ الأسيرة، وقد كان سعيداً أن يركز انتباهَهُ على موضوعٍ خارجي مخففٍ، وهذا ما يحدثُ على المقصلة للذين تُقطَعُ رؤوسهم، فقد صَاحت مدام ديوباري بالجلاّد:

- «Encore un Moment, Monsieur Le Bourreau, Encore Un Moment»[1]

وكانت ستعاني أكثر مما عانتهُ بعشرين ضعفاً لو أنهم أهدوها تلك الدقيقة، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّت تصرُخ وتتوسَلَ لتُمنَحَ دقيقةً إضافية. لو افترضنا أن تعبئة البندقيّة بالنسبة للخاطئ الذي نتحدّثُ عنه

1- «دقيقة واحدة أيضاً سيّدي الجلاّد، دقيقة واحدة!» - بالفرنسية في الأصل.

بمثابة دقيقة ديوباري «Encore Un Moment»، لما كان بإمكانه بعد تلك الدقيقة - طبعاً - أن يعودَ للتركيز في رعبه الذي انصرفَ عنَهَ، ويتابع ما بدأهُ فيسدد ويرمي. هنا ببساطة كانت يداهُ قد تخدرتا وما عادتا تستجيبان، ولكانت البندقيّة قد سقطت منهما بغض النظر عن الوعي والإرادة المتبقيين.

وهكذا في اللحظة الأخيرة - كل الكذب، كل سفالة هذه الفعلة، كل رخاوة الروح، كل عار السقوط كل هذه الأشياء خرجت بقوّة من قلبه في ثانية واحدة وارتسمت على شكل تكذيب عاصفٍ أمامه لكل ذلك. رؤيا لا تصدق وقفت أمامه واعترضتهُ... فانتهى كل شيء.

الحكم دوّى خارجاً من قلبه بالطبع. لكن لماذا دوّى عن غير طريق الوعي والإدراك؟

عن غير طريق العقل والوجدان الصافيين؟ لماذا تجلّى على صورةٍ شيءٍ واقعيٍ خارجيٍ تماماً ومستقلٍ عن الروح؟ في كل هذا نرى مسألةً سيكولوجية - نفسيّة كبيرة وعملاً ربّانياً!... بالنسبة لهذا المجرم كان الأمرُ عملاً ربّانياً دون أدنى شك.

فلاس سعى في الأرض طالباً العذاب والمعاناة. وفلاس الآخر هل بقي مغوياً؟ إن الأسطورة لا تذكر عنهُ شيئاً، لا تقولُ إنه زحَفَ طالباً المغفرة. ربما كان قد زحَفَ فعلاً طلباً للعفو، وربما لازالَ يعيشُ في القرية ويشرب كعادته ويهزأُ في الأعياد ويمارس المجون. فليسَ هو على كل حال من رأى تلك الرؤيا. أليسَ كذلك؟ تتملّكني رغبة شديدة لمعرفة تاريخه، بهدف الإحاطة بالأمر ورسم صورةٍ كاملة له.

وكنتُ أحبذُ لو أن هذا الشخص عدمي حقيقي يعيشُ في الريف، مفكّرٌ وناقدٌ سلبي، مُلحدٌ متعجرّفٌ وساخر، اختارَ موضوعَ التحدّي

السابق، دونَ أن يعاني الألَمَ مع ضحيّته، كما توقعنا من خلال المخطط الذي رسمناهُ أعلاه، بل على العكس، فعل ذلك بفضولٍ هادئٍ وبارد مقتفياً أثرَ خلجاتها وارتعاشاتها كحاجةٍ شخصيّة لمعاينةِ ألم الغريب، - وقد يكون الأمرُ من قبيل مراقبة العالم تجربتَهُ العلمية؟ الشيطانُ يعلم!

إذا كانت مثل هذهِ الصفات موجودة في الطبائع الشعبيّة «وفي وقتنا الحاضر كل شيء ممكن!»، بل موجودة في قرانا وريفنا، فهذا يعني اكتشافاً علميّاً جديداً! اكتشافاً مفاجئاً، لم نسمع عن شيءٍ يشابهُهُ من قبل. إن المغوي عندَ أوستروفسكي في مَلْهَاتِهِ الرائعة[٦].

«لا تعش هكذا، كما تُريد[٧]» لم يكن موفّقاً. ومن المؤسف أنك لا تستطيع معرفة الأمر بصورةٍ يقينيّة.

إن المتعة في القصة المرويّة طبعاً - إن كان ثمّة متعة فيها - تعودُ إلى واقعيتها وحدوثها الحقيقي. لكنَ النظرَ في أعماق نفسِ فلاس الحديث ليست مسألة زائدة ونافلة. إنّهُ يتغيّرُ بسرعة كبيرة. إن غلياناً يحدثُ في الأعماق عنده هناك، مثلما هو الأمرُ عندنا هنا في الأعلى منذُ ١٩ شباط[٨]. العملاقُ صحا وراحَ ينثرُ أجزاءَهُ في كل الاتجاهات، يتحدّثون ويكتبون عن أشياء مخجلة: عربدة، خصومات وعراك، أطفال سكيرون، أمهات سكيرات. مجون، عوز وسؤال، قذارة، إلحاد. ويفكر آخرون جادون - لكن متسرعين قليلاً - من خلال الوقائع فيرون أنه إذا ما استمر هذا «الإدمان على الخمرة» ولو لعشر سنوات أخرى، فسيكون من الصعوبة بمكان أن نتصور الآثار المترتبة على ذلك، الآثار الاقتصادية فحسب فما بالك بسواها؟

لكننا هنا نتذكر «فلاس» وتهدأُ نفوسُنا: في اللحظة الأخيرة كل الكذب - إن كان ثمّة كذب - يقفز من قلب الشعب ويقفُ أمامَهُ على شكل قوّةٍ علاجيّة هائلة.

يعودُ «فلاس» إلى وعيه ويعتصم بحبل الرب، وينقذُ نفسَهُ بنفسه طالما قد وصل إلى حد الكارثة. ينقذُ نفسه وينقذُنا - لأن النور والإنقاذ يشعانِ من الأسفل، من القاع «بصورةٍ لا يتوقعها على الإطلاق ليبراليّونا، وفي ذلك سيبدو شيءٌ من السخرية!». إن هناك على كل حال من يُلمّح إلى عدم التوقّع هذا ويجمع الوقائع، لكن عن هذا لن نتحدّث الآن.

على أي حال، إن وضعنا اليوم وما نحنُ فيه من فقر وعوز يُذكّرُ بـ «زغاليل عُشِ بتروف[٩]».

ففي التاسع عشر من شباط انتهت تماماً مرحلة بتروفسكي في التاريخ الروسي، ودخلنا في حالةٍ من الضياع الكامل.

واحدة من الأكاذيب الحديثة

[...] اسمحوا لي أيها السادة «وأنا أتحدث طبعاً بشكل عام ولا أخصُّ فقط بحديثي هذا موظّفَ «العالم الروسي[1]»، إنكم وانطلاقاً من «نفي الواقع» تؤكدون أن النيتشايفيين[أ] - بشكل بدهي - يجب أن يكونوا بُلهاء، «أغبياء متعصبين».

هل نعود إلى هذا من جديد؟ وهل هذا عدل؟ فلأستثني الآن نيتشايف ولأتحدث عن «النيتشايفيين» بصيغة الجمع، فبين هؤلاء يمكن أن تجد مخلوقات حزينة كئيبة جداً ومشوهة، وذات منشأ قاسٍ متعطشٍ إلى السلطة، وذات متطلباتٍ مبكرةٍ مغرية ومؤلمة لإظهار الذات - لكن لماذا نقول «أبله»؟ على العكس تماماً، حتى الأشرار منهم يمكن أن يكونوا متطورين جداً، وأذكياء مع شيء من الخبث، وهم متعلّمون.

أم أنكم تعتقدون أن المعرفة، و «العلم»، «على الأقل طلاب الجامعات»، تتشكل أرواحهم ونفوسهم في لحظة تلقيهم الدبلوم، ويكتسبون تعويذة، شهادة ثابتة وراسخة إلى الأبد، فيتعرفونَ إلى الحقيقة ويتجنّبون الإغواء والإغراء والنقائص. هكذا إذاً يصبح الشبابُ في نهايةِ فترة تعليمهم، فيخرجونَ - حسبَ اعتقادكم - مجموعةً من الآباء الصغار غير الخاضعين للخطيئة أو الإثم، ويتجنبونَ الوقوع في الخطأ.

أ- ينسب دوستويفسكي هنا إلى نيتشايف س غ «١٨٤٧-١٨٨٢»، وهو أحد الثوار ومؤسس حركة سرية دعيت في حينها «الانتقام الشعبي» - انظر الهوامش في نهاية الكتاب/المترجم/

لماذا تفترضونَ أن «النيتشايفيين» متعصبونَ تلقائياً؟ إنهم على الأكثر محتالون، لقد قال أحدهم ذات يوم: «أنا محتال ونصاب ولستُ اشتراكياً»، لنفترض أنّه قال ذلك في روايتي «الشياطين»[٣]، ولكنني أؤكد لكم أنه قادرٌ على قول ذلك ليسَ في الرواية فحسب ولكن على الملأ. إنّهم نصابون شديدو الخبث وعالمونَ بعظمةِ النفس البشرية، وبخاصة الشابةِ منها ليتمكّنوا من اللعب عليها كما على آلةٍ موسيقيّة.

هل تعتقدون حقيقة أن أولئك المتأخرين والذين فاتتهم الفرص والطائشين هم الذين يقعونَ بين أيدي النيتشايفيين. لا أصدّق هذا، على الأقل ليسَ بهذهِ الصيغة، أنا نفسي «نيتشايفي» قديم، وقد وقفتُ أيضاً على منصة الإعدام محكوماً بالموت، وأؤكد لكم - وأستطيع أن أثبت - أنني وقفتُ مع مجموعة من الناس المتعلّمين، ناسٍ أنهوا تعليمهم في أعلى المؤسسات التعليميّة، البعضُ منهم وبعد انتهاء كل شيء اشتُهر خبيراً واختصاصيّاً عالماً في أحد ميادين المعرفة، أو التأليف[٤]. طبعاً الأمر ليس هكذا دائماً، فمنهم الكسالى الذين لم يدرسوا ولم يتعلّموا، وهم بالتالي لا يعرفون شيئاً.

أعلمُ أنكمُ - ودونَ أدنى شك - تعارضونَ ما أقوله وتخالفونني الرأي، لأنني لستُ من النيتشايفيين في الأصل، وإنما أنا من البيتراشيفسكيين، وليكن أنني من البيتراشيفسكيين «مع اعتقادي أن هذه التسمية خاطئة، لأن عدداً كبيراً جداً من الذين وقفوا معنا على منصة الإعدام، وُهم مثلنا تماماً أي بيتراشيفسكيين - كما هو مفترض - لم يلمسهم أحد ولم يتعرّض لهم أحد. مع أنني اعترف أنهم ما عرفوا بيتراشيفسكي، لكن المسألة والمشكلة كما أردت أن أعبّر ليست في بيتراشيفسكي، وعلى أي حال هذه قصة قديمة!».

وليكن أنني كنت من أتباع بيتراشيفسكي فلماذا تفترضون أن هؤلاء ما كان لهم أن يصبحوا نيتشايفيين، أو أن يقفوا على طريق النيتشايفيين

نفسها، فيما لو انقلبت الأمور يومها ذلك المنقلب؟ طبعاً يومها ما كان بالإمكان تصوّر ذلك: وكيف يمكن أن يحدث مثل ذلك الانقلاب؟! الزمن يومها لم يكن كما هو الآن.

لكن اسمحوا لي أن أقولَ شيئاً عن نفسي: «نيتشايفي» ما كانَ بإمكاني أن أصبحَ في يومٍ من الأيام، لكن رُبّما كان لي في سنواتِ شبابي المبكّرة أن أكونَ أحد أصدقاء النيتشايفيين. لقد قلتُ شيئاً عن نفسي، كي يكون لي الحق في الحديث عن الآخرين، ومع ذلك فسأستمر في الحديث عن نفسي فقط، وإن عبر ذكرُ أحدهم فسيكون الأمر سريعاً وتجريدياً وربّما مبهماً بشكلٍ عام.

إن «شأن البيتراشيفسكيين» - شأن قديم اليوم، وينتمي إلى مرحلةٍ تاريخيّة سابقة من تاريخنا، والحديث عن هذا الشأن اليوم لا يحملُ ضرراً لأحد، وبالتالي فلا ضير من الإشارة إلى ذلك أحياناً وبشكلٍ شامل لا تخصيص فيه.

لم يكن من «شياطين» أو «نصابين» بيننا نحنُ البيتراشيفسكيين الذين وقفنا على منصة الإعدام، أو حتى أولئكَ الذين لم يتعرضوا للمحاكمة أو المساءلة. ولا أظنُ أن أحداً سينقضُ إعلاني هذا. وقد كان بيننا قومٌ متعلّمون - وهذا أيضاً لا يستطيعُ نفيه أحد. لكن قلّة منا استطاعوا - دون شك - أن يحاربوا ويصادموا سيلاً جارفاً من الأفكار والمفاهيم السائدة والمتأصّلة، والموجودة جذريّاً في المجتمع الفتي الشاب.

لقد كنّا محشوين بأفكار الاشتراكية النظريةِ القديمة. أمّا الاشتراكية السياسيّة فلم تكن قد وجدت بعدُ في أوربّا، وقد رفضها عموماً الزعماءُ الاشتراكيون الأوربيّون.

[...] ودون شك، من كل ذلك «أقصد من الناس الجائعين الذين ما عادوا يطيقون صبراً، والمشتعلين بأفكار العدالة ومبادئ السعادة القادمة»، جاءت

الاشتراكية السياسيّة كنتيجة، وبغض النظر عن أهدافها المعلنة والمبشرة، فقد قامَ جوهرُها على الرغبةِ في السرقة الشاملة للملاكين من قبل الطبقات الفقيرة، وبعد ذلك «ليكن ما يكون».

«لأنّ الحلول للوضع الراهن ليست موجودة بعد، وليس معلوماً المجتمعُ المستقبلي الذي سيقومُ على أنقاض الحاضر، كل ما هو مطلوب تحطيم الحاضر - وهذه حتى الآن هي صيغة الاشتراكية السياسيّة». لكن الجوهر في حياة الجنةِ وعالمها الوردي، والعمل وأخلاقياته، لأجل ذلك كانت أفكار مفهومة وواضحة. وفي الواقع أن الاشتراكية التي ولدت وبدأت بالنمو كانت تقارنُ في ذلك الوقت ومن قبل بعض زعمائِها معَ المسيحيّة وتسعى لإصلاح أخطائها وتحسين عواقبها، بصورةٍ مُلائمةٍ للعصر الحديث والمدنيّة الجديدة. أعجبتنا كثيراً كل تلك الأفكار الجديدة في بطرسبورغ يومها، وبدت لنا في أعلى درجات النقاء والصفاء والطهارة، والأهم ما حملتْهُ من إنسانية سامية في قوانينها لكل البشر. لقد كنّا مسحورين بتلك الأفكار الرائعة قبل الثورة الباريسية في عام ٤٨[5]. وأنا شخصياً عام ٤٦ سَخّرتُ نفسي وكرستُها «لحقائق» ووقائع المستقبل القادم «العالم الجديد»، ولقداسة المجتمع الشيوعي المستقبلي الذي رسمه بيلينيسكي. كل تلك المعتقدات عن لا أخلاقيّة الأسس «المسيحيّة» للمجتمع الحديث، عن لا أخلاقيّة العقيدة، والطائفة، وحق الملكيّة الفرديّة، كل تلك الأفكار عن تحطيم القوميّة باسم الأخّوة الإنسانية الشاملة للبشر، عن احتقار الوطن والشعب باسم تطوّر الإنسانية الشامل.. الخ... الخ - كل هذهِ الأمور كانت ذات تأثير هائل لم نستطع أن ننجو منه، بل امتلكَ علينا قلوبنا وعقولنا السخيّة.

في كل الأحوال كانت الفكرة عظيمة، وترتفعُ أعلى بكثير من السويّة الفكريةِ المعرفيّة المسيطرة وقت ذاك - وهذا عامل إغراءٍ شديد،

جذبَ الكثيرين منّا، ليس فقط من البيتراشيفسكيين، بل من كل الذين «أصيبوا بالعدوى» يوم ذاك، أما الذين رفضوا نتائج تلك الفترة الحالمة جذرياً ونبذوا كل ذلكَ الهم والرعب المقدّم إلى البشرية باسم تجديدها وانبعاثها، لم يستطيعوا معرفة سبب المرض، ولهذا ما استطاعوا صَدّهُ وعلاجه.

وعليه، لماذا تظنّون أن جريمة نيتشايف كان من الممكن إيقافها لو لم يكن الجميع، وبالطبع البعض منا نحن في ذلك الزمن الساخن وبين تلك الأفكار المسيطرة على القلوب والنفوس، في غمرة الأحداث الأوربيّة الرائعة، التي نَسينا في حمأتها وطننا - قد سار خلفَ ذلك التوتر الهذياني العُصابي؟

إن الجريمة الموسكوفيّة النكراء التي تمثّلت بقتل إيفانوف والمدبّرة من قبل نيتشايفيين بحقِ نصيرٍ لهم، كعملٍ سياسي مفيد لأجل المستقبل «عمل عام وعظيم»! - بشكل آخر لا يمكن فهمها، كيف كان لتلك المجموعة من الشبّان «أياً كانوا» أن يوافقوا على ارتكاب تلك الجريمة المحزنة والمرعبة.

في روايتي «الشياطين» حاولت التعبير بشكلٍ متنوع عن تلكَ الدوافعِ والحجج التي قد تقود حتى الناس البسطاء وطيّبي القلب لارتكاب عمل شنيع ووحشيٍ لا إنساني.

إن من المرعب رؤية مثل هذه الأعمال الشنيعة تحدثُ في بلدنا، على أيدي سفلة، بالتأكيد هذا الأمرُ لا يحدث عندنا فقط، بل في كل مكانٍ على الأرضِ ومنذ بداية الزمن في أوقات التحولاتِ وأوقات التوتر والقلق، الأوقات العصبية في حياة الناس، حيث الريبة والشك ونفي العقائد الاجتماعية الأساسيّة. لكن المشكلة في إمكانيةِ حدوث ذلك عندنا أكثر ممّا عند غيرنا، وتحديداً في وقتنا هذا، وهذهِ الميزةُ الأكثر إيلاماً وبعثاً على الحزن في زمننا هذا [...] بماذا تحديداً كانت الشبيبةُ محميّة، قياساً إلى غيرها من

الفئات، مما يدفعكم أنتم - الذين تعلنون حمايتها والدفاع عنها كونها تعلّمت ودرست - لطلب الثبات منها على العقيدة ووضوح الرؤيا والموقف بصورةٍ لم تكن عند آباء هذه الشبيبة.

إن أكثر ما نلمسُهُ الآن هو التذمر وقلة الصبر وعدم الرضى والجهل بين الشباب اليافعين «بغض النظر عن ثقافةِ الطبقات التي ينتمون إليها ورقيّها». وفي كل مكانٍ نرى التعليم الحقيقي الجيد يغيب وينزاح ليحل محلّه الرفض والنفي: حيث تُسيْطِرُ النزعات الماديّة وتهيمن على كل الأفكار السامية العالية، وحيث الأطفالُ يتلقونَ التربية دونَ الالتصاق بالتربة والوطن، وبعيداً عن الحقيقة، وبلا احترام. وبلا مبالاةٍ وبلا مسؤولية عن الوطن، وباحتقارٍ وازدراءٍ سافرٍ للشعب، فهل من هنا، من هذا المنبع يقتبس شبابنا خطواتهم الأولى السديدة على الصراط المستقيم في الحياة؟

وهكذا فقد بدأ الشرُ: من الأفكار الموروثة المتعاقبة، ومن خنق الأفكار الحرّة خلال قرونٍ في أعماق الذات، من مفهوم رفعةِ وأهميّة الأوربي مع الإبقاء على الظروف الباعثةِ على احتقار النفسِ والذات، بل احتقار الإنسان الروسي أيضاً!

ولكنكم لن تصدّقوا مثل هذه الدلائل شديدة العموميّة، على ما أعتقد. «التعليم والمثابرة - أمران يجب عليكم التأكيد عليهما»، «التطوّر الناقص الذي لا معنى له» - أراكم تكررونهُ.

لاحظوا أيّها السادة أن معظم كبار الأساتذة الأوربيين الذين نفتخر بهم ونعتبرهم أساتذتنا مثل ميللي(٦)، دارون(٧)، شتراوس ينظرونَ بشكلٍ رائعٍ إلى الواجبات الأخلاقيّة للإنسان الحديث، وبالمناسبة هؤلاء ليسوا زمرةً كسالى، وليسوا معربدين يتسلّون حول الطاولة ويعبثون بأرجحةِ أرجلهم، وستضحكون وتتساءلون: لماذا خطَرَ ببالي أن أتحدّثَ عن هذه الأسماء تحديداً؟ لأنهُ يصعب عليّ أن أتخيّل - وأنا أتحدّث عن شبابنا المثقفين

المتحمسين والواعين - أن هذه الأسماء لم تمرّ بهم مع أولى خطواتِ حياتهم. وهل استطاعَ الشابُ الروسي أن يظلَ غير مكترثٍ بقادةِ التقدّم والتطوّر الأوربّي الفكري أولئك وسواهم، ولا سيما ما تعلّق من أفكارهم تلك بالشأن الروسي أو قاربَهُ؟ ولعل عبارة «الأفكار المتعلقة بالشأن الروسي» مضحكة هنا، ولكن ليعذرني الجميع، فهذهِ الجوانب المتعلّقة بروسيا من تلك الأفكار والتعاليم موجودة واقعيّا، وهي تتكوّن من نتائج وبدهيّات راسخة، وتحدثُ في روسيا بينما في أوربّا فهي غير متوقّعة، كما يقولون. ويقولون أيضاً إن أولئك السادة لا يعلّمونَ الشر، فعلى سبيل المثال رُبّما كان شتراوس يكرهُ المسيح، ويسخَرُ طوال عمرهِ من المسيحيّة ويهزأ بها، لكنّهُ بمعزل عن ذلك يحبُ الإنسانيّة حُبّاً جمّاً بوحدتها الشاملة وبتعاليهما السامية.

والأمرُ نفسه فيما يتعلّق بالقادة الأوربيين المتطوّرين والذين يعشقون الإنسانيّة والأفكار الكبيرة وعزّة النفس. وعلى الرغم من ذلك فإنني أعتقد دون أدنى شك: أنك لو أعطيت هؤلاء المعلمين الكبار الإمكانية الكاملة لهدم المجتمع القديم وبناء مجتمع جديد - لرأيت من حولك الفوضى والهدم والحزن والغم، لرأيت شيئاً فظّاً وغليظاً ومبهماً لا إنسانيّة فيه، بناءٌ هائلٌ ينهارُ تحت لعنات البشرية قبل أن يبنى غيره. ومادامَ الإنسانُ قد أنكرَ يسوع المسيح، فإن عَقلَهُ قَدْ يذهبُ بهِ إلى حيثُ لا يمكن أن نتصور هذهِ مُسلّمةً! لقد أنكرت أوربّا المسيح في أعلى درجات تطوّر مفكريها - على الأقل - أما نحنُ - فكما هو معلوم - مُلزّمونَ باتباع أوربّا.

هناك لحظاتٌ تاريخيّة في حياة الناس، يمكن أن يعتَبروا فيها أعمالَ الشر الجليّة الواضحة الخطيرة، نابعة من عظمةِ النفس وجلالها، يمكن اعتبارها جرأةً ورجولةً خارجةً من عقالها. هل من ضرورةٍ لضرب أمثلة على ذلك؟ أليست الأمثلة بالعشرات بل بالمئات والألوف؟! إن هذا الموضوع صعبٌ

ومعقد ومن غير الحكمة أن تتصدّى لَهُ في مقالة هجوميّة! لكنني أعتقد أن من حقّي أن أطرحَ هنا مشاركتي واقتراحي:

إن صبياً نظيفاً طيّب القلب، وحتى مُتَعلماً بشكلٍ جيّد يمكن أن يتحوّلَ بسرعة إلى نصيرٍ لزمرةِ النيتشايفيين... بطبيعة الحال فيما لو التقى بنيتشايف وهذه Sine qua nan[1].

نحنُ البيتراشيفسكيين وقفنا على منصة الإعدام، وألقي علينا قرار الحكم بالموت فاستمعنا إليه دونَ أي شعورٍ بالندمِ، أو الشك بسلامة موقفنا، بالطبع لا أستطيع أن أشمل الجميع بحكمي هذا، فهناك من تنازل عن عقيدته وموقفه وتجلّلَ بالخزي والعار. كان هذا أمراً قديماً وانقضى، ولكنّهُ يثيرُ في هذا السياق السؤال التالي:

أكان ذلك العناد وعدم الندم والتوبة عملاً صادراً عن طبيعةٍ حمقاء غبيّة، لأناسٍ غير واعين وثرثارين ومعربدين؟

لا لم نكن معربدين، ولم نكن أغبياء أو سيئي الخلق، كنا في أوج الشباب والحماسة، والحكم بالإعدام رمياً بالرصاص قرئ علينا - وليسَ على سبيل المزاح أو النكتة!

كل المحكومينَ كانوا على ثقةٍ من أن الحكمَ سينفّذ، إنّها عشر دقائق مخيفة ومرعبة في انتظار الموت. دقائقُ يصعبُ وصفها... إنها الدقائق الأخيرة!... وفيها غاص عددٌ كبير منا «أعلم ذلك غريزياً» في أعماق حياتِهِ الشابة، وندمَ على بعض المواقف الصعبة في مسيرة عُمره تلك المواقف التي تظلّ مختبئة في أعماق الإنسان وضميره حتى لحظة حرجة».

أما فيما يتعلق بتلك الأعمال التي حوكمنا لأجلها، تلكَ الأفكار، تلك المفاهيم التي سيطرت على نفوسنا فنحنُ لم ننظرُ إليها على أنّها اجل من أن

1- بحكم الضرورة - باللاتينية في الأصل/المترجم/

نتوب عنها فحسب، بل رأيناها استشهاداً يطهرنا ويغسِلُ عنّا الكثير، وسيعذرنا الجميعُ على ذلك. وقد استمرَ هذا الشعور طويلاً.

لم تكسرنا سنواتُ النفي وما ذقناهُ من معاناةٍ فيها، على العكس تماماً، ما من شيءٍ استطاع إن يكسرنا، لقد كانت معتقداتنا سنداً لنا وإيماننا هو الذي غَذّى أرواحنا بالمعرفة لمتابعةِ أداء الواجب. لا، ما من شيءٍ غيّر وجهاتِ نظرنا، ثوابتنا، وقلوبنا «وأنا بالطبع أسمحُ لنفسي أن أتحدّث عن بعض الذين كانوا معنا، وعن بعضِ تغيّرِ المبادئ لدى بعضهم، مما أصبحَ معروفاً فيما بعد».

لقد حدث هناك ما يشبهُ العشرة المباشرة مع الناس، الاتحاد الأخوي في وجهِ المصيبة العامة الشاملة، الإحساس بأنك مثل صاحبك تماماً في كل ما تعاني ويقع عليك، وربّما كنت دونَهُ في ذلك وغيره!

هذا الأمرُ لم يحدث بالسرعة التي يمكن أن نتخيّلها الآن، بل على مراحل وخلال فترة طويلة وبالتأكيد ليست عزة النفس أو الكبرياء هما اللذان منعانا من الاعتراف بأشياء كثيرة.

وبالمناسبة لقد كنتُ واحداً من أولئك «واسمحوا لي أن أقول شيئاً عن نفسي» الذين كانوا الأسهل رجوعاً إلى الجذور الشعبيّة، إلى معرفةِ الروح الروسيّة الأسهل اعترافاً بروح الشعب. لقد خرجتُ من عائلة روسيّة مُعافاة.

ومنذُ بدأتُ أحسُ الأشياء وأعيها، بدأتُ أحسُ بحب أبويّ لي. في أسرتنا ومنذُ الطفولة المبكّرة عرفنا الإنجيل، وما كنتُ قد تجاوزت العاشرة من عمري حين كنتُ قد عرفت أهم المراحل الرئيسة في التاريخ الروسي من كتاب كارامزين[٨] الذي كان يقرؤه لنا أبي بصوتٍ عالٍ في المساءات. كل مَرّة كنا نزور فيها الكرملين والكاتدرائيات الموسكوفيّة كانت بالنسبة لي عيداً جميلاً.

ربّما عند الآخرين ما كنتَ تجدَ مثل هذا. وأنا اليوم كثيراً ما أشرد مفكراً، وأسأل نفسي: ما هي أهم المشاهدات أو المشاعر من مرحلة الطفولة التي يحملها شبابنا اليوم؟

وهكذا ما دمتُ أنا - أنا الذي لم يستطع بشكل طبيعي أن ينجو من تأثير الوسط الجديد فتعرّض للمصائب فيه، ولم يستطع أن يتعامل بالتعالي والشموخ أمام روح الشعب التي ظهرت أمامه - مادمتُ أنا «أقول لنفسي» قد عانيتُ من صعوبة كبيرة في الاقتناع بأن ما اعتقدنا بصحته وصوابِهِ وحقيقتهِ عندنا ليسَ إلا كذباً ومجانبةً للحقيقة فما بالك إذاً بشخصٍ آخر أكثر بعداً مني عن جذور الشعب وانقطاعاً عنها حيث الانقطاع طويلٌ ومن عهدِ الجد حتى الحفيد؟! [...]...

١٨٧٦

كانون الثاني

طفلٌ عند شجرة عيد الميلاد في حَضرةِ يسوع

يا لي من روائي، لقد كتبتُ على ما أظن «قصّةً»، وأقولُ «على ما أظن» - مع علمي الكامل أنني كتبتها بنفسي - لكثرةِ ما يتراءى لي أنها حدثت في مكانٍ ما، ووقت ما.

ولعلّها حدثت عشيّة أحد أعياد الميلاد، في مدينة كبيرة وجوٍ جليدي شديد البرودة:

يتراءى لي طفلٌ صغير، في السادسة من عُمره، وربّما أصغر، يصحو في قبوٍ باردٍ ورطب، يرتجف في قميصِهِ الطويل الفضفاض. أنفاسُهُ تطلقُ بخاراً أبيضَ، يجلسُ على صندوق في الزاوية، يزفرُ في الهواء ويُراقبُ البخار المتصاعد متسليّاً جرّاء الملل. لكنّهُ يريدُ أن يأكل، لقد اقترب عدّةَ مرات من مرقِدِ أمّهِ المريضة، التي تنامُ على فراشٍ رقيق كفطيرة، ووضعت تحت رأسها صُرّة عوضاً عن المخدة. كيفَ جاءت إلى هذا المكان؟ أغلبُ الظن أنها قدمت مع طفلها من بلدةٍ أخرى، وفاجأها المرض، صاحبةُ القبو أخذتها الشرطة قبلَ يومين، وتفرّقَ مستأجرو القبو يحضرونَ للعيد، ولم يبق في المكان إلا شخصٌ مهملٌ كسول، قضى اليومين الماضيين مستلقياً ومتعتعاً من السُكر حتى الموت، غير معني بانتظار العيد.

في الركن الآخر من الغرفة كانت عجوزٌ ثمانينية تئن من أوجاع الروماتيزم، لقد كانت فيما مضى وفي غير هذا المكان «مربية أطفال»، وهي اليوم تموتُ وحيدة، إنّها تئنُ وتتنهّد، وتزجر الطفل الذي أصبح يخافُ الاقتراب من الركن الذي ترقدُ فيه.

لقد تمكنَ من إيجاد ما يشربُهُ في العتمة، لكنه لم يعثر على كسرة خبزٍ واحدة يأكلها... وللمرّة العاشرة يقتربُ من أمه ليوقظها. وأخيراً يشعرُ في الظلمة بخوفٍ شديد:

فقد حلّ الليلُ منذُ زمن، وما أشعلَ أحدٌ ناراً. واعترتهُ دهشة شديدة حين قرصَ وجهَ أمّه، فلم تتحرّك، وكانت باردة كالجدار. فكرّ «باردٌ جداً الجو هنا»، تمهّلَ قليلاً ناسياً كفّهُ على كتف الميتة، ثم نفخ في أصابعه محاولاً بعث الدفء فيها، وفجأةً راحَ ينبشُ الفراش بحثاً عن قبعته، ودونَ ضجيج خرجَ من القبو متلمساً طريقَهُ وقد كان بإمكانه أن يفعل ذلكَ من قبل، لولا خوفه من الكلب الضخم الذي ظلَّ ينبحُ طوالَ اليوم في أعلى الدرج، عند باب الجيران، لكن الكلبَ ذهب الآن، وها هو الصبيُ فجأةً في الشارع.

أي مدينةٍ هذه يا رب! إنّهُ لم يرَ شيئاً كهذا من قبل. هناك في المدينة التي جاء منها يكونُ الظلامُ في الليالي حالكاً، وليسَ سوى مصباحٍ واحدٍ يضيء الطريق، والبيوتُ الخشبيةُ الخفيضَةُ تقفل بالمزالج، وما أن يبدأ الليل بالهبوط على البلدة - حتى يختفي الجميعُ في بيوتهم، ويبقى نباحُ قطعان كاملة من الكلاب، مئات بل آلاف الكلاب تعوي طوال الليل! لكن بالمقابل كان الجو دافئاً، وكانوا يقدمون لهُ طعاماً، أما هنا - ربّاه...

وأنّهُ يجدُ ما يأكله! وما أشدّ الصخبَ والضجيج، ما أسطعَ الأنوار، وما أكثرَ البشر والخيل والعربات، وهذا الصقيع... الصقيع!

البخارُ المتجمدّ يندفعُ من خياشيم الخيول المُجهدَه، من وجوهها، التي تتنفس بحرارة، وتحتَ الثلج الهش ترنُّ حذواتها فوق بلاط الطريق، والجميعُ يتدافعون. ربّاه... كم يرغب أن يأكل شيئاً، أي شيء، وها هي ذي أصابعُهُ تؤلِمُهُ فجأةً. إلى جوارهِ يعبرُ شرطي حفظ النظام، ويشيحُ بوجههِ عنه، متظاهراً أنه لم يره.

وهذا شارعٌ آخر - ما أعرضه! فيه ستدوسُهُ المارةُ على الأرجح، إنهم يصيحون، يندفعون عدواً، أو فوق وسائط النقل المختلفة، والضوء... ما أشدَّ سطوعه!

آه ما هذا أيضاً؟ زجاجُ نافذةٍ كبيرةٍ وواسعة، يُبدي خلفَهُ غرفة، وفي الغرفة شجرةُ صنوبر تُلامسُ السقف، إنها شجرةُ عيد الميلاد، كم من الأنوار فيها، والشرائط المذهبة والتفاحات، كم من الألعاب والأفراس الصغيرة من حولها. أولادٌ يركضون في الغرفة، نظيفون أنيقون، يضحكون ويلعبون، يأكلون ويشربون شرباً ما.

هذه طفلة راحت تُراقصُ صبياً، كم هي جميلة. وهذهِ الموسيقى إنها تُسمعُ من وراء الزجاج ينظُرُ الصبيُ ويتعجب، ثُمّ يضحك، بينما تؤلِمُهُ أصابعُ قدميه، في حين احمرّت أصابعُ يديهِ بشدة، وما عادَ بمقدورهِ أن يثنيها، بل إن مُجّردَ ارتعاشها يبعثُ الألم. لحظتها يتذكر كل ذلك فيبكي، ويركضُ مبتعداً عن النافذة... لكنّهُ يمرُّ بأخرى، خلفها غرفة تحوي شجرة، وعلى الطاولات هذه المرّة فطائر متنوعة - باللوز وسواه، حمراء وصفراء.

وإلى الموائد تجلسُ أربعُ سيّدات غنيّات، يقدّمنَ الفطائر والمعجنات لمن يقترب من المائدة، ويُفْتَحُ البابُ فجأةً فيدخُلُ من الشارع سادةٌ كثيرون.

تسلَلَ الصبيُ فتح البابَ ودخَلَ عليهم، فارتفع صراخهم عليه وكثُرَت تلويحاتُ أيديهم، ثُمّ أسرعت سيّدة باتجاهه ودسّت في يده كوبيكاً، فتحت لَهُ البابَ على الشارع وأخرجته.

كم شعر بالخوف، والكوبيك سقط في اللحظة نفسها، ليرنَّ متدحرجاً على الدرجات، فالصغير لم يستطع أن يثني أصابعهُ الحمراء عليه، ركضَ هارباً بسرعة، ثُمّ مشى لا يعرفُ إلى أين، أرادَ أن يبكي من جديد لكنّه خاف، فراحَ يركض وهو ينفخ في يديه. شعَرَ بالفزع حين أحسَّ أنه وحيد تماماً، ولكن فجأةً... ربّاه! ما هذا؟ حشدٌ من الناس يقفون ويستغربون فوراءَ زجاجِ إحدى الواجهات ثلاثُ دمىً صغيرة، ألبست فساتين حمراء وخضراء، وهي تشبه الأحياءَ تماماً، إحداها على شكل عجوزٍ يجلسُ ويعزفُ على كمانٍ كبير، والاثنتان الأخريان تقفان وتعزفان على كمانين صغيرين، تهزُّ الدُمى رؤوسها مع الأنغام وتتبادَلُ النظرات، بينما تتحرّكُ شفاهُها وكأنها تتبادل الحديث - دون أن يسمعَ منه شيئاً خلفَ الزجاج.

ظنّ الصبي للوهلة الأولى أنّها حية - وحين أدرك أنّها ألعاب انفجر ضاحكاً، لم يكن قد رأى من قبلُ مثلها، ولم يتخيّل أنها موجودة، كانَ يُريدُ أن يبكي مما يُعانيه، لكي ما يشاهدُ يبعثُ على الضحك كثيراً.

أحسَّ فجأةً أنّ أحداً ما خلفه أمسكَ بهِ من قميصه، كان صبيّاً كبيراً شريراً، ضربهُ على رأسه، وخطفَ قبعته، ثُمّ وضَعَ رجلهُ بين ساقيه ودفعه، فتدحرج الصغيرُ على الأرض، وصرخَ بعض الناس، اعتراهُ الخوف، نهضَ وعدا... عدا مبتعداً، لا يعلمُ إلى أين!، دخلَ فناءً يفضي إلى أحد البيوت، واختبأ خلفَ كومةٍ من الحطب: «هُنا لن يَبْحَثوا عنّي، والمكانُ مظلم».

جلسَ وقد جَمّعَ أطرافه، والخوفُ يسيطرُ عليه، فلا يستطيع التنفس، وبغتّةً... بشكلٍ مفاجئٍ تماماً شعر براحةٍ غامرة: لم تعدْ يداهُ وقدماهُ تؤلمه، وأحسَّ بالدفء، بالدفء الشديد كما لو أنّهُ إلى جوار موقد. آخ ما أروع هذا، لم ينم منذ مدّة...

والآن ما ألذَ أن يغفو!

«سأجلسُ هنا، ثُمّ أعود لأشاهد الدمى - فكر الصبي وابتسم حين تذكرها - لقد بدت حيّةً تماماً!»، وسمع فجأةً صوت أمّه تغني لَهُ أغنيّةً منحنيّةً فوقَهُ. «ماما، إنني أغفو، آخ ما ألذ النوم هنا!».

- تعالَ إليّ، إلى شجرة عيد الميلاد أيّها الصغير. وشوشَ فوقَهُ صوتٌ هادئ، فظن في البداية أنه صوت أمّه، ولكن لا، ليست هي، فمن إذاً يدعوه؟ لكنّهُ لا يرى أحداً.

شخصٌ ما ينحني عليه، ويضمُّهُ نحوه في العتمة... وهو بدوره يمدُّ إليه ذراعيه، وَ... وفجأةً - يا لهذا النور! يا لهذهِ الشجرة التي لم يرَ مثلها في حياته! أين هو الآن؟ كل ما حوله يضيءُ، يتلألأ..، والدُمى ما أكثرها - لكن لا، ليست دُمىً، إنهم صِبْيَة صغار، وفتيات صغيرات، ينبعث الضياءُ منهم جميعاً، ها هم يتحلقون حوله، يرفرفون، يقبلونه، ويحملونه معهم، ثم ها هو ذا يطيرُ بنفسه، ويرى أمَّهُ تنظر إليه وتبتسم فرحة.

- ماما، ماما، آه ما أروع هذا المكان يا أمي!. يصرخُ الطفلُ مخاطباً أمّه، ثُمّ يتبادل القبلات مع الصغار من حوله، ويرغبُ لوهلة أن يحدّثهم بسرعة عن تلك الدُمى التي رآها خلف الزجاج.

- من أنتم أيّها الصغار؟ من أنتنّ أيتها الصغيرات؟ يسألهم بفرحٍ ومحبّة.

- هذه «شجرةُ يسوع» - يجيبونه - إنّهُ ينصبها دائماً في مثل هذا اليوم، للأطفال الذين ليسَ لديهم شجرة عيد ميلاد هناك...

وعلمَ أن كل هؤلاء الصغار مثله، إنّما هم أطفال، لكن بعضهم تجمَّدَ في السلال التي تركوا فيها على درجات بيوت البيروقراطيين في بطرسبورغ، وبعضهم مات مختنقاً في ساعات الرضاعة عند الأستونيين، في دور الحضانة[1]. وآخرونَ ماتوا على أثداء أمهاتهم الجافة «زمن جماعة سمارا[2]»، ومنهم من ماتَ في القطار مختنقاً من العفونة والنتانة في حافلات

الدرجة الثالثة، لكنهم جميعاً هنا الآن، جميعهم ملائكة عند يسوع، يرفرفون حوله، يمدُّ إليهم يديه ليباركهم ويبارك أمهاتهم الخاطئات...

الأمهات اللواتي ينتبذن ركناً قصيّاً ويبكين. إنهنَّ يتعرّفنَ أطفالهن، بينما يطيرُ الأطفالُ باتجاههنَ ويقبلنَهُنَّ، ويمسحون بأيديهم الصغيرة دموعهن، ويرجوهنّ ألاّ يبكين، لأنهم يشعرون هنا بفرحٍ غامر..

في الصباح عثرَ البوابون على جثّة طفلٍ هارب متجمد خلف كومة حطب، وحين بحثوا عن الأم وجدوها وكانت قد ماتت قبله، والتقى الاثنان عند الرب في السماء.

لماذا كتبتُ هذه القصّة، التي لا تناسبُ مذكراتٍ حقيقيّة عقلانيّة، ولا كاتباً مثلي؟ وكنتُ قد وعدتُ بكتابة قصص عن حوادث حقيقيّة! لكن هنا جوهرُ الأمر، فأنا أتصوّر على الرغم من ذلك أنّ ما رويته كانَ قد حدثَ فعلاً - أعني ما حدثَ في القبو وخلفَ كومة الحطب، أما ما يتعلق بالشجرة عند يسوع - فأنا لا أعلم، ولا أستطيع أن أقول لكم هل حدث هذا أم لا؟ وهنا تتجلّى قدرتي الروائية، في التخيّل!

تحضير الأرواح
شيء ما عن الشياطين
خُبث الشياطين الشديد، فيما لو كانت المسألةُ مسألة الشياطين فحسب

[....] باختصار شديد - أشياء كثيرة ينبغي أن نؤجلها حتى عدد شباط، لكنني أرغبُ أن نُنهي عدد كانون الثاني من اليوميّات بما يبعث على المرح. هناك موضوعٌ مَرِحٌ فعلاً، وهو اليوم يندرجُ ضمن «الموضة»[1] السائدة. إنّه - الشياطين، وتحضير الأرواح.

في حقيقة الأمر هناك أشياء مُدهشة تحدث: يكتبونَ إليّ على سبيل المثال- أن شاباً يَجْلِسُ على كرسيٍ في غرفَة ما، في بطرسبورغ، ضاماً رجليه الواحدة إلى الأخرى،ثُمَ يبدأ الكرسي بالقفز في أرجاء الغرفة[2]- هذا يحدثُ في العاصمة ولكن لماذا لم يحدث من قبل أن شخصاً راحَ يقفزُ في أرجاء الغرفة - على كرسيّه ضاماً رجليه، بل الجميع تحملوا وخدموا وبتواضعٍ شديد حَصَلوا على مراتب مختلفة في الدولة الروسيّة؟

بعضهمُ يؤكدُ لي أن لدى سيدة في مكان ما من دولتنا من الشياطين والعفاريت عدداً لا نعثرُ على نصفهِ حتى في كوخ العم وليم إيدي[3].

لكن حقيقةً أليسَ لدينا شياطين! إن غوغول [٤] يكتبُ من ذلكَ العالَم مؤكداً عدمِ دعوة الشياطين، وعدم فتل وتدوير الكراسي، وعدم الاتصال بها: «لا تثيروا الشياطين، لا تتواصلوا معها وتصادقوها، إن من الإثم أن تثيروا الشياطين إذا حدّثَ وعَذّبكَ السُهاد، لا تغضب وتُثار، بل صلِّ، فخلف ذلك الشياطين، ارسم علامة الصليب وصلّ» وتتعالى أيضاً أصواتُ رجال الدين[٥]، متحدةً مع العلم في عدم الاتصال بالسحر والسَحرة، عدم إتباع «السحر»، وطالما تحدّث القساوسة فالأمرُ لن يتطوّر إلى مجرّد نكتة! لكن مُجمَلُ المصيبة تتمثّل في السؤال التالي: أهي الشياطين فعلاً؟ وها هي ذي لجنة تفتيش خاصة ستعالج موضوع استحضار الأرواح! فإذا ما أقرّت هذه اللجنة بشكلٍ حاسم أن الأمر لا علاقة لهُ بالشياطين، وإنّما هو عبارة عن طاقة كهربائية مثلاً، أو شكل جديد لقوةٍ عالميّة ما - فلا بد عندها أن تحدّث ردّة سريعة وتراجع عن الفكرة السابقة وسيقولون: «إنما هي غيبيّات، يا للحسرة!» - ولحظتها يرمون كل شيء خلف ظهورهم وينسون، ويعودونَ، كعادتهم، إلى أعمالهم، ولكن لكي يتمّ البحث: هل هي الشياطين أم لا؟ ينبغي على أحد العلماء الذين تتكوّن منهم اللجنة أن يقبل بدايةً بوجود الشياطين، ولو على سبيل الافتراض. غير أن من غير الممكن أن نجدَ بين أعضاء اللجنة من يؤمن بوجود الشيطان، مع أن بين الناس كثيراً ممّن لا يؤمنونَ بوجود الله، ويؤمنون في الآن نفسه بكثيرٍ من الرضى والاستعداد بالشيطان. ولهذا فهذهِ اللجنة تصبحُ غير مختصة.

أو يمكن القول لا صلاحيّة لها. أما بالنسبة لي أنا فمشكلتي كلّها تتجلىّ في أنني لا أستطيع بأي شكلٍ من الأشكال أن أؤمن بوجود الشياطين، وهذا ما يحزنني لأنني كنتُ قد أبدعتُ نظريةً واضحة ومدهشة فيما يتعلّق باستحضار الأرواح، إلا أنها مبنية جوهرياً على

فرضيةِ وجود الشياطين، ودون ذلكَ تنهار من ذاتها. ولقد آليت على نفسي أن أطرحَ بينَ يدي القارئ نظريتي هذه جوهر الأمر أنني سأدافع اليوم عنَ الشياطين: فهم هذه المرّة يتعرّضون للهجوم دونَ أي ذنب، وينظَرُ إليهم على أنهم حَمقى، لكن لا تقلقوا... فهم يعرفون عملهم، وهذا ما أريدُ إثباته.

أولاً: يكتبون أنها أرواح غبيّة (يقصدون طبعاً الشياطين، القوى الشريرة: وأي أرواح أخرى يمكن أن تكون معنية هنا غير الشياطين؟) فعندما يسألونها أو ينادونها (من خلال تدوير المقاعد الكراسي)، فهي تجيبُ بأشياء عديمة الفائدة، وبلغة دون قواعد، وما حدثَ أن قدّمت تلك الأرواح فكرةً جديدة، أو اختراعاً جديداً. لعلَّ مُحاكمة من هذا النوع تعتبر خطأ فادحاً. وما الذي كان سيحدث لو أن الشياطين أظهرت مباشرة كامل قدرتها ومنحت الإنسان اختراعات واكتشافات؟ لنقل على سبيل المثال أنها قدمت له التلغراف الكهربائي[٦] (فيما لو أنه ليس مخترعاً حتى الآن)، وكشفت له الأسرار «يا روي هناكَ تجد كنزاً أو تجدُ منجماً للفحم الحجري»؟ (وبالمناسبة الخشب هذه الأيام غالٍ جداً» - لنرى الآن هل هذه إجابات لا زالت عديمة الفائدة! - أنتم تعلمون ولاشك أن العلم البشري لا زال في مرحلة الرضاعة، ولعلّه منذ فترةٍ قصيرة قد بدأ تطوّره، وهاهو سيزداد ثراء ويقف على قدميهِ في قادم الأيام، وفجأة تنهمِر عليه مجموعة من الاكتشافات الكبيرة من مِثل: أن الشمس ثابتة والأرض هي التي تدور حولها (لأن هناك ولابد الكثير من الاكتشافات من هذا الحجم، وحكماؤنا حتى لا يستطيعون مُجرّدَ أن يحلموا بها)، إذاً فجأة تنَهمرُ على البشرية هذهِ الاكتشافات ومجاناً، على شكل هدايا؟ وهنا أسأل: ما الذي سيحدث ساعتها للناس؟ آه بالتأكيد ستصعقُهم المفاجأة في البداية. وسيضمّ واحدهم الآخر فرحاً، ثم سينهمكون بدراسةِ هذه

الاكتشافات، وسيشعرون بأن السعادة تغمرُهم، والغنى المادي يطمُرُهم وربما ركضوا أو طاروا في الهواء، حلّقوا بسرعاتٍ تزيد بعشرات المراتِ عن سرعة القطارات، استخرجوا من الأرض محاصيل خيالية، وصنّعوا هرمونات كيمائية للكائنات الحية فتكون حصة الفرد ثلاثة أرطال من لحم البقر - كما يحلُم - لاشتراكيون الروس.. وباختصار شديد: اشرب وتمتّع!. «وهاهم جماعة الأخيار يصرحون: الآن وقد أصبحَ الإنسان مكتفياً ولا خوف عليهِ من الحاجة ويستطيع أن يُظهِرَ نفسَه، طاقاتهِ، ما من أعباء ماديّة تشغَلهُ الآن، وما من «وسطٍ» سيئ أو ضاغط، وهو السببُ القديم لكل الأيام، اليوم يصبحُ الإنسان رائعاً وتقياً، وما عادَ مُضطراً للعمل الطويل غير المنقطع طلباً للقمة العيش، سينصرف الجميعُ منذ هذهِ اللحظة إلى التفكير بالساميات وبالأمور النبيلة العميقة، وبالظواهر التي تعني الجميع. الآن....

الآن فقط جاءت الحياةُ السامية!» وهاهم الناس الأذكياء والجيدون يصرخون بصوتٍ واحد وكما لو أنهم ينشدون معاً نشيداً عاماً: «من ذا الذي يشبهُ الوحش نفسه؟ الشكر له، لقد أحضرَ لنا النار من السماء!» لكن هذا الفرح لن يكفي البشر لأكثر من جيل، وسيرون بعد ذلك وبشكلٍ مفاجئ أن لا حياةَ لديهم، وما من حُريّةِ روح، أو إرادة أو خصوصيّة ذاتيّة، سيحسونّ أن أحداً ما سرقَ كل ما لديهم دفعة واحدة، واختفى الوجه الإنساني ليحل محله النموذج العبودي البهيمي، مع فارق، أن البهيمة لا تعلمُ أنها بهيمة، بينما الإنسان سيعلمُ عندها أنهُ أصبحَ بهيمةً، وستجدُ الإنسانية نفسها في مأزق، والإنسان مغطى بالقروح ويعض على أسنانه من الألم[7]، وقد رأى أن الحياة سُرقت منهُ لقاء الخبز، وأنه باعها مقابل الخبز، مقابل «الحجارة التي حُولت خُبزاً»[8] وسيفهم الناس عندها أن لا سعادة دونَ طفولة، وأن الفكر غير النشط

إنما يؤول إلى الانطفاء، وأنّهُ من غير الممكن أن تحبّ قريبك دون أن تضحي لأجله، أو تقدم له من جُهدك، وأن من المملِ أن تعيش على الهدايا (والسعادة ليست في السعادة بحد ذاتها، بل في الوصول إليها). ستعمُّ الكآبة والقنوط: فكل شيءٍ قد حَدَثَ أو أُنجِزَ وما من شيءٍ يمكن إنجازه أو فعِلُه، كل شيءٍ قد أصبح معروفاً وما من شيءٍ يمكن معرفته.

المنتحرون يصبحون من الكثرةِ بمكان وليس كما هو الأمر الآن، وبشكل سري وفي الزوايا سيخرجون ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً ثمّ يقتلون أنفسهم جماعةً وبغتةً وقد يكون عددهم بالآلاف مستخدمين في ذلك أسلوباً جديداً، أسلوباً هدتهم إليه إحدى اختراعاتهم الجديدة تلك. وعندها قد يتوجه بعض البشر إلى الرب منشدين معاً: «يا رب! فليسَ بالخبز وحده يحيا الإنسان!» ولحظتها ستنتفضون ضد الشياطين.. ويرمون جانباً كل سحرتهم وسحرهم... أوه لا... ما كان للرب أن يفعلَ بنا ذلك ويصيبنا بكل هذا الألم! وتتهار مملكةُ الشياطين! لا... ليس الشياطين إذاً من يخطئ سياسياً بهذا الحجم!

إن السياسيين يتصفون بالعمق ويسيرون إلى أهدافهم بكثيرٍ من الحذر ووفقَ مسارٍ دقيق (وأكررّ: لو كانت المسألة تتعلّق في جوهرها بالشياطين!).

إن فكرة مملكتهم - هي الخصام والخلاف، وعليهما يؤسسون تلك المملكة. ولكن لماذا الخصام بالتحديد؟ والخصومةُ قوّة مخيفة وهي بَعَد النزاعات الداخلية أو الحروب الأهلية لا تقود الناس إلا إلى النُزهات والظلام والضياع وتشوه العقل والمشاعر. إن الجائر أو المُسيء في الخصام مع علمِه بأنه أساء لغيره لا يجنحُ إلى المُصالحة مع من أساءَ إليه، بل نجدُهُ يقول: «لقد أغضبه وأساءت إليه، وعليَّ أيضاً أن أنتقم». والأمر

الأكثر أهمية أن الشياطين تعلمُ جيداً تاريخَ العالم، وبالتحديد كل ما كانَ قد حدث على أساس الخصومةِ والخلاف. والشياطين تعلَمُ - على سبيل المثال- أن بقاء الطوائف والفرق الأوربية. المنفصلة عن الكاثوليكية. والتي لا زالت متماسكة كعقيدة ودين، وإنما تمَّ لها ذلك بسبب الدماء فقط التي أُريقت يوم ذاك. ورُبما كانت قد انهارت على سبيل المثل، الكاثوليكية وتلتها بعد ذلك بكل تأكيد الفرق البروتستانتيّة: فضد من بعد ذلك سينتفض المنتفضون؟ إنهم وفي هذه اللحظة - جاهزون للانطواء تحت رايةِ أي «إنسانية» أو حتى ببساطة تحت راية الإلحاد، والذي تبدو علائمه عليهم منذُ حين، وإذا كان كل ذلك يعودُ وتشكّل لديهم كعقيدةٍ أو دين جديد فلأنهم إنما يتابعون اعتراضهم وانتفاضتهم ضد ما سبق. حتى أنّهم انتفضوا في العام الماضي بشدّة، ووصلت انتفاضتهم تلك إلى البابا نفسه.

وبالتأكيد سيقوم الشياطين في نهاية المطاف بسحق الإنسان: «بالحجارة التي تتحوّل خبزاً» كما تسحَقُ الذبابة: وهذا هو هدفهم الأساس،و لن يكون ذلك إلا من خلال دعم مملكةِ الإنسان نفسه تحت عنوان الإنسانية ومنحِهِ الخلود. ولكن كيف لهذِهِ الشياطين أيضاً أن تروّض الإنسان؟ بالتأكيد من خلالِ[٩] «divide et impera» (فرّق أعداءك تَسُد عليهم». ولأجل هذه الغاية لابدّ من الخصام ومن جهة أخرى سيحمل الناس من الحجارة التي تتحوّل خبزاً، وبالتالي يجب إيجاد ما يتلهون به، كي لا يشعروا بالملل، وهنا يجدر السؤال. أليست الخصومة والخلافات مما يمكن أن يشغل الإنسان ويطرح الملل جانباً؟! والآن تابعوا معي: كيف تقومُ الشياطين باستخدام الخصومة والخلاف. فعند اللحظة الأولى أو الخطوة الأولى يتحد موضوع استحضار الأرواح مع الخِصام. ويساعدُ على ذلك زمن سريعُ العبور والجريان. فانظروا إذاً

كم من الأشخاصِ ممّن يؤمنونَ باستحضار الأرواح قد تمّ إغضابهم أو الإساءة إليهم، إن الناس يصرخون بهم ويسخرون بهم ويسخرون منهم. لأنهم يقومون بإدارة الكراسي مثلاً، وكأنهم بذلك يقترفون رذيلةً، وهؤلاء بدورهم يتابعونَ ما يقومون بهِ من تصرّفات وبعناد بغض النظر عن الخلاف الذي يثيرونه بأفعالهم تلك، وكيف لهم ألا يتابعوا: فالشياطين تبدأ تُعقّد الأمور ومع ذلك تسخرُ من البشر فيقف الإنسان الذكي، الذي يستحق جزيل الاحترام مُقطب الحاجبين ومفكراً: «ماذا يعني هذا؟» ثُمّ ينفضُ يَدَه مُستَعِداً للمغادرة، بينما ترتفعُ بين الناس الضحكات، أما النصير أو المشاريعُ فيبقى رُغماً عنه، مدفوعاً بأنانيته.

إذاً أمامنا لجنة مُختصة بالنظر في (تحضير الأرواح) وهي مُدمجة بالوسائل العلمية. الناسُ يترقبّون، فماذا أيضاً: الشياطين لا تفكر إطلاقاً بالمقاومة. بل على العكس إنها وبصورة مشبعة بالخجل تستسلم: الجلسات لا تنجح أو لا تُقام، والكذب والألعاب السحريّة يتضحان للعيان. وتتعالى ضحكات شامتةٍ من الجهاتِ كافةً اللجنة تبتَعدُ مشيّعةً بنظراتٍ حانقة وربما محتقرة!، أنصارُ تحضير الأرواح وكما لو أن الشياطين قد هلكت، لكن لا. ما أن يغيب العُلماء والناس المتشددون حتى تظهر الشياطين لأنصارها شيئاً ما، أمراً مضحكاً فوق طبيعي، وهؤلاء مستعّدون لتصديق ذلك والإيمان بحقيقته، وثانيةً وسوسة وإغواءات، وثانية خصومة!

الصيفَ الماضي في باريس تمت مُحاكمة مصوّرٍ لاستخدامهِ حيلة تحضير الأرواح كان يستحضِرُ أرواح الأموات، ويلتقط صوراً لتلك الأرواح، وقد توافَدَ إليه الناسُ من كل حدبٍ وصوب لاستحضار هذا القريب أو ذاك وأجزلوا الدفع لقاءَ هذه الخدمات. لقد قُبِضَ عليه متلبساً، واعترفَ بكل

شيء، بل قدّم تلك السيّدة التي كانت تساعُدهُ في عملهِ وتمثّل دورَ هذهِ الروح أو تلك! لكن أتظنوّن أن أولئك الذين خدعهم المصوّر قد صدّقوا ما آل إليه؟!

ولا حتى مثقال ذرّة! واحدٌ من أولئك قال لمن حادثة في الموضوع: «لقد ماتَ أولادي الثلاثة، وما كنت أملك صوراً لهم ولكن هذا المصور استطاع تصويرهم لي، لقد عرفتهم بالتأكيد! ما شأني أنا إن اعترفَ أو لا، لابد وأن لديّه حساباتهِ الخاصة، أما أنا فلدي صور أولادي، دعوني بسلام» هذا ما قرأته تحت الجريدة ولا أدري إن كنتُ قد قدمتُه لكم بدقة ووضوح، لكن حقيقة هذه القصّة موثوقة!

ماذا لو أن حادثة من هذا النوع وقعت لدينا: اللجنة العلميّة المختصة أنهت عملها لتوّها وكشفت ألعاباً سحرية بائسة، ولكنّها أعرضت عن كل شيء إذ قامت الشياطين باختطاف أحد أعند عناصرها وليكن على سبيل المثال مينديلييف[أ] نفسه، الذي كشفَ مسألة تحضير الأرواح في محاضراته الشعبيّة، ثمّ ها هو ذا يقعُ في شباكها مرّة واحدة! كما حدث من قبل واصطادت كروكس وأولكوت[١٠] في زمن ما - وها هي ذي تأخذه إلى زاوية ما، ثمّ ترفعهُ في الهواء لمدّة خمس دقائق فقط، ثم تشخّص لهُ مجموعةً من معارفهِ،الأموات بطريقةٍ لا لبس فيها أو شك - ما الذي سيحدث عند ذلك؟ إنه كعالم صادق سيكون مضطراً للاعتراف بالحقيقة التي وقعت - وهو المحاضر المعروف أي مشهد إذاً سيُحدث، أي عار، أي فضيحة، أي صُراخ، وزعيق وامتعاض واستياء!.... هذه على أي

أ- عالم روسيّ يعود له الفضل في اكتشاف الجدول الذي عُرف فيما بعد باسمه حيث صنف فيه العناصر الفيزيائية الموجودة في الطبيعة، من معادن وغازات وأشباه معادن ومن أوزانها الذريّة والنوعية.

حال مُجرّد نكتة، وأنا على ثقة من أن شيئاً من هذا القبيل لن يحدثَ مع السيد مينديلييف، مع أن الشياطين كانت قد تصرّفت في أميركا وبريطانيا وفق هذه الخطة تماماً.

لكن ماذا لو أن الشياطين قد هيّأت الحقل جيداً وغرست فيهِ من الخصامِ والخلاف الكثير ثمّ أرادت أن تنتقلَ إلى الأشياء الحقيقية والجد لا الهزل؟

عندها قد ينفض عنها الشعب الساخِر وغير المتوقّع لذلك، فإذا دخلت أو تقمصت أجسادَ الناس بكثيرٍ من المعرفةِ والإتقان والدُربة؟

وشعُبنا غير محمي، وميّال إلى الغيبيّاتِ والفساد، وليس لديه في هذا المجال من القادةِ من يلجأ إليه! إنّه عند ذلك قد يصدّق الظواهر الجديدة ويؤمن بها بعمق (ألم يؤمن بإيفان فيليبّوفيتش!)، وعندها إلى أي مرحلةٍ في تطوّره الروحي قد نصل، إلى أي تخريب أزلي! وإنحناءاتٍ ضمنية للماديّة إلى أي خلافٍ وخصامٍ... خصام أشد بمئة مرّة، بل ألف مرّة مما كان عليه. وقد يبدأ الخصام حين يلجأ إلى تحضير الأرواح سراً ويتم مُضايقة القائمين به وملاحقتهم (وهذا بالتأكيد سيتمُّ ملاحظتهُ من قبل بقيّة أفراد الشعب، ممن لا يؤمنون أصلاً بهذه المسألة) - مما قد يسببُ انتشار الخصومة بسرعة كانطلاق النار في الهشيم، فتصب النارُ الجميع.

إن الأفكار الغامِضة أو المبهمة تحبُّ البحثَ والتحقيق! لأنهما بمثابةِ الإثبات

والخلقِ لها، إن كل فكرةً «ملاحقةً»، أو يحقّقُ فيها تشبهُ ذلك البترول الذي سكبَهُ مشعلو الحرائق على أرضِ وجدران «تيوليري».آوه إن الشياطين تعلمُ قوّةَ الإيمان المقموع والممنوع، و ربّما انتظرت الإنسانية قروناً طويلة حتى تعثرت بالكراسي! تقودها بطبيعة الحال في ذلك قوة شرٍ هائلة هي أكثر

دهاءً من مفيستوفيليس الذي أبدعهُ غوته[١١] وهذا ما يؤكدهُ ياكوف بيترفيتش بولونسكي[١٢].

لقد كنت دون أدنى شك أمزَحُ وأضحك منذُ الكلمة الأولى حتى الأخيرة في حديثي السابق، ولكن اسمحوا لي في النهاية أن أوجز رأيي في الموضوع: إذا تمّ النظر إلى تحضير الأرواح كمفهوم ما يحملُ في ذاته عقيدةً جديدة (وتقريباً كل مُحضّري الأرواح وأنصارهم يميلون بهذا المقدار أو ذاك إلى هذه الفكرة) فمعنى ذلك أن بإمكانكم أن تأخذوا كلامي السابق على محمل الجد وليس المزاح. وليعطينا الرب بالسرعة الممكنة حرية البحث في الأمر من قبل الأطراف كافة، لأن هذه الحرية فقط هي الكفيلة بتسريع استئصال الروح الخبيثة واسعة الانتشار، وربّما استطاعت أيضاً أن، تُهدي العلم اكتشافاً جديداً، أما أن يصرخَ واحدنا في وجه الآخر، أن يسبَّهُ ويخزيه ويطردهُ من المجتمع بسبب «تحضير الأرواح» وتقويتها بأبشع صورها وأغباها. وتلك لعمري بداية عدم صبرنا على بعضنا، بداية المُلاحقة والتحقيق. وهذا ما تريدهُ الشياطين!

شباط

محبة الشعب - عقد لابد منهُ مع الشعب

كنتُ للتو قد كتبتُ في عدد كانون الثاني من «دنيفنيك»، أن شعبنا بعامتهِ أميل لأن يكون فظّاً وجلفاً وجاهلاً، ومنقاداً للظلمةِ والفساد، بل بربري أيضاً...

ولم ألبث أن قرأتُ مقالةً في «براتسكوي بوموتشي»، «وهي مجموعة أو دوريّة، تصدُرُ عن اللجنة السلافية لدعم المناضلين في سبيل حُريّة السلافيين» للكاتب الخالد الذكر، الذي أحبّهُ الروس جميعاً، المرحوم قسطنطين أكساكوف[1]، يمتدحُ فيها الشعب الروسي أنّه متنوّر منذُ غابر الأزمان، ومتعلّم ومثقف ومهذّب في تعامُلِهِ...

ماذا إذاً؟ هل أزعجني اختلافُ الرأي مع قسطنطين أكساكوف؟ إطلاقاً! فأنا أشاطِرهُ رأيه، وأُحسُّ به، بل وأتحمّس لهُ! ومع ذلك فثمّة تناقض... أو لنقل: اختلافٌ يمكن تفسيره عندما نتعلّم كيف نستنبط الجمال الساكن داخل كل إنسان روسي، ونستخرجُهُ من إطار الهمجيّة الدخيلة عليه!

لقد عاشَ الشعب الروسي ظروفاً عسيرة عبرَ مراحلِ تاريخه كافة تقريباً، وكان هذا الشعب خلالها مفسداً ومستسلماً للفساد، ومضللاً ومُعذّباً... ومع ذلك فقد عاشَ محافظاً على صورتِهِ الإنسانيّة وسلوكه الإنساني، والأروع أنه لم يحافظ على جمالِ شخصِهِ فحسب، بل حفظ

جمال أسلوبهِ في الحياةِ والعيش... وكل صديقٍ صدوقٍ للإنسانيّة، أو كل من خفق قلبه ولو مَرّةً واحدة بمعاناة الشعوب يستطيع أن يتفهّم هذا الشعب، وأن يصفح عن القذارة الدخيلة المتكوّمة حولَه، والمطبّقة عليه، بل ويستطيع أن يستكشف معدنه الماسي وسط هذهِ القذارة!

أعيدُ: لا تحكموا على الشعب الروسي من خلال الرذائل التي غالباً ما يرتكبها، ولكن من خلال أفكارهِ العظيمة التي يفكّر بها دوماً، وهو في حمأة الرذيلة! وليس جميع الناس خاطئين... بالعكس... بين هؤلاء أشخاص مستنيرون، بل يضيئون الدرب لنا جميعاً... ولديّ يقينٌ أعمى أنه ليس من بين أفراد الشعب الروسي شخصٌ لئيمٌ أو سافل أو شرير إلا ويعلم أنه كذلك! في ذات الوقت الذي لا يعترف فيه الآخرونَ بخطاياهم، بل يطرونَ عليها، ويشيدونَ بها، ويؤكّدون أنها الاستقامة بعينها... بل وأنها نور الحضارة!

لا تحكموا على شعبنا من خلالِ ما هو عليهِ الآن، بل من خلالِ ما يتمنّى أن يكونه! فمبادئُهُ قويّة ونيّرة... وهي التي أنقذتهُ في عصور العذاب، وهي التي نمت في روحه، ووهبتهُ النزاهة وصفاء القلب، وتفتّح العقل، وسعة الأفق... في تناغمٍ جميلٍ وجذّاب، وإذا كان في هذا شيءٌ من الدناءة، فإن الإنسان الروسي أوّل من يحس بالغم والحسرة، ويؤمن بأنها وسوسة شيطان مؤقّتة.. وأن الظلام سوفَ ينقشع.. ويحل محلّه نورٌ خالد في وقتٍ ما!

لن أسترسل في استذكار رموزنا الأدبيّة العليا عبر التاريخ، مثل سيرغييف[٢]، وفيودسيف بتشيرسكي[٣]، أو حتى تيخون زادونسكي[٤]، وبالمناسبة نحن لا نعرفُ الكثير عن تيخون زادونسكي، ولعلّنا لا نحاسب أنفسنا أصلاً لأننا لم نسعَ لقراءةِ هذهِ الرموز. صدّقوني أيّها السادة كنتم ستعرفون أشياء رائعة لو أنكم قرأتموها.

لا بأسَ أن أعود إلى روائع أدبنا الروسي... فهي مُستقاة من روح شعبنا.. ابتداءً من «بيلكين» الوديع البسيط الذي أبدعَهُ «بوشكين».. وبوشكين منحنا أجمل ما لدينا من أدب.. وتوجّهَ إلى شعبنا منذُ باكورة أعمالِهِ... كان إنساناً استثنائيّاً.. مُدهشاً، فاجأنا دوماً بمفرداتٍ وموضوعاتٍ فريدة تجعلنا نتساءل: هل هو معجزة؟ أم أنها العَظَمة الاستثنائيّة للعباقرة؟! لدرجة أننا ما زلنا عاجزين عن إيفائِها حقّها الثمين حتى اليوم!!

لن أذكّر بنماذج الأبطال الشعبيين الذين ظهروا في زماننا.. تذكّروا «أُبلوموف» تذكّروا «عش النبلاء» لتورغينيف، تذكّروا غونتشاروف العظيم وتورغينيف الخالد عبر العصور.. لقد تواصلوا جميعاً مع الشعب ولامسوا حياتَه فمنحتهم زخماً غير عادي، اقتبسوا من الشعب النقاوة والدماثة وجمال الروح وسعة العقل... وكل الصفات الجميلة التي وقفت بالمرصاد للجانب الآخر الدخيل والمظلِم والمستَبد... لا تعجبوا كيفَ بدأتُ الحديث هكذا فجأةً عن الأدب الروسي، فالفضل يعودُ بالذات لهذا الأدب برمّتِهِ، بأفضل أعلامِه، بطبقتنا المثقّفة التي انحنت أمام صدق هذا الشعب واعترفت بعظمةِ رموزِهِ الشعبيّة، التي أجبرتْهُ أن يتخذها نماذجَ يحتذى حذوها، وأظن أنها أثّرت فيهِ بذوقِها الفني الرفيع، أكثر من إرادتها الخيّرة.

يكفي! لعلّي أسهبتُ في الحديث عن الأدب، لكنني أردتُ الحديث عنه في معرضِ حديثي عن الشعب فحسب.

كيف نرى نحن الناس؟! كيف نفهم الشعب؟ هذا هو السؤال المهم في اللحظة الراهنة، وهذهِ هي المعضلة العملية، التي يكادُ يتلّخصُ وفقها سيرُ الأمور في المستقبل، فمفهوم الشعب أو «الناس» ما زال حتى الآن مجرّد نظريّة! وما زلنا نتعامل مع الناس - نحن الذين نحبّهم - كما نتعامل مع نظرية! ويتراءى لي أننا جميعاً لا نحب الناس كما هم في حقيقة الحال،

وإنما كما يتصورهم كل منّا في مخيلته!.. والأدهى من ذلك أنه لو ظهرَ شعبنا الروسي على صورة لا تتوافق مع ما يتصوّرُهُ كُلّ منا عنه فإننا جميعاً، وعلى الرغم من الحب الذي نكنّهُ لَه سوفَ نبتعدُ عنه دون أدنى أسف، والكلام هنا عن الجميع دون استثناء أحد، حتى الموالين للنزعة السلافيّة، بل لعل الكلام يعنيهم أكثر من الآخرين!

وفيما يتعلّق بي شخصياً، فسأُفردُ قناعاتي بوضوح وأقول: لسنا رائعين أو مثاليين، إلى الحد الذي يجعلنا نضع من أنفسنا مثلاً أعلى للناس، فنطالبهم أن يكونوا مثلنا تماماً، ولا تعجبوا هنا من أن ينظرَ للأمر من زاويةٍ محدودةٍ كهذه، إذ إنّهُ لم يوضَع من قبلُ إلا على هذهِ الصيغة: «من الأفضل: نحنُ أم الشعب؟!» أو «هل على الشعب أن يسير خلفَ رايتنا، أم علينا نحن أن نسير خلفَ الشعب؟!» هذا ما يطرحُهُ الجميع الآن! فما هو جواب من يحملُ في رأسِهِ ولو ذرّة من التفكير المنطقي، ومن يُعنى حقاً في سريرتِهِ بالشأن العام؟! أنا أجيبُ بصدقٍ وصراحة: علينا نحنُ أن ننحنيَ أمام هذا الشعب، ونأمَلَ منه كل خير شكلاً ومضموناً، نحن الذين علينا أن ننحني كالأطفال الشُطّار أما صدق الناس وأن نعترف به كحقيقة، وألا نساوم على شعبنا مقابل أي ثمن.. فلا شيء يُعادل فرحة الالتحام بهؤلاء الناس، بكيانهم.. بتفكيرهم، بمساكنهم الروسيّة، التي بالكاد تستعيد رونقها وأصالتها لتكون لنا مأثرةً عظيمة، ولكن من ناحية أخرى: سوفَ ننحني أمامهم بشرطٍ واحد: أن يأخذوا منا الكثير مما نحملُهُ من أفكار، فنحنُ نستطيع أن نتلاشى تماماً أمام الشعب.. وإذا لم يحصل هذا، فإننا سنموتُ كلينا، كلّ على حده... ولكن الاحتمال الثاني لن يحدثَ أبداً!

يتقوّل الكثيرون أن الحضارة تفسد الشعب، وأن السباق الطبيعي لتطوّر المجتمعات يجري هكذا دوماً، فبالتوازي مع تنوير المجتمعات ورفع سويّتها يبدأ الكذب والتزوير والبلبلة والعادات السيّئة، التي تتنامى من جيلٍ إلى

جيل، ونصطَدم بها نحن، وأبناؤنا من بعدنا... لتصبح واقعاً مُرعباً أمامنا، ألا ترون الأمور هكذا؟! هل محكومٌ على شعبنا أن يتخطّى مرحلة جديدة من الفساد والكذب، كما كان شأننا مع مفرزات الحضارة؟! «أعتقد أن أحداً لن يجادل في أننا قد بدأنا حضارتنا بالذات من مظاهر الفساد!» كم أتمنّى لو أسمع ما يُطمئنني بهذا الخصوص.

لستُ أشكُ بعظمة شعبنا التي تتحطّم أمامها تلقائيّاً كل التيارات العكرة، كائناً ما كان مصدَرُها، وعلى هذا الأساس تعالوا نساهم معاً، ونمدُّ أيدينا كلٌ حسبَ إمكاناتِه، ولو كانت صغيرة لكي ننجز الأمور دون أخطاء.. ولديَ قناعة - في الحقيقة - بأننا نحن وحدنا الذين لا نملك أي شيء سوى «حُبّ الوطن».. وقد نتفق وقد نختلف لكننا، متفقون على أننا أشخاص لسنا بالسيئين.. إذاً مهما يكن الأمرُ... فسوفَ تستقرّ الأوضاعُ في النهاية.

أعيدُ: مضت مئتا عام من الكسل والخمولِ والانحلال.. ختمنا بعدها «عصرنا الأدبي» بنتيجةٍ مفادها أننا لم نعد نفهم بعضَنا بعضاً، وبالطبع أنا هنا أتحدّثُ عن الناس الجادين المخلصين - فهؤلاء يختلفونَ بالرأي ولا يوافقُ واحِدُهم الآخر، أمّا أولئكَ المضاربون والمنافقون فمعهم الأمرُ مختلف: إنهم دائماً يفهمونَ بعضهم بعضاً...

آذار

قوّة تموت وقوى قادمة

[...] البابا... موجودٌ اليوم، وغداً سيموت[1] ماذا سيحدث حينها؟ أيعقَلُ أن توافق الكاثوليكيّة على الموت تضامناً معه؟ أوه... إنها لم تكن تتعطّشُ للعيش يوماً كما تتعطّش اليوم!... ولكن: هل يستطيعُ أنبياؤها ألا يسخروا من البابا؟! لم يكن موضوع البابا عندنا يوماً موضوع نقاش أو تساؤل.. في الوقت الذي يتمتّع فيه دوماً بـ «خصوصيّة» منفردة هائلة الصلاحيّات، ومفعمة برغبات وطموحات غير محدودة لن يوافق على التنازل عنها من أجل العالم كل العالم.. أو حتى من أجل أي شيء، أو إرضاءً لمصلحة من؟! أمن أجل الإنسانيّة؟ لا.. فالكاثوليكيّة تعتَبِرُ نفسها منذُ زمن بعيد أعلى من البشرية كلها!، وما زالت تؤثّرُ بشكلٍ سلبي مستعينةً بالأقوياء على الأرض، ومعتمدةً عليهم حتى نهاية المطاف!.. أعتقدُ أن نهاية المطاف هذه قد حانت الآن فها هي الكاثوليكيّة تبحث الآن بإلحاحٍ عن ولاةٍ لها على الأرض، كانوا - على أي حال - قد خانوها منذُ زمنٍ بعيد في أوربا، ومارسوا ضدها شتّى أنواع الاضطهاد[2] إلى أن آل بهم الأمر في أيامنا أن أصبحت نشاطاتهم منظّمة تماماً!

ولكن: أليست الكاثوليكيّة الرومانيّة نفسها مُذنبة في هذه التغييرات؟ ألم يحدث مَرّةً عندما دعى الأمرُ أنّها باعت المسيح - دون

تفكّير - لقاءَ سلطتها الدنيّوية على الأرض، مُصرّحةً بثقةٍ عقائديّة: «إن المسيحيّة لن تستطيع البقاء على الأرض دون سلطةٍ دنيويّة للبابا»، وأعلنت حينَها عن قدوم مسيحٍ جديدٍ لا يشبه القديم، مغوىً بوسوساتٍ شيطانيّة على ممالك الأرض: «فقط انحنِ لي، وأنا أعطيكَ كل شيء!».

أوه كم سمعتُ من الاعتراضات الساخنة حول هذهِ التصريحات، وقد عارضوني مُعتَبرينَ أن الإيمان بالمسيح وبنهجِهِ النقي والصادق ما زالا كالسابق يعيشان في ضمائر الكثيرين من الكاثوليكيين. وهم محقّون في الواقع لو لم يكن المصدر الأساس قد تعكّر وأُفسِدَ إلى غير رجعة، بحيث يستحيل إصلاحُه!

ها هي روما قد أعلنت منذُ وقتٍ قريبٍ جداً موافقتها على تلك الوسوسات الشيطانيّة وتبنّتها كعقيدة بحيث لم يكن مسموحاً حتى التنبيه إلى النتائج المباشرة لهذا القرار الخطير. ولكن ما حصل هو أنّه بإشهار هذهِ العقيدة، كان «السر كاملاً» قد كُشِفَ وكانت إيطاليا الموّحدة في ذات الوقت تقرَعُ بوابات روما، الأمر الذي جعَلَ الكثيرينَ عندنا يسخرون منهم ويتهمونهم بالجبن، وأن «لا جرأةَ لديهم حتى كي يغضبوا!» لا... هم ليسوا جبناء، ولا يمكن أن يُهزَموا دون مُقاومة، وهم قادرونَ على تغيير الواقع ولكنّهم تصوّروا أن الأمور كانت تجري دوماً هكذا في الكاثوليكيّة، ولم تكن هناك تحوّلات جذريّة في مسارها... أما الحقيقة فهي أن التحولات كانت تحدُث، ولكن في السر، فالبابا الذي أظهَرَ للجميع ولعدّةِ قرون أنه راضٍ عن ملاّكيه الصغار ضمن مقاطعتِهِ الباباويّة، كان في الحقيقة يخبّئُ طموحاتٍ كبيرة، ولم يكن هذا الرضى الظاهري إلا على سبيل الاستعارة أو

المجاز الذي أخفى خلفَه بثبات بذورَ فكرتِهِ الأساسيّة الراسخة في ذهنه، والتي مفادُها أن جذور البابويّة الصغيرة الكامنة اليوم سوفَ تنمو في المستقبل، وتصبح شجرة فخمة وجليلة تستطيع أن تُلقي بظلالها على الأرض بأكملها!

وما حَصَلَ في اللحظة الأخيرة، عندما جَرّدوا الحاكم الكاثوليكي من العُشر الأخير من ممتلكاتِه على الأرض، ورأى دُنوَّ أجله بأم عينيه، أنّه انتفض فجأةً وكشفَ الحقيقةَ كاملةً على مَسْمَع العالم بأكمله: «هل ظننتُم أنني سأرضى بمجرّدِ لقب حاكم المقاطعة البابويّة؟ إذاً فلتعلموا أنني اعتبرتُ نفسيَ دوماً حاكماً للعامة والقياصرة أينما كانوا على وجه الأرض، وليسَ روحيّاً فقط، وفقَ عقيدتي المعصومةِ عن الخطأ، وإنّما دنيويّاً أيضاً! هاأنذا أعلن اليوم على مسامِع العالم إنني سيّدهم الحقيقي وإمبراطورهم.. أنا هو قيصر القياصرة، سيّد الأسياد، وإليّ وحدي يعودُ المصيرُ والزمانُ والأوانُ!!»[٣]

إذاً - وبهذهِ القوّة التي لا يستهانُ بها - تم إحياءُ الفكرةِ القديمة حولَ بسط السيطرة على العالم، وتوحيده تحت راية الكاثوليكيّة الرومانيّة، هذهِ الفكرة التي لم تمتْ أبداً حتى في عهد يوليان المتراجع[٤]، ولكن ليسَ المهزوم، يوليان الذي بدا وكأنّهُ ينتَصرُ للمسيح في أوّل وآخر معركة، بحيث إن بيع المسيح الحقيقي للمملكةِ الدُنيويّة كان قد تحققَ بهذهِ الطريقة!

أعيدُ: وسطَ هذا الجيش الخطير يوجد الكثير من العيون البرّاقة، التي تكشفُ لنا في النهاية أين تكمن القوّة الحقيقيّة، التي يمكن الاعتمادُ عليها الآن. فيما لو فقدت الكاثوليكيّة حلفاءَها القياصرة، فإنها - دون شك سوفَ تندفِع إلى الشعب، الذي بدوره يتألّفُ من بطانةٍ

حاشـدة قوامُهـا عـشراتُ الألـوف مـن الغـواة، وأنـصاف العقـلاء، والحـاذقين، والنفسانيين والـديالكتيكيين، والعـرّافين، و... و.. الـذين يدركون أن الشعب دوماً واضحٌ من جهة، وطيّبٌ من جهةٍ أخرى - كما جرى في فرنسا، وكمـا يجـري الآن في كـثير مـن دول أوربـا - هـذا الشعب الذي حتى وإن لم يكـن يقيمُ وزنـاً للإيمـان، بل وحتـى يزدريـهِ، إلا أنّه على الرغم من كل هذا لا يعرفُ الإنجيل إطلاقـاً، «على الأقل في فرنسا».

إذاً سوف تتوجّهُ بطانَةُ الشعب - التي تعرِفُ دوماً ما عليها فعلُه - إلى الشعب وتجلب لَهُ مسيحاً جديداً يُوافقها على كُلّ شيء، مسيحاً مُعلَناً في آخر كاتدرائيّة رومانيّة كافرة: «ماذا أيّها الأخوةُ والأصدقاء - تقـولُ البطانة - كل ما يهمكم ويقلقلكم موجودٌ لدينا في هـذا الكتـاب منذ زمـنٍ بعيـد، ولكـن زعمـاءَكم سـرقوهُ منّـا، وإذا كنّـا لم نـصارِحكم بكل شيءٍ حتّى الآن فذلك فقط لأنكم كنتم قبلَ اليوم كالأطفـال الـصغار، وكـانَ مـن المبكّـر علـيكم معرفـة الحقيقـة، لكـن وقـت الحقيقـة قـد حـان اليـوم! هـل تعلمـونَ أن البابـا يملـك مفتـاح القـديس بطـرس[5]، وأن الإيمـان بـالله يعني الإيمـان بالبابـا المعيّن علـى الأرضِ من قبل الرب ذاتِه للنيابة عنه، وأن هذا البابا معصومٌ عن الخطأ، وقد وُهِبَ السلطة الربّانيّـة مكـان الله علـى الأرض، وأنّـه مالـك الزمـانِ والميعـاد؟! وقـد قـررَّ اليومَ أن يومَكم قد أتـى! لقد انجررتُم في الماضي إلى معاقِلِ الإيمـان بـالإكراه، ودام هـذا الإكـراهُ طويلاً، والبابـا يملـكُ الآن سـلطةَ إلغائه، أو بالأحرى يملك سلطةً مطلقةً وكليّةً.. نعم أيّها الأخوة: لقد أمـرَّ المسيحُ نفسه من قَبلُ الجميـع: إذا رفـضَ أخوتكم الكبـار أن يعـاملوكم كـأخوة، فخـذوا العـصي وادخلـوا بيـوتهم وأجـبروهم بـالقوّة أن يـصبحوا أُخوانـاً لكـم، وإذا رفـضَ أخـوكَ أن يقاسِـمكَ طواعيـةً كـل مـا يملـك

ومناصفةً فخذ منهُ كل شيء! لقد انتظرَ المسيحُ طويلاً أن يتوبَ هؤلاء الأخوة الكبار الفاجرون، ولكن عبثاً، وها هو بنفسه يطلبُ منكم أن تهتفوا: «Fraternite ou la mort»[1].

لقد جاءَ الآن وقت الغضبِ ووقت الانتقام! ولتعلموا أيضاً أيّها الأخوة أنكم غير مذنبين في خطاياكمُ السابقة واللاحقة، ذلك أنكم ارتكبتم تلك الخطايا فقط جراء فقركم، وإذا كان زُعماؤكم ومعلموكم قد بشّروكم بهذا في الماضي، فاعلموا أنّهم - ولو قدّموا لكم الحقيقة - إلا أنّهم ما كانوا يملكون سلطةَ التبشير بها قبل الموعد المحدد، إذ إن هذهِ السلطة محفوظة فقط في يد البابا وَحده، وبتكليفٍ من الربِ ذاتِه! وما يثبت أن هؤلاء المعلّمين لم يوصلوكم إلى أيّ صالح، هذا فضلاً عن المصائب الكثيرة التي ألحقوها بكم. إن كل مُبادرة من مبادراتِهم ماتت من تلقاء نفسها، ولم تستطع الاستمرار. كم قد احتالوا ليظهروا أقوياء بالاستنادِ والاتكاءِ عليكم، ومن ثَمَّ يبيعون أنفسهم بأسعار أغلى لأعدائكم!

أما البابا فلن يبيعكم لأحد، لأنّه الأقوى، ولا يوجد من هو أقوى منه: هو الأوّل بين الأوائل، وهو القيصرُ في الدنيا وعلى الآخرين أن يزولوا.. إذ إن نهايتَهم قد حانت، فقط آمنوا ليسَ بالله بل بالبابا! واسعدوا الآن وافرحوا لقد حلّت الجنةُ على الأرض: كلكم ستصبحون أغنياء، ومع الغنى عدل.. كل رغباتكم سوف تتحقق، وستُنتَزع من ضمائركم كل الأسباب المؤديّة إلى الشرور.

واضحٌ أن كل ما تقدّم إنّما هو ادعاءات، ولكنَ الشعب يطمح - دون شك - إلى تشكيل قوّة عُظمى موحّدة، مكوّنة من اتحاد غير

1- كن أخي وإلا فلتسقط - بالفرنسية في لأصل.

متوقّع مع القوى الحقيقيّة المتوافقة فيما بينها تاريخيّاً، قوّة تحلُ محل الزعماء والحالمين والمحتكرين، قوّة ذات مركز ثقل جاهز لأن يضغط بثقله كاملاً!.. فمن هي تلك القوّة إن لم يكن الشعب نفسه؟! أليسَ هو الثقل الحقيقي؟ وكمكافأة على دعم الشعب له، يمنحهُ الإيمان من جديد لتطمئن قلوب أبناء هذا الشعب، أو لم يشعر الكثيرون منهم منذ زمن بعيد بالشوقِ إلى رحاب الله والغم من دون الإيمان به؟! هاأنذا أحكي عن كل شيء دفعة واحدة، ولكنني كنتُ قد تحدّثتُ قليلاً في الرواية، وليسامحوني على عجرفتي، لكنني موقن أن كل هذا سوفَ يحدث في أوربا الغربيّة بصيغة أو بأخرى، أي أن الكاثوليكيّة سوف تتجه نحو الديمقراطية، أي نحو الشعب، وسوفَ تدير ظهرها للقياصرة لأنهم كانوا قد أداروا ظهورهم لها من قبلُ أصلاً، ولم يكن الأمير «بسمارك» مثلاً ليبدأ بتعقّب رموز الكاثوليكيّة لو لم يحس بها عدوّاً وشيكاً وخطيراً في المستقبل، ولا يخفى أن الأمير بسمارك إنسان شديد الثقة والاعتداد بنفسه لدرجة أنّه لا يضيّع سُدىً كل هذهِ القوى أمام عدو هزلي وضعيف «ولكن البابا أقوى منه» ولا يخفى أن كل السلطات في أوربا الآن تزدري الكاثوليكيّة، لأنها تبدو في الظاهر فقيرة ومهزومة، وقد فاتَ تلكَ السلطات أن تتصوّرها في هيئتها الهزلية، التي جسّدها فيها كُتابُنا الاجتماعيون السياسيون!

أعيدُ: البابويّة الآن - كما هي - قد تكون أكثر «خصوصيّة» خَطِرةً من كل التهديدات في العالم وكثيرةٌ طبعاً هي الأشياء التي تهدد العالم ولم تمر أوربا من قبل بأوقات أكثر صعوبة من الآن، فهي تمتلئ بعناصر مُعادية، وكأنّها محشوّة بالبارود، وتنتظرُ فقط الشرارة الأولى.

«ما الذي يعنينا من كل ما يجري في أوربا؟ وهو لا يجري عندنا على كل حال؟» سأقول لكم: إن أوربا ستطرقُ أبوابنا، وتصرُخُ بنا كي نُسارع لنجدتها حينما تدقُ الساعة الأخيرة في «النظام الراهن للأشياء» ستطلب مساعدتنا بحكم واجباتنا تجاهها، ستُرسِلُ تستدعينا أولاً، ثُمّ تأمُرُنا شارِحةً لنا أننا نحن أيضاً أوربا، وأنّ «نظام الأشياء الراهن» قد حَلّ لدينا أيضاً مثلما هو الحال عند الأوربيين، وأننا لم ننفق عبثاً مئتي عام ونحن نقتدي بالأوربيينَ ونفخر بهم، لأن إنقاذ أورّبا اليوم إنّما هو إنقاذٌ لأنفسنا.

طبعاً قد لا نكونُ من الوضوح بحيث نحل المشكلة لصالِح جهَةٍ واحدةٍ حَصراً، ولكن هذهِ المَهمّة قد تُفرَضُ علينا! ثُمَّ: ألم نقلِع نحن منذُ زمن بعيد عن أي تفكير بحقيقة «خصوصيّتنا» كقوميّة، ودورنا الحالي في أورّبا؟!

لم نعد في الحقيقة نستوعب هذهِ الأمور تماماً، بل حتّى لم نعد نسمَع تساؤلاتٍ كهذهِ، وصرنا نعتبرُ الغوصَ في تفصيلاتها حماقةً وتخلُّفاً!

وإذا ما طرقت أورّبا أبوابنا فعلاً كي نسارِعَ إلى إنقاذها، فربّما سنفهم حينها فقط ولأوّل مَرّة إلى أي درجة لم نكن نشبه أوربّا، على الرغم من انقضاء مئتي سنة من الرغبةِ والأحلام، التي اخترقتنا حتى سَوْرة الحماس بأن نُصبحَ أوربّا فعلاً!

وقد لا نفهم الدرس على الرغم من ذلك، وسيكون الأوان قد فات، فإذا كنّا لم نفهم، إذاً ما الذي تحتاجُهُ أورّبا منّا؟! وبماذا نستطيع مساعدتها فعلاً؟!

هل سنتجهُ - على العكس - لمصالحة أعداء أورّبا ونظامها بطريقةِ الحديد والدم ذاتها كما فعَلَ الأمير بسمارك؟! أوه.. لو تحققت هذهِ البطولة فعلاً عندها يمكننا بشجاعة تهنئة أنفسنا أننا حقّاً أوربيّون!

لعلَّ كل هذا قادم... لعلَّ كل هذا خيال.. ولكن الأمور الآن واضحة.

نيسان
أحكام غير دقيقة ومترددة حول نقاطٍ إشكاليّة

[...] سأطرقُ مباشرةً الموضوع الذي عنونتُ به مقالي هذا: هل نحنُ حقّاً أشخاص جيّدون، بحقِ أنفسنا على الأقل؟! وهل ثقافتنا صحيحة بحيث أننا لا نُلقي بالاً إلى الثقافة الشعبيّة، ونمجّد ثقافتنا الشخصيّة؟! وإذا اعتبرنا أنفُسنا نقدّمُ للناسِ شيئاً جديداً، فما هو بالضبط؟!

سأختصرُ الوقتَ وأجيب: إننا نحن أسوأ كثيراً من عامة الشعب، وعلى الأصعدة كافة تقريباً!

يتقوّلون: إنه ما إن تبرز بين أفراد الشعب شخصيّة متميّزة حتى نُسارع فوراً ودونَ تفكير إلى الحكم على صَاحبها أنه نصّاب، وانتهازي «يستثمر إمكانات غيره!»

[...] أولاً: هذا الحكم غير صحيح، وثانياً: ألا نُصادف كل لحظة بين المثقفين الروس أنفسهم من هم على شاكلةِ هؤلاء «النصّابين» الانتهازيين؟ بالتأكيد. وما يبعثُ على الخجل أن هؤلاء مثقفون، أما العامة فلا!

لست أدري أينَ ترعرع هؤلاء الذين يروّجونَ لهذه الفكرة، فقد رأيتُ - أنا شخصياً خلال طفولتي، وطوال حياتي عكس هذا تماماً..

أذكُرُ مَرّةً عندما كنتُ في التاسعة من عمري.. كان اليوم يوم عيد، والساعة تقارب السادسةَ مساءً على ما أذكر وهو الوقت الذي تجلسُ فيه عائلتنا: أمي وأبي وإخوتي وأخواتي حول الطاولة المستديرة، نشرب الشاي،

والحديث يدور حول القرية، وكيفَ سنزورُها في الصيف. وإذ بالباب ينفتح فجأةً ويظهر عند العتبة «غريغوري فاسيليف» حارس البيت، القادم للتوّ من القرية!

كان الحارسُ يُعتبر «الوكيل» الرسمي المكلّف بإدارةِ القرى والضيع في غياب مالكيها، وكان يظهرُ دائماً بكامل وقاره في زيّه الرسمي وسُترته الألمانية. أما الآن فقد ظهَرَ مكان ذلك «الوكيل» شخصٌ بائس بثياب قديمة وخفٍ عتيق، ولعلّهُ قد قطَعَ ماشياً على قدميه كاملَ الطريق من القريةِ حتى بيتنا.

دخلَ ووقفَ وسط الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة!

ما هذا؟! - صاحَ أبي مذعوراً - انظروا.. ما هذا؟!

احترقت الضيعة. غمغَمَ غريغوري فاسيليف.

كيفَ لي أن أصفَ ما ترتّبَ على هذا الخبر؟! لم يكن أبي وأمي شخصين غنيين.. لقد كانا شخصين كادحين، من الشغيلة الذين لا يستحقّونَ أن يتلقّوا مثل هذهِ الهديّة في يوم العيد! وتبيّنَ أن كل شيء قد احترق: البيوت، مخزن الحبوب، زريبة المواشي، بذار الموسم القادم، وجزء من الماشية، وفلاّح واحد هو أرخيب.

للوهلة الأولى، ومع ذعر المفاجأة شعرنا أن دماراً شاملاً قد حَلَّ بنا، ركعنا وشرعنا نُصلّي كانت أمي تبكي عندما اقتربت منها «أليونا فرولوفنا»! - وأليونا فرولوفنا سيّدة من ضواحي موسكو تعمل أجيرةً لدينا منذ زمنٍ بعيد.. ربّتنا جميعاً في طفولتنا، وأنشأتنا في يفاعتنا. أذكرها دوماً مرحة وصافية الطباع، وأكثرُ ما أذكرُ حكاياتها الرائعة في ليالي الشتاء. كانت حينها في حوالي الخامسة والأربعين من عمرها، وقد كفّت عن استلام رواتبها منّا منذ عدّة سنوات «لا يلزمني - كانت تقول»، فتراكمت أجورُها لتصل إلى حوالي خمسمائة روبل وضعتها في الرهن «قد أحتاجُها في

شيخوختي: كانت تقول» إذاً اقتربت أليونا فرولوفنا من أمي وهمست في أذنها:

بما أنكم الآن بحاجة إلى النقود، فخذوا نقودي، أنا لا أحتاجُها.

طبعاً لم يأخذوا النقود منها، واستطاعوا يومها تجاوز الأمر، ولكن السؤال الآن: إلى أي نمطٍ أو فئةٍ من الناس تنتمي هذهِ السيّدة الحييّة؟! طبعاً أنا أتحدّث عنها اليوم وقد ماتت منذُ مدّة في مأوى العجزة، هناك حيث كانت تحتاجُ نقودها بحق! أظن أنّها من الناس الذين لا يجوز تصنيفهم في عِداد النصّابين والانتهازيين! وما دام الأمر كذلك فماذا نسمّي موقفها ذاك؟

هل أبدت ذلك الموقف فقط «على مستوى ردّة الفعل العفوية للوجود المسالم المنطوي والحياة السلبيّة؟!» أم أنها أظهرت شيئاً أكثر حيويّةً من السلبيّة المحضة؟ [...] قد يجيبونني باستهزاء: هذهِ مصادفة منفردة! ولكنني وحدي استطعتُ أن ألاحظ عشرات المصادفات المُشرِّفة وسط العامة من شعبنا، وأنا على يقين من وجود الكثير من المُشاهدات الأخرى التي تجعلنا ننظر إلى الشعب دونَ أن نشعرَ بالعارِ منه! ألا تذكرون في «رواية عائليّة» لـ «أكساكوف» كيف تضرّعتِ الأمُ بدموعها للفلاّحين أن يُقلّوها عبرَ نهر الفولغا فوقَ قشرةِ الجليد الرقيقة المتشكّلة في أوّل الربيع إلى قازان، على الضفة الأخرى حيثُ يوجَدُ طفلٌ مريض، وكانت قد مَرّت عدّة أيام لم يجرؤ أحد خلالها على اجتياز النهر فوق الجليد المتكسّر.

هل تذكرون ذلك الوصف البديع لذلك العبور، وكيفَ أن الفلاّحين بعد ذلك، حين أوصلوها إلى حيث تبغي، على الرغم من المخاطر لم يقبلوا تلقّي أجورهم لقاء إيصالها معتبرين أنّهم تحمّلوا هذهِ المخاطر كرمى لدموع الأم، ولأجل خاطر ربنا المسيح[1]...

وقد حدث هذا في أحلكِ فتراتِ نظام الرق... فهل هذهِ وقائع فرديّة أيضاً؟ وإذا كانت تستحق الثناء، فليسَ أكثر من: «على مستوى ردّة الفعل العفويّة للوجود المسالم المنطوي والحياة السلبيّة».

هل هذهِ مجرد مُصادفات؟! حوادث متفرّقة؟! يجازفونَ بحياتهم ليُريحوا قلب إحدى الأمهّات وننظرُ إلى الأمر على أنّه مجرّد سلبيّة! أليسَ الحق أن هذهِ رحمةٌ وسماحة نفس، وسعة أفقٍ وطنيّة؟ حتى في أوج الحقبة البربريّة لنظام الرق؟ قد تقولون إن الناس يومها ما كانوا يعرفون الإيمان، ولا يعرفونَ كيف يقيمون الصلاة. وكانوا يسجدون للجماد ويغمغمونَ بالتّرهاتِ حول الجمعة العظيمة و «فرولا» و «لاورا»[٢]. وأنا أجيب أن هذهِ الأحكام قد ظهرت كاستمراريّة عفوية تالية لازدرائكم القديم للشعب الروسي ونمط ثقافته. وبالمقابل فنحن نحفظ عشرات النِكات الراقية والفاجرة عن الأرثوذكسيّة ونتنَدَرُ بحكاياتٍ ساخرة تروي كيفيّةَ تلقّي الخوري الاعترافَ من العجائز، وكيفَ يُصلّي الفلاّح الجمعةَ العظيمة و... و... وهنا مربط الفرس، فهؤلاء المدّعون لا يفقهونَ من الأرثوذكسيّة شيئاً، ولهذا فهم لن يفهموا شعبنا أبداً!

إن هؤلاء الناس البسطاء، يعرفونَ ربَّهم المسيح أكثر منّا، مع أنهم لم يتعلّموا في المدارس.. يعرفونه لأنّهُ عبر عصورٍ طويلة درأ عنهم الكثير من الويلات، وكان معهم دوماً منذُ البداية، سمعهم وعايشهم عبر أوليائهم الموجودين من أجل الناس على الأرض الروسيّة، يمجّدونهم ويذكرونَ أسماءهم في المآتم والصلواتِ منذ القِدم، وحتّى نهاية الحياة...

صدّقوني، إنه في هذا المعنى، حتّى أدنى طبقات شعبنا إنّما هي مثّقفة أضعافاً مُضاعفة أكثر ممّا تقيّمونها أنتم في جهلكم الثقافي!

ومن الممكن أن يكونَ أبناؤها مثقفين أكثر منكم شخصيّاً على الرغم من أنكم درستم منهجيّاً علوم اللاهوت.

حزيران
الفهم الطوباوي للتاريخ

بقينا طوال السنوات المئة والخمسين، التي تلت وفاة بطرس الأول نعيشُ في وئامٍ مع الحضارات الإنسانيّة ونتقرّبُ من تاريخها وأفكارها، فتعلّمنا، بل علّمنا أنفسنا أن نحب الفرنسيين والألمان، قُل الجميع وكأنهم أخوتنا، بغض النظر عن أنّهم لم يحبّونا قط، نعم وكأنهم قد قرروا ألا يحبّونا أبداً.

لقد تمثلت كل إصلاحاتنا في مرحلة بطرس الأوّل: بأننا وخلال ذلك الزمن الطويل أخذنا عن تلك الحضارات «توسيع» وجهة نظرنا ورؤيانا، اللتين لم نعرف أنهما وجدتا عند أي شعب من الشعوب في القديم أو في العالم الحديث. إن روسيا ما قبل بطرس كانت قويّة وعمليّة على الرغم من إنها كانت تتطوّرُ سياسياً ببطء، وقد أعدّت الوحدةَ، واستعدّت لربط أطرافها إلى المركز، لقد استطاعت أن تفهم ما ستجلبُهُ لها الجوهرة المخبّأةُ في أعماقها «الأرثوذكسيّة»، وهي المؤتمنةُ على حقيقة المسيح، وحقيقة الحقيقة لشكل المسيح الحق، وهذا ما يتم التعتيمُ عليه في كل المعتقدات الأخرى، وعند كل الشعوب - إن هذهِ الجوهرة الأبديّة المرتبطة بروسيا، والموكلة إليها لحفظ الحقيقة - حسب وجهة نظر النخبة الروسية في ذلك الوقت - خلّصت ضمائرهم من ربقة الالتزام بأي تعاليم أخرى، والأكثر من ذلك أنهم فهموا في موسكو بأن كل اقتراب من أوربّا يمكن إن يضر العقل الروسي وقد يخرّبه ويُمرض «الفكرة الروسيّة»، ويفرغ الأرثوذكسية

من أصالتها، ويحمل روسيا إلى طريق الهلاك «على غرار الشعوب الأخرى كلها».

وهكذا فإن روسيا القديمة لم تكن مُحقّة، ومهدتْ أن تُتّهمَ أمام الإنسانيّة بذلك لأنّها خبّأت جوهرتها «أرثوذكسيتها» في قرارة نفسها عن أوربّا، أي عن الإنسانية شأن أولئك المنشقين الذين يرفضونَ الأكل من آنية غيرهم، معتبرين أن ملاعقهم وفناجينهم إنّما هي أشياء مُقدّسة. إن هذهِ المقارنة صحيحة لأن كثراً من العلاقات الروحيّة والسياسيّة مع أوربّا كانت قد نمت عندنا قبل بطرس الأوّل، ثمّ جاءت إصلاحات بطرس الأكبر لتؤكد أن لا بديل من توسيع وجهة نظرنا، وبالتالي كانت المأثرة الكبرى لبطرس في انفتاح روسيا على أوربّا.

إن الجوهرة التي تحدّثتُ عنها أعلاه، هي نفسُها التي تكلّمتُ عنها في أحد الأعداد السابقة من «اليوميّات»، والتي كنّا - نحن الطبقة المثقّفة في روسيا - قد أعدناها إليها بعد مئة وخمسين عاماً من غيابها، والتي يتوجّب على الشعب الروسي أن يتقبلها منا Sine qua non[1]، نحن الذين ننحني أمام حقيقته، «فدونها لا يمكن لوحدةٍ طبقية أن تتحقق أو تبدو ممكنة ودونها سيموت كل شيء[1]».

ما الذي تعنيه إذاً مسألةُ «توسيع الرؤيا أو وجهة النظر»؟ ما المقصودُ بها؟

إنّها ليست تنويراً بالمعنى الدقيق للكلمة، وليست علماً، وفي الوقت نفسه ليست خيانةً لبدايات الشعب الروسي الأخلاقيّة من أجل الحضارة الأوربيّة: لا فهي ليست مسألة خاصة بالشعب الروسي وحده، وإن كانت تعبّرُ أساساً عن حبنّا الأخوي للشعوب الأخرى التي عايشناها على مدى قرن ونصف، إنّها حاجتنا لخدمةِ الإنسانيةّ ولو على حساب مصالحنا الكبيرة

أ- دون جدال - باللاتينية في الأصل/المترجم/

الخاصة، إنّها المصالحة بين حضارتينا مع إدراكنا عدمَ التوافق بين رؤانا وأفكارنا من جهة ورؤاهم وأفكارهم من جهة أخرى، بل قلْ ذواتهم الأوربيّة، مع محاولتنا إيجاد الحقيقة التي تتضمنها فروع الحضارة الأوربيّة، على الرغم من أن الكثير مما لمسناهُ لا يمكننا أن نوافق عليه. وفي النهاية هي الحاجة لأن نكون عادلين، وأن نبحث عن الحقيقة فحسب، وباختصار يمكن لهذا الأمر أن يكون البداية، أو الخطوة الأولى لدور جوهرتنا «أرثوذكسيتنا» في خدمة الإنسانيّة.

من خلال إصلاحات بطرس الأول توسّعت فكرتنا القديمة، الفكرة الموسكوفيّة الروسيّة وازددنا فهماً وتعمقّاً في حقيقة دورنا ومهمتنا الكبرى، وخصوصيتنا ضمن الإنسانيّة، ولم يكن باستطاعتنا أن ننكر أن مهمتنا ودورنا لا يشبهان ما لغيرنا من الشعوب، لأن كل خاصيّة شعبيّة تعيش لنفسها وفي نفسها، ونحنُ نبدأ الآن عندما حان الوقت لأن نكون خدماً للمصالحة العامة، وهذا ليس شيئاً معيباً بل العكس، ففي هذا تكمُنُ عظَمتُنا حيث إن كل ذلك سيؤدي إلى الوحدة النهائيّة للإنسانيّة، لأن كل من يُريد أن يكون أعلى من الجميع في المملكة الإلهيّة عليهِ أن يكون خادماً، هكذا أفهمُ الرسالةَ الروسيّة في فكرتها الأساسيّة. وكنتُ قد حددتُ بنفسي الخطوة الأولى لسياستنا الجديدة بعد بطرس الأوّل، وهي وحدةُ «كل الشعوب السلافيّة» تحت جناح روسيا، وهذا لن يكون احتلالاً أو باستخدام القوّة، وليس عبر القضاء على الخصوصيّات السلافيّة وإبدالها بالروسيّة، وذلك على طريق إعادة تأسيس علاقة وثيقة مع أوربّا ومع الإنسانيّة عامة، وإعطائهما الهدوء والراحة في النهاية بعد كل المآسي التي مَرّت بهما والتي لا تحصى. آه طبعاً يمكن أن تضحكوا وتسخروا من هذهِ «الأحلام القديمة!»، ويمكنكم أن تقولوا - فيما يتعلّق بهذهِ الرسالة الروسيّة - أنْ ليسَ كل روسي يتمنّى انبعاث السلافيّة على هذهِ الأسس من

أجل حريّة الشعوب الكاملة وتجددِ روحها، وليس أيضاً من أجلِ أن تسيطر روسيا سياسياً على تلك الشعوب وبالتالي تقّوي قدراتها، وهذا ما تتهمنا به أوربّا، أليسَ كذلك؟ وكأن الأمر تبرير لجزءٍ من الأحلام القديمة؟ ومن أجل هذا الهدف يصبح من البدهي أن تكون القسطنطينية لنا أولاً وآخراً..

يا إلهي كم هي مضحكة الابتسامة التي يمكن أن تظهر على وجه أي نمساوي أو إنكليزي لو توفّرت لأحدهما أن يقرأ كل هذه الأحلام «المذكورة أعلاه»، وأن يصل في قراءته فجأةً إلى هذه الخاتمة الموضوعيّة: «القسطنطينيّة القرن الذهبي[٢]، هي أوّل مركز سياسي في العالم - فهل هذا احتلال؟

سأجيب أنا: القرن الذهبي والقسطنطينيّة[٣] سيكونان لنا، ليس بهدف الاحتلال والإكراه، بل سيحدث هذا من تلقاء نفسه، لأن الوقت قد حان، وإذا كان لم يحن بعد فإنه أصبحَ قريباً جداً، وهناك مؤشّرات على ذلك. هذا هو الحل الطبيعي، ويمكن القول إن هذه هي كلمة الطبيعة نفسها، وإذا لم يحصل ذلك من قبل فإن السبب يعود لعدم نضوج الوقت بعد. يعتقدون في أوربّا أن بطرس الأكبر[٤] «تركَ وصيّة ما»، وما هذا إلا ورقة مكتوبة من قبل البولونيين، ولو أن فكرة احتلال القسطنطينيّة خطرت لبطرس أثناء تأسيسه لمدينة بطرسبورغ، لتركها في حينها لعدّة اعتبارات كما أتصوّر، حتى ولو كان يمتلك القوّة الكافية للقضاء على السلطان، وذلك لأن الوقت لم يكن مناسباً، ومثل تلك الخطوة قد تجلب النهاية لروسيا.

إننا لم نتجنب أيام بطرسبورغ التشيخونيّة[أ] بتأثير جيراننا الألمان، ومع أن هذا التأثير كان بصورةٍ ما مفيداً لنا لكنّه شَلّ إلى حدٍ كبير التطوّر

أ- التشيخونيّون: سكان بطرسبورغ من أصل أستوني او فيلندي، عند بداية تأسيسها. /المترجم/

الروسي الواعد. وقد تجنبنا تأثير اليونانيين - الأكثر رقّةً من الألمان الأغبياء - أيام القسطنطينيّة العظيمة الفريدة من نوعها، وهي التي ورثت الكثير من أقدم وأقوى الحضارات. لقد كانت تجمعنا مع اليونانيين نقاط التقاء كثيرة، خلافاً للألمان الذين لا يشبهوننا، والذين كانوا يشكّلون حاشية القيصر، وكان باستطاعتهم - لو طال بهم الأمر - أن يطوّقوا العرش، فينالون الحظ الأوفر من التعليم ويصبحون علماء قبل الروس، ولا يخيبونَ أملَ خلفاء بطرس على العرش فحسب، بل أمل بطرس نفسه، طاعنين إياه في نقطة ضعفِهِ الوحيدة، وهي قدرتُهُ في الملاحة ومعرفته بها، وبكلمة واحدة: لكانوا قد امتلكوا روسيا سياسيّاً ونقلوها إلى طريقٍ آسيويٍ ما، إلى أي انطوائيّة كاملة، وهذا ما لم يكن باستطاعة روسيا تحمّله. وكان يمكن أن يؤدي إلى فقدان روسيا قوميتها وخصوصيّتها، فيصبحُ الروسي القوي معزولاً في شماله الثلجي الحزين، ويمسي مادةً لخدمة «تسارغراد».

ويصبحُ الجنوب الروسي كلّه تحت سيطرة اليونانيين، وكان يمكن أن تنقسم الأرثوذكسيّة إلى فئتين: «التسارغراديّة المحدثة والروسيّة القديمة..» باختصار إن كل ذلك لم يكن في وقته، أما الآن فالأمر مختلف، لقد أصبح لروسيا وجودها وحضورها في أوربّا، وهي الآن متعلمة، والأمر الرئيسي أنها عرفت مكامن قوتها، وأمست قويّةً ومؤهلةً لأن تكون أقوى. وأدركت أن «تسارغراد» يمكن أن تكون لنا، ولكن ليس عاصمة لروسيا. لو أن بطرس الأول قد احتل «تسارغراد»، فما كان بإمكانه إلا أن ينقل عاصمته إليها، وهذا أمرٌ مدمرٌ لروسيا لو حدث، لأن هذه المدينة ليست في روسيا ولا يمكن أن تكون روسيّة. ولقد تجنب بطرس هذه الغلطة، لكن ذلك لا يعني أن خلفاءَها يستطيعون فعل ذلك. وحتّى لو سَلّمنا أن تساغراد يمكن أن تكون لنا ولكن ليس عاصمة لروسيا، فإنها بطبيعة الحال لا يمكن إن تكون عاصمة للسلافيّة مثلما يحلم بعضهم. إن

السلافيّة دون روسيا سوف تنهي صراعها مع اليونانيين، حتى ولو استطاعت أن تجمع من أجزائها وحدةً سياسيّة، وهي في كل الأحوال لا تستطيع أن تورّث القسطنطينيّة لليونانيين وحدهم، وأن تعطيهم ذلك الموقع المهم من الكرة الأرضيّة، لأن ذلك سيكون أكبر من حجمهم بكثير. آه، أما حين تكون روسيا على رأس السلافيّة فسيكون الأمر مختلفاً، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل هذا الأمر مفيد؟ ألا يؤدي ذلك إلى سيطرة السلافيين السياسيّة على روسيا؟

إن هذا ما لا نريده أبداً!

من أجل ماذا، وبأي حق أخلاقي تطالب روسيا بالقسطنطينيّة؟ واستناداً إلى أي أهدافٍ عليا يمكن أن تطلبها من أوربّا؟

إن جوابي على ذلك: هو أن روسيا تُعَدّ زعيمة وراعية وحامية للسلافيّة، وقد أوكل هذا الدور لها منذ أيام إيفان الثالث[٥]، الذي جسّد هذا الأمر في الشعار «التسارغرادي» النسر ذي الرأسين، الذي لم يظهر إلا في أيام بطرس العظيم عندما وجدت روسيا في نفسها القوّة لتنفيذ مهمتها وأصبحت الراعية الفعلية والوحيدة للسلافيّة وللشعوب التي تعتنقها. إن هذا هو السبب الذي أعطى لروسيا الحق في «تسارغراد القديمة»، وكان من الممكن لهذا السبب أن يكون مفهوماً وغير مزعج لأكثر السلافيين غيرةً على استقلالهم وحتى لليونانيين أنفسهم. نعم وبذلك كان يمكن أن يتحدد الجوهر الأساسي لتلك العلاقات السياسيّة، التي كان يجب على روسيا أن تنتهجها مع كل الشعوب الأرثوذكسيّة - السلافيّة أو اليونانيّة وإن تكون راعية وزعيمة لهذه الشعوب ولكن ليس مالكة لها، أن تكون أمّا لها وليس سيّدةً عليها، حتى إذا ما أصبحت حاكمةً لهذه الشعوب، فسيكون الأمرُ نزولاً عند رغبتها فقط، مع الحفاظ على كل ما تحددُ بهِ استقلاليتها وذاتيتها.

وهكذا يمكن أن ينظم إلى هذا الاتحاد يوماً ما ليس فقط الأرثوذوكس السلافيان الأوربيين! ولو حصل ذلك فعلاً لكانوا قد رأوا بان الوحدة تحت حماية روسيا ليست إلا توطيداً لاستقلاليّة ذواتهم كل على حدة. فدون هذه القوّة الموحدة الجبارة يمكن لتلك الشعوب أن تنجر إلى نزاعات وصراعات متبادلة فيما بينها، حتى ولو استقلت سياسياً عن المسلمين والأوربيين الذين تخضع لهم.

سيقولون لي لماذا تتلاعب بالكلمات: «ما هي هذه الأرثوذكسية؟، وما هي هذه الفكرة الخاصة والحق في وحدة الشعوب السلافيّة؟ أليس ذلك هو اتحاد سياسي بحت مثله مثل غيره من الاتحادات، حتى ولو على أسس أوسع، كالولايات المتحدة الأميركيّة، أو أوسع من ذلك؟» هذا هو السؤال الذي يمكن أن يطرح وأجيب عليه بالنفي. إن هذا الاتحاد ليسَ كذلك، وليس لعباً بالكلمات، لكن سيكون فعلياً شيئاً خاصاً لم يسمع عنه من قبل، ولن يكون اتحاداً سياسياً فقط، وليس من أجل الاحتلال السياسي والعنف أبداً، مثلما تتصور أوربّا، وليس باسم التجارة والفوائد الخاصة والأبديّة، وكل الرذائل المؤلّهة تحت شعار المسيحيّة الرسميّة، والتي لا يثق بها سوى الرعاع من عامة الناس فقط.

لا بل سيكون الأمرُ تشييداً فعلياً للحقيقة المسيحيّة الباقية في الشرق، وتشييداً حقيقياً جديداً، لصليب المسيح، والكلمة الفصل للأرثوذكسية التي تقف روسيا على رأسها منذُ زمنٍ بعيد. وسيكونُ ذلك إغراءً لكل الأقوياء الذين انتصروا في العالم حتى الآن، ونظروا دائماً لمثل هذه «التوقّعات» بالاحتقار والسخرية دون أن يفهموا ضرورة الثقّة بالأخوّة الممكنة بين الناس، وبالمصالحة العامة للشعوب في اتحادٍ مبني على أسس خدمة الإنسانيّة، وأخيراً في إعادة الناس إلى الأسس الحقيقيّة لتعاليم المسيح.

وإذا اعتبروا الاعتقاد «بالكلمة الجديدة»: أن تكون روسيا على رأس وحدة أرثوذكس العالم «طوباويّاً»، فإن ذلك يستدعي السخرية فعلاً، ودعهم إذاً يضمونني إلى هؤلاء الطوباويين.

وقد يعترض آخرون ويقولون إن هناك طوباويّةً أخرى وأشياءَ لا يمكن أن تحدث إلا في الحلم، ومنها أن يسمح الآخرون لروسيا أن تصبح على رأس السلافيين يوماً ما وتدخل القسطنطينيّة.

صحيح ربّما هذه أحلام... لكن روسيا قويّة، ويمكن أن تكون أقوى بكثير مما تتصوّر هي نفسها، ألم تُشيّد قوى عاتية أخرى أمام أعيننا وعلى مدى عشرة الأعوام الأخيرة وانتشرت في أوربّا ثمّ اختفت مثل الغبار وكنّستها القدرة الإلهيّة وشيّدت مكانها إمبراطوريّة جديدة قويّة إلى درجة لم يكن لها مثيل على الأرض؟ وهل كان باستطاعة أحد أن يتنبأ بذلك مقدّماً؟

فإذا كان لمثل هذه التحولات أن تحدث في زمننا وأمام أعيننا فهل بإمكان العقل الإنساني أن يتنبأ بشكل صحيح بمصير المسألة الشرقيّة؟ في الوقت الذي تبرز فيه أسس واقعية تدعو لليأس بيوم القيامة وبوحدة السلافيين؟ هل كان هناك من يعلم ما يريد الله فعله؟

تمّوز و آب

POST SCRIPTUM[أ]

«الشعب الروسي لا يطاقُ أحياناً» - سمعتُ هذهَ المقولة في هذا الصيف أيضاً، وللسبب نفسه. وقد حدث لقائل هذه الجملة الكثير وغير المتوقّع هذا الصيف، وربّما كان ما حصلَ لَهُ لا يطاق فعلاً، لكن ما الجديد الذي حدث ولم يكن من قبلُ موجوداً في قلب الشعب الروسي؟

لقد ظهرت أولاً فكرةٌ شعبيّة أثّرت على الإحساس الشعبي - الإحساس بالحب النزيه لإخوتنا البائسين والمستعبدين، وعلى فكرة «الشأن الأرثوذوكسي».

وقد عَبّر هذا الأمرُ عن شيءٍ ما «غير متوقع». وهو غير متوقع «ليسَ بالنسبة للجميع»، فالشعب الروسي لم ينسَ فكرته العظيمة «شأنه الأرثوذكسي»، لم ينسَ ذلك على الرغم من كل ما مر به خلال قرنين من العبوديّة والجهل القاتم، والماديّة الجشعة والمنحلّة، والتسلّط والبلطجة.

وثانياً - لم يكن متوقّعاً الانضمام المفاجئ لكل الآراء المتباينة للطبقة المثقفة الروسيّة إلى «الشأن الأرثوذكسي» و «الفكرة الشعبيّة» - تلك الطبقة التي اعتبرناها منسلخةً تماماً عن الشعب.

لاحظوا الوحدة والحيوية غير العاديّة اللتين تجلّتا في صُحفنا كلّها تقريباً...

أ- هي ملاحظة تكتب عادةً في نهاية الرسالة /المترجم/

عجوز مؤمنة وفقيرة تتبرع بكوبيك[أ] للسلافيان وتقول: «هذا للشأن الأرثوذكسي» فيتلقفُ صحفيٌ هذهِ الجملة وينشرها في الجريدة بكل تبجيل، ورأيتم كيفَ يقفُ هذا الصحفي بكل مشاعره مع «المشروع الأرثوذكسي»، وشعرتم بذلك حين قرأتم مقالتَهُ تلك. ولعلّ الذين لا يؤمنونَ بشيءٍ قد فهموا أخيراً ماذا تعني فعلياً الأرثوذكسيّة والمشروع الأرثوذكسي بالنسبة للشعب الروسي؟!

لقد فهموا أن المسألة ليست طقوساً كنسيّة فقط، وليست Fanatisme religieux[ب] «كما بدؤوا يصورون ذلك في الحركة الروسيّة العامة الحالية في أوربّا» لكنّها تطورٌ إنساني وجوهر الإنسانية، هكذا يفهمها الشعب الروسي، تنبعُ من المسيح وتجسّدُ كل مستقبلها في المسيح وفي الحقيقة المسيحيّة ليست قادرةً على تقديم نفسها دون المسيح.

لقد أصبحَ الليبراليون والرافضون والمشككون - شأنهم شأن المروجين للأفكار الاجتماعية - أبطالاً روساً متحمسين. لا بأس لقد بدوا كذلك، لكن هل نستطيع أن نثبت صدقهم، دون أن نتبادل الاتهامات المريرة، التي تبين أن معظمها كان باطلاً؟!

نعم، لقد تبيّن فجأةً أن الغيورين من الروس أكثر بكثير مما اعتقدناه. فما الذي جمع هؤلاء الناس إلى بعضهم؟ أو على الأصح ما الذي بيّن لهم أنهم لم يتفرقوا من قبل في الأمور الأساسيّة والجوهريّة؟ هذا هو لبُّ الموضوع: إن الفكرة السلافيّة في معناها الأساسي لم تعدْ سلافيّة فقط، لكنها انتقلت فجأةً إلى قلب المجتمع الروسي نتيجة لمجموعة من الظروف وعبّرت بوضوح عن نفسها في الوعي العام، وتطابقت بالإحساس

أ- قطعة نقدية صغيرة جداً.

ب- فانتازيا دينيّة - بالفرنسية في الأصل /المترجم/

الحي مع الحركة الشعبيّة. لكن ما هي هذه «الفكرة السلافيّة» في معناها الأسمى؟

لقد أصبحَ واضحاً للجميع بأنها - وقبل كل شيء، وقبل كل تفسير تاريخي وسياسي - تضحيّة! وحاجة للتضحية بالنفس لأجل الأخوّة، وإحساسٌ بالواجب الطوعي عند القبيلة الأقوى من السلافيين في ضرورة الوقوف على جانب القبيلة الأضعف بغية أن تتساويا في الحريّة والاستقلال السياسي، على طريق تحقيق وحدةٍ سلافيّة عظيمة تناضل من أجل حقيقة المسيح، أي لصالح حب وخدمة كل الإنسانيّة والدفاع عن كل الضعفاء والمضطهدين في العالم، وهي ليست نظرية أبداً، بل بالعكس إنها الاستعداد الواعي الأخوي داخل الحركة الروسيّة الحاليّة للتضحيّة بأهم مصالحها وحتى بالسلام مع أوربّا. وهذا ما أصبح حقيقة واضحة.

هل يعقل أن تنتقل وحدة السلافيين في المستقبل لتحقيق أي هدف آخر غير الدفاع عن الضعفاء وخدمة الإنسانية؟ هذا ما يجب ألا يكون لأن القبائل السلافيّة قد تكوّنت وعاشت بالمعاناة.

لقد ذكرتُ أعلاه أننا نشعرُ بالدهشة لأن الشعب الروسي لم ينسَ في عبوديّةِ نظام الرقِ وجهله واضطهاده له «مشروعه الأرثوذكسي» العظيم، والتزاماتهِ الأرثوذكسية العظيمة، ولم يتوحّش، ولم يصبح أنانياً بتاتاً، يهتم بمصالحه الخاصة.

إن هذهِ على الأرجح هي خاصيته كسلافي، حيث تنهضُ روحُهُ في المعاناة ويتقّوى سياسياً في الاضطهاد، ووسط العبوديّة والاحتقار، ويتوحّد في الحب وحقيقة الإنسان.

يا أخانا في المسيح، أيها الخائر المنهك
لقد أخذ الله يباركُ
هذه الأرض الأم المستعبَدة.

هذا لأن الشعب الروسي نفسه كان مضطهداً لقرون عديدة، وعانى بسبب إيمانه بالمسيح، وبسبب حفاظه على «مشروعِهِ الأرثوذكسي» وأخوتِهِ الذين عانوا، فنهضَ بقلبِهِ وروحِهِ مستعداً لمساعدة كل المستضعفين.

هذا ما فهمته طبقتنا المثقفة العليا، وانضمت بكل جوارحها إلى أمنية الشعب وبذلك أحسّت بوحدتها معه.

إن هذهِ الحركة التي شملت الجميع كانت إنسانيّة وسخيّة. فكل فكرةٍ سامية موحِّدة، وكل إحساس حقيقي يوحّد الجميع هما سعادة عظيمة في حياة الأمّة. إن هذه السعادة قد زارتنا. ولم نستطع إلا أن نشعر بالتوافق الكامل الذي أخذ يتضاعف.

إن تفسيرنا للكثير من حيرتنا الماضية قد قوى وعينا الذاتي. ثمّ اكتشفت الفكرة السياسيّة التي فهمها الشعب والمجتمع بوضوح. وانتبهت أوربّا الحساسة فوراً لذلك وأخذت تتابع باهتمام بالغ الحركة الروسيّة.

وكان من غير المتوقّع أبداً بالنسبة لأوربّا نهوض الفكرة السياسيّة الواعية في شعبنا. فراحت تحسب الحساب لشيءٍ جديدٍ يظهر عندنا.

يجب أن ندحض بشدّة الأقاويل والإشاعات عن الانحلال السياسي والاجتماعي في المجتمع الروسي، تلك التي انتشرت في أوربّا. حيث تبيّن أن الروس يتحدّون عندما تبرزُ الحاجة لذلك. نعم ويجب على الكثير من وجهات النظر لدينا أن تتغيّر من الآن فصاعد.

إن هذا التوافق العام في الحركة الروسيّة يدل على درجة كبيرة من النضوج القومي الذي لا يمكن إلا أن يفرض احترامه. [...].

تشرين الأوّل

الحكـم

على فكرة... إليكم إحدى المحاكمات العقليّة لأحد المنتحرين بسبب الضجر، وهو رجلٌ ماديٌّ بالطبع:

«في الواقع: بأي حقٍ جلبتني الطبيعةُ على هذه الدنيا؟ ونتيجةً لأي من قوانينها الأبديّة؟ لقد ولدتُ ممتلكاً الوعي، ووعيتُ الطبيعة: فبأي حقٍ جلبتني دون إرادتي واعياً وقادراً على إدراك العالم؟ وأن تأتي واعياً يعني أن تتألّم وتعاني، وأنا لا أريدُ أن أعاني، ولأجل أي شيءٍ سأوافق على تحمل المعاناة؟ لقد نَصّبتني الطبيعةُ - ولأنني أمتلك الوعي - على رأس هارمونيا شاملة. وقد جعل الوعي الإنساني من هذا التنصيب ديانةً. وقالت الطبيعة لي إنني - على الرغم من معرفتي التامة لهذه «الهارمونيا الكاملة»، لن أشارك في صنعها أبداً، وعليّ أن اخضع لهذا التنصيب على رأسها، ويجب أن أُسَلّم بذلك، وأتقبّل المعاناة داخل هذه الهارمونيا الشاملة وأرضى أن أعيش. ولكن إذا كان لي أن أختار بوعي، فإنني سأتمنى أن أكون سعيداً مادمتُ حيّاً ولا شأنَ لي بذلك الاتساق الشامل بعد أن أندثر! ثمّ هل سيبقى هذا الاتساقُ، هذا التناغُمُ من بعدي أم أنه سيزول بزوالي؟ ولماذا عليّ أن أهتم ببقائهِ والحفاظ عليه من بعدي؟ أليسَ من الأفضل - والحال هذه - لو أنني خلقتُ مثل كل البهائم دون وعي، دون قدرة على إدراك الذات.؟ إن وعيي بالذات ليسَ هارمونيا، لا يساعدُ على الاتساق، على العكس تماماً إنّه

لا هرمونيا، لأنني لستُ سعيداً به. انظروا من هو السعيد في هذهِ الدُنيا، ومَنْ من الناس يوافقُ على العيش؟ إنهم بالذات أولئك الذين يشبهون الحيوانات، ويقتربون منهم بسويةِ وعيهم ومعرفتهم الضحلة جداً، إنهم يوافقون على العيش بكل أريحيّة، لكن بشرط أن يعيشوا كالحيوانات، أي أن يأكلوا ويشربوا، ويناموا، وهذا يعني على الطريقة الإنسانيّة: أن يسرقوا ويغنوا، أن تبني عُشاً يعني أن تسرق، قد يعارضونني ويقولون: يمكن أن تتأقلم، وتبني عشاً على أسس معقولة، على أسس اجتماعية وعلمية صحيحة وليس بطريق السرقة، ليكن! لكنني سأسأل من أجل ماذا؟ من أجل ماذا تتأقلم، وتستهلك كل ذلك القدر من المحاولات والعناء في مجتمع الناس؟ لا يستطيع أحد أن يقدم جواباً. كل ما باستطاعتهم أن يقولوه: «كي نتمتّع». نعم، هذا لو كنت مجرد نبتة أو بقرة عندها سيكون بإمكانك أن تتمتّع!

وبطرح كل تلك الأسئلة على نفسي باستمرار، لن أستطيع الحصول على السعادة، حتى في ظل الأفراح المباشرة والسامية ومحبّة المقربين والإنسانيّة لي. لأنني أعلم أن كل ذلك سوف يندثرُ غداً، وأنا وكل ذلك الفرح، وكل الحب وكل الإنسانيّة سنتحول إلى لا شيء! إلى العدم والفوضى السابقين، ولهذا فإنني لا أريدُ قبول أي سعادة، ليس لمجرّد رغبتي في رفضها، وليس تعنُتاً أو انطلاقاً من مبدأ ما، ولكن لأنني ببساطة شديدة لا أريد أن أكون سعيداً وأنا أعرف أننا سنعودُ جميعاً إلى العدم. هذا إحساس! إحساسٌ مباشر، ولا قدرة لي على مصارعتهِ. ولنفترض أنني مُتُ وبقيت الإنسانيّة من بعدي إلى الأبد، إن مثل هذا الافتراض يمكن أن يواسيني، لكن هذا الكون ليسَ أبديّاً والإنسانيّة على الأرض ليست خالدة، إن لها عمراً مثلنا نحن الأفراد - لحظة وتزول، ومهما تأقلمت الإنسانيّة على الأرض بعقلانيّة وسعادة وقدسيّة فإنها مع كل هذه المفاهيم

زائلة لا محالة. ولنفرض أن كل ذلك إنما هو ضرورة بحكم قانونٍ كونيٍ أزليٍ للطبيعية، ولكن صدقوني أن في هذا تحديداً إنما يتلخصُ عدم احترامٍ شديدٍ للإنسانيّة، وإهانة شديدة لها ولي شخصيّاً لا يمكن تحملها، لأنك لن تجد خلف كل ذلك أحداً تلقي عليه اللوم أو الذنب.

وأخيراً لو افترضنا صحة الحكاية القائلة بإمكانية بناء حياة الإنسان على الأرض على أسس عقلانيّة وعلمية، ووثقنا بسعادة الناس المقبلة، فإن مجرد التفكير بأن الطبيعة، ووفق قوانين ما جامدة، كانت مضطرة لتعذيب الناس آلاف السنوات كي تصل بهم في النهاية إلى تلك السعادة يثير الغضب والاستياء! وأضيفوا إلى ذلك: أن هذه الطبيعة نفسها التي أوصلت الإنسان في النهاية إلى السعادة، ولسبب ما تجدُ من الضروري أن يعيد كل ذلك إلى الصفر، بغض النظر عن كل الألم الذي دفعته البشرية ثمناً لتلك السعادة، إن المهم بالنسبة لي أن الطبيعة لم تخف ذلك عني وعن وعيي مثلما أخفته عن البقرة، وهنا يطرحُ فكرةٌ حزينةُ مسليةٌ وغير محتملة نفسها:

«ماذا لو كان الإنسان الذي أرسل إلى الأرض، إنما هو تجربة وقحة الغاية منها معرفة إذا ما كان يستطيع أن يعيش عليها أم لا؟» إن مصدر الحزن في هذه الفكرة يتجلى في عدم وجود مذنب هنا، عدم وجود من يستحق الشتم، فقد حدث ذلك ببساطة حسب القوانين الجامدة للطبيعية. إن ذلك غير مفهوم إطلاقاً بالنسبة لي، ولا يمكن لوعيي أن يوافق على ذلك Ergo[1]: لأنني أتلقى جواباً على سؤالي حول السعادة من الطبيعة فقط وعن طريق وعيي، بأن باستطاعتي أن أكون سعيداً في تلك الهارمونيا الشاملة، التي لا أفهمها، والتي ليسَ في استطاعتي فهمها أبداً.

١- بالتالي - في اللاتينية أصلاً.

ولأن الطبيعة ليس فقط ترفض الاعتراف بحقي في طرح الأسئلة عليها، بل ترفض أن تجيب عن تلك الأسئلة، ليس لأنها لا تريد ذلك، بل لأنها لا تستطيع الإجابة عنها إطلاقاً.

وهكذا في نهاية المطاف ووفق هذا التسلسل سآخذُ على عاتقي دور السائل والمجيب، دور القاضي والمذنب، وسأجدُ هذه الكوميديا - من جهة الطبيعة - شيئاً مخجلاً وغبيّاً، وسيكون نقلها من قبلي شخصياً أمراً باعثاً على الخزي والضعة.

ولهذا من موقعي غير المشكوك فيه كسائلٍ ومجيب، كقاضٍ ومذنب، أصدرُ حكمي على هذه الطبيعة التي بلا رحمة وبوقاحة قذفت بي إلى المعاناة - إلى الدمار...

ولأنني لا أستطيعُ أن أهلكَ الطبيعة، فسأهلك نفسي وحدها قاضياً على الظلم الذي ليسَ لأحدٍ يدٌ به.»

N. N

كانون الأول

تأكيد بلا إثبات

إن مقالتي «الحكم» تعالج الأفكار الأساسيّة والسامية للوجود الإنساني - ضرورة القناعة التي لا محيد عنها في خلود الروح الإنسانيّة. السبب الحقيقي لاعتراف المنتحر «وفقَ منطق فعل الانتحار»، هو ضرورة النتيجة الملحّة التالية: إن وجود الإنسان دون إيمان بروحِهِ وبخلودها أمرٌ غير طبيعي، غير محتمل غير معقول!

لقد تراءى لي أنني عثرتُ على صيغة منطقية لعملية الانتحار، إن هذا المنتحر لم يكن يؤمنُ بالخلود وقد شرح ذلك في بدايةٍ حديثة. كان شيئاً فشيئاً يزدادُ قناعةً بعدميّةِ ولا قصديّة هذا الركود والخمول المحيط به والمكروه، حتى يصلَ إلى وجهةِ نظرٍ ثابتةٍ حول السخافةِ المطلقة لوجود الإنسان على الأرض.

وهكذا يصبحُ واضحاً كالشمس أن الذين «يوافقون» على العيش هم فقط أولئك الناس الذين يشبهون الحيوانات الوضيعة، ويقتربون أكثر - حسب نوعهم - من النموذج الأقل تطوّراً في وعيهم وفي قوّة تطور احتياجاتهم الجسديّة فقط. هم يوافقون على العيش كالحيوانات، أي «يأكلون ويشربون وينامون ويبنونَ أعشاشَهُم وينجبونَ الأطفال». آه إنَ الأكلَ بشراهةٍ، والنوم والتنجيم والجلوس على الأثاث الوثير أشياء ستبقى لفترة طويلة تجذب الإنسان إلى الأرض، لكن باستثناء نماذجهِ العليا: التي سرت

في الأرض دائماً وقادت الملايين خلفها عندما حان الوقت. ما هي الكلمة السامية والفكرة السامية؟

إن الذين لفظوا هذه العبارة، وهذه الفكرة «والتي من دونها لا يمكن للإنسانيّة أن تعيش» لأوّل مَرّة، هم الناس الفقراء، غير المعروفين، الذين ليس لهم أي أهمية، ونجدهم غالباً ملاحقين، وقد يموتون خلال ذلك، فيلف موتهم الغموض. لكن تلك الفكرة التي قالوها لا تموت ولا تختفي بلا أثر، بل لا يمكن أن تختفي مادامت قد ذكرت مَرّةً واحدة - وهذا أمرٌ يثيرٌ الاستغراب في الإنسانيّة. إن تلك الفكرة بنقلها إلى الجيل القادم ستشمل وتجذب الجميع - لن ينتصر ملايين الناس والقوى الماديّة الراسخة والمخيفة والنقود والسيف والجبروت، بل ستنتصر فكرة غير ملحوظة - في البداية - وصادرة عن أبسط الناس.

لقد كتب السيّد «إينبي[1]»، إن ظهور مثل هذه الاعترافات عندي في «المذكرات» يخدم «من؟ ولماذا؟»: «الفوضوي المضحك التافه»... لأن القرن الحالي «هو قرن المفاهيم الصلبة، عصر وجهات النظر الإيجابيّة، وحامل شعار: علينا أن نحيا مهما كلّف الأمر!...»، «إذا لهذا السبب انتشرت في وقتنا الحالي حوادث الانتحار وسط الطبقة المثقفة».

إنني أؤكد للسيد إينبي المحترم ولأمثاله أن هذه «المفاهيم الصلبة» تتحوّل عندما يحين الوقت إلى ريش يتطاير أمام فكرةٍ أخرى قد تبدو تافهة لسادة «المفاهيم الصلبة».

إن أحد أكثر المخاوف المرعبة على مستقبلنا - من وجهة نظري الشخصيّة - تتمثّلُ في الفئة المثقّفةِ الروسيّة حين يتأصلُ في أعماق أفرادها وبشدّة عدمُ الثقة في أرواحهم وقدراتهم، وخلود أرواحهم. عدم الثقة في القناعات «وقناعاتنا هذه الأيام قليلة جداً، بصورة لم يسبق لها مثيل»، والخطيرُ أيضاً هو حالةُ اللا مبالاة الغريبة التي نراها في كل مكان،

اللا مبالاة إزاء فكرتنا السامية في الوجود الإنساني، وهي لا مبالاة ساخرة أحياناً، يعلمُ اللّه وحدهَ من أين أتتنا ووفقاً لأي قوانين!.. إنها لا مبالاة تتجاوز هذه الفكرة إلى كل شيء حيوي ويؤكد على حقيقة الحياة، لا مبالاة بكل ما من شأنه أن يغذّي الحياة ويمنحها الصحّة ويقضي على الانحلال والتعفّن.

إن اللا مبالاة هذهِ خاصيّة روسيّة في وقتنا الحالي بالمقارنة مع الأمم الأوربيّة الأخرى.

وقد دخلت الأسرةَ الروسيّة المثقّفة وهدّمتها منذ زمن. لا يمكن للإنسان أو الأمة أن يعيشا دون فكرةٍ سامية. والفكرة السامية على الأرض واحدة، وهي فكرةُ خلودِ الروح الإنسانيةّ، حيث تتبعُ منها فقط كل الأفكار «السامية» الأخرى، التي يحيا عليها الإنسان. يمكن أن يجادلني بعضهم في ذلك «أي حول وحدة مصدر كل ما هو سامٍ على الأرض» لكنني لن أدخلَ في الجدال الآن، وسأضع فكرتي دونَ إثبات، لأن من الصعوبة شرحها دفعةً واحدة، ومن الأفضل أن يتم ذلك تدريجيّاً وسيكون أمامنا متسع من الوقت.

إن المنتحر المذكور هو معبّرٌ متحمّسٌ عن فكرته، أقصد ضرورة الانتحار، والرجلُ ليس غيرَ مبالٍ، وليس صُلباً في الآن نفسه، لقد عانى فعلياً وتعذب، أتصوّر أنني عبّرتُ بوضوحٍ عن ذلك. إن العيشَ مستحيلٌ بالنسبة لهُ وهو يعتقدُ أنهُ محقٌ وبالتالي يستحيل إقناعه في العدول عن رأيه. لقد واجه بشكل لا يقاوم أكثر الأسئلة سمواً: «من أجلِ ماذا أحيا؟ - كان ذلك عندما وعى أن العيش كالحيوانات مقرفٌ وغير كافٍ للإنسان - ما هو الشيء الذي يشدّه إلى الأرض؟».

هو يعرف أنه لا يستطيع أن يجد الجواب عن أسئلتِهِ تلك، على الرغم من إدراكِهِ - حسب تعبيره - لوجود الهارمونيا الشاملة، لكن كما يقول: «إنني

لا أفهمُها ولستُ قادراً على فهمها أبداً، وسوف لا أشاركَ فيها. هذا ضروريٌّ ومفروغ منه». إن الوضوحَ هذا أنهى حياتَهُ. أين تكمُنُ المأساة؟ وأين يكمُنُ خطؤه؟

إن المأساة تتجلّى في فقدانِهِ الإيمانِ بالخلود.

لكنَّهُ يفتّشُ بحماس «أي أنَّهُ فتّشَ عندما كان حيّاً وعانى أثناء تفتيشه» عن المصالحة، وقد أرادَ أن يجدها «في حبّه للإنسانيّة» - إنه يقول: «ليس بهذا الشكل يمكن أن تكون الإنسانيّة سعيدة، وتبلغ الهارمونيا يوماً ما. كان يمكنُ لهذِهِ الفكرة أن تبقيني على الأرض». هذه طبعاً فكرة سمحة، سمحة ومُعَذّبة، لكنها قناعةٌ دافعة في أنّ الحياة الإنسانيّة هي لحظة عابرة مثلَ حياته، وغداً وعند بلوغ «الهارمونيا» «إذا اقتنعنا بأن هذا الحلم يمكن تحقيقه» ستتحول تلك الحياة إلى حالة «الصفر»، مثلَهُ، بقوّة قوانين الطبيعة الجامدة، وهذا بعد كل المعاناة التي تحمَّلها لبلوغ هذا الحُلم - هذهِ الفكرة تقلقُ روحَهُ بشدّة، وبسبب حبّهِ للإنسانيّة نجد هذه الفكرة تقلقهُ وتهينَهُ عن الإنسانية كلها - وحسب قانون انعكاس الأفكار - تقتلُ فيه حتى حُبَّهُ للإنسانيّة. وهذا يشبهُ تماماً ما شاهدناهُ أكثرَ من مَرّة في الأسر التي تموتُ من الجوع، فالأب والأم عندما تصلُ مُعاناة أطفالهما إلى درجة لا يمكن تحملّها، يبدآن بكرهِ أطفالهما الأحبّاء بسب مُعاناتهم التي لا تطاق. والأكثر من ذلك فإنني أؤكد أن الاقتناع بالعجز الكامل عن تقديم أي مساعدة تذكر للتخفيف عن الإنسانيّة المعذّبة يمكن أن يتحوّل إلى كرهٍ لهذه الإنسانيّة.

إن السادة حملة الأفكار الصلبة لا يثقون بذلك طبعاً، ولا يفهمونَهُ أبداً فبالنسبة لهم حب الإنسانيّة وسعادتها أمران رخيصان جداً، فقد قدّم هذان الأمران ورتبّا بعناية منذ زمن بعيد بحيث ما عادا يستحقان التفكير بهما.

لكنني أنوي «أن أضحككم» بشدّة: «إنني أعلن «من دون براهين حتى الآن» بأن حب الإنسانيّة غير مُجدٍ أو مفهوم أبداً، وغير ممكن على الإطلاق دون الإيمان بخلود الروح الإنسانيّة».

إن أولئك الذين انتزعوا من الإنسان إيمانَهُ في الخلود يريدون أن يُبدّلوا هذا الإيمان بالحب للإنسانيّة. إن هؤلاء يناقضون أنفسهم لأنهم عوضاً عن حب الإنسانيّة لا يغرسونَ في قلب من فقد الإيمان إلا الحقد على الإنسانيّة.

دع حكماء الأفكار الصلبة يسخرون من إثباتي لقناعتي هذه، لكن هذه القناعة أكثر حكمةً من حكمتهم، وأنا واثق - دون شك - أنها ستصبحُ بدهيّةً في الإنسانيّة يوماً ما، على الرغم من أنني أقدمها حتى الآن دونَ براهين.

إنني أتجرأ أن أؤكد بأن الحب للإنسانيّة موجود كفكرةٍ بشكلٍ عام، وهي إحدى أكثر الأفكار صعبة المنال بالنسبة للعقل الإنساني، لأن إثباتها ممكن فقط عن طريق الإحساس، والإحساسُ ممكن فحسب عند إيمانك بخلود الروح الإنسانيّ.

«دون براهين أيضاً».

النتيجة واضحة: الانتحار في ظل فقدان القناعة بالخلود يصبحُ أمراً حتمياً تماماً وحتى ضرورة لكل إنسان يرقى بتطوّرِهِ قليلاً عن الحيوانات. وعلى العكس من ذلك، فالخلود والوعد بالحياة الأبديّة يربط الإنسان بشكلٍ أقوى بالأرض، وهنا يبدو وكأننا وقعنا في التناقض: إذا كانت الحياة ممتلئة بالخلود عدا عن المباهج الأرضيّة، فلماذا نتمسّك بالحياة الأرضيّة. ويتبيّن لنا العكس: فإيمان الإنسان بخلوده هو الذي يمكنه من التوصل إلى هدفِهِ المعقول على الأرض، لأن الإنسان دون قناعتِهِ بخلوده تتمزّق ارتباطاتُهُ بالأرض وتصبح رثّة وأكثر تعفناً.

أما فقدان فكرته السامية في الحياة «على الرغم من أنه يشعر به على شكل كآبة غير واعية» يقودهُ بلا شك إلى الانتحار. ومن هنا تأتي خلفية النظرية الأخلاقيّة لمقالتي المنشورة في تشرين الأول: «إذا كانت القناعة بالخلود ضروريّة للحياة الإنسانيّة فهذا يعني أنّها حالة عادية للإنسانيّة، وإذا كانت كذلك فإن خلود الروح الإنسانيّة موجود لا محالة».

وباختصار فإن الفكرة عن الخلود هي الحياة نفسها، الحياة الحيويّة ومعادلتها النهائيّة والمصدر الأساسي للحقيقة وللوعي الصحيح بالإنسانية.

إن هذا هو هدف المقالة، وأنا أعتقد أن كل من سيقرؤها سيتعرّف إلى نفسه بشكل غير مباشر.

شيء ما عن الشباب

يقولون لي إن هناكَ عدداً من الناس، ممن لم ينشغلوا بمسائل سامية، ينتحرون في ظروف غامضة، ودونَ أي سبب واضح. بالفعل، نحن نرى الكثير من «أمّا الوفرة فهي كذلك مسألة غامضة» حالات الانتحار الغريبة والغامضة، وقد ارتكبت ليسَ بسبب الحاجة ولا الأذى ودونَ أي سببٍ واضح، وليس نتيجةً للحاجة الماديّة أو الحب المهان أو الغيرة أو المرض، وليس بسبب الوساوس والجنون، ولا يعلم إلا الله لأي سبب ترتكب. تشكلُ هذهِ الحوادث في قرننا الحال إغواءً كبيراً، كونه من غير الممكن أن ننكر عنها صفة الوباء، وهي تتحوّل بالنسبة للكثيرين إلى أمرٍ مقلقٍ جداً.

طبعا لن آخذ على عاتقي تفسير حالات الانتحار هذه، ولن أستطيع ذلك[أ]، إلا أنني مقتنع - دون شك - أن الأغلبيّة ينتحرون بسبب مرض روحي واحد، وهو غياب الفكرة السامية للوجود في أرواحهم. وفي هذا المعنى أقول إن لا مبالاتنا - وهي المرض الروسي المعاصر - افترست كل الأرواح.

حقيقةً إن الأمر عندنا اليوم مختلف، فالإنسان يصلي ويذهب إلى الكنيسة ولكنهُ لا يؤمن بخلودِ روحِهِ. والمسألة ليست في أنه «لا يؤمن»، بل بكل بساطة في أنه لم يفكر بذلك أبداً. مع أنه ليسَ من النوع الرديء أو البهيمي أو المتحجرّ.

أ- إنني أستلم الكثير من الرسائل التي تطرح حالات الانتحار، ويسألني أصحابها: ما رأيي؟ وكيف يمكن شرحها؟

بينما تخرجُ من هذا الإيمان وحده - كما ذكرتُ أعلاه - الفكرة السامية كلها ومعنى الحياة، وينبثق منهُ معنى الحياة. آه. أكرر بأن هناك الكثير ممن يحبون الحياة دون أي أفكار أو معانٍ إنسانيّة. بكل بساطة هي حياة حيوانيّة.

ويوجدُ الكثيرون جداً، من ذوي الطبع الفاسد - دون أن يشعروا بذلك - يحنونَ منذُ زمن للأهداف السامية ومعاني الحياة النبيلة، وهؤلاء لا يهدئ من روعهم حبُ الطعام والفطائر المحشوّة، والجيادُ الجميلة، والانحلال الخلقي، والمراتب والسلطة، وانحناء المرؤوسين أمامهم، ووقوف الحراسِ أمام منازلهم.

يطلق الرصاص على نفسه ليس بسبب أي شيء سوى الحنين - حتى ولو كان بلا وعي - للمعنى السامي للحياة، الذي لم يجدْهُ في أي مكان. إضافة إلى ذلك فإن عدداً منهم يطلق الرصاص على نفسه أحياناً مفتعلاً مُقدَماً أيّ شغبٍ فظيع ما.

آه... وأنت تتأمل الكثيرين منهم من الصعب أن تصدّق أنهم انتحروا بسبب «التوق إلى الأهداف السامية للحياة»: «نعم إنهم لم يفكّروا أبداً بأي أهداف، ولم يتكلموا عن شيء من ذلك، لكنهم ارتكبوا «شناعة» - هذا هو الرأي العام! ولنفترض أنهم لم يهتمّوا بشيء وارتكبوا شناعة: لكنّه التوق السامي! - هل تعرفون جيداً بأي طرقٍ صعبة في حياة المجتمع تنتقل أحياناً الروح الأخرى وتُعدي غيرها؟

إن الأفكار تطير في الهواء لكن حسب قوانين محدّدة: تعيش وتنتشر وفق هذه القوانين ومن الصعب جداً علينا الإمساك بها، إنها أفكار معدية، وهل تعلمون أيضاً أنّه في الحياة نجد التوق الآخر والفكرة الأخرى أمران مفهومان للعقول المتطورة وذات التعليم العالي، ويمكن أن ينتقلا فجأة إلى الكائن الأقل وعياً الذي لم يهتم بأي شيء أبداً. ثم فجأةً تنتقلُ هذهِ الأفكار بالعدوى إلى روحه؟!

وسيلفتُ بعضهم نظري أنه حتى الأطفال - الذين لم يجرّبوا الحياة بعد - ينتحرون، إلا أن لديّ قناعة خفيّة مفادها أن شبيبتنا تعاني كذلك بسبب عدم وجودِ أفكار سامية للحياة لديها، وفي أسرنا لا يذكرون تقريباً بالأهداف السامية لفائدة الشبيبة، بل لعلهم يتعاملون معها بطريقة هزلية أمامَ الأطفال منذ نعومة أظفارهم. «نعم لا توجد عندنا أسر» - هذا ما قاله أحد كتابنا العبقريين معارضاً[1]. ماذا يمكن أن أقول في ذلك؟ إن هذا نسبيّاً صحيح، طبعاً يمكن أن تكون أسرنا قد اهتزت في الطبقات العالية من الأمّة، في ظل اللا مبالاة العامة بالأهداف السامية للحياة.

من الواضح بأن جيلنا الفتي محكومٌ عليه أن يبحث بنفسه عن المثل العليا والأهداف السامية للحياة. لكن ذلك تفرقة للجيل نفسه، وتركٌ له لقواه الذاتية وهذا مخيف جداً. إن هذه المسألة على درجة كبيرة من الأهميّة في هذه الفترة من حياتنا. إن شبيبتنا مهملة لدرجة أنها لا تلقى أي توجيه يتعلقُ بالأفكار السامية في الحياة. وهي قادرة على الاقتباس من الناس العقلاء، ومن قادتنا في الوقت الحاضر. إنني أكرر أن ما أقوله على الأغلب - وجهة نظر هجائيّة، لكن ليس هناك ما هو إيجابي - أي بماذا تؤمن هذه الشبيبة؟ ماذا تحترم؟ من تقدّس؟ وإلى ماذا تطمح؟ - وهذا ما هي بحاجة ماسّة إليه. لقد تعطّشت دائماً إلى ذلك على مَرّ العصور وفي كل مكان. إن علينا أن نقدم لها شيئاً من التوجيهات الصحيحة في الأسرة والمدرسة «طبعاً مع بعض الاستثناءات». لقد أصبحنا غير مبالين بهذا الأمر، بسبب أهداف ووظائف عصرية مهمة، وعملية أخرى.

إن شباب السادس من كانون الأوّل في ساحة كازان[2]، كانوا - دون شك - «قطعياً مضروبين» بأيدي عددٍ من النصابين المحتالين، حسب «الحقائق» التي أوردتها «النشرات الموسكوفيّة»: ماذا سينتج عن ذلك؟ وماذا سيحدث؟ - إنني لا أعرفُ شيئاً! إن ذلك - دون شك - طيشاً وتقليداً أعمى،

غير أخلاقي لصوت غريب، لكن لعلهم جمعوهم وأكدوا لهم أن تحركهم باسم أي شيءٍ سامٍ وممتاز، باسم تضحيةٍ عجيبةٍ ما، من أجل أهداف كبيرة جداً!

وليكن ذلك هو «البحث عن المثل الأعلى» عند عدد قليل جداً منهم هذا العدد الذي يسيطر عليهم ويقودهم خلفه - وهذا واضح.

من هو المذنب في أن مثلهم الأعلى مشوّه إلى هذهِ الدرجة؟ طبعاً هم أنفسهم لكن ذلك لا ينفي الذنب عن الآخرين؟! آه... حتى الواقع المحيط بهم كان قادراً على إنقاذهم من البتر المشوّه عن كل ما هو واقعي. وهنا تكمن المشكلة: فالانفصال عن الأرضيّة والحقيقة الشعبيّة عند جيلنا الشاب يجب أن تدهش وترعب «آباءَهم» أنفسهم، وكانوا قد انفصلوا بدورهم عن كل ما هو روسي، وراحوا يعيشون بقيّة حياتهم في ظل هدوء سعيد للنقاد الروس.

هذا درس - درسٌ للأسرة والمدرسة وللنقاد الواثقين السعداء: هم أنفسهم لا يفهمون «عاقبة ما فعلوا» ويتبرؤون منها، لكن.. هل يمكننا أن نتهم آباءَهم قطعياً؟ أليس هؤلاء الآباء ثمرة قوانين سرطانيّة خاصة تهيمن على الفئة المثقفّة كلها في المجتمع الروسي منذ ما يقارب القرنين من الزمن، حتى الإصلاحات الكبيرة للنظام القيصري الحالي[٣]؟

لا. على ما يبدو أن القرنين من الانفصال عن الأرضيّة الشعبيّة و «كل شأن» وطني لم يذهبا هدراً. ليس كافياً أن تتهم؟! يجب أن تبحث عن العلاج.

وحسب رأيي فما زال العلاجُ ممكناً... إنّهُ في الشعب وفي مُقدّساتِه وفي التصاقنا به.

لكن.. لكن.. سنتكلم عن ذلك لاحقاً...

لقد قررتُ أنا و «المذكرات» أن نتكلم عن هذا العلاج بقدر ما تكفي قوانا لذلك.

إلى أين وصلنا

لقد مَرّ عام، بهذا العدد الثاني عشر ينتهي العام الأوّل على صدور «المذكرات»[1]. ووجدتُ الكثير من الإطراء والتعاطف من قبل قُرّائي، ولم يبق إلا واحد بالمئة مما كنت أودُ قوله، وأرى الآن أن الكثير مما قلته لم أتمكن من التعبير عنه بوضوح، حتى أن بعض ما قلته كان يفهم على غير ما أردت... إنني ألقي اللوم في ذلك على نفسي. وعلى الرغم من أنني لم أنجح سوى بإيصال القليل فأتمنى أن يكون قرائي قد استوعبوا توجّه «المذكرات» وطبيعتها للعام القادم.

إن الهدف الأساس «للمذكرات» هو توضيح الاستقلاليّة الروحيّة لقوميتنا وإظهارها في الأحداث الحالية الجارية، وفي هذا يتلخص معنى «المذكرات».

لقد تكلمت كثيراً على سبيل المثال - عن حركتنا الشعبيّة القوميّة غير المتوقعّة وعما يسمى «المشروع السلافي». ونقول إن «المذكرات» لا تطمح لأن تقدّم لاحقاً مقالات سياسيّة شهريّة، لكنها ستحاول دائماً البحث وإيضاح - ما أمكن - وجهة نظرنا الشعبيّة والقوميّة في الأحداث السياسيّة الحالية. ويمكن أن نكون قد أوضحنا للقارئ في مقالاتنا عن «الحركة السلافيّة» هو ما يخصّنا نحن الروس من أن نشاطنا لا يشمل السلافيّة وحدها، وأهميتها سياسياً. إن السلافيّة - أي وحدة كل السلافيين مع الشعب الروسي - والجانب السياسي للمسألة أي الأسئلة عن الحدود والأطراف والبحار والمضائق والقسطنطينيّة وغيرها.

وهي أسئلة مهمة جداً لروسيا ولمصيرها المستقبلي، لكنها مع ذلك لا تشكل جوهر المسألة الشرقيّة بالنسبة لنا، أي بمعنى حلها ضمن توجه الروح الشعبيّة لشعبنا الروسي. وهنا فإن هذه المسائل ذات الدرجة الأولى من الأهميّة تتراجع إلى المرتبة الثانية، أمام مصير المسيحيّة الشرقيّة أي الأرثوذكسيّة.

إن شعبنا لا يعرف الصرب ولا البلغار، لكنّه يساعدهم بالأموال والمتطوّعين ولا يعرف السلافيين مباشرةً لكنه سمع بأن المسيحيين الأرثوذكس - أخوتنا في الإيمان بالمسيح - يعانون من الأتراك ومن «الأغاريانيّين الكفّار»[٢] ولهذا السبب برزت الحركة الشعبيّة هذا العام. إن الفكرة التي يتبناها الشعب الروسي تتلّخص بالاهتمام الشديد بمصائر المسيحيّة الأرثوذكسيّة حالياً ومستقبلاً، تتلخصُ في خدمة المسيح وفي تقديم كل ما يمكن لأجله.

إن هذا التعطّش للمسيح حقيقي، ولم ينقطع عند شعبنا منذ أقدم العصور حتى الآن، وهذهِ حقيقةٌ مهمة للغاية في سلوك شعبنا وحكومتنا. إن الموسكوفيينَ جهزوا المساعدات الطبيّة وأرسلوها إلى صربيا، مع علمهم أن الصرب ليسوا ممن تشدّهم الطقوس الدينيّة القديمة، ولا يُعَدّونها رابطاً، وهم في ذلك مثل معظمنا، لا يهتمون بالشأن الديني. لكن هذا السلوك من قبل الموسكوفيين المؤمنين عَبر بشكلٍ خاص عن فكرة المصير المشترك النهائي للمسيحيّة الأرثوذكسيّة، على الرغم من تباعد فئاتها. عبّر عن الأمل في وحدة كل مسيحيي الشرق، وعن الرغبة في مساعدتهم ضد الأتراك، الذين يحاولون التضييق على المسيحية، وكأنهم بذلك قد اعتبروا الصرب مسيحيين حقيقيين مثلهم تماماً على الرغم من الاختلافات الكثيرة وربّما المرحليّة بينهم. إن التضحيّة بهذا المعنى تكتسب أهميّة تاريخيّة، وتقودنا إلى معانٍ سارة، وتثبتُ صحّةَ توجهنا، فهدف الشعب الروسي كلّه

ينحصر في الحرص على مصائر المسيحيّة على الرغم من أنها غارقة في خلافات شكلية تفرضها مذاهبها المختلفة.

لقد تأسس في الشعب الروسي مفهوم مفادُهُ أن روسيا كلها تعيش فقط من أجل خدمة المسيح، وحماية الأرثوذكسيّة الكونيّة من كل ما هو خاطئ، إن هذه الفكرة إن لم يقُلها كل روسي، فإنني أؤكد أن معظم الروس يرددونها عن وعي، وهؤلاء - دون شك - يؤثرون تأثيراً كبيراً على بقية الشعب وبالتالي نستطيع أن نعمم ونقول إن هذه الفكرة موجودة في أعماق كل الشعب و «عن وعي»، وهي ليست ذاتية صرف تتعلّق بمشاعره فحسب، وعليه فالمسألة الشرقيّة مفهومة من قبل الشعب الروسي وهذه حقيقة.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن وجهة نظرنا على المسألة الشرقية يجب أن تأخذ شكلاً أكثر تحديداً، إن روسيا قويّة بشعبها، وبروح هذا الشعب، وليس - على سبيل المثال - بثرواتِهِ وسويّة تعليمه فحسب، كما هو الأمرُ في عددٍ من الدول الأوربيّة، التي أصبحت هرمة، وفقدت الأفكار القوميّة الحيّة، واستبدلتها بأفكار مصطنعة وغير طبيعيّة، وسيستمر هذا الأمرُ طويلاً على ما أعتقد.

إذا فهم الشعبُ المسألة الشرقية بشكلٍ عام، والسلافية بشكل خاص من خلال أهميّة مصير الأرثوذكسيّة، فإن ذلك لن يكون مصادفةً، أو أمراً مؤقتاً، ولن يكون مجرد مظهر سياسي، لكنهُ أمر يخصُ جوهر الشعب الروسي نفسه، أي أنه أبدي وصولاً إلى الحل النهائي لهذه المسألة.

لا يمكن لروسيا أن ترفض التحرّك نحو الشرق، ولا يمكن أن تغيّر أهداف هذا التحرّك، لأنها بذلك تكون قد رفضت نفسها، وإذا اضطرّت روسيا إلى الانحراف قليلاً عن طريقها بسبب الظروف المحيطة والمؤقتة، أو إلى التنازل أحياناً، فإن من الواجب في هذهِ المسألة - شأنها شأن جوهر

الشعب الروسي - أن تصلَ يوماً ما إلى الهدف الأساسي الضروري وهو: توحيد القبائل الأرثوذكسيّة في المسيح وفي الأخوّة، دونَ التركيز على الفروقات بين السلافيين والشعوب الأرثوذكسيّة الأخرى، وليسَ بالضرورة أن تكون هذه الوحدة سياسيّة، فالمسائل السلافيّة بالمعنى الضيّقِ لهذه الكلمة، والسياسيّة المحدودة «مثل البحار والمضائق والقسطنطينيّة وغيرها» ستحلُ من تلقاء نفسها طبعاً عندما تبرزُ التناقضات الكبيرة والمسائل المهمة، وهكذا فإنَ المسألة كلها من وجهة النظر الشعبية ستتخذ شكلاً ثابتاً وراسخاً.

إن أوربّا لا تفهمُ مُثلنا القوميّة أبداً، وهي تقوّمها بمعاييرها الخاصة، وتتهمنا بالتعطش للاستيلاء على أراضي الآخرين واستخدام القوّة.

إن المسألة بالنسبة لأوربّا ليست أبداً في أننا لا نحتل أرضاً، أو في أننا نعد بالا نستولي على شيء: الأهم لأوربّا أننا مستعدون كما كنا وبإصرارٍ ودون تراجع أن نساعد السلافيانيين، ولسنا مستعدين أبداً للتراجع عن ذلك.

لأننا عندما نفعل ذلك كأننا نضعُ حجراً جديداً في تلك القلعة التي تتحرّك نحو الشرق تدريجيّاً «وتعتقد أوربّا أنها تتحركُ ضدها». إننا بمساعدتنا للسلافيين نوطدُ ثقة هؤلاء بروسيا وجبروتها، ونجعلهم أكثر فأكثر ينظرون إلى روسيا كما ينظرونَ إلى شمسهم، إلى مركز السلافيّة وحتى مركز الشرق كلّه. إن أوربّا تنظرُ إلى ترسيخ هذهِ الأفكار على أنه استيلاءٌ بالقوّة على ما ليسَ لنا بغض النظر عن كل التنازلات التي يمكن لروسيا أن تقدّمها بصدق وإخلاص لتهدئة أوربّا.

إن أوربّا تفهم جيداً أن غرس هذه الأفكار هو جوهر المسألة الأساس، وليسَ الموضوعُ موضوع فوائد ماديّة، مثل ضم شبه الجزيرة البلقانيّة أو ما شابه ذلك [...].

١٨٧٧

كانون الثاني

ثلاث أفكار

[..] الأمور ليست هادئة في أوربا بلا شك، لكنْ هل هذا مؤقت أو آني؟ على الأغلب لا لقد اقتربت نهايةُ ما أعدت الحضارة العالمية له منذُ آلاف السنين، حيثُ بدأت تواجهُ العالم اليوم ثلاثُ أفكار، وهي على ما أعتقد في حالة تشكلها النهائي: الفكرةُ الكاثوليكيّة في طرف أوربا من جهة، وهي فكرةٌ مدانة، تترقّبُ في عذاب وارتباك كبيرين: هل سيكون بإمكانها أن تبقى وتعيش أم لا، هل ستمتدُّ بها الحياة أو أنها آلت إلى الموت؟ وهنا أنا لا أتكلّمُ عن الديانة الكاثوليكيّة وحدها، بل عن كل «الفكرة الكاثوليكيّة»، عن مشاركة الأمّة التي تشكّلت ولآلاف السنين حول هذه الفكرة، وتشربتها تماماً. ويمكن أن نقول هنا- على سبيل المثال - إن فرنسا تُعَدّ تجسيداً كاملاً للفكرة الكاثوليكيّة، وعلى مرّ القرون، وقد ورثت - طبعاً - أساس هذهِ الفكرة عن الرومان، وأخذتها بالروح نفسها. إن فرنسا هذهِ فقدت تقريباً كل الديانات «اليسوعيون[1] والملحدون هنا شيء واحد..»، أقفلت كنائسها مراراً، وتعرضت ذات مَرّة لاستهداف مجلس الإله[2] نفسه، فرنسا هذهِ طوّرت من أفكار عام ٩٨ اشتراكية فرنسية خاصة بها، أعني تهدئة المجتمع الإنساني وبناؤه بلا يسوع، وبعيداً عنه، حين أرادت - ولم تستطع - أن

تبنيه على المسيح ضمن الكاثوليكية. فرنسا هذه بقيت وما زالت - سواء في ثوريي كونفيت، أم في ملحديها واشتراكييها، أم في كومونتها الحالية - أمةً كاثوليكيّة بكل ما في الكلمة من معنى، مصابةً كلها بعدوى نص الكاثوليكيّة وروحها.

وقد أعلنت على لسان ملحديها الغارقين في إلحادهم: Liberté,Egalité. Fraternité - ou Le mort[1]، أي حرفياً كما لو أن البابا قد أعلنها، فيما لو كان مضطراً أن يعلن ويصوغ الحريّة الكاثوليكيّة والمساواة والأخوّة الكاثوليكيتين - لكن بصياغة بابا القرون الوسطى وروحه. إن الاشتراكية الفرنسيّة الحاليّة، المتوقدة نشاطاً، هي على ما يبدو احتجاجٌ حتمي من قبل كل الناس المعذبين والمخنوقين ومن مختلف القوميات ضد فكرة الكاثوليكيّة، من قبل من يتمنّون أن يعيشوا دونَ الكاثوليكيّة وإلهها - وهذا الاحتجاجُ ذاته، الذي بدأ فعلياً منذُ نهاية القرن الماضي «وربّما قبل ذلك بكثير من حيث الجوهر» ليس إلا استمراراً دقيقاً وأميناً للفكرة الكاثوليكيّة، وتتويجاً كاملاً ونهائياً لنتائجها الحتميّة، التي استمّرت صياغتُها قروناً طويلة. إن هذهِ الاشتراكية الفرنسيّة بالتالي ليست إلا اتحاداً تعسفيّاً للإنسانيّة - وهي فكرةٌ ما زالت تعيشُ وتصبُّ في النهاية كاملةً في الكاثوليكيّة المتبقيّة. وعليه فإن فكرة تحرير الروح الإنسانية - والحالُ هذهِ - من الكاثوليكيّة، انضوت في أكثر الأشكال قرباً من الكاثوليكيّة، مقتبسةً من صُلبِ روحها ونصها وماديتها وتعسّفها وأخلاقياتها.

من جهة أخرى تثورُ البروتستانتيّة القديمة، محتجةً ضد روما منذُ اثني عشر قرناً، ضد روما وفكرها والوثنية القديمة، ضد الكاثوليكيّة

أ- الحريّة والمساواة والأخوّة - او الموت بالفرنسية في الأصل/المترجم/

المتجددّة، وفكرها الشمولي، الذي يمتلك الإنسان ماديّاً وأخلاقيّا على الأرض كلّها، ضد حضارتها - منذُ أيام أرمينيا وغابات تفتوبورغسكي[٣] وها هو ذا الألماني - الذي يثق ثقةً عمياء بأن انبعاث وتجدد الإنسانيّة مقترنُ به وحده وليسَ في الحضارة الكاثوليكيّة. [...] يؤمن بذلك بفخر وثبات، وثيقُ أنه لا يوجد أعلى من الكلمة الألمانية، والروح الألمانية، ولا يمكن لأحد في العالم غير ألمانيا أن يعلن ذلك [...] اللوثريون البروتستانت[٤] أصبحوا حقيقةً واقعة: وعقيدتهم ليست إلا عقيدة احتجاجيّة وسلبيّة. وعلى ما أعتقد ستختفي الكاثوليكيّة قريباً عن الأرض، وستختفي في أثرها البروتستانتيّة، حين لا يبقى شيء تحتج عليه وتقف ضدّه، وستتحوّل مباشرةً إلى الإلحاد وتنتهي عند ذلك. وعلى كل حال لنفرض أن تلك كانت أمنياتي الباطلة!

الألماني يحتقر الفكرة السلافيّة، مثلما يحتقر الكاثوليكيّة، لكنّه يقيّمُ الثانية كعدوٍ قويٍ جبارٍ، أما السلافيّة فهو لا يكتفي بعدم تقييمها، بل لا يعترفُ بها مطلقاً حتى هذهِ اللحظة، وإن كانَ قد بدأ منذُ فترة يميلُ إلى السلافيين بشكلٍ مشكوكٍ فيه [...].

وبين هذهِ وتلك تألقت وشَعّتْ في الشرق فكرةٌ عالمية ثالثة، لا يوجدُ مثلها، ولم يسمع بمثلها من قبل، وهي الفكرةُ السلافيّة الوليدة - والتي يمكن أن تكون الإمكانية الثالثة القادمة لحل مصير أوربا والإنسانيّة لقد أصبح واضحاً للجميع أنه بحل المسألة الشرقيّة سيطرحُ أمام الإنسانية عنصر جديد، مرحلة جديدة لا زالت راكدة وسلبيّة، وهي على أي حال لا يمكن إلا أن تؤثر على مصائر العالم بقوى حاسمة وشديدة. ما هو جوهرُ هذهِ الفكرة إذاً؟ وما الذي يمكن أن يُقدّمَهُ اتحادُ السلافيان؟ إن كل ذلك ما زال غير محدد. لكن ما من شك أن شيئاً جديداً سيتبلور ويحدث.

إن هـذهِ الأفكـار الـثلاث العالميـة العظيمـة وصلت في الوقـت نفسه إلى خاتمة المطاف والتقت عند ذلك [...] هنا لا شيء نهائي وشامل، ومع أن هـذه الأفكار لا تقـررُ مـصائر الإنسانيّة كلها، إلا أنها تحمـلُ معها بداية نهايـة تاريخ الإنسان الأوربي الماضي، بداية تقرير مصيره اللاحق، وهـو أمـرٌ في يد العناية الإلهيّـة، الـتي لـيس بوسـع الإنـسان أن يتنبـأ بمقاصدها، وإن كـانَ قادراً أحياناً أن يشعر بها في أعماقه [...].

البطل الروسي المعذّب
فوما دانيلوف

الخريف الماضي تناقلت جميع الصحف الروسيّة خبراً نشر في «المعوّق الروسي»[1] عن ضابط الصف في كتيبة مدفعيّة تركستان الثانية فوما دانيلوف، الذي ماتَ تحتَ التعذيب، وكانَ قد وقعَ في أسر محاربين مسلمين من أصول تركيّة تابعين لجيش أحد الخانات ممن يقطنون جنوبي أوزبكستان، وقد قتل فوما بطريقة وحشيةٍ بعد أن تعرض لأبشع أنواع التعذيب، كان ذلك بتاريخ ٢١ تشرين ثاني ١٨٧٥ في مارغيلان، وقد حدث كل ذلك بسبب رفضه الانضمام إلى أولئك المقاتلين، واعتناق الإسلام. لقد وعده الخان نفسه بالعفو والمكافأة والمكانة المعنوية العالية إذا هو وافق أن يتخلّى عن المسيح، لكن دانيلوف أجابَهُ بأنّهُ متمسّك بالصليب ولا يمكن أن يتخلّى عنه، وأنّه ملتزمٌ بطاعة القيصر والمسيحيّة. وقد دُهشَ جَلادوهُ، الذين عذّبوهُ حتى الموت لقوّة إيمانه، ووصفوهُ بالبطل الجبّار.

لقد تناقلت الصحفُ جميعها هذا الخبر، لكنّه مَرّ في المجتمع مروراً عابراً. وكأنه خبر صحفي عادي entrofilet[1]، ولم يَرَ أحد أن هناك ضرورة للتوسّع بالحديث عنه، وباختصار كان هناك صمت كما يقال في البورصة حول فوما دانيلوف. وبعد ذلك - وكما هو معروف - ظهرت

ا- نبأ - بالفرنسية في الأصل/المترجم/.

الحركة السلافيانيّة، وظهر تشيرينايف والصرب وكيرييف[٢] - والمتطوّعين، والتضحيات، ونسيَ الجميعُ فوما المعذب «أقصد الصحف».

لكن ومنذ فترة قريبة كشف النقاب عن معلومات تفصيليّة إضافيّة إلى خبر دانيلوف. لقد عادت الصحف لتنشر خبراً مفادُهُ أن محافظ سمارسك قد أجرى تحريات خاصة حول عائلة دانيلوف والتي نشأت في قرية كيرسانوفكا الفلاحيّة، قضاء بوخورسلانسكي محافظة سمارسك، وتبين أن دانيلوف قد ترك خلفهُ زوجة اسمها يفروسينيا، عمرها ٢٧ عاماً، وطفلةً في عامها السادس، وهما تعيشان في فقر مدقع. وقد قدمت لهما مساعدة بمبادرة خيريّة من محافظ سمارسك الذي توجه إلى الناس داعياً لتقديم المعونة لأرملة البطل الروسي المعذب دانيلوف وابنتها، كما توجه إلى مجلس المحافظة المحلي باقتراح تقديم منحة دراسيّة لطفلة دانيلوف في أحد المراكز التعليميّة. ونتيجة لذلك تم جمع ١٣٢٠ روبلاً، وضع ستمئة منها في البنك باسم الطفلة حتى تصبح في سن الرشد، وسلم الباقي إلى والدتها، وقد تم قبول الطفلة في أحد المراكز التعليميّة، ثمّ أبلغ رئيسُ الأركان المحافظَ أنه خصّ أرملة دانيلوف براتبٍ شهريٍ مدى الحياة، قدرُهُ ١٢٠ روبلاً في السنة من الخزينة الحكوميّة. وبعد كل ذلك سوف تنسى حادثة دانيلوف بسبب الاضطرابات الحالية، وما يرافقها من قلق ومخاوف سياسيّة... وهلمجرا، إنني لا أريدُ أن أقول إن مجتمعنا قد تعامل مع هذا الحادث الرهيب باللا مبالاة، وكأنّهُ لا يستحق الاهتمام. الحقيقة إن عدداً قليلاً قد تناول الموضوع، أو بالأحرى ما تكلم أحدٌ بشكلٍ كافٍ عن هذا الموضوع، ربّما فعل بعضهم فيما بينهم، أو تجاذبوا أطرافَ الحديث في الموضوع مع بعض التجار أو رجال الدين، ولكن الأمر لم يتجاوز ذلك إلى الأوساط المثقفة. الشعبُ بالتأكيد لن ينسى هذا الموت العظيم، لقد تحمل دانيلوف الروسي الجبار الآلام من أجل المسيح، ولهذا فالشعبُ يُقدِّرُه ولن ينساه،

لكنني اسمعُ مع ذلك بعض الأصوات التي أعرفها تقول: «إنها قوّة بالتأكيد، ونحنُ نعترفُ بذلك. لكنّها قوّة غامضة وقد برزت هنا بشكل بدائي، ولهذا ما الذي يمكن أن نقوله؟ إن هذا العالم ليسَ عالمنا. لو أن هذهِ القوّة تجلّت بشكلٍ ذكيٍ وواعٍ لكان الأمرّ مختلفاً! ثمةَ في الدنيا معذبون آخرون وقوى أخرى، وهناك أفكار وأمثلة أعلى وأكثر خلوداً - هناك فكرة إنسانيّة شاملة على سبيل المثال...».

وبغض النظر عن هذهِ الأصوات المثقّفة والحكيمة، فإن من حقي أن يكون لي موقف خاص من دانيلوف، إنني أعتقد أن فئتنا المثقّفة ما كانت ستتعرّضُ للإذلال، ولم تكن ستشعُرُ بالضِعة لو أنها تعاملت مع هذهِ الواقعة بما تمثّلهُ من حقيقة باهتمام أكبر.

إن أكثر ما يدهشني أن هذهِ الفئة لم تكتشف في الحدث الذي نتحدّث عنه ما يثيرُ الدهشة. ليسَ مطلوباً من الشعب بالتأكيد أن يشعرَ بالدهشة، لأنهُ لا يرى في تصرّف فوما شيئاً غير عادي، وذلك بسبب ثقتهِ العظيمة بنفسهِ وروحهِ، فهو يتعاملُ مع هذه المأثرة بإحساس ورأفةٍ عظيمين. لكن لو حدثت مثلُ هذهِ الواقعة في أوربا، أعني ظهور الروح العظيمة هذهِ عند الإنكليز أو الفرنسيين أو الألمان، لكانوا قد صرخوا بأعلى أصواتهم كي يسمعوا العالم كله...

لا. اسمعوا أيها السادة: هل تعلمونَ ما الذي يعنيه لي هذا الجندي غير المعروف، من فرقة تركستان؟ إنهُ رمز روسيا الشعبيّة، ومثالها الحقيقي، روسيا التي يرفضُ الآن هؤلاء المستهترون والحكماء روحها العظيمة هذه، وكل إمكانيّة لظهور الفكرة العظيمة والإحساس العظيم.

اسمعوا. صحيح أنكم لستم أولئك المستهترين، أنتم فقط أناس مثقفون أوربياً، أي أكثر من مجرّد طيبي قلوب، إنكم بالتالي لا تنكرونَ أن الشعب هذا الصيف وفي أماكن عدة قد أظهرَ قوّةَ روحٍ غير عاديّة، لقد تركَ

الناسُ بيوتهم وأطفالهم وذهبوا إلى الموت من أجل العقيدة، ومن أجل المستضعفين. الله وحدَهُ يعرفُ إلى أين خرجوا وكيف. وبأي وسائل وأدوات، لقد خرجوا تماماً مثلَ الصليبيين الأوائل في أوربا، منذُ تسعمائة عام مضت[٣] - إنهم هم أنفسهم الصليبيون الذين كان يمكن لغرانوفسك لو ظَهَرَ من جديد أن يُعَدّهم مضحكين ومسيئين «في قرننا الحالي وظائف إيجابيّة للتقدّم» وهكذا... الخ، ولنفترض مثلما تدّعون أن حركتنا الصيفيّة كانت عمياء وغير عقلانيّة أي «صليبيّة»، ولكن لو نظرتم إليها بموضوعيّة أكثر فلن يكونَ بإمكانكم إلا اعتبارها صلبة وشهمة. لقد استيقظت فكرة عظيمة، ولعلّها استطاعت أن ترفَعَ مئات الآلاف من الأرواح، بل الملايين، فوقَ حالةٍ من ضيق الأفق والاستهتار والانحلال الخلقي والوضاعة. إن شعبنا كما تعلمون - وإن اعتبر حتى الآن طيب القلب، وذكياً إلى حدٍ بعيد فهو عبارة عن جماهير عشوائية جاهلة إلى حدٍ كبير، وهي - وعن غير وعي - وفيّة للرذيلة والطيش وربّما للقباحة، لكنني سأتجرأ وأقولُ لكم شيئاً واحداً، لعلّه بدهي: كي تحكموا على قوة الأخلاق عند الشعب، وعلى ما يستطيع إنجازه في المستقبل، يجب أن تأخذوا بالحسبان مستوى علو الروح الذي يستطيع أن يبلغه هذا الشعب عندما يدعو الداعي ويحين الوقت، وليس مستوى القباحة التي هو عليها، وأذِلَّ بها!

فالقباحة هي تعاسة مؤقتة مرتبطة دائماً بالظروف التي عاشها الشعب، من العبودية والظلم اللذين استمرا قروناً طويلة حتى الغلظة والعنف. أما فيما يخص موهبة طيبة القلب فهي موهبة أبديّة عشوائيّة، موهبة ولدت مع الشعب، وهي مُشرِّفة كونها - وعلى الرغم من القرون الطويلة من المعاناة والمشقّة والعبوديّة والفقر - خرجت سليمة دون أن تُصاب في قلب هذا الشعب بأي أذى.

ربّما كانَ فوما دانيلوف أحد أفراد الشعب الروسي البسطاء وغير الملحوظين، مثلُهُ مثل الشعب الروسي نفسه «آه، فهو حتى الآن بالنسبة

للكثيرين غير ملحوظ»، ولعلّهُ كان يلهو ويشرب، ولا يصلي كثيراً، مع أنه يتذكر الله دائماً، وفجأةً طلبوا منهُ أن يبدلَ عقيدته، كي لا يموت تلك الميتة الأليمة، وعليكم هنا أن لا تنسوا كيف يمكن أن يكون التعذيب الآسيوي الذي تلقاه! فالخان نفسه وقف أمامه ووعدهُ بالعفو وكان دانيلوف يدركُ جيداً أن رفضه سيغضب الخان كثيراً، وسيجرَح عزّة نفس جنوده[٤].

«كيف يجرؤ هذا الكلب المسيحي أن يحتقر الإسلام». ولكن بغض النظر عَما ينتظرُ هذا الإنسان الروسي غير الملحوظ، نراهُ يختار أقسى أنواع العذاب ويموت، فيفاجئ جلاديه. هل تعلمون أيّها السادة أن لا أحد منا يمكن أن يفعل ذلك. صحيحٌ أن العذاب على مرأى من الناس يمكن أن يكون جميلاً في بعض الأحيان، لكن ما حصل لدانيلوف كان في مكانٍ غير معروف مطلقاً في زاويةٍ بعيدةٍ جداً، ولم ينظر إليه أحد، حتى دانيلوف نفسه لم يكن يعتقد أن مأثرتَهُ هذه سوفَ تنتشر في كل الأرض الروسيّة.

أنا أعتقد أن الشهداء العظماء الآخرين، وحتى في القرون الأولى للمسيحيّة، كانوا جزئياً يشعرون بالمواساة، ويتحملون العذاب مقتنعين بأن تحملهم هذا سيجعلهم قدوةً للخائفين والمترددين وسيرفدُ المسيحيّة بالكثيرين، أما فوما دانيلوف فما من مواساة تخفف عنه!

من يعرف، ربّما كان وحيداً بين جلاديه، كان فتيّاً وهناكَ في مكان ما كان له زوجة شابة وطفلة ويراهما مجدداً... وليكن ذلك: «فأينما كنتُ لن أتصرفَ ضدَ ضميري، وسأتحمل العذاب» هذا هو الأصل: الحقيقة من أجل الحقيقة وليس من أجل الجمال!. وما من نفاق أو سفسطة: «أتصنع أنني أعتنق الإسلام، ولن يراني أحد، وفيما بعد سوف أصلي للحياة العظيمة، وسأضحي في الكنيسة، وسأفعل الأعمال الحسنة»، لا شيء من هذا القبيل قد حدث، نزاهة فريدة، بدائية، عفويّة. لا أيّها السادة من الصعب أن نفعل ذلك لو كنا مكانه.

هذا فيما يخصنا نحن، أما بالنسبة لشعبنا فأكرر: إن مأثرة دانيلوف قد لا تكون مُستَهجنه وهنا جوهر الموضوع - إننا أمام صورة كاملة، أمام انعكاس تام للشعب الروسي، وهذا غالٍ ومحبب إلي مثلما هو الأمرٌ بالنسبة لكم بلا شك. إن شعبنا يحبُ الحقيقة لأجل الحقيقة وليسَ لأجل الجمال، وليكن أنه غبي وقبيح ومذنب وغير ملحوظ، لكنّهُ - حين يحين الوقت وتبدأ نشاطات الحقيقة الشعبيّة - سيذهلكم بمستوى حريّة الروح التي سيظهرها أمام الاستبداد المادي والرغبة في الملكيّة المختلفة الأشكال، سوف يفعل ذلك بكل بساطة وصلابة، ولن يطلب مكافأةً أو مديحاً، ولن يعرض نفسه ويزهو: «سوف أعتنق ما أؤمن به». هنا أشدّ المجادلين في النماذج السلفيّة جِدّةً لن يستطيع أن يتفوّه ببنت شفة، لأن المسألة ليست مسألة أنموذج سلفي ماضوي أم سواه، بل هي مسألة القدرة على إظهار الإرادة الصلبة لأجل مأثرة الشهامة والروح السامي.

يجب علينا أيّها السادة أن نكون صريحين، فنقول ما نفكر به مباشرةً وبشجاعة. أنا أعتقد أنه ما من شيء نعلّمه للشعب. إن هذا هراء بالطبع! ولكنّه كلامٌ عقلاني في أحيان كثيرة.

آه نحنُ بالطبع متعلمون أكثر منه، ولكنَ المأساة تتجلّى فيما نستطيعُ تعليمهُ إياه؟!

أنا طبعاً لا أعني الحرف والتقانات، أو المعلومات الرياضيّة، فهذه أمور يستطيعُ الألمان المأجورون والقادمون إلينا بغرض العمل أن يعلموه إياها، إن لم نفعل نحن. المسألة مختلفة إذاً فنحن من الروس، وأخوة هؤلاء الناس، وهذا يعني أننا ملزمون «بتنويرهم»، فهل نقدمُ لهم الشيء الأخلاقي السامي؟! ماذا نشرح لهم؟ وبماذا تنور هذه النفوس «الجاهلة»؟

تنوير الشعب أيّها السادة حقّ علينا وواجب، واجبٌ حسب الفكرة المسيحية العليا: من يعرفُ الكلمة الحقيقة للحياة يكونُ ملزماً أن يخبر

أخاه غير العارف، والضائع في الظلمة! هذا حسب ما ورد في الإنجيل، لكن بماذا سنخبر هذا الضائع الضال؟ وماذا نعرفُ أكثر منه؟ طبعاً قبل كل شيء العلمُ مفيد ويجب التعلم أليسَ كذلك؟ لكن شعبنا قد قال قبلنا: «العلم نور والجهل ظلام»، هل نقضي على الخرافات مثلاً ونسقط الأصنام؟ لكن الخرافات تعيش في نفوسنا - نحن المثقفين - أما الأصنام فقط صنعنا منها الكثير لأنفسنا كي يقول الشعب لنا: «طبيبٌ - يعالجُ نفسه بنفسه[٥]».

«وشعبنا يتقنُ النظرَ إلى أصنامنا تلك جيداً»، وكيفَ هي الحال فيما يتعلّق باحترام الذات وعزّة النفس؟ إن شعبنا كلّه يحترمُ نفسه، ويفهَمُ عزّه نفسه ويقدّرها أكثر مما نفعل بكثير. نحنُ في حقيقة الأمرُ نحبُ ذواتنا بصورة مرعبة، ولا نحترمُ أنفسنا إطلاقاً!

وللننتقل إلى فكرةٍ أخرى: هل علينا مثلاً أن نعلم شعبنا أن يحترم أفكار الآخرين ويعترف بها؟ وفي هذا الباب أقول لكم إن شعبنا أثبت منذ بطرس العظيم أنه يحترمُ قناعات الآخرين ويعترف بها، أما نحن فلا نغفرُ لأي منا أي انحرافٍ بسيط عن قناعاتنا، ونعتبر الذين لا يتفقون معنا - ولو قليلاً - سفلة، متناسين أن من يميلُ لفقد احترام الآخرين، لا يحترمُ نفسه قبل كل شيء.

هل علينا إذاً أن نعلم الناس أن تثق بقواها، بنفوسها؟ وهنا أقول لكم إن في الشعب أكثر من فوما دانيلوف واحد، بل هناك الآلاف منه، أما نحن فلا نثق مطلقاً بالقوى الروسيّة، بل نعتبر عدم الثقة هذا تنويراً عالياً، وأكثر من مروءة وشجاعة.

وأخيراً ماذا نستطيع أن نعلم هذا الشعب؟ نحن نشمئز إلى درجة الحقد من كل من يحبّهُ شعبُنا ويقدرُهُ وينبض قلبه له. فأي محبين للناس نحن؟ هناكَ من يعترض ويرى أننا بقدر ما نحب الشعب، نشمئز من جهله ونتمنى له الأفضل آه لا أيّها السادة، هذا ليسَ صحيحاً، فإذا ما أحببنا الشعب

بصدق - وليسَ في المقالات والكتب - اقتربنا منه أكثر، وحرصنا أن ندرسَ أشياء قد تُعَتبر اعتباطيّةً حسبَ التقاليد الأوربيّة، وتفانينا في ذلك: حينها يمكن أن نتعلّم الكثير والكثير مما قد يفوقُ تصوّراتنا.

إن لدينا - كمثقفين - على كل حال عزاءً واحداً، هو عزةُ نفوسنا العظيمة أمام شعبنا، وهذا ما يدفعنا إلى احتقاره لأنه قومي، ويتمسّكُ بقوميته بكل ما أوتي من قوّة، في حين نمتلك نحن قناعات إنسانيّة شاملة، بل وضعنا أمامنا هدفاً أن نرقى إلى الإنسانية الكاملة، وكأننا بذلك ارتفعنا فوقه عالياً، ولعل في هذا خلافنا وقطيعتنا مع الشعب، وسأعلن الآن أننا لو سوينا هذه المسالة ووجدنا نقطة المصالحة، فسنكون قد أنهينا خلافنا مع الشعب. أليست هذه المسألة موجودة؟ أليسَ من السهل جداً تجاوزها؟ إنني أكرُّر وبحزم أن أكثر اختلافاتنا الراديكاليّة حِدّةً ليست في جوهرها سوى سراب.

لكن ما هو جوهر نقطة المصالحة هذه؟

الحلم المهادن خارج العلم

سأضَعُ أولاً أكثر الفرضيات حساسيّة وإثارةً للجدل، ومنها سأبدأ: «على كل شعبٍ عظيمٍ أن يؤمن - ويجب أن يؤمن - إذا أراد أن يعيشَ طويلاً، بأن فيهِ وحده يكمنُ إنقاذ العالم، وأنّه إنما يعيش لكي يقف على رأس الشعوب ويجذبها إليه سويّةً، فيقودها في جوقةٍ متناسقة إلى الهدف النهائي الموضوع على عاتقها».

إنني أؤكد بأن هذا ما حدثَ لكل الأمم العظيمة القديمة والمعاصرة، وأؤكد أن هذا الاعتقاد قد رفعها لتمتلك في زمنها تأثيراً عالمياً عظيماً على مصير الإنسانية.؟

هذا ما كانَ دون جدال من شأن روسيا القديمة، وفيما بعد بالنسبة لروما أثناء المرحلة الكاثوليكيّة، ثُمَ حدث الأمرُ نفسه لفرنسا عندما ورثت الفكرة الكاثوليكيّة. فاعتبرت نفسها ولمدة قرنين من الزمن على رأس العالم، أخلاقياً على الأقل، وأحياناً سياسياً، تقودُ تحركاته وتدلُّهُ إلى المستقبل، حتى أدركتها الهزيمة والاكتئابُ مؤخراً. وبهذا كانت ألمانيا تحكُمُ دائماً واضعةً نفسها ضد الفكرة الكاثوليكيّة العالميّة، متسلّحةً براية البروتستانتيّة وبحريّة الضمير اللا نهائية. وأكرر أن هذا ما يحدُثُ لكل الأمم العظيمة في ذروة تطوّرها كبيرةً كانت أم صغيرة. ستقولون لي بأن ما أقولُهُ خطأٌ، ولا صدق فيه، وستستشهدون بوعي تلك الأمم نفسه، وبوعي وإدراك علمائها ومفكريها الذين كتبوا بشكلٍ خاص عن الأهميّة الشاملة لكل الأمم الأوربيّة التي شاركت جميعها في تأسيس الحضارة

الأوربيّة وإنجازها. وأنا بالطبع لن أنكر مثل هذا الوعي، بغض النظر عن أن مثل هذهِ الاستنتاجات النهائية للوعي تبدو وكأنها تعلن نهاية الحياة الحيّة للشعوب، لكنني سأشيرُ إلى أمرٍ واحدٍ فقط: إن هؤلاء المفكرين والمحللين ومهما كتبوا عن تناسقُ الأمم الهارموني العالمي، يؤمنون في الوقت نفسه ويحسّون بشكلٍ صادقٍ وحي - مثلهم مثل شعوبهم - بأن في جوقة الأمم هذهِ التي تشكل التناسق الهارموني العالمي، والتي صنعت مجتمعةً الحضارة توجد أمة ما «هي أمتهم بلا شك»، تمثل رأس هذه الجوقة وهي الأكثر تطوراً ولتكن الأمة الفرنسية مثلاً ويقعُ على عاتقها قيادة الأمم الأخرى التي ستتبعها بالتأكيد وهي وإن كانت تأخذ من تلك الأمم شيئاً، فإن مقدار ما تأخذه ضئيلٌ جداً، أما شعوب تلك الأمم فهي التي تأخذُ من الأمة القائدة كل شيء، كل ما هو جوهري ومهم، وتعيشُ بروحها وأفكارها، نعم ليسَ لشعوبِ تلك المم أن تفعل شيئاً إلا ملامسة روح الأمة القائدة والانصهار فيها عاجلاً أم آجلاً. انظروا إلى فرنسا الحاليّة الكئيبة والمجزأة روحيّاً، إن فيها اليوم واحدة من تلك الأفكار التي ينظر إليها على أنها جديدة، وهي حسب تصورنا طبيعيّة كامتدادٍ للفكرة الكاثوليكيّة العالمية القديمة، وتطوير لها، لكن نصف الفرنسيين تقريباً يعتقد الآن بأن في هذه الفكرة ليسَ إنقاذهم فحسب، بل إنقاذ العالم أجمع. إن هذهِ الفكرة هي بالتحديد الاشتراكية الفرنسيّة، واشتراكيتهم هذه بالطبع كاذبة ويائسة، والمسألة الآن ليست في نوعيّة هذهِ الاشتراكية بل كونها موجودة وتعيش حياةً حيّة، ولا يشعرُ من يعتنقها بالشك أو الكآبة، كالجزء الأعظم من فرنسا. وانظروا من جهةٍ أخرى إلى أي إنكليزي، أكانَ عادياً أم مُهماً، لورداً أم عاملاً، عالماً أو غير متعلمٍ وستتأكدّون أنّه يحاول أن يكونَ إنكليزياً قبل كل شيءٍ، ويحافظُ على إنكليزيّته في كل مراحل حياته الاجتماعية والخاصة، السياسيّة والإنسانيّة، وحتّى عندما يحب الإنسانيّة يحبُّها كونها

إنكليزيّة ستقولون لي إن كانَ الأمرُ كما تؤكد، فإن هذا الغرور، هذا الاعتداد بالنفس، أمرٌ مهينٌ لتلك الشعوب العظيمة، وسيقلل من أهميتها بما ينطوي عليه من أنانيّة وشوفينيّة سخيفة، ولن يقدمَ لها القوّة الحياتيّة، بل على العكس سيضرُّ بها ويفسد حياة أبنائها، وستقولون إن مثل تلك الأفكار المجنونة والمتعجرفة لا تستحقُ التقليد، بل على العكس يجب إزالتها بنور العقل والقضاء عليها بالحكمة. ولنفترض أن ما تقولونه صحيحٌ جداً من وجهة نظر معيّنة، لكن يجب علينا أن ننظر إلى الأمر من زاوية رؤيةٍ أخرى، وعندها لن نراهُ غيرَ مُذلٍ فحسب، بل ستنقلبُ فكرتنا عنهُ رأساً على عقب: ألا يحلمُ الفتى الصغير، الذي لم يعش من حياتِهِ شيئاً بعد أن يصبحُ بطلاً في المستقبل؟ ثقوا بأن مثل هذهِ الأحلام المتغطرسة والمتعجرفة ستكون أكثر حيويّة وفائدة من الأحلام العقلانية لهذا الفتى، الذي سيؤمن عندما يصبح في السادسة عشرة من عمره بالقول الحكيم: «السعادةُ خيرٌ من البطولة». ثقوا أن حياة هذا الفتى، وحتى بعد أن يعاني من المصائب والفشل ما يعانيه ستكون بشكلٍ عام أجمل من الحياة الهادئة لرفيق طفولتِهِ العاقل، على الرغم من أن الظروف كانت مواتية ليعيشَ فوق «ريش النعام». إن مثل هذهِ الثقة بالنفس ليست غير أخلاقيّة، وليست اعتزازاً بذيئاً بالذات...

وهكذا الأمرٌ بالنسبة للشعوب، قد تكون هناك شعوب متبصرة ونزيهة ومعتدلة وهادئة، معظم أبنائها من التجار وصانعي السفن، يعيشون برخاء ورتابة غير عاديّة، إن مثل هذه الشعوب لا تذهبُ بعيداً، سوف تصلُ لا محالة إلى نهايةٍ لا تخدم الإنسانيّة، إنها تفتقدُ الحيويّة والاعتدادَ العظيم بالنفس، إنها لا تقفُ «على ظهر تلك الحيتان الثلاثة المتحرّكة» التي تنتصب على ظهرها الشعوب العظيمة!

إن الإيمان بأنك تريد «وقادر» أن تقول للعالم الكلمة الأخيرة، وأن تجددَ قواه الحيّة الكثيرة، الإيمان بقدسيّة مثلكَ، الإيمان بقوّة حُبّك وتعطّشك

لخدمة الإنسانيّة - إن هذا الإيمانَ رهنٌ بالأُمّة ذات الحياة الأسمى، الأمة التي سيقدّمون باسمها أكبر الفائدة للإنسانية، التي سيقدمون لها كل ذلك الجزء من قوتهم الحيويّة، وأفكارهم وقدراتهم العضوية التي منحتهم إياها الطبيعة عند تشكلهم وخصّتهم بها على شكل مورثات للإنسانية القادمة.

إن أمةً ذات إيمانٍ قوي كهذه، تستحقُ الحياة الساميّة. لقد كان الفارسُ الخرافيُّ القديم يؤمنُ بأن العقبات المختلفة ستعترض طريقه والأشباح والغيلان وأنّه سينتصر عليها، وسيصل هدفه إذا هو صان العهد بأمانة: «العدالة والعفّة والشقاء». ستقولون إنّ هذا كله أغانٍ وخرافات يؤمن بها فقط دون كيخوت، بينما قوانينُ الحياة الواقعيّة للأمّة ليست كذلك... إنني عن عمد أمسكتُ بكم وطرت وكأنّكم مثل دون كيخوت، وتحملونَ الفكرةَ نفسها، التي يؤمن بها، والتي من خلالها ستجددونَ الإنسانيّة.

ما الذي تؤمنون به أنتم في حقيقة الأمر؟ إنكم تؤمنون «وأنا معكم» بشموليّة الإنسانيّة، أي أن الحواجز الطبيعيّة والآراء الباطلة ستسقطُ في يومٍ ما، أمام نور العقل والمعرفة، ستسقط تلكَ الأشياء التي كانت حتى الآن تعيق التعامل الحر بين الأمم بسبب المتطلبات القوميّة الأنانيّة، وحينها فقط ستعيش الشعوب بوئام وروح واحدة، تماماً كالأخوة، ستعيش الشعوبُ بحبٍ وعقلانيّة، طامحةً إلى التناسق الهارموني العام، أيُّ إيمانٍ أيها السادة يمكن أن يكون أسمى وأقدس من إيمانكم هذا؟ والأهم أيها السادة أنكم لن تجدوا مثل إيمانكم هذا في العالم كلّه، لن تجدوه عند أحد حتى على سبيل المثال - عند شعوب أوربا، تلك التي تتمايزُ خصائص قوميّاتها بدقة وترتسم بكثير من الخصوصيّة، فإن وجدَ كانَ على مستوى وعيٍ متأملٍ متوقدٍ وملتهب لشخصٍ ما، لكنّه يبقى في إطار حجراتٍ

المكاتب الخاصة. أما عندكم أيّها السادة، وعندكم هذهِ تعني: عندنا نحن الروس جميعاً - فإن هذا الإيمان، إيمان عام أساس وحيّ، الجميعُ عندنا يؤمنون بذلك عن وعي وببساطة، وستجدُ هذا الإيمان في وسط المثقفين بالتأكيد، وفي الغريزة الحيّة للشعب البسيط، الذي تأمُرُه عقيدتهُ الدينيّة حتى بأن يؤمن بما ذكرتُهُ. نعم أيّها السادة ألم تعتقدوا أنكم أنتم وحدكم «الإنسانيين» من بين كل المثقفين «الانتلجنسيا» الروس أما الباقين فأصحاب نزعة سلافيّة وقوميون؟ لا ليس الأمر كذلك، فالمتعصبّونَ للسلافيّة والقوميون يؤمنونَ تماماً بما تؤمنون بهِ في هذا المجال. بل إن إيمانهم أقوى وأشد من إيمانكم نفسه.

فلنأخذ الآن أصحاب النزعة السلافيّة: ما الذي قد أعلنوه على لسان قادتهم ومؤسسي حركتهم وممثّلي تعاليمهم؟ لقد أعلنوا دونَ مواربة وباستنتاجات دقيقة وواضحة أن روسيا مع الشعوب السلافيّة، بل على رأسها، ستقولُ الكلمةَ الأعظمَ للعالم كلّه، تلك الكلمة التي سمعها في وقتٍ ما، والتي ستصبحُ نداءً للوحدة الإنسانيّة الشاملة، بعيداً عن روح الأنانيّة الخاصة التي قد توحد الناس والأمم بشكلٍ مصطنع وغير طبيعي في إطار حضارةٍ ما، وضمن آليات الصراع من أجل البقاء. لقد كانَ المثل الأعلى لأصحاب النزعة السلافيّة هو الاتحاد في روح الحب الشامل الصادق دونَ كذبٍ أو ماديّة على أساس الأنموذج السمح الخاص الذي قدّر للشعب الروسي أن يقدّمه لأوربا على رأس اتحاد الشعوب السلافيّة. ستقولون لي إنكم لا تؤمنون بقولي هذا، الذي هو حصيلة تفكيرٍ خلفَ طاولةِ الكتابةِ فحسب. لكن المسألة ليست في سؤالنا: كيف يؤمن كل منا، بل في كوننا جميعاً وبغض النظر عن كل الاختلافات نلتقي على هذهِ الفكرة النهائية العامة للوحدة الإنسانية الشاملة ونخلصُ لها. هذهِ حقيقة لا يقتربُ منها الشك، وهي مدهشة بذاتها، لأن مثل هذا الشعور - بهذهِ الدرجة من

الحياة والضرورة الملحة - لا تجدُهُ عند أي من الشعوب. وإذا كان الأمرُ كذلك فإن لدينا - لدينا جميعاً - فكرة قوميّة صلبة ومحددّة المعالم، وأركّز على كلمة «قوميّة»، وعليه إذا كانت الفكرة القوميّة الروسيّة، تعني في نهاية المطاف وحدةً إنسانيّةً عالميّةً، فهذا يعني أن فائدتنا جميعاً تكمنُ في أن ننهي خلافاتنا إلى حين، ونصبحَ بأكبر سرعة ممكنة روسيينَ بل قوميين.

إن خلاصنا كلّه يكمُنُ فقط في ألا نتجادل مسبقاً حول كيفيّة تجسيد هذهِ الفكرة وفي أي شكلٍ، الشكل الذي تطرحونَهُ أنتم أم الذي نطرحُهُ نحن؟! يكمُنُ في أن نخرجَ جميعاً من غرف المكاتب ونتنقلُ معاً إلى الفعل مباشرة وهذهِ هي نقطة المصالحة.

نحن في أوربّا
لسنا أكثر من ستريوتسكيين [١]

كيف انتقلتم إلى الفعل؟ لقد بدأتم منذ زمن بعيد، ومع ذلك ما الذي استطعتم فعله لأجل الإنسانيّة، لأجل انتصار أفكاركم؟ لقد بدأتم بالتجوال غير الهادف في أوربا، ونمت لديكم رغبة جشعة في التحوّل إلى أوربيين، ولو كان ذلك على صعيد الشكل فحسب.

ولقد أنفقنا القرن الثامن عشر على هذا الأمر، وأجبرنا أنفسنا على مذاق الأطعمة الأوربيّة، فكنّا نتناول منها أي شيء غير مستساغٍ أبداً، ولكننا نحاولُ ألا تبدوا على وجوهنا علامات القرف: «انظروا أي إنكليزي أنا، إنني لا أستطيعُ أن آكل شيئاً دون الفلفل الكاييني[أ]». أتظنون إنني أهزأُ وأسخر! طبعاً لا. ليس غرضي السخرية، لكنني على يقين من أنَ بداية حديثي يجب أن تكون من هنا. لقد كان ما ذكرتُهُ قائماً حتى قبل بطرس الأوّل، وأثناء حكم القياصرة والبطريركيّة والموسكوفيين. واحدٌ من أولئك الشبان الموسكوفيين الأذيال آنذاك والمشهورين كان يرتدي بزة فرنسية، ويعلق على خاصرته سيفاً تقليدياً فرنسياً لقد كان علينا بالتحديد أن نبدأ من ازدراء ما يخصنا، ازدراء أنفسنا - على ما يبدو - وإن كنا قد أنفقنا قرنين من الزمن عند هذهِ النقطة دون أن نتحرّك إلى الأمام أو إلى الخلف، فلا بد أن طبيعتنا أو قدرنا كانا وراء ذلك.

أ- كاين: جبل في إيران /المترجم/

لقد انطلقنا عندما بدأنا نفهم أوربا أكثر فأكثر، لم تكن تزعجنا في أوربا الخصائص القوميّة لكل شعبٍ من شعوبها، ولقد تركنا كل التناقضات وأخذنا النموذج الإنساني «للأوربي» أي تنبهّنا للخصائص العامة التي تربط الشعوب الأوربيّة وكان فعلنا هذا متميزاً، ومع مرور الزمن وبعد أن تنامى وعينا تمسّكنا بالحضارة أكثر، حتى أصبحنا نثقُ ثقةً عمياء بكل ما تتضمّنُهُ هذهِ الحضارة ويخدم الوحدة الإنسانيّة، وقد أصابت الأوربيين الدهشةُ عندما نظروا إلى حماستنا نحن الغرباء الوافدين، ولاسيّما أنهم ومنذ زمن بدؤوا يفقدونَ ثقتهم بأنفسهم. لقد تلقّينا بابتهاج ظهور «روسو وفوليتر»[٣] ومجيء «كرامزين» الرحالة، والدعوة «لاجتماع الولايات القوميّة» عام ١٨٨٩، وإذا كنّا فيما بعد، في الربع الأوّل من القرن الحالي قد انتقلنا إلى اليأس مع الطليعيين الأوربيين الذين دفنت أحلامهم، وانهارت مثلهم العليا المنهكة، فإننا لم نفقد إيماننا وواسينا الأوربيين أنفسهم. إن أكثر الروس «بياضاً» في بلادهم يصبحونَ في أوربا مباشرةً «حُمراً» - وهذهِ صفة تطبعنا وتميّزنا.

في النصف الأوّل من القرن الحالي كان لعدد منا شرف الاحتكاك بالاشتراكية الفرنسيّة ثم اعتناقها دون أي تردد، من أجل الوصول إلى حلٍ نهائي للمشكلات التي تعترض وحدة الإنسانيّة أي من أجل تحقيق الأحلام التي جذبتنا دائماً، ومن أجل الوصول إلى هدفنا قبلنا كل ما هو فوق الأنانيّة، وفوق اللا إنسانيّة، وفوق الاقتصاديين الأغبياء والذين لا حول لهم، وفوق الاتهامات الباطلة للطبيعة الإنسانيّة، وفوق محاولات القضاء على حريّة الناس. وعلى العكس من ذلك فقد امتلكنا الجرأة لننعتَ بعض المفكرين الأوربيين الكبار ولكن المتمردين بالأغبياء والسفلة. لقد وثقنا تمام الثقة أن العلم الإيجابي قادر تماماً على رسم الحدود «الأخلاقيّة» الواضحة بين خصوصيات الأجزاء من جهة والأمّة من جهةٍ أخرى «كما لو

أن العلم - لو استطاع طبعاً أن يحقق ذلك - قادرٌ أن يكشف هذه الأسرار قبل «انتهاء التجربة»، أي بمعنى آخر قبل تقرير مصائر الناس على الأرض. لقد باعَ المّلاكونَ عندنا أقنانهم وسافروا إلى أوربا ليصدروا المجلاّت الاجتماعية. أمّا الرودينيون[أ] فقد استشهدوا على المتاريس[٣]، ونحن المثقفين انسلخنا في الوقت نفسه عن أرضنا الروسيّة إلى تلك المرحلة التي جعلتنا لا نستطيعُ أن نفهم إلى أي درجة يمكن لبعض الأفكار والتعاليم إن تضرّ روح الشعب الروسي.

أستطيعُ بشكلٍ عامٍ أن أقول إننا لم نكتفِ بعدم إيلاء أي أهميّة للطابع الشعبي الروسي بل لم نعترف بوجود هذا الطابع الخاص للشعب ونسينا أن نفكّر به، وكنا مقتنعين، قناعةً عمياء «ودون أن نسأل..» أن شعبنا سيتقبّل منا كل شيءٍ نوجهُهُ إليه، أو بالأحرى نأمُرُهُ به، وقد انتشرت بهذا الشأن عدّةُ نكاتٍ مضحكة جداً..

إلى أينَ وصلنا؟ وما الذي بلغناه؟ لقد وصلنا إلى نتائج غريبة أهمُّها: إن الأوربيين جميعاً قد نظروا إلينا باستهزاء، ونظروا إلى النخبة والعقلاء الروس وحتى إلى المهاجرين السياسيين الذين بتروا عن روسيا بتكبّرٍ متسامح. رفضَ الأوربيّون اعتبارنا منهم رفضاً قاطعاً حتى ولو قدمنا كل التضحيات لأجل ذلك وقالوا:

Grattez, le russe et vons verrz le tartare[ب]

وهذهِ هي قناعتهم حتى الآن، لقد أصبحوا إذاً يضربونَ بنا الأمثال، وبقدر ما احتقرنا قوميينا لصالحهم، ازداد احتقارهم لنا. ارتعشنا أمامهم، واعترفنا وأيدنا بخنوع وجهاتِ نظر «أوربيينا»، فكانوا من الترفّع بحيث لم

أ- إشارة إلى «رودين» بطل رواية تورغينيف ١٨٥٦. /المترجم/

ب- اضغطوا على الروسي قليلاً وسترون فيه تترياً. /بالفرنسية في الأصل/

يسمعونا، ولو حدث وسمعوا لجاملونا بابتسامةٍ ساخرة وكأنهم يتمنّون علينا أن ندعهم وشأنهم وننصرف بأقصى سرعة، لأننا «لم نفهم مقاصدهم»... ومهما يكن فقد أدركوا في الفترة الأخيرة أننا - نحن «التتار» الذين لم نستطيع أن نصبح روسيين - لا نسعى إلى أشياء خطيرة ومخيفة، وفهموا أن شعبنا الذي وصل عددُهُ إلى ثمانين مليون نسمة، يعرفُ الأفكار الأوربيّة كلها ويفهمها، بينما هم لا يعرفون الفكر الروسي، وإن عرفوه لا يفهمونه...

إننا نتكلّم لغاتهم كلها، بينما هم لا يتكلمون سوى لغاتهم الوطنية. لقد بلغ بهم الأمر حداً جعلهم ينعتوننا بالأعداء وأساؤوا الظن بنا، واعتبرونا سندمر الحضارة الأوربيّة.

هكذا فهم الأوربيون هدفنا الذي تحمسنا له، هدفنا أن نصبحَ إنسانيين!

بينما لا يمكننا نحن إطلاقاً أن نرفض أوربا. إن أوربّا هي بلدنا الثانية - وأنا أحدُ المتحمّسيّن دائماً لهذه الفكرة.

إن أوربّا عزيزةٌ علينا جميعاً، كما هي روسيا «تقريباً». إن فيها قبيلةُ يافث[٤]، وهدفنا توحيد أمم هذه القبيلة كلها، بل هدفنا أبعد من ذلك أيضاً... توحيد كل الأمم وصولاً إلى سام وحام. فما الذي علينا أن نقوم به؟

علينا أن نكون روسيين أولاً وقبل كل شيء. فما دامت القوميّة الروسيّة تعني الإنسانيّة فيتوجب على كل منا وقبل كل شيء أن يكون روسياً بكل معنى الكلمة، عندها ومع هذهِ الخطوة الأولى سيتغير كل شيء. إن تصبح روسياً يعني أن تتوقف عن احتقار شعبك، وحين يرى الأوربيّ أننا بدأنا نحترمُ شعبنا وقوميتنا، سيبدأ باحترامنا على الفور. وبقدر ما نطور بقوة واستقلاليّة روحنا القومية، تستجيب الروحُ الأوربيّة لنا ونصبحُ مفهومين

مـن قبلـها أكثـر فـأكثر، وعنـدها لـن تـستدير بوجههـا عنـا متعجرفـة متكبّرة، وستستمع إلينا ونبدو لها آخرين. باهتمامنا «بأنفسنا».

سنكـشفُ عـن مظهرنـا الإنـساني، وتبـدو علينـا سمـاتُ الكـائن الحـر ولـيس العبـد، فـلا نكـون تـابعين أو بوتـوغيين[٥]، ويعتبروننـا بـشراً، لا ستريوتـسكيين أوربـيين، أو ستريوتـسكيي الليبراليّـة أو الاشـتراكية. سنتكلم بذكاء أكثر مما نفعل الآن، لأننـا سنبحث عن كلمات جديـدة في روحنـا، في أعمـاق شـعبنا، كلمـات تكـون مفهومـة مـن قبـل الأوربـيين بالتأكيـد. نعـم، حينهـا سنفهم أن الكـثير ممـا احتقرنـاه في شـعبنا، لـيس ظلاماً بل نـوراً، ولـيس غبـاءً، بـل عقلانيـةً، عنـد ذلـك سننطقُ في أوربـا تلـكَ الكلمـةَ الـتي مـا سمعوهـا مـن قبـل. وسـيكونُ لنـا أن نتأكـد بـأن الكلمـة الاجتماعيـة الحقيقيّة ليست سـوى - شـعبنا ذاتـه، الـذي يكمـنُ في أفكـاره وروحِـهِ المطلـبُ الحـيُّ لوحـدةِ الإنـسانيّة علـى أسـاسِ الاحـترام الكامـل للخصوصيات القوميّة، والحفـاظ عليهـا، وعلـى حريّـة النـاس غير المنقوصـة، بمـا تعنيـه هـذه الحريّـة مـن وحـدة الحـبُ الـذي يضمنُهُ العمـل والمثُـل الحيّـة، والحاجة إلى الأخوّة الصادقة بشكلٍ فعلي، وليس الحاجة إلى المقصلة وقطع رؤوس الملايين...

هل أردتُ بأقوالي السابقة يا ترى أن أقنعَ أحداً؟ لقد كانَ ما قُلتُهُ مُزاحاً وللإنـسانُ علـى العمـوم نقـاط ضـعفه، علـى كـل حـال، عـسى أن يقـرأ هـذا الكـلام بعضُ الناشئة، بعضُ الشبابِ من الجيل الجديد..

شباط

الحل الروسي للمسألة

إذا أحسست أن من الصعب عليك «الأكل، والشرب، والبقاء بلا عمل، والذهاب إلى الصيد»[١]، إذا شعرت بهذا فعلياً، ثمّ شعرت بالشفقة على «الفقراء» الكثيرين أعطهم ما تملك، وإذا أردت التضحية لأجل الفائدة العامة فاذهب للعمل عند الجميع «وستحصل على الثروة في السماء، هناكَ حيث لا يكنزونَ الثروة ولا يتطاولون على أحد»[٢]، افعل إذاً مثل السيّد «فلاس»، الذي يقول:

قوّة الروح العظيمة كلها
أنفقت في سبيل الرب

وإذا أردتَ مثل «فلاس» الوصول إلى معبد الرب فاهتم بتعليم روح هذا المسكين وتنويره، أنر دربه وعلمه: إن توزيع ثروة أغنياء العالم كلها «على الفقراء» ليست أكثر من نقطة في بحرٍ إذا ما قيسَ هذا العمل بالتعاليم والتنوير وتقوية الحب، وعندها تزدادُ الثروة الحقيقيّة، الثروة التي لا تكمُنُ في الأثواب الذهبيّة، بل في سعادة كل فرد في الوحدة العامة للمجتمع، في الأمل القوي الذي يختلج في نفس الرجل: إن هناك من يقدم له المساعدة في مآسيه وفي لحظات حاجة أطفاله. لا تقل: ما أنا إلا جزيئة ضعيفة، وإذا قدمت وحدي ما أملك ووزعته على الناس، ورحت أقدّم الخدمة فلنَ أصحح شيئاً لن أدفع بشيء إلى التقدم، لا، العكس هو الصحيح، فلو وجدَ معقولٌ من أمثالك لا نكسر الجمودُ وسارت الأمورُ إلى الأمام. وعملياً لا حاجة

«حتميّة» لتوزيع الملكيّة - لأن كل «حتميّة» في مجال الحب تشبهُ البزّة الرسميّة، العنوان، الحرفيّة.

يجب أن تكون لدينا القناعة بأن التنفيذ الحَرْفي والشعاراتيّة يقودان إلى الانحدار بالنفس، إلى الشكلانيّة والكسل. يجب أن تفعل ما يمليه عليك قلبك فقط:

أمركَ أن توزّع الملكيّة - وزّعها، أمركَ أن تذهب إلى العمل لحساب الجميع - اذهب. وهنا لا تكن كبعض الحالمين ممن يندفعونَ فوراً لجر العربة اليدويّة قائلين:

«لسنا من السادة، وعلينا أن نعمل كالفلاحين الكادحين». إن العربة اليدويّة هذهِ بمثابة البزة الرسميّة التي تحدثنا عنها.

الأمرُ ليس على هذه الصورة، فلو شعرتَ أنكَ ستكون مفيداً للناس لو كنت عالماً.. فاذهب إلى الجامعة فوراً وامتلك الوسيلة. إن توزيع الملكيّة وما شابه ليس أمراً ضرورياً، بالمعنى الحرفي والشكلي، لكن المهم والضروري هو «إصراركَ على فعل كل شيء من أجل الحب الفعّال». إن ما هو ممكن بالنسبة لك كليّاً، هو ما يمكنك أن تعترف أمام نفسك بإمكانيتِهِ. ومثابرتُكَ كلّها «مُغتَفَرة»، لكن الانفعال هو ما لا يغتفر، لأن فيه شيئاً من الجلافة، في العلاقة مع الناس، وسيُعدّك الآخرون راغباً في إذلالهم، إنكَ أكثر «تعقيداً» من أن تطلب المغفرة وحتى مستوى تعليمك لا يخولك بل لا يسمح لك أن تكونَ فلاحاً، فالأفضل إذاً أن ترتفع بهذا الفلاح الكادح إلى سويّتك «المثقفة، الصعبّة»، على أن تكون صادقاً وبسيطاً في تعاملك، وهذا بحد ذاته أفضل من أي شكل من أشكال طلب «الغفران». ولا تجعل الخوف يتسرب إلى أعماقك، ولا تقل: «يد واحدة لا تصفق».

فمن أرادَ الحقيقة صادقاً كانَ قويّاً جداً. لا تقلّد بعض الثرثارين، ممن يتكلمون بشكلٍ متواصل، لا لشيء إلا كي يسمعوا الناسَ أصواتهم: «لا

يسمحون لنا أن نفعل شيئاً، يكبلون أيدينا، يدخلون إلى أرواحنا اليأس والخيبة»... الخ... الخ كل هؤلاء ثرثارين، إنهم أشبه بأبطال القصائد الرديئة، إنهم يصورون أنفسهم كسولين. إن من يرغب بتقديم الفائدة، قادر على فعل الكثير من الأعمال الخيّرة، حتى وهو مقيّد اليدين. إن فاعل الخير الصادق ما أن يضع قدميه على هذا الطريق حتى يرى كماً كبيراً من الأعمال تنتظرُ من يقوم بها، فلا يشتكي من أنهم لا يمنحونه شيئاً يفعله وعندها سيبحث... ويقدّم الكثير. هذا ما يعرفه الخيّرون الحقيقيون جميعاً.

إن الشكوى من اليأس غبيّةٌ حقّاً لأنَ السعادة التي تجلبها لكم رؤية مبنى يشيّد قادرة على إطفاء ظمأ الروح... وكل ظمأ، حتى ولو لم تشاركوا - إلى هذه اللحظة - إلا بإحضار عددٍ قليل من حبات الرمل إلى هذا المبنى. وعندها ستحصلون على جائزة واحدة إذا كنتم تستحقّونها، ألا وهي الحب. وحتى لو كنتم لا تطمحون إلى الجوائز وتقومون بأعمال نابعةٍ من الحب، فهذا يعني أمراً واحداً وهو أنكم لا يمكن إلا أن تطمحوا إلى الحب. ولنفرض أنهُ ما من أحدٍ قد قال لكم: عليكم أن تفعلوا كل ذلك دون حب، أي من منطلق المنفعة الشخصيّة، وألا أجبرتم على ذلك، ولنفترض ذلك، لكن مهما يكن علينا أن نزرع في روسيا قناعات أخرى تماماً، وبخاصة فيما يتعلق بمفاهيم الحريّة والمساواة والأخوّة.

يظنون في العالم الحالي أنّ الحريّة تكمُنُ في عدم الطاعة، متجاهلين أن الحريّة الحقيقيّة تكمُنُ في التغلب على نفسك وعلى إرادتك من أجل أن تحقق في النهاية تلك الحالة الأخلاقيّة، أن تكون دائماً وفي أي لحظة المسؤول الحقيقي عن نفسك، بينما تقودكَ أمنيتكَ في عدم الطاعة إلى عبوديّتك: وربّما لهذا يظن العالم الحالي أن الحريّة تتجلّى في توفير النقود، وفي القوانين التي تضمن توفير هذه النقود: «النقودُ موجودة، هذا يعني أنني

قادر على فعل كل شيء مناسب. النقودُ موجودة، فهذا يعني أنني لن أموت، ولن أطلب مساعدة أحد. فالحريّة العليا إذاً هي ألا أطلب المساعدة من أحد».

إن ذلكَ في جوهره ليس حريّةً، بل عبودية محضة، عبودية للمال. إن الحريّة العليا الحقيقيّة عكس هذا تماماً، إنها لا تعني جمع النقود وتوفيرها لنفسك، بل تعني: «أن توزّع ما تملك على الجميع، وأن تخدمَ الجميع». إذا كان الإنسان قادراً على مثل هذا ،فهو قادر أن يتغلب على نفسه إلى هذه الدرجة - فهل هو بعد كل ذلك ليسَ حراً؟! إن ما ذكرتُهُ تعبيرٌ عن أعلى درجات الإرادة. ثمّ ما هي المساواة في العالم المتعلم الحالي؟ المساواة: هي مراقبة الناس بعضهم بعضاً بكثير من الحسد والغطرسة: «هو ذكي، هو شكسبير[٣]، هو يتميّز بعبقريّته: لذلك يجب الحط من قدر هذهِ العبقريّة واستهلاكها» هذا ما يرونه! بينما تتجلّى المساواة الحقيقيّة في قولك: «هل من ضير أن تكونَ عبقرياً ذكياً وجميلاً أكثر مني؟ على العكس إنني أبتهج ذلك لأنني أحبك، ربما أنا أقل شأناً وقدراً منك، لكنني كإنسان أحترم نفسي، وأنت تحترمني، وأجدني سعيداً باحترامك لي، ولهذا فإن كان بإمكانك أن تجلب المنفعة لي وللناس أكثر مما أستطيع إن أفعل فأنا أباركك وأبدي إعجابي بك، ولا أعتبر ذلك مخجلاً، بل أنا سعيدٌ بأن أقدّم لك الشكر، وأن أعمل لأجلك ولأجل الجميع حسب إمكاناتي المتواضعة، ولن يكون ذلك انتصافاً منكن بل أفعل ذلك لأنني أحبكم جميعاً.

إذا تكلّم الناسُ كلهم بهذهِ الطريقة، فإنهم سيصبحونَ أخوة، ليس طبعاً بسبب المنفعة الاقتصاديّة فحسب، بل بسبب امتلاء الحياة بالسعادة والحب.

سيقولون، إن كل ذلك ضربٌ من الفانتازيا، وهو يُمثّل «الحل الروسي للمسألة»، وهو ممكن الحدوث فقط في «مملكة السماء»، وأمثال الـ «ستيفيات» سيغضبون جداً فيما لو دنت مملكة السماء[٤] وعلى الرغم من

ذلك لو نظرنا إلى هذا «الحل الروسي للمسألة» لوجدناهُ أقل خيالاً وأكثر احتمالاً من الحل الأوربي.

لقد رأينا أولئك الناس، أقصد أمثال «فلاس» ونراهم في كل الفئات الاجتماعية وبشكل غير قليل، أمّا «إنسان المستقبل» المحلي فلم نره حتى الآن، ولكنّه قد وعد بالقدوم بعد أن يجتاز أنهاراً من الدماء. ستقولون لا يمكن لفردٍ أو لعشرات الأفراد ممن يحملون تلك الصفات أن يساعدوا في شيء. وإنّما نحتاج أن نحقق الأنظمة العامة والمبادئ المعروفة، لكن حتّى لو كانت تلك المبادئ والأنظمة موجودة، بما ييّسرُ بناء المجتمع بلا أخطاء، حتى ولو كان من الممكن الوصول إليها بلا تجربة مسبقة، من خلال أحلام القلب وبعض الأرقام «العلميّة» والإحصاءات التي تخصُ نظام المجتمع السابق فإن كل هذهِ المبادئ والقواعد والأنظمة لن تصمد ولن تنفّذ دون بشرٍ مجهّزين ومعدّين لهذه الغاية، بل على العكس ستصبحُ هذهِ الأمور شاقة وصعبة على الناس.

إنني أثقُ ثقة بلا حدود بالجيل القادم، بالمبتدئين، بالذين تكلّمت عنهم أعلاه، والذين لم يُدمنوا على الخمرة والمشروبات الكحوليّة، وهم موزعون حتى الآن بشكلٍ مخيف إلى معسكراتٍ وجماعاتٍ وفق قناعاتهم، لكنهم جيمعاً يبحثون عن الحقيقة، ولو استطاعوا أن يحددوا أين هي فإنهم على استعدادٍ تامٍ للتضحية بكل شيء بحيواتهم كي يصلوا إليها.

كونوا على ثقةٍ تامة أن هؤلاء الناس - فيما لو وضعوا أقدامهم على الطريق الصحيح - سيصلون إلى الحقيقة، سيجدونها في نهاية المطاف، وسيسير الجميعُ خلفهم عند ذاك، ليس بالقوّة، بل بالإرادة الطيّبة، وبحريّةٍ تامة. هذا ما يستطيعُ الأفرادُ فعلهُ في البداية، الفرد من هؤلاء كالمحراث الذي سيحرث «أرضنا البكر[٥]». ولهذا أيّها السيّد قبل أن تقرأ على الناسِ دروساً: «كيف عليهم أن يكونوا»، دعهم يرونك تفعل ذلك. ابدأ بنفسك

وستجدهم خلفك. أين الطوباوية هنا؟ وأين المستحيل؟ أنا لا أفهم! صحيحٌ أن فينا فاسدين ومتخاذلين جداً ولهذا لا نثق بأنفسنا ونسخر من هذهِ الأفكار لكن جوهر الموضوع لا يتمثل فينا بل في الأجيال القادمة.

شعبنا نظيف القلب، لكنهُ بحاجة ماسة للتعليم. نظيفو القلب موجودون بيننا نحن، وهذا مهمٌ جداً! وهذا ما يجب أن نثق به قبل كل شيء، وهو بحاجة لدقّة الملاحظة.

وإن كان من حقّي أن أوجّه نصيحةً إلى طيّب القلب فأقول: رباطةُ الجأش والانتصارُ على النفس أولاً وقبل أي خطوة - جرّب ذلك على نفسك قبل أن تجبرَ الآخرين على فعل ذلك وهذا هو سرٌّ الخطوة الأولى.

آذار

الشعب الروسي نما إلى درجة الفهم السليم للمسألة الشرقية من وجهة نظره

على الرغم من أن ما سأقوله يبدو مجحفاً جداً، لكن الاستبداد التركي في الشرق طوال أربعة قرون كان مفيداً؛ فقد أسهم في تقوية المسيحية، والأرثوذكسية، والأهم من ذلك أنه ساعد على وحدة المسيحيين، مثلما أسهم الاستبداد التتري من قبل- في روسيا، خلال قرنين من الزمن في تقوية الكنيسة:

لقد رأى المسيحيون الشرقيون المعذبون في المسيح عزاءهم الوحيد، وفي الكنيسة الأمل الأخير والوحيد، اللوح الخشبي المتبقي من السفينة المحطمة...

ولقد تمكنت الكنيسة بالفعل أن تحافظ عليهم كقومية، مع أن جزءاً منهم وبفعل إيمانهم بالمسيح وتسامحه- انصهروا وذابوا في المنتصرين، ونسوا أصلهم وتاريخهم القديم. ولقد فهمت الشعوب المسيحية الشرقية ذلك ونظر الشرق المسيحي الكبير- لا إرادياً- وبتوسل إلى روسيا البعيدة، بعد سقوط القسطنطينية، روسيا التي خرجت للتو من العبودية التترية، وكأنه يتوقع ما ستبلغه من عظمة في المستقبل، أساسها القدرة على القيام بدور المركز الموحد وتحقيق النجاة لتلك الشعوب. لقد تسلمت روسيا فور انعتاقها راية الشرق دون أن تتردد، ورفعت النسر ذا الرأسين أعلى من شعارها القديم، وكأنها بذلك تأخذ على عاتقها أن تحافظ على الشعوب الأرثوذكسية كلها من الهلاك، ولقد امتثل الشعب الروسي كله للمهمة التي حملتها روسيا والقيصر على عاتقهما بغية حماية مصائر العالم المسيحي الشرقي جميعه، ومنذ ذلك الحين أصبحت

تسمية القيصر المحببة لشعبه هي: «الأرثوذكسي» -«القيصر الأرثوذكسي وكأني بالشعب يعترف من خلال هذا الاسم بدور القيصر: الحامي والموحد، وحين تدعو الإرادة الإلهية سيكون هو بالتأكيد محرر الأرثوذكسية. بل المسيحية كلها من البربرية الإسلامية والمرتدين الغربيين. ومن الجدير ذكره أن آمال وثقة شعوب الشرق راحت تتحقق منذ قرنين من الزمن وبخاصة منذ بطرس العظيم، حيث لمع سيف روسيا أكثر من مرة في الشرق دفاعاً عن تلك الشعوب[1]، وكان من البدهي أن ترى في قيصر روسيا ليس محرراً لها فحسب بل قيصرها المستقبلي أيضاً، لكن ما حدث عند تلك الشعوب أيضاً هو ما حدث عندنا نحن الروس فقد ظهر التنوير والتأثير الأوربي، وأصبحت الفئة المثقفة، الفئة العليا في الشعب تظهر اللا مبالاة تدريجياً بالأفكار الأرثوذكسية، حتى إنها لم تعد تعترف بأن الأرثوذكسية تتضمن التجديد والانبعاث في حياة جديدة عظيمة ليس لروسيا فحسب، بل للشرق كله.

فعندنا على سبيل المثال- أصبح الجزء الأكبر من الفئة المثقفة لا يرى فيما سبق وشرحنا دور روسيا الرئيس، ونداء المستقبل، والقوة الحياتية الأساس بل على العكس من ذلك، إن هذا النفر من المثقفين أصبح يرى كل مبتغاه في الأفكار الجديدة والفلسفات الجديدة، وأصبحوا وفق النظرة الغربية- يرون في الكنيسة طقوساً شكلية ميتة، ومنذ نهاية القرن الماضي ما عادوا يرون فيها إلا الخرافات والنفاق، ونُسيت التعاليم حول الروح والقوة الحية، وظهرت أفكار غربية ذات طابع اقتصادي، وأفكار وتعاليم سياسية، كما ظهرت أخلاقيات جديدة تطمح إلى إصلاح القديمة والسمو أعلى منها. وتتالت إنجازات العلم الذي لم يستطع إلا أن يزيد عدم الثقة بالأفكار القديمة.. وأصبحت تستيقظ- عدا كل ذلك- أفكار قومية في شعوب الشرق: فباتوا يشعرون بالخوف من الانعتاق من السيطرة التركية لكي لا يقعوا تحت السيطرة الروسية، وعلى الرغم من ذلك لم تمت أبداً- لا في الشعب الروسي العظيم ولا في قياصرته- رغبة تحرير الشرق وتحرير أفكار الكنيسة المسيحية.

إن الحركة التي عمت الشعب الروسي الصيف الماضي، أثبتت أنه لم ينسَ آماله ومعتقداته القديمة، حتى إن الجزء الأكبر من الفئة المثقفة فوجئ بهذه الحركة، ولم يتعامل معها بجدية وثقة بل بكثير من الريبة، وراح يؤكد للجميع ولنفسه مستهزئاً أن هذه الحركة مفتعلة ومحركة من قبل أناس ذوي نوايا سيئة يطمحون إلى ارتقاء مناصب أعلى ومقاعد جميلة!

ولو تحدثنا بموضوعية شديدة: من يستطيع في الوقت الحاضر من المثقفين-ما عدا نخبة صغيرة- أن يتصور أن شعبنا قادر عن «وعي» استيعاب رسالته السياسية والاجتماعية والأخلاقية؟ وكيف كان بإمكانهم أن يفترضوا أن هذه الكتلة السوداء من العامة، التي لم تخرج من ربقة نظام الرق إلا حديثاً، والغارقة الآن في تعاطي الفودكا، تعرف وتثق بأن رسالتها هي خدمة المسيح، ورسالة قيصرها- هي حماية العقيدة المسيحية، وتحرير الأرثوذكسية (لنفترض أن هذه الكتلة تسمي نفسها مسيحية (فلاحية)، لكنها لا تحمل تصوراً واضحاً عن الدين، وعن المسيح، حتى إنها لا تعرف الصلوات «العادية» - هذا ما يقوله الناس العاديون عن شعبنا... لكن مَنْ بالتحديد يقول ذلك؟! هل هو الكاهن الألماني الذي يدعوا بيننا إلى «الشتوندية»[٢] هل هو المراسل الأوربي لصحيفة سياسية، أم ذلك اليهودي المتعلم، من أولئك الذين لا يؤمنون بالله، والذين تكاثروا لدينا في الفترة الأخيرة كالفطر! أم أنه شخص ما ترك روسيا مهاجراً وراح يتصورها من الخارج عجوزاً معربدة تحملُ زجاجة الخمر في يدها؟! للأسف لا! ليس واحداً من هؤلاء! إن ما سمعناه هو ما يفكر فيه جزء كبير من أبناء مجتمعنا نفسه، وهم ينسون أن شعبنا وحتى ولو كان يجهل الصلوات ككلمات أو ألفاظ، إلا أن جوهر المسيحية وروحها وحقيقتها أشياء تجري في دمه، وتزداد قوة فيه، أكثر مما يحدث عند أي شعب آخر من شعوب العالم، إن الأوربي غير المبالي بالعقيدة الروسية أو الكافر بها، لا يفهم عقيدتنا إلا بصورة

شكلانية فيها ما فيها من النفاق، إنه يتصور أن الروسي لا يفقه بالعقيدة، ويصلي للوحة خشبية عندما يكون بحاجة إلى ذلك، وهو في داخله غير مبالٍ، وروحه مقتولة بالشكليات. لم يلاحظ ذلك الأوربي فينا الروح المسيحية، لأن الأوربيين قد فقدوا تلك الروح منذ زمن بعيد، ولا يدركون أين مكامنها وكيف تسري. إن شعبنا غير المتنور «المتسيب»، يحب الذليل والمستضعَف وقد حافظ في حكاياته وأساطيره على قناعة مفادها أن ذلك المستضعَف والرقيق الذي يُعاني ويتحمل لأجل المسيح، سيوضع في مرتبة أعلى وأسمى من الأقوياء والعارفين، حينما تحل مشيئة الرب. إن شعبنا هذا يحب أيضاً في أحاديثه أن يروي قصص القديسين والأبطال المسيحيين من أمثال (إيليا موراموتس) المناضل من أجل الحقيقة، ومحرر الضعفاء والفقراء. فهل يعقل مثلاً ألا يثق شعبنا هذا بانتصار الشعوب المهانة، بانتصار أخوتنا في الشرق؟!

إن شعبنا يحترم ذكرى نُسَّاكه وزهاده العظام الوديعين، ويروي لأطفاله قصص المعذبين المسيحيين، يتعلم هذه القصص ويرويها، وكم تركت شعوراً كبيراً في الارتياح والسعادة في قلبي عندما كنت أسمعها، وهذا الشعب نفسه وفي كل عام يفرز من أبنائه عظماء تائبين (فلاسوفيين)، ينفقون أموالهم وما ملكوا لأعمال الخير والأعمال العظيمة الأخرى لدفع الفقر والعوز عن غيرهم..

إن هذا الشعب سيبلغ ذات يوم المرحلة التي تجعل العالم يبدأ بفهمه، ويحسب له الحساب؛ تجعل العالم يدرك أن هذا الشعب يعني الكثير وأن ليس بالإمكان الاستغناء عنه ولا سيما في اللحظات التاريخية المهمة سيفهم الجميع أن روسيا (شعبيةً) ليست مثلاً كالنمسا، وأنها في كل لحظة تاريخية مهمة من حياتها قسمت أمورها بالروح الشعبية بوجهات نظر الجماهير، في وحدة تامة مع قياصرتهم. إن هذه حقيقة تاريخية مهمة لا تعيرها الفئة المثقفة أي اهتمام، ولكنها ستتذكرها فجأة عندما تدوي اللحظة التاريخية!

آه لقد شردت.. كنتُ أتحدثُ عن القسطنطينية!

نيسان

حلمُ رجلٍ مضحك

«قصة خياليّة»

I

أنا رجلٌ مضحك، وهم ينعتونني الآن بالمجنون، وقد كانَ من شأن هذا النعت أن يكونَ رفعاً من قَدري لو أنّهم تراجعوا عن اعتباري مضحكاً، كما فعلوا في السابق. لكنني بعد اليوم لن أغضبَ عليهم، فجميعُهم لطفاء بالنسبة لي حتى وهم يهزؤون بي، بل لعلهم يصبحونَ أكثر لطفاً حين يفعلونَ ذلك. ولو لم أكن شديد الحزنِ وأنا أنظر إليهم لضحكت معهم - ليس على نفسي بالطبع - ولكن لكي أُسرّي عنهم، شديد الحزنِ لأني أراهم يجهلونَ الحقيقة، بينما أعرفُها أنا، ما أصعَبَ الأمر على من يعرف الحقيقةَ وحده، إنهم لن يفهموا ذلك. لا. لن يفهموا.

فيما مضى تألمتُ كثيراً حين بدوتُ مضحكاً، لماذا أقولُ بَدَوت، لقد كنت مُضحكاً، دائماً كنتُ مضحكاً، وأعلمُ ذلك، رُبّما منذُ ولادتي كنتُ كذلك، ولعلّي عرفت هذا في السابعة من عُمري. بعد ذلك درستُ في الثانويّة، ثُمّ في الجامعة وكنت كلّما تعلّمت أكثر، أيقنتُ أنني مُضحك، حتى لكأن دراستي الجامعيّة كُلها ما وُجدت إلا لتبرهِنَ لي

وتقنعني - على قدرِ تعمّقي في العلوم - بأنني مُضحك. سواءً في العلم أو الحياة. وعاماً بعد عام كنت أزدادُ يقيناً بأن لي شكلاً مضحكاً في شتّى المجالات. لقد ضحكَ عليّ الجميعُ وفي كل مكان. وما عرفَ هؤلاء أبداً أنّه إن كان ثَمّةَ من يدرك أكثر من الجميع على الأرض كَمْ أنا مضحك فهذا الشخص هو أنا بالذات. وقد أغضبني كثيراً أن أحداً منهم لا يعرف ذلك، ولعلّي كنتُ مُذنباً في هذا الشأن: فقد كنت دائماً عزيز النفس، ممّا منعني دائماً أن أعترفَ لأحدهم بذلك. وقد نمت عِزّة نفسي هذهِ مع السنوات، ولو حدث في يومٍ من الأيام أن اضطررتُ للاعترافِ بأنني مضحك أمام شخصٍ ما لهشّمت جمجمتي بطلقة مُسدّس في مساء اليوم ذاته. كم تعذّبتُ في مُراهقتي من أنني قد لا أستطيع التحمّل وأعترف أمام رفاقي بأنني مضحك. ولكن منذ أصبحتُ شاباً - وعلى الرغم من ازدياد معرفتي عاماً بعد عام بنوعيّتي الغريبة - بدأت أصبحُ لسبب ما أكثر هدوءاً واطمئناناً.

وما كل ذلك إلا لجهلي التام بحقيقة حالتي هذه، رُبّما يعودُ الأمرُ إلى تلك التعاسة الغامرة التي سيطرت علي إثر حالةٍ أقوى منّي، حالةٍ اقتنَعْتُ فيها بشكلٍ راسخٍ وثابت أن لا شيء في هذهِ الحياة «يستحقُ الاهتمام»، كان الأمرُ فيما مضى مجرّد شكٍ، لكنني اقتنعتُ بعد ذلك قناعةً كاملة، وأيقنتُ فجأةً بذلك يقيناً لا مَحيد عنه. بغتةً شعَرتُ أنني لستُ معنياً سواءَ وجد هذا العالَمُ أم لم يوجد. وبدأتُ أشعُرُ وأحسُ بكل جوارحي «أن لا شيء قد وجِدَ أثناء وجودي أنا». في البداية كان قد تراءى لي أن أشياءَ جَمّة قد وجدت من قبلُ، ثمّ أدركتُ أن لا شيءَ من قَبلُ قد وجد أيضاً، ولكن لسبب ما تراءى لي ذلكَ الوجود. وشيئاً فشيئاً أيقنتُ أن لا شيءَ أبداً سيكون.

وعند ذلك أصبحتُ فجأةً لا أغضبُ من الناس، بل ما عدتُ ألاحظُ وجودَهم. وقد تجلّى هذا في بعض التفاصيل الصغيرة جداً: مثلاً، إنني كنت أسيرُ في الطريق فأصطدمُ بالناس، والأمرُ ليسَ بسبب استغراقي في التفكير: فبماذا سأفكر، يومها كنتُ قد توّقفت عن التفكير في أي شيء: لقد استوت الأمور كلها في عينيّ، وما عدتُ أهتمُ لأمرٍ ولا فكّرت في حلِ سؤال واحد؟ ثُمّ هل كان ثمّة أسئلة شغلتني؟ «لم أكن معنياً بشيء» ولهذا تناثرت الأسئلة مبتعدة. وهكذا بعد كل ما سبق عَرفتُ الحقيقة. عَرفتُها في تشرين الثاني الماضي، وبالتحديد في الثالث منه، ومنذ ذلك الحين لم انسَ لحظةً من تلك اللحظات. كان ذلكَ في ليلةٍ حالكة، ليلةٍ ما عرفتُ أكثر مِنها ظُلْمَةً. كنتُ عائداً في الحادية عشرة إلى منزلي وأذكرُ تحديداً أنني فكّرتُ أن من المستحيل وجود ظلامٍ دامسٍ كهذا، حتى من وجهةِ النظر الفيزيائيّة. كان المطَرُ قد تساقط طوال النهار، وكان من أكثر الأمطار برودةً وكآبةً، بل تهديداً، وعدائيةً للناس، أذكرُ ذلك، ثُمّ ها هو ذا يتوقف فجأةً قرابة الحادية عشرة ليلاً، وترتَفعُ من الأرضِ رطوبةٌ أشدُ برودةً مما كان المطرُ قد صنعه، ويتعالى بخارٌ ما، من كل بلاطة في الشارع، ومن كلِ زقاقٍ يفضي إليه وتراهُ حين تُرسِلُ نظرك إلى البعيد. عندها تهيأ لي أن انطفاءَ مصابيح الغاز كلها سيبعثُ الفرح، لأنها على هذهِ الصورة تضيءُ وتظهر كل هذا الحزن. لم أكن قد تناولتُ طعام الغداء ذلك اليوم، ومنذ بداية المساء جلستُ عند مهندسٍ وبصحبتِهِ رفيقيه.

وبقيت طوال السهرةِ صامتاً، مما بعثَ في نفوسهم المللَ مني. تحدّثوا في أمور مثيرة ثُمّ استولت عليهم الحماسة، لكنّهم كانوا في حقيقة الأمر يتصنّعون ولم يكن يهمّهم ما يتجادلون حوله، وقد انتبهتُ إلى ذلك. فقلتُ لهم فجأةً: «أيّها السادة، إنكم في حقيقة الأمر لا تكترثون»

لم يغضبوا مني، لكنّهم جميعاً ضحكوا ساخرين، رُبّما لأنني قلتُ ما قلته دون أي لوم، ولأنني ببساطة لم أكن معنيّاً بشيء. رأوا ذلك فغلبَ عليهم المرح.

حين فكّرت في مصابيح الغاز وأنا في الطريق رفعتُ عينيَ إلى السماء، كانت شديدةُ الُحلكة، وبصعوبة يمكن تمييز مِزَق الغيوم، وبينَها بقعٌ سوداء عميقة، في إحدى تلك البقع استطعتُ أن أرى نجماً صغيراً فرحتُ أحدّقُ به متأمّلاً، لقد أيقظَ النجمُ فيّ فكرةً: في تلك الليلة قررّتُ الانتحار، قبل شهرين منها كنتُ قد صممّتُ على قتل نفسي، وعلى الرغم من فقري الشديد اشتريتُ مسدّساً رائعاً، وحشوتُهُ في ذلك اليوم نفسه. ثُمّ مَرّ شهرانِ والمسدّسُ مرميٌّ في الدُرج، وقد بلغتُ من شدّة عدم اكتراثي أن تمنيتُ في النهاية أن أقبضَ على دقيقة واحدة أحسُ فيها أن شيئاً ما يستحقُ الاهتمام، لماذا؟ لا أدري. وهكذا وخلال ذينك الشهرين كنتُ أعودُ إلى البيت كل يوم وأفكر بالانتحار. وأنتظر اللحظة المناسبة.

والآن يمنحني هذا النجم فكرةَ، أن أنفّذ ما عقدتُ عليه العزم في هذهِ الليلة «بالذات». أما لماذا قَدّم لي النجم هذهِ الفكرة - فلا أعلم!

وفي اللحظةِ نفسها التي كنت أنظرُ فيها إلى السماء، امسكت طفلةٌ كُميّ. كان الطريقُ قد أقفَرَ، وما من أحدٍ فيهِ تقريباً. بعيداً عني غفا حوذيٌّ على مقعده، الطفلةُ كانت في الثامنة، تغطي رأسها بمنديل، وَتستَتِرُ بثوبها فقط، وهي مبللة تماماً، وقد لفتَ انتباهي حذاؤها المثقوبُ المبلل ولا زلتُ أذكُرُ منظرهُ الآن. ولقَد تسمّرتِ عيناايَ على منظر قدميها في الحذاء. راحت البنتُ تشدّني من كُمّي وتستنجدُ بي. لم تكن تبكي، ولكنّها لشدّة عصبيتها غرغرت ببعض الكلمات التي لم تستطع نطقها جيداً، بسبب البردِ وارتجافِها بقوة. بدت مذعورةً لأمرٍ ما، ثم صَرخت يائسةً: «أُمّي، أُمّي الحبيبة التفتُ نحوها ولم أقل شيئاً بل تابعتُ مَسيري،

ركضتْ خلفي، وهزّتني، وتعالى صوتها كما يمكن أن تسمع من الأطفال المرعوبين اليائسين، أعرفُ أنا مثل هذا الصوت. وعلى الرغم من أنها لم تقل ذلك فقد توقعت أن أمها تحتضرُ في مكان ما، أو أن شيئاً خطيراً حصلَ لهما فانطلقت تستنجدُ بشخصٍ ما، علها تجدُ أحداً ما يساعدها. لكنني لم أذهب معها، بل راودتني فكرةُ نَهْرِها. قلتُ لها في البداية أن تبحثَ عن شرطي. ولكنّها أسرعت تضمّ يديها الصغيرتين وتتضرعُ مبتهلةً وتركض إلى جواري رافضةً تركي. عندها قرعتُ الأرضَ بقدمي ونهرتُها، فما زادت عن أن تصرخ بي: «سيّدي!.. أيّها السيّد»، وغادرتني فجأةً قاطعةً الطريق مسرعةً كالسهم، باتجاهِ شخصٍ آخر على الرصيف المقابل.

صعدتُ إلى الطابق الخامس حيث أقيمُ، في شقةٍ مفروشة عند صاحب المسكن. غرفتي صغيرةٌ فقيرة، لا نافذةَ فيها إلا نصف كوّة صغيرة. عندي أريكة، طاولة تحملُ الكُتب، كُرسيّان، مقعد يتيم مُهلهل، لكن من طراز فولتير. جلستُ. أشعلتُ شمعة ورحتُ أفكّر.

في الغرفة المجاورة كان الصخبُ مستمراً، لقد بدأ منذُ ثلاثةِ أيام. هناك يعيشُ كابتن متقاعد وقد زارَهُ هذه المرة ستة أشخاص أوغاد، شربوا الفودكا، ولَعِبوا لُعبةَ «الفرعون» بأوراقِ لعبٍ قديمة. في الليلةِ الماضية نشب بينهم عراك، وأنا أعلم أن اثنين منهما ظلاّ لفترةٍ طويلة يجُر كل منهما الآخر من شَعْرِه. وقد أرادت صَاحبةُ المنزل أن تشكوهم لكنّها كانت تخشى الكابتن كثيراً. لم يكن في الشقة - بالإضافة لنا - إلا سيّدة نحيفة قصيرة، هي أرملة أحد الضبّاط، وقد جاءَت إلى هذا المسكن مَع أبنائِها الصغار الثلاثة، الذين سرعانَ ما مَرِضوا. لقد كانوا يخشون الكابتن ويخافونه، مما يجعلهم يرتجفون ويرسمون إشارة الصليب طوال الليل، حتى أن الطفل الأصغر كان يعاني من نوبةٍ عصبيّة جَرّاء

الرعب، كنت أعلمُ أن هذا الكابتن يستوقفُ العابرين في شارع نيفسكي طلباً للصدَقة.

وما كان أحد يَدعوه للخدمةِ أو العمل، ولكن الغريب «وهذا ما دعاني لأتحدّث عنه» أن هذا الكابتن وقد مَرّ على سُكْناه مَعنا شهر كامل لم يُثرِ في نفسي أي شعورٍ بالنفور منه. لقد تجنّبتُ أي تعارفٍ بيننا منذُ البداية، مع أن مثل هذا الأمر لو حَدث لشعَرَ الرجلُ بالمللِ والضجرِ منّي منذ اللقاء الأوّل. لم أهتّم لأمرهم مهما صَرخوا خَلف جدارهم ومهما كان عددهم، كان الأمرُ بالنسبة لي سيّان. كنت أجلسُ طوال الليل وفي الحقيقة لم أكن أنصت إليهم أو أسمعهم - بل لقد نسيتُ وجودَهم. لقد أعتدتُ أن أجلس على المقعد إلى الطاولة طوال الليل دون أن أفعل شيئاً. أما فيما يتعلّق بالقراءة فقد كنت لا أقرأُ إلا نهاراً. أجلسُ فحسب ولا أفكّر، بينما تَمّرُ بخاطري بعض الأفكار، التي سرعان ما أحررّها لتذهب وفق إرادتها.

احترقتْ الشمعة كُلّها تلك الليلة. وأنا أجلسُ صامتاً إلى الطاولة، أَخرجتُ المُسدّس ووضعته على الطاولة أمامي، وتذكرتُ حين فعلتُ ذلك أنني سألتُ نفسي: «هكذا إذاً؟»، ثُمّ أجبتُ حاسماً: «نعم» أي سأنتحر. وكنت أَعْلَم أنني على الأرجح سأنتحر في تلك الليلة ولكن إلى متى سأجلسُ على مقعدي قرب الطاولةَ قبل أن أفعل ذلك لم أكن أعلم. ولا شك عندي أنني كنتُ انتحرت لو لم ألقَ تلك الطفلة في الليلةِ نفسها في الشارع.

II

على الرغم من أن الأشياء من حولي ما كانت تعنيني، إلا أنني كنتُ أُحسُّ - على سبيل المثال - بالألم.

فلو ضربني شخصٌ ما لشعرتُ بالألم. والأمرُ مُماثِلٌ فيما يتعلّقُ بالمسائِلِ الأخلاقيّة أو الوجدانيّة: فحين يحدُثُ شيءٌ محزنٌ جداً، أشعُرُ بحزنٍ عميق كما كان شأني عندما كنتُ أكترثُ بالدنيا من حولي. لقد شعرتُ بالشفقةِ منذُ قليل: كان بإمكاني أن أساعِدَ تلك الطفلة دونَ تردد، فلماذا لم أفعل؟ لعلّها تلك الفكرة التي انبجست عندما كانت البنت تشدّني من كُمّي وتدعوني لنجدتها، متمثّلة بسؤالٍ برزَ فجأةً نصب عيني وما استطعتُ حلّه، لقد كان سؤالاً نافِلاً لكنّه أغضبني، أغضبني بسبب نتيجتِهِ التي تقول: ما دمتُ سأنهي حياتي الليلة، فالأولى أن أُصبِحَ أقلَ اهتماماً بالدنيا في هذهِ اللحظات أكثر مما كنتُ في أي وقتٍ مضى. فلماذا شعرتُ فجأةً وبعد ما سبق بأنني أشفِقُ على الطفلة وأكترثُ لحالها؟ أتذكر أنني حزنت لأجلها وأشفقتُ عليها كثيراً، مّما لا ينسجِمُ مع وضعي وما أنا مقدمٌ عليه. حقيقةً.. لا أتمكَنُ من رسم المشاعِر التي سيطرت عليّ لحظتها. لكنّها مشاعِر لم تغادرني أبداً. وحين جلستُ إلى طاولتي في الغرفة، كانَ الغضَبُ في نفسي يضطرم كما لم يحدث لي منذُ سنواتٍ طويلة. وبدأتِ المحاكماتُ العقليّة تترى الواحدة تلوى الأخرى، وكنت أقلّبُ الأمور: إنني مادمتُ إنساناً، ولستُ صِفراً، ولم أصبح صِفراً بعدُ، فهذا يعني أنني أحيا،

وبالتالي يُمكنني أن أتألّم، وأغضبَ وأشعُرَ بالخزي مما أقترِفُهُ. طيّب! فإن انتحرتُ، ما الذي يعنيني بَعد سَاعتين، مثلاً، من شأن الفتاة، ومن الخزي ومن كلِ ما هو فوقَ سطح الأرض؟ عندها سأتحوّلُ إلى صِفر، إلى عَدَمٍ مُطلق.

وهل من المعقول أن مسألةَ إدراكي أنني بعد قليل لن أبقى موجوداً «على الإطلاق»، بالتالي فالعالم كُلّهُ لن يكونَ موجوداً، هل من المعقولِ إذاً أن هذا الإدراك لم يكن يؤثّر ولو قليلاً جداً على شعوري بالشفقة إزاء الطفلة، وشعوري بالعارِ من قِلّة الضمير التي ارتكبتُها؟!

لقد قمتُ بإهانةِ الطفلة البائسة حين قرعتُ الأرضَ بقدمي، وصرختُ بها، ومَا هذهِ الحقارة التي قمتُ بها والخَالية من مشاعِر التعاطف الإنساني «بهدفِ البرهان على أنني لم أعد أشعُرُ بالشفقة فحسب، بل لأثبتَ أيضاً أنني أستطيعُ أن أرتكبَ أي حقارة لأنني وبعد ساعتين سأغادرُ هذا العالم». هل تُصدّقون أن صُراخي كان لهذا السبب؟ أنا الآن واثقٌ تقريباً من ذلك. لقد تصوّرتُ بوضوحٍ تام أن الحياة والعالم الآن إنّما يتعلّقانِ بي. ويمكنني حتى أن أقول: لكأنَ العالمَ قد وجدَ لأجلي وحدي، فيكفي أن أطلقَ النارَ عليّ حتى يختفي العالم ولا يعودُ موجوداً، على الأقل بالنسبةِ لي، ولا أقول الآن أن لا شيءَ سيبقى في حقيقة الأمر للجميع من بعدي أنا، وما أن ينطفئ وعيي حتى يتلاشى العالَمُ كلّهُ في اللحظةِ نفسها كما يتلاشى شبح، لأن كل هذا ينتمي إلى وعيي أنا وحدي، رُبّما لأن هذا العالم كُلّه، والناسُ كُلّهم ليسوا سوى «أنا» وحدي. أذكُرُ أَنني استعرضْت وقلّبتُ كل هذهِ الأسئلة الجديدةَ جالساً إلى طاولتي، فأذهب فيها مذاهب شتّى واختَلقُ غيرها.

فقد تصوّرتُ - على سبيل المثال - أمراً غريباً جداً، كما لو أنني كنتُ قد عشتُ في الماضي على سطح القمر أو المريّخ، وارتكبتُ هناكَ عملاً شديد البشاعةِ والوضاعة، مما لا يمكن تصورّه، فصرتُ مخزيّاً مكللاً بالعار، بطريقةٍ لا يمكن تخيّل مثلها إلا في الكوابيس. ثُمّ وجدتُ نفسي فجأةً على سطح الأرض مع كلِّ تلك المشاعرِ والصور عَمّا ارتكبتُهُ على سطح ذلك الكوكب.

لكنني لن أعودَ إلى هناك لأي سبب كان، فأنا أنظر إلى القمر من الأرض - هل سأشعُرُ عندها بعدم الاكتراثِ لكل ما حدث هناك؟ هل سأحسُّ بالعار مما فعلتُهُ هناك؟ أسئلة نافلة لا جدوى منها، فالمسدّسُ يضطجعُ أمامي على الطاولة، ولا بدّ أنني سأنتحرُ، لكن تلك الأسئلة تثير في أعماقي النار وتمنعني من الموتِ قبل أن أحلّها. وبكلمة واحدة: لقد أنقذتني تلك الطفلة فالأسئلة تلك أبعدت المسدّس، وكان الوضعُ في غرفة الكابتن يجنَحُ إلى الهدوء والسكون. لقد توقفوا عن اللعب، واستعدّوا للنوم، وما عادت تصلني إلا بضعُ دمدماتٍ متقطّعة، أو شتائم متفرّقة. ثمّ أخذني النوم فجأةً على غير عادتي مَعه من قبل، نمتُ دون أن أحسّ بذلك. الأحلامُ، كما هو معروف أشياءُ غريبة[1] بعضُها يعرضُ لك رهيباً حاداً وجلياً بكل تفاصيله، كقطعةٍ نقديّةٍ تخرجُ من بين يدي الصائغ. وفي بعضها الآخر تسبَحُ عَبَر الزمانِ والمكان ولا تلتقطُ شيئاً، من الجلي تماماً أن ما يحرّك الأحلام فينا هو الرغبة وليس العقل، هو القلب وليس الرأس. وعلى الرغم من هذا فإن عقلي في أحيان كثيرة يلعب دوراً كبيراً في أحلامي، ويطرحُ أشياء عجيبة صعبة التفسيرا. من ذلك أن لي أخاً توفي منذ خمس سنوات، وهو يظهر في أحلامي أحياناً: فيشارك في أعمالي، ونشعرُ بمتعة كبيرة، وخلال كل ذلك لا يغيب عن بالي أن أخي هذا ميت ومدفون.

فكيفَ لا أشعرُ بالدهشة أنه على الرغم من موتِهِ يجلسُ إلى جواري ويشاركني أموري؟ لماذا يسمَحُ عقلي لهذا الأمر أن يحدث ويمّر؟ وعلى كل حال يكفي هذا.

وسأنتقلُ إلى حُلمي الذي رأيتُهُ. نعم الحلم الذي شاهدتُهُ في تلك الليلة، حُلمي ليلة الثالث من تشرين الثاني.

إنهم يسخرونَ مني ويرونَ أنه مجرّد حُلم. ولكن سواءَ كان ما رأيتُهُ حلماً أم لا فالأهمُ أنه أظهر لي «الحقيقة» سواها. وما دمتُ قد عانيتُ الحقيقة الأزليّة وعرفتُها وعرفتُ أن لا حقيقة، فما أهميّة أن أكون قد فعلتُ ذلك في الحلم أم اليقظة وليكن حُلماً، إن تلك الحياة التي تُعلونَ من شأنها كنتُ سأنهيها بطلقة مسدّس، لكن حُلمي، حُلمي أنا - حَمَلَ إليّ حياةً جديدةً، عظيمة، متجدّدة، وقويّة!

اسمعوا:

III

لقد قلتُ إنني نمتُ وما أحسستُ كيف حدث لي ذلك، لكأنني كنت لا أزال أقلّبُ تلك الأمور. ورأيتُ نفسي أمسك المسدّس، وأنا في وضعيتي نفسها وأسددُهُ إلى قلبي مُباشرةً - إلى قلبي وليسَ إلى رأسي، وكنتُ من قبل قد خططتُ أن أسددَ إلى صدغي الأيسر. وضعتُ المسدسَ إذاً في صدري وانتظرتُ ثانية أو اثنتين، فإذا بالشمعة والطاولة والجدار أمامي تهتزُ وتترّنح. فأسرعتُ أطلقُ النار.

في الحُلمِ تسقطُ أحياناً من مكانٍ شاهقٍ، أو تطعن أو تُضرب، لكنك لا تحسُّ على الأغلب بالألم، إلا أن تكون قد آذيتَ نفسكَ بالسرير، وتستيقظُ تحتَ الشعور بالألم وهذا ما حَدثَ في حُلمي: فأنا لم أشعر بالألم جرّاء إطلاق النار ولكن خُيّل لي أنني تلقيتُ صدمة هزّتني كلّي ثم شعرت بالسكينة، وأحاطتني ظلمةٌ شديدة، لكأنني أصبحتُ أعمى وأخرس، ثُمّ هاأنذا أضطجعُ فوق شيء ما صلب ممداً ومقلوباً، لا أرى شيئاً ولا أستطيع أن أتحرّك، البشر من حولي يصرخون ويعبرون، والكابتن يزمجر، وصاحبة البيت تعول - ثُمّ يَعمّ الهدوءُ من جديد، وها هم يحملونني في تابوتٍ مُغلق، وأحسُّ التابوت يتأرجح، فأفكر في الأمر، وتصعقُني لأوّل مَرّة فكرة مفادها أنني ميّت ميت تماماً، أعلمُ ذلك ولا أشكُ فيه، لا أتحرّك، لا أرى شيئاً، لكنني أحسُّ وأفكّر. وسرعان ما ألفتُ هذا الوضعَ وفقاً لمنطلق الحلم نفسه، وقبلتُ الأمر دون اعتراض.

وها هم يدفنوني في الأرض، ثُمّ يغادرون، أظلُّ وحيداً، وحيداً تماماً، لا أستطيع الحركة. كنتُ فيما مضى حين أتخيّلُ كيف سأُدفن في القبر، أجدُني دائماً أربطُ بين القبر ومشاعر الوحدةِ والإحساس بالبرد، ولهذا فأنا أشعرُ الآن بالبردِ الشديد، ولاسيّما في نهاياتِ أصابعِ قدميَّ، وسوى ذلك لا أشعرُ بشيء.

كنتُ ممدّاً ومن الغريب أنني لم أكن انتظرُ شيئاً، وكنتُ على يقين لا اعتراضَ فيه أن على الميّت ألا ينتظر شيئاً. لا أعلم كم مرّ من الوقت - ساعة أم عدّة أيام، أم أيام كثيرة. ثُمّ إذا بقطرةِ ماءٍ كبيرة تسقطُ فجأةً من غطاء التابوت في عيني اليُسرى المغمضة، وتتلوها بعد دقيقة قطرة أخرى، وهكذا يستمرُ تساقط القطرات كل دقيقة. فأشعرُ بغيظ شديدٍ في قلبي، ثُمّ أحسُّ بألمٍ فيزيائيٍ فيه: «إنّه جُرحي - فكرتُ - هذا موضِعُ الرصاصة» ويستمرُ تساقطُ القطرات كل دقيقة واحدة ومباشرةً على عيني المغلقة.

وفجأةً وجدتُني أصرُخُ بكل ما فيَّ من مشاعر - ولكن دون صوت فقد كنت جامداً لا حراك فيَّ - وجدتُني أصرُخ منادياً ذاك الذي يتحكّم بي:

- أياً كنتَ، إن كنتَ موجوداً، وإن كان من الممكن وجود ما يحدث الآن، ولو على سبيل الانتقام مني بسبب انتحاري الغبي فلا تسمح بحدوث ذلك لأنكَ لن تلقى مني إلا السخرية، فالتعذيب الذي يقعُ عليّ الآن، مهما كان لا يَعْدِلُ شعوري بالاحتقار الذي سأحسُّه صامتاً ولو لملايين السنين القادمة!

ناديتُ بكلامي ذاك ثُمّ سكتُ. مَرّت دقيقةٌ من صمتٍ عميق، وسقطت قطرةُ ماءٍ واحدة لكنني كنت أعلم علمَ اليقين أن كل هذا الأمر سيتَغيّر فجأةً. وها هو ذا القبرُ ينفتحُ فجأةً، أو لنقل أنني لم أكن

أعرف هل انفتَحَ القبرُ أو كان كذلك أو ذابَ الغطاء، لكنني أحسستُ أن كائناً غامضاً ومجهولاً أمسكني وطار بي في الفضاء. ثُمَ أعادَ لي بصري بغتةً، لكن الظلام كان حالكاً كما لم أرهُ من قبل. لم أسأل الكائن الذي حملني وبقيت صامتاً محتفظاً بكبريائي، لا أشعُرُ بالخوف، وسعيداً بذلك. لا أستطيع أن أتذكر كم طرنا، وليس بإمكاني تصوّر ذلك: فقد حدث ما حدث كما هو الأمرُ في الأحلام تجتازُ الأماكن والأزمنة، وتخترقُ كُلّ قوانين العقل والدنيا ولا تلتقطُ شيئاً مُحدداً.

أذكُرُ أنني لمحتُ في ذلك الظلام الشديد نجماً، فسألتُ رغماً عني «أهذا نجم سيروس؟» ذلك أنني ما أحببتُ أن أتوجَهَ إلى من يحملني بأي سؤال، فأجابني قائلاً:

«لا، إنهُ النجم نفسه الذي رأيتَهُ بين السحاب حين كنتَ عائداً إلى منزلك» كنتُ أعلم أن لهذا الكائن هيئة إنسان. ومن غريب الأمر أنني ما أحببت هذا الكائن، بل شعرت تجاهه بكرهٍ شديد. لقد انتظرتُ العدمَ المطلق ولأجل ذلك أطلقتُ رصاصةً في قلبي، فإذا بي بين يدي كائنٍ، هو بالتأكيد لا إنساني ولكنُه «موجود». فكّرتُ بخفّة الحلم العجيبة: «إذاً هناكَ وراء القبر حياةٌ أخرى!»، لكنَ ميزتي الأساسيّة ظلّت في أعماقي: «إذا كان لا بُدّ أن «أوجدَ» ثانيةً - فكّرتُ - بإرادةِ أحدٍ ما فإنني لن أكونَ مَغلوباً ومَذلاً».

«أنتَ تعلم أنني أخافك، ولهذا أنتَ تحتقرُني»، قلتُ لرفيقي، دون أن أستطيع كبح هذا السؤال المُذل، الذي ينطوي على اعتراف وينغرس في قلبي كإبرةٍ سببها الجبن. لم يجبني عن سؤال. ولكنني شعرتُ فجأةً أنه لا يحتقرني، ولا يضحَكُ من فعلي، ولا يرثي لي في الوقت نفسه، وأن لدربنا هذا غاية ينتهي إليها، سريّة غير معروفة ولا تعني أحداً سواي.

ازدادَ الرعبُ في قلبي. ونفذَ صمتُ صاحبي إلي عميقاً ومؤلماً. واجتزنا فضاءاتٍ مظلمةٍ ما رأتها عين، وما عدتُ أرى نجوماً مألوفة من قبل. وكنتُ من قبلُ أعلم أن في أعماق الفضاء توجدُ نجومٌ لا تصلُ إلينا أنوارها إلا بعدَ آلافٍ وملايين السنين، لعلّنا قد قطعنا تلك الفضاءات. كنتُ أنتظرُ شيئاً ما في وحدة قلبي العميقةِ والمخيفة، وفجأةً وبينما أنا كذلك إذا بعاطفةٍ معروفةٍ تهزّ كياني وتوقظ ماضيّ بقوةٍ: لقد رأيتُ فجأةً شمسنا! كنت أعلمُ أنها لا يمكن أن تكون «شمسنا»، شمسنا التي ولدت أرضنا، وأعلم أننا نبعدُ عن شمسنا مسافاتٍ لا نهائية، لكنني كنت أحسُّ بكل جوارحي أنها تشبَهُ شمسنا تمام الشبه، وهي نسخة عنها، ونظير لها. إحساسٌ لذيذٌ حلوٌ غَمَر روحي: وقوّة الضياء الخلاقة التي ولدتني، ترجّعت في قلبي وبعثتهُ من جديد، فأحسستُ بالحياة تعودُ إلى عروقي، لأوّل مَرّةٍ بعدَ أن قُبِرت.

- ولكن إذا كانت هذهِ هي الشمس، إذا كانت شمساً كشمسِنا تماماً - هتفتُ به - فأين هي الأرضُ إذاً؟

فأشار مُرافقي إلى نجمةٍ تُشعّ في الظلمةِ بضياءٍ زُمرديّ اللون، وكنا في الآن نفسه نتجهُ نحوها.

- هل من الممكن أن يحدثَ مثل هذا التكرارِ في الكون؟ وهل هو قانون الطبيعة؟ وإن كانت تلك هي الأرضُ، فهل هي أرضٌ كأرضنا تماماً؟ مثلها تعيسة، وفقيرة، ومثلها غالية ومحبوبة أبد الدهر، وقادرة على استدرار حُبِ أبنائها وحتى أكثرهم جحوداً؟ - قلت ذلك هاتفاً وأنا أرتعشُ جراءَ حُبٍ طاغٍ وشديد تجاه تلك الأرض التي ولدتُ عليها وهجرتُها، وكانَ طيفُ تلك الطفلة البائسة التي أهنتُها يخفقُ أمام عيني.

- سترى كل شيء - أجابَ مُرافقي وكانت كلماتُهُ تشي بحزنٍ ما.

ولكننا كنا نقتربُ بسرعةٍ من الكوكب، فيكبُرُ حجمُهُ في عينّي، ثُمّ ميّزتُ المحيط وحدود أوربا، فاشتعلت غيرةٌ غريبةٌ ومقدّسةٌ في قلبي: «كيف يمكن أن يحدث مثل هذا التكرار؟ ولأي غاية؟ أنا أحبُ.. أنا أستطيع أن أحب تلك الأرض التي تركتُها ورائي، تلك الأرض التي تناثرَ دمي فوقها، عندما أطلقتُ الرصاص في قلبي جاحِداً كل شيء، ومنهياً حياتي. ولكنني لمْ أتوقّفْ عن حبّها أبداً، وحتى في تلك الليلة التي فارقتها فيها فقد شعرتُ بحبّها أشد تعذيباً لي من أي وقتٍ مضى. هل ثمّة عذاب على هذهِ الأرض الجديدة؟ على أرضنا لا نستطيع أن نحب إلا مع الألم والعذاب، وفقط من خلالهما، وإلا فإننا لا نستطيع أن نحب، بل لا نعرفُ حُبّاً آخر. لهذا أنا أطلبُ العذابَ كي أتمكّن أن أحب. كم أتعطّشُ في هذهِ اللحظة أن أقبلَ الأرضَ وأغسلها بدموعي، تلكَ الأرض التي هجرتها، والتي لا أريدُ، بل لا أستطيع العيش إلا عليها فقط!»

لكن مُرافقي كان قد تركني وحيداً. وأصبحت فجأةً - وكَما لو أنني لم أنتبه لذلك - أقفُ على تلك الأرض الأخرى غارقاً في نور شمسٍ ساطع، في يومٍ نعيمي رائع. لقد وقفت على ما أظنُ على أرضِ جزيرةٍ من تلكَ الجزر التي تشكّلُ أرخبيل[٢] اليونان، أو على شاطئ أرضٍ تشرِفُ على ذاك الأرخبيل. كل شيء كان يشبُهُ ما ألفناهُ على أرضنا تماماً.

وتراءى لي أن حبوراً وعيداً يشعُ في كل مكان حتى يبلغُ الأمرُ مرحلةَ النشوة والروعة. والبحرُ الزمرديُ اللطيف يُداعبُ الشاطئ بحبٍ واضحٍ وعن وعيٍ تقريباً.

وأشجارٌ باسقةٌ عاليةٌ رائعة انتصبت في المكان غزيرة الأوراق وكثيفتها، وبَدتْ لي وكأنها تحييني بمودّة بحفيفها الصامت الرقيق،

وتخاطبني بكلمات الحب. واشتعلَ المرجُ أزهاراً عطرةً مضيئة، أما العصافيرُ فكانت تطيُر نحوي أسراباً مطمئنةً آمنة وتحطُ على كتفيَّ ويديَ مصفّقةً بأجنحتها الصغيرة مغنيةً لي. وأخيراً رأيتُ وعَرَفت بشَرَ تلك الأرض. لقد جاؤوا إلي بأنفسهم، أحاطوا بي، وقبّلوني، أبناءُ الشمس، أبناءُ شمسهم - كم كانوا رائعين! ما رأيتُ في حياتي جمالاً كجمالهم على أرضنا، وهل بالإمكانِ أن تجدَ صورةً ولو باهتةً من جمال هؤلاء الأطفال في أطفالنا حديثي الولادة! عيون هؤلاء البشر السعداء كانت تشعّ ضياءً ونوراً. ووجوههم تشرقُ حكمةً ووعيّاً، يبلغُ أقصى حدود الهدوء والرزانة، في أصواتهم وكلماتهم كانت ترنُّ نغمةُ سعادةٍ طِفْليّة. وقد فهمتُ كل شيء من النظرة الأولى إلى وجوهِهم. إنّها الأرضُ، قبل أن تلطّخها الخطيئة، وعليها يعيشُ البشرُ دون خطيئةٍ، يعيشونَ في هذهِ الجنّة، التي تناقَلَ البشَرُ أن أجدادَنا عاشوا فيها قبل أن يرتكبوا آثامَهم، مع فرقٍ واحدٍ، هو أن هذهِ الأرض هُنا، إنّما هي جنّةَ في كل جنباتها وجهاتِها. كان هؤلاء الناس يضحكونَ من حولي بجذلٍ ومَرَح، يقتربونَ مني ويمازحونني، ثُمّ مضوا بي إلى منازلهم وكُلّ منهم يحاولُ أن يرفّه عني ويسلّيني، وما سألوني عن أي شيء، وكأنهم كانوا يعرفونَ الأشياء جميعها، هذا ما بدا لي. لقد كان همّهم أن يطردوا تعابير العذاب عن ملامح وجهي.

IV

إنكم ترونَ مَرّة أخرى: وليكن أن ما شاهدتُهُ كان مُجرّد حُلم! لكن إحساسي بمحبّة أولئك الناس الأبرياء الرائعين انغرسَ في قلبي إلى الأبد، وما زلتُ أحسُ أن حبّهم يتدفّق نحوي من هناك حيث هم موجودون. لقد رأيتهم بنفسي وعرفتهم وتألمتُ لأجلهم بعد ذلك، آه لقد أدركتُ لحظتَها أنني لا أفهمهم حق الفهم، لقد بدا لي - أنا التقدمي الروسي الحديث، والبطرسبورغي العفن - بدا لي وبشكلٍ معقّد أنهم وعلى الرغم من معرفتهم الكبيرة يجهلونَ علومَنا. ثُمّ ما لبثتُ أن أدركت أن معارفهم هم اكتملت وتشبّعت بمدركاتٍ واختراقاتٍ مختلفةٍ تماماً عمّا لدينا على الأرض، وتطلعاتهم أيضاً مختلفة عن تطلّعاتنا لقد كانوا هادئين بلا رغبات، ولم تكن لديهم تلك المحاولاتُ لمعرفةِ الحياة، كما هو الحالُ عندنا، لأن حياتهم كانت كاملة، ومعرفتهم أكثر عُمقاً وسُمواً من علمِنا، لأن علمنا إنما يسعى لمعرفةِ الحياة وشرحها، لتعليم الآخرين، أما هم فقد عرفوا كيف يعيشونَ ودونِ علم، وهذا ما عاينتُهُ بنفسي، لكنني لم أستطع أن أفهَمَ معارِفَهم.

لقد أروني أشجارَهم، لكنني لم أستطع أن أفهم درجةَ الحب السامية التي كانوا ينظرونَ من خلالها إلى تلك الأشجار: وقد تحدّثوا إليها كما يتحدّثونَ إلى أشباههم من البشر. ولا أخطئُ لو قلت إنهم وجدوا لغةَ الأشجار وتكلّموها. نعم اكتشفوا لغة الأشجار وقد فهمتِ الأشجارُ بدورها كلامهم. لقد نظروا إلى الطبيعةِ بهذهِ الصورة - إلى الحيوانات التي عاشت معهم بسلام، ما هاجموها ولا هاجمتهم، بل أحبوها وبالحبِ روّضوها. لقد

أروني النجوم وحَدّثوني عنها حديثاً لم أفهَمهُ، لكنني واثقٌ من أنهم على تماسٍ حي مع نجوم السماء تلك وليس الأمرُ مجردُ تماسٍ أو رباطٍ فكري. أوه لم يسعَ أولئكَ الناس لجعلي أفهمهم، بل أحبّوني دون ذلك، وقد فهمتُ بالمقابل أنهم أحياناً ما استطاعوا استيعابي، رُبّما لأنني تقريباً لم أحدثهم عن أرضنا، لكنني قبّلتُ تلك الأرض التي يقفون عليها، ودونَ كلماتٍ شعرتُ باحترامٍ ومودّة تجاههم، وقد شعروا بذلك فتركوا لي أحبّهم وأودّهم دون شعورٍ بالجرحِ من قِبلهم، لأنهم هم أنفسهم كانوا ممتلئينَ بالحب.

لم يتعذّبوا لأجلي حين قبّلتُ أقدامهم أحياناً ودموعي تغطيّ وجهي، لكنني كنت أشعر بسعادة مَبْعَثُها إحساسي بمقدار قوّة الحب التي سيعوّضونني بها عن كل ذلك. كنت أتساءل أحياناً بشيءٍ من الدهشة: كيف استطاعوا طوال الوقت ألا يسيئوا إلى واحدٍ مثلي، وألا يبعثوا فيَّ شعوراً بالغيرةِ أو الحسد ولو لمرّة واحدة؟ وقد سألتُ نفسي مراراً، كيف استطعتُ أنا المتباهي الكذّاب ألا أحدّثهم عن مداركي ومعارفي التي بطبيعة الحال لا يعرفونَ عنها أيّ شيء؟ كيفَ لم أشعر برغبة في إدهاشهم حتى ولو من قبيل الحب نحوهم؟ لقد كانوا فرحين مرحين كالأطفال، يطوّفونَ في أرجاءِ أحراجهم وغاباتهم ويغنونَ أغنياتهم الرائعة، ويكتفونَ بثمار أشجارهم وعَسلِ غاباتهم وحليب حيواناتهم المحبوبة، مما هو خفيفُ المأكل لأجلِ طعامِهم وكسائهم ما كانوا يعملونَ إلا قليلاً، كانوا يعيشونَ الحب وينجبونَ الأطفال ولكنني لم ألاحظ لديهم في يومٍ من الأيام اندفاعات تلك اللذة «القاسية»، التي يبلغها تقريباً كل شخصٍ على أرضنا، وتُعَدّ مصدر كل آثامٍ وأخطاء الإنسانيّة.

كانوا يفرحونَ بولادةِ أطفالهم كمشاركين جدد في أعيادِ مسراتهم، وما رأيتُ بينَهم حسداً أو خصومات، بل ما كانوا يعرفونَ معنى هاتين الكلمتين، وكان طفلُ أحدهم طفل الجميع، صانعين بذلك أسرةً واحدة.

المرضُ تقريباً لم يكن لَهُ وجود عندهم، مع أن الموتَ موجود طبعاً، كان الشيوخ منهم يموتونَ بهدوء وكأنهم ينامون محاطين بذويهم الباسمين المباركين، وعلى شفاههم أنفسهم علائم البسمة. لم أرَ حداداً أو دموعاً خلال ذلك، بل حُبّاً يزدادُ حتى يصل مرحلة الهيام والوجد الهادئ الرصين والكامل، حتى يدفعك كل هذا إلى التفكير بأنهم يظلّون على صلة مباشرة مع موتاهم بعد أن فارقوا الحياة، وأن الموتَ لا يستطيعُ أن يقطعَ أو يبتُرَ الوحدةَ الأرضيّة التي تربط بينهم، لم يفهموني تقريباً حين كنت أسألُهُم عن الحياة الأبديّة، ولكنهم على ما يبدو كانوا مقتنعين بها عن غير وعيٍ بطريقةٍ كفتهم ضرورةَ طرح السؤال. لم تكن لديهم معابد، لكنهم كانوا يعيشونَ في اتحادٍ كامل متواصلٍ مع «الكون الكلّي»، لم يكن لهم دينٌ محدد، بل ثقةٌ راسخة، بأنهم حين يبلغونَ أو يحققون فرحتهم الأرضيّة حتى أقصى حُدودِ الطبيعةِ الأرضيّة، فسيحققون جميعاً - الأحياء منهم والأموات - أقصى درجاتِ التواصلِ والاتحاد مع «الكون الكلّي». كانوا ينتظرونَ تلكَ اللحظة بفرحة ودون تعجّل، ودون عذابِ الانتظار، كما لو أنهم قد قبضوا على تلك اللحظة بنبوءاتِ قلوبهم، وتناقلوها فيما بينَهم.

كانوا قبل أن يذهبوا إلى النوم يحبونَ تشكيل جوقاتٍ جماعيّة منظّمة، تُرددُ أُغنيات تبثُّ إحساساتهم التي تراكمت خلال النهار في نفوسهم، وبذلكَ يباركونَهُ ويودّعونَه. يباركونَ الطبيعةَ والأرضَ والبحر والغابات. كانوا يحبّونَ تأليفَ الأغنيات أحدُهُم عن الآخر، فيُثني واحدهم على زميلِهِ ويمتدحُهُ كالأطفال فيما بينَهم، كانت تلك أغنيات بسيطة، ولكنّها مؤثرة لأنها نابعة من القلوب، وما كانوا يلاطفونَ بعضهم بالأُغنيات فحسب، بل في وجوهِ الحياة كافة، فهم ينفقونَ الحياة في حب بعضهم بعضاً، غير أني لم أفهم تقريباً أغنياتِ النشوة والانتصار التي كانوا يؤدّونها، وعلى الرغم من معرفتي بمعاني كلمات تلك الأغنيات غير أني لم أستطع أن أنفذَ إلى عمق دلالاتها ومعانيها

الكليّة. لقد بقيتْ قصيّةً عما يستطيعُ عقلي أن يبلُغَه، لكنَ قلبي بالمقابل استطاعَ أن ينفذَ إلى تلك المعاني ويتشبّع بها أكثر فأكثر. قلتُ لَهُم مراراً إنني منذ بعيد قد تنبأتُ بكل ذلك، وأن ذلكَ الحبور وتلك السعادة قد تكشفا لي على أرضنا بصورةِ حنينٍ جارف، يبلُغُ أحياناً درجةَ الألم الذي لا يُحتَمل، وأنني تصوّرتهم وتصوّرتُ مجدَهم مُسبقاً في أحلام طفولتي، وأمنياتِ عقلي، وأنني ما كنتُ أستطيع النظر وأنا على الأرض إلى الشمس الغاربة إلا وتمتلئ عيوني بالدموع... وأن بغضي لأهل الأرض كان دائماً ممتزجاً بالألم: لماذا لم أستطع أن أكرههم، أو أحبّهم؟، لماذا لم أستطع أن أسامحهم؟ ولماذا يمتزجُ ودّي لهم بالألم؟ لماذا لا أستطيع أن أحبّهم أو أكرههم؟

كانوا يستمعونَ إلي وكنتُ أرى أنهم لا يستطيعونَ تصوّر ما أقوله، ولكنني لم أندم على ما قلتُهُ لهم. وعلمتُ أنهم يفهمونَ قوّة حنيني إلى أولئكَ الذين فارقتهم.

بلى، عندما كانوا ينظرونَ إليّ بنظراتِ محبّتهم النفّاذةِ العذبة، فأحسُ أن قلبي في حضرتهم يصبحُ بريئاً وصادقاً كقلوبهم كنتُ حينها لا أشعُرُ بالندم أنني لا أفهمُهم. وتحت تأثير الإحساسِ بامتلاء الحياة بينهم كانت تتقطّعُ أنفاسي وأبدأ بالصلاةِ لأجلهم صامتاً.

[...] أتعلمونَ، سأبوحُ لكم بسر: ربّما كل ما سبق لم يكن حُلماً! لأن ما حَدثَ كانَ مهولاً وفظيعاً في حقيقتِهِ، بحيث لا يمكن أن يتراءى في حُلم.

ولنفترض أن حُلمي هذا كان وليدَ قلبي، فهل باستطاعة قلبي منفرداً أن يلدَ تلك الحقيقة الهائلة، التي تحققت بعد ذلك؟ كيفَ كانَ بإمكاني أنا وحدي أن أتخيّل كل ذلك، أو أن أَحْلُمَ بهِ في فؤادي؟ وهل باستطاعةِ قلبي الصغير، وعَقْلي الضحل المُتَقلّب أن يتساميا إلى تلك السويّةِ من معرفةِ الحقيقة؟ احكموا على ذلك بأنفسكم: أنا حتى هذهِ اللحظة كتمتُ الكثير عنكم، لكنني الآن سأقول كل الحقيقة الأمرُ وما فيه أنني... قد أفسدتُ الجميع!

V

نعم، نعم، لقد انتهى بي الأمرُ إلى إفسادهم جميعاً! كيف حدث ذلك - لا أعلم! لا أذكُرُ تماماً. لقد طار الحُلُم عابراً ألوف السنوات وتركَ في نفسي إحساساً مُتكامِلاً فحسب. ما أعلمُهُ أنني أنا نفسي سبب الإثم الأوّل. كدودةِ خنزير، كذرّة طاعون، يمكن أن تُعدي بلداً كاملاً، أمَرضتُ بحضوري أرضاً سعيدةً لا خطيئةَ فيها. لقد تعلّموا الكذب وأحبّوه وَعَرفوا مواطن الجمال فيه. رُبّما بدأ الأمر «بريئاً» على سبيل المزاح، أو الغنجِ والدعابة واللعب، وحقيقة الأمرُ أن البداية كانت ذرةً؟ لكن ذرّة الكذب تلك تسرّبت إلى قُلوبهم وأعجبتهم. بعد ذلك ظهرت اللذّة بسرعة، واللذّةُ ولّدت الغيرة، والغيرةُ بدورها - ولّدَتِ القسوة... آه، لا أعلم، لا أذكر ولكن بعد ذلك بقليل سُفِحَ الدمُ الأوّل: فدهشوا وذعروا، وتفرّقوا، وتباعدوا عن بعضهم. ثُمّ ظهرتِ التحالفات، ولكن الواحدَ ضد الآخر، وبدأت المعاتباتُ والتقريعات. وعرفوا الخجل، الذي أمسى فضيلةً. وظهَرَ مفهومُ الشرف، ورفَعَ كل حِلفٍ رايتَهُ الخاصة. وبدؤوا يعذّبون الحيوانات، ففرّت منهم إلى الغابات وأصبحت عدواً لهم. ثم بدأت المعركةُ لأجلِ «الانفصال» و «الفرديّة» و «الشخصيّة» لأجلِ: هذا لك وهذا لي. وأخذوا يتحدّثونَ بلغاتٍ مختلفة، وعرفوا الاكتئاب، وأحبّوه وتعطّشوا للعذاب، فقالوا إن الحقيقة لا تُبْلَغُ إلا بالعذاب[٣]. وعند ذلك ظهرَ العِلمُ عندهم، وحينما أصبحوا أشراراً أخذوا يتحدّثون عن الأخوّة والإنسانيّة وفهموا تلك الأفكار. وعندما أصبحوا مجرمين اخترعوا العدالة، وكتبوا قوانينَ تصونها، ولأجلِ تطبيق القوانين نصبوا المقصلة. وما تذكّروا إلا قليلاً ما فقدوه ورفضوا أن يصدّقوا أنهم

كانوا ذات يوم بريئين وسعداء. بل سخروا من أمكانية تحقق نموذج سعادتهم القديمة وسمّوه حُلُماً. وعجزوا عن تصوّرِهِ في شكلٍ أو هيئةٍ محسوسة. ومن غريب الأمور: أنهم على الرغم من فقدانهم الإيمان بسعادتهم البائدة، وتسميتهم إياها حكاية أو خُرافة، ظلّوا يتوقونَ بقوّة إلى استعادةِ براءتهم وسعادتهم، وسجدوا ثانيةً أمامَ أمنياتِ قلوبهم تلك كالأطفال، وألّهوا تلك الأمنيات، فبنوا مَعابِدَ وراحوا يصلّون فيها لتلك الأفكار، لتلك «الأُمنيات»، مَعَ علمِهم أنها غير قابلة للتحقق، ولكن الدموع مع ذلك ظلّت تُرافق صلواتهم وخشوعهم. وعلى الرغم من ذلك لو كان باستطاعتهم العودةَ إلى تلك الحالة من البراءة والسعادة، التي فقدوها، وتمكّن أحدٌ ما من وضع تلك الحالة أمامهم وسألهم هل ترغبون بالعودة إليها؟ -لأجابوا أغلب الظن بالرفض ولقالوا :«فليكن أننا كذابون، أشرار، وغير عادلين، «نعلمُ ذلك ونبكي ونعذّب أنفسنا بسببهِ، ونعاقبُ ذواتنا بصورة أشد بكثير مما يمكن للديّان الرحيم أن يفعل بنا حين يحاسبنا، وما زلنا لا نعرفُ اسمَه.

لكن لدينا العلم الآن، وسنبحَثُ بواسطتهِ عن الحقيقة من جديد، فنعتنقها بوعي هذه المرّة المعرفةُ فوقَ الإحساس. الوعي بالحياةِ فوق الحياة نفسها. العلمُ يمنَحُنا الحكمة والحكمة تكشف لنا القوانين، ومعرفة قوانين السعادة فوق السعادة[٤] هذا ما قالوه، وبعد تلك الكلمات ارتفعت نرجسيّةُ كلٍ منهم فوق الآخرين، وما كان بمقدورهم أن يتصرّفوا بغير ذلك. وازدادت غيرةُ كلٍ منهم على شخصيّتِهِ وأصبح يسعى إلى إذلالِ شخصيّات الآخرين والخفض من شأنها، واعتمد على بقائه الشخصي فحسب. وظهرت العبوديّة، بل العبوديّة الطوعية أيضاً: فخضَعَ الضعفاءُ للأقوياء طوعاً، طمعاً في مساعدتهم على سحقِ من أهم أكثر منهم ضعفاً. ظَهَر نفرُ من الصالحين، ممّن قدموا على هؤلاء البشر والدموع في عيونهم ناصحين لهم، فحدّثوهم عن صَلَفِهِم، عن فقدانهم الاعتدال والاتساق

«الهارمونيا»، عن فقدانهم الخجل. فسخروا منهم، وقذفوهم بالحجارة أحياناً، فسال الدمُ المقدّس على عتباتِ المعابد. وبالمقابل ظهَرَ نفرٌ من الناس راحوا يفكرونَ: كيف يعيدونَ الوحدة بين الناس، بحيث يبقى الواحدُ من البشر يحبُ نفسه أكثرَ من الجميع، ولكن لا يقفُ في طريق غيره، فيعيشُ الجميعُ في مجتمعِ الوئام.

واندلعت حروبٌ كاملة بسبب هذهِ الفكرة، وكانَ كلُ المحاربين يؤمنون بقوّة أن العلم والحكمة والرغبةَ في البقاء ستجبرُ الإنسان في النهاية على الاجتماع في مجتمعٍ عاقلٍ ومبنيٍ على الوفاق، ولأجلِ هذه الغاية، سعى «الحكماءُ» بسرعةٍ إلى تصفيةِ «غير الحكماءِ» جميعاً، ممّن لا يفهمونَ أفكارهم، كي لا يعيقوا الانتصار.

لكن رغبة البقاء الذاتي سرعان ما ضعُفت، لينهضَ المعتزّون بأنفسهم، المتجبّرون المندفعون خلف ملذّاتهم، والذين يطلبونَ كلّ شيء أو لا شيء. ولأجلِ الحصول على كل شيء لجؤوا إلى الوحشيّة - فإن لم يبلغوا غايتهم فإلى الانتحار!

ظهرت دياناتٌ تدعو إلى العدم وتدمير الذات لأجلِ الراحة الأبديّة في اللا وجود. وأخيراً تعب هؤلاء البشر من عملهم اللا مجدي، وظهرت على وجوهِهم علائم المُعاناة، فنادوا بأن العذاب والمعاناة هما الجمال، لأن الفكرَ في العذاب. ومضوا يغنونَ الألمَ في أغنياتهم. وكنتُ أتجوّل فيهم منحني اليدين، باكياً لأجلهم، وشاعراً بالحب نحوهم رُبّما أكثرَ من ذي قبل، حين لم يكن العذابُ يعلو وجوههم، وكانوا بريئين رائعين. وأحببتُ الأرضَ التي دنّسوها أكثرَ مما مضى، يومَ كانت جنّةً، لأن الألمَ قد ظهَرَ على سطحها، وأسفاه لقد أحببتُ الألمَ والعذابَ دائماً، أحببتُهما لنفسي، لنفسي فحسب، أما لأجلهم فقد بكيتُ ورثيت. ورحتُ أبسطُ يدي نحوهم مديناً نفسي، لاعناً ومحتقراً إيّاها حتى الهذيان، قلت لهم إن كل هذا إنما

صنعتُهُ أنا، أنا وحدي، وأنا الذي حملتُ إليهم الفساد، والعدوى والكذب وتضرّعت إليهم كي يصلبوني وعلّمتُهم كيف يصنعون الصليب. لم أكن من القوّة بالمقدار الذي يجعلني أقتل نفسي، لكنني أردتُ أن أحمِلَ عذاباتِهم جميعها، وكنت أتحرّقُ للألم والعذاب، وأتمنى أن يسفح دمي حتى آخر قطرة في سبيل ذلك. ولكنهم ما زادوا عن الضحكِ ممّا أفعله، ثُم اعتبروني مجنوناً أبلهاً في النهاية، واعترفوا لي قائلين إنهم حصلوا على ما تمنّوه لأنفسهم فحسب، وأن كل ما هو موجود الآن، ما كان بالإمكانِ إلا أن يوجد. في النهاية أعلنوا إنني أصبحتُ خَطِراً عليهم، وسيحبسونني في بيت المجانين، إن لم أصمت. عندها نفذَ الحزنُ إلى نفسي بصورةٍ شديدةٍ، أحسستُ أن قلبي جراءَها قد انقبَضَ بقوّة، وأنني أموت... وعندها، في تلك اللحظة صحوتُ من النوم.

كان الوقتُ فجراً، والضياءُ لم يعمَّ بعد، الساعة تقاربُ السادسة. وجدتُني جالساً على المقعد نفسه، والشمعةُ قد احترقت حتى النهاية. في غرفة الكابتن الكل نيام، والهدوءُ يعمُّ كما لا يحدثُ عادةً في بيتنا هذا.

أوّل شيء فعلتُه هُو أنني قفزتُ واقفاً واعترتني دهشةٌ غريبة، فأنا لم يسبق أن حدثَ لي ما حدث اليوم، حتى بخصوصِ الصغائِر: كأن أنام على مقعدي جالساً. حين وقفتُ واستعدتُ رشدي لاحظت مسدّسي المحشو الجاهز - فأبعدتُهُ جانباً بسرعة آه.. الحياةُ الآن.. الحياة! رفعتُ يديّ مبتهلاً للحقيقة الأبديّة، بل باكياً باندفاعٍ شديد لا حدود له، رفعت وجودي كلّه. نعم عليّ أن أحيا - وأُبشّر! آه حول التبشير حسمتُ موقفي في اللحظةِ نفسها، وبالطبع حتى نهاية حياتي! سأنطلقُ مبشّراً، وأريدُ أن أبشّر - لكن بماذا؟ «بالحقيقة!»، فقد رأيتُها، رأيتها بعينيّ، رأيتُ مجدها كلّه!

وهكذا ومنذ ذلك الوقت رحتُ أُبشّر!، ووجدتُني أُحبّ أولئكَ الذين يسخرون مني أكثر بكثير ممّا أحبُ غيرهم، أما لماذا - فلا أعلم ولا أجدُ

تفسيراً لذلك، ولكن فليكن ما الضير! يقولونَ الآن إنني ضللتُ الطريق، وما دمتُ قد فعلتُ ذلك الآن فإلى أين سأصل؟ وهذه حقيقةٌ لا غبار عليها: لقد ضللتُ وقد تسوءُ الأمور أكثر في المستقبل. ولا شكَ أنني سأضيع أكثر من مَرّة قبل أن أهتدي إلى سواء السبيل، فأعرف كيف عليّ أن أبشّر وبأي كلماتٍ وأفعال، لأن هذا الأمر في غاية الصعوبة. وأنا أعلمُ هذا وأراهُ واضحاً كالنهار منذ الآن، لكن اسمعوا: من مِنّا لا يضِل الطريق! ومع ذلك نسيرُ جميعاً إلى غايةٍ واحدة، أو لنقل يسعى الجميعُ إلى نهايةٍ واحدة، من الحكيم حتى آخرِ مجرم، وإن اختلفت السُبُل، رُبّما كانت هذهِ حقيقةً قديمة، ولكن إليكم الجديد: أنا إن خُدعتُ - فليسَ إلى زمنٍ طويل. لأنني رأيتُ الحقيقةَ، لقد رأيتُ وعرفتُ أن البشر يمكن أن يكونوا رائعين وسعداء دون أن يفقدوا القدرة على الحياة فوق سطح الأرض.

أنا لا أريدُ ولا أستطيعُ أن أصدّق أن الشر حالة طبيعيّة للإنسان. غير أنّهم جميعاً إنّما يسخرون مني بسبب اعتقادي هذا. ولكن كيفَ بإمكاني ألا أومن بذلك: لقد رأيتُ الحقيقة - ولم أختلق الأمرَ ذهنيّاً، لقد رأيْتها.. رأيتُها، وامتلأت روحي «بأُنموذجها الحي» إلى الأبد. شاهدتُها في تجلّيها المطلق، ولم أصدّق أنها لن تتحقق عند البشر. وهكذا، كيفَ لي ألا أضل؟ وأنحرف، بالطبع سيحدُثُ ذلك أكثر من مَرّة، وقد أتحدّثُ بكلامٍ غريب، ولكن ليس لوقتٍ طويل: فالأنموذج الحي الذي رأيته سيبقى معي دائماً، يُصححُ لي ويوجّهني. هاأنذا شجاعٌ، وفي نضارة الشباب وسأمضي وأمشي ولو ألف سنة. هل تعلمون، لقد أردتُ في البدايةِ حتى إخفاء خبرِ إفسادي لهم جميعاً، وقد كانت تلك غلطة - أوّل غلطةٍ لي! لكن «الحقيقة» سرعان ما وشوشتني: إنني «أكذب»، وبالتالي حفظتني وسددت خُطاي. كيف يمكن أن نبني الجنّة - لا أدري، لأنني لا أستطيعُ أن أعبّر عن ذلك بالكلمات. بعد حُلمي ذاك ضيّعتُ الكلمات. على الأقل، الكلمات

الرئيسية كلّها، الضروريّة جداً. ومهما يكن: سأمضي وأتحدّث دونَ كلل، لأنني قد عانيتُ بعينيَّ هاتين، حتى ولو لم أستطع وصف ما رأيت.

ولكن المستهزئين في كل الأحوال لن يفهموا: «حُلمٌ، هذيان، هلوسة». إيخ.. هل هذا من الحكمةِ في شيء؟! وسيعتزّونَ بكلامهم كثيراً!. حُلم؟ وما هو الحلم؟ وهل حياتنا أكثر من حلم؟ وسأقولُ أكثر من ذلك: فليكن أن كل ذلك لن يتحقق وأن الجنّة لن توجد أبداً «وأنا أفهم تماماً ذلك» - لكنني وعلى الرغم من ذلك سأنطلقُ مبشّراً، فما أسهل الأمر على الرغم من كل شيء: فمن الممكنِ في يومٍ واحد، بل «في ساعةٍ واحدة» - أن يُعادَ بناء كل شيء وبالسرعة القصوى، وإنما المهم - أن تحبَّ الآخرين كما تحب نفسك، وهذا هو الأمرُ الرئيس[٥]، الذي لا يعدلُهُ أمر: فمتى حققتموهُ بنيتُم الجنّة. وبالمناسبة هذهِ حقيقةٌ قديمة قرأها البشَرُ ورددوها بلايين المَرّات. فكيفَ إذاً يمكن التعايشُ مع الفكرة التي تقول: «إن وعي الحياة فوق الحياة نفسها، ومعرفة قوانين السعادة - هي أعلى من السعادة» - إن ما يجبُ النضال ضده هي هذهِ الفكرة بالتحديد! وسأفعل ذلك. ما أن يَرغبَ الجميعُ في شيء حتى يتحقق من لحظتِها.

أما تلك الطفلة فسأجدها... سأمضي.. وأمضي لا بدّ أن أجدها!

أيار - حزيران

المسألة الألمانية العالميّة

ألمانيا - البلد المحتج

لقد تكلمنا عن ألمانيا، وعن قدرها ومهمتها الحاليّة، إضافةً إلى الوضع الدولي. ما هي هذه المهمة إذاً؟ لماذا تحولت الآن فقط إلى مسألة مقلقة لألمانيا إلى هذا الحد، ولم تكن كذلك قبل عامٍ أو شهرين حتى؟

إن مهمة ألمانيا كانت وما زالت واحدة، وهي تتمثل في بروتستانتيتها - ولكن ليست بروتستانتيّة لوثر بل البروتستانتيّة الدائمة... الاحتجاج الدائم ضد العالم الروماني، ابتداءً من أرمينيا وصولاً إلى كل ما كان لروما وللمهمّة الرومانية، وضد كل ما انتقل - فيما بعد - من روما القديمة إلى روما الجديدة، وإلى كل الشعوب التي أخذت من روما فكرتها وصيغتها وظاهرتها، إلى أتباع روما وإلى كل شيء يشكل قوام هذا الإرث[1] إنني مقتنع أن عدداً من القراء سيهزون أكتافهم ويضحكون ويقولون: «هل من الممكن أن نتجادل في الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة في القرن التاسع عشر، قرن الأفكار الجديدة والعلم، وكأننا في العصور الوسطى! وإذا كان لا يزال هناك أناس متدينون أو حتى متعصبين دينيّاً، فهم ليسوا أكثر من آثارٍ نادرة، يجلسون في زوايا وأماكن محدّدة، منبوذون، ويثيرون سخرية الجميع، والأهم أنهم قلائل جداً، على شكل ثلّة ضئيلة

وتافهة. وبالتالي فهل يمكن اعتبارهم على هذا الأساس - شيئاً ما في مسألة كبرى كالسياسة العالمية؟ إنني لا أقصد الاحتجاج الديني، ولا أتوقف عند صيغ مؤقتة لأفكار روما القديمة والاحتجاج الألماني الدائم ضدها. إنني أقصد فقط الفكرة الأساسية، والتي بدأت منذ ألفي عام ولم تمت حتى الآن، على الرغم من أنها كانت دائماً تأخذ أشكالاً وصيغاً مختلفة. والآن فإن عالم الجزء الغربي من أوربّا، الذي ورثَ بشكل خاص التركة الرومانية يتعذب بأنواع التجسيد الجديد للأفكار القديمة الموروثة، وهذا واضح إلى درجةٍ لا تحتاج التوضيح وبخاصة لمن يجيدون النظر.

إن روما القديمة هي أوّل من خلقَ فكرة الوحدة العالمية للناس. وأول من فكر «وآمن بشدّة» بتطبيقها عملياً على شكل مملكة عالمية. لكن هذه الصيغة سقطت أمام الصيغة المسيحية، ولم تسقط فكرة روما المسيحيّة. لأن الفكرة عموماً هي فكرة الإنسانية الأوربية، التي تشكلت منها الحضارة الأوربية، والتي تعيش من أجلها فحسب.

إن الذي سقط هو الفكرة العالمية للمملكة الرومانية، واستبدلت بمثل أعلى بالوحدة العالمية في المسيح. وقد تفرّغ هذا المثل الأعلى إلى فرعين: فرع شرقي مثّل وحدة الناس الروحية الحقيقية. وآخر أوربي غربي كاثوليكي - روماني، بابوي أي معاكس للفرع الشرقي تماماً. وقد تجسّدت الأفكار الكاثوليكيّة - الرومانية، الغربية على طريقتها الخاصة، لكنها فقدت مسيحيتها، وبدايتها الروحيّة، والتقت بالتالي مع التركة الرومانية القديمة. لقد أعلنت البابويّة الرومانية أن المسيحية وفكرتها لا يمكن أن تتحققا دون الملكية العالمية للأراضي والشعوب، ملكية ليست روحية بل حكوميّة، أي تحقيق مملكة رومانيّة عالمية جديدة، يكون على رأسها بابا وليس إمبراطوراً.

وهكذا بدأت مرّة أخرى محاولة إقامة المملكة العالمية، في روح العالم الروماني القديم تماماً، لكن بشكل آخر. وعليه فإن المثال الأعلى الشرقي هو بداية الوحدة الإنسانية الروحية في المسيح، وسينتجُ فيما بعد - وحسب قوّة التوحد الروحي للجميع في المسيح - وحدة اجتماعية وحكومية صحيحة.

وذلك على عكس المفهوم الروماني الذي يدعو بداية إلى وحدة حكومية قوية على شكل مملكة عالمية، ومن ثم تأتي الوحدة الروحية، تحت سلطة البابا كحاكم لكل العالم.

وقد شهدت هذه المحاولة منذ ذلك الحين تقدماً إلى الأمام في العالم الروماني وتغيرت باستمرار، ومع تطوّر هذه المحاولة فقدت البداية المسيحية أكثر أجزائها أهمية تقريباً. وبإنكارهم الروحانّية المسيحيّة أنكر خلفاءُ العالم الروماني القديم البابويّة كذلك، وعصفت الثورة الفرنسية المخيفة، التي لم تكن في جوهرها، أكثر من إعادة تجسيد آخر، وطرح جديد للمعادلة الرومانية القديمة للوحدة العالمية. لكن المعادلة الجديدة لم تكن كافية وبالتالي فإن الفكرة الجديدة لم تتحقق. حتى أن اليأس أصاب تقريباً كل الأمم التي ورثت الدعوة الرومانية القديمة. آه طبعاً، إن ذلك الجزء الذي ربحَ القيادة السياسية منذ عام ١٧٨٩ - أي البرجوازية، انتصر وأعلن أن لا حاجةَ للتقدم إلى الأمام. وبالمقابل فإن كل العقول المقدر لها - حسب قوانين الطبيعة الأبدية - القلق العالمي الأبدي، والبحث عن معادلات جديدة للمثل الأعلى، توجهّت إلى كل المهانين والمحيدين، الذين لم يأخذوا حصتهم في المعادلة الجديدة للوحدة الإنسانية التي أعلنتها الثورة الفرنسيّة عام ١٧٨٩. ورفعوا كلمتهم الجديدة بضرورة وحدة الناس ليس على شكل تحقيق المساواة وحق الحياة لربع ما من الإنسانية وترك الباقي كأداة

للاستغلال ومادة خام، بل على العكس لقد دعوا لوحدة الناس على أسس المساواة العامة بمشاركة الجميع، وكل شخص في استخدام ثروات العالم كلّه كيفما اتفق.

وحشدوا من أجل تحقيق هذا الحل كل الوسائل، ليس فقط وسائل الحضارة المسيحيّة، كي لا يتوقفوا أما شيء ما.

ما علاقة ألمانيا كل هذا الوقت وعلى مدى ألفي عام بكل ما حدث؟

إن أكثر الميزات الجوهرية التي ميّزت هذا الشعب الفخور العظيم من اللحظة الأولى لظهوره التاريخي في العالم، هي حسب اعترافه عدم رغبته بالوحدة أبداً مع عالم الجزء الغربي من أوربا، أي مع كل أنصار الدعوة الرومانية القديمة.

وقد احتجَّ ضد هذا العالم على مدى ألفي عام. وعلى الرغم من أنه لم يقدّم «ولن يقدّم أبداً» كلمته الجديدة ومثلَهُ الأعلى عوضاً عن الأفكار الرومانية القديمة، فإنه كان مقتنعاً على ما يبدو - بقدرته على تقديم هذه الكلمة الجديدة وقيادة الإنسانية كلها خلفه.

وتصارعَ مع العالم الروماني منذ أيام أرمينا، ثمّ مع روما الجديدة أيام المسيحية الرومانية. ثمّ أحتجّ أخيراً بشكل قوي وجبار معلناً معادلة جديدة من الرفض مأخوذة من أكثر أسس العالم الألماني روحانيةً وعشوائيةً: أعلن حرية البحث، ورفع راية لوثر. أحدث انشقاقاً عالمياً مخيفاً، فقد نفذّ معادلة احتجاج على الرغم من أنها كانت سلبية، وما كان قد قال كلمته الجديدة الإيجابية بعد. ثم كان لهذه الروح الألمانية أن تتجمد لبعض الوقت بالتوازي مع ضعف وحدة القوى القديمة. إن العالم الأوربي الغربي - تحت تأثير اكتشاف أمريكا والعلم والبدايات الجديدة - أخذ يبحث عن إعادة تكوين نفسه، في حقيقةٍ جديدة ومرحلة جديدة.

لقد كانت الروح الألمانيّة في حالة ارتباك شديد، أثناء المحاولة الأولى لإعادة التجسيد على يد الثورة الفرنسيّة، ففقدت لبعض الوقت ثقتها بنفسها، ولم تستطع أن تقدّم شيئاً ضد الأفكار الجديدة للعالم الأوربي الغربي. وانتهى زمن البروتستانتيّة اللوثريّة منذ مُدّةٍ طويلة وتبنى العلم الجديد فكرة البحث الحر منذ زمن بعيد. وشعر الجسم الألماني الضخم أكثر من غيره بأنه لا يملك الوسيلة والشكل كي يعبّر عن نفسه. عندها ولدت فيه حاجة مُلحّة لأن يجمعَ قواه ولو شكلياً كي يبدو وكأنه جسم متناسق موحد لملاقاة المراحل الجديدة القادمة من صراعه الأبدي مع شعوب أوربا الغربية. وهنا يجب ملاحظة التطابق المثير للاهتمام: إن المعسكرين دائمي العداء والصراع من أجل القيادة في أوربا القديمة تبنيّا في وقت واحد تقريباً ونفذا وظيفة متشابهة. إن المعادلة الجديدة القادمة، التي ما زالت حلم شعوب أوربا الغربية، أي تجديد المجتمع الإنساني على أسس اجتماعية جديدة - هذه المعادلة التي دعى لها فقط الحالمون والممثلون العلميون من المثاليين والخياليين، غيّرت فجأة وفي الأعوام الأخيرة من شكلها ووجهة تطوّرها وقرّرت: أن تضع جانباً الجانب النظري، وتعيد صياغة مهمتها، وتبدأ مباشرةً الخطوة العملية لمهمتها قبل أي أحلام، أي أن تبدأ النضال مباشرةً، ومن أجل ذلك عليها البدء بتوحيد كل المناضلين من أجل الفكرة الجديدة، في منظمةٍ واحدة، وهؤلاء هم فئة الناس المحيّدة عام ١٧٨٩، أي كل الفقراء والكادحين والعمال، ومن ثم رفع راية الثورة العالمية الجديدة، والتي لم يسمع عنها من قبل.

ظهرت الأمميّة لكل فقراء العالم، والاجتماعات، والمؤتمرات، والقوانين، والأنظمة الجديدة - باختصار لقد وضع الأساس في كل أوربا

الغربيّة القديمة لـ status in statu الذي هدد بابتلاع نظام العالم القديم كلّه المسيطر في أوربا الغربية.

وهكذا عندما حصل ذلك عند العدو فهم العبقري الألماني بأن المهمّة الألمانيّة - وقبل أي عمل وأي شيء، وقبل أي محاولة لقول الكلمة الجديدة ضد أفكار العدو، التي يعاد تجسيدها من الكاثوليكيّة القديمة - هي الانتهاء من الوحدة السياسية الخاصة وإنجاز تأسيس الجسم السياسي الخاص بها، وعندها يمكنهُ الوقوف وجهاً لوجه مع عدوهِ الأبدي. وهذا ما حصل. [...].

محبّو الأتراك

لقد ظهر عندنا الآن عدد كبير لا يستهانُ به من محبي الأتراك، وبالطبع بسبب الحرب مع الأتراك. لا أتذكرّ ولو لمرة واحدة طوال حياتي أن أحداً ما بإعجابه بالأتراك أما الآن فغالباً ما أسمع وجود المدافعين عنهم، حتى أنني التقيت بعضهم، وبَدوا متحمسّين جداً لهم.

اعتقد أن لدى هؤلاء الناس حاجة لأن يكونوا غريبي الأطوار، وشاذين عن غيرهم. لكن مع ذلك فإن العلماء والمدرسين وأساتذة الجامعات المحبين لهم يدّعون:

إن العالمَ الإسلامي أدخلَ إلى العالم المسيحي العلمَ، كون العالم المسيحي غرقَ في ظلمة الجهل في الوقت الذي شعَ فيه العلم عند العرب. السبب كما تلاحظون هو جهل المسيحية «بوكل وحتى دريبس»[1] يستنتج من ذلك أن الإسلام هو النور والمسيحية هي بداية الظلمة. يا لهُ من منطق انعزالي. إن السبب على الأرجح يعودُ إلى كون المحمّديّة متنوّرة في الوقت الحاضر، مقارنةً مع المسيحية. وليكن أن المسيحيين قد أطفؤوا شمعتهم مبكراً.

- نعم، فعند المسلمين دين التوحيد، أمّا عن المسيحيين..

ما يتغاوى به الكثيرونَ من محبّي الأتراك هو تعظيمهم للإسلام بسبب دين التوحيد، أي نقاوة التعاليم فيما يتعلق بوحدانية الإله، وكأنها هناك أسمى بالمقارنة مع التعاليم المسيحية. لكن المهم هنا هو انفصال هؤلاء المحبين عن الشعب وعدم فهمهم له. وبذلك كوّنوا لأنفسهم مفاهيم غريبة،

بأن ما يحدث في رأس الروسي هو الدروشة، وأن هذا الروسي الدرويش: «لا يفقه شيئاً في مسألة الإيمان، ولا يعرف الصلاة» - هكذا اعتادوا أن يتحدّثوا عنه - وغالباً إن لم يكن دائماً تشكلت في عقله وروحه قناعة فريدة لكنها «صحيحة» وقوية ومقبولة تماماً عمّا يؤمن به، على الرغم من أنه في الوقت نفسه من النادر أن تجدَ أحد الدراويش يستطيع أن يشرح معتقداتِهِ بالكلمات بشكل واضحٍ ومتتابع.

من المستغرب أن يسمع هذا الروسي «المثقف» المنفصل عن الشعب أن هذا الرجل الأمي يؤمن إيماناً راسخاً بوحدة الإله، وأن الإله واحد ولا يوجد إله آخر يشبُهُهُ. وفي الوقت نفسه يعرف ويؤمن بإجلال «إن كل رجل روسي يعرف» بأن المسيح هو إلهه الحقيقي، ولدَ من الإله الوالد وتجسّد من العذراء ماريّا. إن الروسي المثقف الذي انفصم عن الشعب لا يريد أن يسمح حتى بإمكانية حصول هذا الرجل الروسي غير المتعلم على تلك المعارف: «إنّه غير متعلم وجاهل إلى درجة كبيرة، ولم يعلم أي شيءٍ أين معلمه؟». إن هذا المثقف الروسي لا يفهم أبداً أن معلم الرجل الروسي في «شؤون الإيمان» - هي الثُرَبة، هي كل الأرض الروسية، وأن معتقداته هذه وكأنها تخلق معه وتتغرس عميقاً في قلبه سويةً مع الحياة[٢].

لكن الأقل احتمالا من كل شيء للمفكر الروسي الآخر هو السؤال التالي: كيف يستطيع هذا الدرويش الروسي ألا يضلَ في مفاهيمه؟!. إن هذا المفكر نفسه قد فقد كل مفهوم عن ماهيّة إيمان الشعب الدفء والعظيم، وما عاد يستطيع أن يسلم بأن هذا الدرويش - الذي يؤمن إيماناً جليلاً بالسر المسيحي العظيم لتجسيد ابن الله - يمكن أن يبقى في الوقت نفسه على إيمانه بدين التوحيد الصارم.

إنه ينسب على الأغلب حالة الصلابة هذه إلى القناعات «المباشرة» للدرويش الروسي التي لا تقوم على التفكير، بل على خلط المفاهيم بسبب

الكسل، وطوباويّة الأفكار، وعدم وجود آلية انتقادية في عقله، وينسبُ حالةَ عقلِهِ الحزينة هذه إلى وضع الضيم والعوز والانحلال الخلقي والرق وغير ذلك. وعلى هذا يقف العالم الروسي «الدارس» للشعب الروسي.

وبالطريقة نفسها يمكن أن تحدث عملية شجب الروس الأرثوذكس بسبب تقديسهم الأيقونات مثلاً. لا يمكن للوثري آخر أن يفهم ولا بأي شكل من الأشكال كيف يمكن أن تؤمن بالإله الحقيقي، وتعبد في الوقت نفسه «لوحة» تصوّر قديساً، وأن تسلم بأن هذا ليس عبادةً للأصنام. إن المثقف الروسي غالباً ما يوافق اللوثري هذا التفكير. بينما لا يوجد روسي «واحد» رجل كان أم امرأة - ممن يقدسون الأيقونة - يخلط الأيقونة بالله نفسه، بغض النظر عن أن الشعب الأرثوذكسي يؤمن بمعجزة الأيقونات الأخرى، لكن لا يوجدُ أي روسي «واحد» يمكن أن ينسب قوّة إعجاز الأيقونة للأيقونة نفسها، وليس للمشيئة الإلهية. وهذا مختلف تماماً.

إن اعتقاد الروسي الدرويش هذا لا يمكن أن يسلم به لا اللوثري ولا الروسي المنفصل عن الشعب، نعم، ولا يمكن أن يثقا بصحة ذلك.

لقد تذكّرنا جنّة المحمديين كي نكمل قناعتنا النهائية عن نقاوة المفاهيم التركيّة حول وحدة الإله. أنا أقول كل ذلك لا لأبدأ جدالاً لاهوتياً مع مناصري دين التوحيد التركي، ولن أبدأهُ طبعاً. كون هؤلاء المناصرين يهتمون أكثر بالمفاهيم «الصحيحة» للشعب، فبالنسبة لهم لا فرق بماذا يؤمن كل شخص! وقد نقلتُ هذه المسألة لجعلها مفهومة شعبياً. ومكشوفة للناس!.

تموز - آب

«آنّا كارينينا»[أ] كحقيقة ذات أهّمية خاصة

حدث والتقيتُ هذا الربيع ذات مساءٍ أحدَ الكتاب الذين أحبهم حباً جَمّاً[١]، وقد كانَ من النادر أن نلتقي، فإذا حصلَ، جاءَ الأمرُ مصادفةً، وخلال فتراتٍ متباعدة تمتد شهوراً. إنّه أحد الأعضاء المهمين في مجموعة الخمسة أو الستّة من روائيينا، الذين من المتعارف تسميتهم بـ «البارزين»[٢].

إن النقد يميّز هؤلاء عن غيرهم من الناشرين، ويتابع أعمالهم فور نشرها، وقد غدا الأمر سُنّةً منذ زمن طويل. عدد هؤلاء الخمسة «البارزين» لم يزددْ.

أنا شخصياً أحبُ أن ألتقي هذا الروائي اللطيف المفضّل عندي، وأحبُّ أن أثبت له - على هامش أحاديثنا - أنني لا أصدّق، ولا أريد أن أصدّق أبداً، إنه أصبح هرماً - كما يقولُ عن نفسه - وأنه سيتوقف عن الكتابة. وكنتُ في كل لقاء قصير معه أخرجُ بشيءٍ عميق أردّدهُ وأستذكرهُ عنه. وفي هذه المَرّة كان ثمةَ ما يمكن الحديث عنه، فالحربُ قد بدأت، ولكنه شرع مباشرةً يتحدثُ عن «آنا كارينينا»

أ- رواية للكاتب الروسي ليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠).

وكنت للتو قد فرغتُ من قراءة الجزء السابع منها - وهو الذي يختم الرواية - في مجلّة «روسكي فيستنك»[٣]. لم تبدُ على وجهِ محدثي علاماتُ الحماسةِ الشديدة ومع ذلك فقد أدهشني رأيه الصلب والواضح عن «آنا كارينينا»:

- هذه رواية لم يُسْمَع بمثلها من قبل، إنها الأولى. أي كاتبٍ من كتابنا يمكن أن يقدّم عملاً يساويها؟ ومن في أوربا يستطيع أن ينتج شيئاً مماثلاً؟ بل هل كان في أدب الأوربيين خلال السنوات الماضية، وقبلها بكثير، إنتاجٌ أدبي يضاهيها؟

إنه ما أدهشني في هذا الرأي - وهو المهم - تلك الإشارة التي أوافق عليها، الإشارة إلى سؤال مهم محوطٍ بسوء الفهم دائماً. لقد أصبح الكتابُ في نظري مباشرةً بمثابةِ حقيقية واقعة، يمكن أن تتكفّل بإجابةِ أوربا عوضاً عنا، إنّه يمثّل الحقيقة التي نستطيع أن نلفت انتباه أوربا إليها. بالطبع سيهزأ الأوربيون منّا ويضحكون ويقولون: إن هو إلا أدب، إن هي إلا رواية، ومن المضحك أن نبالغ في الأمر ونضخم هذا العمل حاملينه إلى أوربا؟! أعرفُ أنهم سيضحكون... لا تقلقوا.. إنني أنظر بوعي تام للمسألة ولا أضخّم الأمر: أعلم أنها ليست إلا رواية، ليست إلا قطرة واحدة مما هو مطلوب. ولكن الأمر الأساسي في اعتقادي أن هذه القطرة وجدتْ.. موجودة فعلياً كحقيقة.. وأن العبقري الروسي استطاع أن يخلق هذه «الحقيقة»، مما يدلُّ أنه ليس محكوماً بالضعف، ويمكنه أن يبدع.. وأن يقدم ما هو خاص «به» أن يبدأ كلمته «الخاصة». ويخرجها إلى الملأ حين يحين الوقت. زد على ذلك أنها ليست قطره فقط آخ.. وأنا هنا لا أبالغ: إنني أعرفُ تمام المعرفة أنه لا يمكنكَ أن تجدَ في واحدٍ من مجموعة «البارزين» هذه، بل في المجموعة كلها الشخص الذي يمكنك تسميته - بثقةٍ مطلقة - مبدع القوّة أو عبقريُّها. لقد عرف أدبنا ثلاثةَ عباقرةٍ من أصحاب

«الكلمة الجديدة» لا نقاش حولهم، ثلاثة فحسب هم: لومونوسوف، وبوشكين، وإلى حدٍ ما غوغول[٤]. إن مجموعة «البارزين» تلك «بمن فيهم كاتبُ «آنا كارينينا»» خرجت مباشرةً من مدرسة بوشكين، أحد الأشخاص الروس العظماء، الذي ما زالَ غير مفهوم ولا زالَ حظّهُ من الدراسة عاديّاً. إن فكر بوشكين ينطوي على فكرتين أساسيتين وكلتاهما تتضمن رسم المكانة المستقبلية لروسيا، وتحديد هدفها المستقبلي... أي هدفنا جميعاً.

الفكرة الأولى - عالميّة روسيا: قدرتها على الاستجابة وصلة قرابة عبقريتها الحقيقية والعميقة بعبقريات كل العصور وكل شعوب العالم. إن هذه الفكرة التي عبر عنها بوشكين ليست مجرد تعاليم أو نظريات أو توجيهات وليست حلماً أو رؤية لا... «لقد جسدها هو نفسه على أرض الواقع»: إنه إنسانُ العالم القديم، وهو الألماني، وهو الإنكليزي، العالم بمواطن عبقريته الخاصة وتوقه إلى تحقيق طموحاته ««وليمة في زمن الطاعون»»، وهو شاعر الشرق كذلك لقد أعلن لكل تلك الشعوب أن العبقري الروسي يعرفها ويفهمها جميعاً، التقى أفرادها كواحد منهم، واستطاع أن يتقمصهم بشكل كامل، مبيناً أن العالميّة بمحتواها الإنساني ممنوحة للروح الروسي قبل غيره وهو القادر على إدراك المستقبل وتوحيد القوميات المختلفة ونزع ما يفرق بينها من متناقضات.

أما فكرة بوشكين الثانية تتجلى في تحوله إلى الشعب والاعتماد عليه وعلى قوته فقط. وفي توصية مفادها: إن في الشعب وحده نستطيع أن نجد مصادر العبقرية الروسية كلها والمهمات الملقاة على عاتق هذه العبقرية. إن بوشكين لم يشر إلى ذلك فحسب، بل كان أول من اندفع إلى العمل. منذ بوشكين بدأ التحول الواعي والحقيقي باتجاه

الشعب، وقد كان ذلك مستحيلاً قبله. إن مجموعة هؤلاء «البارزين» عملت على هدي بوشكين، ولم تقل جديداً غير ما قاله. كل أصولها تعود إليه، وتتفرع منه. بل لعلها لم تنجز إلا جزءاً بسيطاً من توجهاته ومع ذلك فقد حققوا شيئاً جميلاً، ولو كان بوشكين حياً لاعترف لهم بذلك.

«آنا كارينينا» - ليست شيئاً جديداً بالطبع، وفكرتها ليست جديدة بحيث نقول إننا لم نسمع بمثلها عندنا ولكننا نستطيع عوضاً عن ذلك أن نشير لأوربا إلى المصدر الأساسي أي إلى بوشكين نفسه، كإثبات قوي وساطعٍ، غير قابلٍ للنقاش على استقلالية العبقرية الروسية، وعلى حقها في أن يكون لها دور عظيم في توحيد الإنسانية مستقبلاً. «آه مهما قدمنا لهم ووجهناهم، فإنهم سيعتبروننا ولزمن طويل خارج أوربا. وحتى لو اعترفوا بأننا جزء من أوربا، فسيكون من الصعب عليهم فهمنا وتقدير أهميتنا. نعم هم ليسوا قادرين على تقييمنا، ليس بسبب ضعفٍ في ملكاتهم، بل لأننا - كما يرون - قد أتينا من عالم آخر، ربما من القمر!

وبالتالي فمن الصعوبة بمكان أن يسلموا بوجودنا. إنني أعي كل ذلك، وأتحدث عن فكرة «إرشاد أوربا»، أتحدث عن ذلك انطلاقاً من قناعتنا الخاصة في حقنا بالاستقلالية أمام أوربا».

وعلى كل حال فإن «آنا كارينينا»، هي الكمال.. كإنتاج أدبي، جاء في قوته، إنه عمل أدبي لا يمكن مقارنته بأي عمل آخر في الأدب الأوربي في الوقت الحاضر. والأمر الآخر أن هذا الكتاب لنا ومنا، وهو يشكل خصوصيتنا أمام العالم الأوربي، و «كلمتنا الجديدة» القومية، أو على أقل تقدير البداية باتجاهها - هذه الكلمة التي لم يسمع عنها من قبل في أوربا، وهي ضرورية لها بدرجة كبيرة، على

الرغم من كل اعتزازها بنفسها. إنني لا أستطيع أن أخوض في النقد الأدبي، لكنني سأقول في هذا السياق كلمة صغيرة، إن عمل «آنا كارينينا» عبر عن الذنب الإنساني والجريمة الإنسانية. لقد قدم شخصيات في ظروف غير عادية. وكان الشر موجوداً قبل تلك الشخصيات، التي أجبرت على دخول دائرة الكذب. إنها شخصيات يرتكب الجريمة وتقتل دون مقاومة: وكما هو ملاحظ فكرةُ العمل من الموضوعات القديمة والمفضّلةِ أوربيّاً. لكن كيف تحل مثل هذه المسألة في أوربا؟

هناك تُحلّ في كل الأمكنة وفقَ طريقتين: الأولى - تتمثّلُ بوجود القانون الذي كُتبَ وشُكّلَ على مدار آلاف السنين، وفيه الخير والشر محددا الملامح، فقد عمل حكماء الإنسانية التاريخيون على تحديد حجم كل منهما ودرجته وأمر بتطبيق هذا القانون المعد إلى حد ما بشكلٍ أعمى. فمن لا يتبع هذا القانون ويتجاوزه - يدفعُ الحرية والأملاك والحياة، يدفعُ دون رحمة. «أنا أعرف - تقول حضارتهم - بأن فعلنا هذا أعمى وغير إنساني، ومن غير الممكن إعداد تصور نهائي للإنسانية ونحن في وسط الطريق، لكن طالما أن لا مخرج من الحالة، فيجب اتباع قانوننا المكتوب وتنفيذه حرفياً ودون إنسانية، وإن لم نفعل ذلك فسنسير إلى الأسوأ. ومع ذلك وبغض النظر عن سخافة ما نسميه نحن حضارتنا الأوربية العظيمة وشذوذ تنظيمها، فلندع قوة الروح الإنسانية تضيف الأشياء الصحيحة والصالحة، ودع المجتمع يثقُ بأن الحضارة تسير نحو الكمال، ولا تدعه يتجزأ أو يفكر بأن المثل الأعلى السامي والرائع أصبح قاتماً، وأن مفهوم الخير والشر ينحرف ويتشوه، وأن الصحيح يتبدل دائماً إلى نقيضه.. وأن البساطة والطبيعية تموتان بسبب ضغط الكذب الذي يتجمع باستمرار».

أما الطريقة الثانية فهي نقيضةُ ما سبق: «بما أن المجتمع مشكل بطريقةٍ غير صحيحة فليسَ لكَ أن تسألَ أفراد هذا المجتمع عن نتائج أفعالهم. أي أن المجرم غير مسؤول، والجريمة بالتالي غير موجودة، ولكي ننتهي من الجرائم والأخطاء الإنسانيّة يجب أن ننتهي من تشوه المجتمع وتركيبته الخاطئة. وبما أن علاج النظام القائم للأشياء سيكونُ طويلاً ودونَ فائدة، وما عرفنا له دواءً حتى الآن، فيجب هدم هذا المجتمع وكنس النظام القديم بمكنسة!، وعندها تستطيع أن تبدأ ببناء كل شيء من جديد، وعلى أسس أخرى، ما زالت غير معروفة، ولكنها بطبيعة الحال ليست أسوأ من أسس النظام الحالي، وبالتالي فهي قادرة على تحقيق النجاح.

ولا سيما حين يتمُّ اعتمادُ العلم أساساً لذلك.». وعليه فالحلُ الثاني كما رأينا يتجلى: في انتظار عش النمل المستقبلي[٥]. وإلى حينها يمتلئ العالم بالدم. إن عالم أوربا الغربيّة لم يقدم أي حلول أو طرائق أخرى لمسألة الذنب والجريمة بينما عالج كاتب «آنا كارينينا» المسألة بوضوح ورأى أن لا عش النمل ولا أي انتصار «للفئة الرابعة»، ولا أي قضاء على الفقر، ولا أي منظمة للعمل يمكن أن تنقذ الإنسانية من انحرافها، أي من الذنبِ والجريمة، لقد عبر عن ذلك من خلال معالجةٍ نفسيةٍ عميقة للروح الإنسانية، وبقوة سبر نفاذةٍ مهيبة، وصور كل ذلك في رواية أدبية واقعية لا يوجد مثيل لها عندنا حتى اليوم..

إن الشر يسكن الإنسانية بشكل جلي وواضح، أعمق مما يتصوره الحكماء - الاشتراكيون، بحيث أن أي رغبة لبناء المجتمع لا تستطيع أن تتجنب الشر، والروح الإنسانية تبقى نفسها - مهما حدث - والانحرافُ والذنب يصدران عنها نفسها، وأخيراً علينا أن نعترف أن قوانين الروح الإنسانية، غير معروفة وغير مكتشفة من قبل العلم وهي إلى الآن غير

محددة، بحيث لا تجد حكماء في هذا المجال أو «قضاة نهائيين»، لكن هناك من قال: «الانتقامُ عندي ووفق ما اقترفت يداك»[٦]. وهو وحده العالم بشر هذا الكون وبمصير البشرية النهائي. الإنسانُ لا يستطيعُ حتى الآن أن يأخذ على عاتقه حل أي مسألةٍ بفخر كاملٍ ببراءته. لم يحن الوقت لذلك. إن القاضي الإنسان يجب أن يدرك أنه ليس قاضياً نهائياً، وأنه نفسه مذنب، وسيكون الميزان والمقياسُ في يده من السخافة بمكان «إذا» لم ينحنِ وهو يحملهما أمام قانون آخر سريٍ وقائم على الحب والتسامح. ولكي لا يموت الإنسان جراء يأسه وعدم فهمه لمصيره وطريقه، وجراء قناعته استحالة تجنب الشر السرطاني السري، فقد تمت الإشارة إلى المخرج. وبشكل رائع في الجزء العبقري من الرواية، في الفصل قبل الأخير منها، في مشهد المرض المميت للبطلة، عندما ظهر المجرمون والأعداء فجأة في صورة كائنات سامية تحكمها الأخوة، وتسامح بعضها بعضاً، وبالتالي تطرحُ من نفوسها بفعل ذلك الكذب والذنب والجريمة. وتبرئ ذاتها مباشرةً وهي في وعي كامل، وقد حق لها ذلك. ولكن بعد ذلك، في نهاية الرواية، في مشهد مخيفٍ وكئيبٍ لسقوط الروح البشرية ومرسوم بتتابع مدهش وحثيث، يقدم حالة لا تقاوم، يوم سيطر الشر على الكائن الإنساني، وقيد كل حركته من حركاته، وشل مقاومته، ونوازعه الفكرية في الصراع ضد الظلمة، التي تسقط الروح - عن قصد - بشغف الانتقام. في هذه اللوحة قدر كبير من الموعظة للقاضي الإنسان، لحامل المقياس والميزان. الذي سيصرخ بالتأكيد فزعاً: «لا ليس الانتقام عندي دائماً، وليس وفقاً لما اقترفت يداك» - ولن يحمل المتهم ذنباً دون أي شعور إنساني، لأنه استهان بنور الهداية الأبدي المعروف، ورفضه «عن سابق إصرار وقصد». فإذا كان لدينا مثل هذا الأدب الراقي بفكرته وقوية وتطبيقه، فلماذا لا يكون لنا ««بالنتيجة» عملنا «الخاص»، وقراراتنا

الاقتصادية والاجتماعية الخاصة، لماذا ترفض أوربا الاعتراف باستقلاليتنا وبأن لنا كلمتنا «الخاصة بنا»؟ - هذا هو السؤال الذي يطرح نفسه. ومن المضحك أن نقر بأن الطبيعة منحتنا عبقرية أدبية فحسب. أما ما تبقى فهو سؤال التاريخ والظرف وشرط الزمن: هكذا على أقل تعبير يمكن أن يفكر أوربيونا، بانتظار أن تظهر فتاوى أخرى...

حول المعرفة الصحّيحة التي يمتلكها الشعب الروسي الأمي والجاهل للجوهر الأساسي للمسألة الشرقية

بدأ الحجاجُ الروس يتدافعون إلى الأراضي المقدّسة وإلى ضريح القديس في جزيرةِ آفون[1] اليونانية وغيرها منذُ آمنوا بالمسيحيّة، ومنذ أيام الحروب الصليبية كان قد تجوّل في القدس أحد شيوخ الرهبان الروس، واستقبل يومذاك بودٍ من قبل ملكِ القدس «بالدوين» وكتب عن رحلتهِ هذه بشكل رائع[2]، ومنذ ذلك الحين لم ينقطع الحج إلى الأماكن المقدسّة في الشرق. إن الكثير من الرهبانِ الروس الموجودين الآن في روسيا كانوا قد عاشوا في أثينا، وبتأثيرهم يعرف الشعب الروسي الجاهل والبسيط جيداً أن الأماكن المقدسّة بمن فيها من المسيحيين الشرقيين تَقَعُ تحت سيطرة الأتراك وغيرهم[3]، وأن المسيحيين في كل الشرق يعيشون في ظروف صعبة جداً. إن الشعب الروسي يعرف ذلك منقبض القلب، وهذه ميزة شعبية روسية تاريخية. لقد قيمّ هذا الشعب منذ القدم التوبة ومآثر الحج إلى الأماكن المقدسة، وكان قلبه يجذبه دائماً إلى تلك الأماكن - وهذه أيضاً ميزة تاريخية. خرج الناس من قراهم دون نقود، وخرج المسنّون والجنود المرافقون دون أي معرفةٍ بالجغرافيا، وكانت حقائبهم الفقيرة على أكتافهم... وتمكنوا من الوصول إلى الأماكن المقدسة بعد عددٍ من الكوارث والفواجع التي كانت تصيبهم، وعندما عادوا إلى الوطن استمع الناسُ إلى

حكاياتهم عن رحلتهم البعيدة بكل احترام. نعم الشعب الروسي يحب الحكايات عن «الألوهيّة». استمعَ الرجالُ وأطفالهم والتجارُ في المدن التي حَطّوا فيها إلى حكاياتهم تلك بكل ارتياح وحبور: من قرأ منكم مجلة «تشيتي - مينية»[١]؟ هل قرأها بعض الرهبان في الدير؟ أو أحد مدرسي اللاهوت؟ أو أحد المسنين غريبي الأطوار، ممن يصحون ويصلونَ صلوات الليل[٤]؟، رُبّما تسنّى لهؤلاء قراءَتها، إن من الصعوبةِ بمكان أن تحصل عليها، أو أن يعيركَ إياها أحد. لكنها معروفة بشكل غير عادي بما تضمهُ من حكايات في روسيا كلها. فما السبب إذاً؟ لأن هناك عدداً كبيراً من «الحكواتيين»، ممن يقومون بسرد الحكايات عن حياة القديسين[٥]، مستفيدين من هذه المجلّة دون زيادة أو نقصان، ويجدون دائماً من يستمعُ إلى قصصهم. لقد استمعتُ شخصياً إلى الكثير من تلك الحكاياتِ في صغري، قبل أن أتعلم القراءة. ثم استمعتُ إليها فيما بعد في السجون، مع قطاع الطرق الذين أصغوا لأحداثها باهتمامٍ وارتياح. بل أنقلُ الحقيقة فقط. ما العمل إن كانت لدينا مثل تلك الميزة؟ لا أعرف ماذا ينتج عنها، لكن من الممكن جداً أن ينتج شيء ما. إن كل الأشياء المهمة في حياة الشعوب ترتبُ وفقاً لأهميتها وطبيعتها وخصائصها القومية.

[...] آه إن شعبنا جاهل وأمّي، وهذا لا شك فيه، يمكنُ أن نوضحَ للشعب، أن كل ذلك الترحال والحج هو فهم ضيق للواجب والالتزام..

فلا حاجةَ للسفر بعيداً من أجل الأعمال الجيدة والخيرة، الأفضل ببساطة أن يترك هذا الشعبُ السُكْرَ ويركز اهتمامه لأجل تحسين مستوى معيشتهِ، وتحسين مستواه الاقتصادي، ومنع ضرب النساء من قبل

١- دوريّة شهرية كانت تصدر في روسيا في ذلك الوقت، تسردُ حكاياتٍ دينيّة /المترجم/

أزواجهن، وتركيز الاهتمام على المدرسة، وإنشاء الطرقات وغيرها من الأعمال - باختصار على هذا الشعب أن يفعل أي شيء لمساعدة وطنه روسيا، كي تصبح روسيا قادرة أخيراً على فتح أوربا المتنوّرة! يمكن أن نوحي للحاج أن تطوافَهُ في أماكن الله المقدسة غير ضروري لأنه لا يجلب أي نفع لهُ شخصياً أو لأسرتهِ، بل العكس، إن هذا الأمر قد يجلب الضرر أحياناً، كون ترحالهِ وتركهِ وطنه وبيته فعلٌ أناني لإنقاذ الروح، والأفضل بكثير عند الله لو أن هذا الحاج أمضى عطلة العيد في تقديم المنفعة للمقربين، أو جلس في المزرعة واعتنى بالأبقار وغير ذلك من الأعمال. باختصار يمكن أن نقول أشياء كثيرة ذات نفع، لكن ماذا نفعل إذا كانت هذه الميزة التاريخيّة بما تمثله من بحث عن الخير قد اتخذت في شعبنا شكلاً واحداً أي شكل التوبة من خلال الحج أو التضحية بالنفس؟

لقد كان من الأجدى لـ «ليفن» الذكي - أثناء انتظارهِ للتنوير - أن يأخذ بالحسبان ميزة الشعب التاريخية، وكان باستطاعته أن يفهم على أقل تعديل بأن الكثيرين من المتطوعين والشعب الذي خرج لوداعهم: تصرفوا انطلاقا من حافزٍ جيد، فكروا أن يفعلوا الخير «لا يمكننا إلا أن نوافق على ذلك» هذا يعني بأن هؤلاء كانوا على أقل تعديل ممثلين جيدين للشعب ليسوا «متنورين بارزين» وليسوا ناساً ضائعين ولا متسكعين بل على العكس، يمكن لهؤلاء أن يكونوا من خيرة أبناء الشعب. إن المسألة واضحة جداً مثل مسألة المسيح - هي مسألة طهارة وتوبة، ولا يوجد واحد من أفراد هذا الشعب، قد شعر بالخطأ أمام القيصر، بل على العكس لقد شعرَ كل واحد أن قلب قيصرهِ المحّرر السموح يقف إلى جانبه في صفٍ واحد.

لقد انتظر الناسُ إرادة القيصر وكلمته بأملٍ وارتياح، أما نحن الجالسين في زوايانا فقد فرحنا في أعماقنا كون الشعب الروسي العظيم لم يخيب أملنا الأبدي فيه.

لقد حفظ الناس هذه الحكايات عن ظهر قلب دون أن يقرؤوها في الكتب، إذ هذه الحكايات عن الأماكن المقدسة، وسير القديسين تشكّلُ ملاذاً للشعب الروسي، للتوبةِ والتطهّر. غالباً ما كانت تظهر عند الخاطئين والضالين رغبة جامحة في الذهاب إلى الأماكن المقدسة للتطّهر بالعمل والمآثر وتنفيذ العهد المعطى منذ زمن. وإذا ما تمكن هؤلاء من الحج إلى القُدس فسرعان ما يقصدون الأماكن المقدسّة الروسّية في «كييف» وقد يقصدونَ العجائب السولوفيتسكية[٦].

إن نكراسوف كرسامٍ عظيم، لم يستطع إلا أن يجسّم عمله العظيم «فلاس» في التوبة التجواليّة مجللاً بقيودهِ المعدنية[٧].

إن مثل هذه الميزة تاريخية وهي لافتة للنظر كونها غير موجودة عند الشعوب الأوربية الأخرى. ما الذي ينتج عن ذلك؟ مع العلم أن الأوربيين يتحركون باتجاه شعبنا من خلال المدارس والتعليم والتنوير.. الخ.

إلا أن مثل هذه الميزة يمكن أن تفسّر لنا الحركة الشعبيّة التي جرت العام الماضي لدعم إخواننا السلافيين، وقد بدأت الآن تثير السخرية لدى البعض[٨].

على الرغم أن من النادر أن تجد من يعرف أن هناك صرباً وبلغاراً وسكان الجبل الأسود ممن يرزحونَ تحت حكم المسلمين الأتراك ويعانون.

إن شعبنا لم يعرف عن كل ما سبق إلا عندما بدأ القيصر حربه ضد تركيا ثم أورّبا فيما بعد، تلك الحرب التي انتهت في «سيفا ستوبل»[٩]. ويوم ذاك بدأت تصلُ إلى مسامع الشعب كلمات عن الأماكن المقدسة[١٠]، يمكن أن يتذكرها الناسُ حتى الآن.

لقد ساعد الوقت الحركة الشعبيّة في العام الماضي، حيث ارتفع فجأة صوت ما يعلن عن اضطهاد المسيحيين وتعذيبهم من أجل الكنيسة وبسبب إيمانهم، وقد قدّم بعضهم رأسه فداءً للمسيح، ومشى إلى الصليب «لو أن

هؤلاء وافقوا أن يرتّدوا عن دينهم لكانوا قد تلقّوا المكافآت والجوائز - وهذا ما كان معروفاً للشعب».

انطلقت بعد ذلك الدعوات للتضحية، وبدأ المتطوّعون يذهبون للقتال، وانتشرَ خبرُ الجنرال الروسي، الذي سافر لمساعدة المسيحيين - كل هذا هَزّ الشعب، وكأن الأمر بمثابة دعوة إلى التوبة والصوم[11] [...]

وهكذا فإن هذه الحركة كانت توبةً وهي في الوقت نفسه تاريخيةً. إنني عندما أتحدث عن هذه الميزة التاريخية للشعب الروسي وغيرته للقيام بأعمال الخير والذود عن الأماكن المقدسة والمسيحيين المضطهدين، أي باختصار عن مفهوم التوبة الإلهّية، فأنا لا أفكر بمدح شعبنا من أجل ذلك: لا أمدح ولا أذم هذا هو الشعب الروسي الحقيقي، وليس جماعة بوغاتشيف[12] والكومونة وغيرها.

إن ليفن المريض بالوهم الشديد والضجر يمكن أن يقع في خطأ المقارنة هذا.

تشرين الثاني

أفكار عن العالم

«القسطنطينيّة يجب أن تكون لنا»

هل يمكن ذلك؟

[...] ما دام الحديث قد دار عن القسطنطينيّة الآن، فسأطرح وجهة نظر غريبة جداً، وغير متوقعة على الأرجح تتعلق بالمصائر القريبة للقسطنطينيّة وهو ما تحدث عنه إنسان كان ينتظر منه طرح آخر تماماً على ضوء الأحداث الحالية ومتوقعة الحدوث. إن نيكولاي ياكوفلوفيتش دانيلوفسكي - الذي كتب كتاباً رائعاً منذ ثماني سنوات مضت: «روسيا وأوربا»، وضمّ الكتابُ فصلاً عن المصير المستقبلي للقسطنطينية غير واضح وضعيف - قد نشرَ منذ فترة قصيرة في جريدة «روسكي مير» عدداً من المقالات عن الموضوع نفسه[1]. وكانَ استنتاجه النهائي عن القسطنطينية غريباً جداً. ولن أتناول الاستنتاج بالتفصيل.

إن القسطنطينية لا يمكن أن تصبحَ حُرّةً بعد طرد الأتراك منها مثل مدينة «كراكوف» السابقة مثلاً، لأنها لن تغامر بأن تكون عشاً للرذيلة والدسائس، وملجأً لكل متآمري العالم، وفريسةً لمضاربي التجارة و«القبضايات» وغيرهم، وغيرهم.

إن دانيلوفسكي يقرُّ بأن القسطنطينية يجب أن تصبح يوماً ما مدينة مشتركة للشعوب الشرقية كلها. وستمتلكها كل الشعوب بالتساوي مع الروس، الذين سيسمح لهم بالملكية على أسسٍ متساوية مع السلافيين. إن هذا الحل برأيي غريب. أي مقارنة يمكن أن تكون بين الروس والسلافيين؟ ومن الذي سيحدد بينهم المساواة؟ وكيف يمكن لروسيا أن تشارك في ملكية القسطنطينية على أسس متساوية مع السلافيين، إذا كانت روسيا لا تتساوى معهم في العلاقات كلها - سواء أخذوا مجتمعين أو فرادى؟

إن «فيليكان غوليفير» كان قادراً - لو أراد - أن يؤكد للأقزام أنه متساوٍ معهم في كل العلاقات، لكن ذلك سخافة واضحة! لماذا تملأ نفسك بالسخافات إلى ذلك المستوى الذي يجبرك على تصديقها بالقوّة؟

إن القسطنطينيّة يجب أن تكون «لنا» نحررّها نحن الروس من الأتراك وتبقى لنا إلى الأبد، يجب أن تكون لنا وحدنا، ونحن طبعاً - بامتلاكنا لها - يمكن أن نسمح لكل السلافيين ومن نريدهم بالدخول إليها، وعلى أسس واسعة، لكن ملكيتها لن تكون فيدراليّة مع السلافيين. نعم، لأن الوحدة الفيدرالية للسلافيين مع بعضهم لن تتحقق قبل قرن كامل ستمتلك روسيا القسطنطينية فقط، والمحيط الضروري مثل البوسفور والمضائق وسيتمركز فيها الجيش وقوات المساندة والأسطول البحري، هذا ما يجب أن تكون لفترة طويلة، بل طويلة جداً. آه سيصرخ الكثيرون: «أصبح واضحاً أن خدمة روسيا للمسألة السلافيّة لم تكن نزيهة!».

يمكن الإجابة بسهولة على ذلك. إن خدمة روسيا للسلافيين لم تنته الآن! لكنها ستستمرُ لقرون قادمة وسيعيش السلافيون على هذه الأرض اعتماداً على قوة روسيا المركزية العظيمة، ومقابل ذلك لن يدفع أحد شيئاً! وإذا ما استولت روسيا على القسطنطينية فسيكون ذلك سبباً وحيداً يدخل

ضمن المهمّات الملقاة على عاتق روسيا، ليست المسألة السلافية فحسب بل وأكثر المسائل عظمةً بالنسبة لها، وهي المسألة الشرقية، التي لا تحل إلا في القسطنطينية فقط.

إن الملكية الفدرالية للقسطنطينية من قبل شعوب مختلفة يمكن أن تقضي على المسألة الشرقية، تلك التي يتطلبُ حلها التمني بإلحاح حتى يحين الوقت المناسب لذلك، لأنها مسألة مرتبطة بقوة بمصير روسيا ودورها نفسها، ويمكن لروسيا وحدها أن تحل هذهِ المسألة. هذا إذا لم نقل أن الشعوب السلافية نفسها سوف تتصارع فيما بينها في القسطنطينية على الحكم والسلطة.

الصراع هناك سوف يولده اليونانيون لأن الغيرة سوف تتملّكهم لامتلاك تلك الشعوب السلافية ذلك الموقع الرائع في أوربا والكرة الأرضية، وستتملك الفترة أيضاً السلافيين الغربييّن... باختصار ستكون القسطنطينية حينها أساساً للخلاف في كل العالم الشرقي والغربي، وهذا ما سيعيق وحده السلافيين، ويوقف حركة التطّور الصحيح لحياتهم. وبالتالي فالإنقاذ سيكون باستيلاء روسيا وحدها ولنفسها على القسطنطينية وعلى حسابها الخاص أيضاً حينها ستقول روسيا لكل شعوب الشرق بأنها أخذت القسطنطينية لنفسها - «لم يتطور أي شعب منكم بمفرده ولا كلكم مجتمعين إلى مستوى القسطنطينية، أما روسيا فقد بلغت ذلك المستوى».

نعم وصلت. والآن فقط تحلُّ مرحلة جديدة من حياة روسيا، إن القسطنطينية هي مركز العالم الشرقي، أما روسيا فهي المركز الروحي للعالم الشرقي، وهي رأسه. من المفيد لروسيا «وهي بحاجة» لأن تنسى لبعض الوقت بطرسبورغ، وتكثف وجودها في الشرق، فمصيرها ومصير أوربا يتغير، والتغير قريب، بل يقف على «الأبواب».

ثُمّ أن ترك الخلافات على الملكية الجماعية للقسطنطينية والخلافات التي تنجم عنها لبعض الوقت هو لصالح السلافيين أنفسهم.

سأحاول أن أوضح بكلمات قليلة مصير القسطنطينيّة - في هذه الحالة - بالنسبة لليونانيين والسلافيين.

سينظر اليونانيون بغيرة إلى البداية الجديدة للسافيين، وحتى أنهم سيكرهونهم وسيخافونهم أكثر من الأتراك السابقين. إن الخلاف الأخير بين البلغار والعرش البطريركي، يمكن أن يقدم مثالاً للمستقبل. فقد تنزل القيادة الدينية في القسطنطينية إلى مستوى المكيدة[٢]، وقد تسقط إلى مستوى الردّة - وكل ذلك لأسباب قومية، وللحساسيات والإهانات القومية ويمكن أن يقول اليونانيون: «لماذا يكون السلافيون أسمى منا نحن، ولماذا يعترف بحقهم المطلق في القسطنطينية على الرغم من أننا سنكون معهم؟»

لاحظوا الآن ما يلي: لو أن روسيا امتلكت القسطنطينية، وكان لها في الوقت نفسه الوقت والهيبة الواضحة العظيمة لتخلصت تقريباً من إمكانية سماع وطرح مثل هذه الأسئلة، وما كان بإمكان اليونانيين أن يغاروا أو يتكدروا من روسيا إلى تلك الدرجة بسبب امتلاك القسطنطينية، لأن روسيا عند ذلك ستكون قد امتلكت القوة الواضحة وبالتالي مصير الشرق.

إن روسيا بامتلاكها القسطنطينية ستقف وتسهر على حماية حرية السلافيين كلهم و «الشعوب الشرقية كلها دون التميز فيما بينها». لقد كانت الملكية الإسلامية على مَرّ القرون غير موّحدة، لكنها بقوتها الضاربة منعت تلك الشعوب أن تتحرك، وأن تحيا كما يليق بالبشر. أما بعد القضاء على هذه الملكية فمن الممكن أن تدبّ الفوضى المخيفة في الشعوب التي ستخرج لتوّها من ربقة الظلم. بحيث تصبح الفيدرالية الصحيحة، بل مجرد التوافق البسيط بين تلك الشعوب

حلماً مستقبلياً فقط. ولكي تكون روسيا هي القوة الموحدة الجديدة بالنسبة لهم يجب أن تسيطر بقوة على القسطنطينية وستنقذهم من بعضهم بعضاً وتسهر على حماية حريتهم وعلى حماية الشرق كله ونظامه المستقبلي. وأخيراً ستكون هي وحدها قادرة على أن ترفع في الشرق راية الأفكار الجديدة وتشرح لكل العالم الشرقي الدور الذي يقعُ على عاتقه. ما هي المسألة الشرقية؟ المسألة الشرقية في جوهرها هي حل مصير الأرثوذكسيّة.إن مصير الأرثوذكسيّة ينصبُ في مصير الدور الملقى على عاتق روسيا. ما هو مصير الأرثوذكسيّة؟ إن الكاثوليكيّة الرومانية هي التي باعت المسيح مقابل الملكية الدنيوية وأجبرت الإنسانية أن تبتعد عنها، وكانت أهم أسباب المادية، والإلحادية الأوربيّة، هذه الكاثوليكيّة بالطبع نشرت الاشتراكية في أوربا. والاشتراكية تهدف إلى معالجة مصير الإنسانية، ليست حسب تعاليم المسيح، بل خارج تعاليم الله والمسيح، وتهدفُ للنهوض بدل المسيحية التي فقدت وأصابها الانحلال.

تهبُ إلى العالم من الشرق «كلمة جديدة»، في مواجهة الاشتراكية المستقبليّة، وهي القادرة على إنقاذ الإنسانية الأوربية من جديد. هذا هو الدور الملقى على عاتق الشرق، وهذا ما تشكلهُ المسألة الشرقية بالنسبة إلى روسيا. إنني أعرف الكثيرين الذين يسمّون هذا التفكير «بالهستيريا» لكن دانيلوفسكي يمكن أن يفهم جيداً ما أقول. أما روسيا ولأجل الدور الملقى على عاتقها فهي بحاجة للقسطنطينيّة، كونها مَركزاً للعالم الشرقي.

إن روسيا تدرك في نفسها - مع الشعب وعلى رأسه القيصر - أنها حاملة لأفكار المسيح فقط، وأن الكلمة الأرثوذكسية تتحول فيها إلى عمل عظيم، هذا العمل الذي بدأ مع الحرب الحالية، وما زال أمامها قرون من

العمل والتضحية الذاتية، وغرس أخوة الشعوب، والخدمة الأمومية الدافئة لهم كأبناء أعزّاء.

نعم هذا هو الشأن المسيحي العظيم، وهذا هو النشاط الجديد للمسيحية والأرثوذكسية.. وقد بدأ في الحرب الحالية وحقيقتها، لكن دانيلوفسكي لا يؤمن بذلك.. ومن الواضح أنه لا يؤمن، لأنه لا يُعتبر امتلاك القسطنطينية جدارةً [...].

يجب اقتناص اللحظة المناسبة

[...] الاشتراكية، كارث كاثوليكي وفرنسي، مكروهة جداً من قبل الألماني الحقيقي، ويفكّرُ ممثلو ألمانيا أن من السهولة القضاء عليها، إذ يكفي من وجهة نظرهم أن تقضي على فرنسا سياسيّاً كونها تشكل مصدر الاشتراكية وبدايتها حتى يتحقق ذلك.

لكن إليكم ما سيحدث: إذا سقطت فرنسا سياسياً فإن الكاثوليكية ستفقد سيفها وستتوجّه إلى الشعب لأوّل مرّة، هذا الشعب الذي احتقرته على مدى قرون وهي تتزلف للملوك والأباطرة الدنيويين. ستتوجه إلى الشعب كونه لا يوجد من تتوجه إليه، وبالذات إلى الزعماء والعناصر الأكثر حيويّة في هذا الشعب أي إلى الاشتراكين. وستقول إن كل ما يعظ به الاشتراكيون، كان قد وعظ به المسيح. ستشوه وتبيع المسيح مَرّة أخرى، كما فعلت لأكثر من مَرّة من قبل، لأجل الممتلكات الدنيويّة، مدافعةً عن حقها في تعذيب الناس بطريقة قاسيّة باسم المسيح المحبوب - المسيح الذي اعتزّ بالتلاميذ الملتحقين به بحرّية، وليسَ بالناس الذين يفعلون ذلك بفعل الخوف والمصلحة الشخصية.

باعت المسيح وباركت اليسوعيين، واستكرت عدالة «كل الوسائل من أجل الشأن المسيحي».

لقد حشدت الكاثوليكيّة كل شيء لأجل الاهتمام بملكيتها الدنيويّة والسيطرة الحكومية «المستقبلية» على العالم كله، عندما أدارت البشرية الكاثوليكيّة ظهرها لذلك الشكل العجيب الذي قدمت المسيح من

خلالـه، وبعـد عـدةِ قـرون مـن الاحتجاجـات والإصـلاحات وغيرهـا ظهـرت محـاولات - منـذ بدايـة القـرن الحـالي. للانتظـام بعيـداً عـن اللّه والمسيح - إن البشر الذين لا يمتلكون غريزة النحلِ والنمل - وهـي كائنات تبني خلاياهـا وأعشاشها بدقة ودون أخطاء - أرادوا أن يؤسسوا ما هو شبيه بذلك، رفضوا المعادلة المنزلة من عند الله وهـي الوحيدة الملهمة الراقية - وقد أنزلت من أجل إنقاذهم: «أحب قريبك كما تحب نفسك» وبدّلوها باستنتاجات عملية مثل: «Chacun Pour Soiet Dieu Pour Tous»[1].

أو بديهيّات علمية مثل: «الصراع من أجل البقاء»[1].

إن الناس الذين لا يمتلكون غريزة الحيوانات - التي تعيش بهـا - عقـدوا آمالكم بفخر على العلم متناسين أنه من أجل مسألة كبنـاء مجتمـع، لازال العلمُ في طور الحضانة. ظهـرت الأحـلام، وأصبح بـرج بابـل مثـالاً أعلـى - مـن جهـة - ومـصدر فـزع للإنـسانية مـن جهـة أخـرى. ثـمّ ظهـرت - بعـد الحـالمين مباشرةً - تعاليم أخرى بسيطة ومفهومة للجميع مثل: «اسـرق الأغنيـاء، امـلأ العالم بالدم، وحينها «بصورة ما سيعادُ بناء كل شـيء مـن جديـد»». وأخيراً ذهبَ هـؤلاء المعلمـون بعيـداً، فظهـرت تعـاليم الفوضـوية، الـتي لـو اسـتطاعت العيش، لكانت على الأغلب قد أدّت إلى بدايـة مرحلـة أكـل لحـوم البـشر، وكان على الإنسانية أن تبدأ كل شيء من جديد أي كما كان حالها منـذ عشرة آلاف عام.

إن الكاثوليكيـة تفهـم ذلـك جيـداً، وباسـتطاعتها إغـراء زعمـاء الحـرب الخفية، ستقول لهم: «ليس لديكم مركزاً ولا نظاماً لتسيير الأعمـال، أنـتم قوةٌ متضرمة في العالم، أمّا الآن ومع سقوط فرنسـا، فسيتم القضـاءُ علـيكم وأنا سأكون الموّحدة لكم وسأجذب إليكم الجميع، وكل من يؤمن بي».

1- كلّ من اجل نفسه، والله من اجل الجميع - بالفرنسية في الأصل / م/.

وفي كل الأحوال فإن الوحدة ستحقق. إن الكاثوليكيّة ترفض الموت ودون شك ستحصل ثورة اجتماعية، ومرحلة اجتماعية جديدة في أوربا: إن هاتين القوتين - الكاثوليكيّة وزعماء الحرب الخفية - يجب أن يتوافقا ويلتقيا.

وعندها ستكون المذابح والحرب والسرقة وحتى أكل لحوم البشر أشياء مفيدة للكاثوليكية، لأنها عند ذلك ستعوّل على الاصطياد - مرّةً أخرى - في المياه العكرة، وستشعر اللحظة المناسبة لتعود مالكةً للدنيا ولهيبة العالم، لأن الإنسانية عند ذلك - وهي المعذبة ومعدومة الحقوق بسبب الفوضى - سترتمي في أحضان الكاثوليكية، التي ستجد نفسها من جديد موحدة وكاملة، وبهذا ستكون الكاثوليكيّة قد حققت هدفها. إن اللوحة السابقة - للأسف - ليست من نسج الخيال. إنني أؤكد لكم أن الكثيرين والكثيرين جداً في الغرب يحتقرون هذه اللوحة، ويحتقرها على الأرجح مالكو ألمانيا، إلا أن زعماء الشُعب الألماني سيخطئون في أمر واحد: في تقديرهم سهولة الانتصار والقضاء على هذين العدوين الموحّدين والمخيفين.

هم يعقدون آمالهم على قوّة ألمانيا البروتستنتية المتجددّة، وروحها المحتجة ضد روما القديمة وحتى الجديدة، وهي قوة بدأت تظهر ملامحها. لكن زعماء الشعب الألماني أولئك ليسوا من سيوقف هذا الغول: سيوقفه وينتصر عليه الشرق الموحّد والكلمة الجديدة التي سيقولها للإنسانيّة... [...]

١٨٨٠

آب

إيضاحات حول كلمتي عن بوشكين [أ]

تشكلُ كلمتي عن بوشكين وأهميته - وهي المطبوعة أدناه - أساس محتوى العدد الحالي من «يوميات الكاتب» - «العدد الوحيد لعام ١٨٨٠»[ب]، التي ألقيتها بتاريخ ٨ حزيران من هذا العام في الاجتماع الاحتفالي لجمعية محبي الأدب الروسي، والذي حضرهُ عدد كبير من الجمهور، وقد تركت هذه الكلمة انطباعاً حسناً، حيث أعلن إيفان سيرغيفيتش أكساكوف «وكان قد تحدث في الحفل عن نفسه قائلاً أن الجميع يُعَدّونه زعيماً للنزعة السلافية»: إن كلمتي «تشكل حدثاً»[1]، إنني أذكر ذلك ليس بهدف مدح الذات، بل كي أعلن الآتي: إن كانت كلمتي تشكل حدثاً فعلاً، فذلك لسبب وحيد، هو الذي دفعني لكتابة هذه المقدمة.

لقد أردت في كلمتي أن أنوّه بالنقاط الأربع التالية وهي تحددُ أهمية بوشكين بالنسبة لروسيا.

أ- المقالة التي يشير إليها دوستويفسكي تلي هذه الإيضاحات / المترجم/

ب- آمل أن أتابع إصدار «يوميات الكاتب» في العام القادم ١٨٨١، إذا سمحت لي صحتي بذلك / المؤلف/

أولاً - كان بوشكين أولَ من حللَ - بعقل عبقري ثاقب وقلب روسي نظيف - ظاهرةَ مثقفنا المنفصل عن أرضيّة المجتمع، مثقفنا الذي وضع نفسه فوق الشعب.

لقد رسم أمامنا - بشكل بارز - النموذج السلبي لإنساننا القلق، وغير المتسامح مع قواه الوطنية وعلى أرضهِ الأم، النموذج الذي لا يثق بروسيا أو بنفسه «أي لا يثق بمجتمعه وحتى بطبقته المثقّفة ذات المنشأ الطبيعي»، النموذج الرافض للعمل مع الآخرين والمعاني بنفسه.

إن أليكو وأنيغين[٢] خلقا - فيما بعد - عدداً كبيراً من أمثالهما في أعمالنا الأدّبية. فظهر بعدهما: بتشورينا، تشتشكوفا، رودينا، واللوفرتسكيين، والبولكونسكيين[٣] «في الحرب والسلام: لليف تولستوي» وغيرهم. ويُعَدّ ظهور هؤلاء دليلاً على صّحة بداية الفكرة التي قدمها بوشكين. فلهُ، ولعقله وعبقريته السامية - التي اكتشفت أكثر القرحات مرضاً، وكانت قد برزت بعد إصلاحات بطرس - المجد والتحية. ونحن مدينون لهُ بتشخيصه الحاذق، وتعرفه إلى مرضنا وتحديده له، ولعله أول من قدم لنا السلوى حين بيّنَ أن هذا المرض ليس مميتاً، وأن المجتمع الروسي قادر على الشفاء منه، وبالتالي على التجدد والانبعاث من جديد إذا ما التصق بالحقيقة الشعبية.

ثانياً - إن بوشكين أول من قدم النماذج الأدبيّة الساطعة للجمال الروسي، المنبعث من الروح الروسية، والطالع من الحقيقة الشعبية والأرض الروسية.

إن نماذج: تاتيانا، إينوك، ابنة الكابيتان، وغيرها مما برز في أشعاره وقصصه القصيرة وملاحظاته وعمله «تاريخ انتفاضة بوغاتشيف»[٤]، تمثل الجمال الإيجابي للإنسان الروسي وروحه النبيلة. وهنا يجب أن نقول الحقيقة كلها:

إن هـذا الجمـال - يقـول بوشـكين - لـيس موجـوداً في حضارتنا ولا في التعليـم الـذي يـسمى «أوربيّـاً»، ومـا كـان عنـدنا مـن قبـل أبـداً، ولا في الأشكال والأفكار الأوربية الملقنة لنا من الخارج، لكنه موجود فقط في الروح الشعبية وحدها. وبهذا أكررُ: إن بوشكين بتحديده المرض قدّم لنا أمـلاً عظيمـاً: «آمنـوا بـالروح الـشعبية وانتظـروا منهـا فحـسب الإنقـاذ وستنقذون». لا يمكن أن تقرأ بوشكين دون أن تستنتجَ ذلك.

ثالثاً - الميزة المهمة التي أريد أيضاً أن أذكرها، وهي ميزة انفرد بها بوشكين دون سواه، تتمثّلُ في مقدرتهِ على الاستجابة العالمية وتمثل عبقريات العالم وإعادة تجسيدها. لقد قلت في كلمتي إن هناك أدباء عباقرة وعظمـاء في أوربـا أمثـال: شكـسبير وسـرفانتس وشـيللر[٥]، لكننـا لا نـرى عنـد أي مـنهم مثـل هـذه الخاصـية. والمسألة ليست في الاسـتجابة فحـسب، بـل في إعـادة التجـسيد الكامـل والرائـع. هـذه الخاصـيّة مفهومـة لكـنني لم أسـتطع إلا أن أذكرهـا في تقييمـي لبوشكين، كونها ميزة خاصة تماماً بعبقريتهِ وتخصهُ هو فقط من بين الأدباء العالميين قاطبة. لقد تحدثت عن ذلك ليس بقصد الانتقاصِ مـن العبقريـات الأوربيـة العظيمـة أمثـال: شكـسبير وشـيللر. والمجنـون وحده يمكـن أن يـستنتج مـن كلامـي مثـل هـذا الاسـتنتاج الـسخيف. ما من شك عندي في عالمية وعمق نماذج إنسان القبيلة الآرية[٦]، «غير المدروس مـسبقاً»، تلـك النمـاذج الـتي قـدّمها شكـسبير. لكـن لـو أن شكسبير استطاع أن يبني شخصيه عطيل كمغربي وليس إنكليزيّاً، لكان بذلك قد جعله نسراً يمثل الطابع المحلي الوطني وأكسبهُ أهمية عالمية خاصة.

أكرر أنني ما أردت التعرّض لأهمية شكسبير أو شيللر العالميّة، عندما حددتُ هـذه الميـزة العبقريـة لبوشـكين، أقـصد قدرتـهُ على تمثّل وإعـادة

تجسيد عبقريات الأمم الأخرى، بل تمنيت فقط أن أصف هذه الخاصيّة وكمالَها وما تمثله من نبوءة..

رابعاً - إن العبقرية السابقة خاصيّة قومية روسية، يتقاسمها بوشكين مع شعبه كله، وهو كفنان عبقري، في الوقت نفسهِ معبر حقيقي عن هذه الخاصية في نشاطه وأعماله الأدبية. إن شعبنا - بشكل خاص - يحملُ في روحه هذه النزعة العالمية أو الشمولية للتسامح، وقد أظهرها أكثر من مرّة على امتداد مئتي عام منذ إصلاحات بطرس.

لم أستطع في تحديدي السابق إلا أن أقدّمَ - من خلال هذه الحقيقة - السلوان العظيم لنا في مستقبلنا. والأهم من ذلك أنني حددتُ جوهر نزوعنا باتجاه أوربا وهو ليس فقط قانونياً وعقلانياً، بل يتطابق مع طموحات الروح الشعبية نفسها، ويمتلك في النهاية هدفاً سامياً. ربما لم أستطع في كلمتي الموجزة أن أطور فكرتي بشكل كامل لكن أتصور أن ما قلتهُ كان واضحاً. لا داعي للقلق أبداً بخصوص ما ذكرته «إن أرضنا الفقيرة يمكن أن تقول في النهاية كلمة جديدة للعالم»[٧]. من المضحك التأكيد أن علينا - قبل أن نقول كلمتنا الجديدة للعالم - أن نطور أنفسنا اقتصادياً وعلمياً ومدنياً، وحينها فقط يمكن أن نحلم بقول «كلمات جديدة».

لقد قلتُ في كلمتي تلك إنني لا أحاول أن أساوي شعبنا الروسي بالشعوب الغربية فيما يتعلقُ بأمجادهم الاقتصادية والعلمية، لكنني أقول ببساطة: إن الروح الروسية، والعبقرية الروسية يمكن أن تكون أكثر قدرة، على الاستيعاب في أعماقهما فكرةَ وحدة الإنسانية كلها والحب الأخوي ووجهة النظر العقلانية، التي تزيل التناقضات.

هذه ليست ميزة اقتصادية أو سواها من الميزات، لكنها فقط ميزة أخلاقية..

لكن هل يمكن لأحد أن ينكر أو يجادل في مسألة وجودها لدى الشعب الروسي؟

وهل يمكن لأحد أن يقول إن الشعب الروسي مجرد جماهير جامدة، مقدر لها أن «تخدم اقتصادياً» تطوير طبقتنا المثقفة الأوربية، التي ترفعت عن شعبنا وأن هذا الشعب يشكل خمولاً ميتاً، لا يمكن انتظار أي شيء مهم منه، ولا يفترض أن تعلق عليه الآمال؟

آه، إن الكثيرين يؤكدون ذلك لكنني غامرتُ وأعلنتُ شيئاً مغايراً. وأكررُ من جديد إنني لا أستطيع أن أثبت صحة الفانتازيا هذه - مثلما عبرتُ سابقاً بكل الكمال والتفصيل - إلا أنني لم أستطع إلا التنويه بها. أما مسألة التأكيد أن أرضنا الفقيرة ليس من حقها حمل هذه الطموحات السامية قبل أن تصبح متطورة اقتصادياً ومدنياً مثل أوربا، فهي سخيفة.

إن الأسس الأخلاقية لجوهرة الروح غير مرتبطة بالقوة الاقتصادية.

إن أرضنا الفقيرة والمضطربة - ماعدا الطبقة العليا - متراصة كشخص واحد.

وسكانها، السبعون مليوناً يشكلون وحدة روحية لا مثيل لها في أي مكانٍ في أوربا، وهذا يعني أن ليس بإمكانك اعتبارها مضطربة، وليس بإمكانك قطعياً اعتبارها فقيرة، وعلى العكس من ذلك فأوربا التي تتجمع فيها أعظم الثروات منخورة من ناحية الأسس المدنية الأخلاقية إلى درجة قد تجعلها تسقط غداً وتندثر وإلى الأبد. فيحل محلها شيء جديد لم يسمع به من قبل، ولا يشبه شيئاً من القديم. وعليه فكل الثروات التي جمعتها أوربا قد لا تنقذها من السقوط. حيث «ستختفي الثروة في لحظة واحدة»[8]. وعلى الرغم من ذلك فهم بالنسبة لشعبنا بمجتمعهم المدني الملوّث والمنخور مثلٌ أعلى، علينا أن نسعى

ونطمح للوصل إليه، وعند ذلك وبعد أن يصل شعبنا إلى ذلك المثل يمكن أن يتجزأ ويتلعثم بكلمةٍ ما يقولها لأوربّا نحن نؤكد أنه يمكن استيعاب وتحمّل قوّة الروح الموحّدة والمحبّة في ظل الفقر الاقتصادي الحالي الذي نعاني منه، نعم بلى حتى في ظروف أصعب. يمكن حماية هذه الروح حتى في ظلِ ظروف فقرٍ مشابهة لغزو باتييف[9]، أو بعد الخراب الذي حَلّ ببلادنا في «الأزمنة الغامضة»، حين تم إنقاذ روسيا بالروح الشعبيّة الموّحدة للناس. أكرر أن هذه الخصائص الأربع حول أهمية بوشكين بالنسبة لنا بما تركته من انطباع حسن لا يعود الفضلُ فيها لي أنا، ولا لعبقرية الطرح بل لصدقها وصدق الحجج التي قامت عليها بغض النظر عن قصر وإيجاز مقالتي نفسها.

لكن اسمحوا لي أن أتساءل بماذا يتلخص ما أسماه إيفان سيرغي فيتش أكساكوف حدثاً؟، إن الأمر يتلخص في أن أصحاب النزعة السلافية أو ما يسمى «الحزب الروسي» «يا إلهي لقد أصبح لدينا حزب روسي!» قد أقدموا على خطوة جبارة باتجاه المصالحة مع المدافعين عن الغرب، فقد أعلن هؤلاء قانونية توجه المدافعين عن الغرب باتجاه أوربا، وقانونية استنتاجاتهم المضخمة والأكثر تطرفاً، وقد برروا هذه القانونية بأنها طموح شعبي روسي خالص، يتوافق مع الروح الشعبية. وبرروا التضخيم أيضاً بأنه ضرورة تاريخية وقدر تاريخي، واستناداً إلى ذلك وبحصر النتائج في وقت ما سيصبح أنصار الغرب مثلهم مثل الروس الحقيقيين تماماً، قد خدموا أرضهم الروسية وطموحات أرواحهم، وأحبوا ترابهم الوطني بصدق ويمكن جداً أن يكونوا قد حافظوا بغيرة على هذا التراب وأهله من تلاعب «الروس القادمين من كوكب آخر».

وقد يعلن أخيراً أن سوء الفهم القائم بين كلا الحزبين والمهاترات التي دارت بينهما أمور لا معنى لها وناتجة عن عدم فهم واحدهم الآخر. هذا على الأرجح ما يمكن أن نسميه «حدثاً»، إذ إن ممثلي النزعة السلافية كانوا قد وافقوا فوراً بعد كلمتي على كل الاستنتاجات الواردة فيها.

إنني أعلن الآن - وأعلنت ذلك من قبل في كلمتي - إن شرف هذه الخطوة الجديدة «إذا كان الشرف يشكل الرغبة الصادقة في المصالحة» لا يعود لي فقط بل لكل أصحاب النزعة السلافية، ولكل توجهات «حزبنا» وروحه، وهذا أمرٌ واضحٌ منذ البداية لأولئك الذين دخلوا دون غاياتٍ مسبقة إلى «النزعة السلافية»، بل لعل الفكرة التي عبرت عنها في مقالتي كانوا قد عبروا عنها لأكثر من مرة. أنا استطعت أن أقتنص اللحظة المناسبة فحسب.

وختاماً: إذا تقبل مناصروا الغرب استنتاجنا ووافقوا عليه، فمن الطبيعي أن يزول سوء الفهم القائم بين الحزبين في المستقبل، ولن يكون ثمة أمرٌ يختلفون عليه، لأن الأمور قد اتضحت الآن مثلما عبر إيفان سيرغي فيتش أكساكوف.

ومن وجهة النظر هذه يمكن لكلمتي عن بوشكين أن تصبح حدثاً. إلا أن هذه المفردة قد طرحت بهدف التضخيم والمبالغة فقط. إلى جانب أصحاب النزعة السلافية - الذين احتضنوني وشدوا على يدي - اقترب مني «أنصار الغرب»(١٠) وصافحوني بعد نزولي عن المنبر مباشرة، وهؤلاء ليسوا مجرد أنصار، بل قياديون في هذا التيار. وقد شدوا على يدي بحرارة واعتبروا كلمتي ضرباً من العبقرية... إنني لا أخشى أن يتراجعوا عن وصفهم هذا لأنني أعلم سلفاً أن ما قلته ليس عبقرياً، ولن يصيبني الغرور إطلاقاً لمديحهم.. ولهذا فأنا أرجو أن يخيب أملهم في عبقريتي -

[...]. سيقول أنصار الغرب بعد التفكير: «لا تقلقوا نحن لا نريد استعباد شعبنا عندما نتحدث عن انصياع هذا الشعب، لا تستنتجوا ذلك من فضلكم نحن إنسانيون وأوربيون وأنتم تعرفون ذلك جيداً، إننا نريد أن نعلم شعبنا القليل، على قدر ما يحتاجه تشييد مبنى، ونريد أن نرفع مستواه، ونعمل على إعادة تشكيل القومية في قومية جديدة، نحصل عليها بعد تعليمه والقضاء على أميته، وسنؤسسُ التعليم ونبدأ به بقوة، وهذا ما شرعنا به... سنجبر هذا الشعب أن يتنسم هواء أوربا قليلاً، ونجعله يشعر بالغيرة من أوربا على أقل تعديل أن يستسيغ سبل معيشة شعوبها، وتقاليدهم ولباسهم وشرابهم ورقصهم - باختصار نجبره أن يخجل من لعبة المضرب وشراب الكفاس[أ]، وبعض أغانيه القروية، على الرغم من أن معظمها رائع ويطرب بموسيقاه، ونجبره أن يغني «الفوديفيل المقفّى»[ب] حتى ولو أزعجكم ذلك. باختصار لأجل هذا الهدف الصالح سنجد كل الوسائل الكثيرة الممكنة ونركز قبل كل شيء على الأوتار الضعيفة مثلما كان شأننا من قبل، وحينها سيخجل شعبنا من قديمه ويكفر به. من سيكفر بقديمه فهو معنا - هذه هي المعادلة التي نعمل وفقها! سنفعل كل شيء كي نرفع مستوى عامتنا إلى مستوانا. وإذا رفضت هذه العامة ذلك وكانت غير قادرة على التعلم «سنتخلى عنها».

تلك العامة ستثبت حينها أنها ليست أكثر من جماهير بربرية، لا تستحق الاهتمام. ما العمل هنا: إن الحقيقة في مثقفينا وفي أوربا فقط، فحتى لو كان عندكم ثمانون مليون نسمة «فبماذا تفتخرون!».. يجب على

أـ شراب صيفي روسي يصنع من تخمر الخبز السود. /المترجم/.

بـ نوع من انواع المسرحيات الغنائية الأوربية. /المترجم/.

هذه الملايين أن تخدم الحقيقة الأوربية قبل كل شيء، لأنه ما من خيار آخر ويتابع أنصار الغرب - إن عدد الملايين لا يخيفنا سنبقى نعمل وفق استنتاجنا الدقيق الذي أثبت صحته الآن. لا يمكننا أن نتقبل استنتاجكم وأن نحاوركم حول أشياء غريبة مثل «le pravoslavie» - «السلافية»، وحول الأهمية الخاصة التي تدعونها. نأمل ألا تطلبوا منا حتى هذا الأمر، لا سيما وقد أصبحت الكلمة الأخيرة لأوربا والعلم الأوربي الذي يفضي في النهاية إلى الإلحاد المتنور والإنساني، ونحن لا نستطيع إلا أن نسير مع أوربا.

نحن نوافق عل تقبل ذلك النصف من الكلمة التي ألقيتموها، والذي تضمن المديح لنا مع بعض التحفظّات المعروفة.. وسنقدم لكم هذا المعروف أما النصف الآخر الذي يتناولنا ويتناول كل «بداياتكم» تلك - معذرةً لا نستطيع أن نتقبله..».

هذا هو الاستنتاج المحزن الذي يمكن أن يكون. أكرر: أنا لستُ فقط لا أتجرأ أن أضع مثل هذا الاستنتاج في أفواه أنصار الغرب أولئك الذين شدوا على يدي، لكن لا أتجرأ كذلك أن أضعه في أفواه الكثيرين جداً، والمتعلمين فينا من الشخصيات الروسية المعروفة، إضافةً إلى المواطنين الروس المحترمين والمقدرين.

لكن الجماهير، هذه التي تتحدثون عنها يا أنصار الغرب، ما هي إلا جماهيركم وهي الوسط والشارع الذي نبتت ونمت فيه بتعاسةٍ أفكاركم[11].

سيقول بعضكم - فيما يخص الإيمان - بأن هدف النزعة السلافية هو إعادة تعميد أوربا بالسلافية[12]... لكن لنترك كل ذلك جانباً ونعقد آمالنا على الممثلين القياديين للنزعة الأوربية بينكم، فإن هم تقبلوا نصف استنتاجنا وآمالنا المقصودة عليهم، فلهم منا التحية

والتقدير وسنستقبلهم بقلب مبتهج. حتى ولو تقبلوا نصفاً واحداً، أي أن يعترفوا باستقلالية وخصوصية الروح الروسية، وأن يتقبلوا قانونية وجودها وطموحها الموحد للإنسانية والمحب لها، حينها... وحينها بالذات لن يبقى ما نتجادل حوله.. وحينها بالفعل قد تلعب كلمتي عن بوشكين دور التأسيس للحدث الجديد «مع أنها لا تستحق هذه التسمية» أما الاحتفال البوشكيني العظيم فسيشكل حدث وحدتنا... وحدة كل الناس الروس الحقيقيين والمتعلمين من أجل الهدف الرائع المستقبلي.

بوشكين «مقالة»

«قدمت في الثامن من حزيران في جلسة محبي الأدب الروسي»

«يشكل بوشكين ظاهرة غير عادية، وهو التجلي الوحيد للروح الروسية» - هذا ما قاله غوغول[1]. وأستطيع أنا أن أضيف: كان أيضاً ظاهرة نبوّة. بلى. إن ظهوره يتلخص - لنا نحن الروس - بما يشبه النبوّة دون جدال. كان ذلك حين بدأنا نعي ذواتنا، ظهور بوشكين رافق الوعي في مجتمعنا وكان بعد بذرة زرعها الإصلاح الذي قاده بطرس الأكبر وأسهم في إنارة دربنا العاتمة وتوجيه خطانا. وبهذا المعنى يكون بوشكين نبياً ومرشداً.

إنني أقسم حياة شاعرنا الكبير إلى ثلاث مراحل. ولا أتحدث كناقد أدبي: حين الامس الآن أدب بوشكين عموماً، فإنما أريد بخاصة أن أوضح فكرتي عن معنى النبوّة التي يمتلكها بوشكين عندنا، وكيف أرى الأمر[...].

في أنموذج «آليكو» بطل قصيدة «الفَجَر» تتعكس فكرةٌ روسيّة تماماً، قوية وعميقة، ستتجلى فيما بعد بانسجام رائع في شخصية «أونيغين»، وهو الصورة الواقعية غير الفانتازية لـ «آليكو»، الصورة الواقعية المفهومة. في آليكو اكتشف بوشكين المتشرد الحزين في وطننا، الجوّاب الروسي التاريخي، والذي يُعَدّ وجوده في مجتمعنا المنفصل عن الناس ظاهرة تاريخية ضرورية. لقد اكتشف بوشكين هذا النموذج ورسمه. لم يكتشفه بطبيعة

الحال عند بايرون[٢] فقط، إنه نموذج حقيقي، وقد شاهده بوشكين بدقة ووضوح، وهو نموذج باقٍ على الأرض الروسية إلى زمن طويل. إن عابري السبيل هؤلاء الذين لا نار تدفئهم ولا سقف يظلهم لا زالوا حتى أيامنا هذه يضربون في الأرض، ولن تختفي ظاهرتهم هذه قريباً.

إن هؤلاء الذين ما عادوا اليوم يقصدون الغجر باحثين في تقاليدهم البدائية وعاداتهم عن مثل عليا، ولا يذهبون إليهم طلباً للراحة في أحضان الطبيعة، هاربين من حياتهم المضطربة السخيفة، حياة الناس في المجتمع الروسي المثقف، إن هؤلاء يندفعون اليوم إلى الاشتراكية التي لم تكن معروفة في زمن «اليكو» وهم يؤمنون أنهم سيصلون ليس إلى أهدافهم الشخصية وحدها فحسب بل إلى أهداف الإنسانية جمعاء، فالجوال الروسي لا يقبل ما دون سعادة الإنسانية قاطبة كي يهدأ باله وتقر نفسه: وهو بأقل من ذلك لن يقبل - مادام الأمر بالطبع نظرياً.

إنه الشخص الروسي نفسه، ولكن ذلك الذي يظهر في مرحلتين مختلفتين. أكرر إن هذا الشخص ولد في بداية القرن الثاني بعد إصلاحات بطرس الأكبر في وسط الانتلجنسيا، منفصلاً عن الشعب، عن القوة الشعبية. إن عدداً كبيراً من المثقفين الروس سواء في زمن بوشكين أم في زمننا الآن عملوا ويعملون بهدوء في المحاكم في محطات السكة الحديدية في المصارف وسوى ذلك. وبينهم أيضاً نفر يحصلون على المال بطرق شتى، وبينهم أيضاً من يهتمون بالعلوم، ويقرؤون المحاضرات ويحاضرون، كل ذلك بسكينة تامة. وهم أيضاً يقبضون مرتباتهم ويلعبون بورق اللعب ولا يفكرون بالهرب إلى مخيمات الغجر أو غيرها من الأماكن. وهناك فئة كبيرة من مواطنينا يسبغون على أنفسهم صفة الليبرالية، ويزينونها بـ «مسحة اشتراكية أوربية» تبالغ الطبيعة الروسية الدمثة في مدحها. والمسألة في كل الأحوال مسألة وقت، ربما كان أحدهم مطمئناً لم يشعر

بالقلق بعد. والآخر قد اتسع وقته ليمتلئ بذلك ويخبط رأسه بالباب، لعل مصيراً واحداً ينتظر الاثنين ما لم يجدا طريق السلامة الذي لا ينقطع أبداً عن طريق الشعب نفسه. وليكن أن قلة فقط ستفهم وتنتظر هذا: يكفي أن تشارك «نخبة» في ذلك، أن يعلن عُشْرُ الناس استياءهم ورفضهم كي يهب الشعب كله فلا يستكين ولا يهدأ له بال. إن آليكو لا يستطيع أن يعبر عن حنينه بشكل جيد: المسألة عنده فيها شيء من التجريد أو عدم الوضوح، إن الحنين الواضح عنده هو حنين إلى الطبيعة، إنه يتقن الشكوى من المجتمع الراقي فحسب ويبكي على حقيقة مفقودة، لا يعرف أين أو كيف يجدها، ولا يهتدي إليها أبداً.

وهنا نستطيع أن نقول إن فيه شيئاً من جان جاك روسو، فهو لا يخبرنا فيما تتجلى هذه الحقيقة، وما هي؟ وأين وكيف يمكن أن تظهر ومتى يمكن أن تفقد إنه لا يفصح عن كل ذلك، ولكنه يتألم بصمت. الإنسان الخيالي غير الصبور يتحرق إلى الخلاص والنجاة فقط بفعل قوة خارجية ويرى أن هذا ما يجب أن يكون: الحقيقة لابد وأن تكون موجودة في مكان ما، في بلاد أخرى، عند الشعوب الأوربية مثلاً، ذات البنيان التاريخي المتين، والحياة الاجتماعية المدنية المستقرة. وأحياناً هو لا يفهم أن الحقيقة موجودة في أعماقه قبل أن تكون في أي مكان آخر، وكيف له أن يفهم هذا الأمر: وهو على أرضه الأم ليس هو ذاته؟! لقد فقد عادة العمل منذ مدة طويلة، وثقافته ليست ذات شأن يذكر. لقد نما كتلميذة بين جدران عالية، مشتتاً بين عدد كبير من الالتزامات التي تعود إلى ارتباطه بهذه الطبقة أو تلك من الطبقات الأربع عشرة التي ينقسم إليها الوسط المثقف الروسي[٣]، إنه أشبه بزغبة ريش تتقاذفها الريح، وهو يحس بذلك ويتألم بسببه كثيراً. فما المشكلة إذاً - وهو المنتمي إلى طبقة الملاكين، وربما المالك لمجموعة من الأقنان - أن يسمح لنفسه أن تنقاد

قليلاً لغواية ناس «خارجين على القانون»، فيتبع فئة غجرية، ويصبح له دب يقوده ويعرضه أمام المشاهدين؟ ومن الطبيعي عند ذاك أن تتمكن «المرأة المتوحشة» على حد تعبير أحد الشعراء - وهي الأقدر من سائر المخلوقات، من تقديم الأمل له، وشفائه من حنينه الجارف، فإذا به يرمي بنفسه في أحضان زيمفيرا قائلاً: «ها هنا مصيري، هنا يمكن أن أجد سعادتي، بين بشر لا حضارة لهم ولا قوانين»، وما الذي يحدث بعد ذلك؟ إنه وعند التماس الأول المباشر مع ظروف هذه المجموعة المتوحشة من الناس يعجز عن السيطرة على نفسه، ويلوث يديه بالدماء. وهكذا يجد هذا الحاكم نفسه غير صالح ليس فقط للهارمونيا الشاملة - بل للحياة مع الغَجَر، الذين يطردونه، دون رغبةٍ في الانتقام منه أو ضغينة بل بكثير من الدماثة والحلم:

أتركنا أيها الرجل المزهو بنفسه
إننا نحن متوحشون لا قانون لنا،
إننا لا نعذّب ولا نُعدِمُ أحداً

كل هذا خيالي طبعاً، لكن «الرجل المزهو بنفسه» حقيقي، ومرسوم بدقة وقد كان بوشكين أول ما التقط ذلك، وهذا أمر تجدر الإشارة إليه، وتحديداً من قبله نفسه وبغضب شديد سيمزق هذا الإنسان نفسه ويعدمها للإساءة التي ارتكبها، أو أنه - وقد تذكر أنه ينتمي إلى إحدى طبقات المجتمع الروسي المثقف الأربع عشرة - سيتوق «وهذا ما يحدث فعلاً» إلى وجود قانون قاسٍ يعاقب ويعدم، وسيحرّضُ على إيجاده ولو من قبيل معاقبة الذات. لا. هذه قصيدة عبقرية وليست مجرد محاكاة إنها تتوقع الحل الروسي للمسألة، «المسألة الملعونة»، كما يصوغها الإيمان الشعبي والحقيقة الشعبية: «أذل نفسك أيها الإنسان المزهو، حطم كبرياءك قبل أي شيء. أذل نفسك أيها الإنسان المغرور، وجهد واعمل على أرضك الأم».

إنــه الجــواب الــذي يوافــق الحقيقــة وعقــل النــاس. «لـيـسـت الحقيقـة خارجك، إنما هي في داخلك: جد نفسك في نفسك، وأخضع ذاتك لذاتك، واملكها، فترى الحقيقة، إنها ليست في الأشياء، ليست خارجك، وليست وراء البحـار في مكـان مـا ولكنهـا أولاً في جهـدك وعملـك الـدائم، علـى ذاتك ونفسك. عندما تنتصر على نفسك، وتتغلب عليها - تصبح حراً كما لم تتخيـل، وتبـدأ عمـلاً عظيمـاً، فتجعـل مـن الآخـرين أحـراراً، وتبـصر الـسعادة لأن حياتـك ستـصبح مـلأى، وتفهـم في النهايـة شـعبك وحقيقتـه المقدسة. ليست الهارمونيا الشاملة في حياة العجز، أو في مكان آخر، إن لم تكـن جـديراً بهـا، إن كنـت شـريراً صـلفاً، وإن كنـت تظـن أن لـيس عليـك أن تقـدم شـيئاً لقاءهـا». إن هـذا الحـل للمـشكلة المطروحـة كـان واضحاً بقـوة في قصيدة بوشـكين، ثـم ازداد وضـوحاً في قصيدة «يفغيني أونيغين» وهـي قصيدة ليست خيالية «فانتازية»، ولـكنها واقعية محسوسة، تعكـس الحيـاة الروسـية الحقيقيـة، وبجماليـة عاليـة وبتنظـيم كـبير لم نرهما قبل بوشكين وربما بعده أيضاً.

يـصلُ أونـيغين مـن بطرسـبورغ - ولا شـك مـن بطرسـبورغ، وهـذهِ ضـرورة لابد منهـا في القـصيدة فمـا كـان لبوشـكين أن يترك أي مَعْلَم مهم يـسقطُ منْهُ وهو يقدّم بيوغرافيا بطله [...].

في مكـانٍ منعـزل، في قلب بلده، لا يحسُّ أنّهُ في بيتِهِ. هـو لا يعلم مـاذا عليه أن يفعل هنا، ويشعرُ كما لو أنـه ضيف، وبعـد ذلـك حـين سيطوّفُ في البلاد حزيناً، وفي الأرض الأجنبيّة - وهـو ولا شـك ذكـي وصـادق - سيشعُرُ أكثر من ذي قبل أنه غريبٌ عن نفسه مزيداً مـن الغربةِ. حقيقيـةً، هـو يحـبُ وطنه الأم، ولكنه لا يثقُ به، وبطبيعة الحال كان قد سمع عن مثلهِ العليـا، لكنّهُ لا يُصدِّقُها. إنّهُ يؤمن فحسب أن إمكانيّةَ العمل لأجلِ مسقط رأسـه مـستحيلة، وينظُـرُ بسخريةٍ مُـرّة وحزينـة إلى أولئكَ الـذين يعتقـدون بإمكـان

القيام بهذا العمل، ربما ما أقدمَ على قتل لينسكي إلا من السأم، من يدري؟!

هو سأمٌ يولدُهُ الحنينُ إلى مثل عليا شاملة، وهذا ممكن عندنا. أما تاتيانا فقد كانت مختلفة عنه: إنها من النوع الصلب، الذي يقفُ بثبات على ترابهِ، وهي أكثر عمقاً وذكاءُ من أونيغين. إنها ومن خلال نبل أحاسيسها وغرائزها تستطيع أن ترى أين الحقيقة وفيما تتجلى، وهذا ما بدا واضحاً في خاتمة القصيدة. وربما كان من الأفضل حتى لو سمى بوشكين قصيدته باسم «تاتيانا» فحسب وليس باسم أونيغين لأنها بطلة القصيدة بلا منازع، وهي نموذج الجمال الإيجابي تماماً وليس السلبي، والشاعر يمجّدُ المرأة الروسيّة، ويجعلها تنطقُ هي شخصياً بفكرةِ قصيدتهِ في المشهد الأخير، مشهد لقاء تاتيانا وأونيغين. ويمكن القول إن أنموذج الجمال الإيجابي للمرأة الروسيّة الذي قَدّمَهُ بوشكين، لم يتكرر فيما بعد في أدبنا، إلا إذا نظرنا إلى أنموذج «ليزا» المتطوّر لتورغينيف في رواية «عش السادة». إن طريقة أونيغين في النظر من فوق جعلته لا يتعرف إلى تاتيانا، حين التقاها للمرّة الأولى في الريف، وهي على هيئتها النقيّة البريئة تلك. ولم يستطع أن يُميّز ما تضمُّ نفسها من صور الكمال والانتظام، ولعلّهُ عدها «جنيناً روحيّاً»[٤]، هي إذاً جنين! بعد الرسالة التي وجهتها إليه!؟ لا. إن كان ثمة جنين أخلاقي أو روحي في القصيدة، فلن يكون إلا أونيغين نفسه، دون أدنى شك. ثمّ ما كان له على كل حال أن يعرفها: ما أدراهُ بطبيعة الروح الإنسانيّة؟! إنه شخصٌ تجريديٌ شخصٌ حالمٌ وقلق طوال حياته. ولم يعرفها أيضاً فيما بعد في بطرسبورغ، حين بدت في زي سيّدةٍ راقية، وحين كتبَ لها أنه «لمسَ بروحهِ كل ما تتحلّى بهِ من صفات الكمال»، لقد كانت تلك مجرد كلمات: لقد عبرت حياته دونَ أن يلحظها، مرت به مروراً دون أن يعرفها ويقدرها حق قدرها. وهنا تتجلّى مأساةُ روايتهما.

آه لو أن تشايلد هارولد[5] وصلَ من إنكلترا إلى تلك القرّية، لحظة اللقاء الأوّل بين أونيغين وتاتيانا، أو لو أن اللورد بايرون حضَرَ بنفسه بطريقةٍ ما، ولاحظَ ما في تاتيانا من سحر خفيٍ نفاذ، متواضع فَدلَّ أونيغين الغافل عليه - لأصيبَ في تلك اللحظة عينها بالدهشة والذهول، لأن في هؤلاء الشهداء، شهداء ألم المجتمع الكثير من التواضع الروحي والبساطة، لكن هذا الأمر لم يحدث، ومضى هذا الباحث عن الهارمونيا العالمية الشاملة، بعد أن ألقى على الفتاة موعظتَهَ وتصرّف بطريقةٍ شريفةٍ تماماً، مضى متألماً من المجتمع، حاملاً الدم الذي سفحتهُ يداه بحماقتِهِ الشريرة، وراح يضربُ في البلاد، دون أن ينتبه إلى شيء فيها، مطلقاً اللعنات.

أنــا فتًــيٌ. والحيــاةُ تتــدفقُ في عروقــي
فمــا الــذي أنتظــرهُ. إنــهُ الــسامَ. الــسام!

وقد فهمت تاتيانا ذلك، وها هو ذا الشاعرُ في الأبيات الخالدة من روايتِهِ الشعرية يصف كيف تزور تاتيانا منزلَ ذلك الرجل الذي لا يزال لغزاً خفياً وسراً غامضاً في عينيها فتقفُ في غرفةِ عملِهِ، تنقّلُ بصرها بين كتبِهِ وأشيائِهِ وتحفه، فتحاولُ من خلالها أن تدخلَ إلى أعماق صاحبها، فتدركَ كنهَهُ. لكنها هذه «الجنين الروحي» تتمهلُ قليلاً عندَ فكرةٍ وقد علت شفتيها ابتسامة غريبة، وتملكها شعور من حَلّ اللغز! ثمَّ تتمتمُ شفتاها:

أليس هذا الشخص محاكاةً مضحكة؟

نعم، كان لابدُ لها أن تتمتم بهذهِ الكلمات، لقد عرفت حقيقة هذا اللغز. وفي بطرسبورغ بعد ذلك بمدة طويلة ستلتقيه وتكون عندها قد عرفته جيداً. وعلى فكرة! من ذا الذي يقول إن حياة البلاط قد غيرت من نفسية تاتيانا، وأن وضعها كسيّدة من سيّدات الطبقة الراقية يكمنُ خلفَ رفضها لأونيغين؟ لا. الأمرُ ليس على هذهِ الصورة إطلاقاً، إنها تاتيانا نفسها، تلك

القرويّة السابقة! ولم تفسد، على العكس تماماً إن بذخ هذه الحياة البطرسبورغيّة يرهقها، وهي تكرهُ موضعها كسيّدة من سيّدات المجتمع الراقي، ومن يحكم عليها بعكس هذا، فهو لم يفهم ما أرادَ بوشكين قوله. ها هي ذي تخاطبُ أونيغين بصلابة.

إنمـــا وهبـــت نفـــسي لـــسواك
وســـأظلُ وفيّـــة لـــهُ أبـــد الـــدهر

لقد عبرت عن ذلك كامرأةٍ روسيّة تماماً، وهذا موضعُ التمجيد فيها. إنها هنا تعبر عن حقيقة القصيدة. ولن أقولَ شيئاً عن معتقداتها الدينيّة، عن وجهة نظرها في رباط الزواج المقدس - لا هذه الأمور لن ألامسها ولكن لماذا رفضت أن تتبعَ أونيغين وكانت قد قالت لهُ يوماً ما: «أنا أحبّك» لماذا إذاً؟ «هل لأنها امرأة روسيّة» و «ليست جنوبية أو فرنسيّة ما»، وبالتالي فهي غير قادرة على مثل هذه الخطوة الشجاعة، غير قادرة على بتر الرباط الذي يشدها، غير قادرة على التضحية بمفاتن المجد والثراء والمكانة الراقية والآراء المعروفة عن الفضيلة والشرف؟

لا. المرأةُ الروسيّة شجاعة، المرأةُ الروسيّة شجاعة بحيث تتبع الرجل الذي تؤمن به وقد أثبتتْ ذلك، ولكنها «أعطيت لغيره، وستبقى وفيّة لهُ أبداً. فلمن وباسم ماذا ستظل وفيّه؟ ولأي واجبات؟ هل ستبقى وفية لذلك الجنرال العجوز[٦]، الذي لا تستطيعُ أن تحبّه «بسبب حبّها أونيغين»، والذي تزوجته لا لشيء إلى لأن «أمها تضرعت إليها بدموعٍ ساجمة»، وما كان في نفسها الكليمةِ المهانة إلا اليأس. لا أمل صغير، لا بقعة ضوء؟

نعم ستظل وفيّة لذلك الجنرال، لزوجها، للرجل الشريف، الذي يحبها، ويحترمها، ويفخر بها. وليكن أن «أمّها تضرعت» لها كي توافق، لكنها هي نفسها قدمت الموافقة، لا امرأة أخرى، وهي نفسها قد أقسمت أن تكون زوجة وفيّة له.

وليكن أنها تزوجته في حالة يأس لكنها الآن زوجته، ومجرد خيانتها له ستجللُهُ بالعار والخزي وستقتله. وهل من حق الإنسان أن يبني سعادته على تعاسة غيره؟ إنّ السعادة ليست في لذة الحب وحدها، ولكنها في الانسجام العالي للروح، كيف للروح أن ترتاح وتهدأ إذا وقف خلفها فعلٌ غير شريف، غير إنساني، شرير؟!

أعليها أن تفرَّ لأن سعادتها هناك؟ وأي سعادةٍ تلك التي تبنى على تعاسة شخص آخر؟

تخيّلوا، أنكم مكلفون بإشادة بناء الأقدار الإنسانية، بهدف تحقيق السعادة للبشر، وإعطائهم الراحة والسكينة في نهاية المطاف. وتخيلوا أيضاً أنه لأجل هذه الغاية لا بد، ومن الضروري أن تعذبوا نفساً بشرية واحدة - بل حتى كائناً بشرياً وضيعاً ومضحكاً ليس شكسبيراً ما، أو رجلاً عظيماً، بل مجرد عجوز شريف، زوج امرأة شابة، يؤمن بحبها إيماناً أعمى، مع أنه لا يعلمُ بما في قلبها إطلاقاً، يحترمها، بل يفخر بها، سعيد بها وهادئ البال. نعم هو وحده عليكم أن تخزوه وتجللوه بالعار، وتعذبوه، وعلى دموع هذا العجوز المذل سيرتفع البناء! هل توافقون أن تكونوا مهندسي هذا البناء وفق هذه الظروف؟ هذا هو السؤال.

ثم هل بإمكانكم أن تسلموا ولو لدقيقة واحدة، أن الناس الذين تشيدون لأجلهم ذلك البناء سيوافقون على أخذ تلك السعادة التي تمنحونها لهم، ما دامت تضطجع في أساس البناء معاناة كائن مهما كان متواضعاً، كائن عذب سيُعاني بغير وجه حق وبلا رحمة، وهل تستطيعون بقبولكم هذه السعادة أن تظلوا سعداء أبد الدهر؟ أخبروني هل كانَ بإمكان تاتيانا أن تحل المسألة بصورة غير التي رأيناها، وهي ما هي عليه من روح سامية وقلب نبيل؟ لا. إن الروح الروسية النقية تحل المسالة كما يلي: «فلأفقد وحدي السعادة، ولتكن تعاستي أشد من تعاسة ذلك الشيخ بما لا يقاس،

وليجهل جميع الناس بما فيهم هذا الشيخ مقدار تضحيتي، فلا يقدرونها حق قدرها، لكنني لا أريدُ أن تكون سعادتي على حساب سعادة غيري». وهنا تكمن التراجيديا. لقد حدثت ولا يمكن الآن تجاوز الحاجز، لقد فات الأوان، وهكذا تطرد تاتيانا أونيغين. وهنا قد يقولُ قائل: «ولكن أونيغين شقيٌّ هو الآخر، لقد أنقذت بذلك واحداً وقتلت الآخر». اسمحوا لي هنا السؤال مختلف، بل لعله السؤال الأهم في القصيدة. وبالمناسبة إن السؤال: «لماذا لم تذهب تاتيانا مع أونيغين؟» يمتلكُ عندنا - على الأقل في الأدب - حكايةً نوعيّةً خاصةً وتاريخية! ولهذا فقد سمحتُ لنفسي أن أسهب في الحديث عن ذلك. والشيء الأكثر خصوصيّة في الأمر أن الحل الأخلاقي لهذا السؤال كثيراً ما كانَ عرضةً للشك[7]. وإليكم ما أفكر به بهذا الخصوص، حتى لو أن تاتيانا أصبحت حرة، لو أن زوجها العجوز مات عنها وترملت فما كانت لتذهب مع أونيغين. ولا بد لنا من أن نفهم جوهر هذه الطبيعة! لقد عرفت من هو أونيغين: إنه جوّابٌ أبدي، رأى فجأةً المرأة التي سبقَ ورفضها، في حالة من النعيم والترف لم يبلغها - ولعل في هذا الوضع الجديد جوهر الأمر - إن هذه الفتاة التي أوشك يزدريها ينحني لها الوسط الراقي، هذا الوسط عظيم السلطان والتأثير على أونيغين، على الرغم من ميوله الشاملة السامية، ولهذا السبب فحسب، لهذا السبب يرتمي عليها مبهوراً مغمض العينين! هذا هو مثالي الأسمى - يهتف قائلاً - هذا خلاصي، هذا ما يطردُ عني سأمي وينقذني، لقد خسرته و «كانت السعادة قريبةً جداً، وفي متناول يدي»، وهكذا يتطلعُ أونيغين إلى تاتيانا، كما فعَلَ من قبل آليكو حين تطلع إلى زمفيرا. إنه يبحث في وهمه الجديد عن حلوله كلها. ألا ترى تاتيانا ذلك،؟ ألم تحل لغزهُ هذا منذُ أمرٍ بعيد؟ إنها لتعلمُ علم اليقين أن ما يحبهُ في حقيقة الأمر إنما هو خيالَهُ الجديد فحسب، وليس هي بشخصها، هي تاتيانا الهادئة كما كانت. إنها تعلم أنه يعدها شيئاً آخر

ويتعامل معها على هذا الأساس، وهو حتى لا يحبها، وربما ما أحب أحداً، ولعله عاجز عن ذلك، مع كل ما يعانيه بشدة، إنه يحبُّ الخيال، وهو نفسه ليس إلا خيالاً! فلو أنها تبعته، لكانت في اليوم الثاني قد أفاقت من سحره وسخرت من اندفاعها غير الواعي. فليس لهذا الرجل أرض إنه ريشة في مهب الريح. أما هي فشيء آخر: إنها حتى في لحظات اليأس والألم اللذين يدمران حياتها تجد دائماً شيئاً راسخاً ومتيناً تستندُ روحها إليه: وهو ذكرياتُ طفولتها، ذكرياتُ مسقط رأسها، ذكريات ملاعب الريف حيث شبت وكانت لها حياة نقيّة هادئة - وهو «ذلكَ الصليب وظل الأغصان فوق قبر مربيتها المسكينة». إن تلك الذكريات وصور ماضيها المتبقيّة هي أغلى ما لديها الآن وهي القادرة على إنقاذ روحها مما هي فيه الآن من يأس مطبق. وهذه ليست أشياء قليلة، فهي أساس راسخ، لا شيء يَهْدِمُهُ أو يزعزعُهُ. وهي تشكلُ رابطاً مع الوطن رابطاً مع شعبها ومقدساته. أما أونيغين فماذا يملك ومن هو في النهاية؟

وبالتالي فهي لا تستطيع أن تتزوجه من قبيل الشفقة، والتخفيف عنه، أو حتى من قبيل محبة الشفقة الأبدية فتهديه بذلك شبح السعادة، مع علمها اليقين أنه في اليوم التالي سينظرُ كلٌّ منهما إلى الآخر ساخراً. لا. هناك نفوسٌ عميقةٌ وصلبة، لا تستطيعُ أن تقدّم ما مقدس لديها - عن وعي - للعار والخزي حتى ولو أوتيت عطفاً لا نهاية له. لا، ما كانَ لتاتيانا أن تتزوج أونيغين.

وهكذا في «أونيغين»، في هذه القصيدة الخالدة السبّاقة يبرُزُ بوشكين كاتباً قومياً عظيماً لم نعرف مثلَهُ من قبل. لقد استطاع بذكائه وبعمق نظرتِهِ أن يرصد أعمق أعماقنا. أن يبصر قرارة مجتمعنا. لقد تمكن من خلال رسمه نموذج الجوال الروسي فيما مضى وفي أيامنا- مدركاً بعبقريته طبيعة هذا المتسكع ومصيره التاريخي وما سيكون له من شأن في مصير

روسيا، ثم واضعاً هذا النموذج إلى جوار نموذج الجمال الأسمى مُمثّلاً بالمرأة الروسيّة- لقد تمكن بوشكين، سابقاً الكتاب الروس جميعاً، أن يقدم أمام عيوننا في مختلف الأعمال الأدبية التي وضعها في تلك المرحلة، سلسلةً كاملةً من النماذج الروسيّة الجميلة، التي استخرجها الشعب الروسي. نماذج يتجلى جمالها الأساس في صدقها، صدقها الحقيقي الملموس.

لا يمكن جحودها أو نكرانها، إنها تقفُ وكأنها مقدودة من الصخر. وسأذكر مرة أخرى: أنني لا أتحدثُ كناقدٍ أدبي، ولهذا فلن أشرحَ أفكاري بشكلٍ مفصل عما تركَهُ شاعرنا من أعمال عبقريّة. يمكن مثلاً أن تكتُبَ كتاباً كاملاً عن نموذج الراهب - العالم بالأخبار مبيناً أهمية ودلالة هذا النموذج العظيم الذي اكتشفه بوشكين على الأرض الروسيّة، فاستخرجه وصقلَهُ ووضعهُ أمام أبصارنا إلى الأبد بكامل جماله الروحي الهادئ الفخم، شاهداً على قوة روح الحياة عند الشعب، التي تستطيع أن تستخرج من أعماقها نماذج لحقائق ساطعة، نماذج معطاة، موجودة، لا يمكن نكرانها، والقول إنه نموذج مبتكر، وهو نتاج مخيلة الشاعر وثمرتها فحسب، قولٌ غير مقبول. إنكم تتأملونه بأنفسكم وتوافقون: نعم، إنه موجود، وبالتالي فروح الشعب التي صنعته موجودة أيضاً، وكنتيجة لذلك فإن القوّة الحياتيّة لهذه الروح موجودة، رحبة وكبيرة. في كل موضع من أعمال بوشكين تستمع إلى الإيمان بالطبع الروسي، الإيمان بقدرته الروحيّة وعندما يوجد الإيمان يوجد الأمل، الأمل العظيم بالإنسان الروسي:

في الأمـــــــل بالمجــــــــد والخــــــير
ارنـــــو إلى الأمـــــام بـــــلا خــــوف

هذا ما قاله الشاعر نفسه في مناسبة أخرى[٨]، لكن كلماته تلك تَصلُح لكل وجوه نشاطه القومي. وما من كاتب روسي قبله أو بعده اتحد روحياً وأبوياً مع شعبه بمثل هذا العميق كما هو الحال عند بوشكين. [...]

في بوشكين يوجد شيء ما يربطه بالشعب «نهائياً» ويصلُ به تقريباً إلى بساطةٍ روحية طيبة وساذجة. خذوا مثلاً قصة عن الدب، واقرؤوا كيف قتل الفلّاح «معالي الدب»[٩]، أو تذكروا بيت الشعر الذي يقول:

أيّها القَرابُ إيفان كيف لنا أن نشرب[١٠]

وستفهمون ما أريد قوله.

إن كل هذهِ الكنوز الفنيّة، والأعمال الإبداعية التي خلقها شاعرنا الكبير إنما هي من قبيل الهداية للفنانين القادمين من بعده. للعاملين مستقبلاً في الحقل نفسه. وأستطيع أن أقول صادقاً: لو لم يوجد بوشكين، لما وجدت العبقريات التي تلت، أو على الأقل: ما كان لها أن تظهر بمثل تلك القّوة، ومثل ذلك الوضوح بغض النظر عن مواهبها الذاتيّة الكبيرة ومقدراتها التي كان لها أن تتجّلى فيما بعد وفي أيامنا هذه. ولكن ليس الأمرُ في الشعر أو في الإبداع الفني فحسب: فلو لم يوجد بوشكين، لما تجلّى بصورةٍ لا تقاوم «وهذا ما اتضحَ فيما بعد لدى الكثيرين إن لم يكن لدى الجميع» إيماننا باستقلالنا الروسي، أملنا الواعي - الآن - بقوانا الشعبيّة، ثم بعد ذلك إيماننا برسالتنا التي سنحققها ذات يوم في أسرة الشعوب الأوربيّة. وهذه مأثرة بوشكين التي يمكن أن تتضح إذا نفذنا إلى ما أسميه أنا المرحلة الثالثة من حياتهِ الإبداعية.

[...] وعليهِ يمكن أن ننسب إلى المرحلة الثالثة تلك الأعمال التي تتألق بشدّة فيها الأفكار العالمية، وتنعكسُ النماذجُ الشعريّة للشعوب الأخرى ومواطن عبقريتها. إن بعض تلك الأعمال لم ترَ النور إلا بعد موت بوشكين، في هذه المرحلة من حياتِهِ الإبداعية يظهر بوشكين كمعجزة لم توجد من قبلهِ وربما من بعده. لقد عرفت الآداب الأوربية شخصيات أدبية عبقرية مثل: شكسبير وسيرفانتس وشيلر ولكن ليشر أحدُكم إلى عبقرية واحدة من تلك العبقريات التي استطاعت أن تمتلك موهبة الإعادة أو الترجيع العالمي

كما هو الحالُ عند بوشكيننا. إن أعظم شاعر أوربي لم يستطع على الإطلاق أن يجسد في ذاتهِ، أن يمثل في شخصه، بمثل تلكَ القوة عبقريةً غريبة أو جارةً أو - على سبيل المثال - تعودُ لشعبٍ مجاورٍ، أن يمثل روح ذلك الشعب، خفايا وخبايا أعماق تلك الروح وحنينها وشوقها، كما استطاع أن يفعل بوشكين. على العكس تماماً، إن الشعراء الأوربيين حين حاولوا الرجوع إلى الشعوب الأخرى، أدخلوها في قومياتهم وفهموها على طريقتهم. حتى عند شكسبير ستجد الإيطاليين مثلاً يشبهون الإنكليز تماماً. أما بوشكين فستجدهُ يتميز بين سائر شعراء العالم بقدرتِهِ على التجسّد في شعب آخر. انظروا إلى مشاهد «فاوست»[11]، أو «الفارس البخيل»، أنظروا إلى أغنية:

«عاش على الأرض فارسٌ فقير»، أو فاقرؤوا «دون جوان»، فلو لم يكن اسم بوشكين مكتوباً، لما كان بإمكانهم أن تتصوروا إلا أن كاتبها إسباني.

وأي صورٍ عميقة وهائلة تلك التي حوتها قصيدة: «مأدبة في زمن الطاعون»، إن نماذج هذه القصيدة، وهي نماذج خيالية تقدم لك عبقرية إنكلترا. والأغنيةُ الرائعة التي تغنيها ماري وهي في الأساس قصيدة:

ترجّعت أصوات صفارنا
في صخب المدارس

إنها أغنية انكليزيّة، إنها تمثّلُ سأم النفس البريطانية، وبكاءَها، إحساسَها الأليم بما يمكن أن يحدث مستقبلاً. وتذكروا ذلك الشعر الغريب:

ذات مرة ونحن نعبرُ ذلك الوادي الموحش

إنه تقريباً نقل حرفي لثلاث صفحات من كتاب غيبي صوفي، يعود إلى متشيع ديني إنكليزي[12]، وقد كتب نثراً.. لكن هل هو نقل حرفي

فحسب؟! ألا تحسُّ أن خلف هذه الموسيقا الحزينة المتحمسة التي تربطُ القصيدة روح بروتستانتية شمالية، روح مهرطق[١٣] إنكليزي، غيبي[١٤] امتلأت نفسهُ سأماً، تحسُّ رغبات ذلك الرجل غير الواضحة المبهمة والقويّة، تحسُّ أحلامَهُ الغيبية المتطرفة.

إنك حين تقرأ هذا الشعر الغريب، تكاد تسمع روح عصور الإصلاح، وتصبح شعلةُ الحرب البروتستانتية مفهومة من قبلك، ويصبحُ التاريخ نفسه مفهوماً أخيراً ليس فكرياً، بل كأنك أنت هناك تمرُ محاذياً لمعسكر هؤلاء المحاربين، وتتلو أناشيدهم معَهم، وتذرفُ الدموع معهم لفرط حماستهم، وتشاطرهم إيمانهم. وإلى جانب ذلك تعالوا ننظر إلى أبيات أخرى دينيّة أيضاً، لكنها هذه المرة مستمدة من روح القرآن، أقصد «مقبوسات من القرآن»: ألا تشعرون عندها أنكم أمام رجلٍ مُسلمٍ، أليست هذهِ روح القرآن؟ أليس هذا سيفه؟! عظمة عقيدته البريئة، وقوة تعاليمهِ القاسية الصارمة[١٥]؟! وانظروا أيضاً إلى قصيدته «الليالي المصرية» وهكذا نرجعُ إلى العامُ القديم - سترون تلك الآلهة الأرضيّة التي تحكم شعبها باسم الألوهة وتزدري عباقرته ومشاعره، ولا تؤمن به إطلاقاً، فتعيش في عزلتها الخاصة وتكاد تجنّ من ذلك ويقتلها الضجر، تعللُ نفسها أو تسلي نفسها برغباتٍ حيوانية غريبة، وشبقٍ هو شبق الحشرات، هو شبق أنثى العنكبوت التي تلتهمُ زوجها[١٦]. لا أقول واثقاً: ليسَ لشاعرٍ - على الإطلاق - ما لبوشكين من قدرة على التفاعل اللطيف مع التراث العالمي، وليس الموضوع موضوع تفاعلٍ أو استجابةٍ فحسب، بل موضوع عُمقٍ يبعث الدهشة في فعل ذلك، إن لروح بوشكين قدرة هائلة على تقمص أرواح شعوب أخرى غريبة، تقمصاً يكاد يكون تاماً وكاملاً، ومثل هذا الأمر لم نَرَهُ عند شاعرٍ آخر في العالم كُلّه. إن هذا لم يحدث إلا عند بوشكين ولهذا وجدتموني أقول إن بوشكين ظاهرة لم نَرَ مثلها ولم نسمع بمثلها، إنها وفق تعبيري

الشخصي ظاهرة نبوءة! ذلك.. ذلك أن أقصى مظاهر القوة الروسية القومية إنما تتجلى في روح قصائده الشعبية، الشعبية في رؤياها المستقبلية والتي تبدو ملامحها في الوقت الحاضر، وهنا تتجلى النبوءة. ولكن ما هي قوة الروح الشعبية الروسية؟ أليست في أهدافها النهائية طموحاً لأن يلعب الشعب الروسي دوراً عالمياً لخدمة الإنسانية جمعاء؟ ما أن أصبح بوشكين شاعراً شعبياً ونفذ إلى أعماق الروح الشعبية حتى استشفّ الرسالة المستقبلية العظيمة لهذه الروح. وهنا يبدو عرافاً بل نبياً.

ماذا تعني لنا إصلاحات بطرس الأكبر في الواقع، ليس فقط في انعكاساتها المستقبلية بل بما انطوت عليه في الماضي والحاضر؟ إن هذه الأمور عايناها جميعاً بما فينا الشاعر. إنها لم تكن بالنسبة لنا مجرد ارتداء البذلات الأوربية وتعلم عادات شعوب أوربا، واكتساب العلم والاختراعات الأوربية.. فلننظر بدقة شديدة وتمعن إلى هذه الأمور. فمن الجائز مثلاً أن بطرس الأكبر لم يرد في البداية من إصلاحاتِهِ تلك إلا منافعَ سريعة مباشرة، لكن بعد ذلك تغير الوضع بفضل قدرات بطرس نفسه وما يملكه من حساسية فكريّة، فدفعَ بإجراءاتِهِ إلى أهداف بعيدة المدى وغير مباشرة، وعليه فقد قبلَ الشعبُ الروسي تلك الإصلاحات ليس لأجل أهدافها القريبة ولكن لأنه شَعَرَ سلفاً بهدفٍ بعيد أكثر سمواً ورقياً يمكن أن تبلغه، وأكررُ أن مثل هذا الشعور قد لا يكون واعياً، لكن ذلك لا يلغي قوّتَهُ ورسوخه العميق في روح الشعب الروسي. لقد رغبنا جميعاً في ذلك الوقت بإعادة بناء وحدة الحياة، وحدة الإنسانية جمعاء. لقد استوعبنا في أعماقنا عبقريات الأمم الأخرى وقبلناها جميعاً بالمحبة، وبالصداقة لا بالعداوة «كما توقعَ الآخرون..»، وما فرقنا بعضها عن بعض ولا وضعنا أحدها فوق الآخر وفقاً لجنسه، لأننا عرفنا - بالفطرة الصافية - كيف نتجاوز التناقضات منذ البداية، وكيف نعذر ونغفر، وكيف نحقق المصالحة بين مختلف ضروب

التناقضات في هذا الجانب وبذلك كنا نؤكد استعدادنا ورغبتنا لأن نعيد بناء وحدة الإنسانية والجنس البشري قاطبةً بين أسر الجنس الآري العظيم.

إن ميزة الإنسان الروسي هي أنه يجمَعُ إلى صفته الأوربية عالميّتهُ بلا شك. فمعنى أن يكون الشخص روسياً حقيقياً، روسيا كاملاً يتجلى في أنه أخو الناس جميعاً «احفظوا هذا القول!»، في أنه مؤمن بوحدة «البشرية جمعاء» إن شئتم!. إن سلافيّتنا وغربيتنا ليستا إلا سوء تفاهم، وإن كانتا من الناحية التاريخية ضرورتين، فالروسي الحق ينظر إلى أوربا والجنس الآري كله بالمحبة نفسها التي ينظر إلى روسيا من خلالها، لأن مصيرنا هو العالمية الشاملة، التي لا تتحقق بحد السيف، بل بقوة الأخّوة، وبرغبتنا الأخوية في تحقيق وحدة البشر، ولو كان لكم أن تدرسوا تاريخنا الروسي ما بعد أصلاح بطرس الأكبر، لرأيتم ما يدل على كلامنا السابق، لوجدتم قرائن تشير إلى الأحلام التي عبرّت عنها حين تكلمتُ عن روابطنا المشتركة مع شعوب أوربّا.

وحتى فيما يخص سياسة حكومتنا. فما الذي فعلته روسيا بسياستها خلال القرنين الماضيين؟ ألم تخدم أوربا أكثر بكثير مما خدمت نفسها؟ ولا أظن أن ذلك كان نتاج جهل ساستنا. لا. إن شعوب أوربا لا تعلم كم هي عزيزة علينا! وبالتالي فإننا، أعني الروس الذين سيأتون من بعدنا سيدركون: أن الانتماء إلى الشعب الروسي، أن يكون المرءُ روسيا حقاً، إنما يهني أن يسعى إلى حل التناقضات الأوربية نهائياً، ويصالح بينها، وأن يبين المخرج للسأم والحنين الأوربّي عَبْرَ الروح الروسيّة التواقة للشمول الإنساني والوحدة البشرية، فيجعل إخواننا في العالم يتحدون بنا بالحب وينصهرونَ ضمن هذه الوحدة، وبالتالي تقالُ الكلمة الأخيرة في الهارمونيا الشاملة، في الانسجامِ والاتفاق النهائي الأخوي بين جميع الشعوب تحت لواء وعقيدة السيد المسيح.

أنا أعرف أن كلماتي ستبدو لكم شديدة الحماسة وفيها من المغالاةِ ما يجعلها أقرب إلى الخيال والوهم. لكن لا ضمير. فلن أندم على ما قلتُهُ فمن الضروري أن تقال هذه الكلمات الآن تحديداً. في هذه اللحظات الاحتفالية السعيدة بذكرى شاعرنا العبقري الذي جسد بنفسه هذه الأفكار وحققها من خلال إبداعه. إن هذه الأفكار لا تقالُ للمرة الأولى وهي ليست جديدة. لكن المهم هنا هو ألا يحمل كلامي على محمل الغرور فيعترض أحدهم: «إذاً هذا هو مصيرنا؟! مصير وطننا الفقير البائس الجلف؟ إذاً فقد قدّر لنا نحن بين سائر شعوب العالم أن نقول الكلمة الجديدة، الكلمة الفصل؟». ولكن هل أتحدّثُ هنا عن القوة الاقتصادية، أو قوة السيف والعلوم؟ لا. إنما أتحدّثُ عن الأخوة بين الناس، وأرى أن القلب الروسي ربما كان مهيأ أكثر من سواه بين الشعوب لتحقيق الوحدة الإنسانيّة الشاملة القائمة على الأخوة بين الناس. وقد رأيت دلائلَ ذلك في تاريخنا، في النابغينَ من أبناء جنسنا، في عبقرية بوشكين الفّنية.

فليكن أن أرضنا هذه فقيرة، ولكنّ هذهِ الأرض الفقيرة نفسها شهدت «مباركة يسوع حين طاف فيها على هيئة قنٍ مستعبد». فلماذا لا تسكننا إذاً آخر كلماته؟ ثم ألم يولد هو نفسه في المذود[١٧]؟ أكررُ قولي: إننا على الأقل نستطيعُ أن نشير إلى عبقرية بوشكين الإنسانيّة الشاملة، لقد تمكن هذا الشاعرُ أن يجمَعَ في شخصِهِ عبقريات غربية كثيرة وكأنها لبعض ذويه.

لقد برهَنَ في إبداعاتِهِ - بطريقة لا تدُحض - على توقِ الروح الروسيّة إلى العالمية الشاملة وفي هذا دليل كبير. وإذا كانت أفكارنا خياليّة، فإن لدى بوشكين - على أقل تقدير - ما يصلُحُ أساساً لهذا الخيال، لو عاش بوشكين عمر أطول لظهرت نماذجُ خالدة لا تموت من الروح الروسية، مما يستطيعُ أخواننا الأوربيّون فهمَه، فينجذبون إلينا أكثر بكثير مما يفعلون

الآن، ولاستطاع بوشكين بذلك أن يشرح لهم حقيقة أشواقنا ، ولاستطاعوا عند ذاك فهمنا بصورة أفضل، ولتوقفوا عن عدم الثقة بنا ، وعن النظر إلينا من علٍ.

كما يفعلون حتّى الآن. لو عاش بوشكين أطول، لكان حجم الخلاف بيننا أقل، والمشاجرات أقل أيضاً ، فما نراهُ اليوم. لكن الرب أرادَ عكس ذلك. لقد توفي بوشكين في عنفوان شبابه وكامل قواه، وقد حَملَ مَعه إلى قبره قسطاً كبيراً من سرّه العظيم، وها نحن اليوم وبعد غيابهِ نعملُ على كشف هذا السر.

حولَ إحدى المسائل

[....] لقد نطقتم بكلمةٍ مهمة: «التنوير»[1] اسمحوا لي أن أسألكم: ماذا تقصدون بهذهِ الكلمة؟ هل تقصدونَ العلم الغربي؟ أم المعارف المفيدة؟ أم الحرفة؟ أم التنوير الروحي حصراً؟ فعلياً يجب علينا ألا نتجاوز الجانب الأول، أي العلم والحرفة، ولا مَفّر لنا من ذلك، وليس هناك حاجة أصلاً لهذا التجاوز.

إنني واثق تماماً أنه لا توجد لدينا مصادر غير المصادر الغربيّة الأوربيّة، ولهذا نحن نمدح أوربا ونشكرها للأبد. أما بالنسبة لي فأنا أقصد بكلمة «تنوير» (وأعتقد أن لا أحد يرى غير ذلك): المعنى الحرفي الذي تعبر عنه هذه الكلمة نفسها أي النور الروحي، الذي ينير الروح وينّور القلب، ويوجه العقل ويدله على طريق الحياة، وإذا كان الأمر كذلك، اسمحوا لي أن أقول لكم أن لا شيء يمكن أن نستفيد منه في المصادر الأوربية الغربية بهذا الشأن، لأن لدينا المصادر الروسية الكافية. تستغربون؟ إنكم تلاحظون أنني أحب أن أبدأ النقاش من جوهر المسألة، ومن أكثر النقاط إثارة للجدل.

إنني أؤكد أن شعبنا قد تنور منذ زمنٍ بعيد، عند جوهر المسيح وتعاليمه، سيقولون لي: إن شعبنا لا يعرف تعاليم المسيح، ولا يقرؤون له المواعظ، لكن هذا الاعتراض فارغ: إنه يعرف كل شيء ولاسيما ما يحتاج لمعرفته على الرغم من أنه لا يحتمل امتحان المدارس المدينّية. لقد تعلم في المعابد- وهي الأماكن التي سمع فيها على مدى قرون الصلوات والأناشيد

الدينية، وهي أفضل من المواعظ. أنا نفسي غنيت وكررت هذه الصلوات في الغابات أيام كنا نختبئ من أعدائنا... وقد غنا شعبنا نشيد: «يا قوةَ الرب كوني معنا»![٢] أيام غزوة باتييفو، ولعله تعلم هذا النشيد حين لم يبقَ له يوم ذاك إلا المسيح. قد تجسدت حقيقة المسيح كلها في هذا النشيد، مع أنهم ما كانوا يقرؤون لهذا الشعب إلا القليل من المواعظ، وكان القنادلة[أ] يتلعثمون بالكلمات فتخرج غير مفهومة- وهذا ما شكل الاتهام الأكبر للكنيسة من قبل الليبراليين، بالإضافة إلى عدم تقبل اللغة الكنسيّة السلافيّة من قبل الناس وكأنها غير مفهومة. (أما أصحاب الأزياء القديمة؟ فأجارك الله منهم)[٣]. وبعد ذلك كان يصعد الراهب ويقرأ: «ربّي يا مالك أحشائي»[٤]-وفي هذهِ الصلاة يكمن جوهر المسيحية كلها، وكل مدارسها الدينيّة، والشعب يحفظ هذهِ الصلاة عن ظهر قلب، كما ويعرف الكثير عن حياة القديسين ويسمعَ حكاياتهم ويتمُ تناقلها بخشوعٍ وابتهال.

إن المدرسة الأساسيّة للمسيحيّة التي تخرج منها هذا الشعب- هي قرون من المعاناة القاسية اللا متناهية وقد تحملها خلال تاريخه، عندما كان مُهمشاً من قبل الجميع، ويعمل لأجلهم في الآن نفسه. وبقي وحيداً مع يسوع المواسي الوحيد، الذي ملك عليه روحه إلى الأبد، فأنقذ هذا الشعب من اليأس عفواً! لماذا أقول لكم كل هذا؟ هل تعتقدون أنني أريد إقناعكم؟ طبعاً قد تبدو كلماتي هذه صبيانيّة وتنقصها اللباقة، لكنني أكررّ للمرّة الثالثة إنني لا أكتب لكم. مع أن هذا الموضوع يحتاج للكتابة وللحديث... وسأستمر في الكتابة والتحدّث عن ذلك مادمتُ أستطيع حمل اليراع.

والآن سوف أوضحَ فكرتي بصورة موجزة:

أ- جمع قندلفت

إذا كانَ شعبنا قد تنور منذ زمن بعيد وتقبّل المسيحَ وتعاليمهُ فإنهُ مع المسيح بالطبع قد تقبل التنوير الحقيقي. وتحول هذا الاحتياطي الأساس للتنوير الناتج عن علم الغرب إلى عمل خيرٍ ومعروفٍ حقيقي. إن المسيح لا ينطفئ عندنا كما في الغرب بسبب العلم، مثلما يؤكد الليبراليون. وقد كان اختفى قبل تطور العلم في الغرب عندما قامت الكنيسة الغربية نفسها بتشويه صورة المسيح متحولةً من كنيسة إلى حكومة رومانيّة، وممثلة المسيح في صورة البابا.

نعم. في الغرب حقيقةً لا وجود للمسيحيّة والكنيسة، على الرغم من وجود الكثير من المسيحيين، الذين لم يختفوا أبداً.

إن الكاثوليكيّة حقيقةً ليست مسيحيّة وقد تحولت إلى الوثنيّة، أما البروتستانتيّة فتتحولّ بخطى حثيثة إلى الإلحاد، وتأخذ بتعاليم أخلاقية آنيّة وغير مستقرة (غير دائمة).

آه طبعاً سوفَ تعارضونني وتقولون إن المسيحيّة وطاعة المسيح لا تتضمنان أبداً عمليةً كاملةً خاصة للتنوير، وليستا أكثر من محطة واحدة من عملية التنوير، ونحن- على العكس- بحاجة ماسة للعمل والأفكار المدنية والتطوّر... الخ... الخ.

ليس عندي ما أجيبكم به عمَّ تقولون، وربما ليس من اللائق أن أجيب، فأنتم محقونَ جزئياً، ولاسيما فيما يخص العلم، لكنكم لن توافقوا أبداً أن مسيحيّة شعبنا (يجب أن تبقى - إلى الأبد-الشيء الأهم والأساس في الحياة لتنويره)!، وقد قلتُ في حديثي بأن تاتيانا برفضها أن تتبعَ أونيفين تصرّفت على الطريقة الروسيّة وبما ينسجمُ مع الحقيقة الشعبية الروسيّة. أما أحد نقادي، وقد أهينَ عندما قلتُ أن لدى الشعب الروسي حقيقة، فقد عارضني سائلاً: «وماذا بشأن آثام الخنازير»؟. وهل من الممكن أن نقدم إجابةً لمثل هؤلاء النقاد؟ المهم أن هذا الناقد أهينَ حين أثبتُّ أن لدى الشعب

الروسي حقيقته الخاصة، وبالتالي هو متتورٌ بالفعل. وهل يمكن أن يكون شعبنا كله آثماً؟ وهذا الإثم موجود كحقيقة؟

وهل يتقبله شعبنا كله على أنه حقيقة؟ نعم قد يكون شعبنا غبياً؟ لكن ليسَ كله أبداً؟ آه ليسَ كلهّ وأنا أقسم على ذلك، فقد كنتُ شاهداً، عاينت شعبنا وعرفته.. عشتُ معه سنوات طويلة، أكلتُ ونمتُ معه وأنا نفسي «كنت محسوباً على الأشرار»، وقد عملتُ في صفوف هذا الشعب بصورة شاقةٍ حقيقية، في الوقت الذي كان فيه«الآخرون يغسلون أيديهم بالدم»[٥]، ويقررونَ- في محاضراتهم، وفي أقسام مجلاتهم الهجائية- ساخرين من الشعب: «إن شعبنا هو شكل الوحش وطباعه»[٦].

لا تقولوا لي أنتَ لا تعرف الشعب. إنني أعرفُهُ ومنهُ أخذتُ المسيحَ وقبلتُهُ في روحي، لقد عرفتُهُ في بيت أهلي طفلاً، وفقدتُهُ عندما تحولتُ إلى «ليبرالي أوربي». وليكن شعبنا آثماً وغبياً... وليكن شكله وحشياً، لكن قولوا لي إن استطعتم من أين جاءت هذه الأغنية مثلاً «الابن محمولٌ على كتفي أُمّه، الزوجةُ الشابة مقادةٌ بحبل» - إن كل الأغاني الروسيّة خرجتْ من الواقع- هل لاحظتم ذلك؟ كونوا عادلين ولو مرة من هو المخطئ ذو الشكل الوحشي، الذي لم تتهموه أنتم!

إن من المضحك أن تؤنبوا رجلاً لأنهُ لم يسرح شعره عند حلاق فرنسي معروف. إن الليبراليين الأوربيين لم يبلغوا مثل هذه الاتهامات حين يهبّون في وجه الشعب الروسي ويرفضونه: بسبب عدم تكون شخصيته، وغياب قوميته! يا إلهي خذوا أي شعبٍ في أي مكان في الغرب- هل تجدونه أقل سُكْراً وسرقة ووحشيةً. لا بد أنه سيكون أكثر قسوةً وسوءاً.

إن من المؤكد أن شعبنا لا يتقبل ولا يريد أن يتقبل ذنبه على أنه حقيقة إنه يقترف ذنباً ما، لكنه يقول دائماً: «لقد تصرفت تصرفاً غير حقيقي».

وإذا لم يصدر هذا القول عن المذنب نفسه، فإن شخصاً ما سيقوله نيابةً عنه، وستظهر الحقيقة.

إن الذنب نتانة والنتانة ستزول عندما تتملك منها الشمس.

إن الذنب شيءٌ زائل- أما المسيحُ فأبدي، الشعبُ يقترفُ ذنوباً وينجّسُ كل يوم، لكنه في الأوقات الأفضل، في أوقات المسيح لا يخطئ أبداً في الحقيقة. والمهم أن الشعبَ لا يثقُ بأي شيء مثلما يثقُ بحقيقته، كيف يرتئيها؟ وكيف يتصورها، وما هي أمنياته المفضلة، وماذا يحب وماذا يطلبُ من الله، وعلى أي شيء يبكي في صلواته.

إن المثل الأعلى للشعب- هو المسيح. ويأتي مع المسيح التنوير لقد حل الشعبُ دوماً- ويحل- القضايا الشعبيّة العامة، في اللحظات الحرجة الساميّة، على الطريقة المسيحيّة. ستقولون باستهزاء: «البكاء قليل، والتنهد كذلك. علينا أن نتصدى للفعل، علينا أن نكون».

لكن عندكم أيها السادة المتنورون الروس الأوربيون هل نجد الكثير من أصحاب الحقيقة؟ دلوني على أصحاب الحقيقة هؤلاء- عندكم! ممن تضعونهم مكان المسيح؟! ألا تعلمون أن أصحاب الحقيقة موجودون في الشعب! أن قوىً جميلة جداً وذات طبائع إيجابية لم تلحظها رقابتكم موجودة في الشعب أيضاً. هل ترون أصحابَ الحقيقة والمعذبين لأجلها أم لا؟ لا أعرف!

إن من قدر لهم أن يروا يرون بالفعل ويتفهمون. أما من يرى الشكل الوحشي فقط فهو طبعاً لا يرى شيئاً.. والشعبُ على كل حال يعرف بوجودهم في صفوفه ويثق بذلك، وهو قويُ بهذه الفكرة، ويعلمُ علم اليقين أنهم سينقذونه في اللحظات التي يحتاجهم فيها- وكم من مرة أنقذ الشعبُ وطنه. لقد انبعث هذا الشعب روحياً من ذنوبه ومن سكره وتجاوزه القانون عندما انتهكت عقيدة المسيح في الحرب الأخيرة، فتقلبها وتمسك بها

كنوع من التضحية لغسل ذنوبه، فأرسل أبناءه يموتونَ فيها لأجل الواجب المقدس. ولم يلتفت إلى الصغائر كارتفاع أسعار لحم الأبقار وتدني القيمة الشرائية للروبل.

لقد استمع إلى أخبار الحرب وقرأ عنها وسألَ بلهفةٍ.. وكنا شاهدين على ذلك. إنني أفهمُ النهوض الروحي لشعبنا في الحرب الأخيرة مع أن الليبراليين لا يعترفون بأسباب هذا النهوض، بل يستهزئون بالفكرة نفسها: «وهل توجد عند هؤلاء النتنين فكرة جامعة؟

عندهم فقط إحساس شعبي وفكرة سياسية- هل يمكن أن نقبل بذلك»؟

لماذا؟ لماذا هذا الليبرالي الأوربي عندنا عدو للشعب الروسي بشكل دائم؟ ولماذا يقفُ أولئك الذين يسمون أنفسهم ليبراليين ديمقراطيين في أوربا مع الشعب دائماً؟ ويعتمدون عليه على أقل تعديل؟ بينما الديمقراطي عندنا يكون غالباً أرستقراطياً، ويخدم دائماً تلك الأيدي التي تقمع القوى الشعبية وينتهي إلى السيطرة عليها.. آه أنا لا أجزم أنهم يعادون شعبنا عن سابق إصرار وقصد، لكنهم يفعلون ذلك عن غير قصد. هل ستسخرون من هذه الأسئلة؟ وليكن. كل ذلك بدهي بالنسبة لي. ولن أشرع بشرح هذه الأمور وإثباتها، لكنني سأستمر إلى حين بالكتابة والتحدث عن هذه الأشياء.

ولننه هكذا: هذا هو العلم، أما «التنوير» فليس هناك ما نستشفهُ بهذا الشأن من المصادر الغربيّة الأوربية. لكن ما يمكن أن نستشفه يتمثل في مجموعة من المقولات الاجتماعية مثل:

«Chacun pour Soi et Dieu pour tous»[أ] أو[٧] «Apres moile le luge»[ب].

أـ كلٌ من أجل نفسه، والله من أجل الجميع- بالفرنسية في الأصل.

بـ ومن بعدي الطوفان- بالفرنسية في الأصل.

آه، سيصرخون الآن: أما عندنا فلا توجد مثل هذه الأمثال. ألا يقولون عندنا: «الخبز والملح القديم ينسى»؟ وهناك مئات الأقوال المأثورة المشابهة. نعم يوجد الكثير من هذه الأمثال عند الشعب: عقل الشعب واسع، والفكاهة كذلك، ولكن كل هذه عبارة عن أمثال، وشعبنا في حقيقته لا يثق بها، فهو يهزأ ويسخر عموماً منها، ويرفضها على أقل تعبير. هل تجرؤون على التأكيد أن «..... Chacun pour Soi» هو مثل شعبي فحسب، وليس معادلة اجتماعية يعملُ بها الجميع في الغرب ويخدمونها ويؤمنون بها؟ أو على أقل تعديل أولئك الذين يقفون فوق الشعب ويسيطرون عليه ويملكون الأرض والطبقة العاملة ويسهرون على حماية «التنوير الأوربي». لماذا نكون بحاجة إلى مثل هذا «التنوير»؟ لماذا لا نبحث عندنا عن شيء آخر؟ العلم شيء والتنوير شيء آخر.

وإذا علقنا آمالنا على الشعب وقوته يمكن أن نطور تنويرنا المسيحي يوماً ما بشكلٍ مشرق ومتألق. ستقولون لي بالطبع: إن كل ذلك تشدق طويل وليس جواباً، ومع ذلك سيكون كلامي رَداً على انتقاداتكم. وليكن!.

أنا أعتقد أن ما قلته مقدمة فحسب، وهي ضرورية!

ومثلما تجدون في كلامي فقرات الخلاف فيما بيننا، وتعتبرونها الأكثر أهميّة، كذلك سأضع أمامكم تلك الفقرة التي تجسد أسس الخلاف بيننا، وهي ما يعيقنا في التوصل إلى اتفاق. إلا أن هذا سيكون طبعاً مقدمةً، ثم سأنتقل إلى توجيه النقد لكم وهذه المرة دون تراجع.

النصفـان

سـأنتقلُ الآن إلى وجهـات نظـركـم حـول «إصـلاح الـنفس في روح الحـب المـسيحي» وإلى مـا يبـدو غـير مكتمـل أبـداً بالمقارنـة مـع «المثـل العليـا الاجتماعية»، والأهم- مع «المؤسسات الاجتماعية». [...].

لقـد أجبتـكم جزئيـاً عـن مـا يخـص «الحقيقـة» والمثـل الـشعبية العليـا في بداية المقال، وفي جزئه الأول. وأنتم تجدون أن هذه «الحقيقة» والمثل الـشعبية العليا غير كافية تماماً لتطور المثل العليا الاجتماعية لروسيا.

تقولـون: الـدين شـيء، والعمـل الاجتمـاعي شـيء آخـر. إنكـم تقـصون الجسم الحي الكامل بمقصكم العالم على نصفين، وتؤكدون أن هـذين النصفين يجب أن يكونا مستقلين تماماً واحدهم عن الآخر. لننظر إلى الأمر مقتربين من المسألة أكثر، ولنتفحص هذين النصفين كلاً على حدة، فقـد نستنتج شيئاً ما، نحلل بداية النصف الأول وهو «إصلاح النفس في روح الحب المسيحي». تكتبون:

«إن الـسيد دوستويفـسكي يـدعونا للعمـل علـى أنفـسنا وتطويعهـا. إن إصـلاح الـنفس في روح الحـب المـسيحي هـو بـالطبع الـشرط الأول لأي نـشاط واسع أو ضيق. لكن ذلك لا يعني أن الناس الذين أصلحوا أنفسهم بالفكـرة المسيحية، يجب عليهم أن يكوّنوا مباشرةً المجتمع المثال؟ لنسمح لأنفـسنا أن نضرب مثالاً:

لقـد علـم الرسـول بـولس[1] الأسـياد والعبيـد في ظـل علاقـاتهم المتبادلـة. واستطاعوا جميعاً أن يستجيبوا لكلمة الرسول.. كان هـؤلاء مسيحيين جيـدين

لكن العبودية ظلت على حالها ولم يصبها التنوير، وقد عرف السيد دوستويفسكي مثلما عرف كل واحد منا المسيحيين ملاكين وفلاحين، عرف نظام الرق الذي ظل مهيناً أمام الله، وهكذا اعتبر القيصر الروسي معبراً ليس عن المطالب «الخاصة» فحسب، بل وعن المطالب «الأخلاقية» الاجتماعية، إن نظام الرق لم يكن في الأزمنة القديمة نظاماً ذا مفهوم مناسب بغض النظر عن وجود «أناس جيدين» في تلك المرحلة ليسوا أقل جودة من الناس هذه الأيام.

إن الأخلاق الخاصة، والأخلاق الاجتماعية ليستا شيئاً واحداً، وهذا يعني أن ليسَ بالإمكان الوصول إلى أي تحديث اجتماعي عن طريق تحسين نوعية الناس الخاصة المشكلين لهذا المجتمع «فقط». ولنضرب مثالاً آخر: منذ بداية عام ١٨٠٠ كان بإمكان عددٍ من الداعين للحب والطاعة المسيحيين أن يعملوا على تحسين أخلاق كوروبوتشكا سوباكييفيتش[٢]، لكن هل يمكن أن نفترض أن هؤلاء الدعاة كانوا قادرين على إلغاء نظام الرق دون الحاجة إلى كلمة «سلطوية». الأمر عكس ذلك... فلو كانت المسألة متعلقة بالدعاة فقط لوجدنا كوروبوتشكا تحاول الإثبات أنها مسيحية حقيقية، وأنها «الأم» الحقيقية لفلاحيها، وكانت ستثبت على قناعتها هذه بغض النظر عن حُجج الواعظين كلها».

لا يمكن أن يحصل التحسن الاجتماعي للناس من خلال عملهم «على أنفسهم» وعلى «إخضاع هذه النفوس» فقط. إن مثل هذا الأمر يمكن أن يحدث في الصحراء وعلى جزيرة غير مأهولة. أما الإنسان وبكونه كائناً اجتماعياً يتطور ويتحسن في العمل ومن خلاله (الواحد إلى جوار صاحبه، والصديق من أجل صديقه، والواحد مع الآخر).

ولهذا السبب فإن بلوغ مرتبة عظيمة من التحديث الاجتماعي للناس رهن بتحديث «المؤسسات الاجتماعية» التي تربي في الإنسان الشجاعة والجرأة، والتي إن لم تكن مسيحية فستكون مدنية».

لقد رأيتم كم اقتبست مما نشرتم!، إن كلامكم أساء بشكل مخيف ومرعب لفكرة «إصلاح النفس في روح الحب المسيحي»: لا شيء مفيد تقريباً في الأعمال الاجتماعية، إنكم تفهمون المسيحية بشكل مضحك! تصوروا فقط لو أن كوروبوتشكا وسوباكيفيتش قد أصبحا مسيحيين حقيقيين لدرجة الكمال «لقد ذكرتم الكمال بأنفسكم» - فهل من الممكن إقناعهما بالتخلي عن نظام الرق؟ إنكم بهذا تطرحون سؤالاً ماكراً، وستجيبون بالطبع: «لا، لا يمكن إقناع كوروبوتشكا ولا أي مسيحية مؤمنة كثيراً».

وأنا أجيب عن ذلك مباشرة: «لو استطاعت كوروبوتشكا أن تصبح مسيحية حقيقية لما وجد نظام الرق في منطقتها أبداً»، يجب أن نفهم المسيحية بشكل دقيق! وعندها أي عبيد وأي أسياد يمكن الحديث عنهم! وما شأن كوروبوتشكا حينها مسيحية تامةً، أم لا، صاحبة أقنان أم لا؟ إنها «أم» لأولئك الأشخاص، أم حقيقية، وهذه «الأم» في تلك اللحظة ستلغي «السيدة المالكة» القديمة.

ولاختفى العبد والسيد السابقين مثلما يختفي الضباب حين تسطع عليه الشمس، ولظهر أناس جدد وولدت علاقات جديدة لم يسمع عنها من قبل. نعم ولحصل الأمر بصورة غير مسبوقة: لكان قد ظهر «في كل مكان مسيحيون حقيقيون، ممن كانوا قلة في السابق، لا يثيرون الاهتمام. ألستم أنتم يا سيد غرادوفسكي قد صنعتم هذا التصور الخيالي؟! ألستم من دخل هذه الفانتازيا العجيبة بمحض إرادتكم! حسناً إذاً عليكم تقبل النتائج. إنني أؤكد لكم يا سيد غرادوفسكي أن فلاحي كوروبوتشكا أنفسهم ما كان لهم أن يتركوها لسبب بسيط جداً، مفاده أن كل شخص يبحث عن الأمر الأفضل له، هل كان وضع أولئك الفلاحين أفضل في مؤسساتكم منه عند «الأم» الحقيقية المالكة، المحبة؟

وأجرؤ أن أذكر لكم أيضاً أن بقاء العبودية في عصر الرسول بولس إن كانت قد بقيت، فذلك لأن الكنائس التي ظهرت حينها لم تكن تامة!

(وهذا ما تراه في رسائل الرسول). إن المسيحيين الحقيقيين الذين وصلوا حينها إلى درجة الكمال ما امتلكوا عبيداً، ولم يكن باستطاعتهم ذلك، ولاسيما أن هؤلاء العبيد كانوا قد تحولوا إلى أخوان، والأخ لا يرتضي أن يمتلك أخاه عبداً له.

كيف يمكن أن تستنتجوا من خلال مقدماتكم تلك أن دعوة المسيحية لم تكن قوية. لقد كتبتم أن دعوة الرسول بولس لم تتطرق إلى مسألة العبودية! ألم يرسخ معظم العلماء الآخرين- ولاسيما المؤرخين الأوربيين- المسيحية لأنها تناولت العبودية! هذا يعني أنكم لا تفهمون جوهر المسألة، وتتوقعون أن ماريا المصرية[٣] كانت تمتلك أقناناً وكانت ترفض منحهم الحرية. ما هذه السخافة؟! لقد كان وسيبقى في المسيحية- والمسيحية الحقيقية- سادة وخدم، لكن ليس هناك عبيداً ويجب ألا نفكر بذلك. إنني أتكلم عن المسيحية الحقة الكاملة، الخدم ليسوا عبيداً. لقد خدم التلميذ تيما في الرسول بولس عندما كانا يخرجان سوية، اقرؤوا رسالة بولس إلى تيماڤي: هل يكتب إلى عبد أو حتى إلى خادم! اطلبوا الصفح! لقد كتب: إلى ولدي تيماڤي» - ابنه الحبيب- هكذا ستكون العلاقة بين السادة وخدمهم إذا أصبح الجميع مسيحيين كاملين. سيكون هناك سادة وخدم لكن السادة ليسوا سادة والخدم ليسوا عبيداً. تصوروا أن يكون في المجتمع المستقبلي كيبلر وكانت وشكسبير[٤]: إنهم يقدمون أعمالاً عظيمة للجميع، والكل يعرفهم ويقرأ لهم... ولن يكون عند شكسبير بطبيعته الحال متسع من الوقت للاهتمام بمنزله وتنظيفه ورمي النفايات كونوا على ثقة من أن مواطناً ما سيجيء إليه لينجز له هذا العمل طوعاً.

هل سينظر إلى هذا الشخص احتقاراً ويسمى عبداً، بالطبع لا إنه شخص يعرف أن شكسبير مفيد لمجتمعه أكثر منه هو بكثير، وسيقول له: «لك التحية والمجد، وأنا سعيد بخدمتك، وبتقديم منفعة لو بسيطة

للمصلحة العامة، وسأحافظ على وقتك الثمين من أجل عمل عظيم، لكنني لستُ عبداً إنني اعترفُ يا سيد شكسبير بأنك أعلى مني بعبقريتك، وبقدومي لخدمتك إنما أثبت بوعيي هذا- إنني ووفق الكرامة الإنسانية الأخلاقية لست أدنى منك وكإنسان نحن متساويان».

طبعاً لن يقول ذلك الشخص هذا الكلام حينها، لسبب بسيط يتمثل في اختفاء الحاجة للتصريح بمثل هذا الكلام، الذي لن يكون له أي معنى، فالجميع ساعتها سيكونون وبحق أناساً جدداً، أبناء المسيح، وسيتم الانتصار على كل ما هو حيواني سابق. ستقولون طبعاً: إن كل هذا عبارة عن فانتازيا. لكن لست أنا من بدأ الفانتازيا، بل أنتم: ألستم من تصور كوروبوتشكا مسيحية حقيقية» مع «أبناء عبيد»، لا تريد منحهم الحرية. إن الفانتازيا التي أقدمها أنظف مما قدمتم.

سيضحك الناس الأذكياء عند هذا الحد ويقولون: «جيد إذا اهتممتم بعد ذلك بإصلاح النفس في روح الحب المسيحي، في الوقت الذي أصبح الأمر فيه وكأن لا وجود للمسحية الحقة، أو على أفضل تقدير هي من القلة بحيث لا يمكن ملاحظتها (وفق عباراتي أنا)».

نعم بالطبع أيها السادة المستهزئون إن المسيحيين الحقيقيين قلة بشكل مريع (على الرغم من وجودهم)، ولكن كيف لكم أن تعرفوا ما هو العدد الذي نحتاجُهُ كي لا يموت المثل الأعلى المسيحي في الشعب، ويموت معه أمله العظيم؟

طبقوا ذلك على المفاهيم المدنية: كم يحتاج الأمر من المواطنين الحقيقيين كي لا يموت في المجتمع التفاني الشعبي؟ لن تجيبوا عن هذا السؤال! يحتاج الأمر إلى اقتصاد سياسي من نوع خاص، لا نعرفه ولا تعرفه أنت يا سيد غرادوفسكي.. سيعاودون القول: «إذا كان هذا العدد القليل من الواعظين لأجل فكرة عظيمة، فأي فائدة ترجى منها»؟، لكن أنتم كيف تعلمون الفائدة المرجوة، من تلك الفكرة العظيمة؟، الأمر الأهم حتى

الآن- فيما أرى- هو ألا تموت تلك الفكرة. والموضوع الذي لا يقل أهميته الآن هو أن نكون جاهزين عندما يبرز الشيء الجديد المنتظر في الدنيا...

نعم والمسألة هنا لا تتعلق بالفائدة التي نجنيها ولكن «بالحقيقة»، فلو كنت أؤمن أن الحقيقة هنا! فيما أعتقد به أنا، فما الذي يعنيني لو أن كل العالم لم يشكك بذلك ويسخر مني، ويسلك طريقاً آخر؟. نعم في هذا الأمر بالذات تكمن قوة الفكرة الأخلاقية العظيمة، وعلى هذا النحو نراها توحد الناس في اتحاد متماسك، لأنها لا تقاس بمنفعتها الآنية، بل بالسعادة المطلقة الأبدية التي تشد الناس إليها في المستقبل. وأنتم؟ بماذا توحدونَ الناس لأجل بلوغ أهدافكم المدنية إذا كنتم لا تملكون الأساس لولادة فكرة أخلاقية عظيمة؟ والأفكار الأخلاقية واحدة من حيث الجوهر: إنها مؤسسة على فكرة الإصلاح الذاتي المطلق الخاص في المستقبل، في المثل الأعلى، لأن هذه الفكرة تحمل في نفسها كل الطموحات والتعطشات، وهذا يعني أن كل مثلكم المدنية تتبع منها. جربوا أن توحدوا الناس ضمن مجتمع مدني وتحت هدف واحد هو «ملء البطون»!؟ وعندها لن تحصلوا إلا على المثل الشعبي ذي الطابع الأخلاقي «Chacun pour soiet dieu pour tous»[1] وبهذا المثل لن تعيش أي مؤسسة اجتماعية طويلاً. يا سيد غرادوفسكي.

إنني سأذهب أبعد من ذلك، ومصمم على إدهاشك: هل تعلم أيها البروفسور العالم أن المثل العليا المدنية الاجتماعية، غير المرتبطة عضوياً بالمثل العليا الأخلاقية، توجد بنفسها على شكل أجزاء مبتورة عن الكل بفضل مقصكم العالم. إن المثل المأخوذة من الخارج والمزروعة في مكان جديد ما ولو بنجاح على شكل «مؤسسات» مفصولة عما حولها، ليست

1- «كل لأجل نفسه، والله لأجل الجميع»- بالفرنسية في الأصل.

موجودة وأقول لكم إنها لم تكن موجودة على الإطلاق، ولن يقدر لها أن تعيش على الإطلاق. ما هو المثل الأعلى الاجتماعي؟ وكيف يمكن أن نفهم هذه العبارة؟ إن جوهرها هو طموح الناس لإيجاد معادلة للبناء الاجتماعي دون أخطاء قدر المستطاع وبشكل يناسب الجميع، أليس كذلك؟

إن الناس لا يعرفون هذه المعادلة، وهم يبحثون عنها منذ ستة آلاف عام ولم يجدوها بعد. إن النملة تعرف معادلة خليتها النملية؟!

والنحلة تعرف أيضاً معادلة خليتها (تعرف هذه الكائنات معادلاتها على طريقتها الخاصة، وهي ليست بحاجة لأكثر من ذلك) لكن الإنسان لا يعرف معادلته! فمن أين يمكن إيجاد المثل الأعلى للبناء الاجتماعي في المجتمع الإنساني؟ تابعوا تاريخياً وسترون مباشرة من أين يمكن أن تؤخذ هذه المعادلة أو (هذا المثل)؟!

سترون أنها موجودة كنتاج لإصلاح النفس الذاتي الأخلاقي للأفراد، من هنا تبدأ المعادلة، وهذا ما كان على مر العصور. إن الفكرة الأخلاقية تسبق بداية وجود أي شعب وأي قومية، وهي التي تؤسس القومية.

لقد ولدت الفكرة الأخلاقية دوماً من فكرة صوفية مفادها القناعة بأن الإنسان أبدي وهو ليس كائناً دنيوياً بسيطاً، بل هو مرتبط بالأزل.. بالعوالم الأخرى. هذه القناعة تطورت وتشكلت على شكل أديان في مواطن كثيرة.

وكان الأمر أن قوميات معينة تبرز وتتبلور بعد ولادة الأديان تلك.

انظروا إلى اليهود والمسلمين: لقد تشكلت القومية عند اليهود فقط بعد ظهور قانون موسى على الرغم من أنها كانت قد بدأت تتشكل مع قانون أو شريعة إبراهيم[1] أما القومية الإسلامية فقد ظهرت فقط بعد ظهور القرآن[5].

١- يعود دوستويفسكي هنا أيضاً للخلط بين مفهومي العقيدة الدينية والقومية والفرق شاسع بينهما./المترجم

ومن أجل الحفاظ على الجوهرة الروحية التي تسلمها اليهود والمسلمون بدأ هؤلاء في الانصهار معاً، وعندها فقط بدأ اليهود بحماسة واهتمام بالغين «يعلمون بعضهم لأجل بعض، والواحد إلى جوار الآخر» (كما كتبتم بفصاحة يا سيد غرادوفسكي) - وحينها فقط بدأ الناس يبحثون عن سبيل لبناء النفس للحفاظ على جوهرتهم الموهوبة لهم دون أن يضيعوا منها شيئاً.. وبدؤوا يفكرون كيف يجدون تلك المعادلة «المدنية» للعيش سوية، مما سيساعدهم أن يقدموا للعالم كله وهم في ذروة مجدهم تلك الجوهرة التي تسلموها، ثم لاحظوا ماذا حصل بعد قرون من ذلك؟! (الأمر هنا يتعلق بقانون خاص غير مرئي من قبلنا)، لقد بدأ المثل الروحي الأعلى في هذه القومية يضعف ويهتز، وسقط معه النظام المدني الداخلي كله، وخمدت المثل العليا المدنية التي كانت قد تشكلت في ذلك النظام.

لقد تشكل طابع الأنظمة المدنية لتلك الشعوب تماماً وفق الطابع الديني الاعتقادي لها، أي أن المثل المدنية العليا كانت دائماً مرتبطة بشكل عضوي مع المثل العليا الأخلاقية والأهم- دون شك- أنها كانت تخرج منها وحدها، لأنها لا تتشكل من تلقاء نفسها، بل تتشكل كمنعكس لإشباع الطموحات الأخلاقية لهذه القومية أو تلك، وهذا يعني أن «الإصلاح الذاتي للنفس في الروح الدينية» في حياة الشعوب هو أساس كل شيء، لأن إصلاح النفس الذاتي في المثل الروحي الأعلى هو نفسه «الاعتقاد المأخوذ من العقيدة الدينية»، أما المثل العليا المدنية فليس لها أن تنتقل إلى إصلاح النفس دون تلك الطموحات التي ذكرتها!

ستقولون لي إنكم قد ذكرتكم ذلك بأنفسكم من أن «الإصلاح الذاتي للنفس هو بداية كل شيء»، وإنكم لم تفعلوا شيئاً باستخدام المقص، ولكنني أقول لكم إنكم قد قسمتم الجسم الحي إلى نصفين.

وأقول لكم إن الإصلاح الذاتي للنفس ليس فقط بداية لكل شيء ولكنه يشكل الاستمرارية والمصدر. إن هذه الفكرة تملأ الجسم القومي وتحافظ عليه، ولأجل ذلك تعيش الصيغة الاجتماعية للأمة، وتتأسس من أجل ذلك فقط، بهدف حمايته، كجوهرة نادرة أولى. عندما تفقد في القومية الحاجة إلى الإصلاح الذاتي العام في تلك الروح «التي تأسست عليها»، عندها وبالتدريج تختفي كل «المؤسسات الاجتماعية»، لأنه ما من حاجة عند ذلك لحماية أي شيء. [...] ستقولون إنه حتى في «المؤسسات الاجتماعية» يمكن أن توجد الأفكار الأخلاقية العظيمة، لأن «الأفكار المدنية» في الأمم الناضجة والمتطورة تحل محل الأفكار الدينية البدائية، التي هي شيء من موروثها وتحس بالانتماء إليها. نعم هذا ما يؤكده الكثيرون ولكننا لم نرَ مثل هذه الفانتازيا حتى الآن.

عندما كانت الفكرة الدينية الأخلاقية تستأصل من القومية، كانت تنمو حاجة جبانة جداً للوحدة على أساس «ملء البطون»، وما كانت توجد أهداف مدنية أخرى. وهذا ما يحدث الآن للبرجوازية الفرنسية التي تتحد الآن حول هذا الهدف «إنقاذ وملء البطون»، ضد الطبقة الرابعة التي تحاول أن تكسر بابها. ولكن هدف «ملء البطون» هو آخر الأهداف الضعيفة التي يمكن أن توحد البشرية. إنها إذاً بداية النهاية، الإحساس بالنهاية. إنه الاتحاد مع الترقب والخوف، حيث عند أقرب خطر يمكن التفرق والاختباء. وماذا باستطاعة هذه «المؤسسات» أن تفعل ومن تنقذ؟ وما الجدوى عندئذ أن نكتب على جدران هذه المؤسسات: «liberté, egalité, fraternité»[1]؟ إنكم لن تحققوا أي جدوى من هذه المؤسسات، وعليكم عندها أن تضيفوا إلى الشعار السابق

1- الحرية، المساواة، الأخوة- بالفرنسية في الأصل- المترجم-

كلمة رابعة «Ou la mort»[1]، «fraternité ou la mort»، وسيندفع الأخوة لشج رؤوس إخوانهم ليحصلوا من خلال المؤسسات الاجتماعية على «الأخوة». هذا فقط مجرد مثال، ولكنه جيدا.. أنتم يا سيد غرادوفسكي تشبهون «أليكو» إنكم تبحثون عن الإنقاذ في الظواهر الخارجية: فلو كان في روسيا الكثير من الأغبياء والنصابين (وقد يكون الأمر كذلك)، وأحضرنا من أوربا «مؤسسة» ما، فعندها سيتم إنقاذ كل شيء!. إن النقل الميكانيكي للأفكار الأوربية (التي يمكن أن تنهار غداً في بلادها) غير مجدٍ لشعبنا وغريب عنه... وإن كان هذا هو الشعار الذي يرفعه أنصار أوربا!

بالمناسبة يا سيد غرادوفسكي إنكم تشيرون إلى أوربا عند انتقادكم سوء التنظيم عندنا، وتخجلون بروسيا من ذلك، لكن اسمحوا لي أن أقول:

تزعمون: «إننا لا نستطيع أن نتغلب على تلك التناقضات والاختلافات التي تغلبت عليها أوربا منذ زمن بعيد...».

من قال لكم إن أوربا قد تغلبت على تناقضاتها؟ من ذا الذي يجرؤ أن يزعم ذلك؟ إن أوربا- خاصتكم هذه على وشك الانهيار الشامل والمرعب!

إن خلية النمل تلك منذ زمن بعيد قد تأسست على غير الكنيسة أو المسيح (لأن الكنيسة قد بدلت نموذجها الأعلى منذ زمن بعيد وتحولت إلى دولة)، وبشكل متخلخل غير ثابت في الأسس الأخلاقية الأولى، وقد فقدت كل شيء جامع ومطلق- إن خلية النمل هذه اليوم تنبش... إن الطبقة الرابعة تهدد.. تطرق الباب بعنف وتحاول تحطيمه! إن لم يفتح لها، إنها ترفض اليوم المثل العليا القديمة وترفض القوانين السابقة كلها، وترفض المساومة والتنازل، وبالتالي ليس بإمكان العسكر إنقاذ المبنى؟! المهزومون يحرقون... وهذه

1ـ «أو الموت»، «الأخوة او الموت» بالفرنسية في الأصل.

الطبقة تريد كل شيء. وسيحدث ما لم يتخيله أحد كل دعاة البرلمانات، كل النظريات الاجتماعية المعمول بموجبها، كل الثروات المكدسة والبنوك والعلوم.. الخ.. كل هذا سينهار في لحظة واحدة ودون أن يترك أثراً يذكر [....] إنكم تضحكون!؟ أيها السادة الضاحكون فليعطكم الله الصحة والعمر لقرن آخر وسترون بأنفسكم وستدهشون حينها... وستقولون لي ضاحكين: «كم تحب أوربا لدرجة تجعلك تتنبأ بمصيره!»، وهل تعتقدون أنني سعيد بذلك؟ إنني فقط أحس واستخلص النتائج.. إن الحساب، ودفع الثمن قد يحدث أسرع من ذلك بكثير، وبصورة لا يتصورها الخيال، وستكون الآثار مرعبة! إن المعاناة فحسب، والوضع السياسي غير الطبيعي للحكومات الأوربية سيكون البداية لكل ذلك. ليس بإمكان جزء صغير من البشرية أن يمتلك كل البشرية الباقية كعبيد! ولكن أليس لأجل هذا الهدف تحديداً تأسست المؤسسات الأوربية كلها، (والتي تركت المسيحية منذ زمن) وهي الآن وثنية تماماً. إن هذه الأشياء غير الطبيعية... والمشكلات السياسية «غير القابلة للحل» (والمعروفة للجميع) ستؤدي حتماً إلى حرب سياسية تقسيميّه نهائية ضخمة، سيشترك فيها الجميع، وقد تبدأ في القرن الحالي... وربما في العقود القريبة القادمة.. ما رأيكم هل يستطيع المجتمع الآن تحمل حرب سياسية طويلة؟ إن الصناعيين الجبناء وحتى الأقوياء منهم والبنوك سيقفلون أبوابهم عندما يشمون رائحة الحرب وتجد ملايين الأفواه الجائعة والعمال أنفسهم في الشوارع..

وهنا ألا تتمنون على السياسيين الأذكياء ألا يبدؤوا الحرب؟

ومتى كان بإمكانكم الاعتماد على هؤلاء الحكماء؟ وهل تثقون بأن المولين لن يقدموا المال لأجل الحرب عندما يستشعرون نتائجها؟

وأولئك العمال في الشوارع هل تتصورن أنهم سيظلون هادئين وهم يموتون من الجوع؟ وكل ذلك بعد الاشتراكية السياسية وفكرة الأممية وكومونة

باريس والمؤتمرات الاجتماعية.. لا.. الأمر لن يكون كما كان قبل.. سوف يهجمون على أوربا، وينهار كل شيء قديم وإلى الأبد. ولن تتكسر هذه الأمواج إلا على شواطئنا، وسينتبه الناس جميعاً إلى مدى اختلاف جسمنا الاجتماعي عن الجسم الأوربي..

وعندها أيها المنظّرون ستبدؤون بالبحث عندنا عن «البدايات الشعبية» التي تهزؤون منها الآن. والآن... الآن أيها السادة تشيرون إلى أوربا وتدعون لنقل تلك المؤسسات التي ستنهار قريباً، التي أكل الدهر عليها وشرب! والتي هناك في بلدها الكثير ممن لا يؤمنون بها والتي ما زالت باقية بقوة العطالة.

ومن غير هؤلاء المنظرين الشاردين يمكن أن يتقبل مهزلة وحدة البرجوازية التي نراها في أوربا اليوم، على أنها المعادل الصحيح للوحدة الإنسانية على الأرض؟

آه ربما يا سيد غرادوفسكي ولو للحظات نستطيع التحرر من أوربا وممارسة شؤوننا الخاصة، والمثل الاجتماعية العليا الخاصة بنا النابعة من المسيح ومن الإصلاح الذاتي للنفس، والتأهيل الذاتي لها.

وستسأل يا سيد غرادوفسكي: أي مثل اجتماعية ومدنية يمكن أن توجد عندنا بمعزل عن أوربا؟ نعم إن مثلنا الاجتماعية والمدنية أفضل وأصلب من مثلكم الأوربية وحتى أنها أكثر ليبرالية... نعم أكثر ليبرالية كونها نابعة من جسد شعبنا، وليست مُقتطعة من أوربا ومغروسة عندنا...

الآن لا يمكنني أن أدخل في تفاصيل هذه الفكرة، فقط لأن هذه المقالة أصبحت أطول من أن تتحمل ذلك.

تذكروا: كيف وإلى أي شيء طمحت الكنيسة المسيحية القديمة أن تصل؟ لقد بدأت بعد يسوع مباشرة وببضعة أشخاص، ومنذ الأيام الأولى لبدايتها بعد المسيح راحت تبحث عن «صيغتها المدنية أو المجتمعية»، وعن كل

ما هو مؤسس على أمل أخلاقي بإشباع حاجات الروح انطلاقاً من إعادة بناء الذات وتأهيلها. وبدأت الجماعات المسيحية- الكنائس، بعد ذلك وبسرعة راحت تتكون قومية لم يسمع بها من قبل- قائمة على الأخوة الشاملة، الإنسانية العامة، ضمن صيغة الكنيسة الكلية. ولكنها كانت مطاردة.. فتشكل أنموذجها المثالي تحت الأرض[٦]، وفوقها... فوق الأرض علت بناية شاهقة، علت خلية نمل عظيمة- إنها الإمبراطورية الرومانية، التي اعتبرت بشكل ما، كما لو أنها الطموح الأخلاقي للعالم القديم، ظهر للإنسان الرب، ظهرت الإمبراطورية كلها كفكرة دينية، تقدم في ذاتها (وذاتها) كمصدر للطموح الأخلاقي للعالم القديم. لم تتحصر خلية النمل أو تتلاشى بل اشترتها الكنيسة. حدث صدام بين الفكرتين المتضادتين، اللتين كانت تستطيعان العيش فوق الأرض يومها: الإنسان الرب قابل الرب الإنسان، أبولون بيلفيديرسكي[٧] أمام المسيح، ثم كان التوفيق: الإمبراطورية اعتنقت المسيحية، أما الكنيسة فقد اعتنقت الدولة الرومانية والحقوق الرومانية، جزء بسيط من الكنيسة فر إلى الصحراء وتابع عمله القديم: فظهرت ثانية تجمعات مسيحية صغيرة، ثم أديرة... وكل ذلك اختبار قبل أيامنا هذه!

وانقسم الجزء الكبير من الكنيسة- كما هو معروف- إلى قسمين: في القسم الغربي الدولة ابتلعت الكنيسة نهائياً، لقد انتهت الكنيسة وتحولت تماماً إلى دولة: ظهرت البابوية- كوريثة للإمبراطورية، وريثة ولكن بصورة جديدة. أما الشطر الشرقي من الكنيسة، فقد تهاوى تحت سيف محمد، ولم يبق من هذا الشطر إلا يسوع المسيح، منفصلاً بالتأكيد عن الدولة. وراح هذا الجزء الشرقي الذي ظل حاملاً يسوع ومعتنقاً لتعاليمه يعاني العذاب لقرون من قبل الأعداء، التتار، الدمار، نظام القنانة والرق والإقطاع، من الأوربيين والأنظمة أو المدارس الأوربية، مما أدى إلى أن الصيغ الحالية لمجتمعاتنا أو لنقل روح المحبة فيها وإعادة بناء الذات وتأهيلها مسيحياً، حتى

الآن أمور غير ممكنة وصعبة، ولكن على الرغم من ذلك ليس من حقك سيد غرادوفسكي أن تلوم هذا الشطر من العالم على ذلك، ليس من حقك أن تعاتب شعبنا بهذا الخصوص، لأن الأمل إنما يلقى على عاتق هذا الشعب فحسب، هذا الشعب الذي سمى نفسه الشعب الفلاح، أي المسيحي وهنا ليست المسالة مسألة مفردة معينة، بل مسألة فكرة تطرح ظلها على مستقبل هذا الشعب. لقد أمعنت يا سيد غرادوفسكي في قسوتك على روسيا بسبب فوضاها وعدم انضباطها. لكن من أعاق روسيا حتى الآن من تحقيق النظام والانضباط، خلال القرون الماضية وبالتحديد خلال خمسين السنة الماضية؟

أنهم أمثالك سيد غرادوفسكي من الروس الأوربيين، الذين وخلال قرنين كاملين لم ينقرضوا بل لازالوا يربضون على صدرونا. من عدو التطور العضوي والذاتي لروسيا انطلاقاً من بداياتها الشعبية الخاصة؟ من ذا الذي لا يعترف حتى بوجود البدايات لدينا ولا يريد أن يلاحظ وجودها ساخراً منا؟ من الذي يريد أن يعيد صناعة شعبنا «رافعاً إياه- بشكل خيالي- إلى مقامه هو نفسه»؟ من يريد ببساطة أن يجعل الجميع- مثله هو- ليبراليين أوربيين، دون مراعاة للظرف التاريخي، وبانقطاع عن الزمن، وانفصال عن الكتلة الاجتماعية، حتى ولو من خلال تغيير نمط لباسهم ونوعيته؟ أنا لا أسب الأوربي ولم أقل أنه داعر، لكنني أقول فقط أن تحويل الروسي إلى أوربي- كما يفعل الليبراليون- فيه شطر من الدعارة.

والحقيقة أن هذه الغاية هي جوهر عملهم وأساس برنامجهم: إنها انتزاع الشخص عن مجتمعه ومن! - أرادوا أن يعيدوا صناعة ثمانية عشر مليون نسمة من جديد؟ هل تظنون أن شعبنا كله... أن جمهورنا الضخم يقبل أن يصبح بلا هوية كأولئك السادة الروس الأوربيين؟!

١٨٨١

كانون الثاني

الجذر الأول

التعطش للحقيقة وضرورة التهدئة

شيئانِ مفيدانِ - لرجال المال

إن الجذر الأول الرئيس،- الذي يتعين علينا إنعاشه قدر الإمكان، هو دون شك الشعب الروسي نفسه - البحر / المحيط نفسه الذي دفعني للحديث. إنني أتكلم الآن عن الشعب الروسي البسيط، الفلّاح، أتكلم عن القوّة التي تقدّم المال، عن أيدي العمّال الخشنة، عن البحر - المحيط. كيفَ يمكن أن أجهل ما فعلته وتفعله الحكومة الحالية ابتداءً من تحرير الشعب من ربقة العبودية؟ إنها تهتمّ باحتياجاته وبتعليمهِ وعلاجه، تعفيه من بقية الضرائب المُستحقة عند اللزوم - باختصار إنها تهتم وتفعل الكثير والكل يفعل ذلك، لكنني لا أريد أن تكون هذه الأشياء فاتحة حديثي:

إنني أقصد الإنعاش الروحي فحسب لهذا الجذر العظيم، والذي هو البداية الأهم لكل شيء، نعم إنّه مريض روحياً، آه هذا المرض بالطبع ليس قاتلاً فالجوهر الأساس لروح الشعب مُعافى. لكن هذا المرض - وعلى الرغم من ذلك = مرض قاتل فلنحدد إذاً طبيعتهَ واسمه! من الصعب تعريفه بكلمة واحدة. يمكن أن نقول «التعطش للحقيقة». الشعب يبحثُ عن الحقيقة، ولا يجدُ حتى الآن مدخلاً إليها. وأنا الآن أرغبُ أن نتحدّث عن وجهةِ النظر المالية للموضوع فقط.

ظهرت في الشعب منذ بداية تحرره من العبودية حاجة لشيء جديد ما يختلف عمّا عَهِدهُ.. إنّه التعطش للحقيقة، الحقيقة الكاملة، الانبعاث المدني الكامل في الحياة الجديدة. لقد دعت الحاجة لوجود كلماتٍ جديدة، وأخذت تتضجُ أحاسيس جديدة، وتزداد الثقة بالنظام الجديد، لقد بدأ فجأة شيء آخر غير الذي انتظره الشعب بعد المرحلة الأولى لوسطاء الدعوة الأولى[1] بدأ نظام كان الشعب سعيداً أن يثق به، على الرغم أنه فهمَ القليل منه.

لم يفهمه، ارتبك، ولهذا لم يستطع الثقة به. ظهرَ شيء جديد ما خارجي، وكأنه غريبٌ عنهُ، وليس من طينتهِ. ليس هناك حاجة لتكرار هذه الأشياء، التي مافتئت أكررها. سيتكلم الآخرون عن ذلك أفضلَ مني. اقرؤوا ولو ما كُتبَ في مجلّة «روس»[2].

ثم ظهرت فيما بعد حالة من العربدة والسكر وكأنّ البَحَر الثمل انصبّ على الأراضي الروسية. وعلى الرغم من أن هذه الحالة ما زالت تجتاح روسيا حتى هذهِ اللحظة، فأستطيع أن أقول «إن الشعب لم يفقد التعطّش إلى الجديد إلى الحقيقة الجديدة، التي يحاول أن يرويها ولو بالخمرة. ولعله لم يكن ميّالاً إلى مؤثراتٍ أخرى، هي ربّما أكثر تأثيراً عليه، خذوا على سبيل المثال أي شائعة وراقبوا مقدار تأثيرها في الناس، على ماذا يدل ذلك؟ لعلّه البحث عن الحقيقة والقلق عليها! إنّه السبب في عدم قدرة الدعاية «والعدمية» على إيجاد طريقها إلى «الشعب» هو عدم قدرة الدعاة وغباؤهم، وهم الذين ما استطاعوا الاقتراب من الشعب. لو كان عندهم ذرة من الكفاءة لاستطاعوا اختراق الشعب، مثلما اخترقته الإشاعة. آه يجب حماية الشعب. لقد قيلَ «سيأتي زمنَ يقولون لكم فيه إن المسيح هنا. إن المسيح هناك، فلا تصدّقوا»[3] أما الآن فكأن شيئاً مشابهاً لا يحصل ليس فقط بين عامة الشعب لكن بيننا نحن النخبة.

ألا يقلق الجمهور من الإشاعات المختلفة غير العادية عن تقسيم حصصهم من الأراضي، وسندات التمليك الذهبية؟ لقد قرؤوا عليهم في الكنائس ألا يصدّقوا تلك الأمور. هل تصدّقون أنّ قناعة عكسيّة لدى الناس قد ترسّخت بعد كل تلك القراءات والمواعظ وقالوا «لو أن شيئاً من هذا القبيل لن يحصل، ما وعظونا في الكنائس وقرؤوا علينا ما قرؤوا»

وإليكم ما حصل، ما حصل بعدَ تلك المواعظ في بعض الأماكن على الأقل. إنني أعرف حادثة حصلت لقد اشترى الفلاحون من الإقطاعي المجاور أرضاً، واتفقوا معه على السعر، لكنهم تراجعوا عن الشراء بعد إحدى المواعظ وقالوا: «سوف نحَصلُ على هذه الأرض دون مقابل». هاهم ينتظرون. إنني لا زلتُ أتكلّم عن الإشاعات وعن قدرتها على التأثير في الناس، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على القلق الأخلاقي عند الشعب. والأهم أن الجمهور عندنا واحدٌ ووحيد؟ متروك لقواه الذاتية فقط، ولا أحد يساندّه روحياً. إنّه يرى في مجالسه المحلية المنتَخبة وكل ما يحيط به رئاسة تحكمه على طريقتها.. وهناك الآلاف من الطرائف والمقالات التي تؤكد ذلك في الصحف وغيرها.

إن أحد البسطاء يرى الإقطاعي والمستثمر ينُعمانِ بالحياة، وكل ما يفعله الناس إنما هو من أجله، فيضع نُصبَ عينيه أن يصبح إقطاعياً أو مستثمراً ويبلغ ذلك، بينما نجد شخصاً آخرَ، أكثر ميلاً إلى السلام والهدوء، يغرق في الخمرة، ليس بسبب الفقر، بل بسبب غياب القانون، ما العمل؟ إننا أمام ما يشبه القضاء والقدر، بدا لهم أن تعيين مؤسسات تُدير شؤون الناس يمكن أن يُهدئهم، لكن النتيجة جاءت عكسية ، لقد رأى الشعب أن أعداداً كبيرة من المسؤولين نُصبت فوق رأسه، تسيّره وتكيّفهُ حسب ما تراهُ مناسباً ، أي أن حريّة الحركة لهذا الشعب لا تزيد عنها الذبابة علقت في صحنٍ من الدبس، إنه هذه الحريّة مُضرّة ليس فقط

أخلاقياً، ولكن من وجهةِ النظر الماليّة أيضاً. إن الشعب المتروك دون ناصحين ليس لديه إلا الله والقيصر[٤]، فيعلق عليهما كل آماله، وبهذه الآمال العظيمة إنّما يعيش. إن كل الفئة التقدميّة المثقّفة تمرُّ بجانب هذا الشعب دون أن تلحظه، على الرغم من وجود عددٍ لا بأس بهِ من الأذكياء في صفوفها، لكن المشكلة أن الذين يملكون تصوّراً واضحاً عن الشعب الروسي قلائلٌ جداً في صفوف هذه الفئة.

إن مثقفينا يشكون دائماً: لماذا «لا ينتعش» المجتمع؟ ولماذا يصعبُ إنعاشُه؟ وما هو جَوهَرُ هذهِ المهّمة؟

استطيعُ أن أقول لهؤلاء: إنكم لا تعتمدون على الشعب، وهو غريبٌ عنكم روحياً ، إنكم تشكلون طبقةً عليا فوقَ الناس وقد صعّرتم وجوهكم عن الأرض الروسية، وبسببكم بقي الشعبُ مملوكاً، يقدم لكم الوسائل كي تصلوا إلى التنوير الأوربي، وقد حصلتم على التنوير ولقرنين من الزمن لكن الشعب مع ذلك انفصل عنكم ، وانفصلتم عنه. ستقولون: «ألسنا نحن من يشفق على الشعب ويتعاطف معه؟ ألسنا نحن من يكتب عنه ويناديه؟» نعم إنكم تفعلون كل ذلك لكن الشعب الروسي مقتنع أنّه ليس هو المقصود بما تقولون وتكتبون، لكن المقصود شعب آخر لا يشبه الشعب القائم على العبودية والقنانة، وقد بدأت منذ أن راحَ يقتُل الجمهور المدني لأجل التنوير الأوربيّ. ثمّ تكوّنت لدينا قناعة بهذا الشعب حتى ولو بُعث من جديد فلن نتمكن من اللقاء به ومجاراته إلا إذا حصلت معجزة ما على الأرض الروسية. إنني هنا سأكرر كلماتي القديمة: إن الشعب الروسي أرثوذكسي في غالبيته العظمى، ويعيش بأفكار الأرثوذكسيّة، مع أنه لا يفهما بشكلٍ علميٍ صحيح.

«عملياً لا توجد أي فكرة أخرى عند شعبنا «إلا الأرثوذكسيّة» وهو ينطلق منها فقط» وإنه يريدُ ذلك ويعيشُ ذلك بكل قلبهِ وقناعته.

وهو يرغب أن يتوافق مع هذهِ الفكرة كلُ يقدَّم إليه وما هو بين يديه، هذا بغض النظر عن أنّ الكثير مما يملكه هذا الشعب ويثق به حتى النجاح لا يصدر عن هذهِ الفكرة، وليست هي أساساً له. بل يصدرُ عن أشياء نتنة ومقرفة ومجرمة وبربريّة. مع أن علينا ألا ننسى أن المجرم والبربري - بكل ما اقترفاه - يسجدان لله، وفي اللحظات الروحيّة الصافية يتمنيّان لو أن ذنوبهما تلك إنما تقودُ بمصدرها إلى الأصل الأرثوذوكسي وتنبع منه.

أعرف أن مثقفينا يسخرون منّي: إنهم لا يعترفون بهذه «الفكرة» في الشعب عندما يشيرونَ إلى هذه الذنوب والمسائل القبيحة «مع أنهم كانوا السببَ في ولادتها لاضطهادهم الشعبَ مدى قرنين من الزمن»، منوّهينَ أن ذلك ليسَ إلا خرافات باطلة، فهناكَ فصل تام برأيهم- بين الشعب والدين. ويتصوّر الكثيرونَ منهم أن الشعب مُلحد.

إن غلطتهم الكبرى تتمثّل بعدم اعترافهِم بالكنيسة عند الشعب الروسي، وأنا بالتأكيد لا أقصد الكنيسة كمبنى أو أشياء مشابهة، لكنني أعني اشتراكيتنا، الروسيّة، (وهنا أستخدم كلمة مناقضة للكنيسة لأجل توضيح فكرتي ليس أكثر، وإن بدا الأمرُ غريباً).

صحيح أن هدف الكنيسة وسلوكها، هي الكونيّة والشاملة، أكثر بكثير مما قد يستوعبه الشعب، لكنني أتكلم هنا عن التعطش الدائم والمُلح في الشعب الروسي للوحدة الأخوية الشعبيّة الشاملة والعظيمة التي ينشدُها باسم المسيح، على الرغم من أن هذه الوحدة لم تتحقق بعد، لم تنشئها الكنيسة- ليس في الصلوات فحسب بل في الواقع أيضاً - فإن غريزة وعفويّة التأثر بالكنيسة والتعطش المُلح لها موجودتان بالتأكيد وأحياناً دونَ وعي، فإن قلب الملايين من الشعب الروسي.

إن اشتراكية الشعب الروسي لا تتلخّص في الشيوعيّة ولا في الأشكال الميكانيكية، بل في قناعة الشعب بأن إنقاذه يتم أخيراً «بالوحدة المقدسّة

باسم المسيح» فحسب. الموّحدةَ العُليا في نفوس الشعب الروسي- يا سادتنا الأوربيين.

آه هناك الكثير من الأفكار الأخرى في الشعب، التي لا يمكن أن تلتقوا معها، بل تقومون بتقييمها على أنّها تتريّة انطلاقاً من وجهة نظركم الأوربية.

سوف لا أذكر بهذه الأفكار الأخرى الآن على أهميتها وصعوبة فهمها من قبلكم غير أنني أركّز كلامي الآن حول (فكرة شعبنا) الأساسية، شغفه، وأمنياتهِ المنغرسة في أعماقِهِ، والتي تتعلّق بأرباب الكنيسة الكونيّة.

وهنا يمكن أن نضع المعادلة التالية: من لا يفهم أرثوذكسيّة الشعب الروسيّة، وهدفَهُ النهائي لا يمكن أن يفهم الشعب الروسي نفسه أبداً. والأكثر من ذلك: فهو لا يمكن أن يحب الشعب الروسي، بل سيحبُّهُ بالصورة التي يريدُه عليها، والتي يتوقّعُهُ وفقها. وبما أن الشعب لا يمكن أن يُفصّل بالطريقة التي يريدها أذكياؤنا هؤلاء وسيبقى على الصورة التي يريدها لنفسه، فمن المتوقّع حصول اصطدام خطير لا نظير له في المستقبل. حيث إن للمعادلة المذكورة أعلاه أهميّة عكسية، فالشعب لا يتقبل هذا الروسي الأوربيّ، ولا يعتبرُهُ جزءاً منه «يجب أن تحب -أولاً - مقّدساتي وتحترم ما أحترم، عندها ستكون مثلي بالضبط، وأخي بغض النظر عمّا تَلْبَس إن كنتَ شاباً أو كهلاً، وسواء تكلّمت الروسية بشكلٍ جيدٍ أم لا» هذا ما سيقولُهُ الشعب لكم، إن شعبنا ذكي وقلبُهُ واسع، فإذاً أعتقد الشخص الجيدّ بمقدساتهِ احترام يحترمه، فإنه سيسمَعُهُ إذا كان هذا الشخص واعياً وسيشكرُهُ على النصيحة ويعمل بها.

إن الشعب الروسي يستطيع العيش مع أي كان، فهو قد شاهد الكثير، ولاحظَ الكثير طوال القرنين الصعبين اللذين عاشهما. (وها أنتم لا توافقون

حتى على هذهِ الطروحات، أي الشعب شاهد الكثير ويتذكّر الكثير، بمعنى أنه أصبحَ واعياً، وهذا يعني أنه لم يعد مُجرّد كتلة بشريّة بدائية وقوّة لجباية الأموال كما ترون أنتم). أن تعيشَ بودٍ مع الإنسان هذا شي أمّا أن تعتبرهُ (جزءاً) منك فهذا شيء آخر، دون هذا الاعتراف سوف لا تكون هناك وحدة.

أريد أن أعبّر فحسب أن القوى التي تفرّقنا عن الشعب هائلة، وأن هذا الشعب بقي وحيداً، في «وحدةٍ مخيفةٍ جداً» ـ ولا يرىَ: غيرَ قيصرهِ الذي يثق بهِ ثقةً عمياء، سنداً له. وسيكون هذا الشعب سعيداً فيما لو وجد أي قوّة أخرى تسانده. آه كم هي هائلة تلك القوّة الجديد التي كانت ستظهر في روسيا لو تمت وحدة الفئة المثقّفة مع الشعب! أقصد الوحدة الروحيّة.

آه أيّها السادة: وزراء الماليّة، لكنتم حينها قد وضعتم موازنة تختلفُ كماً ونوعاً عن تلك الموازنة التي تضعونها الآن.. «ولكانت قد سالت في المملكة أنهار من الحليب، وكنتم قد وصلتم إلى مثلكم العليا دفعة واحدة» سيقولون: «كيف نفعل ذلك، وهل يمكن أن يكون تنويرنا الأوربيّ مسؤول عن كل ذلك؟»

آه ليست المشكلة في التنوير، وفي الواقع ليس هناك تنوير يذكر حتى الآن، إن التفرقة دخلت إلينا واقعياً باسم التنوير الأوربي غير الموجود أصلاً. إن التنوير الحقيقي ليسَ مذنباً أبداً. حتى إنني أفكر لو أن تنويراً حقيقياً لدينا لما حدث انفصال عن الشعب، فالشعب نفسه متعطش إلى التنوير، لكن المشكلة هي أننا حلّقنا عالياً بعيداً عن الشعب، تنوّرنا على القمر، وأضعنا كل الطرق المؤدّية إلى الشعب.

وكيف لنا- نحن الناس المحلّقين عالياً - أن نأخذ على عاتقنا علاج الشعب؟ ماذا نفعل كي ننعشّ روحَ الشعب التواقة والقلقة في كل مكان؟

أليست رؤوس الأموال وحركتها تبحثان عن الهدوء الأخلاقي. إن رؤوس الأموال تلك تلجأ إلى التخفيّ ولا تكون منتجة في غياب الهدوء والسلم الأخلاقيين. ما العمل إذاً كي نهدئ روح الشعب بالحقيقة، ونجعله يراها؟

يمكن للحقيقة أن تكون موجودة الآن، لكن يجب على الشعب أن يثقَ بها. كيفَ ندخل القناعة إلى روحه بأن الحقيقة موجودة على الأرض الروسية، وأن رايتها مرفوعة عالياً عليها؟ كيف نفعل - مثلاً - كي يثق بمحاكمِهِ وبممثليه، فيعتبرهم ثمرة من ثمارهِ وعظمة من هيكله العظمي؟

آه... لن أدخل في التفاصيل، وحتى لو أردتُ البدء في التوضيح والشرح فإنني أعتقد «أن العالم كله لا يتسع لتلك الكتُب»[5] لكن لو ضُمنت الحقيقة للشعب مستقبلاً، وضُمنَ مجيئها الحتمي.. لو استطاعت الذبابة أن تتحرّر من صحن الدبس ذاك لتحققت أعمال عظيمة لا تُحصى. أقول لكم صراحة بأن المأساة كلها تكمُنُ بانفصال الفئة المثقفة العليا عن شعبنا في الأسفل.

كيف يمكننا أن نصالح الحزام الأعلى والبحر المحيط؟ وكيف يمكن أن نهدئ البحر - المحيط فلا يتعرّض للهيجان الكبير؟

فليبدؤوا هم القول، وسننتحي نحن جانباً لا لشيء إلا لندرب عقولنا ووعينا

[...] وهكذا، ألمثل هذا الشعب لا تمنح الثقة؟ فليتحدث هو نفسه عن حاجاته وبصدق شديد. ليتحدث هو وحده بداية. ولنقف نحن- الإنتلجنسيا الشعبيّة- جانباً وبرفقٍ لنداعب شعره. أوه أنا لا أطرح هذا الأمر؛ تحييد الإنتلجنسيا، لغاية سياسة بل وكما أصبح معروفاً- لغاية تربويّة محضة[1]. حسناً لنقف إذا جانباً وللننظر ونسمع كيف، يستطيع الشعب أن يعبر عن حقيقة بوضوح وذكاء، دون أي مساعدة من قبلنا، يستطيع أن يعّبر عن المسائل الجوهرية وسيصيب كبد الحقيقة عند ذلك، ولن يغضبنا فيما لو دار الحديث حولنا- نحن المثقفين- فلننتحى جانباً، ولنتعلّم من الشعب كيف يمكن قول الحقيقة، بل لنتعلّم اهتمامه بالعمل وجدّيته، واقعية تفكيره، وجدّية ذلك التفكير. ستقولون لي: «لقد قلت أنت نفسك: إن شعبنا تأسره الشائعات السخيفة: فأي حكمة يمكن أن ننتظر منه»؟، لكن الشائعات مسألة مختلفة، عن التوحد فيما يتعلق بالشأن العام. إن هذا الظهور الموحد المعافى ينعكس على الوعي. ويصبح حقيقة بمثابة درس لنا جميعاً. درس مثمر جداً.

إننا برؤية مثل هذه الجدّية والعملية من قبل الشعب، سنجد أنفسنا فيما يشبه الحيرة، وقد لا يصدق بعضنا عينيه؛ لكن هؤلاء سيكونون عندئذ قلة! فالجميع تقريباً مخلصون، ويتعطّشون إلى الحقيقة، والأهم هنا هي

المسألة الجوهريّة الحقوقية، والنفع العام وهي أمور توّحد الجميع في كلمة الشعب الحكيمة؛ وعندها ينكشف محتوى ومضمون غير الصادقين، المتضعين، ويتم تعريتهم، فإذا بقي من الصادقين والمخلصين من لم يؤمن بالشعب بعد كل ذلك؛ أولئك ليسوا إلا من متعصبي الأربعينيات والخمسينيات[1]، أطفال صعب إصلاحهم، ولكنهم في كل الأحوال ليسوا أكثر من مضحكين لا ضررَ منهم. إن الجميع ماعدا أولئك سيرفعون الغشاوة عن عيونهم لأول مرّة وعن وعيهم أيضاً، إن هذا الأمر سيكون من الأهمية بمكان من خلال نتائجه... لأنّه- على الأرجح- من خلال هذه الصيغة ستبدأ الخطوة الأولى باتجاه ذوبان مئة الانتلجنسيا المتكبرة في الشعب نفسه، الذي كانت تتعالى عليه.

إنني أتحدّثُ بالتأكيد هنا عن الذوبان الروحي فحسب، فهو ما نحتاج إليه فقط، وهو القادر على مساعدتنا جميعاً، وعلى بعثنا من جديد، وتزويدنا بالأفكار الجديدة. إن شبيبتنا المتورة اليانعة ستمنح قلبها للشعب قبل الجميع وستكون الأقدر على فهمه روحياً. ولهذا فإن كل أملي ينصبُ على الشباب، الذين يعانون كثيراً في «بحثهم عن الحقيقة» وحنينهم إليها، وبالتالي فهم الأقدار على فهم حال الشعب وبحثه أيضاً عن الحقيقة. وبحكم معرفتهم القريبة تلك بروح الشعب سيطرحُ الكثيرون منهم الأفكار الضارة، التي اكتسبوها، وعَبّروا ذات يوم أنهم وجدوا الحقيقة فيها؛ كأفكار وتعليمات أوربية متطرفة. آه أنا أومن أنني لا أتخيل ولا أبالغ في تقدير تلك النتائج المرجوّة، والتي ستصدرُ عن مثل تلك التوجهّات الجيّدة. والتي ستؤدي إلى سقوط الصلف والعجرفة وولادة الاحترام للأرض. وسندخل أرواحنا فكرة جديدة تماماً فتضيء في أعماقنا كل شيء، تلك الأعماق

---

1 - المقصود بالتأكيد اربعينيات وخمسينات القرن التاسع عشر في روسيا /المترجم/

التي كانت معتمة حتى عهد قريب، وستداوى بضيائها الكذب والخديعة وتشفينا منهما. ومن يعلم!؟ قد يكون ذلك بداية عملية إصلاح وإعادة بناء، ربما أصبحت أكثر سمواً من عملية الإصلاح المسيحية: ولحدث إثر ذلك «تحرر»- تحرر عقلنا وروحنا من علاقات نظام الرق الإقطاعي، التي قيدتنا إلى أوربا قرنين أثنين، بصورة مشابهة لما حدث لفلاحنا؛ الذي لم يتحرّر من نظام القنانة إلا منذ فترة قصيرة وظل أسير علاقاته عندنا. فإن قدر لعملية الإصلاح الثانية هذه أن تولد وتستمر، فستكون بمثابة استمرار لعملية الإصلاح الأولى في بداية عهد الإمبراطورية. حينما انهار- وبشكل فعلي- جدار عمره قرنين، فصل الشعب عن مثقفيه، أما الجدار الحالي فقد بدأ ينهار روحياً. ما الذي يمكن أن يكون أسمى لروسيا من هذا الانصهار والذوبان الروحي للطبقات في بعضها[٢]؟ وسيعلم الواحد إلى من ينتمي. وأولئك الذين يخجلون- حتى الآن- بشعبنا الروسي، ويعتبرونه بربرياً ومعيقاً للتقدّم سيخجلون من ذلك، ويصالحون من احتقروهم وازدروهم من قبل.

وعندما يجيب الشعب، عندما يقدّم كل شيء عن نفسه وينتهي حديثه بالكلمة الأخيرة- اسألوا.. جربوا أن تسألوا مثقفينا؛ حول رأيهم بما قاله الشعب ولحظتها ستلمسون الفرق أو النتائج. آه عندها بالتأكيد ستكون كلمة الإنتلجنسيا مثمرة، فهي طبقة المثقفين والكلمة الفصلُ لها. إن نموذج الشعب الذي يقول كلمته قبل الإنتلجنسيا في كل الأحوال، يجنبنا الكثير من السقطات والغباء، عن الحالة التي نقول نحن المثقفين- فيها كلمتنا قبل الشعب؛ وعندها ترون أن الأنتلجنسيا حين تتحدث لن تقول ما يناقض قول الشعب؛ بل ستشرح وتعالج وتبسط آراء الشعب وحقيقته بأسلوب علمي، وستطوره بما تملك من علم، فلدى الأنتلجنسيا العلم أو بداياته، والعلمُ ضروري بصورة مُلّحة للشعب، وحتى لو أراد بعض الأنتلجنسيا أن ينقض ما يقوله الشعب، لو ظهرت نقاط اختلاف مع البدايات الأساس لدى الشعب،

فإن أحداً على الرغم من ذلك لن يجرؤ على الوقوف بقوّة ضد روح الشعب؛ أي ضد وجهات نظره في الأمور الجوهرية- وهذا أمرٌ مهم جداً.

وعندها سيبدأ الاطمئنان الروحي ومن هذه الخطوة بالذات. وسيعممُّ الأملُ والتفاؤل وهذه المرة الأملُ غير المنقوص أو المجزوء، ولفهمنا جميعاً أنفسنا بوضوح ولا اعترفنا أمام بعضنا بما لنا وما علينا. وهذا مهم جداً، لأن كل قوانا الواعية، كل مثقفينا لا يعرفون أو لنقل ليس لديهم المعرفة الثابتة أو اليقينة حول جوهر أهدافنا؛ القومية منها والحكومية، وهي نقطة ضعفٍ عندنا هذه الأيام.

إن عدم الوعي هذا وعدم الانضباط. يعتبران نبع القلق الكبير، والفوضى وليست اليوم فحسب، بل ومستقبلاً على شكل ألم وهم مرين.

إن كل ما سبق مما قلتهُ يمكن أن يوضح أو يمكن أن يشكل مقدمة تشرح وتضيء وعلى كل حال سأكتفي بما قالته عن هذا الموضوع، لقد تحدّثت بما استطعت. وقد لا يصل كل ما أردتُ أن أعبرّ عنه للبعض وهنا فأنا أتحمل ذنب ذلك وحيداً، أما أولئك الذين أدركوا مقاصدي فأتمنى أن يتقبلوها على محمل المودة والمسالمة. إنني أرجو أن يفهموني دون تعصب ويعلموا أنني إنما أقف مع الشعب وضد خصوم، مؤمناً بروحه وقوته العظيمة التي ما من أحد حتى الآن استطاع تقديرها حق قدرِها- مؤمناً بقصيدته المقدّسة، وبفحواها المنقذة للبشرية، وبالروح الشعبي العظيم الحارس، وأتعطشُ إلى أمرٍ واحدٍ: أن أجعلهم يتبصرون.. فقط يتبصرون، وعندها سيفهمون ومن ثم تأتي الأشياء الأخرى.

ولماذا يكون كل ذلك حلماً؟ إنني لم أتحدث عن المسألة برحابتها المطلقة! لقد تحدثت فيما سبق عن ابن الشعب البسيط بشكل خاص، عن أموره الأساسية الخاصة وهل يظننَّ أحد أن ليس لديه من الأمور الخاصة والمميزة ما يجعلنا نسعى لمعرفتها، بمثابة نقطة بداية، أو مقدمة لغايات

تالية، أو لإصلاحات واسعة؟ وبالمناسبة؛ تنتج عن ذلك مكاسب شتى: الحصول على وقائع... على حقيقة جملة أشياء، على مواد ثمينة، تجنب الكثيرين منا مغبّة السقوط في الآمال الكاذبة. ومغبة إعادة الإفساد وفق التوافقات الأوربية، ومغبّة المبالغات. وأعيد أن المهم في كل ذلك هو الحصول على الإشارة، على الفكرة، على ذلك الروح نفسه، الذي من خلاله يمكن تحقيق ما هو أكثر شمولاً وسمواً. وعند هذا الحد يبدو وكأن بصمةً ما قد توضعت؛ سمةً أو صبغةً وطنيةً ومحافظةً جداً، وهذه الصبغة لا يستطيع أحد أن يرفضها أو يتجنبها، حتى أصحاب العقول المغرقة في الخيال، بل على العكس إنها تغويهم وتثيرهم وتدفعهم لقبولها.

الباب الثالث

من
«دفتر عمل الكاتب»

١٨٦٣-١٨٦٥

يريد الاشتراكيون إعادة خلق الإنسان وتحريره، وتصوره دون إله، ودون نسب، وهم على قناعة تامة بأن تغيير واقع الإنسان الاقتصادي هدف يمكن تحقيقه بالقوة، إلا أن التغيير الحقيقي لا يكون بسبب العوامل (الخارجية)، بل هو أولاً تبدل (أخلاقي).

بدايةً يجب ألا ينظر إلى الإله كمفهوم رياضي، والنسب يأتي قبل أن تقرر المرأة أن تصبح أماً، والإنسان لا يرغب في جعل الحب ثمرة غريزية.

فهل يمكن الوصول إلى كل هذا باستخدام السلاح؟ ثم هل يمكن الحصول على الحكمة قبل التجارب، وهل الخلاص في ذلك؟ إن المسألة بهذه الصورة مقامرة بالإنسانية كلها.

دريبيدين الغربيّة

١٦ أبريل / نيسان . ماشا تسترخي على الكرسي. هل سأرى ماشا من جديد[١]؟

أن تحب الإنسان (كما تحب نفسك)، على طريقة المسيح- أمر غير ممكن. إن طبيعة الذات الإنسانية على الأرض تقيد (الأنا) تعيق!. وحده المسيح استطاع ذلك، لكن المسيح خالد، كلي القدرة ومثال مدى الدهر.

أما سائر البشر فملزمون بالخضوع لقوانين الطبيعة.. لقد ظهر المسيح كمثال للناس، ظهر واضحاً كضوء النهار، وما دام الإنسان يتطور فيجب أن يصل إلى مرحلة يعي فيها طبيعته الأنانية، ويصل إلى قناعة ثابتة بأن الأرقى على طريق تطور (الأنا)، هو القضاء على تلك (الأنا) من خلال

تقديمها بالكامل إلى (الكل)، ودون مقابل عندها يصل إلى السعادة النهائية، وبذلك فقط يلتقي قانون الأنا مع قانون الإنسانية- الأنا والكل. أي اتحادهما وانصهارهما في علاقة «تضاد»، كل منهما يذيب الآخر وفي الوقت نفسه يصلان إلى الهدف الأعلى لتطورهما الذاتي، كل منهما حسب خاصيته.

هذه جنة المسيح. إن تاريخ البشرية بكل تفاصيله وجزئياته ليس إلا التطور عبر الصراع والكفاح للوصول إلى هذا الهدف[٢].

ولكن حين يكون هذا هو الهدف النهائي، فمعنى ذلك أن بلوغه يعني نهاية الوجود الأرضي (إن تصوراً على هذا النحو، يعني أن تحقيق هذا الهدف يلغي الحاجة إلى أي تطور لاحق، أي لن يكون هناك حاجة للكفاح صعوداً وهبوطاً، وعندها فالحياة بلا معنى، إن ما يعطي الحياة معناها هو الكفاح الدائم) وبالكفاح يتطور الإنسان على الأرض، منتقلاً من مرحلة إلى أخرى، أما الوصول إلى هدف نهائي فلا معنى له، إن انعدام حياة الإنسان تكون بالوصول إلى هدف نهائي حتى ولو كان عظيماً وعليه، فلابد إذاً من وجود حياة مستقبلية، حياة جَنّة! لكن ما هي تلك الحياة؟ وأين ستكون، على أي كوكب؟ أو في أي مركز؟ هل ستكون في المركز الأساسي أو النهائي: أي في الله؟ - نحنُ لا نعلم.

نحنُ نَعْلَمُ ميزةً واحدة للطبيعة القادمة للكائن القادم، الذي من الصعب أن نسميه إنساناً (وبالتالي ليس لدينا أي تصور واضح عما سنصبحُ عليه نحن البشر، أي كائنات سنكون).

هذه الميزة أو السمة كان المسيح العظيم قد تنبأ بها- وهو الأنموذجُ النهائي العظيم لتطور الإنسانية جمعاء- إنها التالية: «لا يتزاوجون، ولا يعتدي بعضهم على بعضهم الآخر، كالملائكة يعيشون»[٣] وهي صفة شهيرة جداً.

١- «لا يتزاوجون ولا يعتدون» - فلا حاجة لتعاقب الأجيال، فالتطور والوصول إلى الهدف النهائي ليس مرتبطاً بذلك.

٢- الزواج من المرأة يصبح وكأنّه انحراف عن الإنسانية، انعزال لهذا الثنائي عن «الجميع» (ولا يقدم شيئاً للجموع).

العائلة هي نتاج قانون الطبيعة، ولكنها حالة أنانيّة استثنائية.

العائلة- هي رباط شديد القدسيّة للإنسان على الأرض، لأنه وبواسطة هذا القانون الطبيعي يبلغ أرقى درجات التطور (أقصد من خلال تعاقب الأجيال عبر الأسرة). ولكن الإنسان ووفق هذا القانون الطبيعي نفسه ولأجل بلوغ الأنموذج المثالي النهائي، أي هدفه النهائي سينفي هذه المؤسسة: «الثنائية».

ملاحظة: إن المعادين للمسيح[٤] يخطئون بمهاجمتهم تعاليم المسيح، انطلاقاً من الفكرة الأساسيّة التالية:

١- «لماذا لم تقم مملكة المسيح على الأرض، مادامت حقيقة، ولماذا لا يزال الإنسان يعاني حتى الآن، ولماذا لم يتحقق الإخاء بين الناس؟»

السبب واضح جداً: لأن هذا هو بالذات الأنموذج المثالي النهائي للإنسان، وما الإنسان على الأرض إلاّ في مرحلة انتقالية، مرحلة عبور. وعلى على الرغم من ذلك فسيتحقق ما يسألون عنه، سيتحقق عند بلوغ الهدف، عندما يعادُ خلق الإنسان من جديد ويتحول إلى نموذج آخر مغاير، حيث لا يحتاج إلى الزواج أو التناسل.

٢- المسيح نفسه نشر تعاليمه كمثال فقط، وقد تنبأ أنه حتى نهاية العالم سيكون صراع وتطور (تعاليم عن السيف)[٥] فهذا هو قانون الطبيعة النافذ على الأرض، والحياة على الأرض تخضع للتطور. أما هناك- فالوجود مختلف، جمال كامل، لذة أبدية وامتلاء تام: وهناك «لا وجود للزمن».

ملاحظة؟: الملحدون لا يعترفون بالإله وبالحياة الأخرى، ويتصورون ذلك وفق المعايير البشرية نفسها، وهنا خطيئتهم، إن طبيعة الإله تتناقض بشكل كامل مع الطبيعة الإنسانية.

الإنسان ينتقل- بفضل النتائج العلميّة العظيمة- من الاختلافات والفروقات الكثيرة إلى معرفة أكثر انسجاماً، ومن الحقائق المعرفيّة إلى تكوين الوعي... أما طبيعة الله فهي مختلفة ومطلقة في كل شيء. إنّها تركيب شامل للوجود بمجمله، ويتراءى في كل شيء وبتعدديّة كبيرة وفي الجزيئات قاطبة.

فإذا لم يكن الإنسان إنساناً- فما هي طبيعته إذاً؟ إن فهم ذلك على الأرض غير ممكن، لكن قانونها يمكن أن يستشف بالفطرة المباشرة من قبل البشرية جمعاء.

(برودون، نشوء الله)، أو من قبل كل فرد على حدة.

وهذا التقاء «الأنا» بالكل. «أحب الناس كما تحب نفسك» من وجهة نظرهم أمرّ مستحيل على الأرض لأنه يناقض قانون تطوّر الذات، والوصول إلى الهدف النهائي، الذي يخضع له الإنسان، وبالتالي فهذا القانون ليس مثالياً كما يدعي أعداء المسيح، أما بالنسبة لنا فهو مثلنا الأعلى.

ملاحظة ٣: وهكذا فإن كل شيء يرتبط بـ: هل يمكن تقبل المسيح كمثل أعلى نهائي على الأرض؟ أي مرتبط بالعقيدة المسيحيّة. إذا كنتَ تؤمن بالمسيح، فيجب أن تؤمن بأنك ستعيش خالداً. وفي هذه الحال هل ستكون هناك حياة مستقبلية لأي «أنا». يقولون أن الإنسان يتفسخ ويموت «كلياً».

أما نحن فنعلم أنّه لا يموت كلياً، لأنه ومن خلال ولادة الأبناء فيزيائياً يعطيهم جزءاً من ذاته، وأخلاقياً يترك للناس ذكراه (ملاحظة: تمني خلود ذكرى الشخص يتردد في مراسم دفن الموتى)، أي أن انتقال جزء من حياته

الإنسانية للآخرين يفيد في تطور البشرية، ونرى بوضوح أن ذكرى العظماء تعيش بين الناس (وكذلك ذكرى الأشرار)، والسعادة العظيمة التي يعيشها الإنسان تنتقل إلى الآخرين بكامل جزئياتها. لقد دخل المسيح كله في الإنسانية، ويطمح الإنسان إلى تماهي «أناه» في «أنا» المسيح كونه مثله الأعلى، وبوصوله إلى ذلك، يرى أن كل الذين بلغوا هذا الهدف على الأرض قد دخلوا في بنية طبيعية المسيح، «لأن طبيعة المسيح عظيمة» وهي طبيعة الله... فالمسيح ليس إلا انعكاساً لصورة الله على الأرض.

كيف تنبعث كل «أنا» - في التركيبة العامة- إن هذا صعب التصور.

لكن الإنسان الذي لم يمت، حتى بعد تحقيق الهدف الأعلى والمتمثل في المثال النهائي- يجب أن يعيش حياة خالدة، وسنصبح نحن تلك الوجوه التي لم تتوقف عن الانصهار في الكل ولم تعتدِ أو تتزوّج، على اختلاف مستوياتها (في بيت أبي، في مثواي الأخير، معانٍ كثيرة[6]. وعند ذاك سيعرف كل منا نفسه وإلى الأبد، لكن كيف ومتى- من الصعب أن يتصور المرء ذلك.

وهكذا فالإنسان يطمح إلى المثل الأعلى، الذي يتناقض مع طبيعته. وعندما لا يخضع لقانون الطموح للمثل الأعلى، أي عندما لا يقدّم الحب كأضحية من «أناه» للناس، أو لشخص آخر (أنا وماشا)، سوف يشعر بالعذاب. وسيسمي هذه الحالة بالذنب. وهكذا فعلى الإنسان أن يشعر بالعذاب بشكل دائم، الذي يعادل لذة الجنة في تنفيذ القانون، أي التضحية. هذا هو التوازن الدنيوي، وبغير ذلك ستكون الحياة على الأرض بلا معنى. تعاليم الماديين- هي ركود شامل ومكننة للأشياء، وهذا يعني الموت.

أما تعاليم الفلسفة الحقيقية- فهي تدمير الركود، فهي الفكرة، أي المركز والتركيب الكلي للكون، والشكل الخارجي له- الأشياء كلها، الله، الحياة الأبدية[7].

إن التداخل وعدم دقة المفاهيم الحالية ناتج عن سبب بسيط جداً، فهو جزئياً يعود إلى أن الدراسة الصحيحة للطبيعة لم تبدأ سوى منذ فترة قصيرة جداً «ديكارت وبيكون[٨]» ومع أننا حتى الآن لم نجمع «على أقصى حد» سوى قليل من الحقائق، التي لا يمكننا أن نتخلص منها أي نتائج تذكر... فإننا نتعجل صياغة هذه النتائج محملين أخطاءنا لقانون التطور. ولا يمكن سوى لأناس محدودي التفكير- كانوا من كانوا، أو نعتوا بأي أسماء كانت- أن يستخلصوا نتائج نهائية من الحقائق الحالية والاكتفاء بها.

الاشتراكية والمسيحية[9]

تقول الاشتراكية- هذا هو الشخص الأفضل، وتقول المسيحية هذه هي الذات الأكثر تطوراً والإرادة الأكثر تميزاً.

الإله فكرة، والإنسانية هي جامعة «الكل»، عندما يعيش الإنسان ضمن جماعات (تجمعات مشاعية أبوية لم يبق منها سوى ما تتناقله الأجيال من أخبار) يعني أن الإنسان يعيش بشكل مباشر وبعدها يأتي زمن انتقالي تتالى فيه التطورات إلى الحضارة (والحضارة هي مرحلة انتقالية)، وبعد ذلك وعبر التطور اللاحق تحلُّ حقيقة جديدة، لا تستثني أحداً، يتم فيها تطور الوعي الذاتي ونفي القوانين والأفكار المباشرة (قوانين الجماعات الأبوية الشمولية)، وبما أن الإنسان هو ذات فسيجد نفسه دائماً- في تلك المرحلة من نموه الاجتماعي- في حالة نفي وعداء لقانون الجماهير «الكل» - الشمولي، ولهذا فإنه يفقد حتى الاعتقاد بالله. (وإلى هذه الحالة انتهت كل حضارة، ففي أوربا على سبيل المثال- وهو المكان الذي وصلت فيه الحضارة إلى أقصى حد في تطور الشخص- تراجع الإيمان بالله بل بالذات).

إذا كانت تلك الحالة، هي تفتت الجماعة إلى ذوات، فالحضارة حالة مرضية، وفقدان الأفكار الحية عن الله يشهد بذلك، والدليل الثاني على أن ذلك ليس إلا مرضاً هو ما يصل إليه الإنسان من حالة الضجر واليأس وفقدان مصدر الحيوية في الحياة. وعدم القدرة على الإحساس المباشر مع أنه في الوقت نفسه يعي كل ما يحدث له.

لقد نوه السيد المسيح إلى «إن الإنسان لو لم يكن يعرف ما سيحصل له وصولاً إلى هدفه لكان قد جن تماماً».

(ملاحظة: يقول رينان: «لا ينكر أي ملحد- يشك في الأصل الإلهي للسيد المسيح- أن السيد المسيح مثال للإنسانية كلها» وهذا أمر يجب أن نذكره- المؤلف) ما هو مضمون هذا المثال؟ هو عودة الإنسان إلى الحياة المباشرة إلى التجمعات البشرية لكن بحرية وبغير إرادته وعقله ومعرفته، إنما بإحساسه المباشر القوي الذي لا يهزم وهذا جيد جداً.

والغريب أن الإنسان يعود إلى التجمعات، إلى الحياة المباشرة، إلى الحالة الطبيعية، لكن كيف؟ إنه يعود إلى ذلك غير مكره، وبأعلى درجات إرادته الحرة ومعرفته الحرّة. ومن الواضح أن هذه الإرادة الحرة القصوى هي في الوقت نفسه انشقاق عن الإرادة، فهذه هي إرادتي بأن لا تكون لي إرادة، وهذا هو المثال العظيم.

ما هو هذا المثال الأعلى، هو الوصول إلى المعرفة العظيمة الكاملة، والتطور، والتعرف بشكل كامل على (الأنا) وإعطاؤها لهذا الكل. الإرادة حرّة «للجميع» لكن في الواقع ماذا سيفعل الإنسان الأفضل الذي حَصَلَ على كل شيء، والقادر على كل شيء؟

إذا كنتم ستتركونه ممزقاً إلى عدة ذوات فإنكم لن تحصلوا سوى على ملء بطونكم. وليست غاية الاشتراكيين أبعد من ملء البطون[١٠].

أما «روسيا الفتية»[١١] فهي تحاول منذ زمن أن تثبت لشعبها أن اللاحق بكل ما فيه لا ينطوي على شيء مهم، فليتجرأ الاشتراكيون وينكروا ذلك.

نعم ليس بإمكانهم الإنكار، وهم يعترفون بكل فخر «أن الجزمة أفضل من شكسبير» فمن العار الحديث عن أبديّة الروح إلخ... إلخ. أما المسيح فيقول: ليس هناك شيء أسمى من الله، هذا يعني أن تكون صاحب

سلطة على نفسك وعلى أناك ذاتها، وأن تضحي بهذه الأنا وتقدمها للجميع، ففي هذه الفكرة ليس هناك شيء غير منطقي وغير واضح أو معلل إطلاقاً. لكن غير الواضح قول الاشتراكي: إذا تصورت أن كل فرد يعطي نفسه للجميع حتى أناه ذاتها، فهذا يعني أنّه لم يعد هناك فقراء ويصبح الجميع أغنياء وأصحاب ثروة. إن الاشتراكي منافق تماماً وبشكل فظيع. فلو افترضنا أن كلامه صحيح وأن الجميع سيصبحون أغنياء، فإن الاشتراكية ساعتها ستنتهي عند هذا الحد. وهذا غير ممكن لأن الاشتراكي لا يمكن أن يتصور أنه يقدّم نفسه طوعاً لغيره أو للجميع، لأنه يعتقد أن ذلك غير أخلاقي، أما إذا كان الأمر لقاء مكافأة أو عطاء فيكون ذلك أخلاقياً. إن الفارق بين الاشتراكي والمسيحي أن الأول يريد أن يقدّم كل شيء مقابل أن يأخذ حاجته، والآخر سيقدم كل شيء طواعية دون أن يطلب أي مقابل. حتى المعادين لفكرة المكافأة يفهمونها على أنها شيء بلا معنى ويتقبلونها تعبيراً عن حبهم لمن يقدمها، لأنهم سيشعرون بعد ذلك بأنهم سيحبون المعطي أكثر من ذي قبل (القدس الجديدة، الأغصان الخضراء).

مع العلم أن الاشتراكية لم تستطع أن تغوص إلى تفسير عميق للمسيحية، ربما استطاع بعض ممثليها (وهم الشعراء) أن يفعلوا ذلك، إن أسس مجتمع النمل الاشتراكي القادم كما تراه الاشتراكية، هي إشباع البطون، والمثل الاشتراكية العليا تقول إن هذه الالتزامات كلها تقوم على مبدأ أن كل فرد سوف يعمل وفق مصلحته الخاصة، وضمن اهتماماته ورغباته، فالعمل عندها[1] Travail, Attrayont[١٢] لقد سمت الاشتراكية المسيح بالمثالي، [....] لا تصدقوا أبو كاليبس[١٣].

أ- العمل جذاب- بالفرنسية في الأصل.

الاشتراكية هي آخر مراحل تطور الذات وصولاً إلى المثل الأعلى، ولكنها ليست معياراً أو مقياساً، إنها التطور الواعي للذات، وفي أعلى مراحله، مرتبط بجمال النموذج أو المثال الأعلى، وصولاً إلى قناعة مفادها، أن الأمر يكون أكثر إنسانية كلما كان أكثر عقلانية- (وبقدر ما تمتلك نفسك، تستطيع أن تضحي بنفسك لأجل الآخرين.

إن الأبوية ثمرة المشاعية، والحضارة هي الحلقة الوسطى الانتقالية، والمسيحية هي المرحلة الثالثة والأخيرة لتطور الإنسان، وهذه المرحلة تنتهي إلى المثال الأعلى.

١٨٧٢-١٨٧٥

[...] الاشتراكية هي نفسها المسيحية[1]، ولكنها تفترض أن بإمكانها أن تكون مفهومة من قبل العقل [...]

[...] من أين جاء هذا المجتمع؟، آه منكم أيها المؤرخون! إنكم تحتلفون بالذكرى المئوية الثانية[2] أخبرونا من أنتج كل هذا؟ وما هي الأسس التي أدت إلى الانفصال عن أرض الواقع؟ أي عناصر تشكل هذا المجتمع.

مجتمعنا هو أكثر استعداداً لتقبل العدميّة، ولكننا، نشكر الله، أن الشعب ليس لديه هذا الاستعداد. هذا الشعب بحكامه الذين ورثوا السلطة منذ القدم/؟/ بإرادتهم المشوهة كان إيمانهم الوحيد هو أن يدفع هذا الشعب الأتاوات. ولن نردد هذه النغمة الآن فلم يحن أوانها بعد.

الإلحاد هو مرض الأرستقراطية. مرض التّطور والتعليم العالي ومن البدهي أن يكون مقرفاً للشعب.

إن من يحب الإنسانية عامةً وبشكل غير عادي، غالباً ما يكون أقل قدرة على حب الإنسان الفرد.

حين يرتكب القاتل جريمته، يكون عادة أقل الناس شعوراً بالأسف والشفقة على الضحية، وكأننا نفترض أن القاتل ولأسباب تتعلق بضغوط محيطة به لم يكن قادراً على الامتناع عن القتل. أما أنا فلا يمكنني أن أوافق أو أبرر أو أسمح إلا بعددٍ قليل من الاستثناءات، فقد ابتكروا عندنا قاعدة: كلما كان الأمر أكثر سوءاً كلما كان أفضل. وهذه قاعدة عامة.

[...] الأرثوذكسيّة- أي شكل عبادة المسيح- هي بداية أخلاقنا ووجداننا، وقد أصبحت قوة اجتماعية وعلميّة، بينما في أوربّا نرى التطور والعلم يجعلان المجتمع ملحداً وهذا بسبب الكاثوليكيّة فحسب.

ولدينا أثناء إصلاحات بطرس الأول كان معلمو تلك المرحلة قد تعلموا احتقار روسيا ورميها في القمامة، وقد ظهر الإلحاد لدى هؤلاء بقدر نصيبهم من العلم [...] ليس كل الذين تمنوا الذهاب إلى سيبيريا- بمناسبة الفرح- أتيح لهم ذلك، الأغلبية منهم لم يذهبوا. إن الروس المدافعين عن أوربّا ملحدون بشكلٍ غير عادي، وتلك نتيجة مهمة لإصلاحات بطرس الأول.

١٨٧٦-١٨٧٥

إن لم يكن هناك معتقد، فيجب أن يكون هناك ما يستبدل به ولو للحظة واحدة. تذكروا ديدرو وفولتير وعصرهما ومعتقداتهما[١]... آه كم كان ذلك الاعتقاد مذهلاً، عندنا لا يؤمنون بأحد، قلْ لو آمنوا (بدّبة كبيرة)، أريد أن أقول لا بد من الاعتقاد والإيمان بفكرة عظيمة.

إن استنهاض الاشتراكية المصطنع موجود عندنا كذلك- فمنذ ثلاثين عاماً وشباننا يرسلون إلى المنفى جراء هذا الهذيان. إذا كانت هذه مسألة مطروحة في أوربّا فعندنا هي هذيان... لدينا الكثير من المسائل الاجتماعية ولكنّها ليست بهذا الشكل، ولا حول هذا الموضوع. ثانياً- لدينا أيضاً الكثير من الأمور المريعة والجديدة، التي تتوجه ضد أوربّا.

وثالثاً- عندنا فكرة أخلاقية قديمة، لا يمكن أن تموت، بل تحيا وهي مفهومة منذ القدم: حول ماهية الشرف والواجب وماهية المساواة الحقيقة والأخوة بين الناس. لقد كان التعطش للمساواة في الغرب مغايراً لما هو عندنا لأن نمط السيطرة والسلطة عندهم كان مختلفاً. [...] الإنجيل كتاب لا يهزم[٢]، ليس بمقدور أطفال الرهبان والمتدينين الذين يكتبون في المجالات الليبراليّة أن ينالوا منه.

أنا لا أريد أن أفكّر أو أعيش بغير الاعتقاد: إن تسعين مليون روسي- ولا أعرف كم سيكون عددهم فيما بعد- سيصبحون متعلمين ومتطورين، إنسانين وسعداء. إن النور والرفاهية مقدران لعشرة بالمئة من الناس وهذا وفق تعاليم (البوتوغانيين). أما أنا فأرفض هذه الحضارة إذا كانت السعادة

فيها من نصيب هؤلاء فقط. إنني أؤمن بالمملكة الكاملة للمسيح، من الصعب التنبؤ كيف ستقام هذه المملكة ولكنها ستكون! وأنا أعتقد أنها ستنتصر، هناك أشياء لا تراها في الظلام لكنك تحسّ بوجودها إنني مؤمن بوجود مثل هذه الأشياء دون برهان. ستتحقق المملكة العامة للفكر والنور في روسيا على الأغلب، بغض النظر عن المخلصين والمصلحين والكلاب[٣]، وأنا أقدّر وبسعادة كل الحجج الأخرى، واحترمها، لكن لسنا بحاجة لتكسير الكراسي[٤]، يجب أن نكون ولو للحظة عمليين وواقعيين.. الأفضل أن تدرسوا الأسباب التي تدفع أفراد الشعب ليصبحوا كالذئاب، وعلى ضوء ذلك تتصرفون، فوجودكم أصلاً ليس لخدمة هؤلاء الكلاب!

[....] الشيوعية جاءت من المسيحية، من المثل العليا للإنسان، وعوضاً عن أن يكون (الحب طوعياً)، سيحمل غير المرغوب بهم العصا ليأخذوا الأشياء التي لم يقدمها لهم أحد... إن مسؤولية هذا الأمر تتحملها الكنيسة الرومانية. التي تتمثل جريمتها في توقف العلوم. عندما حان الوقت بدأ الموسوعيون يبشرون بأن الوقت قد حان للاستغناء عن الكنيسة والمسيح. وحين ذاك جاءت الثورة التي أسعدت طائفة قليلة من البشر، ثم جاءت الاشتراكية.

- إن العلم في عصرنا يدحض الأفكار السابقة له. إن كل أمنياتك وذنوبك التي اقترفتها بسبب المتطلبات الطبيعية، التي عجزت عن تحقيقها، بات من الضروري إشباعها. لكن المسيح يقول: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

- إن الأسرة والملكية الخاصة ترتكزان بالتأكيد على الأخلاقيات القديمة، فهل يكون هذا فعل قانون العلم أم قانون الحب؟

إن قانون العلم لا يصمد ولا يعدل ذلك الخبز، أما إذا اعتنقتم قانون الحب فستأتون بالتأكيد إلى المسيح، وهذا ما سيحدث ويمكن أن يكون

الظهور الثاني للمسيح، ولكن ماذا ستجلب لنا الإنسانية؟ لقد شغلنا وبدأنا نتخيل، ولكن هل تعلمون أن كل ذلك سيحدث، أو على الأقل سيتحقق شيء منه بوجودنا. [...].

- إن كل أخلاقية تخرج من الدين، لأن الدين هو شكل الأخلاق.

- إن قانون الضرورة الواعية، هو قبل كل شيء القضاء على الذاتية (بالنسبة لي سيكون من السيئ الإخلال بالنظام العام، فلست أعمل من أجل أخي بدافع الحب، بل لأن ذلك مفيد لي).

- إن المسيحية تدعو إلى حرية الذات بشكل كبير، ولا تخجل بأي قانون رياضي آمن بقلبك إن أردت.

- بعد إلحاد فيرسيلوف، كان الحب والحزن. لا. من الصعب أن تجتث الرب. التوسل والتضحية. السجود. أتصور أن العلم لا يعرف مثل هذه الأشياء. لا، إذا كان لابد من بناءٍ شيء ما، فيجب أن يكون بعيداً جداً عن أفكار الشيوعيين الحاليين، وأدعياء العلم. نعم ليرحمنا الله.

إن الفكرة الأخلاقية السامية، التي صاغها الغرب هي الاشتراكية الموعودة ومثلها العليا. ولا مجال للجدال في هذا. لكن الحقيقة المسيحية المحفوظة في الأرثوذكسية هي أسمى من الاشتراكية. وهنا نلتقي نحن مع أوربا..

أي في حل هذا السؤال: هل سينقذ المسيح العالم، أم سيكون الأمر عكس ذلك أي تحطيم الإرادة، وتحويل الحجارة إلى خبز.

١٨٧٦-١٨٧٧

ادرسوا الأرثوذكسية، إنها ليست فقط مجرد تعاليم كنيسة أو طقوس، بل هي إحساس حي وكامل، هي القوة الحيوية التي من دونها لا يمكن للشعب أن يعيش، والتي لا تعرف الانتقام، لكنها تعرف فقط حب الإنسانية جمعاء، وأنموذج السيد المسيح[1].

[...] يجب ألا نستبدل حب الإنسانية بإنكار وجود الله، لأن الإنسان سيسأل ساعتها: لأي غاية سأحب الإنسانية؟

لم أستطع أبداً أن أقْنِعَ نفسي بهذه الفكرة. وقد مر منذ ذلك الحين خمسة وعشرون عاماً سالت خلالها مياه كثيرة[2]، ثم في النهاية وصلت إلى قناعة خاصة بي مفادها: أنه كلما كان مجتمعنا يقف على أرضية شعبية طبيعية فإن الحاجة تكون أكبر «للفكرة العليا» و «للحياة العليا»، وأن مثاليتنا نحن الروس خالية من الجوانب المرضية، التي نجدها لدى الشعوب الأخرى. وعليه فإن العدمية نفسها موجودة في أساس حاجتنا «للفكرة العليا» والعدمية وفق وجهة النظر هذه قابلة للمقارنة جزئياً مع الإلحاد.

إن ذلك القلق نفسه الذي يخطف ويجذب الروح المتعطشة للإيمان باتجاه السماء، هو نفسه الذي يجبر الملحد على إنكار تلك السماء. ليس الإلحاد إلا هدوءاً كاذباً، لأنه لا يستطيع أن يسيطر على الروح اللا مبالية (وإن كان غير ذلك فهو ليس إلحاداً، بل فقط لا مبالاة ساذجة) إن الروح التي تهدئ نفسها بإنكار أو النفي الكامل، ربما تكون الأكثر تعطشاً إلى الإثبات الإيجابي (أو الكامل).

إن هذه المثالية غالباً ما تصبح ضحية الوسطية الغبية، ولا سيما في الفترة الأخيرة مع انتشار التعليم المنقوص غير الكامل، وعلى ما يبدو فإن هذا يؤدي أكثر فأكثر إلى ظهور فئة من البشر المنحرفين والأغبياء.

عند غياب الحاجة إلى المثل الأعلى والفكرة العليا نجد أولئك البشر يسعون إلى التقدم لأنهم الرابحون عند السير في ركابه، وربما لن تجد في العالم كله وجوداً أكثف لمحرّفي الأفكار وصانعيها في المجال الليبرالي، مما هو عندنا كون هؤلاء الناس يستسهلون العيش في الحياة، بقدر وقاحتهم وغبائهم. وبسبب ترهل شبيبتنا وإرهاقها ستكون مستعدة لتنقاد إلى محرّفي الأفكار أولئك ومستعدة للاستعباد من قبلهم، إن الرفض عند هذه الشبيبة- ليس فكرة عليا ولا حاجة، بل هو ممارسة حقها في رفض القيم الأخلاقية. إن أي فكرة سامية يستطيعون لمسها تبتذل من قبلهم مباشرة. إنهم يرون في بناء المجتمع الذي يحلمون به مجرد حقوقهم فقط.

[...] المسألة الشرقية[٣].

إن المسألة الشرقية لم يخترعها أصحاب النزعة السلافية، لقد ولدت قبلنا جميعاً، قبل الإمبراطورية الروسية، وقبل بطرس العظيم، خلقت مع تشكل القبائل الروسية الأولى في حكومة قوية، لقد ولدت هذه المسألة مع موسكو، وتركتها لنا موسكو بعد ذلك، وأخذها بطرس الأكثر فهماً لارتباطها الوثيق العضوي مع أهداف روسيا العليا وروحها.

- إن ترك الفكرة السلافية والكنيسة الشرقية يعني تماماً تحطيم روسيا القديمة وبناء شيء جديد مكانها، شيء لن يكون روسيا على الإطلاق، والأمر عندها يشبه الثورة ويعادلها.

بإمكان التقدميين المنبوذين الروس فقط أن يرفضوا الرسالة السلافية، ولكنهم محكومون بالجمود والموت بغض النظر عن طاقاتهم وعواطفهم الملموسة (أنا لا أتحدث عن مضاربي البورصة، بل عما يضجر القلوب). أنا

أتحدث عن الفاسدين من الفئة المثقفة (الإنتلجنسيا)، الذين شوهوا المثل الأعلى- الذين لا يعترفون بالمثل الأعلى الحق بل بالمثل الخاطئ. المثل الأوربي- الديمقراطي الاجتماعي. أنا اشتراكي ولكنني أرفض المثل الأعلى المرتبط بالمقصلة.

الفكرة العليا هي المسيح، ولا فكرة سواها. وعليها نلتقي مع أوربا [...] إنكم تتجرؤون وتطلبون شرحاً للحقائق، لأن عدد الكتب التي توضح هذه الحقائق قليلة جداً، انتظروا... سنشرح ما قلناه ولكن ليس لكم، إننا ننتظر أناساً جُدداً، هم قادمون. ما من غبي إلا ويمكن أن نتعلم منه شيئاً، والمجانين لا يمكن غرسهم بل ينبتون وحدهم.

١٨٨١-١٨٨٠

عندكم المثل المدنية شيء - والمسيحية شيء آخر. أما عندنا نحن الروس فلا يمكن فصلهما، المثل المدنية مسيحية بالضرورة. والمسيحي دون إرادته هو مواطن، لأننا نفهم المسيحية بفكرتها وليس بعباراتها وحروفها فقط كما هو الأمر عندكم[1].

إن العالم الواقعي (المؤسَّس) سينتهي، أما العالم غير المحسوس فهو أبدي. لو التقى الخطان المتوازيان لانتهى قانون العالم الحالي، أما في الأبدية فيلتقيان، والأبدية موجودة دون أدنى شك، ولو لم تكن هناك أبدية، لما كانت هناك نهاية للعالم الحالي ولكان بلا معنى.

وإذا كانت هناك أبدية، فمعنى ذلك أن الله موجود، والعالم الآخر موجود، وفق قوانين أخرى تختلف عن قوانين عالمنا المحسوس.

قانون: إن الشعب الروسي كله في الأرثوذكسية وفي فكرتها. وليس بحاجة لسواها لأنها تمثل له كل شيء. الأرثوذكسية هي الكنيسة، والكنيسة هي بناء شيد إلى الأبد.

ما هي الكنيسة من وجهة نظر خومياكوف؟ أتظنون أنني سأشرح ذلك بتوسع؟ لن أفعل ذلك لا كثيراً ولا قليلاً الآن، لكن مستقبلاً، أما الآن فسأضع بعض المسلّمات، وسأضيف إليها بعض الأشياء الأخرى:

من لا يفهم الأرثوذكسية فليس بإمكانه أن يفهم الشعب أبداً. ولن يكون بإمكانه أيضاً أن يحب الشعب الروسي، بل سيحب الشعب الذي يتمنى أن يراه فحسب. وبالعكس فالشعب أيضاً لن يتقبل هذا الإنسان

كواحد من أفراده: إذا كنت لا تحب ما أحب، ولا تؤمن بما أؤمن به، ولا تحترمُ مقدساتي فلن أتقبلك كواحد منا، إنني واسع الصدر وصبور وأتحمل بسبب ما أؤمن به.

آه.. إنه لم يهنه، ولم يضربه، ولم يسرقه، ولم يقل له مجرد كلمة واحدة. إن الشعب يستمع إلى الشخص الذي يراه صادقاً مخلصاً- كما يتمناه- وسيشكره على نصيحته وعلمه إذا كان ذكياً ومقنعاً، بل وسيذهب أبعد من ذلك فيعمل بتلك النصيحة، (فالشعب الروسي واسع الصدر وقادر على الاستنتاج) ومع ذلك فإن هذا الشعب لن يعتبر شخصاً كهذا من أبنائه المقربين.

إن بعض فئاتنا المثقفة تغضب حين تصارحها بأنها لا تعرف الشعب.

ستمر فترة طويلة قبل أن تلتقي هذه الفئة المثقفة بالشعب [...].

«الدولة هي الكنيسة» - هذا خلافنا مع أوربا. الحكومة هي مجتمع مسيحي، وتطمح أن تصبح كنيسة (فلاح- مسيحي)، أما في أوربا فيعتقدون العكس. هذا كلام البروفسور فيرخوف في مجلة «الأزمنة الحديثة عدد ١٧٤٥، ٦ كانون الثاني».

يعلن فيرخوف أن الدولة منفصلة عن الدين، عن المجتمع المسيحي[٢][...].

لقد تلقى أغبياؤنا الصيغة الأوربية واعتبروها أمراً مسلماً به، وهي عند شعبنا الروسي ليست شعبية ولا مسيحية. والمسألة كلها تكمن في أن فيرخوف يخاف أن يبدأ المسيحيون لتوهم بقتل غير المسيحيين لكن الأمر عكس ذلك، فالحرية الدينية التامة، وحرية الضمير هما روح المسيحية الحقيقية. آمن بما شئت- هذا هو قانوننا[٣].

لم ينزل الرب عن الصليب ليجعلنا نؤمن به بفعل المعجزة، بل أراد منا أن نؤمن به بحرية الاعتقاد والضمير دون معجزات. هذه هي روح الشعب والمسيحية، أما إذا كان هناك انحراف عن ذلك فنحن المسؤولون.

إلى كافيلين[٤]:

أنت تقول إن الأخلاق تأتي عن طريق الإقناع، فمن أين أتيت بهذا الرأي؟ أنا لا أثق بك أبداً، وأقول لك العكس، عدم الأخلاق يأتي بالإقناع[٥]، وأنت طبعاً لا تستطيع دحض مقولتي بأي شكلٍ. أنتم تعتبرون إراقة الدماء غير أخلاقية. أما إراقة الدماء بالإقناع فهي أخلاقية، لكن اسمح لي! لماذا إراقة الدماء مسألة غير أخلاقية؟

إذا لم تكن لدينا ثقة بعقيدتنا، وبالمسيح فإننا سنتوه. الأفكار الأخلاقية موجودة، وهي تنمو على الشعور الديني، ولا يمكن بالمنطق وحده أن تمتلك شرعيتها أو تُبَرَّرَ.

لكأن العيش أصبح مستحيلاً!

كالامبور: يسوعي يكذب، وهو مقتنع بأن الكذب مفيد لأجل هدف جيد، أنتم تمتدحونه إذاً لأنه أمين لقناعته، أي لأنه يكذب! ولكن هذا جنون: إذا كذب عن قناعة، فهذا أمر جيد. إذاً في حالة معينة، تعتبرون الكذب جيداً، وفي الحالة الأخرى- تعتبرونه حماقةً. إن ذلك لمريع.

على هذه الأرض التي تقفون عليها ستكونون دائماً مغلوبين ومحطمين، وستصبحون غالبين سالمين عندما تتقبلون (وجود) الأفكار الأخلاقية (منبعثة من المسيح، من الإحساس)، إلا أن إثبات أخلاقية هذه الأفكار أمر مستحيل (لأنها تمس العالم الآخر). إن هذه الفكرة غريبة عنك كثيراً يا سيد كافيلين. كيف لم تنتبه إلى هذا، فأخطأت السبيل.

ماذا ستقول الآن الأميرة (ماريا ألكسيفنا)[٦].

... طبعاً هذا ليس كلاماً علمياً، لكن لماذا لا يكون كذلك؟:

إن الظهور العظيم للمسيح وللموجودات كلها على الأرض، وما حدث عليها يتطلب- من وجهة نظري- دراسة علمية. إن العلم لا يستطيع أن يتجنب أهمية الدين للإنسانية، ولو من وجهة نظر تاريخية فقط، حيث تدهشك

استمرارية الدين وصموده. إن قناعة الإنسانية بملامسة العوالم الأخرى قناعة راسخة وصلبة وهي في الوقت نفسه مهمة. وهي قناعة لا يمكنك أن تحسمها بجرة قلم مثلما فعلت فيما يتعلق بروسيا، وبغيرها من الشعوب الفتية! الخ... أي أن فعلك هذا يجعل من العلم الذي تستند إليه علماً ساذجاً، إنه علم بطرسبورغ الأوربي- الروسي...

في المفتش الأكبر والفصل المتعلق بالأطفال. كان بإمكانك أن تتعامل معي علمياً، ولكن ليس بتلك الدرجة من التعالي فيما يتعلق بالجانب الفلسفي، مع أن الفلسفة ليست من اختصاصي في أوربا لا تجد عبارات لها مثل هذه القوة الإلحادية، وما كانت موجودة من قبل.

أنا لا أؤمن بالمسيح وتعاليمه كطفل، بل مررت بكثير من الشكوك والمعاناة كما يقول الشيطان في روايتي نفسها. ولكن لعلك لم تقرأ رواية «الأخوة كارامازوف»، هذا أمر آخر، وعندها سأقدم لك اعتذاري.

الهوامش

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الأعمال الأدبية والمقالات الصحفية لأعوام الستينيات والسبعينيات، والتي تتميز بأنها الأكثر قدرة على عكس وجهات نظر دوستويفسكي في قضايا الكنيسة، والدين عموماً، والإلحاد، وهي قضايا شغلت- وربما تشغل- اهتمام فئة واسعة من القراء. لقد فرض علينا حجم الكتاب شيئاً من التصرف في طباعة النصوص وقمنا ببعض الاختصار مشيرين إلى ذلك في موضعه بأقواس مربعة [...].

إن هذه الأعمال التي يضمها الكتاب مأخوذة من الأعمال الأدبية الكاملة لـ دوستويفسكي المطبوعة عام ١٩٧٢ في لينينغراد، والواقعة في ثلاثين مجلداً.

سيلاحظ القارئ أن ملاحظات المؤلف قدمت مباشرة في أسفل كل صفحة، حين دعت الحاجة إلى ذلك، وقمنا بترجمتها عن لغاتها، وما كانت في نص المؤلف مترجمة.

لقد ضم هذا الكتاب جملة من الأعمال الأدبية الصعبة في مضامينها، بسبب ارتباطها بسياقات تاريخية وأدبية معينة، وبسبب كثرة المقارنات والتوافقات أو الاختلافات مع الفكر الديني العالمي زمن كتابتها، وهو فكر مكرس يوم ذاك لتاريخ الكنيسة عموماً، وهذا بالإضافة إلى كثرة التناصات والاقتباسات الواضحة تارة والخفية تارة أخرى من الأناجيل، التي ربما لم تكن صعبة على قراء ذلك الوقت، ممن عاشوا تلك الفترة التاريخية بكل ما فيها- وعلى الرغم من ذلك فحتى جمهور

ذلك الزمن لم يكن على تواصل كاف مع دوستويفسكي بوصفه مفكراً وأديباً كبيراً.

ربما كان من الصعب على قارئ اليوم أن يسبر أغوار الأفكار الفلسفية الدينية لدوستويفسكي لأسباب عديدة ذات طابع تاريخي وثقافي، ومن هنا تكتسب التعليقات والتوضيحات التي ستضمها الهوامش التالية أهمية خاصة في إضاءة تلك الأفكار وإيضاح بعض الاستشهادات أو التناصات مع الكتاب المقدس أو سواه، وفي شرح بعض المصطلحات الدينية وغيرها، وقد حاولنا أيضاً أن نضيء شيئاً من تاريخ الكنيسة، والتاريخ السياسي للمرحلة، كما استعنا بعدد من المقالات الصحفية الإضافية لدوستويفسكي للتدليل على رأي ما أو فكرة ما مرت في متن الكتاب هنا أو هناك. كل ذلك بهدف الأخذ بيد القارئ في المواضع التي توقعنا أن يجد صعوبة فيها أو ممانعة في الدخول إلى أغوارها.

هوامش الباب الأول
من
روايات دوستويفسكي

الجريمة والعقاب:

كتبت رواية الجريمة والعقاب في عامي (١٨٦٥-١٨٦٦) وطبعَتْ لأول مرة في مجلة «روسكي فيستنك» عام ١٨٦٦.

١- كان هذا التعبير شائعاً بين ممثلي الأفكار الليبرالية والديمقراطية في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، الذين يميلون إلى تضخيم تأثير الظروف الاجتماعية على مصير الإنسان وسلوكه. إن دوستويفسكي جابه بشدة مثل هذه الأفكار حيث قال: «إن المسيحية تعترف بحرية الإنسان لتجعله مسؤولاً. فإذا جعلتَ الإنسان مرتبطاً بكل خطيئة في تنظيم التعليم الاجتماعي، عن البيئة الاجتماعية فإنك تدفعه إلى فقدان ذاته تماماً، وإلى تحرره الكامل من كل واجب أخلاقي ذاتي [..]» - (يوميات الكاتب عام ١٨٧٣).

٢- تعبير مشابه لعبارة: «أحمل حجري للإسهام في بناء المجتمع المستقبلي»، التي نصادفها عند الاشتراكي الطوباوي ف. كونسيديران (١٨٠٨-١٨٩٣)، وهو من أنصار الاشتراكي الطوباوي الفرنسي ش. فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧)، الذي وضع مخططاً لمجتمع المستقبل القائم على الانسجام، والذي تتفتح فيه الإمكانات الإنسانية كلها.

(الفلانستيرا عند فورييه- هي قصور السكن الجماعي للمجتمع الاشتراكي).

لقد كان دوستويفسكي على معرفة جيدة بأفكار فورييه وكونسيديران من خلال حلقة البتروغراديين (مثقفو بطرسبورغ- المترجم).

٣- كيبلر يوهان (١٥٧١-١٦٣٠) عالم فلك ألماني، وواحد من علماء الفلك في العصر الحديث ممن اكتشفوا قوانين حركة الكواكب. نيوتن إسحاق (١٦٤٣-١٧٢٧) عالم رياضيات وميكانيك وفلك وفيزياء بريطاني. مؤسس علم الميكانيك الكلاسيكي.

مكتشف قانون الجاذبية. ومؤسس قواعد علم الميكانيك الفضائي.

٤-ليسورجوس (القرن ٨ و٩ قبل الميلاد) - أرخوند أثيني (مرتبة وظيفية عليا في اليونان في ذلك الزمن)، أجرى إصلاحات عجلت في القضاء على بقايا المجتمع القبلي. وقد اعتبرته الأساطير القديمة واحداً من أهم سبعة حكماء إغريقيين.

محمد: (٥٧٠ م-٦٣٢م) رسول الله- زعيم أول دولة تيوقراطية إسلامية في شبه الجزيرة العربية.

نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) - إمبراطور فرنسي.

٥- أورشليم الجديدة- هي رمز الانبعاث الثاني للمسيح. أي يوم القيامة. وبالنسبة لدوستويفسكي: الجنة المستقبلية على الأرض. رديفة للعصر الذهبي.

٦- المقصود بهذه العبارة الحكاية الإنجيلية عن بعث السيد المسيح لأليعازار من الموت. (إنجيل يوحنا- الإصحاح الثاني).

٧- ظهرت نظرية مشابهة للمنشقين: «السماح أخلاقياً بسفك الدماء»، وهي مرتبطة بالأزمة العالمية للمعرفة الدينية، تلك التي أثرت

بالتأكيد على علم الأخلاق وأكدت أن الفكرة الإنسانية وقفت أمام ضرورة دراسة أسس أخلاقية جديدة للوجود الإنساني. إلا أن الإنكار المطلق والمحسوم لعلم الأخلاق المسيحي يهدد بالانحلال الذاتي للقوانين الأخلاقية. وقد ساهم احتقار واحدة من عشرة تعاليم مسيحية «لا تقتل» في السماح للمقولة السابقة بالهيمنة. وقد نوه دوستويفسكي في دفاتره لأعوام (١٨٨٠-١٨٨١) قائلاً: «... الوجدان دون الله شيء مرعب، ويمكن أن يضلّل المرء حتى الضياع الأخلاقي» (الأعمال الكاملة الجزء ٢٧).

٨- عرض أسس أي تعاليم بطريقة الأسئلة والأجوبة.

٩- «... [...] إن المفاهيم الأخلاقية لا تتوقف فقط على الولاء لقناعاتك الشخصية....».

١٠- لقد قتلت نفسي وليس العجوز- في عام ١٨٦٥ كتب دوستويفسكي في رسالته إلى كاتكوف (ناشر مجلة روسكي فيستنك) يحدثه عن فكرة هذه الرواية: «[...] إن العقوبة القانونية المفروضة على المجرم لا تخفيه بالمقدار الذي يفكر به القانونيون لأن المجرم نفسه يطلب أخلاقياً تلك العقوبة» (المؤلفات الكاملة- الجزء ٢٨- الكتاب الثاني).

١١- في موضع الجدل حلت الحياة: «الحقيقة الإلهية، والقانون الوضعي يأخذان مجراهما، فبطل الرواية ينتهي إلى أن يحمل ذنبه على عاتقه، وحتى لو مات في المنفى، فهو يرغب في رؤية البشر ثانية، لأن إحساسه بالانقطاع والانفصال عن الإنسانية- بعد تنفيذه الجريمة- قد عذبه كثيراً» - من رسالة دوستويفسكي إلى كاتكوف (المؤلفات الكاملة- الجزء ٢٨- الكتاب الثاني).

١٢- هذه الجملة من السيرة الذاتية للكاتب حيث أهدت نساء الديسمبريين (مورافيوفا، أمنيكوفا، فونفيزينا) دوستويفسكي الإنجيل،

وهـو في طريقـه إلى المنفـى، في توبولـسكي عـام ١٨٥٠، وقـد كتـب عنـهُ دوستويفسكي: «مكث هذا الكتاب أربعة أعوام تحت وسادتي «في المنفى» (مؤلفات دوستويفسكي ١٨٧٣).

الأبله:

طبعت هذه الرواية للمرة الأولى في «روسكي فيستنك» عام ١٨٦٨.

١- ربمـا عنـى الكاتـب مفكـر بطرسـبورغ ن. أ. سبيـشنيوف (١٨٢١-١٨٨٢) صـاحب وجهـة النظـر الماديـة الملحـدة. (انظـر: المؤلفـات الفلـسفية والسياسية- الاجتماعية لمفكري بتروغراد. موسكو عام ١٩٥٣).

٢- جوهر الإحساس الديني [...] إلى الأبد سيتحدثون عن أشياء لا علاقة لها بالموضوع- إن التفكير المشابه لذلك مفاده أن الإنسان «أوسع بكثير من علمـه»، و «جـوهر الإحـساس الـديني» لا يمكـن الإحاطـة بـه بالمحاكمـات العقلية.

والإيمان لا يدحض بالطرق العلمية، وقد دافع دوستويفسكي عن ذلك دائماً:

«إن الإنـسانية بمجملـها عبـارة عـن جـسم، بطبيعـة الحـال، وهـذا الجـسم دون جـدال يمتلـك قوانينـه الخاصـة في الوجـود. والعقـل البـشري يبحـث ويحـاول أن يكتشف هـذه القـوانين. والآن تخيلـوا أن لا وجـود لله ولا وجود لخلود الروح (خلود الروح والرب- يمثلان فكرة واحدة)، فهل من مبرر ساعتها لأعيش بشكل جيد، وأفعل الخير، مادمت سأموت على هذه الأرض مرة وإلى الأبد؟ [...] وانطلاقاً من ذلك فسنلخص إلى نتيجـة مفادهـا أن الجسم الإنـساني [...] يعيش ليـدمر ذاتـه فحسب [...]، وفـوق كـل ذلـك فـإن «أنـاي» - الـتي وعـت كـل شـيء- إن كانـت قـد استطاعت ذلك، أقصد كل ما على الأرض وكل بدهيّاتها- تصبح فوق

كل ما حولها، أو على الأقل تقف منفردة بعيدة عن كل ذلك ولكن مشرفة من علٍ عليه. وواعية وقادرة على محاكمته. وفي مثل هذه الحالة فإن هذه «الأنا» لن تكون غير خاضعة لبديهيات وفرضيات العالم الأرضي والقانون الأرضي فحسب، بل ستكون مالكة لقانون خاص أعلى وأسمى.

فأين هذا القانون؟ ليس على الأرض حيث لكل شيء أجل وكل شيء يموت ولا يترك أثراً، ولا يبعث من جديد، أما من إشارة في هذا إلى خلود الروح؟

[...] إنكم غير قادرين على السيطرة على «أناكم»: إنها لا تتوضع مع نظامكم الدنيوي الأرضي في فضاء واحد، إنها تبحث عن شيء ما مختلف، عدا أشيائكم الأرضية، تبحث عما تنتمي إليه. [...] (من رسالة دوستويفسكي إلى ن. ل. أوزميدوف ١٨٤٤-١٩٠٨) - انظر المؤلفات الكاملة- الجزء ٣٠- الكتاب الأول.

٣- فجأة تذكرت لوحةً، كنت قد رأيتها من قبل عند روغوجين: مقبوس مأخوذ من «الشرح الضروري» وهي مقالة كتبها قبل الموت، أحد أبطال الرواية، الشاب إيبوليت «الإيجابي المعاصر» الذي قرر أن ينهي حياته بالانتحار. اللوحة التي يتحدث عنها المقبوس مرسومة بريشة الفنان غولب ملادشي (١٤٩٧-١٥٤٣) واسمها «المسيح الميت» - (١٥٢١) وسيثيرها بشدة في روايته «الأخوة كارامازوف».

١٢-الكاثوليكية- إنها تماماً كأي ديانة غير مسيحية، مثل هذا التأكيد على تلك الفكرة ميزة ملازمة لدوستويفسكي، الذي يستنكر أفكار الكاثوليكية.

(انظر: رسالة إلى آ. ن. مايكوف. نهاية الستينيات «الأعمال الكاملة الجزء٢٨- الكتاب ٢ / والجزء ٢٩، الكتاب الأول).

١٣- وتصرخ non possmus! - عبارة تقليدية بابوية لرفض تلبية مطلب السلطة العلمانية.

١٤- Fraternité ou la mort- جزء من شعار طرح أيام الثورة الفرنسية العظيمة (١٧٨٩-١٧٩٤): «Liberté, egalité, fraternite ou la mort» (الحرية- المساواة- الأخوة، أو الموت). وقد استخدم دوستويفسكي هذا الشعار في نقده التعاليم الاشتراكية، وقد رأى أن تلك التعاليم الاشتراكية تستخدم كلمات وعبارات موزونة مموسقة حول المساواة العامة والأخوة وسوى ذلك، ولكنها في الواقع تقود إلى بناء سعادة مادية محضة، تتكر الطموح إلى الساميات... إلى الأخلاق الدينية.

١٥- ... مليونا رأس! - يلجأ دوستويفسكي بهدف نفي ميزات التعاليم الاشتراكية إلى قول الناشر الألماني الجمهوري ك. ب. غينتسن (١٨٠٩-١٨٨٠) الذي عبر عنه بدقة آ. ي. غيرتسين في مذكراته «الماضي والأفكار»: «وعلى أثر ذلك كتب أنه يكفي أن تضرب مليوني شخص على سطح الكرة الأرضية ضرباً مبرحاً، كي يغدو انتصار الثورة أمراً يسيراً».

١٦- من أعمالهم تعرفونهم- هذا ما جاء - في إنجيل متى، الإصحاح السابع: «احذروا الرسل الكاذبين [...] من أعمالهم تعرفونهم».

١٧- علينا أن نحمل إليهم حضارتنا الروسية- يطرح دوستويفسكي دوماً فكرته هذه عن الدور الريادي لروسيا في مصير الحضارة، وهي إحدى أسس النظرية الفلسفية التاريخية لدوستويفسكي.

١٨- الخليستيّة- جماعة دينية ظهرت في روسيا في نهاية القرن السابع عشر بداية الثامن عشر. يدخل في أساس معتقديهم إيمان شديد بإمكانية الاتصال المباشر مع الروح القدس، من خلال إمكانية حلول هذه الروح في فرد من أفراد تلك الجماعة (يعتبر مثل «المسيح»).

الشياطين:

طبعت هذه الرواية لأول مرة في مجلة «روسكي فيستنك» ١٨٧١-١٨٧٢.

١- ولولا الأوهام لكان عددهم أكبر بكثير.. لكانوا كثيرين جداً، بل كل الناس- في هذا المقطع يدور حوار بين السيدين كيرليوف و غ. خونيوكير حول حادثة الانتحار اللاحقة.

لقد حلل دوستويفسكي بالتفصيل استنتاجات كيريليوف حول منطقية الانتحار في عدد أكتوبر / تشرين الأول من مجلة «يوميات الكاتب» عام ١٨٧٦، إن الحياة «في شروط التهديد بالتحول إلى الصفر الذي ينتظرنا غداً»، وإدراكنا أن «واحدنا يعيش لحظة واحدة ويندثر دون أن يترك أثراً» أمران يؤديان دون أدنى شك- وفق رأي الكاتب إلى الانتحار. إن نمط التفكير هذا طبيعي من وجهة نظر دوسبتويفسكي بالنسبة لزمرة الملحدين، أو عند لحظة محددة من التطور الروحي للذات الإنسانية، عندما «ليس بوسع الإنسان أن يمعن النظر في معنى الحياة. إنه طريق باتجاه واحد بالنسبة للماديين» - هذا ما يستنتجه دوستويفسكي (انظر: المواد الأولى ليوميات الكاتب، عام ١٨٧٦».

٢- نيكولاي فسيفولودوفيتش- الحديث يدور حول البطل الرئيس للرواية ستافروغين.

٣- الملاك في رؤيا يوحنا يقسم أن الزمان سيتوقف بعد ذلك- إن رؤيا يوحنا واحدة من الإبداعات المسيحية المبكرة التي دخلت العهد الجديد. في هذه الرؤيا يدور الحديث عن أن نهاية مصير العالم والبشرية، مقترن بحرب تدور بين «محارب سماوي» ضد المسيح الكاذب، وفي الرؤيا أيضاً ظهور جديد للمسيح، ومحاكمة مخفية للعالم، الذي سيدخل

الخلود أو الأبدية، عندما «يتوقف الزمن» «رؤيا القديس يوحنا، الفصل العاشر».

٤- سيجيء وسيكون اسمه الإله الإنسان- إن مثل هذه الفكرة كانت مطروحة من قبل م. بيتراشيفسكي في مقالته «كلمة الله الطبيعية»، «الطبيعية» (انظر: معجم الجيب للكلمات الأجنبية... الإصدار الثاني، عام ١٨٤٦).

بيتراشيفسكي- هو م. ف. بوتاشيفيتش بيتراشيفسكي (١٨٢١-١٨٦٦) ثوري روسي، اشتراكي طوباوي. حكم عليه عام ١٨٤٩ بالسجن المؤبد والنفس. وقد اعتقل أعضاء حلقة بتراشيفسكي في ٣ أبريل / نيسان ١٨٤٩.

٥- «من لم يكن أرثوذكسياً، لا يمكن أن يكون روسياً» - cp «يا لشعبنا الروسي كم يحب العصيان! [...] ألا يتخلص، كل ما يريده قاطبة في الأرثوذكسية؟ أليس في الأرثوذكسية خلاص شعبنا وحقيقته؟ أليس فيها مستقبلاً خلاص الإنسانية كلها؟». «من يوميات الكاتب، ١٨٧٣».

٦-... الغواية الثالثة من غوايات الشيطان- هي غواية السلطة، وتتلخص في أن الشيطان كان قد قاد يسوع إلى قمة جبل عال وأراه «مملكة العالم» ثم قال له: «كل هذا أمنحه لك، إذا خضعت وانحنيت لي» - (إنجيل متى الإصحاح الرابع). رفض يسوع الإغواء لأنه جاء ليبني سلَطتُه على المآثر الأخلاقية الحرة للناس وعلى طاعتهم الحرة لكلمة الرب.

٧- ألست أنت من قلت لي [...] لفضلّت أن تبقى مع المسيح وليس مع الحقيقة: هنا نرى تكرار اعتراف دوستويفسكي الشخصي في إحدى رسائله إلى ن. د. فونفيزينا عام ١٨٥٤: «... لا ما من شيء أكثر روعة،

وعمقاً، وعذوبة، وذكاء، ورجولة وكمالاً من المسيح، وليس فقط ما من شيء- ولكنني أقول بحب غيور- ولن يوجد. وزد على ذلك لو أن أحداً ما برهن لي أن الحقيقة ليست في المسيح، وكانت الحقيقة بالفعل ليست في المسيح. لفضلت أن أبقى معه وليس مع الحقيقة». (الأعمال الكاملة، المجلد ٢٨ الكتاب ١).

٨- «أنهار الحياة الدافقة» - استخدم الكاتب هنا شيئاً من رؤيا القديس يوحنا ومن أسلوبها: «لقد جعلني أرى مياه نهر الحياة النقية، البراقة كالكريستال، المنسابة من تحت عرش الرب..» (رؤيا القديس يوحنا، الفصل ٢٢).

٩- ربط دوستويفسكي مسألة العلم بمنطقية الوعي الإنساني. إن التطور الكبير للعلم في القرن التاسع عشر أوجد الكثير من الأوهام عند الكتاب المعاصرين فيما يخص قدرة العقل الكامنة، ودوره الرئيس في الوجود الإنساني. وهذا ما أدى إلى الاعتراف باستقلالية النشاط الثقافي عن الدور الكابح للقوانين الأخلاقية وأدى إلى الاعتراف بأن العلم محايد أخلاقياً. وقد شعر دوستويفسكي بعمق بالنتائج المهلكة لمثل هذه «التسليات» أو التصورات. وقد حدد الكاتب أصالة إنجازات الفكرة الإنسانية بمقدار اقترابها من الهدف والمثال الأعلى.

١٠- أنت ملحد، لأنك سيد، آخر سيد: من الاعتقاد الصادق والواضح أن الشعب الروسي البسيط متدين جداً، ويحمل المسيح في «قلبه». إن دوستويفسكي يعتبر أن الإلحاد هو مرض «أصحاب الدراسات العليا». لقد كتبت في زاوية «الحوادث الأجنبية»، من مجلة «غراجدانين- المواطن» عام ١٨٧٣: «من المدهش أن الليبرالية الدينية، واللا مبالاة، وأخيراً الإلحاد، كانت دائماً من أمراض الفئات الارستقراطية».

١١- ما من سر يبقى مهما كان. (مرقُص- الإصحاح الرابع): «ما من شيء يبقى سراً ، ولا يمكن أن يخفى شيء ، إلا ويظهر للناس».

١٢- وفق الإنجيل: لقد صلب مع السيد المسيح اثنان من قطاع الطرق ، وقد قال أحدهم له: «تذكرني أيها الرب عندما تصبح في مملكتك» ، فأجابه المسيح: «الحق أقول لك: منذ هذه اللحظة ستكون معي في الجنة». (إنجيل لوقا- الإصحاح ٢٣).

١٣- الكلام مأخوذ من إنجيل لوقا ، ويستخلص دوستويفسكي من هذه الحكاية الإنجيلية ما يوافقها من مصير روسيا : «[...] إن المرض الذي أصاب الروس المتحضرين كان أشد بكثير مما تصورنا [...]، إن الشياطين خرجت من جسد الإنسان الروسي ودخلت في قطيع الخنازير، أي في أجساد أنصار نيتشايف وسيرنوسولويفيتشي وآخرين. [...] لقد بصقت روسيا بعيداً هذه الأوساخ، لم يبقِ في هؤلاء السفلة أي شيء روسي ولاحظ أيها الصديق العزيز أن من يفقد شعبه ووطنيته، يفقد الإيمان بالوطن وبالله» - (من رسالة دوستويفسكي إلى مايكوف في تشرين الأول عام ١٨٧٠- المؤلفات الكاملة، الجزء ٢٩ ، الكتاب الأول).

١٤- ستيبان تروفيموفيتش- س. ت. فيرخوفنسكي- أحد أبطال الرواية ، وهو نموذج «إنسان الأربعينيات من القرن التاسع عشر» - (انظر يوميات الكاتب لعام ١٨٧٣- مقالة «كبار السن» المسنّون).

إن مصدر هذه الشخصية الأساس هو غرانوفسكي ت. ن (١٨١٣-١٨٥٥) وهو مؤرخ روسي غربي، ليبرالي، بروفسور في جامعة موسكو وصديق غيرتسين. وقد كتب دوستويفسكي عنه كثيراً في مذكراته.

المراهق:

طبعت للمرة الأولى في مجلة «مذكرات وطنية» عام ١٨٧٥.

١- في متحف دريزدن توجد لوحة [.....] وقد سميتها دائماً، «العصر الذهبي» - إن الحديث يدور هنا عن لوحة الفنان الفرنسي كلود لوران (جيللي ١٦٠٠-١٦٨٢) - «أسيس إلى كالاتيا». كان كلود لوران من أكثر الفنانين قرباً من نفس دوستويفسكي وقد استشهد به في مقاطع كثيرة من مذكراته (وقد ورد ذكر لوحة لوران في رواية «الشياطين» و «اعترافات ستافروغين» وفي «أحلام رجل مضحك»).

«العصر الذهبي» - لوحة تمثل التصور الأسطوري للحياة العارية السعيدة للإنسانية البدائية (وقد عبرت عنه قصيدة «الأعمال والأيام» للكاتب غيسيود وفي «التخيلات» لأوفيد). «العصر الذهبي» - هو الجنة الدنيوية في القديم، وتتضمن نظرية دوستويفسكي الفلسفية التاريخية فكرة العصر الذهبي القادم.

٢- وأنا هنا لا أعني الحرب وحدها ولا أتحدث عن تيولري- أحداث الحرب الفرنسية البروسية- (١٨٧٠-١٨٧١) والتي كان من نتائجها هزيمة فرنسا واحتلال بروسيا لها، هذه الحرب التي اعتبرت أحد أسباب انتفاضة البروليتاريا الباريسية (كومونة باريس ١٨٧١) - فأثناء المعارك بين العامة والقوات الحكومية احترق قصر تيولري: المنزل القديم للملكة الفرنسية.

٣- مشعلو الحرائق- مأخوذة في الأصل من الكلمة الفرنسية «Petrole- كيروسين».

٤- وذلك لأنني كروسي، كنت في أوربا [...] وأتابع الرحيل- تحدث دوستويفسكي عن الرحالة أو الجوالين الروس في كلمته عن بوشكين

المعروفة في يونيو / حزيران ١٨٨٠- (انظر مؤلفات دوستويفسكي لعام ١٨٨٠).

٥- أنا أومن إيمان فلاسفة- الدييزم: نظرية فلسفية دينية تعتقد بأن الله هو العقل العالمي الذي يجسد كل «آلة» الطبيعة، ولكن هذه النظرية تنكر تدخل الله اللاحق في حركة الطبيعة، ولا تسمح لأي طرق أخرى- غير العقل- بالتدخل لمعرفة الله.

٦- رؤيا «المسيح على بحر البلطيق» - المقصود هنا أشعار غ. هايني (١٧٩٧-١٨٥٦) «العالم» - مجموعة «بحر الشمال» - كتاب «الأغاني» عام ١٨٢٧.

الأخوة كارامازوف:

طبعت لأول مرة في مجلة «ورسكي فيسنك» ١٨٧٩-١٨٨٠.

١- في جبل سيناء وآثوس- جبل سيناء: هو مرتفع جبلي، جنوب شبه جزيرة سيناء غرب آسيا. آثوس- شبه جزيرة في اليونان، وهي المكان الذي توجَد فيه أقدم المعابد.

٢- الاضطرابات الداخلية- مصطلح يقصد به أحداث نهاية القرن السادس عشر- بداية القرن السابع عشر في روسيا، والتي حدثت بعد سقوط حكم سلالة روديك حتى بداية حكم سلالة رامانوف- حكم بوريس غودونوف وصراعه مع ديمتري الكاذب الأول الذي قتله خلفه، وحكم فاسيلي شويسكي، والانتفاضة الشعبية إبان حكمه، وظهور ديمتري الكاذب الثاني، وتدخل القياصرة الأجانب.

٣- القسطنطينية- (تسارغراد، الآن اسطنبول): سيطر عليها الأتراك في عام ١٤٥٣.

٤- بابيسي فيليتشكوفسكي- الحديث يدور عن بابيسي (عصر بطرس إيفانوفيتش فيلنشكوفسكي (١٧٢٢-١٧٩٤). وبابيسي هذا هو الذي بنى مدرسة الرهبان في جبل آثوس، وفي مولدافيا- المكان الذي وضع فيه وصايا الرهبان البيزنطيين، مترجم الأدبيات المقدسة المحلية «دوبروتولوبيا». وقد ساهم بابيسي مساهمة كبيرة في إعادة الحياة الرهبانية بعد عهد يكاتيرينا. اعترف به عام ١٩٨٨.

٥- ماذا يعني «شيوخ الرهبان» في أديرتنا [...] كوزيلسكايا أوبتينا- معهد الرهبنة تشكل تحت هذا الاسم في القرن الرابع مع ظهور الرهبنة كإدارة. وقد ارتبطت هذه الصفة «شيوخ الرهبان» بأفكار خدمة الأنبياء، وهي ممكنة فقط في حالة القدسية الذاتية.

اعتبر شيخ الرهبان كصلة وصل مباشرة مع إرادة الله. وقد طلب من التلاميذ الاستماع المطلق للمعلمين الكبار القادرين على امتلاك الحرية الروحية.

شيوخ الرهبان لم يقودوا التلاميذ فحسب، ولكن مختلف المراتب الدينية بالوعظ والنصح والحث على الصبر. إن انبعاث معاهد شيوخ الرهبان في روسيا ارتبط باسم بابيسي فيليتشكوفسكي. وقد اعتبر دوستويفسكي هذه المعاهد انجازاً عظيماً جداً للحياة الروحية للكنيسة.

كوزيلسكا أوبتينا- مركز رهبنة معروف في منطقة كوزيلسك مقاطعة كالوجسكايا، أسس حسب بعض المصادر في القرن الرابع عشر، وقد زار دوستويفسكي أوبتينا في يونيو / حزيران عام ١٨٧٨.

٦- بقايا الموتى- تشهد على قدسيتهم، وتعتبر المكان المفضل لأجيال المتدينين، إن أيقونة يفلنايا أظهرت العجائب وهي ليست من رسم الإنسان، وهي أيقونة صنعت المعجزات.

٧- هذه الكلمات تنهي الجزء الثاني للطقوس الكنائسية الأرثوذكسية التي تقام في النصف الأول من النهار.

٨- الحديث يدور عن الراهب مارفينين (١٨٠٧-١٨٧٨) مؤلف «أسطورة عن الرحالة والجوالة في روسيا ومولدافيا وتركيا والأرض المقدسة» - (انظر: كروسمان ل. ب. حلقة بحث عن دوستويفسكي: مواد، ببلوغرافيا وتعليقات. موسكو. ١٩٢٢).

٩- المقصود هي الأماكن المقدسة المرتبطة بأحداث مسيحية مبكرة مرتبطة بتاريخ الكنيسة ومآثر المسيح والملائكة المقدسة. مكان حج المؤمنين- القدس- «مدنية السلام»: ترى الكنيسة في القدس الدنيوية النموذج الأصيل للقدس السماوية.

١٠- رئيس البطاركة- هو بطرك القسطنطينية، والبطرك مرتبة روحية للشخصيات الدينية العليا، البطركية وجدت في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٧٠٠ (حُلّت من قبل بطرس الأول) وأعيد افتتاحها عام ١٩١٧-١٩١٨ من قبل الكنيسة المحلية.

١١- كل عمل يقصد منه الطاعة والخضوع.

١٢- إن سر الطفولة المقدسة المذكور في تعاليم الكنيسة عن السيد المسيح يجعل الإنسان يمتلك الروح المقدسة بشكل غير ملاحظ أو بشكل سري.

لقد تقبل شيخ الرهبان فعلياً الاعتراف والتوبة (وكقاعدة فإن لشيخ الرهبان مكانة ومرتبة دينية في الكنيسة الأرثوذكسية). ومع ذلك فإن الاعتراف السري اعتبر كاملاً إذا ما تمت فيه مراعاة شروط الطقوس المقدسة والنطق بالصلوات المناسبة. وعلى ما يبدو فإن دوستويفسكي كان يعني أن الاعتراف لشيخ الرهبان لم يكن يجري دائماً بشكل سري وخاص. إن الاعتراف الشعبي بشيخ الرهبان قد خلق

أشكالاً خاصة لتعامل الناس والرهبان معهم من خلال جو من الثقة المتبادلة. (انظر: الجزء الثاني من الأخوة كارامازوف- الاجتماع غير المناسب).

١٣- حين رغبت الدولة الوثنية الرومانية أن تصبح مسيحية... - لقد أصبحت المسيحية الديانة الحكومية للإمبراطورية الرومانية في بداية القرن الرابع عام ٣٢٥م، وقد دعا قسطنطين الأول كاتدرائية فسيلينسكي الأولى (نيكسيكي)، حيث وضع فيها شعار أو رمز العقيدة- وشكل اتحاد الكنيسة مع السلطة الحكومية المدنية، ودعيَ الإمبراطور ليكون رئيساً لكنيسة.

١٤- استيعاب العالم بأسرِهِ والدولة الوثنية في الكنيسة ذاتها- الفكرة هنا أن الحكومة «الدنيوية» يجب أن تتوجه إلى الكنيسة، وهذا ما عبر عنه دوستويفسكي مراراً على صفحات «يوميات الكاتب». إن عدم تقبله للكاثوليكية مرده إلى أن الكنيسة الكاثوليكية حسب رأيه- تلعب دوراً معاكساً من خلال تحويل الكنيسة على حكومة. إن وجهة النظر هذه أساسها النزعة الأرثوذكسية، وقد تحدث عنها بشكل خاص خيمياكوف أ. س. الكاتب والشاعر والصحفي والفيلسوف الديني الروسي (١٨٠٤- ١٨٦٠).

١٥- ويتناولوا القربان المقدس- حسب تعاليم الكنيسة: وقت القداس يمثل القربان المكون من الخبز والنبيذ جسد المسيح ودمه. (والخبز والنبيذ هنا هدية مقدسة).

١٦- أما في روما ففي موضوع الكنيسة توجت الدولة منذ ألف عام- مقاطعة البابا (عاصمتها روما) ظهرت عام ٧٥٦ م كحكومة تيوقراطية واستمرت على هذا النحو حتى عام ١٨٧٠.

١٧- يوشك أن يظهر ويعبر الباب- في هذه الحالة ترد في حديث الأب زوسيما نماذج إنجيلية تتنبأ بالظهور الثاني لعيسى المسيح.

١٨-... ولكن بسبب إيمان الناس أنهم خالدون- لقد نطق دوستويفسكي بمثل هذا الحكم أكثر من مرة، عندما كان يفكر بطبيعة الانتحار كتب يقول: «أنا أعلن (ودون إثبات حتى الآن) أن الحب الإنساني غير مفهوم وليس له معنى وغير ممكن دون الاعتقاد المشترك بديمومة الروح الإنسانية. دع حكماءنا يتكاتفون. فهذه الحقيقة أكثر حكمة من حكمتهم، وأنا أعتقد جازماً بأنها ستصبح في يوم من الأيام بدهية عند الإنسانية كلها»، (دفتر عمل الكاتب- ١٧٧٦-١٧٧٧).

١٩- عاش... عجوز آثم- المقصود هنا فوليتير، والاسم الحقيقي له ماري فرانيوا آروي (١٦٩٤-١٧٧٨)، وهو كاتب وفيلسوف تنويري فرنسي من أنصار النظرية الديسميّة.

٢٠- ... الفضاء ثلاثي الأبعاد- عاش إقليدس في القرن الثالث قبل الميلاد وهو رياضي إغريقي قديم، عمله الأساسي «البداية (١٥ جزءاً)» ويتضمن أسس الرياضيات القديمة ومن ضمنها الهندسة الأوليّة، إن ظهور الهندسة الإقليدية مرتبط بشكل واضح بالتصورات القديمة للعالم المحيط بالإنسان.

٢١- ومع ذلك وجد ويوجد فلاسفة وعلماء هندسة رائعون يشكون... - الحديث يدور هنا عن الهندسة غير الإقليدية للعالم لوباتشيفسكي الموضوعة عام ١٨٢٦- لوباتشيفسكي ن. ي- (١٧٩٢-١٨٥٦) هو رياضي روسي، وقد كان دوستويفسكي على اطلاع على أسس الهندسة غير الإقليدية، وقد حاول في «دفتر عمل الكاتب عام ١٨٨١» أن يوضح فلسفياً بعض أقسامها ومبادئها.

٢٢- أؤمن (بالكلمة)، التي يسعها إليها الكون، والتي «هي الله» - إنجيل يوحنا الإصحاح الأول: «في البداية كانت الكلمة، .. والكلمة هي الله».

٢٣- يوحنا الرحيم- (توفي عام ٦٢٠م)، وهو بطريرك الإسكندرية، والحادثة التي رواها إيفان كارامازوف عن الأبرص موجودة في «أسطورة القديس يوحنا» للكاتب فلوبيرغ. (ترجمة ي. س. تورغينيف: «الأسطورة الكاثوليكية عن يوحنا الرحيم» عام ١٨٧٧).

٢٤- أصبحوا شبيهين بالله- المقصود هنا المقولة الموجودة في الإنجيل عن الخطيئة الأولى لآدم وحواء.

٢٥- الأتراك والشركس... - الحديث يدور هنا عن أحداث حركة التحرر الوطني البلغاري عام ١٨٧٥-١٨٧٦.

٢٦- كما قال بولونيوس في «هاملت» - المقصود مأساة شكسبير «هاملت» (١٦٠١).

٢٧- كان كالابن الضال في الإنجيل... - مقبوس من الإنجيل جاء فيه: «لقد كان سعيداً لو يملأ بطنه بالكتل العجينية التي تمنح للخنازير، لكن أحداً لم يقدم له شيئاً، (إنجيل لوقا، الإصحاح ١٥).

٢٨- «أنت أخونا، وقد نزلت عليك نعمة الرب» - نعمة الرب: المقصود، وحسب التعاليم المسيحية، المنحة الإلهية للإنسان.

٢٩- «على عينيه الوديعتين» - الحديث هنا عن قصيدة نيكراسوف (١٨٢١-١٨٧٧) (ما قبل الغروب)، من مجموعة: (عن الطقس: انطباعات متجول).

٣٠- إن تفاصيل الحادثة مدونة لدي- الحديث يدور عن واقعة قضائية حقيقية لـ كرونيبيرغ س. ل. وقد دونها دوستويفسكي في يوميات الكاتب عام ١٨٧٦.

٣١- المقصود هنا- واقعة قضائية حقيقية للزوجين (برونست): (انظر: رسالة دوستويفسكي إلى لوبيموف ن. أ. أيار عام ١٨٧٩- المؤلفات الكاملة- الجزء ٣٠، الكتاب الأول).

٣٢- «في الأرشيف الماضي» - مجلد أدبي تاريخي أصبح مجلة شهرية فيما بعد «الأرشيف الروسي ١٨٦٣-١٩١٧، ومجلة روسكايا ستارينا ١٨٧٠-١٩١٨». الحديث يدور عن صبي قتلته الكلاب.

٣٣- الحديث يدور عن الإمبراطور الكسندر الثاني- المحرّر (١٨١٨-١٨٨١)، وقد أطلق عليه لقب المحرّر لأنه ألغى نظام الرق. في ١٩ فبراير / شباط سنة ١٨٦١.

٣٤- المقصود مرتبة رهبانية تمنح لأكثر الرهبان زهداً، وقد استخدمت الكلمة مجازاً.

٣٥- المقصود الشخص الذي يقبع في الدير ويتعهد بالالتزام بكل التعليمات لأنه يُعَدّ ليصبح رهباً.

٣٦- هنا يتوجه إيفان كارامازوف بالخطاب إلى رسالة بيلنسكي المشهورة، وكان بيلنسكي قد أثر على وجهات نظر دوستويفسكي الفلسفية الدينية في مرحلة شبابه، ثم عاد ورفضها فيما بعد. على الرغم من أن دوستويفسكي كان في آخر أيامه يقترب من أفكار بيلنسكي بحماس إنساني.

إن قوة حجج بيلنسكي ومنطقيّته الملحدة التي أسقطت فكرة الله انعكست كثيراً على الحوار الداخلي لإيفان كارامازوف الذي لا ينفي وجود الله، «[...] ما الجدوى من قناعتي بأن العقلانية ستنتصر، وأن المستقبل سيكون جيداً إذا كان قدري أن أكون شاهداً على فوز اللا عقلانية والفوضى والغريزة الحيوانية»؟

- هذا ما كتبه بيلينسكي في آذار ١٨٤٠ لصديقه الكاتب ف. ب. بوتكين (بيلينسكي ف. د. المؤلفات الكاملة، الجزء ١٢، ١٩٥٣-١٩٥٩).

إن بيلنيسكي وبطل دوستويفسكي تقبلا الله نظرياً ورفضا ربط ذلك بالثواب وكذلك رفضا التناسق الكوني النهائي... لاعتبارات أخلاقية، وهذا هو جوهر إلحادهما.

٣٧- لكنهم أرادوا الحرية وسرقوا النار من السماء- هنا وحد الكاتب حجج الإنجيل حول الخطيئة الأولى لآدم وحواء، ودمجها مع الأسطورة القديمة حول سرقة بروميثيوس النارَ وإعطائها البشرَ.

٣٨- وكيف يقوم المذبوح من الموت ويعانق قاتله-هذه النبوءة موجودة في العهد القديم، والحديث يدور عن العالم الذي يتشكل بعد الظهور الثاني للمسيح.

٣٩- من رؤيا القديس يوحنا.

٤٠- إن فصل «المفتش الكبير» يقع في الجزء الخامس من الرواية. وقد كتب دوستويفسكي عن هذا الفصل يقول: «[...] إن هذا الفصل من الرواية يشكل ذروة العمل وقد أسميته (pro u contra)، أما فكرته فتتلخص في: التجديف على الدين والله وفي نقض هذا التجديف إن الدحض الفلسفي والعلمي لوجود الله أمر مرفوض [...] لكن بالمقابل هناك نفي ودحض للعالم الذي أوجده الرب، ولفكرته عن ذلك» (رسالة دوستويفسكي إلى ن. ن. يوبيدونوسيف. ١٨٧٩ (الأعمال الكاملة الجزء ٣٠- الكتاب الأول١).

٤١- أنا هنا لا أتحدث عن دانتي- أليغير دانتي (١٢٦٥-١٣٢١)، شاعر إيطالي، مؤسس اللغة الإيطالية الأدبية. قمة إبداعاته الأدبية «الكوميديا الإلهية» (١٣٠٧-١٣٢١).

٤٢- يقدمون على المسرح أعمالاً تجسد العذراء والملائكة والقديسين- العذراء هي مريم العذراء، أم الرب، الأم الأرضية ليسوع المسيح.

الملائكة- أجسام نورانية، لا كثافة لأجسامها، وجدت لخدمة الرب، وتقوم بالدفاع عنه ومحاربة أعدائه، وتنقل رسالته إلى الناس.

٤٣- في رواية «Notre Dame de paris» لفيكتور هوغو- الحديث يدور عن رواية الكاتب الفرنسي ف. م. هوغو (١٨٠٢-١٨٨٥) «كنيسة أم الرب الباريسية» ١٨٣١».

٤٤- من العهد القديم-جزء من الكتاب المقدس، مقدس من قبل اليهود والمسيحيين.

٤٥- «درب آلام أم الرب» - واحدة من أشهر الأعمال المترجمة إلى الروسية في العهود القديمة (القرنين الثاني عشر والثالث عشر).

٤٦- كبير الملائكة ميخائيل- ملاك سماوي يقود ملائكة الرب والناس في حربهم ضد الكفرة، نقيض الشيطان.

٤٧- الشهيد هنا- هو الذي يموت دفاعاً عن يسوع وعن إيمانه به.

٤٨- من الجمعة الحزينة حتى عيد الخمسين- الجمعة العظيمة: الجمعة الحزينة أو المؤلمة (الأسبوع قبل عيد الفصح، يوم صلب السيد المسيح. عيد الخمسين: بعد عيد الفصح بخمسين يوماً، يُعَيد المسيحيون لأنه بناءً على ما ورد في الإنجيل تنزل الروح القدس في هذا اليوم وتظهر للحواريين.

٤٩- الحديث يدور عن ظهور السيد المسيح من جديد، ولكن ليس في القوت المحدد، بمعنى ليس بالشكل الذي بشر به الإنجيل. وكل القصة هنا مبنية على تضمين خفي أو اقتباس غير مباشر من الإنجيل.

٥٠- صدق ما يقوله قلبك- اقتباس من قصيدة للشاعر ي. ف. شيلر (١٧٥٩-١٨٠٥) عنوانها (أمنية) - ١٨٠١.

٥١- في تلك الأيام شاعت في ألمانيا هرطقة خطيرة- يقصد هنا حركة الإصلاح الدينية- حركة اجتماعية ضخمة حدثت في غرب أوربا ووسطها في القرن السادس عشر وقد بدأت في ألمانيا ضد الكنيسة الكاثوليكية.

٥٢- «يا ربنا تكرم بالظهور إلينا» - صلاة كنسيّة تردد في الكنيسة صباحاً. وتقدس الظهورين الأول والثاني ليسوع المسيح.

٥٣- هذه السير = نوع من الأدب الكنسي الذي يصف حياة وانجازات القديسين.

٥٤- مقبوس من شعر ف. ي. تيوتشف (١٨٠٣-١٨٧٣).

«هذه القرى البائسة» (١٨٥٥).

٥٥- تجري في أسبانيا... عهود التفتيش المرعبة- محاكم التفتيش مؤسسات بوليسية قضائية ظهرت في الكنيسة الكاثوليكية في القرنين (الثالث عشر- التاسع عشر)، وكان الغرض منها التصدي للهراطقة وامتازت بوحشيتها وقسوتها...

٥٦- اقتباس غير دقيق من قصيدة للشاعر آ. ي. بوليجايف (١٨٠٤-١٨٣٨) عنوانها (كوريولان) - (١٨٣٤).

٥٧- لم يكن ذلك الظهور هو الظهور الموعود.. إلى مغربها- الحديث يدور عن الظهور الثاني ليسوع المسيح ويتم اقتباس قول الإنجيل: «كبرق يسطع من مشرق الأرض ويكون مرئياً في مغربها، كذلك سيكون ظهور ابن الإنسان» (إنجيل متى، الإصحاح ٢٤).

٥٨- تتعالى مواقد الهراطقة- الهراطقة حركة دينية انحرفت عن خط الكنيسة الرسمي في كافة توجهاتها- وقد كانت إحدى أشكال العقوبة المطبقة على أتباع هذه الحركة الحرق في مواقد خاصة.

٥٩- تمجيداً للرب أو لأجل مجد الرب- هو شعار جمعية اليسوعيين التي أسسها في ١٥٣٤ الإسباني إغناطيوس ليولا (١٤٩١-١٥٥٦)، وقد جاء في دفتر ملاحظات دوستويفسكي لعام (١٨٨٠-١٨٨١) ما يلي:

«المفتش، بلغ من انعدام الأخلاق، أن ضميره الساكن في قلبه سول له أن ينمي في أعماقه فكرة ضرورة إحراق البشر [...]»

٦٠- «أريد أن أجعل منكم أحراراً» - (من إنجيل يوحنا الإصحاح ٨): «اعرفوا الحقيقة، والحقيقة تجعل منكم أحراراً».

٦١- لقد منحتنا الحق أن نربط ونحل- المقصود هنا كلمة المسيح الموجهة إلى بطرس: «.. [...] سأعطيك مفاتيح مملكة السماء، وما تربطه في مملكة الأرض سيربط في السماء، وما تحله على الأرض، سيحل في السماء» (إنجيل متى، الإصحاح ١٦). وفي الكنيسة الكاثوليكية يعتبر الباب ممثلاً للحواري بطرس.

٦٢- «من ذا الذي يعدل هذا الوحش، وقد وهبنا النار من المساء» - رؤيا القديس يوحنا الإصحاح ١٣: «[...] قالوا وهم ينحنون للوحش: من يعدل هذا الوحش، ومن ذا الذي يقارن بهِ؟... ثم رأيت وحشاً آخر يخرج من الأرض[...]...»

٦٣- برج بابل الرهيب- من حديث إنجيلي عن برج بابل. وهنا يقصد ببرج بابل رمز الكبرياء البشري والإرادة.

٦٤- وفي موضع القانون القديم... - قام العهد القديم بتنظيم حياة اليهود في القدم بشكل قاسٍ. أما العهد الجديد فيقوم قبل كل شيء على المحبة الحرة في الرب والإرادة الخالصة!

٦٥- «انزل عن الصليب كي نصدق أنك أنت» - (إنجيل مرقص، الإصحاح ١٥):

«صرخ العابرون به ساخرين [...] أنقذ نفسك إذاً وانزل عن الصليب».

٦٦- لقد قال رسولك الكبير- رؤيا القديس يوحنا.

٦٧- نحن منذ زمن طويل لسنا معك... منذ سبعة قرون- إن قبول البابا السلطة الدنيوية (بتأسيس دولة البابا في ٧٥٦م) - وفق وجهة نظر دوستويفسكي- هو قبول الإغواء الثالث الذي قدمه الشيطان (وهو السلطة)، وهذا ما كان يسوع المسيح قد رفضه رافضاً بذلك أن يخضع وينحني للشيطان.

٦٨- الغزاة الكبار من أمثال تيمورلنك وجنكيزخان... - تيمورلنك قائد من آسيا الوسطى (١٣٣٦-١٤٠٦) غزا إيران ومنغوليا والهند وآسيا الصغرى والصين وغيرها.

جنكنير خان (حوالي ١١٥٥-١٢٢٧) مؤسس الإمبراطورية المنغولية وقد وصل بجيوشه إلى القفقاز وجنوب روسيا.

٦٩- أكلة لحوم البشر.

٧٠- سنعتلي الوحش ونرفع كأساً نقشت عليه كلمة: «السر» - إن الفكرة مأخوذة من رؤيا القديس يوحنا (الفصل ١٧): «... أنا رأيت امرأة تجلس على الوحش القرمزي [...] وعلى جبينها مكتوب اسم: السر، بابل العظيمة، أم اللقطاء والسفلة الأرضيين».

٧١- يخطر لي أن لدى الماسونية حتى شكل من أشكال هذا السر- الماسونية منظمة سرية تكونت في القرن الثامن عشر في بريطانيا، وانتشرت بعد ذلك في جميع البلاد وقد سعى أعضاء هذه المنظمة إلى تأسيس دين جديد يستطيعون من خلاله السيطرة على العالم. يمتاز عمل هذه المنظمة بالسرية التامة سواء في نشاطها الخارجي أو بنائها الهرمي وعلاقة أفرادها ببعضهم.

٧٢- يجب أن يظل القطيع واحداً والراعي واحداً- يستخدم دوستويفسكي هنا أسلوب الإنجيل: المسيح- «راع»، يحرص على وحدة

«قطيعه» في الكنيسة. لكن هذه العبارة هنا تحمل معنى مختلفاً. إن الخلاف والاقتتال بين الكنيسة الكاثوليكية والماسونية يفصم عرى وحدتهما في المسيح الضد، الذي- وفق رأي دوستويفسكي- ينتميان إليه.

٧٣- «الشوارع المعتمة المقفرة في المدينة» - اقتباس محرف من قصيدة ألكسندر بوشكين «ذكريات - ١٨٢٨».

٧٤- مقتطفات من حياة الكاهن الراهب الشيخ زوسيما- في شهر حزيران (يونيه) عام ١٨٧٨ زار دوستويفسكي كوزلسكايا أوبتينا، منسك أوبتينا حيث تحدث على شيخ الرهبان أمفروسي (١٨١٢-١٨٩١)، الذي يعتبر أحد النماذج التي استخدمها دوستويفسكي في رسم شخصية الشيخ زوسيما، بالإضافة إلى كثير من الملامح التي أخذها الكاتب من شخصيات روحية محيطة به من أمثال: تيخون زادونسكي وزاخاري تابولسكي (١٧٦٧-١٨٣٥) وغيرهما. على شفاه الأب زوسيما سيضع دوستويفسكي الحجج التي تفند رفض إيفان كارامازوف لـ «عالم الرب» البغيض، لكن في كلام الشيخ وجدت ظلال واضحة لأفكار دوستويفسكي الدينية الفلسفية التي تميزه شخصياً وتختلف مع علم اللاهوت. لقد كتب ليونتف ك. ن. (١٨٣١-١٨٩١) - الكاتب والفيلسوف والناشر الروسي، وهو أحد تلاميذ الشيخ أمفروسي-: «... قبل كل شيء نجد عند الأب أمفروسي صوفية كنسية، ثم بعد ذلك تأتي الأخلاق التطبيقية. بينما الأمر عند الأب زوسيما (وقد عبر فيودر ميخائيليوفيتش بلسانه عن ذلك) أولاً نجد الأخلاق، «الحب»، «الحب» وما شابه، أما التصوف فهو غائب كثيراً أو ضعيف» (رسالة إلى ف. ف. روزانوف) «روسكي فيستنك ١٩٠٣/ رقم ٤-٥».

٧٥- وحدثته كيف اقترب درب من قديس عظيم... - إشارة إلى مشهد من سيرة سيرغي رادونيجسكي (١٣١٤-١٣٩٢). شخصية دينية سياسية كبيرة.

ساعد على تثبيت أمراء موسكو وسلطتهم وحسن مكانة موسكو. وهو مؤسس دير الثالوث الأقدس في زاغورسك من ضواحي موسكو.

٧٦- راهب أرثوذكسي.

٧٧- «لقد اعتزلت لتنقذ نفسك ونسيت خدمة الإنسانية» - في دفتر عمل الكاتب (١٨٨٠-١٨٨١): «لم ينأَ الراهب عن العالم نفوراً وكراهية، ولكن لأجل الوصول على الكمال الأخلاقي [...].

٧٨- «ألا فليعلن غضبهم، لأن الغضب قاس» - الكلام من وصية يعقوب الذي يدين تصرف ولديه شمعون ولاوي حين انتقما بعنف شديد وغير مبرر من المدينة كلها دفاعاً عن شرف أختهما. «ملعون غضبهما، فهو شديد، وسخطهما فهو قاسٍ» (سفر التكوين، الإصحاح ٤٩).

٧٩- يتطلع مشوقاً إلى خدمة الناس جميعاً- (إنجيل مرقص، الإصحاح ٩): «... لقد تحدث إلى بعضهم وهم في الطريق... [...] ثم دعى الاثني عشر وقال لهم: من أراد أن يكون الأول، فليتخلف عن الجميع وليخدم الجميع».

٨٠- «إن الحجر الذي رفضه البناؤون أصبح حجر الزاوية» - (الإنجيل كتاب الصلوات ١١٧): «الحجر الذي رفضه البناؤون أصبح حجر الزاوية»، هذه العبارة في الموروث المسيحي ينظر إليها كنبوءة عن يسوع المسيح، الذي سترفضه إسرائيل، وترى فيه المسيح المنتظر.

٨١- ومن يشهر السيف بالسف يقتل- يشهر بطرس سيفه في الحديقة محاولاً الدفاع عن المسيح (إنجيل متى، الإصحاح ٢٦) «عندها يقول له يسوع: أعد السيف إلى موضعه، فكل من يرفع السيف بالسيف يقتل».

٨٢- هذا ما سيكون إذا لم يتحقق وعد المسيح... - (إنجيل متى، الإصحاح ٢٤): «ولو لم تتوقف تلك أيام، لما سلم إنسان واحد، ولكن لأجل المساكين والمختارين توقفت تلك الأيام».

٨٣-... ماتت النبتة فيك- الحديث حول كلمة السيد المسيح عن البذار الذي يتساقط في مواقع شتى، فلا تعيش إلا البذرة التي تسقط في أرض طيبة وتعطي أضعاف قيمتها. ومعنى الكلام الذي يقوله يسوع لتلاميذه: إن من يستمع إلى كلمات الرب ويفهمها، هو كالأرض الطيبة التي تثمر فيها البذرة. إنجيل متّى الإصحاح ١٣.

٨٤- تذكر بخاصة: أنه ليس بإمكانك أن تكون قاضياً على أمثالك- (إنجيل متى، الإصحاح ٧): «لا تحكم على غيرك، كي لا تصبح محكوماً، لأنك بمثل ما تدين غيرك ستدان، وبالمكيال الذي ستكيل به لغيرك، سيكال لك».

٨٥- لا يقبل الجنس البشري الأنبياء ويقتلهم- (إنجيل متى الإصحاح ٢٣): «[...] أنا أرسل إليكم الأنبياء [...] وأنتم تضربونهم وتصلبونهم، وستضربون غيرهم وتطردونهم من بلد إلى بلد».

٨٦-.. أفكر: «ما الجحيم؟».. - إن هذا التفكير يرتفع إلى «كلام النساك» لإسحاق سيرين وغيره (القرن السادس). (انظر: كلام النساك. الطبعة الثالثة، سيرغي بوساد ١٩١١).

٨٧- إن هذا المخلوق يرى وهو يغادر الأرض إبراهيم ويحاوره، كما جاء في أمثولة الغني ولازار- (انظر إنجيل لوقا، الإصحاح ١٦/١٩-٢٦).

٨٨-... العذاب والألم لمن أنهوا حياتهم بأنفسهم العذاب للمنتحرين: إن الانتحار وفقاً لمعتقدات الكنيسة المسيحية يعتبر من أكبر الذنوب، حتى أن الكنيسة تضع المنتحر في مستوى الوثني أو الهرطيق ولا يدفن وفق طقوس دفن غيره من أبناء الدين المسيحي.

هوامش الباب الثاني
من
«يوميات الكاتب»

١٨٧٣ المستون:

طبع هذا المقال للمرة الأولى في مجلة «غراجدانين- المواطن» عام ١٨٧٣، العدد: ١. موضوعاته الرئيسية انبثقت خلال العمل على رواية «الشياطين» (١٨٧٠-١٨٧٢).

يرسم دوستويفسكي في هذا الجزء بورتريه لشخصيتّينْ أساسيتين من شخصيّات المرحلة: ف. غ. بيلينسكي و آ. ي. غيرتسين، وقد أثرت هاتان الشخصيّتان تأثيراً كبيراً على كل المعاصرين لهما بمن فيهم دوستويفسكي.

١- إنترناتسيونالكا- انتشر في مطبوعات تلك الحقبة في روسيا هذا الاسم الذي يعني أخوة العمال العالمية. إن أول (إنترناتسيونالكا) أسست من قبل كارل ماركس وفريدريك إنجلز في ١٨٦٤. أما ما يدور عنه الحديث هنا فلا يقصد به أول (إنترناتسيونالكا)، بل «اتحاد الديمقراطية الاشتراكية». الذي أسسه واحد من أهم مؤسسي ومنظري «المفوضويّة» و «النارودنيتشيستفو» (وهما حركتان سياسيتان اجتماعيتان بين مثقفي روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر).

ويدعى م. آ. باكونين (١٨١٤-١٨٧٦)، وقد انهار هذا الاتحاد بعد فصل باكونين من «الانترناتسيونالكا» بقليل ١٨٧٢.

٢- غيرتسين آ. ي (١٨١٢-١٨٧٠) - ثوري روسي ديمقراطي، وهو كاتب وفيلسوف وناشر.

٣- رينان. ج. ي (١٨٢٣-١٨٩٢) - مؤرخ وفيلسوف فرنسي- المقصود هنا كتابه «حياة يسوع» ١٨٦٣. الذي حاول فيه أن يعيد كتابة وتأسيس حياة يسوع، انطلاقاً من إعادة صياغة انتقادية للإنجيل، تفصل عن حياة يسوع كل الظواهر الميتافيزيائية. وفي الفصل الختامي يكتب رينان: «بين كل أبناء الإنسانية، ما ولد قط إنسان أعظم من يسوع».

٤- ج. زاند (ساند) (١٨٠٤-١٨٧٦) - زوج الكاتبة الفرنسية أفرورا ديوديغان.

٥- كابيت- يتين كابي (١٧٨٨-١٨٥٦) - ناشر فرنسي وكاتب، من منظري الشيوعية الطوباوية.

٦- ليرو بيير (١٧٩٧-١٨٧١) - فيلسوف فرنسي اشتراكي طوباوي، واحد من مؤسسي الاشتراكية المسيحية (تيار يحاول أن يكسو المسيحية صبغة اشتراكية).

٧- برودون بيير جوزيف (١٨٠٩-١٨٦٥) - ناشر وعالم اجتماع فرنسي بورجوازي صغير، منظر للفوضوية.

٨- فورييه شارل (١٧٧٢-١٨٣٧) - اشتراكي فرنسي طوباوي.

٩- فيرباخ لودفيغ (١٨٠٤-١٨٧٢) - فيلسوف ألماني مادي.

١٠- درس أكثر من لغة أجنبية... - درس بيلينسكي في الجامعة اللغات: الإنكليزية والألمانية والفرنسية. في الثلاثينيات نشر مجايلوه ورفاقه أعمالهم المترجمة في مجلتي «تيلسكوب» و «مولفا».

١١-شتراوس دافيد فريدريك (١٨٠٨-١٨٧٤) - لاهوتي ومؤرخ نمساوي فيلسوف وناشر. في كتابه «حياة يسوع» (١٨٣٥-١٨٣٦)، درس يسوع كشخصية تاريخية.

١٢- لكان قد التحق نصيراً بسيدة ألمانية مثل مدام غيوغ- تكرار لعبارة من رسالة إلى آ. ن مايكوف، في ديسمبر / كانون الأول ١٨٦٨: (انظر: الأعمال الكاملة الجزء ٢٨، الكتاب ٢). والمدام غيوغ- مؤسسة بانسيون نسائي، زوجة نمساوي جمهوري.

١٣- عند كنيسة زنامينسكي- كنيسة أم الرب المقدسة، الواقعة في ساحة زنامينسكي، مقابل محطة موسكو للقطارات.

١٤- محطة نيكولايفسكي للسكة الحديديّة- (محطة نيكولايفسكي، سميّت بعد ١٩٢٣، محطة أكتوبر) وقد ربطت هذه المحطة بطرسبورغ بموسكو، وكانت قد بنيت بين عامي (١٨٤٣-١٨٥١).

الوسط:

طبعت هذه المقالة لأول مرة في مجلة «غراجدانين- المواطن» عام ١٨٧٣، العدد ٢.

لقد أولى دوستويفسكي اهتماماً كبيراً لمسألة تأثير الوسط الاجتماعي على تطور ونمو الذات وقد حبَّر صفحات كثيرة حول هذا الموضوع في «مذكرات الكاتب» إن دوستويفسكي ككاتب واقعي لم يستطع إلا أن يعترف بتأثير الظروف الاجتماعية على الإنسان، وكان أحد أشد الذين عالجوا الرذائل الناتجة عن المجتمع الرأسمالي في هذا السياق. لكنه افترض دائماً أن صيغة «الوسط المضطهد» أو «البيئة الفاسدة» أو ما شابه ستقود حتماً إلى نفي مسؤولية الذات الأخلاقية عن أخطائها.

لقد أولى الكاتب اهتماماً كبيراً للقضاء الروسي ولا سيما بعد الإصلاحات (١٨٦٢-١٨٦٤) وقد اعتقد أن صيغة «الوسط» تخلق تأثيرات مفسدة أو مخلة على المحلفين: إن الاعتراف بفكرة «الوسط» يضيع الحدود بين المذنب والبريء، ويشوه فكرة أو مفهوم «الجريمة»، كما يؤثر سلباً

على فكرة الرحمة المسيحية أو المغفرة. وقد تعاظم اهتمام دوستويفسكي بالقضاء الروسي وأنشطته في أعوام السبعينيات.

١- لقد كنت في النفي والأشغال الشاقة- عام ١٨٤٩ اعتقل دوستويفسكي في قضية البيتراشيفسكيين، وحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص. ثم استبدل الحكم بالأشغال الشاقة.

فلاس:

نشر هذا المقال لأول مرة في مجلة «غراجدانين» عام ١٨٧٣، العدد ٤.

١- هل تذكرون فلاس- كان دوستويفسكي معجباً كثيراً بقصيدة «فلاس» للشاعر الروسي ن. ا. نيكراسوف، وقد استخدم أنموذجه هذا وفكرته في عمله الفني.

٢- لقد أدهشكم... - إن جملة مشابهة تماماً ترد في رواية الكاتب «الشياطين».

٣- المقصود واحد من سبعة أسرار مسيحية. إن هذا القربان يفترض وحدة كاملة في يسوع المسيح، من خلال أخذ هذا القربان، واحتواء المسيح جسداً ودماً في جسد من يأكل قطعة الخبز ويشرب جرعة النبيذ.

٤-وعليه يظهر المصلوب- أمام البطل تظهر صورة المسيح، مصلوباً على الصليب.

٥- إلى مفستوفيليس... - مفستوفيليس نموذج روح الشر/ الشيطان/ في فلكلور وإبداعات الشعوب الأوربية، يمكن العودة إلى «فاوست» لغوتيه وغيرها من الأعمال!

٦- ديوباري ماري جانا (١٧٤٣-١٧٩٣) - دوقة فرنسية أعدمت بالمقصلة بأمر من اللجنة الثورية.

٧- المقصود هنا كاتب الدراما الروسي المعروف أوستروفسكي أ. ن. (١٨٢٣-١٨٨٦) إن بطل كوميديا «لا تعش هكذا، كما ترغب» يرميك

الحـــداد يعتـــبر نموذجـــاً متقـــدماً علـــى «مفـــستوفيليس الريفـــي» لدوستويفسكي.

٨- ١٩/شـباط/١٨٦١- تـاريخ إعـلان المرسـوم القيـصري بإلغـاء حقـوق القنانة، أو قانون القنانة.

٩-... مثـل «زغاليـل عـش بـتروف» - «زغاليـل عـش بـيتروف»: عبـارة مـن قـصيدة ألكسندر بوشـكين «بولتافـا» عـام ١٨٢٨. والمقـصود حـال النـبلاء الروس، بعد إصلاحات بطرس الأول.

واحدة من الأكاذيب الحديثة:

لقـد ظهـرت هـذه المقالـة للمـرة الأولى في مجلـة «غراجـدانين» عـام ١٨٧٣، العدد ٥٠.

حظيـت مـسألة أو موضـوعة الجيـل الـشاب الروسـي باهتمـام كبير عـام ١٨٧٣ مـن قبـل الـصحافة الروسـية ولاسـيما بعـد وأثنـاء أحـداث محاكمـة مجموعـة س. غ. نبتـشايف، وظهـور روايـة «الـشياطين»، وظهـور مقالـة ي. ك. غيجيتسكي «النادم»، أحد المشاركين في حركة الطلاب في الستينيات.

١- هنا يتوجه دوستويفسكي إلى مختلف المواد المنشورة ذات الاتجاهـات المختلفـة حـول الموضـوع نفسه في مختلـف الـصحف الليبراليـة أو المحافظـة أو الديمقراطية وغيرها.

٢- نيتـــشايف س. غ. (١٨٤٧-١٨٨٢)، مـــشارك في الحركـــة الثوريـــة، ومؤسـس مجموعـة سـرّية سميـت «الانتقـام الـشعبي» أو «التنكيـل الـشعبي»، ومؤلف «تعليمُ الثوري»، استخدم خلال نشاطه وسـائل التـضليل والاسـتفزاز، وقد قوّمت ظاهرة وجماعة نيتشايف في الانترناسيونال الأول.

٣-... يقول واحد من أتباع نيتشايف (فرضـاً) لـدي في روايـة «الـشياطين» - هذه الكلمات تعود إلى ل. فيرخوفنسكي، أحد زعماء النيتشايفيين.

٤- المقصود هنا البيتراشيفسكيين.

٥- الحديث يدور هنا عن الثورة البرجوازية الديمقراطية في فرنسا عام ١٨٤٨.

٦- ميل جون ستيوارت (١٨٠٦-١٨٧٣) - فيلسوف وضعي، منطقي، اقتصادي قائد اجتماعي.

٧- داروين تشارلز روبيرت (١٨٠٩-١٨٨٢) عالم طبيعي، واضع نظرية التطور المعروفة للعالم العضوي.

٨- كارامزين ن. م. (١٧٦٦-١٨٢٦) مؤرخ روسي وكاتب، مؤسس وواضع العاطفيّة (الحساسيّة) الروسية. أهم أعماله «تاريخ الحكومة الروسية» (١٨١٦-١٨٢٩).

١٨٧٦

إن «يوميات الكاتب» الصادر في آذار ١٨٧٦ وما بعد يختلف مبدئياً عن ذلك الصادر في ١٨٧٣. ففيه نجد حديثاً عن أهم الحوادث العالّمية المرافقة والقضايا المختلفة والمحاكمات الكبيرة، نجد تحليلاً لظواهر اجتماعية متفرّقة كثيرة، فيه أيضاً مقالات تتناول موضوعات أخلاقيّة- منطقيّة، ويولي الكتابُ أيضاً اهتماماً كبيراً لمسألة الإيمان والإلحاد.

في «يوميات الكاتب» نجد أيضاً بعض النصوص الأدبيّة الراقية.

طفل عند شجرة عيد الميلاد في حضرة يسوع:

إن أحد مصادر هذه القصّة قصيدة عيد ميلاد كتبها الشاعر الألماني ف. ريوكيرت (١٧٨٨-١٨٦٦) بعنوان «شجرة عيد ميلاد الأيتام»

١- هذه البيوت كانت تبنى للأطفال اللقطاء أو الذين يرميهم أهلهم.

٢- مجاعة حدثت في قضاء سمارا بسبب المَحْل ١٨٧١-١٨٧٣.

تحضير الأرواح. شيء ما عن الشياطين خبث الشياطين الشديد، فيما لو كانت المسألةُ مسألة الشياطين فحسب

١- هناك موضوعٌ مرحٌ فعلاً وهو اليوم يندرجُ ضمن «الموضة» السائدة... الحديث يدور هنا حول موضوع (تحضير الأرواح)، المرتبط باتجاه صوفي يؤمن بإمكانية إقامة اتصال مع أرواح الموتى بواسطة بعض الشخصيّات التي تمتلك موهبة خاصة أو «قدرة» على ذلك، وهي قادرة أيضاً على تحريك بعض الأشياء المادية بفعل طاقةٍ ما إبّانَ الجلسة الخاصة بالتحضير. لقد بدأ موضوع تحضير الأرواح في القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة الأمريكية وانتشر في روسيا مطلع السبعينيّات من القرن نفسه.

إن مداخلة الوسيط بريديف في الجلسة الخاصة في بطرسبورغ التي تمت شهر أيار من عام ١٨٧٥ أثارت مُجادلة عنيفة لن تتوقف لفترةٍ طويلة.

وفي جلسة المجموعة الفيزيائية لجامعة بطرسبورغ التي شهر أيار من عام ١٨٧٥ أعلن العالم مينديلييف أن من الضروري التحقق العلمي، وإخضاع الظواهر التي يقوم بها الوسطاء للبحث العلمي بهدف كشفِ ظاهرة تحضير الأرواح وتقريبها، أما دوستويفسكي فمن منطلق التعامل مع هذه «الموضة» الشاغلة للناس كتبَ في كانون الأول ١٨٧٥ إلى ن. ب فاغنر (١٨٢٩-١٩٠٧) - الكاتب والباحث في علم الحيوان، وأحد أنصار تحضير الأرواح - قائلاً: [...] أنا وبشكلٍ قاطع لا أستطيع أن أتعامل مع فكرة تحضير الأرواح بدمٍ «بارد» [الأعمال الكاملة. الجزء ٢٩ الكتاب٢].

٢-... أنّ شاباً يجلس على كرسيٍ في غرفة ما في بطرسبورغ... ثم يبدأ الكرسي بالقفز في أرجاء الغرفة - الحديث يتناول قصة حقيقية وصفها س. سولوفيف في رسالته إلى دوستويفسكي. المؤرخة بتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٨٧٦.

٣- حتى في كوخ العم إيدي- الأخوة غواراتسيو ووليم إيدي (الولايات المتحدة) من أهم الوسطاء في تحضير الرواح خلال السبعينيّات من القرن التاسع عشر.

٤- غوغول يكتب من ذلك العالم... إن الرسائل التي كانت تُمليها الأرواح على الوسطاء خلال جلسات الاستحضار مسألة عامية بمعايير ذلك الوقت! ففي كانون الثاني من عام ١٨٧٦ وفي صُحف بطرسبورغ شاع نبأ مفاده أن روح غوغول قد أملت على وسيطٍ موسكوفي جزءاً ثانياً من عمله الشهير «الأنفس الميّتة».

٥- وتتعالى أيضاً أصواتَ رجال الدين... في ١٤ كانون الثاني عام ١٨٧٦ جاء في صحيفة «فيدوموستت» الروسية «كلمة قيلت في ١٢ كانون الثاني عام ١٨٧٦، في إحدى الكنائس من قبل البروفسور ورجل الكنيسة ن.أ سيرغيفيسكي» جاء فيها «[...] إن التجربة تبيّن، أن ليسَ للوعي الإيجابي أن يخضع ويروّض الظواهر الجميلة أو الرائعة، بل تستطيع تلك الظواهر نفسها أن تأسر بشباكها الوعي»

ويبقى أن أتذكر أن دوستويفسكي في النهاية يحسن موقفه من تحضير الأرواح ويرى فيهِ إغواءً مُعادياً للوعي المسيحي. لقد كتبَ في دفتر ملاحظاته عن عامي (١٨٧٥-١٨٧٦) «[...] إن فكرة تحضير الأرواح من وجهة نظر انتزاع كامل الحرية الشخصية والروحية للبشر، وإماتة الذات هي فكرة مُرعبة. ما من شيطانٍ على الأرض، غير شيطاننا الحالي يمكن أن يفكّر ببدعةٍ مشابهة»

٦- لنقل على سبيل المثال إنها قدّمت فجأة التلغراف الكهربائي - لقد اختُرعَ التلغراف الكهرومغناطيسي عام ١٨٣٢ من قبل ب. ك. شيننغ (١٧٨٦-١٨٣٧) المتشرد والمخترع الروسي.

٧- وستجد الإنسانية نفسها في مأزق، والإنسان مُغطى بالقروح ويعض على أسنانه من الألم- الأسلوب والتعبير مأخوذان من رؤيا يوّحنا اللاهوتي، الفصل ١٦ - مشهد المحاكمة المُرعبة.

٨- «الحجارة التي تحولت خبزاً» هذه العبارة مأخوذة من الإنجيل وهي تتحدّث عن الإغواء الأوّل من الإغواءات الثلاثة التي قدمها الشيطان للمسيح

في الصحراء. وقد رفضَ المسيحُ تحويل الحجارة إلى خبز ليطعم الجياع فيجعلهم بذلك يؤمنون به. إن المسيح لا ينكر الحاجات المادّية للإنسان لكنه يصفها في المرتبة الثانية بعد الحاجات الروحيّة.

إن عبارة «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» التي يستخدمها دوستويفسكي بعد ذلك أيضاً مقتطعة من مقطع يقول: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، لكن تلك الكلمة التي خرجت من فم الرب» (أنجيل متّى الإصحاح الرابع)

٩-«Divide dt impera» مبدأ يقول «فرّق تسد» استخدمه مجلس الشيوخ الروماني في سياسته المتبعة مع الشعوب التي قهروها.

١٠- كروكس وليم (١٨٣٢-١٩١٩) فيزيائي وكيميائي إنكليزي مُروّج للاتصال بالأرواح أولكوت هنري ستيل (١٨٣٢-١٩٠٧)، حقوقي أميركي، صحفي، مختص أيضاً بالشؤون الزراعيّة وواحدٌ من مؤسسي جماعة صوفيّة عام(١٨٧٥).

١١- يوهان غوته فولفهانه (١٧٤٩-١٨٣٢) - كاتب ومفكّر ومربّي اجتماعي نمساوي.

١٢- بوبونسكي يا.ب. (١٨١٩-١٨٩٨) شاعرٌ روسي، والمقصود هنا قصائده «الأرواح القديمة والجديد» ١٨٧٥.

عن محبّة الشعب:

١- ك. س. أكساكوف (١٨١٧-١٨٦٠) - كاتب اجتماعي روسي، مؤرّخ، لغوي، شاعر. واحد من منظّري الحركة السلافيّة. الإشارة هنا إلى مقالته التي تحمل عنوان: «حول الإنسان المعاصر»، التي صدرت في كتاب «المساعدة الأخوية للعائلات المنكوبة في البوسنة والهرسك» (صادر عن قسم اللجنة السلافيّة في بطرسبرغ).

٢- سيرغي- المقصود قداسة سيرغي رادونيجسكي (حوالي ١٣١٥، ١٣١٩، - ١٣٩٢) قائد أو زعيم اجتماعي وكنسي، مؤسس (ومعلم) - ما يعتبر جديداً بالنسبة لروسيا في حينه- دير ومنسك للرهبنة. مؤسس دير سيرغي- ترويتسي (الأب والابن والروح القدس) في موضع «ماكوفيتسكي». هو واحد من أهم الشخصيات المقدسة لدى الكنيسة الروسيّة الأرثوذكسيّة.

وقد لعب في حينه دوراً غريباً على الكنيسة الروسيّة وهو المزج بين العمل الديني اللاهوتي والتدخل في شؤون الحكم والسياسة، حيث لعب دوراً في مصير الحكومة الروسيّة الفتيّة يومها، وقد قام بمباركة ديمتري دونسكي قبلَ حَربه المعروفة، وما شابه ذلك.

٣- فيودوس بيتشيرسكي- القديس فيودوسي (توفي عام ١٠٧٤) اعترف به قديساً في الكنيسة الروسية بعد القديسين (بوريس وغليب) ومع القديس أنطوني مؤسس منسك بيتشيرسكي- في كييّف حاول دائماً أن يدعو إلى التوازن والانسجام بين الحياة الدينيّة بكل ما فيها من عبادات والحياة الاجتماعية الفاعلة. كان يلح دائماً على الوداعة والدماثة والسلام.

٤- تيخون زادونسكي (١٧٢٤-١٧٨٣) - أسقف له مجموعة مهمة من الأعمال الروحيّة. كتب عنه دوستويفسكي قائلاً: «لقد استقبلت الأب تيخون في قلبي بكثير من الإعجاب منذ زمن طويل» (رسالة إلى آ. ن. مايكوف، مارس / آذار ١٨٧٠/ الأعمال الكاملة، الجزء ٢٩. الكتاب ١).

إن أفكار تيخون زادونسكي عن ضرورة أن يقهر الإنسان في نفسه الكبرياء والزهو، وأنّ الإنسان من خلال الوداعة والسلام يمكن أن يصل إلى الحريّة الروحيّة الكاملة، هذه الأفكار لاقت استحساناً كبيراً من دوستويفسكي.

٥- «تشيت ي مينيي» وهو كتاب كنسي يضم بشكل أساسي قصص القديسين وسيرهم الذاتية وفق مناسبات ذكرهم في السنة وهو يتألف من ١٢ جزءاً (لكل شهر جزء).

القوة الميتة والقوة الواعدة:

١- أمّا البابا؟ ربمّا سيموت اليوم أو غداً... - الحديث يدور عن البابا بيي التاسع (١٧٩٢-١٨٧٨) الذي كان قد بلغ يومها الرابعة والثمانين من عمره.

٢- ... - في السبعينيات شهدت مجموعة كبيرة من الدول الأوربيّة حرباً ضد الكنيسة الكاثوليكيّة بهدف جعلها تحت سلطة الدولة وليس العكس. وهكذا عندما خاضت حكومة بيسمارك نضالها لتوحيد ألمانيا سياسياً منذ ١٨٧٢، (أسهمت في) أو عملت على ظهور مجموعة فعاليات مناهضة للكاثوليكيّة (أطلق عليها تسمية «الحرب الثقافية»).

٣- في عقيدتي الراسخة أنه منّزه عن الخطيئة... - في الفاتيكان عام ١٨٧٠ اتخذ القرار الديماغوجي بأن البابا منّزه عن الخطيئة والإثم.

٤- يوليان أوتستوبنك- فلافي كلافيد يوليان (٣٣١-٣٦٣) إمبراطور روماني، أصوله فلاحيّة، حاول خلال حكمه أن يعيد للوثنيّة أهميتها وحضورها. ثم أعلنها ديناً للدولة.

٥- عند البابا مفاتيح بطرس المقدّس.. - وفق الإنجيل «مفاتيح مملكة السماء» بين يدي بطرس المقدّس- أهم تلامذة السيد المسيح». وتعتبر الكنيسة الكاثوليكيّة البابا خليفة بطرس.

٦- قال في الرواية... - يقصد هنا رواية «الشياطين»، والكلمة لـ ب. فيرخوفينسكي.

التسرّع وعدم الدقة في النقاط الخلافيّة:

١-... - س. ت. أكساكوف (١٧٩١-١٨٥٩): كاتب روسي.

«الرواية العائلية» - ١٨٥٦: كتاب على شكل سيرة ذاتية للمؤلف نفسه، وهنا دوستويفسكي غير دقيق فيما يورده على شكل مقبوس من «ذكريات» أكساكوف، الواردة في فصل «المرحلة الثانوية. الطريق الأوّل».

٢- بارسكيفا وفلور ولافر- شخصيّات مقدسة في الكنيسة الأرثوذكسيّة، ولها تقديرها واحترامها في الوسط المسيحي.

الفهم الطوباوي للتاريخ:

١- مقبوس من «يوميات الكاتب» عدد شباط ١٨٧٦.

٢- القرن الذهبي- الخليج الذي تتوضع على ضفتيه مدينة اسطنبول (القسطنطينيّة).

٣- القسطنطينيّة (...) وكل ذلك سيعود إلينا- إن اشتعال الأعمال الحربية في شبه جزيرة البلقان عام ١٨٧٦ دفع بأحد أهم جوانب المسألة الشرقية إلى الواجهة (وهذا ما كان الشغل الشاغل للدبلوماسية العالمية في نهاية القرن التاسع عشر بداية العشرين، على أبواب انهيار الإمبراطورية العثمانية)، هذا الجانب يتمثّل بالسؤال التالي: لمن ستؤول مسألة السيطرة على القسطنطينيّة عندما تنهار تماماً الإمبراطورية العثمانيّة؟ وفي تلك المرحلة نُظر إلى روسيا كطرف أهم في مسألة السيطرة على القسطنطينيّة (وفي هذا المجال من الطريف أن ننظر إلى الاعتراف الدولي بأحقيّة روسيا بذلك مع أنها حتى تلك الفترة لم تكن قد دخلت الحرب ضد تركيا).

لكن دوستويفسكي هنا يبحث المشكلة العقائدية أو الدينية: التي رافقت سيطرة العثمانيين على القسطنطينية ١٤٥٣، حيث أصبحت روسيا هي «المركز الموحّد» للمسيحيين الشرقيين، باعتبارها- من وجهة نظره- الحافظة الوحيدة للأرثوذكسيّة. من خلال منحها الأرثوذكسيّة مفاهيم جديدة، وحفظ الأرثوذكس من «نهاية حتمية»، بتحريرهم من «همجية المسلمين وهرطقة الغربيين»، ولعب دور المركز الروحي للعالم الشرقي، والقّوة الموحّدة له والأهم فيه. إن امتلاك القسطنطينيّة- من وجهة النظر هذه-يعني عودة الكنيسة الأرثوذكسيّة، مركز العالم الروحي القديم، مما يعني أيضاً قيام روسيا بدورها المقدّس في مصير الإنسانيّة.

٤- «... وصيّة بطرس الأكبر» - وثيقة شكلية، بحثٌ من نابليون الأوّل، على أبواب اجتماع واتفاق مع الروس عام ١٨١٢، في هذه «الوصية» صيغ هدف سري توسعي يحدد لروسيا جملة مهمّات منها السيطرة على القسطنطينيّة.

٥- دور معد لها حتى منذ إيفان الثالث... - إيفان الثالث فاسيليفيش (١٤٤٠-١٥٠٥) أمير موسكوفي عظيم ١٤٦٢، في فترة حكمه بدأت تتثبت دعائم الدولة الروسيّة ذات المركز الإداري الواحد. ، وقد حصل إيفان الثالث على لقب «قيصر روسيا كلها»، وبدأ في عهده يظهر في المطبوعات والأختام الحكومية شعار النسر ذي الرأسين- البيزنطي المصدر (والذي أصبح بعد ذلك شعار روسيا). إن تشكل مركز قوي للدولة الروسية أدى إلى ظهور نظرية «موسكو- روما الثالثة»، وأصبح ينظر إلى روسيا على أنها وريثة «الدولة الرومانية الثانية» - البيزنطيّة، ولقد تم التأكيد على دور روسيا العقائدي والديني خلال القرن التاسع عشر من قبل أنصار السلافية والمنظرين السلافيين، وحاولوا توظيف ذلك في «المسألة الشرقية».

:Post Scriptum

١- هنا يقتبس دوستويفسكي من قصيدة «هذه القرى البائسة» ١٨٥٥، للشاعر الروسي ف. ي. تيوتشف (١٨٠٣-١٨٧٣).

الحُكم:

«الحُكم تتقدم مقالة أخرى لم نقدمها للقارئ في هذا الكتاب عنوانها «حادثتا الانتحار» حيث حاول المؤلف في تلك المقالة أن يدرس الطريق الروحية والحالة الأخلاقية لفتاتين منتحرتين، إحداهما هي ابنة غيرتسين التي تبلغ من عمرها السابعة عشرة، وقد كتب دوستويفسكي في «دفتر عمل الكاتب» عن ذلك يقول: «إن مسألة خلود الروح لم تخطر على الإطلاق

في بال الفتاة». وبرأي الكاتب أن العدمية تجعل من وجود الإنسان وجوداً لا معنى له. إن مقالتي «الحُكم» و «حادثتا الانتحار»، قد أثارتا جدلاً كبيراً وقد أجاب دوستويفسكي في عدد ديسمبر / كانون الأول من «يوميات الكاتب» بمقالة حملت عنوان «تقرير بلا إثبات» (يوميات الكاتب، ١٨٧٦).

تقرير بلا إثبات:

١- الحديث يدور حول أحد الآراء المعترضة على عدد تشرين أول من «يوميات الكاتب» لعام ١٨٧٦.

شيء ما عن الشباب:

١- «نعم ليس لدينا حياة أسرية على الإطلاق...» - في دفتر عمل الكاتب (١٨٧٦-١٨٧٧) نقرأ ما يلي: «ليس لدينا أسرة- يقول شيدرين...» والمقصود هنا: م. ي. سالتيكوف شيدرين (١٨٢٦-١٨٨٩) وهو كاتب روسي اجتماعي ساخر.

٢- شباب السادس من ديسمبر / كانون الأول في ساحة كازانسكي- في السادس من ديسمبر / كانون الأول ١٨٧٦، في ساحة كازانسكي قامت مظاهرة حضرت لها (مجموعة أو منظمة ثورية شعبية، أسست في بطرسبرغ عام ١٨٧٦، من قبل: م. أ. ناتانسون و أ. د. ميخائيلوف و أ. د. أوبوليشيف و غ. ف. بليخانوف وغيرهم). وقد أطلق على هذه المنظمة اسم «الأرض والإرادة».

٣-... - في سنوات حكم ألكسندر الثاني (١٨٥٥-١٨٨١). وفي هذه السنوات تم تغيير قانون القنانة، وإجراء إصلاحات قضائية وحقوقية شعبية.

أين بلغنا من العمل:

١- عام على صدور «يوميات الكاتب» - يقصد عام ١٨٧٣، عندما كانت «يوميات الكاتب» تصدر عن مجلة «غراجدانين».

٢-... - المقصود تسمية قديمة جامعة للمسلمين. وفق الكتاب المقدس أنجبت المصرية هاجر من إبراهيم إسماعيل الذي أصبح جداً للعرب في الصحراء العربية.

٣- المقصود هنا مجموعة من المسيحيين الروس الذين رفضوا تغييرات أو إصلاحات البطريرك نيكون (القرن السابع عشرXVII) ورفضوا بالتالي الاعتراف بالكنيسة الرسمية.

١٨٧٧ ثلاث أفكار:

١- اليسوعيون... - أعضاء أخوية رهبانية كاثوليكية «جماعة يسوع»، أسست عام ١٥٤٣، بهدف تقوية الكنيسة الكاثوليكية، وقد لعبت دوراً رجعياً في مناهضة الإصلاحات واتّسم أسلوبها بالقسوة والوحشية في التصدي للهراطقة.

٢-... - الحديث يدور حول إحدى حوادث الثورة الفرنسية (١٧٨٩-١٧٩٣).

في الثالث من أيلول ١٧٩٣ أعلن كونفت (الشخص الأول قانونياً وتنفيذياً في أول حكومة فرنسية» أن الخدمة الدينية الكاثوليكية ستستبدل «بخدمة دينية للعقل». وقد حددت «آلهة جديدة» - العقل- الحرية- الشباب- المحبة الأخوية وغيرها.

٣- منذ أيام أرمينيا وغابات تفتوبورغسكي- أرمينيا (١٨/١٦ قبل الميلاد- ٢١/١٩ ميلادي). عام (٩ قبل الميلاد) قام قائد القبائل الألمانية بتحطيم الجيش الروماني بقيادة فارا في غابات تفتوبورغسكي.

٤-... اللوثريون البروتستانت.. - لوثر مارتن (١٤٨٣-١٥٤٦) صاحب الإصلاحات المعروف في ألمانيا. مؤسس اللوثرية، الاتجاه الأقوى في البروتستنتية.

إن ما قدمه لوثر عام ١٥١٧ من خلال (٩٥) بنداً ضد الاستخدام السيئ للسلطة من قبل البابا أصبح بداية للإصلاحات المعروفة.

البطل الروسي المعذب فوما دانيلوف:

١- المعوق الروسي.. - جريدة حربية (١٨١٣-١٩١٧) تابعة لوزارة الحرب الروسية.

٢-.. وظهر تشير نيايف والصرب وكيرييف.. - تشير نيايف م. غ. (١٨٢٨-١٨٩٨) زعيم وقائد روسي اجتماعي، وقائد عسكري، جنرال زمن الحرب التركية ١٨٧٦. شغل منصب القائد العام للجيش الصربي.

كيرييف ن. أ- قائد عسكري للخيالة، منظم فرقة متطوعين روس في الحرب الصربية. وقد قاد فرقة من الشرطة البلغارية- الصربية تحت اسم مستعار (الحاج غيريا) قتل عام ١٨٧٦.

٣- لقد خرجوا تماماً مثل الصليبيين الأوائل من أوربا منذ تسعمائة عام مضت- الصليبيون: أصحاب الحملة الصليبية (١٠٩٦-١٢٧٠) على الشرق الأوسط (سوريا- فلسطين- شرق أفريقيا)، وقد انطلقت بفعل فكرة الحرب المقدسة ضد «الكفار»، لإنقاذ جثمان الرب و «أرض فلسطين المقدسة».

٤-... إن رفضه سيغضب الخان وسيجرح عزة نفس جنوده- المقصود هنا شعب يتكلم اللغة التركية سيطر في القرن الحادي عشر على بعض مناطق روسيا الجنوبية، وفي القرن الثالث عشر هزم من قبل (المنغوليين - التتار).

٥- هذه العبارة قيلت ليسوع المسيح في بلدته الناصرة عندما رفضوا مساعدته وعلاجه (إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع): «وقال لهم: طبعاً ستقولون لي: طبيب! عالج نفسك بنفسك [...] والحق أقول لكم: لا كرامة لنبي في وطنه».

الحلم المهادن خارج العلم:

١- سلوفيانوفيلي- ممثلو واحد من الاتجاهات الفكرية الروسية الاجتماعية خلال القرن التاسع عشر، دافعوا بقوة عن تطور روسيا وفق طريق خاص يختلف تماماً عن طريق أوربا الغربية، انطلاقاً من خصائص روسيا الذاتية نفسها وقد وقفوا ضد أنصار الغرب في روسيا. من أهم ممثلي هذا الاتجاه: ي. س. أكساكوف- ك. س. أكساكوف- ا. س. خوميكوف- ي. ف. كيريفسكي- ب. ف كيريفسكي- أ. ي. كوشيليف. وغيرهم.

زابادنيكي (أنصار الغرب) - ممثلو أحد الاتجاهات الفكرية الروسية الاجتماعية في القرن التاسع عشر الذين يؤمنون أن تطور روسيا يجب أن يتم وفق الطريق الأوربي الغربي.

نحن في أوربا لسنا أكثر من ستريوتسكيين:

١- لسنا في أوربا أكثر من ستريوتسكيين- ستريوتسكي: شخص دنيء، سافل، محتقر، وقد خصص دوستويفسكي الفصل الأول من مقالته في الأول من تشرين الثاني «يوميات الكاتب» ١٨٧٧.

٢-... ظهور روسو وفولتير- روسو جان جاك (١٧١٢-١٧٧٨) - كاتب فرنسي، وفيلسوف أدان الكنيسة الفرنسية والتعصب والتسرع الدينيين من وجهة نظر فلسفية.

٣- الرودينيون- رودين بطل رواية تورغينيف ي. س. (١٨٥٦).

٤- قبيلة يافث- يافث أحد أبناء نوح، وفق الأسطورة الإنجيلية كان عند نوح الذي نجا بأسرته من الطوفان ثلاثة أبناء: سام وحام ويافث، وقد انطلقت منهم البشرية بعد الطوفان، ومن يافث جاءت الشعوب الهندو- أوربية!

٥- بوتوغيين- بوتوغين: شخصيات من رواية «الدخان» للكاتب الروسي تورغينيف ي. س. وقد استخدم دوستويفسكي في «يوميات الكاتب» هذا النموذج مراراً. ومثل لديه أكثر التابعين للغرب.

الحل الروسي للمسألة:

١- اقتباس غير دقيق من رواية ل. ن. تولستوي «آنّا كارينينا» (١٨٧٣-١٨٧٧).

٢- من إنجيل متى الإصحاح (١٩): «قال يسوع له: إذا أردت أن تصبح كاملاً اذهب وبع ما تملك ووزع المال على الفقراء، وعندها ستحصل على ثروة في السماء...».

٣- شكسبير وليم (١٥٦٤-١٦١٦) - كاتب دراما إنكليزي وشاعر، وقد رأى فيه دوستويفسكي رمزاً للعبقرية البشرية.

٤- وأمثال ستيفيات سيغضبون فيما لو... - الحديث يدور هنا عن بطل رواية «آنّا كارينينا» ستيفي أبلونسكي، وهو يعني عند دوستويفسكي أنموذجاً للملاكين الروس وأصحاب الأقنان ممن يرغب «أن يظل سيئاً أو خبيثاً طالما أن أموره ميسرة من حيث المأكل والمشرب وما شابه» (يوميات الكاتب ١٨٧٧).

٥-... الأرض البكر- الأرض البكر» أو العذراء رواية للكاتب الروسي ي. س. تورغينيف (١٨٧٧)، كتب عنها دوستويفسكي مقوّماً ومثمّناً.

آذار- الشعب الروسي نما إلى درجة الفهم السليم للمسألة الشرقية من وجهة نظره

١- حيث لمع سيف روسيا أكثر من مرة في الشرق دفاعاً عن تلك الشعوب- يقصد الكاتب هنا الحرب الروسية التركية (١٧١٠- ١٧١٣) إبان

حكم بطرس الأول، وحروب روسيا مع تركيا وإيران: (١٧٢٥- ١٧٣٩) إبان حكم آنا إيوانوفنا. (١٧٦٨- ١٧٧٤ ، ١٧٨٧- ١٧٩١) إبان حكم يكاتيرينا الثانية. (١٨٠٦- ١٨١٢ ، ١٨٠٤- ١٨١٣) إبان حكم ألكسندر الأول. (١٨٢٦- ١٨٢٨ ، ١٨٢٨- ١٨٢٩ ، ١٨٥٣- ١٨٥٥) إبان حكم نيقولاي الأول.

٢- الكاهن الألماني الذي يدعو بيننا إلى الشتوندية- يتحدث الكاتب هنا عن نشاط الراهب بونيكيتبورغ الذي أسس في جنوب روسيا مذهباً أو طائفة خاصة. وقد جاء في يوميات الكاتب عام ١٨٧٣ ما يلي: شتونديزم: مذهب أو طائفة انتشرت بين الفلاحين الروس والأوكرانيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بسبب تأثير البروتستانتية، وحملت طابعاً علمياً إلى حدٍ ما، ونقضت عقيدة الكنيسة الأرثوذكسية.

حلمُ رجل مضحك:

تحتل هذه القصة مكاناً خاصاً في إبداعات دوستويفسكي، في هذه القصة تتجسد إحدى أفكار دوستويفسكي المتأخرة- إنها فكرة «العصر الذهبي». إن الإنسان- كما يؤكد الكاتب- يجب (ويستطيع) أن يسعى إلى الكمال الأخلاقي كشرط لبلوغ الجنة الأرضية. إن (موتيف) «القرن الذهبي» يقرب دوستويفسكي كثيراً من الطوباويين العظام السابقين (أمثال سان سيمون).

ويبدو في القصة التأثير الجلي للفيلسوف الديني ف. س. سولوفيف، ولأعمال المفكر الطوباي ن. ف. فيودورف.

١- دوستويفسكي كثيراً ما يفكر بالطبيعة الواقعية للأحلام ويكتب عنها، وعن طابعها الغامض، وملاحظاته عن هذا الموضوع تحمل طابعاً شخصياً بيوغرافياً (فهو كثيراً ما رأى أخاه المتوفّى ميخائيل في الحلم).

إن حلم «رجل مضحك» - نبوءة بصورة ما: برؤيا روحية يمكن رؤية ما حدث وما يمكن أن يحدث. ولكنه يخضع ذلك للشرح من وجهة نظر أخلاقية مسيحية «طبيعية»: تصوروا لو أن من طبيعة الإنسان إمكانية توقع ما سيحدث في أعلى درجاته [...] إن مثل هذا الأمر هو هدية النبوة [...]» (يوميات الكاتب عام ١٨٧٧، عدد أيار- حزيران).

وبهذا المعنى فإن «رؤيا» بطل «القصة»، لا تشكل عبئاً روحياً على الكاتب، والأمر بالنسبة إليه- استخدام فني. نرى من خلاله أن بطل القصة ومن خلال حلمه: يتحول بملامسته «للعصر الذهبي» - وهو «المتناقض» - إلى نبي أو راءٍ بالنسبة كمن حوله فيما يشبه الشخص المجنون أو الأبله، وهذا ما يجب أن يكون على الأرجح لأنه استوعب في أعماقه «نموذج يسوع المسيح الطيب حتى العبط».

٢- أرخبيل اليونان- جزيرة في بحر إيجه، مهد الحضارة الأوربية. وهذا التحديد الجغرافي عند دوستويفسكي يقصد منه أن يذكّر بالأرض، في الموضع الذي شهد ولادة البشرية و «طفولة الإنسان»، بما يطابق أو يتناسب مع «العصر الذهبي».

٣- إن الحقيقة لا تبلغ إلا بالعذاب- هل من الممكن أن تكون «الحاجة إلى العذاب» والتي يتحدث عنها دوستويفسكي معروفة بالنسبة لسكان نجمٍ مختلف بطبيعته!

لقد اعتبر دوستويفسكي العذاب: «أعمق حاجة روحية مطلوبة للشعب الروسي»، حاجة لا محيد عنها عند الاعتراف المسيحي بالخطيئة المرتكبة، إن العذاب من هذا النوع يقود في نهاية المطاف إلى تنظيف الروح، إلى الحرية الروحية (انظر: يوميات الكاتب ١٨٧٣).

٤- لقد عبّر دوستويفسكي دائماً عن رأي «مفاده أن «العلم الصرف» الموظف في غير الأنموذج الأخلاقي الأسمى، يفسد الإنسان (انظر: دفتر عمل الكاتب ١٨٧٥-١٨٧٦).

٥- الأهم، أحب الآخرين كما تحب نفسك... - إنجيل مرقص الإصحاح ١٢: «... أحب قريبك، كما تحب نفسك..».

المسألة الألمانية العالميّة: ألمانيا- البلد المحتج!

١- إن مهمة ألمانيا كانت وما تزال واحدة وهي تتمثل في بروتستانتيتها [...] يشكلُ قوام هذا الإرث- إن خصوصيّة (وفرادة) تفسير (وشرح) دوستويفسكي للمسألة القومية تفسّر من خلال العبقرية الخاصة أو الفكرة الخاصة بكل قومية، التي ينظر إليها كجسم حي، ويغوص إلى أعماقها وجوهرها الأنطولوجي، ولهذا فإن دوستويفسكي يفترض أن «الأنموذج الأعلى»، و «الفكرة السامية أو العليا» أمران ضروريان ولا بدّ فيهما ليس فقط لبناء الفرد ولكن لبناء الأمة قاطبةً. عندما يدفع هذا المذهب الاجتماعي أو ذاك- في محاولة لبناء الدولة- استثنائياً بالهدف السياسي- الاقتصادي فحسب فإنه يحكم على نفسه بالفشل، إن المسألة الأخلاقية المثالية- من وجهة نظر دوستويفسكي- هي التي تجمع الشعب، والبلاد حول فكرة التقدم.

في «يوميات الكاتب» عن عام ١٨٧٧ يحددُ الكاتب «ثلاث أفكار»، في العالم الحديث تحملُ «الكلمة الاجتماعية»، وهي: الكاثوليكيّة- البروتستانتيّة- الأرثوذكسية، «الفكرة الروسية» أو «الموحدّة للإنسانية». وقد اعتبر دوستويفسكي إن أكثر فكرتين تعيشان المواجهة والتأزم فيما بينهما: الكاثوليكيّة التي أخذت نموذج المسيح «الكذاب» - وفق رأي دوستويفسكي- والأرثوذكسيّة التي رأى فيها «العقيدة الحقة». البروتستانتيّة- بالرغم من أنها ساهمت واقعياً في تقرير مصائر القوميّات أو في بلورتها (وفي هذا المقال يدور الحديث عن الصراع بين ألمانيا وروما البابَاويّة) - يعتبرها الكاتب على الأغلب ممثلة «لفكرة الرفض والاحتجاج»

وليست تمثل «فكرة سامية» مستقلة، ولا ديانة مستقلة، تطوّرت وحافظت على تمسكها بإنكار الكاثوليكي. وهذا هو السبب الذي دفع دوستويفسكي ليعتقد: «[...] البروتستانتيّة تقرب كثيراً من الإلحاد المباشر، وحتى هذه اللحظة تدخل في ركابه طواعيةً، وإذا كانت تحتفظ حتى الآن بصورتها كديانة، فلسبب وحيد أنها ما زالت حتى الآن ترفض وتحتج! أي بعبارة أخرى تناضل ضد البابا المقدّس».

محبو الأتراك:

١- بوكل غ. ت. (١٨٢١-١٨٦٢) مؤرخ إنكليزي، وعالم اجتماع وضعي، عمله الأساسي- «تاريخ الحضارة في انكلترا» (عام ١٨٥٧-١٨٦١، وقد ترجم إلى الروسية عام ١٨٦١)

دريبر ج. ف (١٨١١-١٨٨٢) - كيميائي أمريكي وفيزيولوجي ومؤرخ: يقصد دوستويفسكي كتابه «تاريخ التطور العقلي في أوربا» (١٨٦٤).

٢-إن معتقداته... مع الحياة- مفهوم الأرض» مأخوذاً من وجهات النظر الفلسفية والتاريخية لدوستويفسكي.

وفي عام ١٨٦٤، في الإعلان عن إصدار المجلّة الشهرية «إيبوخا» التي كانت تصدرها عائلة دوستويفسكي م. م. نوه الكاتب ميخائيل فيودورفيتش، أخ دوستويفسكي بأن الأرض هي الشيء الذي يتمسك به الجميع ويقف عليه الجميع ويستندون إليه. [...] أليس بسبب العار والرجعية يعتقدون عندنا حتى الآن أننا مختلفون وذوو خصوصية تاريخية؟ [...] لا يجوز مهاجمة استقلالية الحياة القومية، بل بالعكس يجب أن نوسع هذه الاستقلالية ونعمقها بكل قوانا، وندافع ما نستطيع عن وجودنا المستقل وطبيعتنا الخاصة- اقتصاديا وثقافياً وروحياً»

«آنا كارينينا» كحقيقة ذات أهميّة خاصة:

عندما ظهرت رواية «آنا كارينينا» عام ١٨٧٧ للروائي الروسي المعروف ل. ن. تولستوي رأى دوستويفسكي فيها «شيئاً جاداً طبائعياً في حركة الأدب الروسي» ورأى أن تلك الرواية ضمت بين دفتيها «ثلاث أو أربع صفحات مما يمكن أن يعتبر (حقد الأيام) [...] والأهم من كل ذلك أنها حملت وصفاً للون وتدريجات لحظاتنا الحالية» (يوميات الكاتب ١٨٧٧ ، شباط). لقد أعطت هذه الرواية دوستويفسكي حجةً للكتابة في «اليوميات»، عن أكثر الموضوعات أهمية للمجتمع الروسي- من وجهة نظره- عن علاقة الأنتلجنسيا بالشعب، عن «التراب الوطني»، عن الإيمان وموت الإيمان، عن الاشتراكية وغير ذلك من الأمور.

١-... أحد الكتاب الذين أحبّهم حباً جماً- يقصد هنا الكاتب الروسي ي. أ. غونتشاروف (١٨١٢-١٨٩١).

٢- الذين من المتعارف تسميتهم (مجموعة البارزين) - يقصد: ي. س. تورغينيف، ي. أ. غونتشاروف، أ. ن. أوستروفسكي، ل. ن. تولستوي، ن. أ. نيكراسوف.

٣- «روسكي فيستنك» - مجلة أدبية- سياسية (بدأت ظهورها في موسكو منذ عام ١٨٥٦ على يد م. ن. كاتلوفي، وهو صحفي روسي وكاتب اجتماعي، ولقد حافظت هذه المجلّة عموماً على توجهٍ محافظ.

٤-... ثلاثة عباقرة لا جدال حولهم لومونوسوف وبوشكين وغوغول- في رسالة دوستويفسكي عام ١٨٧٠ الموجهة إلى الكاتب الاجتماعي والفيلسوف والناقد الأدبي ن. ن ستراخوف كتب دوستويفسكي شيئاً مشابهاً لهذه العبارة: (انظر الأعمال الكاملة الجزء ٢٩ الكتاب ١).

٥- في انتظار «عش النمل المستقبلي» - في كتابات دوستويفسكي الاجتماعية أو الإبداعية الأدبية يستخدم هذا التعبير دلالة على أكثر النماذج ثباتاً «لاشتراكية الثكنات»، للمجتمع «المعقلن»، الذي يستند إلى التصرفات «العقلانية» لأعضائه، وقد رفض دوستويفسكي فكرة مثل هذه «الأخوة»، المبنية على غير حريةِ الشخصية. جاء في دفتر عمل الكاتب عن عام ١٨٧٥-١٨٧٦ ما يلي: «.. [...] أين الطمأنينة. كانت في الإيمان. ولكن الإيمان اليوم مفقود [...] الإنسان لا يريد عش النمل، الذي يفترضه العلم الذي صنعه، والذي يتطلب تقييد الذات ووضع الحدود عليها. [...] أنا لا أريد مجتمعاً علمياً على هذه الصورة، حيث لا أستطيع أن أقترف الشرور، ولكنني أريد ذلك المجتمع، الذي أستطيع فيه افتراق ضروب الشر كافة، وأمتنع عن ذلك بمحض إرادتي [...]».

٦- «الانتقام عندي ووفق أعمالكم» - رسالة الرسول بولس إلى أهل روميّه، الإصحاح ١٢: «إذا استطعت من جانبك، أن تكون في سلام» مع كل الناس فافعل، لا تنتقم لنفسك، واترك للرب ذلك. فقد كان مكتوباً من قبل «الانتقام عندي، ووفق أعمالكم».

السطر هذا مأخوذ من رواية «أنّا كارينينا»، وعلى الرغم من كل التعقيد القائم في العلاقة بين دوستويفسكي وإبداعات ل. ن. تولستوي ولاسيما روايته هذه، فإن صاحب «يوميات الكاتب»، رأى في نظرة تولستوي إلى الجريمة والإثم شيئاً يصف الطبائع الروسية الخاصة من خلال بحثه عن الأرثوذكسية الحقّه. هنا نلاحظ ملامسة مسألة من أصعب ما يواجه: كيف يمكن أن نتصدى لشرور الأرض دون أن نبتعد عن التعاليم المسيحية؟ أو ننقضها؟

إن دوستويفسكي يؤكدّ: «الانتقام» - بمشيئة الرب، وفي حكمه العادل، أما الإنسان الذي يقوم بالانتقام أو المعاقبة فإنه يضاعف الشر،

لكن أليس في مثل هذا تساهلٌ مع الإثم، وعزوف عن النضال ضدّه من قبل البشر!.

إن العقاب والقصاص من قبل البشر ممكن، ولكنهُ ليس عشوائياً أو مطلقاً بل مشروطاً. إن الأرثوذكسية- كما يرى دوستويفسكي- تساعد جداً في معرفة الإثم الشخصي والاعتراف به، وبالتالي تجعل الشخص واعياً أنه لا يملك الحق النهائي في محاسبة قريبة، وأن هذا الحق للرب وحده.

حول المعرفة الصحيحة التي يمتلكها الشعب الروسي الأميّ والجاهل للجوهر الأساسي للمسألة الشرقية:

١- بدأ الحجاج الروس [...] في جزيرة آفون وغيرها- الأرضُ المقدّسة هي فلسطين- كما يعتقد- حيث ولد يسوع وترعرع ودعا الناس ثم صلب.

ضريح الرب- أهم المقدّسات المسيحية وهو موجود في كنيسة القيامة في القدس. آفون- أو آثوس (على الأرجح) دير مهم يقع على جبل آثوس في كريت)، تأسس عام ٩٦٣ على يد الراهب أفاناسي.

٢- منذ أيام الحروب الصليبية [...] كتب عن رحلته بشكل رائع- المقصود أحد شيوخ الرهبان الروس ويدعى دانيل (النصف الثاني من القرن الحادي العاشر- النصف الأوّل من القرن الثاني عشر) شيخ الرهبان دانيل زار في بداية القرن الثاني عشر فلسطين، وعلى الأغلب أنه فعل ذلك مع مجموعة من الرهبان، وقد ألف «حياة وحج دانيل...»، وهي مخطوطة لاقت رواجاً هائلاً في أنحاء روسيا، وعرف أكثر من مئة نسخة مختلفة منها.

٣- يقعون تحت سيطرة الأتراك وغيرهم- يقصد دوستويفسكي هنا جملة من الأحداث يراها سيطرةً للمسلمين على مسيحي الشرق، وهي: سقوط القسطنطينيّة عام ١٤٥٣، احتلال فلسطين من قبل الأتراك ١٥١٧، بداية احتلال الأتراك لشبه جزيرة البلقان ١٣٥٦ (بلغاريا - ١٣٩٣، صربيا -

١٥٢١، الجزء الأكبر من اليونان - ١٤٦٠، البوسنا - ١٤٦٣، الهرسك - ١٤٦٧، مولدافيا - ١٤٧٦).

٤- ويصلّون صلوات الليل- صلوات مسائية ذات طابع احتفالي في الأعياد تقام في الكنائس الأرثوذكسيّة.

٥- حياة القديسين- نوع من كتب الأدب الكنسيّ الدينيّة، تسجل حياة القديسين وأفعالهم وانجازاتهم واستشهادهم وما إلى ذلك.

٦- سرعان ما يقصدون الأماكن المقدّسة الروسيّة- المقصود في كييف: كاتدرائية (سابور) صوفيا، كييفا- بيتشر سكايا لافرا، العجائب السولوفيتسكيّة- ضريح قداسة الأب زوسيما وسافاتي، وغيرها.

٧- مجموعة من القيود المختلفة المعدنية ذات أشكال عديدة: حلقات، أساور، جنازير توضع على الجسد العاري مباشرةً.

٨-... لدعم إخواننا السلافيين [...] وقد بدأت تثير السخرية- يقصد هنا الحديث المؤثر للإمبراطور ألكسندر الثاني، والذي ألقاه في أكتوبر / تشرين الأول ١٨٧٦ في الكرملن عن «المشاركة الحيّة» للروسيا في آلام «الأخوان في العقيدة»، وقد لاقى حديثُ الإمبراطور شيوعاً في كافة أنحاء روسيا واستحساناً شعبياً، وسبق دخول روسيا الحرب ضد تركيا (١٨٧٧-١٨٧٨). أما الحديث عن الاستخدام الساخر لعبارة «الأخوة السلافيين»، فلا بد أن دوستويفسكي يشير بذلك إلى حديث إحدى شخصيات «آنّا كارنينا»: «[...] لماذا فجأة شعر الروس جميعاً بحب الأخوة السلافيين، أنا شخصياً لا أحمل لهم أي قدر من الحب؟».

٩- إن شعبنا لم يعرف [...] تلك الحرب التي انتهت في «سيفا ستوبل» - يقصد هنا حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦ (والقيصر المشار إليه هنا هو ينكولاي الأوّل) وقد قاتل إلى جانب تركيا في هذه الحرب كل من فرنسة

وبريطانيا وسردينيا، وقد سقطت سيفا ستوبل في آب ١٨٥٥ وفي ١٨٥٦ وقعت معاهدة باريس للسلام حول هذا الموضوع.

١٠- ويومذاك بدأت تصل إلى مسار مع الشعب كلمات عن الأماكن المقدّسة-

يقصد حديث نيكولاي الأوّل عام ١٨٥٣ وكلماته عن ضرورة حماية العقيدة الأرثوذكسيّة في الشرق.

١١- وكان الأمر بمثابة دعوة إلى الصوم- تحضير للاعتراف والتطهر، مقترن بزيارة دائمة للكنيسة.

١٢- جماعة بوغاتشيف- بوغاتشيف ي. ي. (١٧٤٠-١٧٧٥) - من قوزاق الدون، شارك في حرب سبعة السنوات (١٧٥٦-١٧٦٣) والحرب الروسيّة والتركيّة (١٧٦٨-١٧٧٤)، قائد الحرب الفلاحيّة (١٧٧٣-١٧٧٥). أعدم في موسكو عام ١٧٧٥.

أفكار عن العالم: «القسطنطينيّة يجب أن تكون لنا، هل يمكن ذلك؟!

ضمت «يوميات الكاتب» معظم أحداث الحرب الروسيّة التركية (١٨٧٧-١٨٧٨) وذلك خلال العام الثاني من صدورها. على صفحات «المذكرات» تمّت مناقشة أسئلة الحرب الكثيرة الاستراتيجية والتكتيكيّة، وتحليل أسباب الإخفاقات والنجاحات في تلك الحرب، وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت الأسئلة الأهم بالنسبة لدوستويفسكي هي الأسئلة ذات الطابع الأخلاقي الديني المرتكزة على حقيقة دور روسيا في مصير السلافيين والإنسانية بعامة.

١- نيكولاي ياكوفلوفيتش دانيلوفسكي- دانيلوفسكي ن. ي. (١٨٢٢-١٨٨٥) كاتب اجتماعي ونفساني، فيلسوف، منظر لأيديولوجيا

الـ «بانسلافيزم» (وهي أيديولوجيا قومية قائمة على فكرة وحدة الشعوب السلافيّة تحت قيادة قيصر روسيا، نهاية القرن التاسع عشر بداية القرن العشرين)، شارك في شبابه في جماعة بيتراشيفسكي.

٢-... - عام ١٨٧٠ حاولت الكنيسة البلغارية الاستقلال عن بطريرك القسطنطينيّة.

٣- الإشارة هنا إلى جملة من التجمعات الدينيّة المختلفة صغيرة أو كبيرة وعلى مستويات قومية أو أصغر.

يجب اقتناص اللحظة المناسبة:

إن الانتباه الذي أولاه الكاتب لحوادث العالم الكاثوليكي مبعثه الحياة السياسية الواقعيّة التي كانت تدور في أوربا تلك الفترة. ولقد زاد من الموقف السلبي العام للكاتب تجاه الكاثوليكيّة السياسية المعادية لروسيا في الدول الكاثوليكيّة ولا سيما أثناء الحرب الروسية التركية وانتصار الأتراك، بالإضافة لمواقف أرباب الشعائر الكاثوليكية ولاسيما في الاجتماع الذي عقد لهم في فينّا عام ١٨٧٧.

١- بدهيّات علمية مثل (الصراع من أجل البقاء» - يقصد هنا نظرية داروين في التطوّر. ولكن بإسقاطاتها على الحياة الاجتماعية، فالداروينيّة الاجتماعية- اتجاه في الفكر البرجوازي بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية القرن العشرين، وانطلق من مسألة الاصطفاء الطبيعي وبقاء الأقوى كأساس للحياة الاجتماعية والبشرية.

١٨٨٠ إيضاحات حول كلمتي عن بوشكين:

١- أعلن إيفان سيرغيفيتش أكساكوف: إن كلمتي تشكل حدثاً-

أكساكوف إي. س (١٨٢٣-١٨٨٦) كاتب اجتماعي روسي، ناشط اجتماعي، واحد من منظري النزعة السلافية.

٢- أليكو وأونيغين - بطلا بوشكين في عملين أدبيين حملا العنوانين التاليين:

قصيدة «الفجر» (١٨٢٣-١٨٢٤)، والرواية الشعرية «يفغيني أونيغين»، (١٨٢٣-١٨٣١).

٣- ظهر بعدهما: بتشورينا... - هنا يذكر الكاتب أسماء أبطال مجموعة من الأعمال التي كتبها الأدباء الروس.

٤- إن نماذج: تاتيانا وإينوك وابنة الكابيتان... - دراما «بوريس غودونوف» (١٨٢٥)، قصّة «ابنة الكابيتان» (١٨٣٦)، «تاريخ بوغاتشييف» (١٨٣٣).

٥- أمثال: سرفانتس وشكسبير وشيللر- سيرفانتس سافيدرا ميكيل دي (١٥٤٧-١٦١٦) - كاتب إسباني، أعجب دوستويفسكي كثيراً بروايتهِ «دون كيخوت لامانش». شيللر يوهان فريدريك (١٧٥٩-١٨٠٥) - شاعر نمساوي، وكاتب درامي، وناقد فني، وواحد من مؤسسي الأدب النمساوي الكلاسيكي.

٦- نماذج إنسان القبيلة الآرية- الآريّون: تسميه تطلق على الشعوب التي انبثقت لغاتها من أصل هندو- أوربي (وهندو إيراني أولاً).

٧- إن أرضنا الفقيرة يمكن أن تقول في النهاية كلمة جديدة للعالم» - تضمُّ هذه العبارة بشكل غير صارخ اعتراض آ. د غرادوفسكي (١٨٤١-١٨٨٩) (الكاتب الاجتماعي، والمؤرخ الروسي الليبرالي)، على أفكار دوستويفسكي في رسالة جوابية بعثها لهُ، ونشرت في صحيفة «غولوس» عام ١٨٨٠، في ٢٥ حزيران.

٨- «في لحظة واحدة ستختفي الثروة...» - هنا يفيد دوستويفسكي من أسلوب رؤيا القديس يوحنّا، الإصحاح ١٨، سقوط بابل: «حيث في لحظة واحدة اندثرت تلك الثروة».

٩- حتى في ظل ظروف فقر مشابهة أوربا ووسطها (١٢٣٦-١٢٤٣) بقيادة الخان باتي (١٢٠٨-١٢٥٥).

١٠- شدّ على يدي أنصارُ الغرب- يقصد هنا ي. س. تورغينيف و ب. ف. أنيكوف (١٨١٣-١٨٨٧): ناقد أدبي روسي.

١١- الشارع الذي نبتت ونمت فيه بتعاسة أفكاركم- يطرح دوستويفسكي مثل هذه الفكرة في روايته «الشياطين» (انظر: الأعمال الكاملة الجزء ١٠، ١٢)

١٢- سيقول بعضكم [...] إعادة تعميد أوربّا بالسلافية- الحديث يدور هنا عن مقالة آ. ن. بيبين: «السؤال البولوني في الأدب الروسي» (مجلة/ فيستنك الأوربي/ ١٨٨٠. رقم ٢ و٤) - آ. ن. بيبين (١٨٣٣-١٩٠٤) ناقد ومؤرخ أدبي روسي.

بوشكين (مقالة):

١- يشكل بوشكين ظاهرة غير عادية، وهو التجلّي الوحيد للروح الروسيّة»، هذا ما قالهُ غوغول- المقبوسُ. من مقالة الكاتب الروسي المعروف ن. ف. غوغول «كلمات عن بوشكين» (١٨٣٢-١٨٣٥. الأعمال الأدّبية. الجزء السادس. موسكو، صادر خلال ١٩٨٣-١٩٨٦).

٢- بايرون جورج نويل غوردون (١٧٨٨-١٨٢٤) شاعر إنكليزي رومانسي.

٣-.. الطبقات الأربع عشرة التي ينقسم إليها الوسط المثقف الروسي- عام ١٧٢٢ وضع بطرس الأكبر «قائمة المراتب الوظيفيّة»، التي صنفت الموظفين في أربع عشرة مرتبة أو طبقة.

٤- عدّها «جنيناً روحياً» - استخدم ف. غ. بيلينسكي المصطلح نفسه في مقالة له بعنوان «إبداعات ألكسندر بوشكين» ص ٩. (انظر: بيلينسكي ف. غ. الأعمال الكاملة. الجزء السابع - ١٩٥٣-١٩٥٩) وكذلك (انظر مقالة

د. ي. بيساريفي: «بوشكين وبيلينسكي»، مختارات بيساريفي د. ي- الجزء الثالث- عام ١٩٥٥-١٩٥٦).

٥- لو أن تشايلد هارولد وصَلَ من إنكلترا... - بطل قصيدة بايرون «حجُّ تشايلد هارولد» (١٨١٢-١٨١٨).

٦- هل ستبقى وفيّه لذلك الجنرال العجوز- هنا يخطئ دوستويفسكي في تحديد عمر الجنرال زوج تاتيانا، فقد كان عمره ٣٥ عاماً (انظر: ليرنير، . و «قصص عن بوشكين»، لينينغراد ١٩٢٩).

٧- وبالمناسبة إن السؤال: لماذا لم تذهب تاتيانا مع أونيغين [...] إن الحل الأخلاقي لهذا السؤال كثيراً ما كان عرضة للشك-

٨-.. هذا ما قاله الشاعر نفسه في مناسبة أخرى- مقتطف من أشعار بعنوان «مقطّعات ١٨٢٦».

٩- اقرؤوا كيف قتلَ الفلاح «معالي الدُب» - يقصد هنا «حكاية عن الدب» (١٨٣٠؟)

١٠- أيها العراب إيفان كيف لنا أن نشرب.. - مطلع قصيدة لبوشكين ١٨٣٣.

١١- انظروا إلى مشاهد فاوست أو «الفارس البخيل» - يقصدُ هنا نص بوشكين «مشهد من فاوست» (١٨٢٥).

١٢- إنه تقريباً نقل حرفي لثلاث صفحات من كتاب غيبي صوفي يعود إلى متشيع ديني إنكليزي- الحديث يدور حول نص شعري بعنوان «جوّال» (١٨٣٥) (١٦٢٨-١٦٨٨) فيه تناص أو مقبوسات من كتاب متشيّع ديني انكليزي، شاعر اسمهُ: جون بينان (١٦٢٨-١٦٨٨) «رحلة الحاج في عالم السماء والحرب الروحية».

١٣- مهرطق- يقصد هنا شخصاً من الناشطين ضمن حركة الهراطقة.

١٤- غيبي امتلأت نفسه- رجل يؤمن بالغيبيات والما ورائيات الخ...

١٥- قوة تعاليمه القاسية الصارمة- إشارة هنا إلى سلسلة «محاكاة القرآن» (١٨٢٤).

١٦- وانظروا أيضاً إلى قصته «الليالي المصرّية» - الحديث عن قصته ذات العنوان «الليالي المصرية» عام (١٨٣٥).

١٧- ألم يولد هو نفسه في المذود- إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني: «فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى، وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد، فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل».

حول إحدى أهم المسائل:

١- لقد نطقتم بكلمة مهمة «التنوير» - يقصد هنا مقالة آ. د. غرادوفسكي «الأحلام والواقع» المنشورة في ٢٥ يونيو/ حزيران ١٨٨٠ في صحيفة اغولوس- الصوت- كرد على حديث دوستويفسكي عن بوشكين. «بصورة أو بأخرى، مرت مئتا سنة ونحن نقع تحت تأثير التنوير من المنبع الأوربي، بسبب غياب المصدر الروسي البديل».

٢- «يا قوّة الرب كوني معنا» - صلاة أرثوذكسية.

٣-... - ضمن بعض التجمعات القديمة تشكلت مدارس- «محو الأميّة» يتم فيها تعليم قراءة النصوص الكنسيّة باللغة السلافية.

٤- ربي يا مالك أحشائي» - بداية صلاة من كتابةُ المقدّس يفريم سيريني (القرن الرابع)، واحد من آباء الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. ومؤلف مهم للكثير من الأعمال الكنسيّة الأدبية المبكرة.

٥- «في ذلك الوقت الذي كان فيه الآخرون يغسلون أيديهم بالدم».

اقتباس غير دقيق من قصيدة ن. أ. نيكراسوف، «فارس لساعة» - ١٨٦٢: «[...] يدفئون أيديهم بالدماء».

٦- له شكل الوحوش وطباعَةُ- هذا التعبير مأخوذ من رؤيا القديس يوحنّا، الإصحاح ١٢.

٧- «Chacun Pour Soi Et Dieu Pour Tous» أو «Apres Moi Le Deluge» - كتب/ دوستويفسكي «كل لأجل نفسه، والله لأجل الجميع» أو «ومن بعدي الطوفان»: في يوميات الكاتب» عام ١٨٧٧: «في هذا، الفكرة الأساسية للبرجوازية التي حلت محل النظام الإقطاعي السابق لها».

النصفان:

١- الرسول بولس- يعتبر أهم الرسل، «معلم الكون»، وذلك بفضل خدماته الجليّ للرسالة المسيحية، ويقع ترتيبه بعد الرسول بطرس وإلى جانبه. وهو مؤلف ١٤ رسالة دخلت في العهد الجديد. لم يعرف المسيح، وهو حي على الأرض، وبعد اضطهاد المسيحيين الأوائل، آمن بالمسيحيّة فور ظهور يسوع المسيح له.

٢- كوروبوتشكا وسوباكيفيتش- من أبطال رواية «الأنفس الميتة» للكاتب الروسي ن. ف. غوغول.

٣- ماريّا المصريّة- في الحكايات المسيحيّة، إنها كانت امرأة عاهرة، ثم آمنت بالمسيح وقضت حياتها متعبدة في الصحراء (حوالي القرن الخامس).

٤- كيلبر وكانت- كانت إيمانويل (١٧٢٤-١٨٠٤) - فيلسوف ألماني، مؤسس الفلسفة الكلاسيكيّة الألمانية.

٥- تكونت القومية اليهوديّة بعد قانون موسى فقط [...] والقوميّة الإسلاميّة ظهرت بعد القرآن فقط[أ]- موسى: وفق التوراة والإنجيل هو

أ- هنا يقع دوستويفسكي في خلط بين مفهومي القومية والعقيدة الدينية مع أن الفلاسفة المعاصرين كانوا قد حددوا تمايز هذين المفهومين / المترجم/

الرسول الأوّل للإله يهوه ومؤسس ديانته، مشّرع، مرشد ديني وقائد سياسي للعشائر اليهودية زمن خروجها من مصر إلى سيناء ثم أرض كنعان (فلسطين)[أ].

القرآن- يقصد القرآن الكريم المنزل على النبي محمد (ص).

٦- المثال الأعلى تكون تحت الأرض- كان المسيحيون الأوائل الفارون من الاضطهاد يختبئون في مغارات وكهوف تحت الأرض.

٧- أبولون بيلفيد يرسكي- نصب إغريقي قديم معروف، يمثل إله الفن أبولون (منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، للفنان ليوخر).

كانون الثاني الجذر الأول- التعطش للحقيقة وضرورة التهدئة شيئانِ مفيدانِ - لرجال المال

١- بعد المرحلة الأولى لوسطاء الدعوة الأولى...- وسطاء دوليون- وظيفة للنبلاء أُسست بهدف تطبيق الإصلاحات الفلاحيّة في المناطق ١٨٦١.

وسطاء الدعوة الأولى (١٨٦١-١٨٦٣): كان يجب عليهم تنفيذ العمل الأساسي في تخطيط الأرض وإعداد «سندات التمليك النظاميّة». استمّر معهد الوسطاء الدوليين حتى عام ١٨٧٤.

٢- اقرؤوا ولو ما كتب في مجلة «روس» - يقصد دوستويفسكي هنا المقالات الافتتاحية لأكساكوف ي. س والمقالات الهجائية لبافلوف ن. ن (١٨٣٦-١٩٠٦) (وهو كاتب ومؤرّخ وصحفي ذو توجّه سلافي)، في مجلّة «روس».

كان دوستويفسكي مؤلف يوميات الكاتب يقيّم هذهِ المقالات إيجابياً، وهي مقالات تطرح أفكاراً متنوعة حول الإصلاحات الفلاحية عام ١٨٦١،

أ- هذا الكلام وفق الأسطورة اليهودية / المترجم/

والعلاقة المشتركة بين المثقفين والشعب، وحول أهميّة إصلاحات بطرس الأوّل لروسيا وتقيين دوستويفسكي الخاص لهذهِ الإصلاحات، التي عبّر عنها في يوميّات الكاتب عام ١٨٨١.

٣- «سيأتي زمن [...] لا تصدقوا»: يقصد دوستويفسكي هنا ما قاله السيد المسيح «أيام المعاناة» أيام أنصار «المسيح الكذّاب» قُبيل الظهور الثاني: «إذا قال أحد حينها: المسيح «هنا» أو «هناك» لا تصدقوا» (إنجيل متّى الإصحاح ١٣).

٤- ليس عنده سوى الله والقيصر - «إن لدى الشعب فكرتين: أولاً - الأرثوذكسية - ثانياً: القيصر طاغية ومستبداً، ولا يفهم خوفَ القيصرية منه بحيث لا يعطيه حقّه في الحريّة المدنية [...] يجب أن نستوعب هذهِ الأفكار، وإذا لم يفهما البعض فهذا لا يعني غباء تلك الأفكار، بل غباء الرؤوس التي لا تفهمها» (من دفتر عمل الكاتب. لعامي ١٨٧٥-١٨٧٦)

٥- «العالم كله لا يتسع لهذه الكتب» - إعادة صياغة للشعر الإنجيلي الختامي «أشياء أخرى كثيرة حققها المسيح، فإذا أردنا الكتابة بالتفصيل عن ذلك، أعتقد أن العالم كلّه لا يتسع للكتب المكتوبة» (إنجيل يوحنّا. الإصحاح ٢١)

فليبدؤوا هم القول، وسننتحي نحن جانباً لا لشيء إلا لندرب عقلنا ووعينا

١- لننتح جانباً بسلام (...) ولهدف تربوي بحت- قال دوستويفسكي هذا الكلام في معرض إجابته أحد قرائه المهمين وهو آ. ف. بلا غونرافوف، عام ١٨٨٠، ومما كتبهُ يوم ذلك: «المجدُ للفلاح»، المجد لروسيا الأرثوذكسية- هذا هو جوهرُ جذورنا الأساسية [...] الشيء الأهم الآن: كي يكون

باستطاعتنا جعل مثقفينا يوافقون على فكرتنا هذه؟ جرب أن تجهر بها: سيأكلونك أو سيعتبرونك خائناً» (الأعمال الكاملة الجزء ٣٠ الكتاب ١).

لقد اعتبرَ دوستويفسكي أن الفئة المثقفة الروسية قد انفصلت أثناء تطورها عن جذورها القومية الواقعية؛ إن الشعب- وعلى الرغم من الفقر المدقع والعبودية- استطاع أن يحافظ على نفسه، وبالتالي فالمواجهة القائمة مُهلكة للبلد.

«[...] لا يستطيع المثقفُ أن يقول شيئاً صائباً عن الشعب، لكنه قادرٌ أحياناً على إدهاشه، وفي نهاية المطاف، قريباً جداً سيخرجه من نفسه، وينتهي الأمرُ عند ذلك الحد» (دفتر عمل الكاتب ١٨٨٠-١٨٨١).

٢- ما الذي يمكن أن يكون أسمى «...» من الانصهار الروحي لفئات الشعب؟

إن الانصهار الروحي لفئات الشعب في بعضها، وعدم الانفصال المأساوي للفئة المثقفة عن الشعب، هما- حسب رأي الكاتب- الخطوة المهمة والأساس لانبعاث روسيا: «إنني أعرف أنه لا يوجد أسمى من هذه الفكرة، وقد أتبعكم وأسير خلفكم فيما لو قدّمتم شيئاً أفضل، لكنني حتى هذه اللحظة لا أرى منكم ما يشجع [...]».

(دفتر عمل الكاتب ١٨٧٦- ١٨٧٧).

هوامش الباب الثالث
من
«دفتر عمل الكاتب»

١٨٦٣-١٨٦٥

١- ماشا تسترخي على الكرسي. هل سأرى ماشا من جديد- هذه العبارات كتبت بعد موت زوجة الكاتب الأولى م. د. دوستوفيسكايا (توفيت في ١٥ نيسان ١٨٦٤ بالسلّ).

٢- إن تاريخ البشرية [...] للوصول إلى هذا الهدف- سيعود دوستويفسكي في أيامه الأخيرة كثيراً إلى هذه الفكرة. وقد كتب في «دفتر عمل الكاتب» عام ١٨٧٥-١٨٧٦: «[...] ليس تقدم العقل وتطوره والضرورة هي الأشياء التي تطمئن الناس بل الاعتراف الأخلاقي بالنموذج السامي للجمال، الذي يعتبر مثالاً أعلى للجميع، والذي يذهل الجميع أمامه ويطمئنون، هذه هي الحقيقة التي يتحد الناس باسمها ويشرعون بالعمل للوصول إليها، إلى الجمال».

٣- «لا يتزاوجون، ولا يعتدي بعضهم على بعضهم الآخر، كالملائكة يعيشون» - من أنجيل متى، الإصحاح ٢٢: «يوم القيامة لا يتزوجون، ولكن يعيشون كملائكة الرب في السماوات».

٤- المسيح الضد- ظهر على الأرض قبل الظهور الثاني للمسيح».

٥- (تعاليم عن السيف) - من إنجيل متى، الإصحاح ١٠: «لا تظنوا أنني أتيت لأحمل السلام إلى العالم، ليس السلام ما أتيت أحمله، بل السيف، لقد أتيت لأفصل الإنسان عن والده، والبنت عن أمها [...]».

٦-... (في بيت أبي في مثواي الأخير، معان كثيرة) - إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٤: «لا تقلقوا، آمنوا بالرب وآمنوا بي، في بيت أبي، مثواي الأخير، الكثير وإن لم يكن كذلك فسأقول لكم: إنني ذاهب لأجهز مكاناً لكم».

٧- أما تعاليم الفلسفة الحقيقة «...» الله، الحياة الأبدية-

في مراحل متأخرة كتب دوستويفسكي في «دفتر عمل الكاتب» لعام ١٨٧٧: «إن المسيحية هي البرهان على أن الإنسان يمكن أن يتسع للرب. هي فكرة عظيمة. ومجد عظيم، يمكن للإنسان أن يبلغه».

٨- ديكارت رينيه (١٥٩٦-١٦٥٠) فيلسوف، ورياضي، وفيزيائي، وفيزيولوجي فرنسي.

بيكون فرنسيس (١٥٦١-١٦٢٦) - فيلسوف إنكليزي، مؤسس المادّية الإنكليزية.

٩- هذه مسودة لمقالة غير منشورة، وهي موجودة في الفصل الرابع من «دفتر عمل الكاتب- عام ١٨٦٤/ ١٨٦٥»، وفيها يمكن أن نجد بداية النظرية الفلسفية والتاريخية والاجتماعية لدوستويفسكي (في أعوام ١٨٦٠-١٨٧٠).

في المسودة يتوقف الكاتب بالتفصيل عند قضايا الدين بصفته «الصيغة السامية للأخلاق».

١٠- ليس غاية الاشتراكية أبعد من ملء البطون- هذه العبارة يمكن أن تكون صادرة عن دوستويفسكي كردة فعل على خطابات محددة للديمقراطيين الثوريين عام ١٨٦٣، على سبيل المثال: بيساريوف في: «مقالات من تاريخ العمل». زايتسوف: «ملاحظات على كتاب ميليشوت ي.»، «تعاليم عن الطعام». إلا أنّ المعنى الذي يذهب إليه دوستويفسكي أعمق من ذلك،

وهو مؤسس على عدم اتفاق الكاتب مع الأسس العامة لوجهات النظر المادية الإلحادية.

١١- «روسيا الفتية» - المقصود هنا بالمعنى الواسع: ممثّلو الحركة الديمقراطية الاشتراكية في روسيا.

١٢-... سوف يعمل ضمن مصلحته الخاصة «...» attrayant- في هذه الكلمات: جدل خفي مع منطق «الأنانية العقلانية» لـ تشير نيشيفسكي و دوبرولوبوف.

نظرية «الأنانية العقلانية» (نظرية «حساب المنافع»)، وهي نظرية أخلاقية تقوم على المبدأ التالي: إن المفهوم الصحيح للمصلحة الشخصية يجب أن يتوافق مع المصلحة الاجتماعية. «المنفعة» الشخصية كدافع للتصرف- وفق هذه النظرية- يجب أن تكون متشبعة بالمحتوى الاجتماعي، الذي يعني العلاقات الإنسانية الثقافية والفكريّة والعاطفية. المتطورة في إبداعات الديموقراطية الثوريين الروس.

١٣- لا تصدقوا أبو كاليبس (رؤيا يوحنا اللاهوتي) - يقصد دوستويفسكي ما ضمته الرؤيا من تحذير من ظهور المسيح الضد (الكذّاب).

١٨٧٥-١٨٧٢

١- الاشتراكية، هي نفسها المسيحية- أنصار «الاشتراكية المسيحيّة» - تيار سياسي ديني خاص ظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد اعتبر هذا التيار المسيحيّة مصدراً أولاً للأفكار الاشتراكية.

٢-... في عام ١٨٧٢ احتفل في روسيا بالذكرى المئوية الثانية لميلاد بطرس الأوّل.

١٨٧٦-١٨٧٥

١- تذكروا ديدرو وفولتير وعصرهما- ديدرو ديني (١٧١٣-١٧٨٤) فيلسوف فرنسي مادي، وكاتب، ومنظر للبرجوازية الفرنسيّة في القرن الثامن عشر.

٢- الإنجيل كتاب لا يهزم- انظر دفتر عمل الكاتب ١٨٧٥/ ١٨٧٦- «الإنجيل كتاب للجميع، للمؤمنين والملحدين على حد السواء. هو كتاب الإنسانية [...]».

٣-.. بغض النظر عن المخلصين والمصلحين والكلاب- المقصود هنا الجمعيّة الروسية لحماية الحيوانات التي دعت إلى الرفق بهذه الكائنات.

٤- ولكن لسنا بحاجة لتكسير الكراسي- اقتباس غير دقيق من مسرحية المفتش لغوغول (١٨٣٦).

١٨٧٧-١٨٧٦

١- لكنها تعرف فقط حب الإنسانية جمعاء، وأنموذج السيد المسيح- نوه ليونتف ك. ن. - عند انتقاده وجهات النظر الفلسفية الدينية لدوستويفسكي- بأن الكاتب ينقصه «الشعور الصوفي» مقابل وفرة في «المثاليّة الإنسانية» (مقالة «عن الحب العالمي» - ١٨٨٠)، وأشار ليونتف إلى نقاط الانفصال بين دوستويفسكي والأرثوذكسيين التقليديين.

في دفتر عمل الكاتب لعام ١٨٧٦-١٨٧٧ توجد الملاحظة التالية: «المعتقدات الصوفية والثقافية- لم أعطكم أيّ اعتقاد صوفي، إنكم تعتبرون الحب الإنساني هو الاسمي، وهذا لأنكم لا تعرفون جوهر

المسألة. أنا لا أحدد الأرثوذكسية كمعتقدات صوفية، بل كمعتقدات محبة الإنسان، وإنني سعيد بذلك [...]».

٢- سالت خلالها مياه كثيرة- طبعة أخرى للفصل الأول، في العدد الرابع من كانون الأوّل ١٨٧٦، يوميات الكاتب.

٣- بعد ذلك انقطاع في النص.

٤- المسألة الشرقية. - مادة تمهيدية ليوميات الكاتب لعام ١٨٧٧- أيلول الفصل الثاني.

١٨٨٠-١٨٨١

١- مقطع من مواد تحضيريّة وليوميات الكاتب» عام ١٨٨٠/ الفصل الثالث.

٢- فيرخوف ب. (١٨٢١-١٩٠٢)، مختص في علم الأمراض، ألماني الأصل، ناشط اجتماعي، عضو أجنبي في أكاديمية بطرسبرغ عام ١٨٨١.

أحد مؤسسي الحزب التقدمي الليبرالي البرجوازي وقادته، وقد تغير اسم هذا الحزب إلى «حزب المفكرين الأحرار».

٣- آمن بما شئت هذا هو قانوننا- مقبوس من إنجيل يوحنّا، الإصحاح ٢٠: «يقول يسوع له: أنت آمنت لأنك شاهدتني. ولكن طوبى لمن آمن بي دون أن يراني». (انظر دفتر عمل الكاتب: عام ١٨٧٥، ١٨٧٦: «فوما آمن لأنه أراد أن يؤمن»)

٤- كافيلين ك. د. (١٨١٨-١٨٨٥) مؤرخ روسي، وكاتب وناشط اجتماعي ليبرالي.

٥- من دفتر عمل الكاتب ١٨٨٠-١٨٨١: «لا يكفي أن تحدد الأخلاق بالإخلاص لقناعاتك. لكن يجب أيضاً أن تحرض في نفسك دائماً السؤال

التـالي: هـل قناعـاتي صـحيحة؟، واختبـار ذلـك بطريقـة واحـدة- بالمـسيح، المسألة هنا ليست فلسفةً ولكن إيماناً.

٦- ماذا ستقول الآن الأميرة ماريا ألكسيفيا- مقبوس غير دقيق من «المـصيبة مـن العقـل» للكاتـب الروســي آ. س. غريبـو يـدوف (١٧٩٥-١٨٢٩).

الفهرس

من «يوميات الكاتب»

من «دفتر عمل الكاتب»

عودة الإنسان

هذا الكتاب رحلة كشف فني وفلسفي في الإنسان... في جوهره المثالي... في قدره التاريخي ومصيره... في حاضره ومستقبله.

تدهشنا عظمة الأفكار واندفاعها... أفكار قلقة، باحثة، جامحة وعصية.

يسحرنا غوصه العميق في العالم الإنساني الكبير، المسكون بالتضاد، الضاج بالصرعات، مؤسساً لعالم روحي ودنيوي مركزه الإنسان... الإنسان الفاقد كماله، المتشظي بين النفور وعدم الانسجام، اللاهث دائما وراء الحرية.

هذا الكتاب إبحار عذب في أدب «دوستويفسكي» الذي يعد من أهم القمم الأدبية، ومن أولئك الذين لا يموتون ويستطيعون بعث العالم بالكلمة، والذي قيل فيه:

«إنه المبارك من الرب كي يكشف أمام العالم أسرار الإنسان.»

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد الكتروني ala-addin@mail.sy